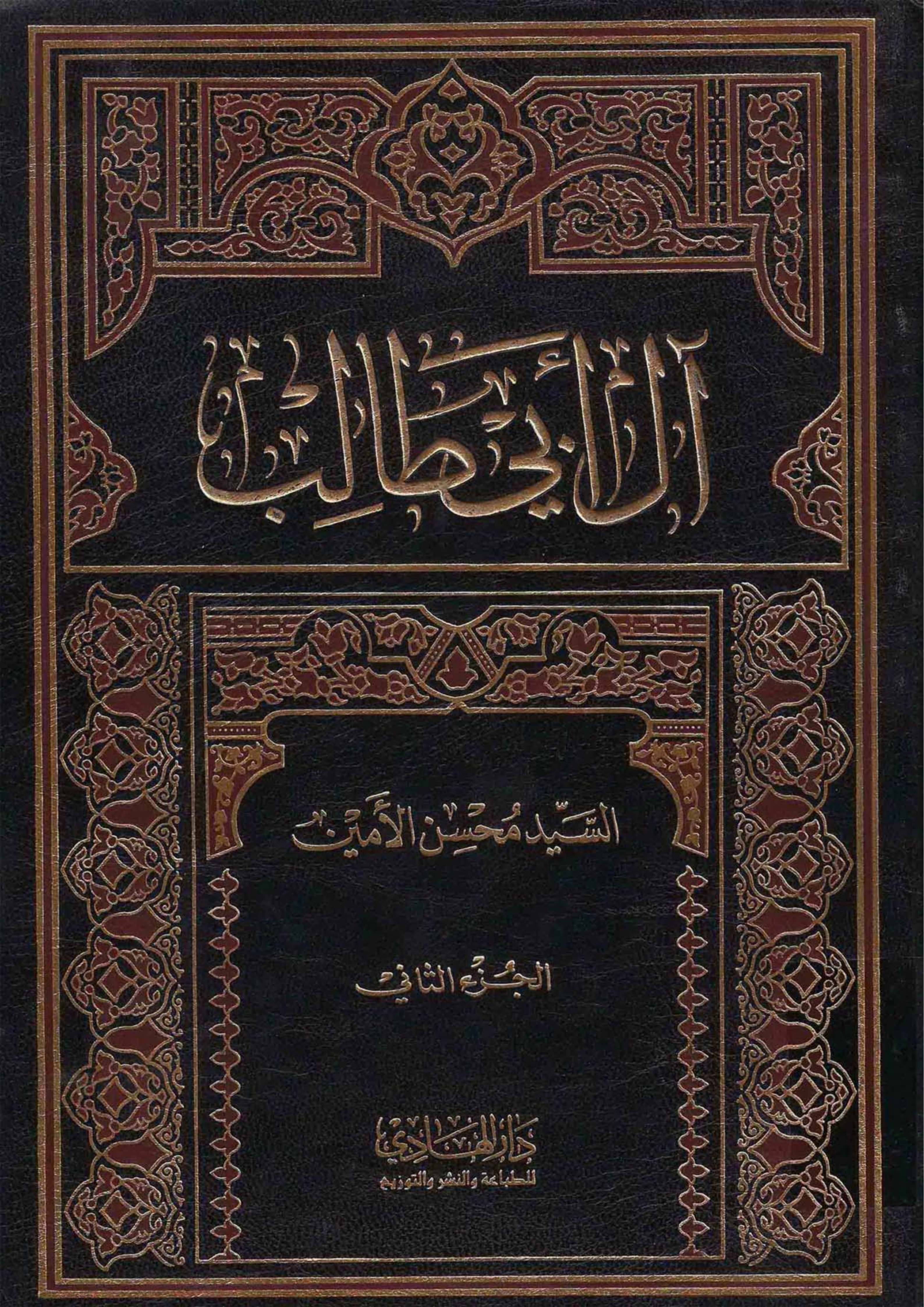

آل أبي طالب
السيد محسن الأمين
الجزء الثاني
دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع


شبكة الفكر
alfeker.net

آل أبي طالب


بسم الله الرحمن الرحيم

آل أبي طالب

أبو طالب، حمزة بن عبد المطلب،
عقيل بن أبي طالب، جعفر بن أبي طالب،
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)،
فاطمة الزهراء (ع)، الحسنان (ع)،
دول حسنية ودول حسينية

— الجزء الثاني —

أبو طالب، إلى إرسال أمير المؤمنين (ع) عماله إلى الأمصار

السيد محسن الأمين

مضافاً إليه أبحاث أخرى

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

حرب الجمل

في جمادى الثانية سنة ٣٦. في شرح النهج: روى المدائني في كتاب الجمل قال: لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة وبلغ قتله إليها وهي بسرف فلم تشك في أن طلحة هو صاحب الأمر وقالت: بعداً لعثمان وسحقاً أيه ذا الأصبع أيه أبا شبل أيه يا ابن عم لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له حثوا الإبل ودعدعوها قال: وقال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي في كتابه إن عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة أقبلت مسرعة وهي تقول: إيه ذا الأصبع لله أبوك أما إنهم وجدوا طلحة لها كفوا فلما انتهت إلى سرف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي فقالت له: ما عندك؟ قال: قتل عثمان قالت: ثم ماذا قال: ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار بايعوا علياً فقالت: لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا ويحك انظر ماذا تقول قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين فولولت فقال لها: ما شأنك يا أم المؤمنين والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ولا أحق ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته قال: فما ردت علي جواباً قال: وقد روي من طرق مختلفة أنه لما بلغها قتله وهي بمكة قالت: أبعده الله قال: وروى قيس بن أبي حازم إلى أن قال: ثم أمرت برد ركائبها إلى

مكة ورأيتها في مسيرها إلى مكة تخاطب نفسها قتلوا ابن عفان مظلوماً فقلت لها: يا أم المؤمنين ألم أسمعك آنفاً تقولين أبعده الله وقد رأيتك قبل أشد الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً فقالت: لقد كان ذلك ولكني نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً في شهر حرام فقتلوه.
وقال ابن الأثير إن عائشة كانت خرجت إلى مكة وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة قال الطبري فيما رواه بسنده وذكره ابن الأثير أيضاً فلما كانت بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له: عبيد أو عبد بن أبي سلمة وهو ابن أم كلاب فقالت له مهيم[1] قال قتل عثمان وبقوا ثمانياً قالت: ثم صنعوا ماذا قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز اجتمعوا على بيعة علي فقالت: ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ردوني ردوني فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه فقال لها: ولم والله إن أول من أمال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها ابن أم كلاب:

منك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرء ... يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها ... وما من وفى مثل من قد غدر

فدخلت مكة وقصدت الحجر فتسترت فيه فاجتمع الناس حولها فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد

---

(١) مهيم بوزن مريم كلمة يراد بها السؤال والاستفهام.

استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لإصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء (أي يغسل) فقال عبد اللّه بن عامر الحضرمي وكان عامل عثمان على مكة: ها أنا أول طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة إلى مكة بعد قتل عثمان ورفعوا رؤوسهم وتبعهم سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وسائر بني أمية وقدم عليهم عبد اللّه بن عامر بن كريز من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم فأناخ بالأبطح. وروى الطبري بسنده عن عبيد بن عمر القرشي قال: قدم عليها مكة رجل يقال له: أخضر فقالت: ما صنع الناس فقال: قتل عثمان المصريين قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون أيقتل قوماً جاؤوا يطلبون الحق وينكرون الظلم والله لا نرضى. ثم قدم آخر فقالت: ما صنع الناس قال: قتل المصريون عثمان قالت: العجب لأخضر زعم أن المقتول هو القاتل. وطلب طلحة والزبير من علي أن يوليهما المصرين البصرة والكوفة فقال: بل تقيما معي فإني لا أستغني عن رأيكما وقيل استشار ابن عباس فلم يشر به قال ابن أبي الحديد: فاستأذناه في العمرة فقال لهما: ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث البيعة يريدان وما رأيهما غير العمرة قال: فأعيدا البيعة لي ثانية فأعاداها بأشد ما يكون من الإيمان والمواثيق فأذن لهما فلما خرجا قال: والله لا ترونهما إلا في فتنة يقتلان فيها قالوا: يا أمير المؤمنين فمر بردهما عليك قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة فقالت: ما وراءكما فقالا: إنا تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم فأمرتهم عائشة بالخروج إلى المدينة فقالوا: نأتي الشام فقال ابن عامر: قد كفاكم الشام معاوية فائتوا البصرة فإن لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى قالوا: قبحك

الله فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكفى بك ثم نأتي الكوفة فتسد على هؤلاء القوم المذاهب فاستقام الرأي على البصرة وقال لها طلحة والزبير: نأتي أرضاً قد ضاعت منا وصارت إلى علي وسيحتجون علينا ببيعتنا له ويتركوننا إلا أن تخرجي فتأمري بمثل ما أمرت في مكة. وكان علي عليه السلام بعث إلى عبد الله بن عمر كميلا النخعي فجاء به فدعاه إلى الخروج معه فقال: إنما أنا من أهل المدينة فإن يخرجوا أخرج وإن يقعدوا أقعد قال: فاعطني كفيلاً قال: لا أفعل فقال له علي: لولا ما أعرف من سوء خلقك صغيراً وكبيراً لأنكرتني دعوه فأنا كفيله وخرج ابن عمر من تحت ليلته إلى مكة فدعوه ليسير معهم فأبى. وجاءت عائشة إلى أم سلمة فطلبت إليها أن تخرج معها إلى البصرة مع علمها بميل أم سلمة إلى علي وظنها القوي بأنها لا تجيبها إلى ذلك لكن حب الشيء والحرص عليه يدعو إلى التوسل لحصوله ولو بالأمور المستبعد حصولها.

عن المفيد في كتاب الاختصاص عن محمد بن علي بن شاذان عن أحمد بن يحيى النحوي أبي العباس ثعلب عن أحمد بن سهل عن يحيى بن محمد بن إسحق بن موسى عن أحمد بن قتيبة عن عبد الحكم القتيبي عن أبي كيسبة ويزيد بن رومان قالا: لما أجمعت عائشة على الخروج إلى البصرة أتت أم سلمة وكانت بمكة فقالت: يا ابنة أبي أمية كنت كبيرة أمهات المؤمنين وكان رسول الله ﷺ يقمؤ[1] في بيتك وكان يقسم لنا في بيتك وكان ينزل عليه الوحي في بيتك قالت لها: يا ابنة أبي بكر لقد زرتني وما كنت زوارة ولأمر ما تقولين هذه المقالة قالت: إن ابني[2] وابن أختي[3] أخبراني أن الرجل قتل مظلوماً وأن

(١) قمأ كجمع وكرم قال أبو العباس ثعلب يقمؤ في بيتك يعني يأكل ويشرب، وفي النهاية قمأت بالمكان دخلته وأقمت به، وفي القاموس قمأت الإبل بالمكان أقامت به لخصبه فسمنت وتقمأ المكان وافقه فأقام به، وفي الفائق يقمؤ إلى المنزل يدخل ومنه اقتمى الشيء إذا جمعه.

(٢) الظاهر أن يقرأ بتشديد الياء ويراد بهما طلحة والزبير وإرادة أحدهما لا وجه لها لكن ينافيه قولها أخبراني بألف الاثنين ولعله تحريف والصواب أخبروني.

(٣) هو عبد الله بن الزبير لأن أمه أسماء بنت أبي بكر.

بالبصرة مائة ألف سيف يطاوعون فهل لك أن أخرج أنا وأنت لعل الله يصلح بنا بين فئتين متناجزتين أو قالت: متناحرتين فقالت: يا ابنة أبي بكر أبدم عثمان تطلبين فلقد كنت أشد الناس عليه وإن كنت لتدعينه بالنبز أم أمر ابن أبي طالب تنقضين فقد بايعه المهاجرون والأنصار إنك سدة[1] بين رسول الله ﷺ وبين أمته وحجابه مضروب على حرمه[2] وقد جمع القرآن ذيلك[3] فلا تندحيه[4] وسكن (وسكني خ ل) عقيراك[5] فلا تضحي[6] بها أو فلا تصحريها الله من وراء هذه

---

(١) السدة بضم السين وفتح الدال المشددة الباب. في النهاية في حديث أم سلمة أنها قالت لعائشة: لما أرادت الخروج إلى البصرة إنك سدة بين رسول الله ﷺ وأمته أي باب فمتى أصيب ذلك الباب بشيء فقد دخل على رسول الله ﷺ في حريمه وحوزته واستفتح ما حماه لا تكوني أنت سبب ذلك بالخروج. وفي الفائق: تريد إنك من رسول الله ﷺ بمنزلة سدة الدار من أهلها فإنك نابك أحد بنائبة أو نال منك نائل فقد ناب رسول الله ﷺ ونال منه فلا تعرضي بخروجك أهل الإسلام لهتك حرمة رسول الله ﷺ.

(٢) بضم الحاء وفتح الراء جمع حرمة وهو كالمفسر لقولها أنت سدة الخ. وفي الفائق وحجابك مضروب على حرمته.

(٣) جمع الذيل كناية عن الستر وعدم التبرج وإسناد ذلك إلى القرآن مجاز باعتبار أنه أمر فيه بما يقتضي ذلك بقوله تعالى: يدنين عليهن من جلابيبهن وقرن في بيوتكن ولا تبرجن.

(٤) في القاموس ندحه كمنعه وسعه ومنه قول أم سلمة لعائشة قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه أي لا توسعيه بخروجك إلى البصرة «اهـ» وفي النهاية ندحت الشيء إذا وسعته وفي حديث أم سلمة قالت لعائشة قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه أي لا توسعيه وتنشريه. أرادت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ «اهـ» وفي تاج العروس ويروى لا تبدحيه بالباء أي لا تفتحيه من البدح وهو العلانية أرادت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ وقال الأزهري من قاله بالباء ذهب إلى البداح وهو ما اتسع من الأرض ومن قاله بالنون ذهب به إلى الندح وهو السعة اهـ ومنه المندوحة.

(٥) في النهاية: سكن عقيراك أي أسكنك بيتك وسترك فيه فلا تبرزيه وهو اسم مصغر مشتق من عقر الدار قال القتيبي (هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة صاحب كتاب غريب الحديث) لم أسمع بعقيري إلا في هذا الحديث وقال ثعلب سكني عقيراك مقامك وبذلك سمي العقار لأنه أصل ثابت وعقر الدار أصلها وعقر المرأة وفي الفائق العقيري كأنها تصغير العقري فعل من عقر إذا بقي في مكانه لا يتقدم ولا يتأخر فزعاً أو أسفاً أو خجلاً وأصله من عقرت به إذا أطلت حبسه كأنك عقرت راحلته فبقي لا يقدر على البراح أرادت نفسها أي سكني نفسك التي صفتها وحقها أن تلزم مكانها ولا تبرح بيتها واعملي بقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

(٦) قال ثعلب: فلا تضحي بها قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي لا تبرز للشمس قالها النبي ﷺ لرجل محرم أضح لمن أحرمت له أي اخرج إلى البراز والموضع =

الأمة[1] قد علم رسول الله ﷺ مكانك ولو أراد أن يعهد إليك علت علت[2] بل قد نهاك رسول الله ﷺ عن الفراطة أو الفرطة[3] في البلاد. إن عمود الإسلام لا ترأبه النساء إن انثلم ولا يشعب بهن إن انصدع[4] حماديات النساء[5] غض الأطراف[6]

= الظاهر المنكشف من الأغطية والستور «اهـ» وفي رواية الفائق فلا تصحريها قال: اصحر أي خرج إلى الصحراء وأصحر به غيره وقد جاء هنا معدى على حذف الجار وإيصال العمل اهـ ويوشك أن يكون تصحريها مصحف تضحي بها وإن أتحد المعنى.

(١) أي محيط بهم وحافظ لهم وعالم بأحوالهم كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾.

(٢) علت كقلت أي جرت في هذا الخروج وعدلت عن الصواب والعول الميل والجور. قال تعالى: ذلك أدنى ألا تعولوا. ومن الناس من يرويه علت بكسر العين أي ذهبت في البلاد وأبعدت السير يقال: عال فلان في البلاد أي ذهب وأبعد ومنه قيل للذئب عيال. وفي النهاية: في حديث أم سلمة قالت لعائشة: لو أراد رسول الله ﷺ أن يعهد إليك علت أي عدلت عن الطريق وملت وقيل جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه أي فعل، وعلت كلام مستأنف «اهـ» ولكن الموجود في الفائق لو أراد أن يعهد إليك عهد علت علت مكرراً وكل هذا يدل على أن جواب الشرط غير موجود في الحديث وما يوجد في بعض الكتب من ذكره بلفظ عهد أو فعل إصلاح من النساخ فالمتعين أن يكون جواب لو محذوفاً أي لفعل أو لعهد كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي لكان هذا القرآن.

(٣) الفراطة التقدم على القوم في السير وقال ثعلب الفراطة في البلاد السعي والذهاب وفي رواية الفائق وابن قتيبة الفرطة بدون ألف قال في الفائق الفرطة والفروطة التقدم وفي النهاية في حديث أم سلمة قالت لعائشة: إن رسول الله ﷺ نهاك عن الفرطة في الدين يعني السبق والتقدم ومجاوزة الحد ﷺ لكن الذي في الفائق وغيره الفرطة في البلاد ثم قال في النهاية الفرطة بالضم اسم للخروج والتقدم وبالفتح المرة الواحدة «اهـ» وقال ابن أبي الحديد أي عن السفر والشخوص من الفرط وهو السبق والتقدم ورجل فارط إلى الماء أي سابق.

(٤) في رواية الفائق لا يثأب بالنساء إن مال ولا يرأب بهن إن صدع ثم قال: أثابه إذ قَوَّمَهُ وهو منقول من ثاب إذا رجع لأنه رجع بالمائل إلى الاستقامة «اهـ» وفي النهاية الرأب الجمع والشد ومنه حديث أم سلمة لعائشة لا يرأب بهن إن صدع «اهـ» والصدع الشق والشعب بمعنى الرأب.

(٥) أي الصفات التي تحمد منهن في الغاية. في الفائق يقال: حماداك أن تفعل كذا أي قصارك وغاية أمرك الذي تحمد عليه «اهـ».

(٦) في الفائق هكذا أورده القتيبي وفسر الأطراف بجمع طرف وهو العين ويدفعه أن الأطراف في جمع طرف لم يرد به سماع بل قال الخليل إن الطرف لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر طرف إذا حرك جفونه في النظر ولأنه غير مطابق لخفر الأعراض ولا أكاد أشك أنه تصحيف والصواب غض الأطراق (أي بالقاف) والمعنى أن يغضضن من أبصارهن مطرقات أي راميات بأبصارهن إلى الأرض ويتخفرن من السوء معرضات عنه «اهـ» ولا يبعد أن يكون الأطراف جمع طرف بالتحريك وغض الأطراف جمعها.

وخفر الأعراض[1] وقصر الوهازة[2] وما كنت قائلة لو أن رسول الله ﷺ عرض لك (عارضك خ ل) ببعض الفلوات وأنت ناصة[3] قلوصاً من منهل إلى آخر أن يعين الله مهواك[4] وعلى رسوله تردين وقد وجهت سدافته[5] وتركت عهيداه[6] أقسم بالله لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه علي. إجعلي حصنك بيتك ووقاعة[7] الستر قبرك حتى تلقيه وأنت على ذلك أطوع ما تكونين لله ما لزمته[8] وأنصر ما تكونين للدين ما جلست عنه. ثم قالت: لو ذكرتك من رسول الله ﷺ خمساً في علي لنهشت بها نهش الرقشاء المطرقة[9] ....

---

(١) الخفر شدة الحياء والإعراض جعله الزمخشري في الفائق بالكسر مصدر أعرض ويمكن أن يكون جمع عرض وهو الجسد يقال: فلان طيب العرض أي طيب ريح الجسد.

(٢) في الفائق الوهازة الخطو يقال: هو يتوهز ويتوهس إذا وطىء وطئاً ثقيلاً وقال ابن الأعرابي: الوهازة مشي الخفرات «اهـ».

(٣) في الفائق نص الناقة دفعها إلى السير وفي النهاية النص التحريك حتى يستخرج أقصى سير الناقة وأصل النص أقصى الشيء وغايته ثم سمي به ضرب من السير سريع ومنه حديث أم سلمة لعائشة ما كنت قائلة لو أن رسول الله ﷺ عارضك ببعض الفلوات ناصة قلوصاً من منهل إلى منهل أي دافعة لها في السير «اهـ» ومنه حديث منصوص أي مرفوع.

(٤) هويك والهوي الانحدار في السير.

(٥) في الفائق وروي سجافته والسدافة الستارة وتوجيهها هتكها وأخذ وجهها كقولك لأخذ قذى العين تقذية قال العجاج: يصف جيشاً (يوجه الأرض ويستاق الشجر) أو تغييرها وجعلها لها وجهاً غير الوجه الأول.

(٦) في الفائق العهيدي من العهد كالجهيدي والعجيلي من الجهد والعجلة يقال: لأبلغن جهيداي في هذا الأمر وهو يمشي العجيلي.

(٧) في الفائق وقاعة الستر موقعه على الأرض إذا أرسلته وروي وقاعة الستر أي وساحة الستر وموضعه.

(٨) في الفائق الضمير للستر والمعنى أطوع أوقات كونك وأنصرها وقت لزومك ووقت جلوسك «اهـ» فاطوع مبتدأ وما بعده خبر.

(٩) في الفائق لو ذكرتك قولاً تعرفينه نهشته نهش الرقشاء المطرق الرقشاء الأفعى «اهـ» وفي رواية ابن قتيبة لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة والظاهر أن ما في الفائق تحريف من الناسخ والصواب نهشت به وهو بالبناء للمفعول أي لعضك ونهشك ما أذكره لك وأذكرك به كما تنهشك أفعى أي لكانت حالتك ـ حالة من نهشته أفعى وخصت الرقشاء لأنها من أخبث الحيات قال النابغة:

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع

والأفعى توصف بالإطراق وكذلك الأسد والنمر والرجل الشجاع قال الشاعر يصف أفعى:

أصم أعمى ما يجيب الرقى ... من طول إطراق وإسبات

ذات الخبب[1]. أتذكرين إذ كان رسول الله ﷺ يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً فأقرع بينهن فخرج سهمي وسهمك فبينا نحن معه وهو هابط من قديد ومعه علي يحدثه فذهبت لتهجمي عليه فقلت لك: رسول الله معه ابن عمه ولعل له إليه حاجة فعصيتني ورجعت باكية فسألتك فقلت بأنك هجمت عليهما فقلت له: يا علي إنما لي من رسول الله ﷺ يوم من تسعة أيام وقد شغلته عني فأخبرتني أنه قال لك: أتبغضينه فما يبغضه أحد من أهلي ولا من أمتي إلا خرج من الإيمان أتذكرين هذا يا عائشة؟ قالت: نعم. قالت: ويوم تبدلنا[2] لرسول الله ﷺ فلبست ثيابي ولبست ثيابك فجاء رسول الله ﷺ فجلس إلى جنبك فقال: أتظنين يا حميراء إني لا أعرفك أما أن لأمتي منك يوماً مراً أو يوماً أحمر أتذكرين هذا يا عائشة؟ قالت: نعم، قالت: ويوم كنت أنا وأنت مع رسول الله ﷺ فجاء أبوك وصاحبه يستأذنان فدخلنا الخدر فقالا: يا رسول الله إنا لا ندري قدر مقامك فينا فلو جعلت لنا إنساناً نأتيه بعدك قال: أما إني أعرف مكانه وأعلم موضعه ولو أخبرتكم به لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن عيسى ابن مريم فلما خرجا خرجت إليه أنا وأنت وكنت جريئة عليه فقلت: من كنت جاعلاً لهم فقال: خاصف النعل وكان علي بن أبي طالب يصلح نعل رسول الله ﷺ إذا تخرقت ويغسل ثوبه إذا اتسخ فقلت: ما أرى إلا علياً فقال: هو ذاك أتذكرين هذا يا عائشة؟ قالت: نعم، ما أقبلني لوعظك وأسمعني لقولك فإن أخرج ففي غير حرج وإن أقعد ففي غير بأس وحرج، فخرج رسولها فنادى في الناس من أراد أن يخرج فإن أم المؤمنين غير خارجة فدخل عليها عبد اللّه بن الزبير فنفث في أذنها وفتلها في الذروة والغارب فخرج رسولها ينادي من أراد أن يسير فليسر فإن أم المؤمنين خارجة فلما كان من ندمها أنشأت أم سلمة تقول:

لو كان معتصماً من زلة أحد ... كانت لعائشة الرتبى على الناس

---

(١) الخبب الخبث كما في تاج العروس عن ابن الأعرابي.

(٢) بالدال المهملة وفسره ما بعده.

كم سنة لرسول اللّه ذاكرة وتلو - آي من القرآن مدراس
قد ينزل اللّه من قوم عقولهم حتى يكون الذي يقضي على الناس
فيرحم اللّه أم المؤمنين لقد كادت تبدل إيحاشاً بإيناس

وروى الطبرسي في الاحتجاج محاورة أم سلمة مع عائشة بطريقين نحواً مما ذكرناه من أرادهما فليرجع إليه والطريق الثاني عن الصادق عليه السلام وأورد الأبيات بتفاوت فقال:

لو كن معتصماً من زلة أحد كانت لعائشة الرتبى على الناس
من زوجة لرسول الله فاضلة وذكر آي من القرآن مدراس
وحكمة لم تكن إلا لهاجسها في الصدر تذهب عنها كل وسواس
يستنزع الله من قوم عقولهم حتى يمر الذي يقضي على الراس
ويرحم الله أم المؤمنين لقد تبدلت بي إيحاشا بإيناس

فقالت لها عائشة شتمتني يا أخت فقالت لها أم سلمة ولكن الفتنة إذا أقبلت غطت على البصيرة وإذا أدبرت أبصرها العاقل والجاهل اهـ. وأورد ابن أبي الحديد في شرح النهج هذه المحاورة نقلاً عن أبي مخنف نحو ذلك.

وطلبوا من حفصة المسير معهم إلى البصرة فأجابتهم فمنعها أخوها عبد الله بن عمر. وجهزهم يعلى بن منية بالستمائة بعير والستمائة ألف درهم التي معه وجهزهم ابن عامر بمال كثير. قال ابن الأثير: ونادى مناديها أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن أراد إعزاز الإسلام وقتل المحلين والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير. وأعطى يعلى بن منية عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بثمانين ديناراً فركبته وقيل اشتروه من رجل من عرينة أعطوه ناقة لها مهرية وزادوه أربعمائة أو ستمائة درهم. وساروا في ستمائة وقيل تسعمائة وقيل ألف من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان ومروان بن الحكم وسائر بني أمية. قال الطبري وأمرت على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فكان يصلي بهم في الطريق والبصرة حتى قتل.

قال فتركت الطريق ليلة وتيامنت عنها كأنهم سيارة ونجعة مساحلين لم يدن أحد منهم من المنكدر ولا واسط ولا فلج حتى أتوا البصرة في عام خصب وتمثلت:

دعي بلاد جموع الظلم إذ صلحت فيها المياه وسيري سير مذعور
تخيري النبت فارعي ثم ظاهرة وبطن واد من الضمار ممطور

وبعثت أم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب بكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام تخبره الخبر مع رجل من جهينة اسمه ظفر استأجرته على أن يطوي المنازل فأتاه بكتابها. فلما جازوا بئر ميمون إذا هم بجزور قد نحرت ونحرها يثعب فتطيروا. وإذن مروان حين فصل من مكة ثم جاء فقال على أيكما أسلم بالأمرة وأؤذن بالصلاة فقال عبد الله بن الزبير على أبي عبد الله وقال محمد بن طلحة على أبي محمد فأرسلت عائشة إلى مروان أتريد أن تفرق أمرنا، ليصل ابن أختي فكان يصلي بهم عبد الله بن الزبير، ومرَّ أنها أمرت غيره، فكان بعضهم يقول لو ظفرنا لاقتتلنا. وروى الطبري بسنده عن المغيرة بن الأخنس قال لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق فقال أين تذهبون وثاركم على أعجاز الإبل (قال ابن الأثير يعني عائشة وطلحة والزبير) اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم لا تقتلوا أنفسكم قالوا بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً. وإلى ذلك يشير مهيار بقوله في لاميته الطويلة:

وللقتيل يلزمون دمه - وفيهم القاتل - غير من قتل

فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال: إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر؟ قالا: لأحدنا أينا اختاره الناس. قال: بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه. قالا: ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم قال: فلا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف فرجع ورجع معه جماعة. قال الطبري. وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق فبكوا على الإسلام فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم فكان يسمى يوم النحيب «اهـ» ولم يبين أنهم لماذا تبعوها ومن أي شيء بكوا على الإسلام. ولما بلغ علياً عليه السلام نكث طلحة والزبير

بيعته واجتماعهم مع عائشة على التأليب عليه خطب بالمدينة على ما في إرشاد المفيد ناسباً له إلى حفظ العلماء عنه فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإن الله بعث محمداً للناس كافة وجعله رحمة للعالمين فصدع بما أمر به وبلغ رسالات ربه فلمّ به الصدع ورتق به الفتق وآمن به السبل وحقن به الدماء وألف به بين ذوي الأحن والعداوة والوغر في الصدور والضغائن الراسخة في القلوب ثم قبضه الله إليه حميداً وكان من بعده ما كان من التنازع في الأمرة فتولى أبو بكر وبعده عمر ثم تولى عثمان فلما كان من أمره ما عرفتموه أتيتموني فقلتم بايعنا فقلت لا أفعل فقلتم بلى فقلت لا وقبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم فجذبتموها حتى تداككتم علي تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى ظننت أنكم قاتلي وأن بعضكم قاتل بعضاً فبسطت يدي فبايعتموني مختارين وبايعني في أولكم طلحة والزبير طائعين غير مكرهين ثم لم يلبثا أن استأذناني في العمرة والله يعلم أنهما أرادا الغدرة فجددت عليهما العهد في الطاعة وأن لا يبغيا الأمة الغوائل فعاهداني ثم لم يفيا لي ونكثا بيعتي ونقضا عهدي فعجباً لهما من انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما لي ولست بدون أحد الرجلين ولو شئت أن أقول لقلت اللهم احكم عليهما بما صنعا في حقي وصغرا من أمري وظفرني بهما. وحكى ابن أبي الحديد في شرح النهج عن أبي مخنف في كتاب الجمل أن علياً خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة فقال: أيها الناس إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه أما طلحة فابن عمها وأما الزبير فختنها والله لو ظفروا بما أرادوا ولن ينالوا ذلك أبداً ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة إلا في معصية الله وسخطه حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة، إلى أن قال: ورب عالم قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه حسبنا الله ونعم الوكيل فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية أين المحتسبون أين المؤمنون مالي ولقريش أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين وما لنا إلى عائشة من

ذنب إلا أنا أدخلناها في حيزنا. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته فقل لقريش فلتضج ضجيجها، ثم نزل. قال ابن الأثير: ولما بلغ علياً خروجهم إلى العراق دعا وجوه أهل المدينة فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم. فتثاقلوا فلما رأى زياد بن حنظلة تثاقلهم قال له: من تثاقل عنك فإنا نخف معك فنقاتل دونك. وقام رجلان صالحان من أعظم الأنصار أبو الهيثم بن التيهان وهو بدري وخزيمة بن ثابت قيل ذو الشهادتين وقيل غيره لأن ذا الشهادتين مات أيام عثمان فأجابا إلى نصرته وقال أبو قتادة الأنصاري لعلي يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ قلدني هذا السيف وقد أغمدته زماناً وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لا يألون الأمة غشاً وقالت أم سلمة يا أمير المؤمنين لولا أن أعصي الله وأنك لا تقبله مني لخرجت معك وهذا ابني عمر وهو والله أعز علي من نفسي يخرج معك ويشهد مشاهدك فخرج معه ولم يزل معه واستعمله على البحرين. واستخلف علي على المدينة تمام بن العباس وقيل سهل بن حنيف وعلى مكة قثم بن العباس، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين في سبعمائة رجل وهو يرجو أن يدركهم فيردهم قبل وصولهم إلى البصرة أو يوقع بهم وسار من المدينة في تعبيته التي تعباها لأهل الشام آخر ربيع الأول سنة ٣٦ حتى انتهى إلى الربذة فأتاه الخبر بأنهم سبقوه.

قال المفيد: لما نزل أمير المؤمنين عليه السلام الربذة لقيه بها آخر الحاج فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه، وهو في خبائه، قال ابن عباس: فأتيته فوجدته يخصف نعلاً فقلت له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا إلى ما تصلح فلم يكلمني حتى فرغ من نعله ثم ضمها إلى صاحبتها وقال لي: قومهما، فقلت: ليس لهما قيمة، قال: على ذاك، قلت: كسر درهم قال: والله لهي أحب إلي من أمركم هذا إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً. قلت: إن الحاج قد اجتمعوا ليسمعوا من كلامك فتأذن لي أن أتكلم فإن كان حسناً كان منك وإن كان غير

ذلك كان مني قال: لا، أنا أتكلم، ثم وضع يده على صدري وكان شنن الكفين فآلمني ثم قام فأخذت بثوبه وقلت نشدتك الله والرحم، (كأنه خاف أن يتكلم بما ينفر الحاج) قال: لا تنشدني ثم خرج فاجتمعوا عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله بعث محمداً وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة فساق الناس إلى منجاتهم أما والله ما زلت في ساقتها ما غيرت ولا بدلت ولا خنت حتى تولت بحذافيرها ما لي ولقريش أما والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين وإن مسيري هذا عن عهد إلي فيه أما والله لأبقرن الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا وأنشد:

أدمت لعمري شربك المحض خالصاً ... وأكلك بالزبد المقشرة البجرا
ونحن وهبناك العلاء ولم تكن ... علياً وحطنا دونك الجرد والسمرا

وأرسل علي (ع) إلى المدينة فأتاه ما يريد من دابة وسلاح وأتاه وهو بالربذة جماعة من طيء فقيل له: هذه جماعة قد أتتك منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك قال جزى الله كلهيما خيراً وفضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعلى الميمنة عبد الله بن العباس وعلى الميسرة عمر بن أبي سلمة وعلي على ناقة حمراء يقود فرساً كميتاً حتى نزل بفيد فأتته أسد وطيء فعرضوا عليه أنفسهم فقال إلزموا قراركم في المهاجرين كفاية.

وسارت عائشة ومن معها حتى مروا بماء يدعى الحوأب فنبحتهم كلابه فقالوا أي ماء هذا؟ قيل هذا ماء الحوأب، فصرخت عائشة بأعلى صوتها ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم قالت: والله صاحبة كلاب الحوأب طرقوا، ردوني تقولها ثلاثاً، فأناخت وأناخوا حولها يوماً وليلة فقال لها عبد الله بن الزبير إنه كذب وجاؤوا لها بأربعين رجلاً وقيل بخمسين من الأعراب رشوهم فشهدوا أن هذا ليس بماء الحوأب. قال أبو مخنف فقال لها قائل: مهلاً يرحمك الله فقد جزنا ماء الحوأب قالت فهل من شاهد فلفقوا لها خمسين أعرابياً جعلوا

لهم جعلاً فحلفوا لها أن هذا ليس بماء الحوأب فسارت «اهـ» وكانت أول شهادة زور أقيمت في الإسلام: وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن أم سلمة قالت ذكر النبي ﷺ خروج بعض أمهات المؤمنين فضحكت عائشة فقال: انظري يا حميراء أن لا تكوني أنت (الحديث) وبسنده عن قيس بن أبي حازم لما بلغت عائشة بعض ديار بني عامر نبحت عليها الكلاب فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: الحوأب قالت: ما أظنني إلا راجعة فقال الزبير: لا تقدمي ويراك الناس ويصلح الله ذات بينهم قالت: ما أظنني إلا راجعة سمعت رسول الله ﷺ يقول كيف بإحداكن إذا نبحتها كلاب الحوأب. قال الطبري ولم يزل بها عبد الله بن الزبير وهي تمتنع فقال لها النجاء النجاء قد أدرككم علي بن أبي طالب فارتحلوا نحو البصرة فلما كانوا قريباً منها أرسلت عبد الله بن عامر بن كريز الذي كان أميراً على البصرة من قبل عثمان وله فيها صنائع فاندس إلى البصرة وكتبت إلى الأحنف بن قيس وجماعة من وجوه البصرة وأقامت بالحفير تنتظر الجواب ولما بلغ ذلك عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي (ع) أرسل إليها عمران بن حصين وكان رجل عامة وأبو الأسود الدؤلي وكان رجل خاصة فانتهيا إليها بالحفير فأذنت لهما فدخلا وسلما وسألاها عن مسيرها فقالت: ما مثلي يغطي لبنيه الخبر إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه وآووا المحدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل المسلمين بلا ترة ولا عذر فسفكوا الدم الحرام وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء وما الناس فيه وراءنا وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القصة وقرأت: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ (الآية) فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ومنكر ننهاكم عنه. فخرجا من عندها وأتيا طلحة فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان قالا: ألم تبايع علياً قال بلى والسيف على عنقي وما استقبل علياً البيعة إن لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان فأتيا الزبير فقالا له مثل ذلك فأجابهما بمثل قول طلحة ورجعا إلى عثمان، ونادى مناديها بالرحيل، فدخلا على عثمان فقال أبو الأسود:

يا ابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئماً وشمر

فقال عثمان: إنا لله وإنا إليه راجعون دارت رحى الإسلام ورب الكعبة، فقال عمران: لتعركنكم عركاً طويلاً، قال: فأشر علي، قال: اعتزل فإني قاعد، قال: بل إمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين، فانصرف عمران إلى بيته وقام عثمان في أمره.

وقال أبو مخنف: لما انتهت عائشة وطلحة والزبير إلى حفر أبي موسى قريباً من البصرة أرسل عثمان بن حنيف عامل علي على البصرة إلى القوم أبا الأسود الدؤلي يعلم له علمهم فجاء حتى دخل على عائشة فسألها عن مسيرها قالت: أطلب بدم عثمان قال: إنه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد قالت: صدقت ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم فقال لها: ما أنت من السوط والسيف إنما أنت حبيس رسول الله ﷺ أمرك أن تقري في بيتك وتتلي كتاب ربك وليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء وأن علياً لأولى بعثمان منك أمس رحماً فإنهما ابنا عبد مناف قالت: لست منصرفة حتى أمضي لما قدمت له أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي قال: أما والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد ثم قام فأتى الزبير فقال: يا أبا عبد الله عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذ بقائم سيفك تقول لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب وأين هذا المقام من ذاك؟ فذكر له دم عثمان فقال: أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا قال: فانطلق إلى طلحة فاسمع ما يقول فذهب إلى طلحة فوجده مصراً على الحرب والفتنة فرجع إلى عثمان بن حنيف قال إنها الحرب فتأهب لها فأتاه هشام بن عامر فخوفه عاقبة الحرب وقال ارفق بهم وسامحهم حتى يأتي أمر علي فأبى ونادى عثمان في الناس وأمرهم بلبس السلاح فاجتمعوا إلى المسجد وأمرهم بالتجهيز وأراد عثمان أن يعرف ما عند الناس فدس إليهم رجلاً خدعاً كوفياً قيسياً فقام فقال أيها الناس إن هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إن كانوا جاؤوكم

خائفين فقد أتوا من بلد يأمن فيها الطير وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلته فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا فقام الأسود بن سريع السعدي فقال: إنما أتوا يستعينون بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فحصبه الناس فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً فكسره ذلك وأقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المربد وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يكون معها ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه وتكلم طلحة فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله وما استحل منه ودعا إلى الطلب بدمه وحث عليه وكذلك الزبير فقال أصحابهما صدقا وبرا وأمرا بالحق وقال أصحاب ابن حنيف فجرا وغدرا وأمرا بالباطل بايعا علياً ثم جاءا يقولان ما يقولان وتحاثى الناس وتحاصبوا وأرهجوا، فخطبت عائشة وكانت جهورية الصوت، فحمدت الله وقالت: كان الناس يتجنون على عثمان ويزرون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم فننظر في ذلك فنجده براً تقياً وفياً ونجدهم فجرة غدرة كذبة فلما قووا كاثروه واقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر، إلا مما ينبغي لا ينبغي لكم غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله، وقرأت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الآية) فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين: فرقة قالت صدقت وبرت؛ وقال آخرون كذبتم والله ما نعرف ما جئتم به فتحاثوا وتحاصبوا فلما رأت عائشة ذلك انحدرت ومال بعض أصحاب ابن حنيف إلى عائشة وبقي بعضهم معه. قال الطبري وابن الأثير: وأقبل جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنه قد كان ذلك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمك إنه من رأى قتالك يرى قتلك إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس. وخرج غلام من بني سعد إلى طلحة والزبير فقال: أرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما قالا: لا. قال: فما أنا منكم في شيء واعتزل وقال في ذلك:

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم   هذا لعمرك قلة الأنصاف

أمرت بجر ذيولها في بيتها فهوت تشق البيد بالإيجاف
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها بالنبل والخطي والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها هذا المخبر عنهم والكافي

وأقبل حكيم بن جبلة العبدي وهو على الخيل فانشب القتال وأشرع أصحاب عائشة رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم وأصحابه فلم ينته وحكيم يذمر خيله ويركبهم بها ويقول:

طعناً دراكاً إنها قريش ليردبنها جبينها والطبش

واقتتلوا على فم السكة وأشرف أهل الدور ممن كان له في واحد من الفريقين هوى فرموا الآخرين بالحجارة. وحجز الليل بينهم ورجع عثمان إلى القصر وأتى أصحاب عائشة إلى ناحية دار الرزق وباتوا يتأهبون وبات الناس يأتونهم واجتمعوا بساحة دار الرزق وأصبح عثمان بن حنيف فناداهم وغدا حكيم بن جبلة فاقتتلوا بدار الرزق قتالاً شديداً إلى الزوال وكثر القتل في أصحاب ابن حنيف وكثر الجراح في الفريقين فلما عضتهم الحرب تنادوا إلى الصلح وتوادعوا فكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة يسأل أهلها فإن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة خرج ابن حنيف عن البصرة وإلا خرج عنها طلحة والزبير وأرسلوا كعب بن سور إلى المدينة يسألهم فلم يجبه أحد إلا أسامة بن زيد فقال لم يبايعا إلا وهما كارهان، فأمر به تمام بن العباس فواثبه سهل بن حنيف والناس، وثار صهيب وأبو أيوب الأنصاري في عدة فيهم محمد بن مسلمة حين خافوا أن يقتل أسامة وأخذ صهيب أسامة إلى منزله ورجع كعب وبلغ علياً الخبر فبادر بالكتاب إلى عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل[1] فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظروا فقدم الكتاب على عثمان وقدم كعب بن سور فأرسلوا إلى عثمان ليخرج فاحتج بالكتاب وقال هذا أمر آخر غير ما كنا فيه

---

(١) يعني إن صح أنهما أكرها فلم يكرها على أمر قبيح كالفرقة حتى يتركا ما أكرها عليه ولو فرض الإكراه فهو على جماعة وفضل فليس لهما مخالفة ذلك وقد عرفت أنهما بايعا طائعين.

فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة ذات رياح وندى ومطر ثم قصد المسجد فوافيا صلاة العشاء وكانوا يؤخرونها فأبطأ عثمان بن حنيف فقدما عبد الرحمن بن عتاب فشهر الزط[1] والسبابجة[2] السلاح ثم وضعوه فيهم فأقبلوا عليهم فاقتتلوا في المسجد فقتلوا السبابجة وهم أربعون رجلاً فأدخلا الرجال على عثمان فأخرجوه إليهما فوطؤه بأقدامهم فأرسلوا إلى عائشة فقالت: أطلقوه وقيل: بل قالت اقتلوه فقالت لها امرأة: نشدتك الله في عثمان وصحبته لرسول الله ﷺ فقالت: احبسوه وقال لهم مجاشع بن مسعود أضربوه وانتفوا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه فضربوه أربعين سوطاً ونتفوا لحيته وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه ودخلوا القصر وأخرجوا منه الحرس الذين كانوا مع عثمان وكانوا يعتقبون حرس عثمان في كل يوم وفي كل ليلة أربعون. (قال الطبري) فيما رواه: كتبت عائشة لما قدمت البصرة إلى زيد بن صوحان بالكوفة: من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي فكتب إليها: من زيد بن صوحان إلى عائشة أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت بيتك وإلا فأنا أول من نابذك. قال زيد بن صوحان رحم الله أم المؤمنين أمرت أن تلزم بيتها وأمرنا أن نقاتل فتركت ما أمرت به وأمرتنا به وصنعت ما أمرنا به ونهتنا عنه.

وقيل في أخذ ابن حنيف غير هذا وهو أنه لما قدمت عائشة ومن معها البصرة قال لهم عثمان بن حنيف: ما نقمتم على صاحبكم؟ فقالوا: لم نره أولى بها منا وقد صنع ما صنع قال: فإن الرجل أمرني فاكتب إليه فاعلمه ما جئتم له على أن أصلي أنا بالناس حتى يأتينا كتابه فوقفوا عنه فكتب فلم يلبث إلا يومين أو ثلاثة حتى وثبوا على عثمان عند مدينة الرزق فظفروا به وأرادوا قتله ثم خشوا

---

(١) الزط جنس من السودان والهنود.

(٢) السبابجة بالبائين الموحدتين والجيم قال الجواهري: السبابجة قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة وحراس السجن. ـ المؤلف ـ.

غضب الأنصار فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه وضربوه وحبسوه وأصبح طلحة والزبير بعد أخذ ابن حنيف وبيت المال والحرس في أيديهما فجعلوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر والناس معهما ومن لم يكن معهما استتر، وقام طلحة والزبير خطيبين فقالا: يا أهل البصرة توبة لحربة إنما أردنا أن نستعتب أمير المؤمنين عثمان فغلب السفهاء الحلماء فقتلوه، فقال الناس لطلحة: يا أبا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا فقال الزبير: هل جاءكم مني كتاب في شأنه؟ ثم ذكر قتل عثمان وأظهر عيب علي فقام إليه رجل من عبد القيس فقال: يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك فضل ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم فلما توفي رسول الله ﷺ بايعتم رجلاً منكم فرضينا وسلمنا ولم تستأمرونا في شيء ثم مات واستخلف عليكم رجلاً فلم تشاورونا فرضينا وسلمنا فلما توفي جعل أمركم إلى ستة فاخترتم عثمان عن غير مشورتنا ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا ثم بايعتم علياً عن مشورة منا فما الذي نقمتم عليه فنقاتله هل استأثر بفيء أو عمل بغير الحق أو أتى شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه فهموا بقتل الرجل فمنعته عشيرته فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه وقتلوا منهم سبعين. وبلغ حكيم بن جبلة ما صنع بعثمان بن حنيف فقال: لست أخاف الله إن لم أنصره فجاء في جماعة من عبد القيس وبكر بن وائل وأكثرهم عبد القيس وتوجه نحو دار الرزق وبها طعام يرتزقه الناس فأراد عبد الله بن الزبير أن يرزقه أصحابه فقال عبد الله: مالك يا حكيم؟ قال نريد أن نرتزق من هذا الطعام وأن تخلوا عثمان فيقيم في دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم علي والله لو أجد أعواناً عليكم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من أخواننا. أما تخافون الله عز وجل بم تستحلون سفك الدماء؟ قال: بدم عثمان؛ قال فالذين قتلتم قتلوا عثمان؟ ما تخافون مقت الله؟ فقال له ابن الزبير: لا نرزقكم من هذا الطعام ولا نخلي سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً. قال حكيم: اللهم إنك حكم عدل فاشهد وقال لأصحابه: إني لست في شك من

قتال هؤلاء ونادى أصحاب عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا فأنا لا نريد إلا قتلة عثمان فانشب حكيم القتال ولم يرع للمنادي فاقتتلوا قتالاً شديداً ومع حكيم أربعة قواد فكان حكيم بحيال طلحة وذريح بحيال الزبير وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فزحف طلحة لحكيم وهو في ثلثمائة رجل وجعل حكيم يضرب السيف ويقول:

أضـــربــهــم بــالــيــابــس ضـــرب غـــلام عـــابـــس
مـــن الــحــيــاة آيــس فـــي الـــغــرفــات نــافــس

فضرب رجل ساق حكيم فقطعها فأخذ حكيم ساقه فرماه بها فأصاب عنقه فصرعه ووقذه ثم حبا إليه فقتله واتكأ عليه وقال:

يــا فـــخـــذ لا تــــراعـــي إن مــــعـــــي ذراعـــــي
أحــمــي بــهــا كــراعــي

وقال:

أقــول لــمــا جــد بــي زمــاعــي لــلــرجــل يــا رجــلــي لــن تــراعــي
إن مــعــي مــن نــجــدة ذراعــي

وقال:

لــيــس عــلــي أن أمــوت عــار والــعــار فــي الــنــاس هــو الــفــرار
والــمــجــد لا يــفــضــحــه الــدمــار

فأتى عليه رجل وهو رثيث رأسه على آخر، فقال: مالك يا حكيم؟ قال: قتلت قال: من قتلك؟ قال: وسادتي فاحتمله فضمه في سبعين من أصحابه فتكلم يومئذ حكيم وإنه لقائم على رجل واحدة وأن السيوف لتأخذهم فما يتعتع ويقول إنّا خلفنا هذين وقد بايعا علياً وأعطياه الطاعة ثم أقبلا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان بن عفان ففرقا بيننا ونحن أهل دار وجوار اللهم إنهما لم يريدا عثمان فقتل حكيم والسبعون الذين معه من عبد القيس وقتل مع حكيم ابنا

الأشرف وأبو الرعل بن جبلة واختلف في قاتل حكيم فقيل قتله رجل من الحدان يقال له ضخم وقيل قتله يزيد بن الأسحم الحداني فوجد حكيم قتيلاً بين يزيد بن الأسحم وأخيه كعب بن الأسحم وهما مقتولان فلما قتل حكيم أرادوا قتل عثمان بن حنيف فقال لهم: إن أخي سهلا وال على المدينة فإن قتلتموني قتل منكم فأطلقوه وقتل ذريح ومن معه وأفلت حرقوص بن زهير في نفر من أصحابه فلجأوا إلى قومهم، ثم صار حرقوص بعد ذلك من الخوارج وقتل يوم النهروان. فنادى منادي طلحة والزبير من كان فيهم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجيء بهم فقتلوا ولم ينج منهم إلا حرقوص بن زهير فإن عشيرته بني سعد منعوه فمسهم في ذلك أمر شديد وضربوا لهم فيه أجلاً وخشنوا صدور بني سعد مع أنهم عثمانية وغضبت عبد القيس حين غضبت سعد لمن قتل بعد الوقعة ومن كان هرب إليهم إلى ما هم عليه من لزوم طاعة علي، وأمر طلحة والزبير للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وفضلا أهل السمع والطاعة، فخرجت عبد القيس وكثير من بكر بن وائل حين منعوهم الفضول فبادروهم إلى بيت المال وأكب عليهم الناس فأصابوا منهم وخرجوا حتى نزلوا على طريق علي. وكتب طلحة والزبير إلى أهل الشام يخبرونهم بذلك ويحثونهم على النهوض فكان مما كتبوا به: إنّا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله فبايعنا خيار أهل البصرة وخالفنا شرارهم وقالوا فيما قالوا نأخذ أم المؤمنين رهينة إن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه وإننا نناشدكم الله في أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به. وكتبوا إلى أهل الكوفة وأهل اليمامة وأهل المدينة وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة تخبرهم بذلك وتأمرهم أن يثبطوا الناس عن علي وتحثهم على طلب قتلة عثمان فمما ذكرته في كتابها: أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله فأجابنا الصالحون واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح وعزم عليهم عثمان بن حنيف ألا قاتلوني حتى منعني الله عز وجل بالصالحين واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها فخافوا وغدروا وخانوا وحشروا. وكتبت إلى رجال بأسمائهم: فثبطوا الناس عن هؤلاء القوم ونصرتهم واجلسوا في بيوتكم فإن هؤلاء لم يرضوا بما صنعوا

بعثمان بن عفان وفرقوا بين جماعة الأمة وخالفوا الكتاب والسنة حتى شهدوا علينا بالكفر فأنكر ذلك الصالحون وقالوا ما رضيتم إن قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم إن أمرتكم بالحق لتقتلوها وأصحاب رسول الله وأئمة المسلمين فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً ندعوهم إلى الحق فغدروا وخانوا فغادروني في الغلس ليقتلوني والذي يحاربهم غيري فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي فوجدوا نفراً على الباب فدارت عليهم الرحى. وكتبت إلى أهل اليمامة وأهل المدينة. وكانت هذه الوقعة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين. وبايع أهل البصرة طلحة والزبير فقال الزبير: ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي ثم اقتله بياتاً أو صباحاً قبل أن يصل إلينا فلم يجبه أحد فقال: إن هذه للفتنة التي كنا نحدث عنها فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها.

وكان علي عليه السلام أرسل وهو بالربذة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة وكتب إليهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً وانهضوا إلينا فالإصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخواناً فقدما الكوفة وأتيا أبا موسى بكتاب علي وقاما في الناس بأمره فلم يجابا إلى شيء واستشار ناس من أهل الحجى أبا موسى فقال: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا فغضب محمد ومحمد وأغلظا لأبي موسى فلم ينجع فيه فانطلقا إلى علي فأخبراه الخبر وهو بذي قار. ولما نزل علي عليه السلام الثعلبية أتاه خبر عثمان بن حنيف فأخبر أصحابه وقال: اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين فلما انتهى إلى الأسآد أتاه خبر حكيم بن جبلة فقال:

دعا حكيم دعوة الزماع حل بها منزلة النزاع

فلما نزل بذي قار أتاه فيها عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة وقيل: أتاه بالربذة فقال: يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وقد جئتك أمرد فقال: أصبت أجراً وخيراً. قال المفيد: ولما نزل بذي قار أخذ البيعة على من حضره وتكلم فأكثر من الحمد لله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ ثم قال: قد جرت

أمور صبرنا عليها في أعيننا القذى تسليماً لأمر الله تعالى فيما امتحننا به ورجاء الثواب على ذلك وكان الصبر عليها أمثل من أن يتفرق المسلمون وتسفك دماؤهم نحن أهل بيت النبوة وعترة الرسول وأحق الخلق بسلطان الرسالة ومعدن الكرامة التي ابتدأ الله بها هذه الأمة وهذا طلحة والزبير وليسا من أهل النبوة ولا من ذرية الرسول حين رأيا أن الله قد رد علينا حقنا بعد أعصر لم يصبرا حولاً واحداً ولا شهراً كاملاً حتى وثبا على دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقي ويفرقا جماعة المسلمين عني. وأقام بذي قار ينتظر محمداً ومحمداً فأتاه الخبر بما لقيت ربيعة وخروج عبد القيس ونزولهم بالطريق كما تقدم فقال عبد القيس خير ربيعة وفي كل ربيعة خير وقال:

يا لهف ما نفسي على ربيعة ربيعة السامعة المطيعة
قد سبقتني فيهم الوقيعة دعا علي دعوة سميعة
حلوا بها المنزلة الرفيعة

وعرضت عليه بكر بن وائل فقال لها ما قال لطيء وأسد ولما جاءه محمد ومحمد وأخبراه خبر أبي موسى بذي قار قال للأشتر: أنت صاحبنا في أبي موسى اذهب أنت وابن عباس فأصلح ما أفسدت، وكان الأشتر أشار بإبقاء أبي موسى لما أراد أمير المؤمنين (ع) عزله، فأتيا الكوفة فكلما أبا موسى واستعانا عليه بنفر من أهلها فلم يكن من أبي موسى غير التثبيط، فقال في جملة كلامه: هذه فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب والراكب خير من الساعي فاغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار حتى تنجلي هذه الفتنة. وكان يكرر هذا الكلام ونحوه في كل مقام فرجعا إلى علي فأخبراه الخبر فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر وقيل: بل أرسلهما أولاً ثم أرسل الأشتر وابن عباس وهو الأقرب إلى الاعتبار فإن الحسن (ع) وعماراً شأنهما اللين والرفق والأشتر شأنه الشدة فلما لم يفد في أبي موسى الرفق استعملت الشدة وآخر الدواء الكي فأقبل الحسن وعمار حتى دخلا المسجد فلقيهما المسروق بن الأجدع فسلم وأقبل على عمار

فقال: يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان فجرى بينهما في ذلك حوار وخرج أبو موسى فضم الحسن إليه وجعل يكلم عماراً في قتل عثمان ويؤنبه فقال له الحسن: لم تثبط الناس عنا فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء؟ فقال: صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الراكب وقد جعلنا الله إخواناً وحرم علينا دماءنا وأموالنا**»، وتلا في ذلك آيات، قال الطبري فغضب عمار و ساءه وقال ابن الأثير وسبه وقال: «**يا أيها الناس إنما قال له خاصة أنت فيها قاعداً خير منك قائماً**» (أقول) العجب لأبي موسى يحتج بمثل هذا الذي لا حجة فيه ويغفل عن قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. وقام رجل من بني تميم فقال لعمار: اسكت أيها العبد أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار الناس ووقف زيد على باب المسجد ومعه كتابان من عائشة إليه وإلى أهل الكوفة وفيهما الأمر بملازمة بيوتهم أو نصرتها فقرأهما على الناس وقال: أمرت أن تقر في بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به فقال له شبث بن ربعي: يا عماني (لأنه من عبد القيس وهم يسكنون عمان) وعابه وتهاوى الناس وقام أبو موسى يسكن الناس ويثبطهم عن الخروج إلى علي (ع) بشتى الأفانين وبكلام طويل فقام زيد فشال يده المقطوعة فقال: يا عبد الله بن قيس رد الفرات على أدراجه أردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد فدع عنك ما لست مدركه ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ إلى آخر الآيتين ثم قال: سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق، وقال عبد الخير الخيواني: يا أبا موسى هل بايع طلحة والزبير علياً قال: نعم قال: هل أحدث علي ما يحل به نقض بيعته قال: لا أدري، قال: لا دريت، نحن نتركك حتى تدري، هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة، إنما الناس أربع

فرق علي بظهر الكوفة وطلحة والزبير بالبصرة ومعاوية بالشام وفرقة بالحجاز لا غناء بها ولا يقاتل بها عدو، قال أبو موسى: أولئك خير الناس وهي فتنة، فقال عبد الخير: غلب عليك غشك يا أبا موسى، وقال سيحان بن صوحان: أيها الناس لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس وهذا واليكم (يعني أمير المؤمنين (ع)) يدعوكم لتنظروا فيما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين فمن نهض إليه فإنّا سائرون معه وقام الحسن بن علي فقال: أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم وإن أمير المؤمنين يقول: قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر، فإن كنت مظلوماً أعانني وإن كنت ظالماً أخذ مني، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني وأول من غدر فهل استأثرت بمال أو بدلت حكماً فانفروا فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، فتسامع الناس وأجابوا. وأتى قوم من طيء عدي بن حاتم فقالوا: ماذا ترى وما تأمر؟ فقال: قد بايعنا هذا الرجل وقد دعانا إلى جميل وإلى هذا الحدث العظيم لننظر فيه ونحن سائرون وناظرون، فقام هند بن عمرو فقال: إن أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه فاسمعوا إلى قوله وانتهوا إلى أمره وانفروا إلى أميركم فانظروا معه في هذا الأمر وأعينوه برأيكم وقام حجر بن عدي فقال: أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين وانفروا خفافاً وثقالاً مروا وأنا أولكم فأذعن الناس للمسير (وعلى الرواية الأخرى) إن أمير المؤمنين أرسل الأشتر بعد ابنه الحسن وعمار إلى الكوفة فدخلها والناس في المسجد وأبو موسى يخطبهم ويثبطهم والحسن و عمار معه في منازعة وكذلك سائر الناس كما مر والحسن يقول له: اعتزل عملنا لا أم لك وتنح عن منبرنا فجعل الأشتر لا يمر بقبيلة فيها جماعة إلا دعاهم وقال: اتبعوني إلى القصر فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس فدخله وأخرج غلمان أبي موسى منه فخرجوا يعدون وينادون يا أبا موسى هذا الأشتر

قد دخل إلى القصر فضربنا وأخرجنا فنزل أبو موسى فدخل القصر فصاح به الأشتر: أخرج لا أم لك أخرج الله نفسك فوالله إنك لمن المنافقين قديماً. ذكره الطبري، فقال: أجلني هذه العشية فقال: هي لك ولا تبيتن في القصر الليلة. ودخل الناس ينهبون متاع أبي موسى فمنعهم الأشتر وقال: أنا له جار فكفوا. وقال الحسن: أيها الناس إني غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء في الماء فنفر معه تسعة آلاف أخذ في البر ستة آلاف ومائتان وأخذ في الماء ألفان وثمان مائة وقيل: إن عدد من سار من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل ويمكن كون الذين ساروا مع الحسن هم المذكورون والباقون ساروا بعد ذلك. روى الطبري في حديثه قال: حدثني عمر حدثنا أبو الحسن حدثنا أبو مخنف عن جابر عن الشعبي عن أبي الطفيل قال علي (ع): يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل فقعدت على نجفة ذي قار فأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً.

وروى الطبري قال: لما التقوا بذي قار تلقاهم علي في أناس فيهم ابن عباس فرحب بهم وقال: يا أهل الكوفة أنتم قاتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم فمنعتم حوزتكم وأعنتم الناس على عدوهم وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك الذي نريد وأن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بظلم ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله. وفي إرشاد المفيد: روى عبد الحميد بن عمران العجلي عن سلمة بن كهيل قال: لما التقى أهل الكوفة أمير المؤمنين (ع) بذي قار رحبوا به ثم قالوا: الحمد لله الذي خصنا بجوارك وأكرمنا بنصرك فقام أمير المؤمنين (ع) فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليهم وقال: يا أهل الكوفة إنكم من أكرم المسلمين وأقصدهم تقويماً وأعدلهم سنة وأفضلهم سهماً في الإسلام وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً أنتم أشد العرب وداً للنبي ﷺ وأهل بيته وإنما جئتكم ثقة بعد الله بكم للذي بذلتم من أنفسكم عند نقض طلحة والزبير وخلعهما طاعتي وإقبالهما بعائشة للفتنة وإخراجهما إياها من بيتها حتى

أقدماها البصرة فاستغووا طغامها وغوغاءها مع أنه قد بلغني أن أهل الفضل منهم وخيارهم في الدين قد اعتزلوا وكرهوا ما صنعا. فقال أهل الكوفة: نحن أنصارك وأعوانك على عدوك ولو دعوتنا إلى أضعافهم من الناس احتسبنا في ذلك الخير ورجوناه. فدعا لهم أمير المؤمنين (ع) وأثنى عليهم ثم قال: لقد علمتم معاشر المسلمين أن طلحة والزبير بايعاني طائعين غير مكرهين راغبين ثم استأذناني في العمرة فأذنت لهما فسارا إلى البصرة فقتلا المسلمين وفعلا المنكر، اللهم إنهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألبا الناس علي فاحلل ما عقدا ولا تحكم ما أبرما وأرهما المساءة فيما عملا «اهـ» واجتمعوا عنده بذي قار وعبد القيس بأسرها في الطريق بين علي والبصرة ينتظرونه وهم ألوف وكان رؤساء الكوفيين: القعقاع بن عمرو وسعد بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب وزيد بن صوحان والأشتر وعدي بن حاتم والمسيب بن نجبة ويزيد بن قيس وحجر بن عدي وأمثالهم. قال ابن الأثير: سأل علي جرير بن شرس عن طلحة والزبير فأخبره بدقيق أمرهما وجليله وقال له: أما الزبير فيقول: بايعنا كرهاً وأما طلحة فيتمثل الأشعار ويقول:

ألا أبلغ بني بكر رسولا ... فليس إلى بني كعب سبيل
سيرجع ظلمكم منكم عليكم ... طويل الساعدين له فضول

فتمثل علي عندها:

ألم تعلم أبا سمعان أنا ... نرد الشيخ مثلك ذا صداع
ويذهل عقله بالحرب حتى ... يقوم فيستجيب لغير داعي
فدافع عن خزاعة جمع بكر ... وما بك يا سراقة من دفاع

وسار علي (ع) من ذي قار ومعه الناس حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وسار من هناك فنزل الزاوية وسار من الزاوية يريد البصرة وسار طلحة والزبير وعائشة فالتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد فلما نزل الناس أرسل شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدي: أن اخرج، فإذا خرجت فمل بنا إلى عسكر علي. فخرجا في عبد القيس وبكر بن وائل فعدلوا إلى عسكر

علي وأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال فكان يرسل علي إليهم يكلمهم ويدعوهم، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ يوم الخميس قاله الطبري وابن الأثير، وفي مروج الذهب وكان مسير علي إلى البصرة سنة ٣٦ وفيها كانت وقعة الجمل وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها «اهـ».

وظاهر الطبري وابن الأثير أن وصوله كان بذلك التاريخ وظاهر المسعودي أن الوقعة كانت قبل ذلك التاريخ بخمسة أيام. و خرج إليه الأحنف بن قيس وبنو سعد مشمرين قد منعوا حرقوص بن زهير وهم معتزلون، قال ابن الأثير: وكان الأحنف قد بايع علياً بالمدينة بعد قتل عثمان لأنه كان قد حج وعاد من الحج فبايعه فقال لأمير المؤمنين: اختر مني واحدة من اثنتين إما أن أقاتل معك وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف قال: بل اكفف عنا عشرة آلاف سيف فاعتزل فلما كان القتال فظفر علي دخلوا فيما دخل فيه الناس وافرين. وروى الطبري قال: كانت ربيعة مع علي يوم الجمل ثلث أهل الكوفة ونصف الناس يوم الوقعة وكانت تعبيتهم مضر ومضر وربيعة وربيعة واليمن واليمن. وكان عسكر عائشة ثلاثين ألفاً وعسكر علي عشرين ألفاً وافترق أهل البصرة ثلاث فرق فرقة مع علي وفرقة مع عائشة وفرقة اعتزلوا. قال المفيد في الإرشاد ومن كلامه (ع) حين دخل البصرة وجمع أصحابه فحرضهم على الجهاد وكان مما قال: عباد الله انهدوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم بقتالهم فإنهم نكثوا بيعتي وأخرجوا ابن حنيف عاملي بعد الضرب المبرح والعقوبة الشديدة وقتلوا السبايجة وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي وقتلوا رجالاً صالحين ثم تتبعوا منهم من يحبني يأخذونهم في كل حائط وتحت كل رابية ثم يأتون بهم فيضربون رقابهم صبراً ما لهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. إنهدوا إليهم وكونوا أشداء عليهم والقوهم صابرين محتسبين تعلمون أنكم منازلوهم ومقاتلوهم وقد وطنتم أنفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران وأي امرىء منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى من أحد من إخوانه فشلاً فليذب عن أخيه الذي فضل عليه كما

يذب عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله. وخطب (ع) لما تواقف الجمعان فقال: لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم حجة أخرى وإذا قتلتموهم فلا تجهزوا على جريح وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القول والأنفس والعقول لقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها وعقبه من بعده. وروى الحاكم في المستدرك أيضاً أن عائشة كانت خطيبة القوم وهم لها تبع «اهـ».

فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه السلاح فقيل لعلي: هذا الزبير فقال: أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر الله أن يذكر وخرج طلحة فخرج إليهما علي فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال علي: لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دماءكما فهل من حدث أحل لكما دمي؟ قال طلحة: ألبت الناس على عثمان، قال علي: يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين، يا طلحة تطلب بدم عثمان؟ فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة جئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبأت عرسك أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي. قال الطبري وقال علي للزبير: أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلته؟ سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره، يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله ﷺ في بني غنم فنظر إلي فضحك وضحكت إليه فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه فقال لك: صه إنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت له ظالم فقال: اللهم نعم ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا والله لا أقاتلك أبداً. فانصرف علي إلى أصحابه فقال: أما الزبير فقد أعطى الله عهداً أن لا يقاتلكم ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا، قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أريد أن أدعهم وأذهب فقال له

ابنه عبد الله، جمعت بين هذين العسكرين حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب، لكنك خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية انجاد وإن تحتها الموت الأحمر فجبنت، فأحفظه ذلك وقال: إني حلفت أن لا أقاتله، قال: كفر عن يمينك وقاتله فأعتق غلامه مكحولاً فقال عبد الرحمٰن بن سليمان التميمي:

لم أر كاليوم أخا إخوان أعجب من مكفر الإيمان
بالعتق في معصية الرحمٰن

وقال رجل من شعرائهم:

يعتق مكحولاً لصون دينه كفارة لله عن يمينه
والنكث قد لاح على جبينه

وفي رواية: إن الزبير انصل سنان رمحه وحمل على عسكر علي برمح لا سنان له فقال علي: افرجوا له فإنه محرج ثم عاد إلى أصحابه ثم حمل ثانية ثم ثالثة ثم قال لابنه: أجبناً ويلك ترى؟ فقال: لقد أعذرت وقال الزبير:

نادى علي بأمر لست أنكره وكان عمر أبيك الخير مذ حين
فقلت حسبك من عذل أبا حسن بعض الذي قلت منذ اليوم يكفيني
ترك الأمور التي تخشى مغبتها لله أمثل في الدنيا وفي الدين
فاخترت عاراً على نار مؤججة أنى يقوم لها خلق من الطين

مقتل الزبير

فترك الزبير الحرب ولم يحارب مع علي وتوجه من فوره إلى وادي السباع قاصداً المدينة ومعه غلام له يدعى عطية، والأحنف بن قيس هناك معتزل في جمع من بني تميم، فقال الأحنف: جمع الزبير بين عسكرين من المسلمين حتى إذا ضرب بعضهم بعضاً لحق ببيته وقال: من يأتينا بخبره؟ فقال عمرو بن جرموز أنا، فاتبعه وكان فاتكاً فلما نظر إليه الزبير قال: ما وراءك قال: إنما أريد أن أسألك فقال غلام الزبير: إنه معد فقال: ما يهولك من رجل، وحضرت

الصلاة فقال ابن جرموز: الصلاة فقال الزبير: الصلاة فنزلا واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه فقتله وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه وخلى عن الغلام فدفنه بوادي السباع ورجع إلى الناس بالخبر.

فأما الأحنف فقال: والله ما أدري أحسنت أم أسأت؟ ثم انحدر إلى علي وابن جرموز معه وقيل: ذهب ابن جرموز إلى علي وحده فدخل عليه فأخبره فدعا بالسيف فهزه فقال: سيف طالما كشف به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، وفي رواية أنه قال له: أنت قتلته؟ قال: نعم، قال: والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً ولكن الحين ومصارع السوء، فقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار، ثم خرج ابن جرموز على علي (ع) مع أهل النهر فقتله معهم فيمن قتل (ذكره ابن أبي الحديد في شرح النهج).

وروى أبو مخنف أنه لما تزاحف الناس يوم الجمل قال علي (ع) لأصحابه لا يرمين رجل منكم بسهم ولا يطعنن أحدكم فيهم برمح حتى يبدؤوكم بالقتال وبالقتل فرمى أصحاب الجمل عسكر علي (ع) بالنبل رمياً شديداً متتابعاً فضج إليه أصحابه وقالوا: عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين، وجيء إليه برجل فقيل له: هذا فلان قد قتل، فقال: اللهم اشهد ثم قال: اعذروا إلى القوم. فأتي برجل آخر فقيل: وهذا قد قتل فقال: اللهم اشهد، اعذروا إلى القوم. ثم أقبل عبد اللّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو من أصحاب رسول الله ﷺ يحمل أخاه عبد الرحمٰن قد أصابه سهم فقتله فقال: يا أمير المؤمنين هذا أخي قد قتل، فاسترجع علي (ع) ودعا بدرع رسول الله ﷺ ذات الفضول فلبسها فتدلت على بطنه فرفعها بيده وقال لبعض أهله: فحزم وسطه بعمامة وتقلد ذا الفقار، ودفع إلى ابنه محمد راية رسول الله السوداء وتعرف بالعقاب، وقال لحسن وحسين عليهما السلام: إنما دفعت الراية إلى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله ﷺ قال: وطاف علي على أصحابه وهو يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ

ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ثم قال: أفرغ الله علينا وعليكم الصبر وأعزّ لنا ولكم النصر وكان لنا ولكم ظهيراً في كل أمر، ثم رفع مصحفاً بيده فقال: من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إلى ما فيه وله الجنة؟ فقام غلام شاب اسمه مسلم عليه قباء أبيض فقال: أنا آخذه، فنظر إليه علي وقال: يا فتى إن أخذته فإن يدك اليمنى تقطع فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ثم تضرب بالسيف ثم تقتل، فقال الغلام: لا صبر لي على ذلك فنادى علي ثانية فقام الغلام وأعاد عليه القول وأعاد الغلام القول مراراً حتى قال الغلام: أنا آخذه وهذا الذي ذكرت في الله قليل، فأخذه وانطلق فلما خالطهم ناداهم: هذا كتاب الله بيننا وبينكم فضربه رجل فقطع يده اليمنى فتناوله باليسرى فضربه آخر فقطع اليسرى فاحتضنه وضربوه بأسيافهم حتى قتل فقالت أم ذريح العبدية في ذلك:

يـا رب إن مـسـلـمـاً أتـاهـم ... بـمـصـحـف أرسـلـه مـولاهـم

لـلـعـدل والإيـمـان قـد دعـاهـم ... يـتـلـو كـتـاب الـلّـه لا يـخـشـاهـم

فـخـضـبـوا مـن دمـه ظـبـاهـم ... وأمـهـم واقـفـة تـراهـم

تـأمـرهـم بـالـغـي لا تـنـهـاهـم

فعند ذلك أمر علي (ع) ولده محمداً أن يحمل بالراية فحمل وحمل معه الناس واستحر القتل في الفريقين وقامت الحرب على ساق.

وروى الطبري في تاريخه هذه القصة بما يخالف ذلك بعض المخالفة فقال: أخذ علي مصحفاً يوم الجمل فطاف به في أصحابه وقال: من يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول فقام إليه فتى من أهل الكوفة عليه قباء أبيض محشو اسمه مسلم بن عبد اللّه فقال: أنا، فأعرض عنه ثم أعاده ثانياً، فقال الفتى: أنا، فأعرض عنه ثم أعاده الثالثة، فقال: أنا، فدفعه إليه فدعاهم فقطعوا يده اليمنى فأخذه بيده اليسرى فدعاهم فقطعوا يده اليسرى فأخذه بصدره وفي رواية بأسنانه والدماء تسيل على قبائه فقتل، فكان أول قتيل بين يدي أمير المؤمنين وعائشة، فقال علي: الآن حل قتالهم فقالت أم الفتى ترثيه:

لا هـم إن مـسـلـمـاً دعـاهـم   يـتـلـو كـتـاب الـلّـه لا يـخـشـاهـم
فـرمـلـوه رمـلـت لـحـاهـم

وفي رواية أخرى للطبري:

لا هـم أن مـسـلـمـاً أتـاهـم   مـسـتـسـلـمـاً لـلـمـوت إذ دعـاهـم
إلـى كـتـاب الـلّـه لا يـخـشـاهـم   فـرمـلـوه مـن دم إذ جـاهـم
وأمـهـم قـائـمـة تـراهـم   يـأتـمـرون الـغـي لا تـنـهـاهـم

واقتتل الناس وركبت عائشة الجمل المسمى عسكراً الذي كان إشتراه لها يعلى بن منية في مكة بمائتي دينار وألبسوا هودجها الرفرف وهو البسط ثم ألبس جلود النمر ثم ألبس فوق ذلك دروع الحديد وكان الجمل لواء أهل البصرة لم يكن لهم لواء غيره وخطبت عائشة والناس قد أخذوا مصافهم للحرب فقالت: أما بعد فإنا كنا نقمنا على عثمان ضرب السوط وإمرة الفتيان وموقع السحابة المحمية ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبكم فلما مصتموه كما يماص الثوب الرحيض عدوتم عليه فارتكبتم منه دماً حراماً وأيم الله إن كان لأحصنكم فرجاً وأتقاكم لله. وأخذ كعب بن سور وهو قاضي البصرة بخطام الجمل وجعل يرتجز ويقول:

يـا أمـنـا عـائـش لا تـراعـي   كـل بـنـيـك بـطـل الـمـصـاع
يـنـعـي ابـن عـفـان إلـيـك نـاعـي   كـعـب بـن سـور كـاشـف الـقـنـاع
فـارضـي بـنـصـر الـسـيـد الـمـطـاع   والأزد فـيـهـم كـرم الـطـبـاع

وكان أخذ مصحف عائشة فبدر به بين الصفين يناشدهم الله في دمائهم فرشقوه رشقاً واحداً فقتلوه وكان في الجاهلية نصرانياً وكان أول قتيل بين يدي عائشة من أهل البصرة والكوفة. واقتتلوا إلى صدر النهار وقيل: إلى الزوال ثم انهزم عسكر عائشة. قال الطبري: ضرب محمد بن الحنفية يد رجل من الأزد فقطعها فنادى: يا معشر الأزد فروا واستحر القتل في الأزد فنادوا نحن على دين علي بن أبي طالب وأقبل المنهزمون يريدون البصرة فلما رأوا الخيل أطافت

بالجمل عادوا إلى الحرب وكان القتال في صدر النهار مع طلحة والزبير وفي وسطه مع عائشة أكثرهم ضبة والأزد.

مقتل طلحة

أما طلحة فجاءه سهم غرب لا يدرى راميه عند هزيمة الناس فشك رجله بصفحة الفرس، وفي رواية فخل ركبته بالسرج وهو ينادي: إلي إلي عباد الله، الصبر الصبر، فقال له القعقاع بن عمرو: يا أبا محمد إنك لجريح وإنك عما تريد لفي شغل، فادخل البيوت، فدخل ودمه يسيل وهو يقول: اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى، وفي رواية: أعط عثمان مني حتى يرضى فلما امتلأ خفه دماً وثقل قال لغلامه أردفني وأمسكني وأبلغني مكاناً أنزل فيه لا أعرف فيه فلم أر كاليوم شيخاً أضيع دماً مني. فدخل البصرة فأنزله في دار خربة فمات فيها. قال ابن الأثير: وكان الذي رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره «اهـ» وكان ذلك منه أخذاً بثأر عثمان ولما قضى دفن في بني سعد وقال الطبري أنه لما دخل البصرة تمثل مثله ومثل الزبير:

فإن تكن الحوادث أقصدتني ... وأخطأهن سهمي حين أرمي
فقد ضيعت حين تبعت سهماً ... سفاهة ما سفهت وضل حلمي
ندمت ندامة الكسعي لما ... شريت رضا بني سهم برغمي
أطعتهم بفرقة آل لأي ... فالقوا للسباع دمي ولحمي

وحرضت عائشة الناس فحملت مضر البصرة حتى ردت مضر الكوفة وكانت راية علي (ع) يوم الجمل مع ولده محمد بن الحنفية فنخس قفاه وقال له: احمل فتقدم حتى لم يجد متقدماً إلا على سنان رمح فقال: تقدم لا أم لك فتلكأ فتناول الراية من يده وقال: يا بني بين يدي. (وفي رواية) ابن أبي الحديد أنه دفع إليه الراية يوم الجمل وقد استوت الصفوف. وقال له: احمل فتوقف قليلاً فقال له: احمل فقال: يا أمير المؤمنين أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر فدفع في صدره وقال: أدركك عرق من أمك ثم أخذ الراية فهزها ثم قال:

اطعن بها طعن أبيك تحمد		لا خير في الحرب إذا لم توقد
بالمشرفي والقنا المسدد

ثم حمل وحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصرة. قيل لمحمد: لِمَ يغرر بك أبوك في الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين؟ فقال: إنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه ثم دفع الراية إلى محمد وقال امح الأولى بالأخرى وهذه الأنصار معك وضم إليه خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين في جمع من الأنصار كثير من أهل بدر وحمل حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً فقال خزيمة بن ثابت لعلي (ع): أما أنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح ولئن كنت خفت عليه الجبن وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه وإن كنت أردت أن تعلمه الطعان فطالما علمته الرجال. وقالت الأنصار: يا أمير المؤمنين لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين ما قدمنا على محمد أحداً من العرب فقال علي (ع): أين النجم من الشمس والقمر؟ أما إنه قد أغنى وأبلى وله فضله. فقال خزيمة بن ثابت فيه:

محمد ما في عودك اليوم وصمة		ولا كنت في الحرب الضروس معودا
أبوك الذي لم يركب الخيل مثله		علي وسماك النبي محمدا
فلو كان حقاً من أبيك خليفة		لكنت ولكن ذاك ما لا يرى أبدا
وأنت بحمد الله أطول غالب		لساناً وأنداها بما ملكت يدا
وأطعنهم صدر الكمي برمحه		وأكساهم للهام عضباً مهندا
سوى أخويك السيدين كلاهما		إمام الورى والداعيان إلى الهدى
أبى الله أن يعطي عدوك مقعداً		من الأرض أو في اللوح مرقى ومصعدا

وحملت مضر الكوفة فاجتلدوا قدام الجمل ومع علي قوم من غير مضر منهم زيد بن صوحان طلبوا ذلك منه فقال لزيد رجل من قومه: تنح إلى قومك ما لك ولهذا الموقف؟ ألست تعلم أن مضراً بحيالك والجمل بين يديك وأن الموت دونه؟ فقال: الموت خير من الحياة، الموت أريد، فأصيب هو وأخوه سيحان وارتث أخوهما صعصعة واشتدت الحرب فلما رأى ذلك علي بعث إلى

اليمن وإلى ربيعة أن اجتمعوا على من يليكم، قال القعقاع: لقد رأيتنا يوم الجمل ندافعهم بأسنتنا ونتكي على أزجتنا وهم مثل ذلك حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم. وقال آخر: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فنيت وتطاعنا بالرماح حتى تشبكت في صدورنا وصدورهم، ثم قال علي: السيوف يا أبناء المهاجرين. فما شبهت أصواتها إلا بصوت القصارين وتزاحفت الناس وظهرت يمن البصرة على يمن الكوفة فهزمتهم، وربيعة البصرة على ربيعة الكوفة فهزمتهم، ونهد علي بمضر الكوفة إلى مضر البصرة وقال: إن الموت ليس منه فوت يدرك الهارب ولا يترك المقيم، وهذه من الكلمات الجليلة الخالدة. ثم عاد يمن الكوفة فقتل على رايتهم خمسة عشر من همدان وخمسة من سائر اليمن فلما رأى ذلك يزيد بن قيس أخذها فثبتت في يده. وقال ابن أبي نمران الهمداني من أصحاب علي (ع) وهو يقاتل:

جردت سيفي في رجال الأزد ... أضرب في كهولهم والمرد

كل طويل الساعدين نهد

ورجعت ربيعة الكوفة فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل على رايتهم اثنان واشتد الأمر فلما رأى الشجعان من مضر الكوفة والبصرة الصبر تنادوا طرّفوا إذا فرغ الصبر، فجعلوا يقصدون الأطراف: الأيدي والأرجل، فما رئي وقعة كانت أعظم منها قبلها ولا بعدها ولا أكثر ذراعاً مقطوعة وكان الرجل منهم إذا أصيب شيء من أطرافه استقتل إلى أن يقتل. ونظرت عائشة من على يسارها فقالت: من القوم؟ قال صبرة بن شيمان: بنوك الأزد، فقالت: يا آل غسان حافظوا اليوم فجلادكم الذي كنا نسمع به وتمثلت:

وجالد من غسان أهل حفاظها ... وكعب وأوس جالدت وشبيب

فكان الأزد يأخذون بعر الجمل يشمونه ويقولون بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك وقالت لمن عن يمينها: من القوم؟ قالوا: بكر بن وائل. قالت: لكم يقول القائل:

وجاؤوا إلينا في الحديد كأنهم　　من الغرة القعساء بكر بن وائل

إنما بأزائكم عبد القيس (تحرضهم بذلك لأن عبد القيس معروفون بولاء علي (ع)) فاقتتلوا أشد من قتالهم قبل ذلك، وأقبلت على كتيبة بين يديها فقالت: من القوم؟ قالوا: بنو ناجية، قالت: بخ بخ سيوف أبطحية قرشية فجالدوا جلاداً يتفادى منه (وفي رواية) أنها قالت: صبراً يا بني ناجية فإني أعرف فيكم شمائل قريش. وبنو ناجية مطعون في نسبهم فقتلوا حولها جميعاً، ثم أطافت بها بنو ضبة فقالت وبها جمرة الجمرات فلما رقوا خالطهم بنو عدي بن عبد مناة وكثروا حولها فقالت: من أنتم؟ قالوا: بنو عدي خالطنا أخواننا فأقاموا رأس الجمل وضربوا ضرباً شديداً، وكره القوم بعضهم بعضاً وانضمت مجنبتا علي فصاروا في القلب وكذلك فعل أهل البصرة وتلاقوا جميعاً بقلبيهم وقال أصحاب علي (ع) لا يزال القوم أو يصرع الجمل، وأخذ عميرة بن يثري برأس الجمل وكان قاضي البصرة قبل كعب بن سور، فشهد الجمل هو وأخوه عبد الله قال علي (ع) من يحمل على الجمل؟ فانتدب له هند بن عمرو الجملي المرادي وكان خطام الجمل مع ابن يثري فدفعه إلى ابنه واعترض هنداً فاختلفا ضربتين فقتله ابن يثري ثم حمل علباء بن الهيثم السدوسي فاعترضه ابن يثري فقتله ثم دعا إلى البراز فقال زيد بن صوحان العبدي: يا أمير المؤمنين إني رأيت يداً أشرفت علي من السماء وهي تقول هلم إلينا وأنا خارج إلى ابن يثري فإذا قتلني فادفني بدمي ولا تغسلني فإني مخاصم عند ربي. ثم خرج فقتله ابن يثري وقتل سيحان بن صوحان وارتث صعصعة ثم رجع إلى خطام الجمل وجعل يرتجز ويقول:

أرديت علباء وهندا في طلق　　ثم ابن صوحان خضيباً في علق

قد سبق اليوم لنا ما قد سبق　　والوتر منا في عدي ذي الفرق

والأشتر الغاوي وعمرو بن الحمق　　والفارس المعلم في الحرب الحنق

أعني علياً ليته فينا مرق　　ذاك الذي في الحادثات لم يطق

وقال ابن يثري:

أنا لمن ينكرني ابن يثري   قاتل علباء وهند الجملي

وابن لصوحان على دين علي

وقال أيضاً:

أضربهم ولا أرى أبا حسن   كفى بهذا حزناً من الحزن

إنا نمر الأمر أمرار الرسن

فبرز إليه عمار وهو ابن تسعين سنة أو أكثر وعليه فرو قد شد وسطه بحبل ليف وهو أضعف من بارزه فاسترجع الناس وقالوا: هذا لاحق بأصحابه. فترك الزمام في يد رجل من بني عدي اسمه عمرو بن بجرة وضرب عماراً فاتقاه بدرقته فنشب سيفه فيها فعالجه فلم يخرج وضربه عمار على رجليه فقطعهما فوقع على أسته وأخذ أسيراً فأتي به إلى علي، فقال:

استبقني، فقال: أبعد ثلاثة تقتلهم؟ وأمر به فقتل، وقيل إن المقتول عمرو بن يثري وإن عميرة بقي حياً حتى ولي قضاء البصرة مع معاوية. (أقول) اختلف كلام المؤرخين في هذا المقام كثيراً فابن الأثير ذكر كما مر والطبري نسب ما مر عن ابن الأثير والرجز الأول إلى ابن يثري من دون أن يسميه ثم قال وقتل يومئذ عمرو بن يثري علباء بن الهيثم السدوسي وهند بن عمرو الجملي وزيد بن صوحان وهو يرتجز ويقول: أضربهم ولا أرى أبا حسن (الرجز المتقدم) قال وعرض عمار لعمرو بن يثري وذكر نحواً مما مر إلى قوله فنشب سيفه فيها ثم قال ورماه الناس حتى صرع وهو يقول:

إن تقتلوني فأنا ابن يثري   قاتل علباء وهند الجملي

ثم ابن صوحان على دين علي

وأخذ أسيراً إلى آخر ما مر. وقال بعضهم إن عمرو بن يثري كان فارس أهل الجمل وشجاعهم فلما برز قال للأزد: إني قد وترت القوم وهم قاتلي ولست أخشى أن أقتل حتى أصرع فإن صرعت فاستنقذوني، فقالوا: ما نخاف عليك إلا الأشتر قال: فإياه أخاف فخرج الأشتر. وهو يقول:

إني إذا ما الحرب أبدت نابها وغلقت يوم الوغى أبوابها
ومزقت من حنق أثوابها كنا قداماها ولا أذنابها
ليس العدو دوننا أصحابها من هابها اليوم فلن أهابها
لا طعنها أخشى ولا ضرابها

ثم حمل عليه الأشتر فطعنه فصرعه وحامت عنه الأزد فاستنقذوه فوثب وهو مشرف على الموت فلم يستطع أن يدفع عن نفسه فطعنه رجل فصرعه ثانية وسحبه آخر برجله حتى أتى به علياً فناشده الله وقال: يا أمير المؤمنين أعف عني فإن العرب لم تزل قائلة عنك إنك لم تجهز على جريح قط. فعفا عنه وأطلقه فجاء إلى أصحابه وحضره الموت فقيل له: دمك عند أي الناس فقال ضربني فلان وفلان وصاحبي الأشتر فقالت ابنته ترثيه وشكرت الأزد وعاتبت قومها وشعرها هذا من جيد الشعر والنساء إذا رثت أجادت لما في طباعهن من الرقة:

يا ضب إنك قد فجعت بفارس حامي الحقيقة قاتل الأقران
عمرو بن يثري الذي فجعت به كل القبائل من بني عدنان
لم يحمه وسط العجاجة قومه وحنت عليه الأزد أزد عمان
فلهم علي بذاك حادث نعمة ولحبهم أحببت كل يماني
لو كان يدفع عن منية هالك طول الأكف بذابل المران
أو معشر وصلوا الخطى بسيوفهم وسط العجاجة والحتوف دواني
ما نيل عمرو والحوادث جمة حتى ينال النجم والقمران
لو غير الاشتر ناله لندبته وبكيته ما دام هضب ابان
لكنه من لا يعاب بقتله أسد الأسود وفارس الفرسان

والذي يغلب على الظن أنه وقع اشتباه بين عميرة بن يثري وأخيه عبد الله وعمرو بن يثري فنسب ما لأحدهم للآخر ورواية عفو أمير المؤمنين (ع) عنه بعدما وجب عليه القصاص بقتل من قتل مستبعدة. ولما قتل ابن يثري دفع العدوي الزمام إلى رجل من بني عدي وبرز فخرج إليه ربيعة العقيلي وهو يرتجز ويقول:

يـا أمـنـا أعـق أم تـعـلـم   والأم تـغـذو ولـدهـا وتـرحـم
ألا تـريـن كـم شـجـاع يـكـلـم   وتـخـتـلـي مـنـا يـد ومـعـصـم

ثم اقتتلا فأثخن كل واحد منهما صاحبه فماتا جميعاً وقال أبو مخنف: الرجز للحارث بن زهير الأزدي من أصحاب علي (ع) وقام مقام العدوي الحارث الضبي فما رئي أشد منه وجعل يقول:

نـحـن بني ضبة أصحاب الجمل   نـنـعـى ابـن عـفـان بـأطـراف الأسـل
الـموت أحلى عندنا من العسل   ردوا عـلـيـنـا شـيـخـنـا ثـم بـجـل

وفي رواية:

نـحـن بني ضبة أصحاب الجمل   نـبـارز الـقـرن إذا الـقـرن نـزل
نـنـعـى ابـن عـفـان بـأطـراف الأسـل   الـموت أحلى عندنا من العسل

وفي رواية أن وسيم بن عمرو بن ضرار الضبي كان يوم الجمل يقول:

نـحـن بني ضبة أصحاب الجمل   نـنـازل الـمـوت إذا الـمـوت نـزل
والـموت أشهى عندنا من العسل   نـنـعـى ابـن عـفـان بـأطـراف الأسـل
ردوا عـلـيـنـا شـيـخـنـا ثـم بـجـل

قال الطبري: كان عمرو بن يثري يحضض قومه يوم الجمل وقد تعاوروا الخطام يرتجزون:

نـحـن بـنـي ضـبـة لا نـفـر   حـتـى نـرى جـمـاجـمـاً تـخـر
يـحـز مـنـهـا الـعـلـق الـمـحـمـر

يـا أمـنـا يـا عـيـش لا تـراعـي   كـل بـنـيـك بـطـل الـمـصـاع
يـا أمـنـا يـا زوجـة الـنـبـي   يـا زوجـة الـمـبـارك الـمـهـدي

قال أبو مخنف: خرج عوف بن قطن الضبي وهو ينادي ليس لعثمان ثار إلا علي بن أبي طالب وولده فأخذ خطام الجمل وقال:

يـا أم يـا أم خـلا مـنـي الـوطـن   لا أبـتـغـي الـقـبـر ولا أبـغـي الـكـفـن
من ها هنا محشر عوف بن قطن   إن فـاتـنـا الـيـوم عـلـي فـالـغـبـن

أو فاتنا ابناه حسين وحسن إذن أمت بطول هم وحزن

ثم تقدم فضرب بسيفه حتى قتل. وتناول عبد الله بن أبزي خطام الجمل وكان من أراد الجد في الحرب وقاتل قتال مستميت يتقدم إلى الجمل فيأخذ بخطامه ثم شد ابن أبزي على عسكر علي فقال:

أضربهم ولا أرى أبا حسن ها إن هذا حزن من الحزن

فشد عليه أمير المؤمنين (ع) بالرمح فطعنه فقتله وقال: قد رأيت أبا حسن فكيف رأيته؟ وترك الرمح فيه، وأخذت عائشة كفا من حصى فحصبت به أصحاب علي وصاحت بأعلى صوتها: شاهت الوجوه، كما صنع رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال لها قائل: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. ولم يزل الأمر كذلك حتى قتل على الخطام أربعون رجلاً قالت عائشة: ما زال جملي معتدلاً حتى فقدت أصوات بني ضبة وأخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش كلهم يقتل وهو آخذ به وممن أخذ به محمد بن طلحة فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل وقال: حم لا ينصرون. قال ابن الصباغ: وكان ذلك شعار أصحاب علي عليه السلام وكان علي قد أوصى أصحابه أن لا يقتلوا محمد بن طلحة فحمل عليه شريح بن أوفى العبسي فقال: حم، وقد سبقه شريح بالطعنة فأتى على نفسه فكان كما قيل: سبق السيف العذل، وكان محمد بن طلحة هذا من العباد الزهاد واعتزل الناس وإنما خرج براً بأبيه (أقول) ولكنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وقال الطبري اجتمع عليه أربعة نفركل ادعى قتله فأنفذه بعضهم بالرمح وقال ابن الصباغ وفي ذلك يقول قاتله شريح:

وأشعث قوام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم
يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدم

وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة فكان لا يأخذ الخطام أحد إلا قتل وما رامه أحد من أصحاب علي إلا قتل أو أفلت فلم يعد وحمل عدي بن حاتم

الطائي عليهم ففقئت عينه وخرج رجل من عسكر البصرة يعرف بجناب بن عمرو الراسبي فارتجز فقال:

أضــربــهــم ولــو أرى عــلــيــا عــمــمــتــه أبــيــض مــشــرفــيــا
أريــح مــنــه مــعــشــراً غــويــا

فصمد له الأشتر فقتله ثم تقدم عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس وهو من أشراف قريش وكان اسم سيفه ولول فارتجز فقال:

أنــا ابــن عــتــاب وســيــفــي ولــول والــمــوت عــنــد الــجــمــل الــمــجــلــل

فحمل عليه الأشتر فقتله وقتل الأشتر جندب بن زهير الغامدي وعبد الله بن حكيم ابن حرام اشترك في قتله هو وعدي بن حاتم وكانت راية بكر بن وائل من أهل الكوفة في بني ذهل، كانت مع الحارث بن حسان بن خوط الذهلي فقيل له: ابق على نفسك وقومك، فاقدم وقال: يا معشر بكر بن وائل إنه لم يكن أحد له من رسول الله ﷺ مثل منزلة صاحبكم فانصروه. فأقدم فقتل وقتل ابنه وقتل خمسة أخوة له وقتل من بني ذهل خمسة وثلاثون رجلاً فقال رجل لأخيه وهو يقاتل: يا أخي ما أحسن قتالنا إن كنا على حق. قال فأنا على الحق إن الناس أخذوا يميناً وشمالاً وإنما تمسكنا بأهل بيت نبينا، فقاتلا حتى قتلا وجرح عمير بن الأهلب الضبي فمر به رجل من أصحاب علي وهو يفحص برجليه ويقول:

لــقــد أوردتــنــا حــومــة الــمــوت أمــنــا فــلــم نــنــصــرف إلا ونــحــن رواء
لــقــد كــان عــن نــصــر ابــن ضــبــة أمــه وشــيــعــتــهــا مــنــدوحــة وغــنــاء
أطــعــنــا قــريــشــاً ضــلــة مــن حــلــومــنــا ونــصــرتــنــا أهــل الــحــجــاز عــنــاء
أطــعــنــا بــنــي تــيــم بــن مــرة شــقــوة وهــل تــيــم إلا أعــبــد وإمــاء

فقال له الرجل: قل لا إله إلا الله، قال: ادن مني فلقني في فمي فبي صمم، فدنا منه الرجل فوثب عليه فعض أذنه فقطعها. وخرج عبد الله بن

خلف الخزاعي وهو رئيس البصرة وأكثر أهلها مالاً وضياعاً وطلب المبارزة وسأل أن لا يخرج إليه إلا علي وارتجز عليه فقال:

يـابـا تـراب ادن مـنـي فـترا فـإنـني دان إلـيـك شـبـرا
وإن فـي صـدري عـلـيـك غـمـرا

فخرج إليه علي فلم يمهله أن ضربه ففلق هامته، واستدار الجمل كما تدور الرحى وتكاثفت الرجال حوله واشتد رغاؤه واشتد زحام الناس عليه وقصد أهل الكوفة قصد الجمل ودونه كالجبال كلما خف قوم جاء أضعافهم فنادى أمير المؤمنين: ويحكم أرشقوا الجمل بالنبل، أعقروه، فرشق بالسهام، فلم يبق فيه موضع إلا أصابه النبل، وكان مجففاً فتعلقت السهام به فصار كالقنفذ. ونادت الأزد وضبة يا لثارات عثمان فأخذوها شعاراً، ونادى أصحاب علي: يا محمد، فأخذوها شعاراً واختلط الفريقان ونادى علي بشعار رسول الله ﷺ: يا منصور أمت، وقيل كان شعاره: حم لا ينصرون اللهم انصرنا على القوم الناكثين. وهذا في اليوم الثاني من أيام الجمل فلما دعا بها تزلزلت أقدام القوم وذلك وقت العصر بعد أن كانت الحرب من الفجر ثم تحاجز الفريقان والقتل فاش فيهما إلا أنه في أهل البصرة أكثر وإمارات النصر لائحة لعسكر الكوفة ثم توافقوا في اليوم الثالث فجاء عبد الله بن الزبير فلم يتكلم وكان كل من يأخذ الخطام ينتسب. فقالت عائشة: من أنت؟ قال: ابنك ابن أختك قالت واثكل أسماء. وفي رواية أن عبد الله بن الزبير برز في اليوم الثالث أول الناس ودعا إلى المبارزة فبرز إليه الأشتر فقالت عائشة من برز إلى عبد الله قيل الأشتر فقالت واثكل أسماء وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام وكانت هذه عادته في الحرب وهو شيخ عالي السن فضرب الأشتر عبد الله على رأسه فجرحه جرحاً شديداً وضربه عبد الله ضربة خفيفة واعتنق كل واحد منهما صاحبه وسقطا إلى الأرض يعتركان فقال ابن الزبير:

اقـتـلـونـي ومـالـكـاً واقـتـلـوا مـالـكـاً مـعـي

فلو يعلمون من مالك لقتلوه وإنما كان يعرف بالأشتر فحمل أصحاب علي وعائشة فخلصوهما. ودخل الأشتر على عائشة بعد حرب الجمل، فقالت: أنت الذي صنعت بابن أختي ما صنعت؟ قال: نعم، ولولا أني كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمة محمد منه. قالت: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس بغير حق»** فقال: على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين والله ما خانني سيفي قبلها وقد أقسمت أن لا يصحبني بعدها وفي ذلك يقول الأشتر:

أعائش لو أنني كنت طاوياً ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا
غداة ينادي والرماح تنوشه كوقع الصياصي اقتلوني ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمه خدب عليه في العجاجة باركا
فنجاه مني أكله وشبابه وإني شيخ لم أكن متماسكا
وقالت على أي الخصال صرعته بقتل أتى أم رده لا أبا لكا
أم المحصن الزاني الذي حل قتله فقلت لها لا بد من بعض ذالكا

وأخذ الخطام الأسود بن أبي البحتري فقتل وهو قرشي وأخذه عمرو بن الأشرف العتكي فقتل وقتل معه ثلاثة عشر رجلاً من أهل بيته وهو أزدي ولم يبق شيخ من بني عامر إلا أصيب قدام الجمل، وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قتل حتى ضاع الخطام وكان آخر من أخذه زفر بن الحارث وهو يرتجز ويقول:

يا أمنا مثلك لا يراع كل بنيك بطل شجاع

وزحف علي نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد ودفع الراية إلى محمد وقال أقدم بها حتى تركزها في عين الجمل ولا تقفن دونها فتقدم محمد فرشقته السهام فقال لأصحابه رويداً حتى تنفد سهامهم فلم يبق إلا رشقة أو رشقتان فأنفذ علي إليه يحثه ويأمره بالمناجزة فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه فوضع يده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له أقدم لا أم لك فكان محمد إذا ذكر ذلك يبكي ويقول: لكأني أجد ريح نفسه في قفاي والله لا أنسى ذلك أبداً. ثم أدركت علياً رقة على

ولده فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في اليمنى ثم حمل فغاص في عسكر الجمل ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعمار نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فلم يجب أحداً منهم ولا رد إليهم بصره وظل ينحط ويزأر زئير الأسد حتى فرق من حوله وتبادروه وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة لا يبصر من حوله ولا يرد حواراً ثم دفع الراية إلى محمد ثم حمل حملة ثانية فدخل وسطهم فضربهم بالسيف قدماً قدماً والرجال تفر من بين يديه وتنحاز عنه يمنة ويسرة حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثم رجع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فاعصوصب به أصحابه وناشدوه الله في نفسه وفي الإسلام وقالوا: إنك إن تصب يذهب الدين فأمسك ونحن نكفيك. فقال: والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة ثم قال لمحمد: هكذا تصنع يا ابن الحنفية. فقال الناس: من يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين؟ وعن المدائني والواقدي ما حفظ رجز قط أكثر من رجز قيل يوم الجمل وأكثره لبني ضبة والأزد الذين كانوا حول الجمل يحامون عنه ولقد كانت الرؤوس تندر عن الكواهل، والأيدي تطيح من المعاصم وأقتاب البطن تندلق من الأجواف وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تتزلزل، ونادى علي عليه السلام: اعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا عنه، وفي رواية حتى لقد صرخ علي بأعلى: صوته ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان. ثم قال: اعقروه وإلا فنيت العرب ولا يزال السيف قائماً وراكعاً حتى يهوي هذا البعير إلى الأرض. روى أبو مخنف عن حبة العرني قال: لما رأى علي أن الموت عند الجمل وأنه ما دام قائماً فالحرب لا يطفأ وضع سيفه على عاتقه وعطف نحوه وأمر أصحابه بذلك والخطام مع بني ضبة فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل من بني ضبة مقتلة عظيمة وخلص علي (ع) في جماعة من النخع وهمدان إلى الجمل فقال لرجل من النخع اسمه بجير: دونك الجمل يا بجير فضرب عجز الجمل بسيفه فوقع لجنبه وضرب بجرانه الأرض وعج عجيجاً لم يسمع بمثله فلما سقط الجمل كانت الهزيمة وفرت الرجال عنه كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب.

وجاء محمد بن أبي بكر ومعه عمار بن ياسر فقطعا الانساع عن الهودج واحتملاه، فلما وضعاه أدخل محمد يده فقالت: من هذا؟ قال: أخوك محمد، فقالت: مذمم، قال: يا أخية هل أصابك شيء؟ قالت: ما أنت من ذاك؟ قال: فمن إذاً؟ الضلال؟ وقالت: بل الهداة. وقيل إنها لما سألته قال أخوك البر قالت عقوق، وأمر علي عليه السلام بالجمل أن يحرق ثم يذرى في الريح وقال: لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل، وقرأ: وانظر إلى إلٰهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً. وأمر نفراً أن يحملوا الهودج من بين القتلى وأنه كالقنفذ لما فيه من السهام وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة فلما كان الليل أدخلها البصرة فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي وهي أعظم دار بالبصرة وكان علي (ع) يقول ذلك اليوم بعد الفراغ من القتال:

إليك أشكو عجري وبجري ومعشراً أغشوا علي بصري

قتلت منهم مضري بمضري شفيت نفسي وقتلت معشري

العفو العام

وأمر علي (ع) منادياً فنادى ألا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ولا ترزؤوا سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن.

وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلاً فدخلوا البصرة وجعل أمير المؤمنين عليه السلام يطوف على القتلى، حكى ابن أبي الحديد عن الأصبغ بن نباتة أنه سار في القتلى يستعرضهم، قال المفيد ومن كلامه عند تطوافه على القتلى: هذه قريش، جدعت أنفي وشفيت نفسي، لقد تقدمت إليكم أحذركم عض السيف ولكنه الحين وسوء المصرع وأعوذ بالله من سوء المصرع، ثم مر على معبد بن المقداد فقال: رحم الله أبا هذا لو كان حياً لكان رأيه أحسن من رأي هذا، فقال عمار بن ياسر: الحمد لله الذي أوقعه وجعل خده الأسفل إنا والله يا أمير المؤمنين لا نبالي من عَند عن الحق من والد وولد، فقال أمير المؤمنين (ع):

رحمك الله وجزاك عن الحق خيراً، ومر بعبد الله بن ربيعة بن دراج فقال: هذا البائس ما كان أخرجه، أدين أم نصر لعثمان، والله ما كان رأي عثمان فيه ولا في أبيه بحسن، ثم مر بمعبد بن زهير فقال: لو كانت الفتنة برأس الثريا لتناولها هذا الغلام ثم مر بمسلم بن قرظة فقال: البر أخرج هذا؟ والله لقد كلمني أن أكلم عثمان في شيء كان يدعيه قبله بمكة فأعطاه عثمان وقال: لولا أنت ما أعطيته إن هذا ما علمت بئس أخو العشيرة، ثم جاء المشوم للحين ينصر عثمان. ثم مشى قليلاً فمر بكعب بن سور فقال: هذا الذي خرج علينا في عنقه المصحف يزعم أنه ناصر أمه يدعو الناس إلى ما فيه، ثم استفتح فخاب كل جبار عنيد، أما إنه دعا الله أن يقتلني فقتله الله، أجلسوا كعب بن سور فأجلس: فقال أمير المؤمنين (ع): يا كعب لقد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً، ثم قال: أضجعوه فأضجعوه، وفي رواية الأصبغ بن نباتة أنه قال له: ويل أمك كعب بن سور لقد كان لك علم لو نفعك ولكن الشيطان أضلك فأذلك فجعلك إلى النار أرسلوه. قال المفيد: ومر على طلحة فقال هذا الناكث بيعتي والمنشىء الفتنة في الأمة والمجلب علي والداعي إلى قتلي وقتل عترتي، اجلسوا طلحة فأجلس، فقال: يا طلحة قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً، أضجعوا طلحة، وفي رواية الأصبغ ثم مر بعبد الله بن خلف الخزاعي وكان قتله بيده مبارزة وكان رئيس أهل البصرة فقال: أجلسوه فأجلس فقال: الويل لك يا ابن خلف لقد عاينت أمراً عظيماً. قال ابن أبي الحديد وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ: ومر بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فقال: أجلسوه فأجلس، فقال: هذا يعسوب قريش هذا اللباب المحض من بني عبد مناف، ثم قال: شفيت نفسي وقتلت معشري إلى الله أشكو عجري وبجري، قتلت الصناديد من بني عبد مناف وأفلتني الأعيار من بني جمح. فقال له قائل: لشد ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين، قال: إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك «اهـ» وأقام علي (ع) بظاهر البصرة ثلاثاً وأذن للناس في دفن موتاهم فخرجوا إليهم فدفنوهم. وفي مروج الذهب: خرجت امرأة من عبد القيس

تطوف القتلى (يوم الجمل) فوجدت ابنين لها قد قتلا وقد كان قتل زوجها وأخوان لها فيمن قتل قبل مجيء علي البصرة فأنشأت تقول:

شهدت الحروب فشيبتني ... فلم أر يوماً كيوم الجمل
أضر على مؤمن فتنة ... واقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة في بيتها ... وليتك عسكر لم ترتحل

«اهـ» كانت عبد القيس معروفة بولاء علي (ع) وابناها قتلا مع علي (ع) وزوجها وأخوها قتلا في طاعته. قال الطبري وصلى علي على القتلى من أهل البصرة والكوفة وأمر فدفنت الأطراف المقطوعة من الأيدي ونحوها في قبر عظيم.

وكانت الوقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ في قول الواقدي والمسعودي لكنه مر عن الطبري أن نزولهم كان في النصف من جمادى الآخرة يوم الخميس سنة ٣٦ وأنهم بقوا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال وقد ذكر الطبري أيضاً إن الوقعة كانت يوم الخميس ومر إن القتال استمر ثلاثة أيام وفي ذلك من التنافي ما لا يخفى لكن المسعودي قال: إن وقعة الجمل كانت وقعة واحدة في يوم واحد ويمكن الجمع بأن الوقعة العظمى الفاصلة كانت في يوم واحد وغيرها كان مناوشات. وكان القتلى خمسة عشر ألفاً قتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف وفي المعركة الثانية مثلها وقتل من أهل الكوفة خمسة آلاف وقيل: كان جميع القتلى عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة، وقتل من ضبة ألف رجل وقتل من بني عدي حول الجمل سبعون قد قرأوا القرآن سوى الشباب ومن لم يقرأ ويقال: إن أهل المدينة علموا بالوقعة يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس من نسر مر بماء حول المدينة سقط منه كف فيه خاتم نقشه عبد الرحمٰن بن عتاب وعلم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة بما ينقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام.

ثم دخل عليه السلام البصرة يوم الاثنين بعد الوقعة بثلاث فانتهى إلى المسجد فصلى فيه ثم دخل البصرة فأتاه الناس. قال المفيد: فحمد الله وأثنى

عليه ثم قال: أما بعد فإن الله ذو رحمة واسعة ومغفرة دائمة وعفو جم وعقاب أليم قضى أن رحمته ومغفرته وعفوه لأهل طاعته من خلقه وبرحمته اهتدى المهتدون وقضى أن نقمته وسطوته وعقابه على أهل معصيته من خلقه وبعد الهدى والبيانات ما ضل الضالون فما ظنكم يا أهل البصرة وقد نكثتم بيعتي وظاهرتم علي عدوي؟ فقام إليه رجل فقال: نظن خيراً ونراك قد ظهرت وقدرت فإن عاقبت فقد اجترمنا وإن عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى، فقال: قد عفوت عنكم فإياكم والفتنة فإنكم أول الرعية نكث البيعة وشق عصا هذه الأمة ثم جلس للناس فبايعوه «اهـ» قال الطبري: فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة، وبايع الأحنف من العشي لأنه كان خارجاً في بني سعد. قال الطبري: ثم راح إلى عائشة على بغلته فلما انتهى إلى دار عبد اللّه بن خلف وجد النساء يبكين على عبد اللّه وعثمان ابني خلف، وكان عبد اللّه قتل مع عائشة وعثمان قتل مع علي، وكانت صفية بنت الحارث وهي أم طلحة الطلحات بن عبد اللّه بن خلف مختمرة تبكي، فلما رأته قالت له: يا علي يا قاتل الأحبة يا مفرق الجمع أيتم الله منك بنيك كما أيتمت ولد عبد اللّه منه، فلم يرد عليها شيئاً، ودخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها، وفي رواية: إنه لم يسمع أحد من قول علي شيئاً إلا أن عائشة كانت امرأة عالية الصوت قالوا: فسمعنا كهيئة المعاذير إني لم أفعل ثم قال: جبهتنا صفية، أما إني لم أرها منذ كانت جارية، فلما خرج علي أعادت عليه القول فكف بغلته وقال: أما لهممت - وأشار إلى الأبواب من الدار - أن افتح هذا الباب واقتل من فيه ثم هذا فاقتل من فيه ثم هذا فاقتل من فيه. وكان أناس من الجرحى قد لجأوا إلى عائشة منهم مروان بن الحكم في حجرة ومعه جماعة وعبد اللّه بن الزبير في حجرة ومعه جماعة آخرون في حجرة، فأخبر علي بمكانهم عندها فتغافل عنهم، فسكتت، فخرج علي فقال رجل من الأزد: والله لا تغلبنا هذه المرأة فغضب وقال له: لا تهتكن ستراً ولا تدخلن داراً ولا تهجن امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات

وإن الرجل ليكافئن المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس (أقول): وهذا غاية الحلم ونهاية الصفح والكرم ومكارم الأخلاق الخارجة عن مجرى العادة. قال الطبري: ولما فرغ أمير المؤمنين من بيعة أهل البصرة نظر في بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة فقسمها على من شهد معه فأصاب كل رجل منهم خمسمائة خمسمائة وقال: لكم إذا أظفركم الله عز وجل بالشام مثلها إلى أعطياتكم «اهـ» وحكى ابن أبي الحديد عن أبي الأسود الدؤلي قال: لما ظهر علي (ع) يوم الجمل دخل بيت المال بالبصرة في أناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم فلما رأى كثرة ما فيه قال: غري غيري، مراراً ثم نظر إلى المال وصعد فيه بصره وصوب وقال: أقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة فقسم بينهم فلا والذي بعث محمداً بالحق ما نقص درهماً ولا زاد درهماً كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره كان ستة آلاف ألف درهم أي ستة ملايين والناس اثني عشر ألفاً، (أقول): هذه الرواية أقرب إلى الصواب لأن جيش أمير المؤمنين (ع) كان عشرين ألفاً كما مر فقتل منه خمسة آلاف على رواية يبقى خمسة عشر ألفاً وخمسة آلاف وسبعمائة على أخرى يبقى أربعة عشر ألفاً وثلثمائة وكلا الروايتين وإن كان لا ينطبق على أن يكون الباقي اثني عشر ألفاً إلا أن مثل ذلك التفاوت يتسامح فيه عادة في عدد الجيش وعدد من يقتل منه بخلاف رواية ستمائة ألف فإنّا إذا قسمناها خمسمائة خمسمائة كان الباقي من الجيش ألفاً ومائتين وهو لا يقارب شيئاً من الروايات ولا يطابقه فلا يبعد أن يكون ستمائة ألف تصحيف ستة آلاف ألف والله أعلم. ثم حكى عن حبة العرني قال: قسم علي بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة وأخذ خمسمائة درهماً كواحد منهم فجاءه إنسان لم يحضر الوقعة فقال: يا أمير المؤمنين كنت شاهداً معك في قلبي وإن غاب عنك جسمي فأعطني من الفيء شيئاً فدفع إليه الذي أخذه لنفسه ولم يصب في الفيء شيئاً قال الطبري: وجمع ما كان في العسكر من شيء وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان «اهـ» ولكن

ابن أبي الحديد يقول: اتفقت الرواة كلها على أنه (ع) قبض ما وجد في عسكر الجمل من سلاح ودابة ومملوك ومتاع وعروض فقسمه بين أصحابه وأنهم قالوا له: اقسم بيننا أهل البصرة فاجعلهم رقيقاً فقال: لا فقالوا: كيف تحل لنا دماؤهم ويحرم علينا سبيهم فقال: كيف يحل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام، أما ما أجلب به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم، وأما ما دارت عليه الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله، فلما أكثروا عليه، قال: اقترعوا على عائشة، فقالوا: نستغفر الله.

قال المفيد: ثم كتب بالفتح إلى أهل الكوفة: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإن الله حكم عدل لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. أخبركم عنا وعمن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ومن تأشب إليهم من قريش وغيرهم مع طلحة والزبير ونكثهم صفقة إيمانهم فنهضت من المدينة حين انتهى إليّ خبر من سار إليها وجماعتهم وما فعلوا بعاملي عثمان بن حنيف حتى قدمت ذا قار فبعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر وقيس بن سعد فاستنفرتكم بحق الله وحق رسوله ﷺ وحقي فأقبل إليّ إخوانكم سراعاً حتى قدموا علي فسرت بهم حتى نزلت ظهر البصرة فأعذرت بالدعاء وقمت بالحجة وأقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم واستتبتهم من نكثهم بيعتي ووعد وعده الله عليهم فأبوا إلا قتالي وقتال من معي والتمادي في الغي فناهضتهم بالجهاد فقتل الله من قتل منهم ناكثاً وولى من ولى إلى مصرهم وقتل طلحة والزبير وخذلوا وأدبروا وتقطعت بهم الأسباب فلما رأوا ما حل بهم سألوني العفو عنهم فقبلت منهم وغمدت السيف عنهم وأجريت الحق والسنة فيهم واستعملت عبد الله بن العباس على البصرة وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله وقد بعثت زحر بن قيس الجعفي لتسألوه فيخبركم عنا وعنهم وردهم الحق علينا ورد الله لهم وهم كارهون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وروى الكشي في رجاله بسنده والمفيد في الرسالة الكافية بسندين أحدهما من طريق العامة والآخر من طريق الخاصة وابن أبي الحديد في شرح النهج بألفاظ متقاربة قالوا: بعث أمير المؤمنين علي (ع) بعد وقعة الجمل عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بتعجيل الرحيل وقلة العرجة. قال ابن عباس: فأتيتها وهي في قصر بني خلف في جانب البصرة فطلبت الإذن عليها فلم تأذن فدخلت من غير إذن فإذا بيت قفار لم يعد لي فيه مجلس فإذا هي من وراء ستر فضربت ببصري فإذا في جانب البيت رحل عليه طنفسة فمددت الطنفسة فجلست عليها، فقالت من وراء الستر: يا ابن عباس أخطأت السنة دخلت بيتنا بغير إذننا وجلست على وسادتنا بغير إذننا، فقال لها ابن عباس: نحن أولى بالسنة منك ونحن علمناك السنة وإنما بيتك الذي خلفك فيه رسول الله ﷺ فخرجت منه فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلا بإذنك ولم نجلس على وسادتك إلا بأمرك، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يأمرك بالرحيل إلى المدينة وقلة العرجة، قالت: وأين أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب، قال: وهذا علي بن أبي طالب، قالت: أبيت أبيت، قال: أما والله إن كان أباؤك فيه إلا قصير المدة عظيم التبعة ظاهر الشؤم بين النكد، وما كان أباؤك فيه إلا حلب شاة حتى صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا ترفعين ولا تضعين وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد:

ما زال إهداء القصائد بيننا ... شتم الصديق وكثرة الألقاب

حتى تركت كأن صوتك بينهم ... في كل مجمعة طنين ذباب

قال: فبكت حتى سمع نحيبها من وراء الحجاب، ثم قالت: إني معجلة الرحيل إلى بلادي والله ما من بلد أبغض إلي من بلد أنتم فيه، قال: ولم ذاك؟ وقد جعلناك للمؤمنين أما وجعلنا أباك صديقاً، قالت: يا ابن عباس تمنون علي برسول الله؟ قال: ولم لا نمن عليك بمن لو كان منك قلامة منه مننت به علينا ونحن لحمه ودمه ومنه وإليه وما أنت إلا حشية من تسع حشايا فصرت تأمرين فتطاعين وتدعين فتجابين: ثم نهضت وأتيت أمير المؤمنين (ع) فأخبرته بمقالتها وما رددت عليها فسر بذلك وقال لي: ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم.

(وفي رواية): أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك، وروى الطبري أن عمار بن ياسر قال لعائشة حين فرغ القوم: يا أم المؤمنين ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عهد إليك، قالت أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت: والله إنك ما علمت قوال بالحق، قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك، قال: وجهز علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات وأرسل معها أخاها محمداً وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦، وفي إثبات الوصية للمسعودي وكل بها نساء ملثمات أركبهن الخيل، وفي تذكرة الخواص عن هشام الكلبي بعث معها أخاها عبد الرحمٰن في ثلاثين رجلاً وعشرين امرأة ألبسهن العمائم وقلدهن السيوف وقال: لا تعلمنها إنكن نسوة وتلثمن ولا يقرب منها رجل فلما وصلت المدينة عرفنها إنهن نسوة، وفي كامل المبرد قال عمرو بن العاص لعائشة: لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل، فقالت: ولم لا أبا لك؟ فقال: كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ونجعلك أكثر التشنيع على علي.

واستخلف أمير المؤمنين (ع) على البصرة ابن عباس وولى زياداً الخراج وبيت المال وتوجه إلى الكوفة، ثم إن ابن عباس كتب إليه يذكر اختلاف أهل البصرة فأجابه أمير المؤمنين (ع) سأخبرك عن القوم: هم من بين مقيم لرغبة يرجوها أو عقوبة يخشاها فأرغب راغبهم بالعدل عليه والإنصاف له والإحسان إليه وحل عقدة الخوف عن قلوبهم وأحسن إلى هذا الحي من ربيعة وكل من قبلك فأحسن إليهم ما استطعت إن شاء الله والسلام. وكتب عبد اللّه بن أبي رافع في ذي القعدة سنة ٣٦ وكتب إلى ابن عباس أيضاً: أما بعد فانظر ما اجتمع عندك من غلات المسلمين وفيئهم فأقسمه على من قبلك حتى تغنيهم وابعث إلينا بما فضل نقسمه فيمن قبلنا والسلام. وكتب (ع) إلى أمراء الجنود إن لكم عندي أن لا أحتجز دونكم سراً إلا في حرب ولا أطوي عنكم أمراً إلا في حكم ولا أؤخر حقاً لكم عن محله ولا أرزأكم شيئاً وأن تكونوا عندي في الحق سواء

فإن أبيتم أن تستقيموا لي على ذلك لم يكن أهون علي ممن فعل ذلك منكم ثم أعاقبه عقوبة لا يجد عندي فيها هوادة. وكتب إلى أمراء الخراج: ارحموا ترحموا ولا تعذبوا خلق الله ولا تكلفوهم فوق طاقتهم وأنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنكم خزان الرعية لا تتخذن حجاباً ولا تحجبن أحداً عن حاجة حتى ينهيها إليكم لا تأخذوا أحداً بأحد إلا كفيلاً عمن كفل عنه وإياكم وتأخير العمل ودفع الخير فإن في ذلك الندم والسلام.

وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفين بسنده أنه لما قدم أمير المؤمنين (ع) من البصرة إلى الكوفة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب سنة ست وثلاثين وقد أعز الله نصره وأظهره على عدوه ومعه أشراف الناس وأهل البصرة استقبله أهل الكوفة وفيهم قراؤهم وأشرافهم فدعوا له بالبركة وقالوا: يا أمير المؤمنين أين تنزل، أتنزل القصر؟ (يعني قصر الإمارة) قال: لا ولكني أنزل الرحبة وهي محلة بالكوفة. (وفي رواية) إنه لما لحقه ثقله، قالوا: أي القصرين تنزل: فقال قصر الخبال لا تنزلونيه، ونزل على جعدة بن هبيرة المخزومي وهو ابن أخته أم هاني تزوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأولدها جعدة وكان شريفاً. ويظهر من هذه الرواية أنه كان بالكوفة قصران للإمارة، والخبال الفساد، والظاهر أنه لم يرض أن ينزل بقصر الإمارة وسماه قصر الخبال باعتبار من كان ينزله من بعض حكام الجور. فتنزه عن أن ينزل في محل نزولهم مبالغة في إنكار الظلم ولم يعلم أنه هل استمر على هجر قصر الإمارة أو نزله بعدما تمهدت له الأمور، لم نجد في ذلك تصريحاً للمؤرخين. وفي طبقات ابن سعد: نزل علي الكوفة في الرحبة التي يقال لها رحبة علي في أخصاص كانت فيها ولم ينزل القصر الذي كانت تنزله الولاة قبله «اهـ» ولعله نزل أولاً على جعدة ثم نزل الرحبة ولكن يظهر من بعض أحاديث وفاته أنها كانت بالقصر فيكون قد نزله بعد ذلك.

وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم فصلى فيه ركعتين.

أول خطبة خطبها علي (ع) بالكوفة

ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ﷺ وقال: أما بعد يا أهل الكوفة فإن لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدلوا وتغيروا دعوتكم إلى الحق فأجبتم وبدأتم بالمنكر فغيرتم إلا أن فضلكم فيما بينكم وبين الله فإما في الأحكام والقسم فأنتم أسوة من أجابكم ودخل فيما دخلتم فيه إلا أن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة. إلا أن الدنيا قد ترحلت مدبرة والآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل واحدة منهن بنون فكونوا من أبناء الآخرة، اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل. الحمد لله الذي نصر وليه وخذل عدوه وأعز أنصار الحق وأذل الناكث المبطل عليكم بتقوى الله وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم الذين هم أولى بطاعتكم فيما أطاعوا الله فيه من المنتحلين المدعين المقبلين لنا يتفضلون بفضلنا ويجاحدوننا أمرنا وينازعونا حقنا ويدافعوا بنا عنه فقد ذاقوا وبال ما اجترحوا فسوف يلقون غياً. إلا أنه قد قعد عن نصرتي منكم رجال فأنا عليهم عاتب زار فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة. فقام إليه مالك بن حبيب اليربوعي وكان صاحب شرطته فقال: والله إني لأرى الهجر وسماع المكروه لهم قليلاً والله لئن أمرتنا لنقتلهم فقال علي: سبحان الله يا مالك جزت المدى وعدوت الحد وأغرقت في النزع فقال: يا أمير المؤمنين:

لبعض الغشم أبلغ في أمور تنوبك من مهادنة الأعادي

فقال علي (ع): هكذا قضى الله يا مالك، قال: النفس بالنفس فما بال الغشم وقال: ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً، والإسراف في القتل أن تقتل غير قاتلك فقد نهى الله عنه وذلك هو الغشم. فقام إليه أبو بردة بن الأعوف الأزدي وكان ممن تخلف عنه فقال: يا أمير المؤمنين أرأيت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بم قتلوا قال: قتلوا شيعتي وعمالي وقتلوا أخا ربيعة العبدي رحمة الله عليه في عصابة من المسلمين

قالوا: لا ننكث كما نكثتم ولا نغدر كما غدرتم فوثبوا عليهم فقتلوهم فسألتهم أن يدفعوا إليّ قتلة إخواني أقتلهم بهم ثم كتاب الله حكم بيني وبينهم فأبوا علي وقاتلوني وفي أعناقهم بيعتي ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي فقتلتهم بهم أفي شك أنت من ذلك؟ قال: قد كنت في شك فأما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم وإنك أنت المهدي المصيب. قال نصر: وكان أشياخ الحي يذكرون أنه كان عثمانياً وقد شهد مع علي على ذلك صفين لكنه بعدما رجع كان يكاتب معاوية فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعة بالفلوجة وكان عليه كريماً. ثم إن علياً تهيأ لينزل وقام رجال ليتكلموا فلما رأوه نزل جلسوا وسكتوا. وفي رواية أنه لما قدم الكوفة نزل على باب المسجد فدخل وصلى ثم تحول فجلس إليه الناس فسأل عن رجل من أصحابه كان ينزل الكوفة فقيل: استأثر الله به فقال: إن الله لا يستأثر بأحد من خلقه إنما أراد الله بالموت إعزاز نفسه وإذلال خلقه. وقرأ: وكنتم أمواتاً فأحياكم الله ثم يميتكم ثم يحييكم.

ودخل عليه سليمان بن صرد الخزاعي فعاتبه وعذله وقال له: ارتبت وتربصت وراوغت وقد كنت من أوثق الناس في نفسي وأسرعهم فيما أظن إلى نصرتي فما قعد بك عن أهل بيت نبيك وما زهدك في نصرهم؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تردن الأمور على أعقابها ولا تؤنبني بما مضى فيها واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي وقد بقيت أمور تعرف بها وليك من عدوك. فسكت عنه. وجلس سليمان قليلاً ثم نهض فخرج إلى الحسن بن علي وهو قاعد في المسجد فقال: ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ فقال له الحسن: إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته فقال: إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا وينتضى فيها السيوف ويحتاج فيها إلى أشباهي فلا تستشبعوا غيبتي ولا تتهموا نصيحتي فقال له الحسن: رحمك الله ما أنت عندنا بالظنين.

ودخل عليه سعيد بن قيس فسلم عليه، فقال له علي: وعليك السلام وإن كنت من المتربصين فقال: حاش الله يا أمير المؤمنين لست من أولئك قال: فعل الله ذلك.

ودخل عليه مخنف بن سليم فإذا بين يديه رجال يؤنبهم وهم عبد الله بن المعتم العبسي وحنظلة بن الربيع التميمي وكانت لهما صحبة وأبو بردة بن عوف الأزدي وغريب بن شرحبيل الهمداني وهو يقول لهم: ما أبطأ بكم عني وأنتم أشراف قومكم والله لئن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنكم لبور وإن كان من شك في فضلي ومظاهرة علي إنكم لعدو قالوا: حاش الله يا أمير المؤمنين نحن سلمك وحرب عدوك ثم اعتذروا بمرض أو غيبة أو عذر آخر، ونظر إلي مخنف فقال: لكن مخنف بن سليم وقومه لم يتخلفوا ولم يكن مثلهم مثل القوم الذين قال الله تعالى: وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما.

وأتم علي الصلاة يوم دخل الكوفة فلما كانت الجمعة وحضرت الصلاة صلى بهم وخطب وأقام بالكوفة واستعمل العمال فبعث يزيد بن قيس الأرحبي على المدائن جوخى كلها وبعث مخنف بن سليم على أصبهان وهمدان فلما هرب بالمال قال: عذرت. القردان فما بال الحلم[١] وبعث قرظة بن كعب على البهقباذات وقدامة بن مظعون الأزدي على كسكر وعدي بن الحارث على مدينة بهرسير[٢] وأستانها[٣] وأبا حسان البكري على ستان العالي وسعد بن مسعود الثقفي على أستان الزوابي وربعي بن كاس[٤] على سجستان وخليد إلى خراسان، فلما دنا من نيسابور بلغه أن أهل خراسان قد كفروا ونزعوا أيديهم من الطاعة وقدم عليهم عمال كسرى من كابل فقاتل أهل نيسابور فهزمهم وحصر أهلها وبعث إلى علي بالفتح.

---

(١) القردان جمع قراد وفي النهاية: القردان الطبوع يلصق بجسم البعير وفي المصباح: الحلم القراد الضخم وكأنه أراد بالقردان هنا الغار منه أي عذرت أسافل الناس فما بال أشرافهم. وفي مجمع الأمثال للميداني: القردان جمع قراد والحلم جنس منه صغار وهذا قريب من قولهم استنت الفصال حتى القرعى «اهـ» وتفسيره الحلم بالصغار مخالف لما عليه أهل اللغة.

(٢) بهر سير لفظ فارسي معناه المعد للتنزه.

(٣) في القاموس الأستان أربع كور ببغداد عال وأعلى وأدنى وأسفل.

(٤) كاس أمه يعرف بها وهو من بني تميم.

وبعث الأشتر على الموصل ونصيبين ودارا وسنجار وآمد وهيت وعانات وما غلب عليه من أرض الجزيرة. وبعث معاوية بن أبي سفيان الضحاك بن قيس الفهري على ما في سلطانه من أرض الجزيرة وكان بيده حران والرقة والرها وقرقيسيا وكان من بالكوفة والبصرة من العثمانية قد هربوا فنزلوا الجزيرة في سلطان معاوية فخرج الأشتر يريد الضحاك بن قيس بحران فلما بلغ ذلك الضحاك بعث إلى أهل الرقة فأمدوه وجل أهلها عثمانية فالتقى بهم بمرج مرينا بين حران والرقة فرحل الأشتر حتى نزل عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فلما كان المساء رجع الضحاك بمن معه فسار ليلته كلها حتى أصبح بحران وأصبح الأشتر فرأى ما صنعوا فتبعهم حتى أتى حران فحصرهم وأتى الخبر معاوية فبعث عبد الرحمٰن بن خالد في خيل يغيثهم فلما بلغ ذلك الأشتر كتب كتائبه وعبأ جنوده وخيله ثم ناداهم الأشتر ألا تنزلون أيها الثعالب الرواغة احتجرتم احتجار الضباب ثم تركهم وانصرف لما علم بالمدد وبلغ عبد الرحمٰن بن خالد انصرافه فانصرف.

وحشر علي أهل السواد فلما اجتمعوا أذن لهم فلما رأى كثرتهم قال: إني لا أطيق كلامكم ولا أفقه عنكم فاسندوا أمركم إلى أرضاكم في أنفسكم وأعمه نصيحة لكم، قالوا: (نرسا) ما رضي فقد رضيناه وما سخط فقد سخطناه، فتقدم فجلس إليه، فقال: أخبرني عن ملوك فارس كم كانوا؟ قال: كانت ملوكهم في هذه المملكة الآخرة اثنين وثلاثين ملكاً، قال: كيف كانت سيرتهم قال: ما زالت سيرتهم في عظم أمرهم واحدة حتى ملكنا كسرى بن هرمز فاستأثر بالمال والأعمال وخالف أولينا وأخرب الذي للناس وعمر الذي له واستخف بالناس فأوغر نفوس فارس حتى ثاروا إليه فقتلوه. فقال: يا نرسا إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق ولا يرضى من أحد إلا بالحق وفي سلطان الله تذكرة مما خول الله وإنها لا تقوم مملكة إلا بتدبير ولا بد من إمارة، ثم أمر على أهل السواد أمراءهم. ثم كتب إلى العمال في الآفاق، كتب إلى جرير بن عبد الله البجلي مع زحر بن قيس وكان جرير عاملاً لعثمان على ثغر همدان يخبره بوقعة الجمل

ونكثهم بيعته وفعلهم بعامله عثمان بن حنيف وعفوه عنهم ومسيره إلى الكوفة فخطبهم جرير فقال: أيها الناس هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهو المأمون على الدين والدنيا وقد كان أمره وأمر عدوه ما نحمد الله عليه وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها ألا وإن البقاء في الجماعة والفناء في الفرقة وعلي حاملكم على الحق ما استقمتم فإن ملتم أقام ميلكم فقال الناس: سمعاً وطاعة رضينا رضينا. فكتب جرير جواب كتابه بالطاعة، وكان مع علي رجل من طيء ابن أخت لجرير فكتب إلى خاله أبياتاً مع زحر بن قيس منها:

جرير بن عبد اللّه لا تردد الهدى — وبايع علياً إنني لك ناصح
فإن علياً خير من وطأ الحصى — سوى أحمد والموت غاد ورائح
فإنك إن تطلب به الدين تعطه — وإن تطلب الدنيا فبيعك رابح
أبى اللّه إلا أنه خير دهره — وأفضل من ضمت عليه الأباطح

وقال جرير في ذلك من أبيات:

مضينا يقيناً على ديننا — ودين النبي مجلي الظلم
أمين الإلٰه وبرهانه — وعدل البرية والمعتصم
رسول المليك ومن بعده — خليفتنا القائم المدعم
علياً عنيت وصي النبي — نجالد عنه غواة الأمم
له الفضل والسبق والمكرمات — وبيت النبوة لا يهتضم

فسر الناس بخطبة جرير وشعره وقال ابن الأزور القسري يمدح جريراً في خطبته:

لعمر أبيك والأنباء تنمى — لقد جلى بخطبته جرير
أتاك بأمره زحر بن قيس — وزحر بالتي حدثت خبير
فكنت بما أتاك به سميعاً — وكدت إليه من فرح تطير
فأحرزت الثواب ورب حاد — حدا بالركب ليس له بعير

ليهنك ما سبقت به رجالاً　　من العلياء والفضل الكبير

ثم أقبل جرير من ثغر همدان حتى ورد على علي (ع) بالكوفة فبايعه ودخل فيما دخل فيه الناس من الطاعة. وكتب علي عليه السلام إلى الأشعث بن قيس مع زياد بن مرحب الهمداني والأشعث عامل عثمان على آذربيجان وقد كان عمرو بن عثمان تزوج ابنة الأشعث بن قيس: أما بعد لولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس ولعل أمرك يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله ثم أنه كان من بيعة الناس إياي ما قد بلغك وكان طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي على غير حدث وأخرجا أم المؤمنين وسارا إلى البصرة فسرت إليهما فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا فيما خرجوا منه فأبوا فأبلغت في الدعاء وأحسنت في البقية وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه أمانة وفي يديك مال من مال لله وأنت من خزان الله عليه حتى تسلمه إلي ولعلي أن لا أكون شر ولاتك لك إن استقمت ولا قوة إلا بالله. وهذا الكتاب هو عزل للأشعث، فقام زياد بن مرحب فخطب وذكر ما جرى لأهل الجمل ثم قام الأشعث فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن أمير المؤمنين عثمان ولاني آذربيجان فهلك وهي في يدي وقد بايع الناس علياً وطاعتنا له كطاعتنا من كان قبله وقد كان من أمر طلحة والزبير ما قد بلغكم وعلي المأمون ما غاب عنكم وعنا. فلما أتى منزله دعا أصحابه فقال: إن كتاب علي قد أوحشني وهو آخذ مال آذربيجان وأنا لاحق بمعاوية، فقالوا: الموت خير لك من ذلك أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام فاستحيا فسار حتى قدم على علي.

حرب صفين

وهي من الحروب العظيمة التي وقعت في الإسلام قتل فيها من الفريقين مائة وعشرة آلاف على الأكثر وسبعون ألفاً على الأقل وكان الباعث عليها كالباعث على حرب الجمل وهو حب الدنيا والعداوة للرسول وأهل بيته، ولو كانت هذه الحروب في نصرة الإسلام لجرت على الإسلام خيراً كثيراً بقدر ما جرت عليه من الضرر أو أكثر أو أن الباعث عليه الاجتهاد وطلب ثأر الخليفة وإن

كان ثأره عند من طلب بثأره فالاجتهاد بابه واسع فيمكن للقاتل أن يطلب بثأر القتيل لأن اجتهاده أداه إلى ذلك فيقتل بسبب ذلك مئات الألوف من المسلمين ويجر إلى القاتل والمقتول منهم نفعاً عظيماً فيكون كلاهما في الجنة وأي سعادة أعظم من دخول الجنة!!

الكتب المؤلفة في وقعة صفين

وقد صنفت في وقعة صفين كتب مستقلة مثل كتاب نصر بن مزاحم المنقري وكتاب إبراهيم بن ديزيل وكتاب أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي وغيرها.

مقدار الجيشين

قال المسعودي: اختلف في مقدار ما كان مع علي من الجيش وما كان مع معاوية فمكثر ومقل والمتفق عليه من قول الجميع إنه كان مع علي تسعون ألفاً ومع معاوية خمسة وثمانون ألفاً.

تأريخ الوقعة

الذي ذكره جماعة من المؤرخين إنها كانت من ابتداء ذي الحجة سنة ٣٦ وانتهت في ١٣ صفر سنة ٣٧ ففي جمادى الآخرة سنة ٣٦ كانت وقعة الجمل كما مر وفي ١٢ رجب منها سار أمير المؤمنين عليه السلام من البصرة إلى الكوفة والمسافة بينهما نحو عشرة أيام فيكون وصوله إليها في نحو ٢٢ منه وقال نصر في كتاب صفين في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب سنة ٣٦ قدم علي من البصرة إلى الكوفة (اهـ) وظاهره أن وصوله إليها كان بذلك التاريخ ويمكن أن يريد خروجه إليها. ثم خرج إلى النخيلة معسكر الكوفة في أواخر شهر رمضان أو أول شوال منها وفي ٥ أو ٦ من شوال سار من النخيلة إلى صفين أما وصوله إلى صفين فلا يحضرني الآن تعيينه ويظهر من الطبري أن وصولهم إلى صفين كان في أواسط ذي القعدة سنة ٣٦ فإنه بعدما ذكر القتال على الماء

عند وصولهم قال: فمكث علي يومين لا يراسل معاوية، ثم راسله أول ذي الحجة (اهـ) فيكون مقامهم في الطريق بين الكوفة وصفين نحو شهر وعشرين يوماً والمسافة بينهما وإن كان يمكن قطعها بأقل من نصف هذه المدة إلا أن مسير جيش فيه تسعون ألفاً أو أكثر بأثقالها لا يمكن إلا أن يكون في قليل من كل يوم غدوة وعصراً لا سيما إن كان يجمع العساكر في طريقه من المدائن وغيرها وأن أهل الرقة منعوه من العبور وقطعوا الجسر ومضت مدة حتى أعادوه وجرت خطوب كما يأتي استغرقت زمناً طويلاً. وقال المسعودي وغيره إن مقامهم بصفين كان مائة يوم وعشرة أيام كان فيها نحو تسعين أو سبعين وقعة (اهـ) وهو يقارب ما ذكره الطبري بأن يكون وصولهم إلى صفين في العشرين من ذي القعدة فإذا ضمت العشرين الباقية منه إلى ذي الحجة والمحرم وصفر الذي كتبت الصحيفة لأيام بقيت منه لعلها لا تتجاوز الثلاثة فهذه نحو مائة يوم وإلى أن أمضيت الصحيفة واستعدوا للسفر مضى نحو ثلاثة عشر يوماً فهذه مائة يوم وعشرة أيام. وقال المسعودي أيضاً: كان بين دخول علي إلى الكوفة والتقائه مع معاوية للقتال بصفين ستة أشهر و١٣ يوماً لعله أراد المدة بين دخوله الكوفة وانتهاء الحرب فخرج من البصرة في ١٢ رجب ووصل الكوفة في آخره فقطع المسافة بينهما في ١٨ يوماً وإن كان يمكن قطعها بأقل فأقام بها شعبان ورمضان وخرج إلى صفين في شوال أو أواخر شهر رمضان ووصلها في ذي القعدة وانتهت الحرب في ١٣ صفر فهذه ستة أشهر و١٣ يوماً.

والحاصل أنه في جمادى الآخرة سنة ٣٦ كانت وقعة الجمل وفي ١٢ رجب منها سار أمير المؤمنين (ع) من البصرة إلى الكوفة وفي آخر رمضان أو أول شوال خرج من الكوفة إلى النخيلة وفي ٥ أو ٦ من شوال سار من النخيلة إلى صفين فوصلها في ذي القعدة وابتدأ الحرب في أول ذي الحجة سنة ٣٦ قاله ابن الأثير وغيره واستمر إلى آخره وتركوا الحرب في المحرم سنة ٣٧ واستؤنف واشتد في أول صفر إلى ١٣ منه فوقع الصلح. وفي مروج الذهب كان الصلح لأيام بقين من صفر سنة ٣٧ وقيل بعد هذا الشهر منها وفيه في موضع آخر

وكتبت صحيفة الصلح لأيام بقين منه «اهـ». واجتمع الحكمان في شعبان سنة ٣٧. هذا ما ذكره جماعة من المؤرخين في تواريخ هذه الوقعة.

وقيل: كانت الوقعة سنة ٣٨ وعليه ينطبق قول المسعودي كان التقاء الحكمين سنة ٣٨ وما حكاه الطبري عن الواقدي أن اجتماع الحكمين كان في شعبان سنة ٣٨ أو أن اجتماع الحكمين تأخر أكثر من سنة وهو بعيد، وقال نصر بن مزاحم في كتاب صفين أنهم تراسلوا بعد وصول علي (ع) إلى صفين ثلاثة شهور ربيع الثاني وجمادين وهو يقتضي أن يكون وصولهم لصفين في أواخر ربيع الأول وهو يخالف ما مر من أن وصولهم كان في أواخر ذي القعدة مع عدم انطباقه على كون الوقعة سنة ٣٦ ولا على كونها سنة ٣٧ ولا ٣٨ لأنه إن كان من سنة ٣٦ فحرب الجمل لم تكن قد وقعت بعد وإن كان من سنة ٣٧ يلزم كون مقامهم بصفين أكثر من سنة وقد مر أنه كان مائة يوم وعشرة أيام وإن كان من سنة ٣٨ فيلزم أن يكون مقامهم بصفين أكثر من سنة أيضاً.

ونحن نعتمد في حرب صفين على كتاب نصر بن مزاحم فإنه من الكتب المعتمدة فإن أخذنا شيئاً من غيره صرحنا به. قال نصر بن مزاحم أن علياً مكث بالكوفة فقال الشني في ذلك شن عبد القيس:

قل لهذا الإمام قد خبت الحر ... ب وتمت بذلك النعماء
وفرغنا من حرب من نقض العهـ ... ـد وبالشام حية صماء
تنفث السم ما لمن نهشته ... فارمها قبل أن تعض شفاء
إنه والذي تحج له النا ... س ومن دون بيته البيداء
لضعيف النخاع إن رمي اليو ... م بخيل كأنها الأشلاء
تتبارى بكل أصيد كالفحـ ... ـل بكفيه صعدة سمراء
أو تذره فما معاوية الدهـ ... ـر بمعطيك ما أراك تشاء
ولنيل السماك أقرب من ذا ... ك ونجم العيوق والعواء
فاضرب الحد والحديد إليهم ... ليس والله غير ذاك دواء

وكتب علي إلى العمال في الآفاق وكان من أهم الوجوه إليه الشام وقدم عليه الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة وحارثة بن بدر وزيد بن جبلة وأعين بن ضبيعة فتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين إن تك سعد لم تنصرك يوم الجمل فإنها لم تنصر عليك وقد عجبوا أمس ممن نصرك وعجبوا اليوم ممن خذلك لأنهم شكوا في طلحة والزبير ولم يشكوا في معاوية وعشيرتنا بالبصرة فلو بعثنا إليهم فقدموا إلينا فقاتلنا بهم العدو وانتصفنا بهم وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس فقال علي لجارية بن قدامة وكان رجل تميم بعد الأحنف: ما تقول يا جارية؟ فأجاب بما يدل على كراهته لإشخاص قومه عن البصرة وكان حارثة بن بدر أسد الناس عند الأحنف وكان شاعر بني تميم وفارسهم فقال علي: ما تقول يا حارثة؟ فقال من جملة كلام: إن لنا في قومنا عدداً لا نلقي بهم عدواً أعدى من معاوية ولا نسد بهم ثغراً أشد من الشام ووافق الأحنف في رأيه فقال علي للأحنف: اكتب إلى قومك فكتب إلى بني سعد أما بعد فإنه لم يبق أحد من بني تميم إلا وقد شقوا برأي سيدهم غيركم وعصمكم الله برأيي لكم حتى نلتم ما رجوتم وأمنتم ما خفتم وأصبحتم منقطعين من أهل البلاء لاحقين بأهل العافية وإني أخبركم أنا قدمنا على تميم الكوفة فأخذوا عيناً بفضلهم مرتين بمسيرهم إلينا مع علي وإجابتهم إلى المسير إلى الشام فأقبلوا إلينا ولا تتكلوا عليهم وكتب معاوية بن صعصعة وهو ابن أخي الأحنف إليهم:

تميم ابن مروان أحنف نعمة ... من اللّه لم يخصص بها دونكم سعدا
وعم بها من بعدكم أهل مصركم ... ليالي ذم الناس كلهم الوفدا
سواه لقطع الحبل عن أهل مصره ... فأمسوا جميعاً آكلين به رغدا
وكان لسعد رأيه أمس عصمة ... فلم يخط لا الإصدار فيهم ولا الوردا
وفي هذه الأخرى له مخض زبدة ... سيخرجها عفواً فلا تعجلوا الزبدا
ولا تبطئوا عنه وعيشوا برأيه ... ولا تجعلوا مما يقول لكم بدا
أليس خطيب القوم في كل وفدة ... وأقربهم قرباً وأبعدهم بعدا
وإن علياً خير حاف وناعل ... فلا تمنعوه اليوم جهداً ولا جدا

ومـن نـزلـت فـيـه ثـلاثـون آيـة تسميه فيها مؤمناً مخلصاً فردا
سوى موجبات جئن فيه وغيرها بـهـا أوجـب الـلّـه الـولايـة والـودا

فلما انتهى كتاب الأحنف وشعر معاوية بن صعصعة إلى بني سعد ساروا بجماعتهم حتى نزلوا الكوفة قدمت عليهم ربيعة.

إرسال جرير إلى معاوية

وأراد علي أن يبعث إلى معاوية رسولاً فقال له جرير بن عبد اللّه البجلي: ابعثني إليه فإنه لم يزل لي مستنصحاً فادعوه إلى أن يسلم لك الأمر على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك ما عمل بطاعة الله وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وجلهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت أن لا يعصوني فقال له الأشتر: لا تبعثه فوالله إني لأظن هواه هواهم فقال له علي: دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا فبعثه وقال له: إن حولي من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الدين والرأي من قد رأيت وقد اخترتك عليهم ائت معاوية بكتابي فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه واعلمه إني لا أرضى به أميراً وقال المبرد في الكامل: إن جريراً قال له: والله يا أمير المؤمنين ما أدخرك من نصرتي شيئاً وما أطمع لك في معاوية فقال علي: إنما قصدي حجة أقيمها فانطلق جرير حتى أتى الشام ودخل على معاوية فقال: أما بعد يا معاوية فإنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين وأهل الحجاز واليمن ومصر وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليمامة ولم يبق إلا هذه الحصون التي أنت بها لو سال عليها سيل من أوديته غرقها وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك إلى مبايعة هذا الرجل ودفع إليه كتاب علي بن أبي طالب وفيه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم أما بعد فإن بيعتي لزمتك بالمدينة وأنت بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه فلم يك للشاهد أن يختار وللغائب أن يرد وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً كان ذلك لله رضا فإن خرج من أمرهم خارج

بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا. وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون، فادخل فيما دخل فيه المسلمون فإن أحب الأمور إلي فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على كتاب الله، فأما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان وأعلم إنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى، وقد أرسلت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد اللّه وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قوة إلا بالله. فلما قرأ الكتاب قام جرير فخطب خطبة قال في آخرها: أيها الناس إن أمر عثمان قد أعيا من شهده فما ظنكم بمن غاب عنه وإن الناس بايعوا علياً غير واتر ولا موتور وكان طلحة والزبير ممن بايعه ثم نكثا بيعته على غير حدث، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، ألا وإن العرب لا تحتمل السيف وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة أن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس، وقد بايعت العامة علياً ولو ملكنا والله أمورنا لم نختر لها غيره وما خالف هذا استعتب فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس فإن قلت استعملني عثمان ثم لم يعزلني فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين وكان لكل امرىء ما في يديه ولكن الله لم يجعل للآخر من الولاة حق الأول وجعل تلك أموراً موطأة وحقوقاً ينسخ بعضها بعضاً. فقال معاوية: انظر وتنظر واستطلع رأي أهل الشام وأمر معاوية منادياً فنادى الصلاة جامعة فصعد المنبر وقال: الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً والشرائع للإيمان برهاناً يتوقد قابسه في الأرض المقدسة التي جعلها الله محل الأنبياء والصالحين من عباده فأحلها أهل الشام ورضيهم لها ورضيها لهم لما سبق من مكنون علمه من طاعتهم ومناصحتهم خلفاءه والقوام بأمره والذابين عن دينه وحرماته ثم جعلهم لهذه الأمة نظاماً وفي سبيل الخيرات

أعلاماً يردع الله بهم الناكثين ويجمع بهم ألفة المؤمنين والله نستعين على ما تشعب من أمر المسلمين بعد الالتئام وتباعد بعد القرب، اللهم انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ويخيفون آمننا ويريدون هراقة دمائنا وإخافة سبلنا وقد يعلم الله أنا لم نرد بهم عقاباً ولا نهتك لهم حجاباً ولا نوطئهم زلقاً، غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جاوب الصدى وسقط الندى وعرف الهدى حملهم على خلافنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم. أيها الناس قد علمتم إني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وإني خليفة عثمان بن عفان عليكم وإني لم أقم رجلاً منكم على خزاية قط وإني ولي عثمان وقد قتل مظلوماً والله يقول: ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً. وأنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان. فقام أهل الشام بأجمعهم فأجابوا إلى الطلب بدم عثمان وبايعوه على ذلك وأوثقوا له على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم ويدركوا ثأره أو يفني الله أرواحهم فلما جن معاوية الليل وكان قد اغتم وعنده أهل بيته قال:

تطاول ليلي واعترتني وساوسي ... لآت أتى بالترهات البسابس
أتانا جرير والحوادث جمة ... بتلك التي فيها اجتداع المعاطس
أكابده والسيف بيني وبينه ... ولست لأثواب الدني بلابس
إن الشام أعطت طاعة يمنية ... تواصفها أشياخها في المجالس
فإن يجمعوا أصدم علياً بجبهة ... تغث عليه كل رطب ويابس
وإني لأرجو خير ما أنا نائل ... وما أنا من ملك العراق بآيس

واستحثه جرير بالبيعة فقال: يا جرير إنها ليست بخلسة وإنه أمر له ما بعده فأبلعني ريقي حتى أنظر.

طلب معاوية عمرو بن العاص

ودعا ثقاته فقال له عتبة بن أبي سفيان: وكان نظيره استعن على هذا الأمر بعمرو بن العاص وأثمن له بدينه فإنه من قد عرفت وقد اعتزل أمر عثمان في

حياته وهو لأمرك أشد اعتزالاً إلا أن يرى فرصة. فكتب معاوية إلى عمرو وهو بفلسطين، كان ذهب إليها لما حوصر عثمان وكان له منزل بها: أما بعد فإنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني أقبل أذاكرك أمراً. فاستشار عمرو ابنيه عبد الله ومحمداً فقال عبد الله: قتل عثمان وأنت عنه غائب فقر في منزلك فلست مجعولاً خليفة ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشك أن تهلك فتشقى فيها. وقال: محمد إنك شيخ قريش وصاحب أمرها وأن تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك فالحق بجماعة أهل الشام فكن يداً من أيديها واطلب بدم عثمان. فقال عمرو: أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وأنا ناظر فيه، فلما جنه الليل رفع صوته وأهله ينظرون إليه فقال:

تطاول ليلي للهموم الطوارق ... وحولي التي تجلو وجوه العواتق

وإن ابن هند سائلي أن أزوره ... وتلك التي فيها بنات البوائق

أتاه جرير من علي بخطة ... أمرت عليه العيش ذات مضايق

فإن نال مني ما يؤمل رده ... وإن لم ينله ذل ذل المطابق(1)

فوالله ما أدري وما كنت هكذا ... أكون ومهما قادني فهو سائقي

أخادعه إن الخداع دنية ... أم أعطيه من نفسي نصيحة وامق

أو اقعد في بيتي وفي ذاك راحة ... لشيخ يخاف الموت في كل شارق

وقد قال عبد الله قولاً تعلقت ... به النفس إن لم تعتلقني عوائقي

وخالفه فيه أخوه محمد ... وإني لصلب العود عند الحقائق

فقال عبد الله: ترحل الشيخ. ودعا عمرو غلاماً له يقال له وردان وكان داهياً مارداً فقال: ارحل يا وردان ثم قال: حط يا وردان فقال له وردان: خلطت أبا

---

(1) المقيد.

عبد اللّه أما إنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك. قال: هات ويحك قال: اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت: علي معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة فأنت واقف بينهما. قال: والله ما أخطأت فما ترى يا وردان؟ قال: أرى أن تقيم في بيتك فإن ظهر أهل الدين عشت عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك قال: الآن لما شهدت العرب مسيري إلى معاوية فارتحل وهو يقول:

يـا قـاتـل وردانـا وقـرحـتـه	أبدي لعمرك ما في النفس وردان
أمـا عـلـي فـديـن لـيـس يـشـركـه	دنـيـا وذاك لـه دنـيـا وسـلـطـان
فاخترت من طمعي ديناً على بصر	ومـا مـعـي بـالـذي اخـتـار بـرهـان
لكن نفسي تحب العيش في شرف	ولـيـس يـرضـى بـذل الـعـيـش إنـسـان

فسار حتى قدم على معاوية وعرف حاجة معاوية إليه فباعده وكايد كل واحد منهما صاحبه فلما دخل عليه قال: أبا عبد اللّه طرقتنا في ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر قال: وما ذاك قال: ذاك إن محمد بن أبي حذيفة[1] كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه وهو من آفات هذا الدين و، منها أن قيصر زحف بجماعة الروم إلي ليغلب على الشام، ومنها أن علياً نزل الكوفة متهيأ للمسير إلينا قال: ليس كل ما ذكرت عظيماً أما ابن أبي حذيفة فما يتعاظمك من رجل خرج في أشباهه أن تبعث إليه خيلاً تقتله أو تأتيك به وإن فاتك لا يضرك وأما قيصر فاهد له من وصفاء الروم ووصائفها وآنية الذهب والفضة وسله الموادعة فإنه إليها سريع وأما علي فلا والله يا معاوية ما تسوي

---

(١) هو محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. في الإصابة ما حاصله: إنه استأذن عثمان في سكنى مصر فأذن له وكان من أشد الناس تأليباً على عثمان ثم لما قدم عبد اللّه بن سعد أمير مصر على عثمان حين طلب أمراء الأمصار لما قام الناس عليه استخلف عقبة بن عامر فوثب محمد بن أبي حذيفة على عقبة فأخرجه من مصر وضبطها، فلما أراد معاوية بن أبي سفيان المسير إلى صفين رأى أن لا يترك أهل مصر مع ابن أبي حذيفة خلفه فسار إليهم في عسكر كثيف فخرج إليه ابن أبي حذيفة في أهل مصر فمنعه من دخول الفسطاط ثم صالحه معاوية فغدر به وسجنه.

العرب بينك وبينه في شيء من الأشياء وإن له في الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه.

وقال معاوية لعمرو: يا أبا عبد الله إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربه وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرى الجماعة وقطع الرحم، قال عمرو: إلى من؟ قال: إلى جهاد علي. فقال له عمرو: والله يا معاوية ما أنت وعلي بعكمي[1] بعير. ما لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه. والله إن له مع ذلك حداً وحدوداً وحظاً وحظوة وبلاء من الله حسناً. فما تجعل لي إن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال: حكمك. قال: مصر طعمة، فتلكأ عليه معاوية (وفي رواية) قال له معاوية: إني أكره لك أن يتحدث العرب عنك إنك إنما دخلت في هذا الأمر لعرض الدنيا قال: دعني عنك. قال معاوية: إني لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت قال عمرو: لا لعمر الله ما مثلي يخدع لأنا أكيس من ذلك. قال له معاوية: ادن مني برأسك أسارك فدنا منه عمرو يساره فعض معاوية إذنه وقال: هذه خدعة هل ترى في بيتي أحداً غيري وغيرك فأنشأ عمرو يقول:

معاوية لا أعطيك ديني ولم أنل ... بذلك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطني مصراً فاربح بصفقة ... أخذت بها شيئاً يضر وينفع
وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنع
وأعطيك أمراً فيه للملك قوة ... وإني له إن زلت النعش أضرع

قال: يا أبا عبد الله ألم تعلم أن مصر مثل العراق قال: بلى ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق، وقد كان أهلها بعثوا بطاعتهم إلى علي ودخل عتبة بن أبي سفيان فقال: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صفت لك فليتك لا تغلب على الشام فقال معاوية: يا

(١) العكم بالكسر العدل ما دام فيه المتاع والعكمان العدلان وما أنتما بعكمي بعير أي لستما متساويين.

عتبة بت عندنا الليلة. فلما جن الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية وقال من أبيات:

أعـط عـمـراً إن عـمـراً تـارك ... ديـنـه الـيـوم لـدنـيـا لـم تـحـز
أعـطـه مـصـراً وزده مـثـلـهـا ... إنـمـا مـصـر لـمـن عـز وبـز
إن مـصـراً لـعـلـي أو لـنـا ... يـغـلـب الـيـوم عـلـيـهـا مـن عـجـز

فلما سمع معاوية قوله أرسل إلى عمرو وأعطاه مصراً فقال عمرو: لي الله عليك بذلك شاهد قال: نعم لك الله علي بذلك إن فتح الله علينا الكوفة فقال عمرو: والله على ما نقول وكيل. فخرج عمرو من عنده فقال له ابناه: ما صنعت قال: أعطانا مصر طعمة قالا: وما مصر في ملك العرب قال: لا أشبع الله بطونكما إن لم تشبعكما. وكتب معاوية له بمصر كتاباً وكتب على أن لا ينقض شرط طاعة فكتب عمرو على أن لا ينقض طاعة شرطاً فكايد كل واحد منهما صاحبه. ذكر هذا اللفظ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد في الكامل، وتفسيره: إن قول معاوية على أن لا ينقض شرط طاعة أي أن الإخلال بما شرط له لا ينقض طاعة عمرو له فعليه أن يطيعه ولو أخل بالشرط وقول عمرو على أن لا ينقض طاعة شرطاً أي أن الإخلال بالطاعة لا ينقض هذا الشرط فعليه أن يفي بما شرط ولو أخل عمرو بالطاعة. وكان مع عمرو ابن عم له فتى شاب وكان داهياً حليماً فلما جاء عمرو بالكتاب مسرورا عجب الفتى وقال: ألا تخبرني يا عمرو بأي رأي تعيش في قريش؟ أعطيت دينك ومنيت دنيا غيرك أترى أهل مصر وهم قتلة عثمان يدفعونها إلى معاوية وعلي حي وتراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدمه في الكتاب فقال عمرو: يا ابن الأخ إن الأمر لله دون علي ومعاوية فقال الفتى في ذلك شعراً:

ألا يـا هـنـد أخـت بـنـي زيـاد ... دهـي عـمـرو بـداهـيـة الـبـلاد
لـه خـدع يـحـار الـعـقـل فـيـهـا ... مـزخـرفـة صـوائـد لـلـفـؤاد
تـشـرط فـي الـكـتـاب عـلـيـه حـرفـاً ... يـنـاديـه بـخـدعـتـه الـمـنـادي
وأثـبـت مـثـلـه عـمـرو عـلـيـه ... كـلا الـمـرئـيـن حـيـة بـطـن وادي

ألا يا عمرو ما أحرزت مصراً ... وما ملت الغداة إلى الرشاد
وبعت الدين بالدنيا خسارا ... فأنت بذاك من شر العباد
فلو كنت الغداة أخذت مصراً ... ولكن دونها خرط القتاد
وفدت إلى معاوية بن حرب ... فكنت بها كوافد قوم عاد
وأعطيت الذي أعطيت منه ... بطرس فيه نضح من مداد
ألم تعرف أبا حسن علياً ... وما نالت يداه من الأعادي
عدلت به معاوية بن حرب ... فيا بعد البياض من السواد
ويا بعد الأصابع من سهيل ... ويا بعد الصلاح من الفساد
أتأمن أن تراه على خدب ... يحث الخيل بالأسل الحداد
ينادي بالنزال وأنت منه ... بعيد فانظرن من ذا تعادي

فقال عمرو: يا ابن أخي لو كنت مع علي وسعني بيتي ولكن الآن مع معاوية. فقال له الفتى: إنك إن لم ترد معاوية لم يردك ولكنك تريد دنياه ويريد دينك. وبلغ معاوية قول الفتى فطلبه فهرب فلحق بعلي فحدثه بأمر عمرو ومعاوية فسره ذلك وقربه. وغضب مروان وقال: ما بالي لا أشترى كما اشتري عمرو؟! فقال له معاوية: إنما تبتاع الرجال لك. وقال معاوية لعمرو: ما ترى قال: امض الرأي الأول فبعث مالك بن هبيرة الكندي في طلب ابن أبي حذيفة فأدركه فقتله وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه ثم قال: ما ترى في علي؟ قال: إن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط بن جبلة الكندي هو عدو لجرير المرسل إليك فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس إن علياً قتل عثمان وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب وإن تعلق بقلبه لم يخرجها شيء أبداً فكتب إليه أن جرير بن عبد اللّه قدم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر فظيع فأقدم، ودعا جماعة هم رؤساء قحطان واليمن وثقات معاوية وخاصته وبنو عم شرحبيل وأمرهم أن يلقوه ويخبروه أن علياً قتل عثمان فلما قدم عليه كتاب معاوية وهو بحمص استشار أهل اليمن فاختلفوا عليه فقام إليه عبد الرحمٰن بن غنم الأزدي وكان أفقه أهل الشام فقال: إن الله لا يغير

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم إنه قد ألقي إلينا قتل عثمان وإن علياً قتله فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحكام على الناس وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه؟ لا تهلك نفسك وقومك، فأبى شرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية فبعث إليه عياض اليماني وكان ناسكاً بهذه الأبيات:

أيا شرح يا ابن السمط إنك بالغ   بود علي ما تريد من الأمر
ويا شرح إن الشام شامك ما بها   سواك فدع قول المضلل من فهر
فإن ابن حرب ناصب لك خدعة   تكون علينا مثل راغية البكر
فإن نال ما يرجو بنا كان ملكنا   هنيئاً له والحرب قاصمة الظهر
وإن علياً خير من وطيء الحصى   من الهاشميين المداريك للوتر
له في رقاب الناس عهد وذمة   كعهد أبي حفص وعهد أبي بكر
فبايع ولا ترجع على العقب كافراً   أعيذك بالله العزيز من الكفر
ولا تسمعن قول الطغام فإنما   يريدون أن يلقوك في لجة البحر
وماذا عليهم أن تطاعن دونهم   علياً بأطراف المثقفة السمر
فإن غلبوا كانوا علينا أئمة   وكنا بحمد الله من ولد الطهر
وإن غُلبوا لم يصل بالحرب غيرنا   وكان علي حربنا آخر الدهر
يهون على عليا لؤي بن غالب   دماء بني قحطان في ملكهم تجري
فدع عنك عثمان بن عفان إننا   لك الخير لا ندري وإنك لا تدري
على أي حال كان مصرع جنبه   فلا تسمعن قول إلا عيور أو عمرو

فلما قدم شرحبيل على معاوية تلقاه الناس فأعظموه ودخل على معاوية فقال معاوية: إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة علي وعلي خير الناس لولا أنه قتل عثمان بن عفان وحبست نفسي عليك وإنما أنا رجل من أهل الشام أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا فقال شرحبيل: أخرج فانظر. فخرج فلقيه هؤلاء النفر الموطئون له فكلهم يخبره بأن علياً قتل عثمان فرجع إلى معاوية مغضباً فقال: يا معاوية أبى الناس إلا أن علياً قتل عثمان ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو لنقتلنك قال معاوية: ما كنت لأخالف عليكم ما أنا إلا رجل من

أهل الشام قال: فرد هذا الرجل إلى صاحبه إذن. فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق وإن الشام كله مع شرحبيل فخرج شرحبيل فقال لحصين بن نمير: ابعث إلى جرير فبعث إليه فاجتمعا عنده، فقال شرحبيل: يا جرير أتيتنا بأمر ملفف لتلقينا في لهوات الأسد وأردت أن تخلط الشام بالعراق وأطريت علياً وهو قاتل عثمان والله سائلك عما قلت يوم القيامة. فقال جرير: أما قولك إني جئت بأمر ملفف فكيف يكون أمراً ملففاً وقد اجتمع عليه المهاجرون والأنصار وقوتل على رده طلحة والزبير وأما قولك: إني ألقيتك في لهوات الأسد ففي لهواته ألقيت نفسك وأما خلط العراق بالشام فخلطها بها على حق خير من فرقتها على باطل وأما قولك إن علياً قتل عثمان فوالله ما في يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ولكنك ملت إلى الدنيا وشيء كان في نفسك علي زمن سعد بن أبي وقاص. فبلغ معاوية قول الرجلين فبعث إلى جرير فزجره وكتب جرير إلى شرحبيل:

شرحبيل يا ابن السمط لا تتبع الهوى ... فما لك في الدنيا من الدين من بدل

وقل لابن حرب ما لك اليوم حرمة ... تروم بها ما رمت فاقطع له الأمل

شرحبيل إن الحق قد جد جده ... وإنك مأمون الأديم من النغل

وارود[1] ولا تفرط بشيء نخافه ... عليك ولا تعجل فلا خير في العجل

ولأنك كالمجري إلى شر غاية ... فقد خرق السربال واستنوق الجمل

وقال ابن هند في علي عضيهة[2] ... ولله في صدر ابن أبي طالب أجل

وما لعلي في ابن عفان سقطة ... بأمر ولا جلب عليه ولا قتل

وما كان إلا لازماً قعر بيته ... إلى أن أتى عثمان في بيته الأجل

فمن قال قولاً غير هذا فحسبه ... من الزور والبهتان بعض الذي احتمل

وصي رسول الله من دون أهله ... وفارسه الأولى به يضرب المثل

---

(١) ارفق تمهل.

(٢) كذب.

فلما قرأ شرحبيل الكتاب ذعر وفكر وقال: هذه نصيحة لي في ديني ودنياي لا والله لا أعجل في هذا الأمر بشيء. فلفلف له معاوية الرجال يدخلون إليه ويخرجون ويعظمون عنده قتل عثمان ويرمون به علياً ويقيمون الشهادة الباطلة والكتب المختلفة حتى أعادوا رأيه وشحذوا عزمه وبلغ ذلك قومه فبعث إليه ابن أخت له من بارق كان يرى رأي علي بن أبي طالب فبايعه وكان ممن لحق به من أهل الشام وكان ناسكاً فقال:

لعمر أبي الأشقى ابن هند لقد رمى ... شرحبيل بالسهم الذي هو قاتله
ولفف قوماً يسحبون ذيولهم ... جميعاً وأولى الناس بالذنب فاعله
فألقى يمانياً ضعيفاً نخاعه ... إلى كل ما يهوون تحدي رواحله
وقالوا علي في ابن عفان خدعة ... ودبت إلين بالشنان غوائله
ولا والذي أرسى ثبيراً مكانه ... لقد كف عنه كفه ووسائله
وما كان إلا من صحاب محمد ... وكلهم تغلي عليه مراجله

فقال شرحبيل: هذا بعيث الشيطان الآن امتحن الله قلبي والله لأسيرن إلى صاحب هذا الشعر أو ليفوتني، فهرب الفتى إلى الكوفة وكان أصله منها، وكاد أهل الشام أن يرتابوا وبعث معاوية إلى شرحبيل أنه قد كان من إجابتك الحق وما وقع فيه أجرك على الله وقبله عنك صلحاء الناس ما علمت وإن هذا الأمر الذي عرفته لا يتم إلا برضا العامة فسر في مدائن الشام وناد فيهم بأن علياً قتل عثمان وأنه يجب على المسلمين أن يطلبوا بدمه، فسار فبدأ بأهل حمص فقام فيهم خطيباً وكان مأموناً في أهل الشام ناسكاً متألهاً فقال: يا أيها الناس إن علياً قتل عثمان وقد غضب له قوم فقتلهم وغلب على الأرض فلم يبق إلا الشام وهو واضع سيفه على عاتقه ثم خائض به غمار الموت حتى يأتيكم أو يحدث الله أمراً ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية فجدوا فأجابه الناس الأنساك من أهل حمص فإنهم قالوا: بيوتنا قبورنا ومساجدنا وأنت أعلم بما ترى وجعل يستنهض مدائن الشام حتى استفرغها لا يأتي على قوم إلا قبلوا ما أتاهم به فبعث إليه الناشي بن الحارث وكان صديقاً له:

وشحناء دبت بين سعد وبينه فأصبحت كالحادي بغير بعير
أتنصل أمراً غبت عنه بشبهة وقد حار فيها عقل كل بصير
بقول رجال لم يكونوا أئمة ولا للتي لقوكها بحضور
وما قول قوم غائبين تقاذفوا من الغيب ما دلاهم بغرور
وتترك أن الناس أعطوا عهودهم علياً على أنس به وسرور
إذا قيل هاتوا واحداً تقتدونه نظيراً له لم يفحصوا بنظير
لعلك أن تشقى الغداة بحربه شرحبيل ماما جئته بصغير

(وروى) نصر بن مزاحم بسنده عن الشعبي أن شرحبيل دخل على معاوية فقال: أنت عامل أمير المؤمنين وابن عمه ونحن المؤمنون فإن كنت رجلاً تجاهد علياً وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تفنى أرواحنا استعملناك علينا وإلا عزلناك واستعملنا غيرك ممن نريد ثم جاهدنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلك فقال جرير: يا شرحبيل مهلاً فإن الله قد حقن الدماء ولم الشعث وجمع أمر الأمة ودنا من هذه الأمة سكون فإياك أن تفسد بين الناس وأمسك عن هذا القول قبل أن يظهر منك قول لا تستطيع رده، قال: لا والله لا أسره أبداً. ثم قام فتكلم فقال الناس: صدق صدق، القول ما قال والرأي ما رأى. فأيس جرير عند ذلك من معاوية ومن عوام أهل الشام. وكان معاوية أتى جريراً في منزله فقال: إني رأيت رأياً قال: هاته قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي وأسلم له هذا الأمر وأكتب إليه بالخلافة فقال جرير: أكتب بما أردت وأكتب معك. فكتب معاوية بذلك إلى علي فكتب علي إلى جرير أما بعد فإنما أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما أحب وأراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام وأن المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي أن استعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني أتخذ المضلين عضداً. فإن بايعك الرجل وإلا فأقبل. وفشا كتاب معاوية في العرب فبعث إليه الوليد بن عقبة:

معاوي إن الشام شامك فاعتصم بشامك لا تدخل عليك الأفاعيا

وحام عليها بالقنابل والقنا ولا تك محشوش الذراعين وانيا
وإن علياً ناظر ما تجيبه فاهد له حرباً يشيب النواصيا
وإلا فسلم إن في السلم راحة لمن لا يريد الحرب فاختر معاويا
وإن كتاباً يا ابن حرب كتبته على طمع يزجي إليك الدواهيا
سألت علياً فيه مّا لن تناله ولو نلته لم يبق إلا لياليا
وسوف ترى منه الذي ليس بعده بقاء فلا تكثر عليك الأمانيا
امثل علي تعتريه بخدعة وقد كان ما جربت من قبل كافيا
ولو نشبت أظفاره فيك مرة حداك ابن هند منه ما كنت حاديا

وأبطأ جرير عند معاوية حتى اتهمه الناس، وقال علي: وقّت لرسولي وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً. وأبطأ على علي حتى أيس منه فكتب إليه: أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل وخذه بالأمر الجزم ثم خيره بين حرب مجلية أو سلم محظية فإن اختار الحرب فانبذ له وإن اختار السلم فخذ بيعته. فاقرأ معاوية الكتاب وقال: يا معاوية لا أظن أن قلبك إلا مطبوعاً أراك قد وقفت بك الحق والباطل فقال معاوية: ألقاك بالفيصل أول مجلس إن شاء الله، فلما بايع معاوية أهل الشام وذاقهم قال: يا جرير إلحق بصاحبك، وكتب إليه بالحرب، قال المبرد في الكامل: وكتب إليه مع جرير جواب كتابه المتقدم: من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب أما بعد فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ولعمري ليس حججك علي كحججك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أبايعك وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام فأما شرفك في الإسلام وقرابتك من النبي ﷺ وموضعك من قريش فلست أدفعه، وكتب في أسفل الكتاب أبيات كعب بن جعيل:

أرى الشام تكره ملك العرا ق وأهل العراق لهم كارهونا
وقالوا علي إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وما في علي لمستعتب مقال سوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنو ب ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سيل عنه حدا شبهة وعمى الجواب عن السائلينا
فليس براضٍ ولا ساخط ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سره ولا بد من بعض ذا أن يكونا

قال المبرد في الكامل: فأجابه علي عليه السلام عن كتابه هذا: من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر بن حرب: أما بعد فإنه أتاني منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتبعه، زعمت إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا وما كان الله ليجمعهم على الضلال ولا يضربهم بالعمى وبعد فما أنت وعثمان إنما أنت رجل من بني أمية وبنو عثمان أولى بذلك منك فإن زعمت إنك أقوى على دم أبيهم منهم فادخل في طاعتي ثم حاكم القوم إلي أحملك وإياهم على المحجة وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير وأهل الشام وأهل البصرة فلعمري ما الأمر فيما هناك إلا سواء لأنها بيعة شاملة لا يستثنى فيها الخيار ولا يستأنف فيها النظر، وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي من قريش فلعمري لو استطعت دفعه لدفعته. وفي هذا الجواب ما يقطع معاذير أهل الجمل وغيرهم التي كانوا يظهرون التشبث بها وقلوبهم منطوية على خلافها فإنهم ليس لهم المطالبة بدم عثمان مع وجود أولاده الذين هم أولياء الدم فعليهم أولاً أن يبايعوا ويقدموا الطاعة ثم يحاكموا قتلة عثمان والمتهمين بقتله فما يوجبه الشرع يجري عليهم على أن المباشر لقتله واحد أو اثنان ولكن هوى النفس ورقة الدين والعداوة يبعثان على اختلاف المعاذير. وأمر علي النجاشي فأجاب عن الشعر فقال:

دعـن يـا مـعـاويـة مـا لـن يـكـونـا
فـقـد حـقـق الـلّـه مـا تـحـذرونـا

أتـاكـم عـلـي بـأهـل الـحـجـا
ز وأهـل الـعـراق فـمـا تـصـنـعـونـا

يـرون الـطـعـان خـلال الـعـجـاج
وضـرب الـفـوارس فـي الـنـقـع دينـا

هـم هـزمـوا الـجـمـع يـوم الـزبـيـر
وطـلـحـة والـمـعـشـر الـنـاكـثـيـنـا

وقـالـوا يـمـيـنـا عـلـى حـلـفـة
لـنـهـدي إلـى الـشـام حـربـاً زبـونـا

تـشـيـب الـنـواصـي قـبـل الـمـشـيـ
ـب وتلقي الحوامل منها الجنينا

فـقـل لـلـمـضـلـل مـن وائـل
ومـن جـعـل الـغـث يـومـاً سـمـيـنـا

جـعـلـتـم عـلـيـاً وأتـبـاعـه
نـظـيـر ابـن هـنـد ألا تـسـتـحـونـا

إلـى أول الـنـاس بـعـد الـرسـو
ل وصـنـو الـرسـول مـن الـعـالـمـيـنـا

وصـهـر الـرسـول ومـن مـثـلـه
إذا كـان يـوم يـشـيـب الـقـرونـا

واجتمع جرير والأشتر عند علي عليه السلام فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين لو كنت أرسلتني إلى معاوية لكنت خيراً لك من هذا الذي أرخى من خناقه وأقام حتى لم يدع باباً يرجو روحه إلا فتحه أو يخاف غمه إلا سده، فقال جرير: والله لو أتيتهم لقتلوك. وخوفه بعمرو وذي الكلاع وحوشب ذي ظليم: وقد زعموا إنك من قتلة عثمان. فقال الأشتر: لو أتيته لم يعيني جوابها ولم يثقل علي بحملها ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر قال: فائتهم إذن قال: الآن وقد أفسدتهم، ووقع بينهما الشر (وفي رواية) إن الأشتر قال: أليس قد نهيتك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً وأخبرتك بعداوته وغشه وأقبل الأشتر يقول: يا أخا بجيلة والله ما أنت بأهل أن تمشي فوق الأرض حياً إنما أتيتهم لتتخذ عندهم يداً بمسيرك إليهم ثم رجعت إلينا تهددنا بهم وأنت والله منهم ولا أرى سعيك إلا لهم ولئن أطاعني فيك أمير المؤمنين ليحبسنك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستبين هذه الأمور ويهلك الله الظالمين. قال جرير: وددت والله إنك كنت مكاني بعثت إذاً والله لم ترجع. فلما سمع جرير ذلك لحق بقرقيسا ولحق به أناس من قسر من قومه. فخرج علي إلى دار جرير

فهدم منها وحرق مجلسه فقيل له: إن فيها أرضاً لغير جرير فخرج منها وأحرق دار ثوير بن عامر وهدم منها وكان لحق بجرير.

ولما أراد معاوية المسير إلى صفين قال لعمرو بن العاص: إني رأيت أن نلقي إلى أهل مكة وأهل المدينة كتاباً نذكر لهم فيه أمر عثمان فإما أن ندرك حاجتنا وإما أن يكف القوم عنا، فقال عمرو: إنما نكتب إلى ثلاثة نفر راض بعلي فلا يزيده ذاك إلا بصيرة ورجل يهوى عثمان فلن نزيده على ما هو عليه ورجل معتزل فلست بأوثق في نفسه من علي قال: على ذلك فكتبا فأجابهما عبد اللّه بن عمر: ما أنتما والخلافة أما أنت يا معاوية فطليق وأما أنت يا عمرو فظنون إلا فكفا فليس لكما ولي ولا نصير. وكتب معاوية إلى عبد اللّه بن عمر خاصة وإلى سعد بن أبي وقاص وإلى محمد بن مسلمة فكان في كتابه إلى ابن عمر: أما بعد فإنه لم يكن أحد من قريش أحب إلى أن تجمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك ثم ذكرت خذلك إياه وطعنك على أنصاره فتغيرت لك وقد هون ذلك علي خلافك على علي فأعنا رحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم فإني لست أريد الإمارة عليك ولكني أريدها لك فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين فأجابه ابن عمر بأنه لن يترك علياً في المهاجرين والأنصار وطلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ويتبعه. وكتب إلى سعد: أما بعد فإن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكان في الأمر ونظيراك في الإسلام وخفت لذلك أم المؤمنين فلا تكرهن ما رضوا ولا تردن ما قبلوا فإنا نردها شورى بين المسلمين. وقال أبياتاً أولها:

ألا يا سعد قد أظهرت شكا	وشك المرء في الأحداث داء
فأما إذ أبيت فليس بيني	وبينك حرمة ذهب الرجاء
سوى قولي إذا اجتمعت قريش	على سعد من اللّه العفاء

فأجابه سعد: أما بعد فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة من قريش غير أن علياً قد كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه فأما طلحة

والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيراً لهما والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت وأجابه عن شعره بأبيات أولها:

معاوي داؤك الداء العياء	فليس لما تجيء به دواء
فما الدنيا بباقية لحي	ولا حي له فيها بقاء
أتطمع في الذي أعيا علياً	على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حياً	وميتاً أنت للمرء الفداء

وكتب معاوية إلى أمير المؤمنين (ع) كتاباً نذكره مع جوابه عبرة لمن نظر واعتبر ليعلم أنه كيف يصف الطائي بالبخل ما در ويعير قسا بالفهاهة بأقل ويقول السهى للشمس أنت ضئيلة ويقول الدجى للصبح: لونك حائل وتفاخر الأرض السماء وتطاول الشهب الحصى والجنادل وإنه لا يستبعد وقوع شيء في هذا الكون من بني البشر وأن ابن آدم يمكنه أن يحتج على الليل بأنه نهار وعلى النهار بأنه ليل وعلى أن العلقم أحلى من العسل ويقبل ذلك منه ويجد له عليه أعواناً، قال ابن أبي الحديد: كتب معاوية: من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب أما بعد فإن الله تعالى يقول في محكم كتابه ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك وإني أحذرك الله أن تحبط عملك وسابقتك بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها فاتق الله واذكر موقف القيامة وأقلع عما أسرفت فيه من الخوض في دماء المسلمين وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لو تمالأ أهل صنعاء وعدن على قتل رجل واحد من المسلمين لأكبهم الله على مناخرهم في النار»** فكيف يكون حال من قتل أعلام المسلمين وسادات المهاجرين بله ما طحنت رحى حربه من أهل القرآن وذوي العبادة والإيمان من شيخ كبير وشاب غرير كلهم بالله مؤمن وبرسوله مقر فإن كنت أبا حسن إنما تحارب على الإمرة والخلافة فلعمري لو صحت خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين ولكنها ما صحت لك وأنى صحتها وأهل الشام لم يدخلوا فيها وخف الله وسطواته وأغمد سيفك عن الناس فقد والله أكلتهم الحرب فلم يبق منهم إلا كالثمد في قرارة الغدير والله المستعان. فكتب

إليه أمير المؤمنين (ع) و بعضه مذكور في نهج البلاغة: من عبد اللّه علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد فقد أتتني منك موعظة موصلة ورسالة محبرة نمقتها بضلالك وأمضيتها بسوء رأيك وكتاب امرىء ليس له بصر يهديه ولا قائد يرشده دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتبعه فهجر لاغطاً وضل خابطاً فأما أمرك لي بالتقوى فأرجو أن تكون من أهلها وأستعيذ بالله من أن أكون من الذين إذا أمروا بها أخذتهم العزة بالإثم وأما تحذيرك إياي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام فلعمري لو كنت الباغي عليك لكان لك أن تحذرني ذلك ولكني وجدت الله يقول: فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فنظرنا إلى الفئتين فأما الفئة الباغية فوجدناها الفئة التي أنت فيها لأن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام كما لزمتك بيعة عثمان بالمدينة وأنت أمير لعمر على الشام وكما لزمت يزيد أخاك بيعة عمر وهو أمير لأبي بكر على الشام وأما شق عصا هذه الأمة فأنا أحق أن أنهاك عنه وأما تخويفك لي من قتل أهل البغي فإن رسول الله ﷺ أمرني بقتالهم وقتلهم وقال لأصحابه: إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله وأشار إلي وأنا أولى من اتبع أمره وأما قولك: إن بيعتي لم تصح لأن أهل الشام لم يدخلوا فيها كيف وإنما هي بيعة واحدة تلزم الحاضر والغائب لا يثنى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار الخارج منها طاعن والموري فيها مداهن فأربع على ظلعك وأنزع سربال غيك واترك ما لا جدوى له عليك فليس لك عندي إلا السيف حتى تفيء إلى أمر الله صاغراً وتدخل في البيعة راغماً. قال نصر بن مزاحم:

وكتب أمير المؤمنين (ع) إلى معاوية: من عبد اللّه علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان سلام على من اتبع الهدى (إلى أن قال) واعلم يا معاوية إنك قد ادعيت أمراً لست من أهله ولست تقول فيه بأمر بين ولا لك عليه شاهد من كتاب الله ومتى كنتم يا معاوية ساسة للرعية أو ولاة لأمر هذه الأمة بغير قدم حسن ولا شرف سابق على قومكم فإنك مترف قد أخذ منك الشيطان مأخذه فجرى منك مجرى الدم في العروق. واعلم أن هذا الأمر لو كان إلى الناس أو

بأيديهم لحسدونا ولامتنوا به علينا ولكنه قضاء ممن امتن به علينا على لسان نبيه الصادق المصدق لا أفلح من شك بعد البرهان والبينة. وفي الكلام الأخير دلالة على أن الإمامة بالنص. فأجابه معاوية: أما بعد فدع الحسد فإنك طالما لم تنتفع به ولا تفسد سابقة قدمك بشره نخوتك فإن الأعمال بخواتيمها ولعمري ما مضى لك من السابقات يشبه أن يكون ممحوقاً لما اجترأت عليه من سفك الدماء وخلاف أهل الحق فاقرأ سورة الفلق وتعوذ من شر نفسك فإنك الحاسد إذا حسد. ومثل هذا الجواب نذكره عبرة للناظر كالذي مضى قبله.

ولما قدم عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص فقال: يا عمرو إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد اللّه وقد رأيت أن أقيمه خطيباً فيشهد على علي بقتل عثمان وينال منه فقال: الرأي ما رأيت فبعث إليه معاوية فأتاه فقال: يا ابن أخ لك اسم أبيك فانظر بملء عينيك وتكلم بكل فيك فأنت المأمون المصدق فاشتم علياً وأشهد عليه أنه قتل عثمان فقال: أما شتمه فإنه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم فما عسى أن أقول في حسبه وأما بأسه فهو الشجاع المطرق وأما أيامه فما عرفت ولكني ملزمه دم عثمان فقال عمرو: إذاً والله قد نكأت القرحة فلما خرج عبيد اللّه قال معاوية: أما والله لولا قتله الهرمزان ومخافة علي على نفسه ما أتانا أبداً ألم تر إلى تقريظه علياً فقال عمرو: يا معاوية إن لم تغلب فاخلب[1] فخرج حديثه إلى عبيد اللّه فلما قام خطيباً تكلم بحاجته حتى إذا أتى إلى أمر علي امسك فقال له معاوية: ابن أخ إنك بين عي أو خيانة فبعث إليه: كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان وعرفت أن الناس محتملوها عني. فهجره معاوية واستخف بحقه وفسقه، فقال شعراً يذكر فيه أن علياً آوى قتلة عثمان وقربهم فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه وقربه وقال: حسبي هذا منك.

---

(١) من الخلابة والخداع بالقول اللطيف ومعنى إن لم تغلب فاخلب إذا أعياك الأمر مغالبة فاطلبه مخادعة.

وقام أبو مسلم الخولاني في ناس من قراء الشام إلى معاوية فقالوا: علام تقاتل علياً وليس لك مثل صحبته ولا قرابته ولا سابقته قال لهم: ما أقاتل علياً وأنا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً قالوا: بلى قال: فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به ولا قتال بيننا وبينه قالوا: فاكتب إليه كتاباً يأته به بعضنا فكتب إليه مع أبي مسلم الخولاني: بسم الله الرحمٰن الرحيم من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب سلام عليك فإني أحمد إليك الله لا إله إلا هو أما بعد فإن الله اصطفى محمداً بعلمه وجعله الأمين على وحيه واحتبى له من المسلمين أعواناً أيده الله بهم فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فكان أفضلهم الخليفة من بعده وخليفة خليفته والثالث الخليفة المظلوم فكلهم حسدت وعلى كلهم بغيت عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء وإبطائك عن الخلفاء تقاد إلى كل منهم كما يقاد الفحل المخشوش حتى تبايع ثم لم تكن لأحد منهم بأعظم حسداً منك لابن عمك عثمان فقطعت رحمه وألبت الناس عليه فقتل معك في المحلة فأُقسم صادقاً إن لو قمت فيما كان من أمره مقاماً واحداً تنهنه الناس عنه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحداً. وأُخرى أنت بها عند أنصار عثمان ظنين إيواؤك قتلة عثمان وقد ذكر لي إنك تتنصل من دمه فإن كنت صادقاً فأمكنا من قتلته نقتلهم به ونحن أسرع إليك وإلا فليس لك ولأصحابك إلا السيف والله الذي لا إله إلا هو لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر أو لتلحقن أرواحنا بالله والسلام. فقدم أبو مسلم بهذا الكتاب على علي. وقام أبو مسلم خطيباً وقال في جملة خطبته أن عثمان قتل مسلماً محرماً مظلوماً فادفع إلينا قتلته وأنت أميرنا فقال له علي: اغد علي غداً فخذ جواب كتابك فجاء من الغد فوجد الناس قد بلغهم الذي جاء فيه فلبست الشيعة أسلحتها ثم غدوا فملأوا المسجد وأخذوا ينادون كلنا قتلة ابن عفان وأذن لأبي مسلم فدخل على أمير المؤمنين (ع) فقال أبو مسلم: قد رأيت قوماً ليس لك معهم أمر قال: وما ذاك قال: بلغهم إنك تريد قتلة عثمان فضجوا واجتمعوا ولبسوا السلاح وزعموا أنهم كلهم قتلة عثمان فقال علي: والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفة عين لقد

ضربت هذا الأمر أنفه وعينه ما رأيت ينبغي لي أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك وأعطاه جواب كتاب معاوية فخرج بالكتاب وهو يقول: الآن طاب الضراب وكان الجواب: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عبد اللّه علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد فإن أخا خولان قدم علي بكتاب منك تذكر فيه محمداً ﷺ وما أنعم تعالى في نبيه محمد ﷺ وفينا فكنت في ذلك كجالب التمر إلى هجر والداعي مسدده إلى النضال وذكرت أن الله اجتبى له من المسلمين أعواناً فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام فلعمر الله إني لأرجو إذا أعطى الله الناس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصيحتهم لله ورسوله أن يكون نصيبنا في ذلك الأوفر إن محمداً ﷺ لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كنا أهل البيت أول من آمن به فلبثنا أحوالاً محرمة وما يعبد الله في ربع ساكن من العرب غيرنا فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح أصلنا وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل فمنعونا الميرة وأمسكوا عنا العذب وأحلسونا الخوف وجعلوا علينا الأرصاد والعيون واضطرونا إلى جبل وعر وأوقدوا لنا نار الحرب وكتبوا علينا بينهم كتاباً لا يواكلونا ولا يشاربونا ولا يناكحونا ولا يبايعونا ولا نأمن فيهم حتى ندفع إليهم النبي ﷺ فيقتلوه ويمثلوا به فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم فعزم الله لنا على منعه والذب عن حوزته والرمي من وراء حرمته والقيام بأسيافنا دونه فأما من أسلم من قريش بعد فإنهم مما نحن فيه أخلياء فمنهم حليف ممنوع أو ذو عشيرة تدافع عنه وكان رسول الله ﷺ إذا احمر البأس وأحجم الناس أقام أهل بيته فاستقدموا، فوقى بهم أصحابه حر الأسنة والسيوف، فقتل عبيدة يوم بدر وحمزة يوم أحد وجعفر يوم مؤتة وأراد من لو شئت ذكر اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النبي ﷺ غير مرة إلا أن آجالهم عجلت ومنيته أخرت وأما ما ذكرت من أمر عثمان فإنه عمل ما بلغك فصنع الناس به ما قد رأيت، وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإني نظرت في هذا الأمر وضربت أنفه وعينيه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك ولعمري لئن لم تنزع عن غيك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك ولا يكلفونك أن تطلبهم في بر ولا بحر ولا جبل ولا سهل.

ولما أراد أمير المؤمنين عليه السلام المسير إلى أهل الشام دعا إليه من كان

معه من المهاجرين والأنصار، قال المسعودي: وكان معه من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً منهم سبعة عشر من المهاجرين وسبعون من الأنصار وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان تسعمائة وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة. فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فإنكم ميامين الرأي مراجيح الحلم مقاويل بالحق مباركو الفعل والأمر وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم. فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فحمد الله وأثنى عليه فيما هو أهله ثم قال: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنا بالقوم جد خبيرهم لك ولأشياعك أعداء وهم لمن يطلب حرث الدنيا أولياء وهم مقاتلوك ومجاهدوك لا يبقون جهداً مشاحة على الدنيا وضنا بما في أيديهم منها وليس لهم إربة غيرها إلا ما يخدعون به الجهال من الطلب بدم عثمان. كذبوا، ليس بدمه يثأرون ولكن الدنيا يطلبون، فسر بنا إليهم فإن أجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال وإن أبوا إلا الشقاق فذلك الظن بهم والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى أو يسمع إذا أمر. وقام عمار بن ياسر فذكر الله بما هو أهله وحمده وقال: يا أمير المؤمنين إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحد فأشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة وادعهم إلى رشدهم وحظهم فإن قبلوا سعدوا وإن أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم والجد في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة منه. ثم قام قيس بن سعد بن عبادة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرج فوالله لجهادهم أحب إلي من جهاد الترك والروم لإدهانهم في دين الله واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيروه وفيئنا لهم في أنفسهم حلال ونحن لهم فيما يزعمون قطين (قال: يعني رقيق) فقال أشياخ الأنصار منهم خزيمة بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وغيرهما: لم تقدمت أشياخ قومك وبدأتهم يا قيس بالكلام فقال: أما إني عارف بفضلكم معظم لشأنكم ولكني وجدت في نفسي الضغن الذي جاش في صدوركم حين

ذكرت الأحزاب فقال بعضهم لبعض: ليقم رجل منكم فليجب أمير المؤمنين عن جماعتكم فقالوا: قم يا سهل بن حنيف. فقام سهل فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت ورأينا رأيك ونحن كف يمينك وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة فتأمرهم بالشخوص وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك فإنهم هم أهل البلد وهم الناس فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب، وأما نحن فليس عليك منا خلاف متى دعوتنا أجبناك ومتى أمرتنا أطعناك. فجمع أمير المؤمنين عليه السلام أهل الكوفة وحرضهم وأمرهم بالمسير إلى صفين لقتال أهل الشام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: سيروا إلى أعداء السنن والقرآن سيروا إلى بقية الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار. فقام رجل من بني فزارة اسمه اربد فقال: أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم؟ كلا. لاها الله إذا لا نفعل ذلك. فقام الأشتر فقال: من لهذا أيها الناس؟ وهرب الفزاري واشتد الناس على أثره فلحق في مكان من السوق تباع فيه البراذين فوطئوه بأرجلهم وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم حتى قتل فقيل: يا أمير المؤمنين قتل الرجل قال: ومن قتله قالوا: همدان وفيهم شوبة من الناس فقال: قتيل عمية لا يدرى من قتله ديته من بيت مال المسلمين فقال علاقة التيمي:

أعوذ بربي أن تكون منيتي — كما مات في سوق البراذين إربد

تعاوره همدان خفق نعالهم — إذا رفعت عنه يد وضعت يد

وقام الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين لا يهولنك ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن إن جميع من ترى من الناس شيعتك وليسوا يرغبون بأنفسهم عن نفسك ولا يحبون بقاء بعدك فإن شئت فسر بنا إلى عدوك والله ما ينجو من الموت من خافه ولا يعطى البقاء من أحبه وما يعيش بالآمال إلا شقي وإنا لعلى بينة من ربنا إن نفساً لن تموت حتى يأتي أجلها فكيف لا نقاتل قوماً هم كما وصف أمير المؤمنين وقد وثبت عصابة منهم على طائفة من المسلمين فأسخطوا

الله وأظلمت بأعمالهم الأرض وباعوا خلاقهم بعرض من الدنيا يسير. فقال علي (ع): الطريق مشترك والناس في الحق سواء ومن أجهد رأيه في نصيحة العامة فله ما نوى وقد قضى ما عليه. وقام عدي بن حاتم الطائي فقال: يا أمير المؤمنين ما قلت إلا بعلم ولا دعوت إلا إلى حق ولا أمرت إلا برشد ثم أشار بالتأني والكتابة إلى أهل الشام. وقام زيد بن حصين الطائي وكان من أصحاب البرانس المجتهدين فقال: والله لئن كنا في شك من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النية في قتلهم حتى نستأنيهم. ما الأعمال إلا في تباب، ولا السعي إلا في ضلال. والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يبتغون دمه فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم القليل في الإسلام حظهم أعوان الظلم ومسددي أساس الجور والعدوان ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ولا التابعين بإحسان. فقام رجل من طيء فقال: يا زيداً أكلام سيدنا عدي ابن حاتم تهجن فقال: ما أنت بأعرف بحق عدي مني ولكن لا أدع القول بالحق وإن سخط الناس. فقال عدي: الطريق مشترك والناس في الحق سواء فمن اجتهد رأيه في نصيحة العامة فقد قضى الذي عليه.

ثم قام عبد اللّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين إن القوم لو كانوا الله يريدون أو لله يعملون ما خالفونا ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة وحباً للأثرة وضناً بسلطانهم وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم وعلى أحن في أنفسهم وعداوة يجدونها في صدورهم لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة قتلت فيها آباءهم وإخوانهم ثم، التفت إلى الناس فقال: كيف يبايع معاوية علياً وقد قتل أخاه حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة في موقف واحد والله ما أظن أن يفعلوا ولن يستقيموا لكم دون أن تقصد فيهم المران وتقطع على هامهم السيوف وتنثر حواجبهم بعمد الحديد وتكون أمور جمة بين الفريقين.

وقال له عمرو بن الحمق: إني والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك ولا إرادة مال تؤتينه ولا التماس سلطان يرفع ذكري به ولكن أحببتك لخصال خمس: إنك ابن عم رسول الله ﷺ وأول من آمن به وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ﷺ وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله ﷺ وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد فلو أني كلفت نقل

الجبال الرواسي أو نزح البحور الطوامي حتى يأتي على يومي في أمر أقوي به وليك وأوهن به عدوك ما رأيت إني قد أديت فيه كل الذي حق علي من حقك. فقال أمير المؤمنين: اللهم نور قلبه بالتقى واهده إلى صراط مستقيم، ليت إن في جندي مائة مثلك. فقال حجر: إذاً والله يا أمير المؤمنين صح جندك وقل فيهم من يغشك. ثم قام حجر فقال: يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب وأهلها الذين نلقحها وننتجها قد ضارستنا وضارسناها ولنا أعوان ذوو صلاح وعشيرة ذات عدد ورأي مجرب وبأس محمود وأزمتنا منقادة لك بالسمع والطاعة فإن شرقت شرقنا وإن غربت غربنا وما أمرتنا به من أمر فعلناه. فقال علي: أكل قومك يرى مثل رأيك؟ قال: ما رأيت منهم إلا حسناً وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وبحسن الإجابة. فقال له علي خيراً. ودخل يزيد بن قيس الأرحبي على علي (ع) فقال: يا أمير المؤمنين نحن على جهاز وعدة وأكثر الناس أهل القوة ومن ليس بمضعف وليس به علة فمر مناديك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة فإن أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم ولا من إذا أمكنته الفرص أجلها واستشار فيها ولا من يؤخر الحرب في اليوم إلى غد وبعد غد. فقال زياد بن النضر: لقد نصح لك يا أمير المؤمنين يزيد بن قيس وقال مما يعرف فتوكل على الله وثق به واشخص بنا إلى هذا العدو راشداً معافى فإن يرد الله بهم خيراً لا يدعوك رغبة عنك إلى من ليس مثلك في السابقة مع النبي ﷺ والقدم في الإسلام والقرابة من محمد ﷺ وإلا ينيبوا ويقبلوا ويأبوا إلا حربنا نجد حربهم علينا هيناً ورجونا أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم بالأمس. وخرج حجر بن عدي وعمرو بن الحمق يظهران البراءة من أهل الشام واللعن فأرسل إليهما أمير المؤمنين (ع): إن كفا عما يبلغني عنكما فأتياه فقالا: ألسنا محقين؟ قال: بلى ولكن كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين ولو وصفتم مساوي أعمالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر وقلتم مكان اللعن والبراءة اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم، كان أحب إليّ وخيراً لكم قالا: يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ونتأدب بأدبك.

ودخل عليه عبد اللّه بن المعتم العبسي وحنظلة بن الربيع التميمي في رجال من غطفان فأشار عليه التميمي مظهراً النصح أن يقيم ويكاتب معاوية ولا يعجل وقال: إني ما أدري ولا تدري لمن تكون إذا التقيتم الغلبة وعلى من تكون الدبرة وتكلم العبسي ومن معهما بنحو ذلك فقال (ع): أما الدبرة فإنها على العاصين ظفروا أو ظفر بهم أما والله إني لأسمع كلام قوم ما أراهم يريدون أن يعرفوا معروفاً ولا ينكروا منكراً فقال معقل بن قيس الرياحي: إن هؤلاء ما أتوك بنصح بل بغش فاحذرهم وقال له مالك بن حبيب: بلغني أن حنظلة هذا يكاتب معاوية فادفعه إلينا نحبسه حتى تنقضي غزاتك وقال عباس بن ربيعة وفائد بن بكير العبسيان: يا أمير المؤمنين إن صاحبنا عبد الله المعتم بلغنا أنه يكاتب معاوية فاحبسه حتى تنقضي غزاتك أو ادفعه إلينا نحبسه، فجعلا يقولان: هذا جزاء من نصركم وأشار عليكم بالرأي فقال لهما علي (ع): الله بيني وبينكم وإليه أكلكم وبه استظهر عليكم اذهبوا حيث شئتم. فلحق ابن المعتم بمعاوية مع أحد عشر رجلاً من قومه. وبعث علي (ع) إلى حنظلة بن الربيع المعروف بحنظلة الكاتب وهو صحابي فقال: أعليّ أم لي قال: لا عليك ولا لك ثم هرب إلى معاوية مع ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه لكنهما اعتزلا الفريقين فأمر علي (ع) بهدم دار حنظلة هدمها عريفهم بكر بن تميم وشبث بن ربعي. وقالت طائفة من أصحاب علي (ع) له: أكتب إلى معاوية وإلى من قبله من قومك بكتاب تدعوهم فيه إليك وتأمر بما لهم فيه من الحظ فإن الحجة لن تزداد عليهم بذلك إلا عظماً فكتب إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد اللّه علي أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله قريش سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإن لله عباداً آمنوا بالتنزيل وعرفوا التأويل وفقهوا في الدين وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم وأنتم في ذلك الزمان أعداء لرسول الله ﷺ تكذبون بالكتاب مجمعون على حرب المسلمين من ثقفتم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه حتى إذا أراد الله إعزاز دينه وإظهار رسوله ودخلت العرب في دينه أفواجاً وأسلمت هذه الأمة طوعاً وكرهاً على حين فاز أهل السبق بسبقهم والمهاجرون الأولون

بفضلهم فلا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم وفضائلهم أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولى به ثم إن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من رسول الله ﷺ وأعلمها بالكتاب وأفقهها في الدين وأولها إسلاماً وأفضلها جهاداً وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعاً فاتقوا الله الذي إليه ترجعون ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون واعلموا أن خيار عباد الله الذين يعملون بما يعطون وإن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم فإن للعالم بعلمه فضلاً وإن الجاهل لن يزداد بمنازعة العالم إلا جهلاً إلا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وحقن دماء هذه الأمة فإن قبلتم أصبتم رشدكم وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة لن تزدادوا من الله إلا بعداً والسلام، فكتب إليه معاوية:

ليس بيني وبين قيس عتاب   غير طعن الكلى وضرب الرقاب

فقال علي (ع): إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.

وكتب أمير المؤمنين (ع) إلى عماله في الآفاق يأمرهم بالمسير إليه وحث الناس على الجهاد معه فكتب إلى مخنف بن سليم عامله على أصبهان وهمذان: إذا أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك وأقبل إلينا. وكتب عبد الله بن أبي رافع سنة ٣٧: هكذا وردت هذه الرواية وقد مر ما يدل على أن ذلك كان سنة ٣٦ فاستعمل مخنف على أصبهان وهمدان رجلين من قومه وأقبل حتى شهد معه صفين. وكتب إلى عبد الله بن عباس إلى البصرة: أما بعد فأشخص إلى من قبلك من المسلمين والمؤمنين وذكرهم بلائي عندهم وعفوي عنهم واستبقائي لهم ورغبهم في الجهاد وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل. فقرأ عليهم ابن عباس كتاب علي (ع) وقال: أيها الناس استعدوا للمسير إلى إمامكم وانفروا في سبيل الله خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فإنكم تقاتلون المحلين القاسطين الذين لا يقرؤون القرآن ولا يعرفون حكم الكتاب ولا يدينون دين الحق مع أمير المؤمنين وابن عم رسول الله ﷺ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والصادع بالحق والحاكم بحكم الكتاب

الذي لا يداهن الفجار ولا تأخذه في الله لومة لائم. فقام الأحنف بن قيس فقال: نعم والله لنجيبنك ولنخرجن معك على العسر واليسر والرضا والكره نحتسب في ذلك الخير ونأمل من الله عظيم الأجر وقام إليه خالد بن المعمر السدوسي فقال: سمعنا وأطعنا فمتى استنفرتنا نفرنا ومتى دعوتنا أجبنا وقام إليه عمرو بن مرجوم العبدي فقال: وفق الله أمير المؤمنين وجمع له أمر المسلمين ولعن المحلين القاسطين الذين لا يقرؤون القرآن نحن والله عليهم حنقون ولهم في الله مفارقون فمتى أردتنا صحبك خيلنا ورجلنا. وأجاب الناس إلى المسير ونشطوا أو خفوا فاستعمل ابن عباس على البصرة أبا الأسود الدؤلي وقدم على علي ومعه رؤوس الأخماس خالد بن المعمر السدوسي على بكر بن وائل وعمرو بن مرجوم العبدي على عبد القيس وصبرة بن شيمان الأزدي على الأزد والأحنف بن قيس على تميم وضبة والرباب وشريك بن الأعور الحارثي على أهل العالية فقدموا على علي بالنخيلة. ولم يبرح علي النخيلة حتى قدم عليه ابن عباس بأهل البصرة وكان أمراء الأسباع من أهل الكوفة: سعد بن مسعود الثقفي على قيس وعبد القيس. ومعقل بن قيس اليربوعي ثم الرياحي على تميم وضبة والرباب وقريش وكنانة وأسد. ومخنف بن سليم على الأزد وبجيلة وخثعم والأنصار وخزاعة. وحجر بن عدي الكندي على كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة. وزياد بن النضر على مذحج والأشعريين. وسعيد بن قيس بن مرة الهمداني على همدان ومن معهم من حمير. وعدي بن حاتم على طيء وتجمعهم الدعوة مع مذحج وتختلف الرايتان راية مذحج مع زياد بن النضر وراية طيء مع عدي بن حاتم وقال زياد بن النضر الحارثي لعبد اللّه بن بديل بن ورقاء: إن يومنا ويومهم ليوم عصيب ما يصبر عليه إلا كل مشبع القلب صادق النية رابط الجأش وأيم الله ما أظن ذلك اليوم يبقي منا ومنهم إلا الرذال. قال عبد اللّه بن بديل: وأنا والله أظن ذلك فقال علي: ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما لا تظهراه ولا يسمعه منكما سامع إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين وكل آتية منيته كما كتب الله فطوبى للمجاهدين في سبيل الله

والمقتولين في طاعته، فلما سمع هاشم بن عتبة مقالتهم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: سر بنا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وعملوا في عباد الله بغير رضى الله فأحلوا حرامه وحرموا حلاله واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل ومناهم الأماني حتى أزاغهم عن الهدى وقصد بهم قصد الردى وحبب إليهم الدنيا فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها كرغبتنا في الآخرة وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله ﷺ رحماً وأفضل الناس سابقة وقدما وهم يعلمون منك مثل الذي علمنا ولكن كتب عليهم الشقاء ومالت بهم الأهواء وكانوا ظالمين فأيدينا مبسوطة لك بالسمع والطاعة وقلوبنا منشرحة لك ببذل النصيحة وأنفسنا بنورك جذلة على من خالفك وتولى الأمر دونك والله ما أحب أن لي ما في الأرض مما أقلت وما تحت السماء مما أظلت وإني واليت عدواً لك أو عاديت ولياً لك فقال علي (ع): اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك والمرافقة لنبيك ﷺ ثم إن علياً (ع) صعد المنبر ودعاهم إلى الجهاد ومما قاله في خطبته: اعلموا أن الله جعل أمراس الإسلام متينة وعراه وثيقة ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه وتناول ما ليس له وما لا يدركه معاوية وجنده الفئة الباغية الطاغية يقودهم إبليس ويدليهم بغروره فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس عني فإن الذود إلى الذود إبل. ومن لا يذد عن حوضه يتهدم ثم إني آمركم بالشدة في الأمر والجهاد في سبيل الله وأن لا تغتابوا مسلماً وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله. ثم قام الحسن بن علي عليهما السلام خطيباً فمما قاله في خطبته: إن مما عظم الله عليكم حقه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ولا يبلغه صفة ولا قول ونحن إنما غضبنا لله ولكم فإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده ولا تخاذلوا فإن الخذلان يقطع نياط القلوب وإن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة وكفاهم جوائح الذلة وهداهم إلى معالم الملة.

والصلح تأخذ منه ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

ثم قام الحسين بن علي عليهما السلام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل الكوفة أنتم الأحبة الكرماء الشعار دون الدثار جدوا في إحياء مآثر دينكم وإسهال ما توعر عليكم. ألا إن الحرب شرها ذريع وطعمها فظيع وهي جرع متحساة فمن أخذ لها أهبتها فذاك صاحبها ومن عاجلها قبل أوان فرصتها فذاك قمن أن لا ينفع قومه ويهلك نفسه، نسأل الله بعونه أن يدعمكم بإلفته، ثم نزل فأجابه إلى السير والجهاد جل الناس إلا أن أصحاب عبد اللّه بن مسعود وفيهم عبيدة السلماني وأصحابه قالوا: نخرج معكم ولا ننزل عسكركم ونعسكر على حدة فمن رأيناه أراد ما لا يحل له أو بدا لنا منه بغي كنا عليه فقال علي (ع): مرحباً وأهلاً هذا هو الفقه في الدين والعلم بالسنة من لم يرض بهذا فهو جائر. وإنما رضي منهم بذلك مع ظهور الحجة عليهم لأنه قد علم من حالهم إنهم لا يقبلون بغير هذا فلو ألزمهم بالحرب معه ربما ينفرون ويكونون مع معاوية فكان رضاه بما قالوا أصلح الأمرين لأنه يرجى انضمامهم إليه بعد ذلك، وأتاه آخرون من أصحاب عبد اللّه بن مسعود فيهم ربيع بن خثيم (وهو المدفون بقرب المشهد الرضوي الذي يسميه الإيرانيون خواجه ربيع) وهم يومئذ أربعمائة رجل فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا شككنا في هذا القتال على معرفتنا بفضلك ولا غناء بنا ولا بك ولا المسلمين عمن يقاتل العدو فولنا بعض الثغور نكون به ثم نقاتل عن أهله، فوجهه على ثغر الري فكان أول لواء عقده بالكوفة لواء ربيع بن خثيم. ودعا علي باهلة فقال: يا معشر باهلة أشهد الله أنكم تبغضونني وأبغضكم فخذوا عطاءكم واخرجوا إلى الديلم وكانوا قد كرهوا أن يخرجوا معه إلى صفين. قال نصر بن مزاحم: وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية: من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر سلام على أهل طاعة الله أما بعد فإن الله تعالى خلق خلقاً اختارهم على علمه فاصطفى منهم محمداً ﷺ فاختصه برسالته فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فكان أول من أجاب أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب فوقاه كل هول وواساه بنفسه

في كل خوف فحارب حربه وسالم سلمه وقد رأيتك تساميه وأنت أنت وهو هو المبرز السابق في كل خير أول الناس إسلاماً وأصدق الناس نية ثم لم تزل أنت وأبوك تبغيان الغوائل لدين الله وتجتهدان على إطفاء نور الله وتجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال وتحالفان فيه القبائل: على ذلك مات أبوك وعلى ذلك خلفته فكيف يا لك الويل تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول الله ﷺ وأبو ولده وأول الناس له اتباعاً وآخرهم به عهداً يخبره بسره ويشركه في أمره وأنت عدوه وابن عدوه فتمتع ما استطعت بباطلك وليمدد لك ابن العاص في غوايتك فكأن أجلك قد انقضى وكيدك قد وهى والسلام على من اتبع الهدى.
فأجابه معاوية: من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر سلام على أهل طاعة الله أما بعد فقد أتاني كتابك لرأيك فيه تضعيف ولأبيك فيه تعنيف ذكرت حق ابن أبي طالب وقديم سوابقه وقرابته واحتجاجك بفضل غيرك لا بفضلك فاحمد إلهاً صرف الفضل عنك وجعله لغيرك وقد كنا، وأبوك معنا، في حياة نبينا نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا وفضله مبرزاً علينا فلما اختار الله لنبيه ﷺ ما عنده كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه وخالفه ثم قام بعده عثمان يهتدي بهديهما ويسير بسيرتهما فعبته أنت وصاحبك حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي فخذ حذرك فسترى وبال أمرك وقس شبرك بفترك تقصر من أن تساوي من يزن الجبال حلمه لا تلين على قسر قناته ولا يدرك ذو مدى أناته أبوك مهد مهاده وبنى ملكه وشاده فإن يكن ما نحن فيه صواباً فأبوك أوله وإن يكن جوراً فأبوك أسسه ونحن شركاؤه وبهديه أخذنا وبفعله اقتدينا فعب أباك ما بدا لك أو دع والسلام على من اتبع الهدى.

وبلغ أهل العراق مسير معاوية إلى صفين فنشطوا وجدوا غير أنه كان من الأشعث بن قيس شيء عند عزله عن الرياسة وذلك أن رياسة كندة وربيعة كانت للأشعث فجعلها أمير المؤمنين (ع) لحسان بن محدوج فتكلم في ذلك أناس من أهل اليمن منهم الأشتر وعدي بن حاتم الطائي وزحر بن قيس وهاني بن

عروة فقالوا: يا أمير المؤمنين إن رياسة الأشعث لا تصلح إلا لمثله وما حسان مثل الأشعث فغضبت ربيعة فقال حريث بن جابر: يا هؤلاء رجل برجل وليس بصاحبنا عجز في شرفه وموضعه ونجدته وبأسه ولسنا ندفع فضل صاحبكم وشرفه. وغضب رجال اليمنية فأتاهم سعيد بن قيس الهمداني فتكلم في إصلاح الحال وقال حريث بن جابر: إن كان الأشعث ملكاً في الجاهلية وسيداً في الإسلام فإن صاحبنا أهل هذه الرياسة وما هو أفضل منها فقال حسان للأشعث: لك راية كندة ولي راية ربيعة فقال: معاذ الله لا يكون هذا أبداً ما كان لك فهو لي وما كان لي فهو لك وبلغ معاوية ما صنع بالأشعث فقال: اقذفوا إلى الأشعث شيئاً تهيجونه به على علي فدعوا شاعراً لهم فقال هذه الأبيات فكتب بها مالك بن هبيرة إلى الأشعث وكان له صديقاً وكان كندياً:

من كان في القوم مثلوجاً بأسرته ... فالله يعلم أني غير مثلوج
زالت عن الأشعث الكندي رياسته ... واستجمع الأمر حسان بن محدوج
يا للرجال لعار ليس يغسله ... ماء الفرات وكرب غير مفروج
إن ترض كندة حساناً بصاحبها ... ترض الدناة وما قحطان بالهوج
كان ابن قيس هماماً في أرومته ... ضخماً يبوء بملك غير مفلوج
إن الذين تولوا بالعراق له ... لا يستطيعون طراً ذبح فروج
ليست ربيعة أولى بالذي خذيت ... من حق كندة حق غير محجوج

فلما انتهى الشعر إلى أهل اليمن قال شريح بن هاني: يا أهل اليمن ما يريد صاحبكم إلا أن يفرق بينكم وبين ربيعة، ومشى حسان بن محدوج إلى الأشعث برايته حتى ركزها في داره فقال الأشعث: إن هذه الراية عظمت على علي وهي والله أخف علي من زف النعام ومعاذ الله أن يغيرني ذلك لكم فعرض عليه أمير المؤمنين (ع) أن يعيدها إليه فأبى وقال: يا أمير المؤمنين إن يكن أولها شراً فليس آخرها بعر فقال له علي: أنا أشركك فيه فولاه على ميمنته وهي ميمنة أهل العراق.

وأمر علي (ع) الحارث الأعور أن ينادي في الناس أن اخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة[1] فنادى بذلك وبعث علي إلى مالك بن حبيب اليربوعي صاحب شرطته فأمره أن يحشر الناس إلى المعسكر ودعا عقبة بن عمرو الأنصاري فاستخلفه على الكوفة وكان أصغر أصحاب العقبة السبعين ثم خرج علي (ع) وخرج الناس معه إلى النخيلة.

ولما أراد المسير إلى النخيلة بعث زياد بن النضر وشريح بن هاني على مقدمته في اثني عشر ألفاً شريح على طائفة من الجند وزياد على الكل وأمرهما أن يأخذا على طريق واحد ولا يختلفا فأخذ شريح يعتزل بمن معه على حدة ولا يقترب من زياد فكتب زياد إلى أمير المؤمنين (ع) مع مولىً له اسمه شوذب: إن شريحاً لا يرى لي عليه طاعة. وكتب شريح إليه: إن زياداً تنكر واستكبر فإن أراد أمير المؤمنين أن يعزله عنا ويبعث مكانه فإنا له كارهون، فكتب إليهما علي (ع): إن جمعكما حرب فزياد على الناس وإن افترقتما فكل واحد أمير على الطائفة التي وليناه أمرها. ومن ذلك يعلم كيف كان حال أصحابه في تفرقهم.

وصايا للجيش مهمة:

واعلما أن مقدمة الجيش عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع ومن نقض الشعاب والشجر في

---

(١) النخيلة هي معسكر الكوفة قال بحر العلوم في رسالته في صلاة المسافر: أظن إنها الموضع المعروف بالكفل والمسافة بينها وبين الخارج من المسجد وأوساط البلد يوشك أن يكون بريداً «اهـ» والبريد أربعة فراسخ نحو مسير ست ساعات وسيأتي أن أمير المؤمنين (ع) خرج من النخيلة حتى إذا جاز حدود الكوفة وذلك بين القنطرة والجسر بعدما قطع النهر صلى الظهر ركعتين ثم أتى دير أبي موسى وهو على فرسخين من الكوفة فدل على أن النخيلة في حدود الكوفة وأنه لم يخرج من حدود الكوفة حتى صار بين القنطرة والجسر بعدما قطع النهر وأن دير أبي موسى الذي هو على فرسخين من الكوفة بعد النخيلة فكيف تكون النخيلة على أربعة فراسخ من وسط الكوفة ويمكن الجواب بأن الكوفة كانت في ذلك الوقت كبيرة جداً وأنه كان بين وسطها وآخرها من جهة الشمال أكثر من ثلاثة فراسخ وأن بين آخرها وبين النخيلة نحو فرسخ أو أقل وإن كان بين وسطها وبين الكفل اليوم المظنون أنه النخيلة نحو أربعة فراسخ والله أعلم.

كل جانب كي لا يغركما عدو أو يكون لهم كمين ولا تسيرن الكتائب من لدن الصبح إلى المساء إلا على تعبية فإن دهمكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبية وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في قبل الأشراف أو سفاح الجبال أو أثناء الأنهار كيما يكون ذلك لكم ردءاً وتكون مقاتلتكم من وجه أو اثنين واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال وبأعالي الأشراف ومناكب الأنهار يرون لكم لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن وإياكم والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً وإذا غشيكم ليل فنزلتم فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم وما أقمتم فكذلك فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة ولا تلفي لكم غرة فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون. واحرسا عسكركما بأنفسكما وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضة ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكما وليكن عندي كل يوم خبركما ورسول من قبلكما فإني ولا شيء إلا ما شاء الله حثيث السير في آثاركما. عليكما في حربكما بالتؤدة وإياكما والعجلة إلا أن تمكنكم فرصة بعد الإعذار والحجة وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما إلا أن تبدآ أو يأتيكما أمري.

وصايا إلى أمراء الأجناد

وكتب إلى أمراء الأجناد: من عبد اللّه علي أمير المؤمنين أما بعد فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان وخذوا على أيدي سفهائكم واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا فيرد علينا وعليكم دعاءنا فإن الله تعالى يقول: قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم.

وصاياه إلى جنوده

وكتب إلى جنوده يخبرهم بالذي لهم والذي عليهم: من عبد اللّه علي أمير المؤمنين أما بعد فإن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء أسودكم وأحمركم وجعلكم من الوالي وجعل الوالي منكم بمنزلة الوالد من الولد وبمنزلة الولد من

الوالد وإن حقكم عليه إنصافكم والتعديل بينكم والكف عن فيئكم فإذا فعل ذلك معكم وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق ونصرته على سيرته والدفع عن سلطان الله فإنكم وزعة الله في الأرض (الوزعة الذين يدفعون عن الظلم) فكونوا له أعواناً ولدينه أنصاراً ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها إن الله لا يحب المفسدين. وبقي أمير المؤمنين (ع) بالنخيلة حتى اجتمعت إليه الجنود ولم يبرحها حتى قدم عليه ابن عباس بأهل البصرة. ومرت عليه جنازة وهو بالنخيلة فقال ما يقول الناس في هذا القبر، وفي النخيلة قبر عظيم يدفن اليهود موتاهم حوله فقال الحسن بن علي: يقولون هذا قبر هود النبي لما أن عصاه قومه جاء فمات ها هنا قال: كذبوا لأنا أعلم به منهم هذا قبر يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم بكر يعقوب ثم قال: ها هنا أحد من مهزة؟ فأتي بشيخ كبير فقال: أين منزلك قال: على شاطىء البحر قال: أين هو من الجبل الأحمر قال: قريب منه قال: وما يقول قومك فيه قال: يقولون قبر ساحر قال: كذبوا ذاك قبر هود وهذا قبر يهوذا بن يعقوب. وبلغ معاوية مكان علي بالنخيلة ومعسكره بها ومعاوية قد ألبس منبر دمشق قميص عثمان وهو مخضب بالدم وحول المنبر سبعون ألف شيخ يبكون لا تجف دموعهم على عثمان فخطب معاوية أهل الشام فقال: يا أهل الشام قد كنتم تكذبونني في علي وقد استبان لكم أمره والله ما قتل خليفتكم غيره وهو أمر بقتله وألب الناس عليه وآوى قتلته وهم جنده وأنصاره وأعوانه وقد خرج بهم قاصداً بلادكم لإبادتكم يا أهل الشام الله الله في عثمان فأنا ولي عثمان وأحق من طلب بدمه وقد جعل الله لولي المظلوم سلطاناً فانصروا خليفتكم فقد صنع به القوم ما تعلمون قتلوه ظلماً وبغياً وقد أمر بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، فاعطوه الطاعة وانقادوا له وجمع إليه أطرافه واستعمل على فلسطين ثلاثة رهط جعلهم بإزاء أهل مصر لئلا يغيروا عليهم من خلفهم وكتب إلى معتزلة مصر وهم يومئذ يكاتبون معاوية ولا يطيقون مكاثرة أهل مصر: إن تحرك قيس عامل علي على مصر أن يثبتوا له وكان علي (ع) بعث قيس بن سعد الأنصاري من الكوفة إلى مصر أميراً عليها وفيها يومئذ معاوية بن خديج وحصين بن نمير.

ولما أراد علي (ع) الخروج من النخيلة وذلك لخمس مضين من شوال يوم الأربعاء سنة ٣٦ خطب الناس وقال: قد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصاري فإياكم والتخلف والتربص فإني قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعي وأمرته أن لا يترك متخلفاً إلا ألحقه بكم عاجلاً إن شاء الله. فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال: يا أمير المؤمنين والله لا يتخلف عنك إلا ظنين ولا يتربص بك إلا منافق فأمر مالك بن حبيب أن يضرب أعناق المتخلفين، قال علي: قد أمرته بأمري وليس مقصراً إن شاء الله ودعا بدابته فجاءته فلما أراد أن يركب وضع رجله في الركاب وقال: بسم الله فلما جلس على ظهرها قال: الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب والحيرة بعد اليقين وسوء المنظر في الأهل والمال والولد اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ولا يجمعهما غيرك لأن المستخلف لا يكون مستصحباً والمستصحب لا يكون مستخلفاً ثم خرج وخرج أمامه الحر بن سهم بن طريف الربعي ربيعة تميم وهو يقول:

يا فرسي سيري وأمي الشاما ... وقطعي الحزون والأعلاما
ونابذي من خالف الإماما ... إني لأرجو إن لقينا العاما
جمع بني أمية الطغاما ... أن نقتل العاصي والهماما
وإن نزيل من رجال هاما

وقال مالك بن حبيب وهو صاحب شرطته وهو آخذ بعنان دابته يا أمير المؤمنين أتخرج بالمسلمين فيصيبوا أجر الجهاد والقتال وتخلفني في حشر الرجال، فقال له علي: إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئاً إلا كنت شريكهم فيه وأنت ها هنا أعظم غناء منك عنهم لو كنت معهم فقال: سمعاً وطاعة فخرج علي حتى إذا جاز حد الكوفة وذلك بين القنطرة والجسر بعد ما قطع النهر[1] أمر

---

(١) كان الفرات في ذلك العصر يخترق الكوفة وعليه قنطرة وهي ما يبنى بالآجر ولها ذكر في الأخبار وعليه جسر وهو ما يعمل من السفن فبعد ما عبر النهر إما على القنطرة أو على الجسر وسار =

مناديه فنادى بالصلاة فتقدم فصلى ركعتين حتى إذا قضى الصلاة أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس ألا من كان مشيعاً أو مقيماً فليتم الصلاة فإنا قوم على سفر ومن صحبنا فلا يصم المفروض والصلاة ركعتان ثم خرج حتى أتى دير أبي موسى وهو من الكوفة على فرسخين فصلى بها العصر فلما انصرف من الصلاة قال: سبحان ذي الطول والنعم سبحان ذي القدرة والإفضال اسأل الله الرضا بقضائه والعمل بطا ه والإنابة إلى أمره فإنه سميع الدعاء.

قال نصر: ثم خرج حتى نزل على شاطىء البرس[١] فصلى بالناس المغرب فلما انصرف قال: الحمد لله الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل الحمد لله كلما وقب ليل وغسق والحمد لله كلما لاح نجم وخفق. ثم أقام حتى صلى الغداة ثم شخص حتى بلغ قبة قبين[٢] وبها نخل طوال إلى جانب البيعة فلما رآها قال: والنخل باسقات لها طلع نضيد ثم أقحم دابته النهر فنزلها فمكث بها قدر الغداء وسار فلما جاز جسر الصراة[٣] نزل فصلى بالناس العصر. ثم خرج حتى أتى دير كعب (ولم أجده في مظانه فلست أدري أين هو) قال: ثم مضى نحو ساباط[٤] فأتاه دهاقينها يعرضون عليه النزول والطعام فقال: لا ليس ذلك لنا عليكم وبات بساباط فلما أصبح وهو بمظلم ساباط[٥] قال: أتبنون بكل

= حتى جاز حد الكوفة وبلغ حد الترخص فلا يسمع الأذان ولا يرى الجدران وهو ما يجوز للمسافر عنده الإفطار وقصر الصلاة دخل وقت الظهر فصلى الظهر قصراً واعلم الناس أن فرض المسافر القصر والإفطار.

(١) البرس بلدة بين الكوفة والحلة. وفي معجم البلدان برس بالضم موضع بأرض بابل.

(٢) في القاموس قبين موضع بالعراق واسم نهر وولاية بالعراق. وفي معجم البلدان قبين بالضم ثم الكسر والتشديد ومثناة تحتية اسم أعجمي لنهر وولاية بالعراق، ثم ذكر أن الأقيشر خرج إلى الشام فلما عبر على جسر سوراء نزل بقرية يقال لها قبين.

(٣) الصراة نهر يخرج من الفرات.

(٤) في معجم البلدان: ساباط كسرى بالمدائن موضع معروف سمي باسم رجل من الفرس كان ينزله.

(٥) في معجم البلدان: مظلم ساباط مضاف إلى ساباط التي قرب المدائن موضع هناك ولا أدري لم سمي بذلك.

ريع آية تعبثون. فلما انتهى إلى مدينة بهر سير[١] إذا رجل من أصحابه يقال له حريز بن سهم ينظر إلى آثار كسرى وهو يتمثل قول ابن يعقوب التميمي:

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

فقال علي: أفلا قلت: كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين. إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين. إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية. إياكم وكفر النعم لا تحل بكم النقم ثم قال: انزلوا بهذه النجوة. وبعث أمير المؤمنين (ع) معقل بن قيس من المدائن في ثلاثة آلاف وقال له: خذ على الموصل ثم نصيبين ثم القني بالرقة فإني موافيها وسكّن الناس وأمنهم ولا تقاتل إلا من قاتلك وسر البردين وغور بالناس وأقم الليل ورفه في السير ولا تسر أول الليل فإن الله جعله سكناً أرح فيه بدنك وجندك وظهرك فإذا كان السحر أو حين ينبطح الفجر فسر، فخرج حتى أتى الحديثة وهي إذ ذاك منزل الناس إنما بنى مدينة الموصل بعد ذلك محمد بن مروان فإذا هم بكبشين ينتطحان ومع معقل بن قيس رجل من خثعم يقال له شداد بن أبي ربيعة قتل بعد ذلك مع الحرورية فأخذ يقول: إيه إيه فجاء رجلان فأخذ كل منهما كبشاً فقال الخثعمي لمعقل: لا تغلبون ولا تغلبون أما ترى الكبشين أحدهما مشرق والآخر مغرب اقتتلا ولم ينتصف واحد منهما من صاحبه حتى فرق بينهما. ثم مضوا حتى أتوا علياً بالرقة وأمر علي الحارث الأعور فصاح في أهل المدائن من كان من المقاتلة فليواف أمير المؤمنين صلاة العصر فوافوه في تلك الساعة فقال: قد تعجبت من تخلفكم دعوتكم وانقطاعكم عن أهل مصركم في هذه المساكن الظالم أهلها والهالك أكثر سكانها، لا معروفاً تأمرون به ولا منكراً تنهون عنه. قالوا: يا أمير المؤمنين إنا كنا ننتظر أمرك ورأيك مرنا بما أحببت. فسار وخلف عليهم عدي بن حاتم فأقام عليها ثلاثة ثم

---

(١) لفظ فارسي معناه موضع التنزه.

خرج في ثمانمائة وخلف ابنه زيداً فلحقه في أربعمائة منهم ثم لحقا علياً (ع).
وجاء علي حتى مر بالأنبار وهي بلدة قرب الفلوجة وهي الآن خراب كان كسرى يجعلها أنباراً للحبوب فاستقبله بنو خشنوشك[1] دهاقينها فلما رأوه نزلوا ثم جاؤوا يشتدون معه قال: ما هذه الدواب التي معكم وما أردتم بهذا الذي صنعتم قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء وأما هذه البراذين فهدية لك وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاماً وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً قال: أما هذا الذي زعمتم إنه منكم خلق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع هذا الأمراء وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم فلا تعودوا له وأما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئاً إلا بثمن قالوا: يا أمير المؤمنين نحن نقومه ثم نقبل ثمنه قال: إذا لا تقومونه قيمته نحن نكتفي بما هو دونه قالوا: يا أمير المؤمنين فإن لنا من العرب موالي ومعارف فتمنعنا أن نهدي لهم وتمنعهم أن يقبلوا منا قال: ليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم وإن غصبكم أحد فاعلمونا قالوا: يا أمير المؤمنين إنا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا قال: ويحكم نحن أغنى منكم فتركهم. ثم مضى أمير المؤمنين (ع) حتى نزل بأرض الجزيرة فاستقبله بنو تغلب والنمر بن قاسط بالجزيرة فقال ليزيد بن قيس الأرحبي: يا يزيد قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: هؤلاء قومك من طعامهم فاطعم ومن شرابهم فاشرب وصالح وفد بني تغلب على أن يقرهم على دينهم ولا يصبغوا أبناءهم في النصرانية، ثم سار حتى بلغ قرية دون قرقيسيا فوافاه بها زياد بن النضر وشريح بن هاني اللذين كان قد وجههما في اثني عشر ألفاً مقدمة له فأخذا على شاطىء الفرات من قبل البر مما يلي الكوفة حتى بلغا عانات فبلغهم أخذ علي على طريق الجزيرة وبلغهم أن معاوية أقبل في جنود الشام من دمشق لاستقبال علي فقالا: والله ما هذا لنا برأي أن نسير وبيننا وبين أمير

---

(١) في كتاب صفين لنصر بن مزاحم: قال سليمان: خش طيب. نوشك راضي يعني بني الطيب الراضي بالفارسية.

المؤمنين هذا البحر ما لنا خير أن نلقى جموع أهل الشام بقلة من عددنا منقطعين من العدد والمدد، فذهبوا ليعبروا من عانات فمنعهم أهلها وحبسوا عنهم السفن فأرادوا قتالهم فتحصنوا فرجعوا إلى هيت فعبروا منها ولحقا علياً بتلك القرية فقال (ع): مقدمتي تأتي ورائي. فتقدم إليه شريح وزياد فأخبراه بالذي رأيا فقال: قد أصبتما رشدكما ثم سار حتى أتى الرقة وجل أهلها العثمانية الذين فروا من الكوفة برأيهم وأهوائهم إلى معاوية فغلقوا أبوابها وتحصنوا فيها وأميرهم سماك بن مخرمة الأسدي في طاعة معاوية وكان قد فارق علياً في نحو مائة رجل من بني أسد ثم أخذ يكاتب قومه حتى لحق به منهم سبعمائة رجل. ووافاه بالرقة معقل بن قيس الذي كان أرسله علي من المدائن في ثلاثة آلاف وقال لأهل الرقة: اجسروا لي جسراً لكي أعبر من هذا المكان إلى الشام فأبوا وقد كانوا ضموا السفن عندهم فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج وخلف عليهم الأشتر فناداهم: إني أقسم بالله لئن مضى أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجردن فيكم السيف ولأقتلن مقاتلتكم ولأخربن أرضكم ولآخذن أموالكم فلقي بعضهم بعضاً فقالوا: إن الأشتر يفي بما يقول وإن علياً خلفه علينا ليأتينا منه الشر فبعثوا إليه إنا ناصبون لكم جسراً فاقبلوا. فأرسل الأشتر إلى علي فجاء ونصبوا له الجسر فعبر علي مع الأثقال والرحال ثم أمر الأشتر فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق أحد من الناس إلا عبر ثم أنه عبر آخر الناس وازدحمت الخيل حين عبرت فسقطت قلنسوة عبد الرحمٰن بن أبي الحصين فنزل فأخذها وركب وسقطت قلنسوة عبد اللّه بن الحجاج فنزل فأخذها ثم ركب فقال لصاحبه: إن يكن ظن الزاجر الطائر صادقاً كما يزعمون أقتل وشيكاً وتقتل فقال عبد الرحمٰن: ما شيء أحب إلي مما ذكرت فقتلا جميعاً يوم صفين فلما عبر علي الفرات دعا زياد بن النضر وشريح بن هاني فسرحهما أمامه نحو معاوية على حالهما الذي كانا عليه حين خرجا من الكوفة في اثني عشر ألفاً فلقيهم أبو الأعور في جند أهل الشام فدعوهم إلى الدخول في طاعة أمير المؤمنين (ع) فأبوا فبعثوا إلى علي (ع): إنا قد لقينا أبا الأعور

السلمي بسور الروم في جند من أهل الشام فدعوناه وأصحابه إلى الدخول في طاعتك فأبوا فمرنا. فأرسل علي إلى الأشتر فقال: يا مالك إن زياداً وشريحاً أرسلا إلي يعلماني أنهما لقيا أبو الأعور في جند من أهل الشام بسور الروم فنبأني الرسول أنه تركهم متواقفين فالنجاء إلى أصحابك النجاء فإذا أتيتهم فأنت الأمير عليهم وإياك أن تبدأ القوم بقتال إلا أن يبدؤوك ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة واجعل على ميمنتك زياداً وعلى ميسرتك شريحاً وقف في القلب ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب ولا تتباعد منهم تباعد من يهاب البأس حتى أقدم عليك فإني حثيث السير إليك إن شاء الله. وكتب إليهما: أما بعد فإني أمرت عليكما مالكاً فاسمعا له وأطيعا أمره فإنه ممن لا يخاف رهقه ولا سقاطه ولا بطؤه عما الإسراع إليه احزم ولا الإسراع إلى ما البطؤ عنه أمثل. فقدم عليهم الأشتر وكف عن القتال فلم يزالوا متواقفين حتى إذ كان عند المساء حمل عليهم أبو الأعور فثبتوا له واضطربوا ساعة ثم انصرف أهل الشام ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجال حسن عدتها وعددها وخرج إليهم أبو الأعور السلمي فاقتتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال فصبر القوم بعضهم لبعض ثم انصرفوا وبكر عليهم الأشتر فقتل منهم عبد اللّه بن المنذر التنوخي وكان فارس أهل الشام قتله ظبيان بن عمارة التميمي وهو فتى حدث السن وأخذ الأشتر يقول: ويحكم أروني أبا الأعور. ثم رجع أبو الأعور بمن معه فوقفوا على تل من وراء المكان الذي كان فيه فقال الأشتر لسنان بن مالك النخعي: انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة فقال: إلى مبارزتي أو مبارزتك قال: إلى مبارزتي فقال الأشتر: لو أمرتك بمبارزته فعلت؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي فعلت فقال: يا ابن أخي أطال الله بقاءك قد والله ازددت فيك رغبة لا ما أمرتك بمبارزته إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي لأنه لا يبارز إلا ذوي الكفاءة والأسنان والشرف وأنت بحمد الله من أهل الكفاءة والشرف لكنك حديث السن وليس يبارز الأحداث فاذهب إليه فادعه لمبارزتي. فأتاه فقال:

امنوني فإني رسول. فامنوه. قال: فأتيت أبا الأعور فقلت: إن الأشتر يدعوك إلى مبارزته فسكت طويلاً ثم قال: إن خفة الأشتر وسوء رأيه هو الذي دعاه إلى إجلاء عمال عثمان من العراق وافترائه عليه وإلى أن سار إليه في داره فقتله فيمن قتل لا حاجة لي في جوابك ولا الاستماع منك اذهب عني فصاح بي أصحابه فانصرفت ولو سمع مني لأخبرته بعذر صاحبي وحجته فرجعت إلى الأشتر فأخبرته أنه قد أبى المبارزة فقال لنفسه: نظر فتواقفنا حتى حجز بيننا وبينهم الليل وبتنا متحارسين فلما أصبحنا نظرنا فإذا هم قد انصرفوا وصبحنا علي غدوة فسار نحو معاوية فتوافوا بقناصرين إلى جنب صفين وكان مع علي مائة وخمسون ألفاً وقيل: مائة ألف أو يزيدون ومع معاوية نحو ذلك وقيل: كان أهل الشام أكثر من أهل العراق بالضعف. ويدل شعر بعض شعراء الشام أن أهل الشام كانوا سبعين ألفاً وهو قوله:

للّه در كتائب جاءتكم ... تبكي فوارسها على عثمان
سبعون ألفاً ليس فيهم قاسط ... يتلون كل مفصل ومثاني

وإن صح أن أصحاب علي (ع) كانوا مائة وخمسين ألفاً أو يزيدون فيكون الصواب أن أهل العراق يزيدون أهل الشام بالضعف والله أعلم. وعلى مقدمة معاوية أبو الأعور السلمي سفيان بن عمرو وعلى ساقته بسر بن أرطاة العامري. وطلب علي موضعاً لمعسكره وأمر الناس أن يضعوا أثقالهم فلما نزلوا تسرع فوارس من فوارس علي (ع) على خيلهم إلى معاوية وكانوا مائة وثلاثين ولم ينزل بعد معاوية فناوشوهم القتال واقتتلوا هوياً[1] فكتب معاوية إلى علي: عافانا الله وإياك.

ما أحسن العدل والإنصاف من عمل ... وأقبح الطيش ثم النفش[2] في الرجل

* * *

(١) هوي كغني أي وقتاً طويلاً.

(٢) النفش كثرة الكلام.

اربط حمارك لا تنزع سويته[١] إذاً يرد وقيد العير[٢] مكروب[٣]
ليست ترى السيد[٤] زيداً[٥] في نفوسهم كما تراه بنو كور[٦] ومرهوب[٧]
أن تسألوا الحق يعط الحق سائله والدرع محقبة والسيف مقروب
أو تأنفون[٨] فإنا معشر أنف لا نطعم الضيم إن السم مشروب[٩]

فأمر علي الناس فوزعوا عن القتال حتى يأخذ أهل المصاف مصافهم ثم قال: أيها الناس هذا مقام من نطف[١٠] فيه نطف يوم القيامة ومن فلج فيه فلج يوم القيامة فتراجع الناس إلى معسكرهم.

القتال على الماء

فإذا أبو الأعور السلمي صاحب مقدمة معاوية قد سبق إلى سهول الأرض وسعة المنزل وشريعة الماء مكان أفيح فأتاه الأشتر صاحب مقدمة علي (ع) في أربعة آلاف من مستبصري أهل العراق فأزالوا أبا الأعور عن معسكره فأقبل معاوية في جميع الفيلق فلما رأى ذلك الأشتر انحاز إلى علي (ع) وغلب معاوية على الماء وحال بين أهل العراق وبينه وذهب شباب من الناس وغلمانهم يستقون

---

(١) السوية كغنية كساء محشو بعشب كالبرذعة.
(٢) العير الحمار.
(٣) أي مشدود مضيق.
(٤) السيد قبيلة من ضبة.
(٥) هو زيد الخيل الفارس المشهور وبنو السيد هم بنو عم زيد الخيل وكانت بينهم عداوة.
(٦) بنو كور قبيلة من بني ذهل بن مالك.
(٧) بنو مرهوب أيضاً قبيلة من بني ذهل بن مالك يقول: إن بني السيد لا يرون زيداً في نفوسهم كما يراه أهله الأدنون وهم بنو كور وبنو مرهوب وهذا مثل لضربه لعلي (ع) يقول له: أردع جيشك عن التسرع والعجلة فإن أهل الشام لا يرون لك ما يراه أهل العراق من التعظيم والتبجيل.
(٨) كان القياس أو تأنفوا لأنه معطوف على المجزوم فأثبتت النون إما للضرورة أو من باب الاستئناف.
(٩) أي لا نقبل الذل ولو أدى ذلك إلى أشق الأحوال التي هي كشرب السم فإن منصوب بنزع الخافض أي لان.
(١٠) نطف كعلم أي تدنس وتلطخ.

فمنعهم أهل الشام فقال عبد بن عوف بن الأحمر: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة فهي في أيديهم وقد صف أبو الأعور عليها الخيل والرجالة وقدم الرامية ومنهم أصحاب الرماح والدرق وعلى رؤوسهم البيض وقد أجمعوا أن يمنعونا الماء ففزعنا إلى أمير المؤمنين (ع) فأخبرناه فدعا صعصعة بن صوحان فقال: ائت معاوية فقل إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم وإنك قد قدمت بخيلك تقاتلنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالقتال ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها حلتم بين الناس وبين الماء فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم، وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فقال معاوية لأصحابه: ما ترون قال الوليد بن عقبة امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان حصروه أربعين يوماً يمنعونه برد الماء ولين الطعام اقتلهم عطشاً قتلهم الله. قال عمرو بن العاص: خل بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم. فأعاد الوليد مقالته وقال عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح وهو أخو عثمان من الرضاعة: إمنعهم الماء إلى الليل فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا وكان رجوعهم هزيمتهم، إمنعهم الماء منعهم الله إياه يوم القيامة فقال صعصعة: إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق، يعني الوليد بن عقبة. فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهددونه فقال معاوية: كفوا عن الرجل فإنه رسول. فقال صعصعة لمعاوية: ما ترد علي؟ قال: سيأتيكم رأيي، فوالله ما راعانا إلا تسوية الرجال والخيل والصفوف فأرسل إلى أبي الأعور امنعهم الماء وقال السليل بن عمرو السكوني يخاطب معاوية:

امنع الماء من صحاب علي ... أن يذوقوه والذليل ذليل

واقتل القوم مثلما قتل الشيـ ... ـخ ظما والقصاص أمر جميل

فامنع القوم ماءكم ليس للقو ... م بقاء وإن يكن فقليل

فقال معاوية: الرأي ما تقول ولكن عمراً لا يدعني فقال عمرو: خل بينهم وبين الماء فإن علياً لم يكن ليظمأ وأنت ريان وفي يده أعنة الخيل وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق ومعه أهل العراق وأهل الحجاز وقد سمعته أنا وأنت وهو يقول: لو استمكنت من أربعين رجلاً، فذكر أمراً يعني لو أن معي أربعين رجلاً يوم فتش البيت يعني بيت فاطمة، ذكر ذلك نصر في كتاب صفين وفرح أهل الشام بالغلبة على الماء فقال معاوية: يا أهل الشام هذا والله الظفر لا سقاني الله ولا سقى أبا سفيان أن شربوا منه أبداً حتى يقتلوا بأجمعهم عليه. وتباشر أهل الشام فقام إلى معاوية رجل من أهل الشام يقال له المعري بن الأقبل الهمداني وكان ناسكاً وكان له لسان وكان صديقاً ومؤاخياً لعمرو بن العاص فقال: يا معاوية سبحان الله إن سبقتم القوم إلى الفرات فغلبتموهم عليه تمنعونهم عنه أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له؟ هذا والله أول الجور لقد شجعت الجبان وبصرت المرتاب وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك. فاغلظ له معاوية وقال لعمرو: اكفني صديقك فأتاه عمرو فاغلظ له. فقال الهمداني في ذلك:

لعمرو أبي معاوية بن حرب ... وعمرو ما لدائهما دواء
سوى طعن يحار العقل فيه ... وضرب حين تختلط الدماء
فلست بتابع دين ابن هند ... طوال الدهر ما أرسى حراء
لقد ذهب العتاب فلا عتاب ... وقد ذهب الولاء فلا ولاء
وقولي في حوادث كل أمر ... على عمرو وصاحبه العفاء
ألا لله درك يا ابن هند ... لقد ذهب الحياء فلا حياء
أتحمون الفرات على رجال ... وفي أيديهم الأسل الظماء
وفي الأعناق أسياف حداد ... كأن القوم عندكم نساء
فترجو أن يجاوركم علي ... بلا ماء وللأحزاب ماء

ثم سار الهمداني في سواد الليل فلحق بعلي. وبقي أصحاب علي (ع)

يوماً وليلة بغير ماء واغتم علي (ع) بما فيه أهل العراق من العطش فخرج نحو رايات مذحج وإذا رجل ينادي:

أيمنعنا القوم ماء الفرات ... وفينا السيوف وفينا الحجف
وفينا علي له صولة ... إذا خوفوه الردى لم يخف
فنحن الذين غداة الزبير ... وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا أمس أسد العرين ... وما بالنا اليوم شاء النجف
فإما تحلوا بشط الفرات ... ومنا ومنهم عليه الجيف
وإما تموتوا على طاعة ... تحل الجنان وتحبو الشرف

ومضى إلى راية كندة فإذا مناد ينادي إلى جنب منزل الأشعث ويقول:

لئن لم يجل الأشعث اليوم كربة ... من الموت فيها للنفوس تفتت
فنشرب من ماء الفرات بسيفه ... فهبنا أناساً قبل كانوا فموتوا
فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا ... وتلقى التي فيها عليك التشتت
فمن ذا الذي تثنى الخناصر باسمه ... سواك ومن هذا إليه التلفت
وهل من بقاء بعد يوم وليلة ... نظل عطاشى والعدو يصوت
وأنت امرؤ من عصبة يمنية ... وكل امرىء من غصنه حين ينبت

فلما سمع الأشعث قول الرجل أتى علياً من ليلته فقال: يا أمير المؤمنين أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف؟ خل عنا وعن القوم فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت ومر الأشتر فليعل بخيله حتى آمره، فقال: ذاك إليك. فرجع الأشتر فنادى في الناس من كان يريد الموت أو الماء فميعاده الصبح فإني ناهض إلى الماء فأتاه من ليلته اثنا عشر ألف رجل وشد عليه سلاحه وهو يقول:

ميعادنا اليوم بياض الصبح ... هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا ولا أمر بغير نصح ... دبوا إلى القوم بطعن سمح
لا صلح للقوم وأين صلحي ... حسبي من الإقحام قاب رمح

فلما أصبح الأشعث دب في الناس وسيوفهم على عواتقهم وجعل يلقي

رمحه ويقول: بأبي أنتم وأمي تقدموا قاب رمحي فلم يزل ذلك دأبه حتى خالط القوم وحسر عن رأسه ونادى: أنا الأشعث بن قيس خلوا عن الماء. فنادى أبو الأعور السلمي: أما والله لا حتى تأخذنا وإياكم السيوف فقال الأشعث: قد والله أظنها دنت منا وحمل عبد اللّه بن عوف بن الأحمر وكان من فرسان علي عليه السلام فجعل يضربهم بالسيف وهو يقول:

خلوا لنا عن الفرات الجاري | أو اثبتوا للجحفل الجرار
لكل قرم مستميت شاري[1] | مطاعن برمحه كرار
ضراب هامات العدى مغوار

ودعا الأشتر الحارث بن همام النخعي ثم الصهباني فأعطاه لواءه ثم قال: يا حارث لولا أني أعلم إنك تصبر عند الموت لأخذت لوائي منك ولم أحبك بكرامتي قال: والله يا مالك لأسرنك اليوم أو لأموتن فاتبعني. فتقدم وهو يقول:

يا أشتر الخير ويا خير النخع | وصاحب النصر إذا عم الفزع
وكاشف الأمر إذا الأمر وقع | ما أنت في الحرب العوان بالجذع
قد جزع القوم وعموا بالجزع | وجرعوا الغيظ وغصوا بالجرع
إن تسقنا الماء فما هي بالبدع | أو نعطش اليوم فجد يقتطع
ما شئت خذ منا وما شئت فدع

فقال الأشتر: ادن مني يا حارث، فدنا منه، فقبل رأسه وقال: لا تتبع هذا اليوم إلا خيراً، ثم قام الأشتر يحرض أصحابه ويقول: فدتكم نفسي شدّوا شدة المحرج الراجي الفرج فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه فإنه أشد لشؤون الرأس ثم استقبلوا القوم بهاماتكم. وكان الأشتر يومئذ على فرس له محذوف أدهم كأنه حلك الغراب. وقتل الأشتر في تلك المعركة سبعة وقتل الأشعث فيها خمسة. فأول قتيل قتله الأشتر ذلك

---

(١) يشري نفسه الله.

اليوم بيده من أهل الشام رجل يقال له صالح بن فيروز وكان مشهوراً بشدة البأس فارتجز على الأشتر فقال:

يا صاحب الطرف الحصان الأدهم ... أقدم إذا شئت علينا اقدم

أنا ابن ذي العز وذي التكرم ... سيد عك كل عك فاعلم

فبرز إليه الأشتر وهو يقول:

آليت لا أرجع حتى اضربا ... بسيفي المصقول ضرباً معجبا

أنا ابن خير مذحج مركبا ... من خيرها نفساً وأماً وأبا

ثم شد عليه بالرمح فقتله فخرج إليه فارس آخر يقال له مالك بن أدهم السلماني وكان من فرسان أهل الشام وشد على الأشتر فلما رهقه التوى الأشتر على الفرس ومار السنان فأخطأه ثم استوى على فرسه وشد عليه بالرمح وهو يقول:

خانك رمح لم يكن خوانا ... وكان قدما يقتل الفرسانا

لفارس يخترم الأقرانا ... أشهل لا وغلاً ولا جبانا

فقتله، ثم فارس آخر يقال له رياح بن عتيك الغساني وهو يقول:

إني زعيم مالك بضرب ... تذي غرارين جميع القلب

عبل الذراعين شديد الصلب

(وفي رواية) شديد العصب فخرج الأشتر وهو يقول:

رويد لا تجزع من جلادي ... جلاد شخص جامع الفؤاد

يجيب في الروع دعا المنادي ... يشد بالسيف على الأعادي

فشد عليه فقتله، ثم خرج إليه فارس آخر يقال له إبراهيم بن الوضاح الجمحي وهو يقول:

هل لك يا أشتر في برازي ... براز ذي غشم وذي اعتزاز

مقاوم لقرنه لزاز

فخرج إليه الأشتر وهو يقول:

نعم نعم أطلبه شهيدا معي حسام يقصم الحديدا
يترك هامات العدى حصيدا

فقتله ثم خرج إليه فارس آخر يقال له زامل بن عبيد الخزامي وكان من أصحاب الألوية فشد عليه وهو يقول:

يا صاحب السيف الخضيب المذرب وصاحب الجوشن ذاك المذهب
هل لك في طعن غلام محرب يحمل رمحاً مستقيم الثعلب
ليس بحياد ولا مغلب

فطعن الأشتر في موضع الجوشن فصرعه عن فرسه ولم يصب مقتلاً وشد عليه الأشتر فكسف قوائم الفرس بالسيف وهو يقول:

لا بد من قتلي أو من قتلكا قتلت منكم خمسة من قبلكا
وكلهم كانوا حماة مثلكا

ثم ضربه بالسيف وهما راجلان فقتله، ثم خرج إليه فارس يقال له: الأجلح بن منصور الكندي وكان من أعلام العرب وفرسانها وكان على فرس يقال له لاحق، فلما استقبله الأشتر كره لقاء الأشتر واستحيا أن يرجع فشد عليه الأشتر وهو يقول:

بليت بالأشتر ذاك المذحجي بفارس في حلق مدجج
كالليث ليث الغابة المهيج إذا دعاه القرن لم يعرج

فضربه الأشتر فقتله، وقالت حبلة بنت منصور أخت الأجلح حين أتاها مصابه ترثيه:

ألا فأبكي أخا ثقة فقد والله أبلينا
فقتل الماجد القمقام لا مثل له فينا
أتانا اليوم مقتله فقد جزت نواصينا

كريم ماجد الجدين يشفي من أعادينا
وممن قاد جيشهم علي والمضلونا
شفانا اللّه من أهل الـ ـعراق فقد أبادونا
أما يخشون ربهم ولم يرعوا له دينا

وماتت حزناً على أخيها. وقال أمير المؤمنين (ع) لما بلغه مرثيتها أخاها: أما إنهن ليس يملكن ما رأيتم من الجزع، أما إنهم قد أضروا بنسائهم فتركوهن خزايا من قبل ابن آكلة الأكباد، اللهم حمله آثامهم وأوزارهم وأثقالاً مع أثقالهم. ثم خرج إليه محمد بن روضة الجمحي وهو يضرب في أهل العراق ضرباً منكراً ويقول:

يا ساكني الكوفة يا أهل الفتن يا قاتلي عثمان ذاك المؤتمن
ورث صدري قتله طول الحزن أضربكم ولا أرى أبا حسن

فشد عليه الأشتر وهو يقول:

يا طالباً بالثأر في عثمانا أنزل ربي بكم الهوانا
ولا يسلي عنكم الأحزانا مخالف قد خالف الرحمانا
نصرتموه عابداً شيطانا

ثم ضربه فقتله. ثم أقبل الأشتر يضرب بسيفه جمهور الناس حتى كشف أهل الشام عن الماء وهو يقول:

لا تذكروا ما قد مضى وفاتا واللّه ربي باعث أمواتا
من بعد ما صاروا كذا رفاتا لأوردن خيلي الفراتا
شعث النواصي أو يقال ماتا

وكان لواء الأشعث مع معاوية بن الحارث فقال له الأشعث: لله أنت ليست النخع بخير من كندة قدم لواءك فتقدم صاحب اللواء وهو يقول:

انعطش اليوم وفينا الأشعث فأبشروا فإنكم لن تلبثوا
أن تشربوا الماء فلا تريثوا

وكان الأشتر قد تعالى بخيله حيث أمره علي (ع) فبعث إليه الأشعث أن اقحم الخيل فأقحمها حتى وضعت سنابكها في الفرات وأخذت القوم السيوف فولوا مدبرين فقال علي (ع): هذا يوم نصرنا فيه الأشعث بالحمية وقال الأشعث: يا أمير المؤمنين قد غلب الله لك على الماء. وقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم كما منعتهم أمس أتراك ضاربهم عليه كما ضاربوك عليه وما أغنى عنك أن تكشف لهم السوأة قال: دع عنك ما مضى ما ظنك بعلي قال: ظني أنه لا يستحل منك ما استحللت منه وإن الذي جاء له غير الماء. فلما غلب علي على الماء فطرد عنه أهل الشام بعث إلى معاوية: إنا لا نكافيك بصنعك هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء فأخذ كل منهما بالشريعة مما يليه وقال علي لأصحابه: إن الخطب أعظم من منع الماء وقال معاوية: لله در عمرو ما عصيته في أمر إلا أخطأت الرأي فيه.

المراسلة بين علي ومعاوية بصفين

ومكث علي يومين لا يراسل معاوية ولا يأتيه من قبل معاوية أحد ثم أن علياً دعا بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فقال: ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل وإلى الطاعة والجماعة وإلى اتباع أمر الله تعالى فقال له شبث: ألا نطمعه في سلطان توليه إياه ومنزلة تكون له بها إثرة عندك إن هو بايعك قال علي: ائتوه الآن فألقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه، وهذا في ربيع الآخر، فأتوه فحمد الله أبو عمرة بن محصن وأثنى عليه وقال: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإن الله مجازيك بعملك وإني أنشدك بالله أن تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها بينها. فقطع معاوية عليه الكلام فقال: هلا أوصيت صاحبك فقال: سبحان الله إن صاحبي ليس مثلك إن صاحبي أحق البرية بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله ﷺ قال معاوية: فتقول ماذا؟ قال: أدعوك إلى تقوى ربك وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم

لك في دينك وخير في عاقبة أمرك، قال: ويطل دم عثمان؟ لا والرحمٰن لا أفعل ذلك أبداً. فذهب سعيد يتكلم فبدره شبث بن ربعي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معاوية إنه لا يخفى علينا ما تقرب وما تطلب إنك لا تجد شيئاً تستهوي به الناس إلا إن قلت لهم: قتل إمامكم مظلوماً فهلموا نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام رذال. وقد علمنا إنك أبطأت عليه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي تطلب، ورب مبتغ أمراً يحول الله دونه وربما أوتي المتمني أمنيته وربما لم يؤتها، والله ما لك في واحدة منهما خير والله إن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالاً ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق صلا النار فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الأمر أهله، فقال معاوية: إن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه ثم عتبت بعد فيما لا علم لك به ولقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي في كل ما وصفت وذكرت انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلا السيف. فخرجوا وشبث يقول: أفعلينا تهول بالسيف إنا والله لنعجلنه إليك. فأتوا علياً فأخبروه بما كان وخرج قراء أهل العراق وقراء أهل الشام فعسكروا ناحية صفين في ثلاثين ألفاً، وعسكر علي على الماء وعسكر معاوية فوق ذلك ومشى القراء فيما بين معاوية وعلي فيهم عبيدة السلماني وعلقمة بن قيس النخعي وعبد اللّه بن عتبة وعامر بن عبد القيس وقد كان في بعض تلك السواحل فانصرف إلى عسكر علي فدخلوا على معاوية فقالوا: ما الذي تطلب قال: أطلب بدم عثمان قالوا: ممن قال: من علي قالوا: وعلي قتله؟ قال: نعم هو قتله وآوى قاتله فدخلوا على علي فقالوا: إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان قال: اللهم لكذب فيما قال لم أقتله فرجعوا إلى معاوية فأخبروه فقال: إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ فرجعوا إلى علي فقالوا: إن معاوية يزعم إنك لم تكن قتلت بيدك فقد أمرت ومالأت فقال: اللهم كذب فيما قال. فرجعوا إلى معاوية فقالوا: إن علياً يزعم أنه لم يفعل فقال: إن كان صادقاً فليمكنا من قتلة عثمان فإنهم في عسكره وجنده وأصحابه وعضده، فرجعوا إلى علي فأخبروه فقال لهم علي: تأول القوم عليه القرآن ووقعت الفرقة وقتلوه في سلطانه وليس على ضربهم قود، فخصم علي

معاوية (ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين) قال معاوية: إن كان الأمر كما يزعم فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن ها هنا معنا فقال علي: إنما الناس تبع المهاجرين والأنصار وهم شهود المسلمين في البلاد على ولايتهم وأمر دينهم فرضوا بي وبايعوني. فرجعوا إلى معاوية فأخبروه بذلك فقال: ليس كما يقول فما بال من هنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر. فانصرفوا إلى علي فقالوا له ذلك فقال: ويحكم هذا للبدريين دون الصحابة ليس في الأرض بدري إلا قد بايعني وهو معي أو قد أقام ورضي فلا يغرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم، فتراسلوا ثلاثة أشهر ربيع الآخر وجمادين[1] فيزحف بعضهم إلى بعض ويحجز القراء بينهم فتزاحفوا خمساً وثمانين مرة في ثلاثة أشهر وتحجز القراء بينهم ولا يكون بينهم قتال وخرج أبو أمامة الباهلي وأبو الدرداء فدخلا على معاوية وكانا معه فقالا: علام نقاتل هذا الرجل فوالله لهو أقدم منك سلماً وأحق بهذا الأمر منك وأقرب من النبي ﷺ فعلام تقاتله فقال: أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته فقولوا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من يبايعه. فانطلقوا إلى علي فأخبروه فقال: هم الذين ترون فخرج عشرون ألفاً أو أكثر مسربلين في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقالوا: كلنا قتلته فإن شاؤوا فليروموا ذلك منا فرجع أبو أمامة وأبو الدرداء فلم يشهدا شيئاً من القتال حتى إذا كان رجب وخاف معاوية أن يبايع القراء علياً على القتال أخذ في المكر وأخذ يحتال للقراء لكيما يحجموا عنه ويكفوا حتى ينظروا.

حيلة لمعاوية

وكتب معاوية في سهم: من عبد الله الناصح فإني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فيغرقكم فخذوا حذركم ورمى بالسهم في عسكر علي فوقع في يد رجل من أهل الكوفة وتداولته الأيدي حتى وصل إلى أمير المؤمنين فقالوا: هذا رجل ناصح كتب يخبركم بما أراد معاوية وبعث معاوية مائتي رجل

---

(١) هكذا ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين وذكرنا ما فيه في أول الكلام فراجع.

من الفعلة إلى عاقول من النهر بأيديهم المرود والزبيل يحفرون فيها بحيال عسكر علي فقال علي: ويحكم إن الذي يحاول معاوية لا يستقيم له وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم فقالوا له: هم والله يحفرون الساعة فقال: يا أهل العراق لا تكونوا ضعفى ويحكم لا تغلبوني على رأيي فقالوا: والله لنرتحلن فإن شئت فارتحل وإن شئت فأقم فارتحلوا وصعدوا بعسكرهم وارتحل علي آخر الناس وهو يقول:

ولو أني أطعت عصبت قومي — إلى ركن اليمامة أم شآم

ولكني إذا أبرمت أمراً — منيت بخلف آراء الطغام

وارتحل معاوية فنزل بمعسكر علي الذي كان فيه فدعا علي الأشتر فقال: ألم تغلبني على رأيي أنت والأشعث فدونكما فقال الأشعث: أنا أكفيك يا أمير المؤمنين سأداوي ما أفسدت اليوم من ذلك فجمع كندة فقال: لا تفضحوني اليوم إنما أقارع بكم أهل الشام فخرجوا معه رجلاً يمشون وبيد الأشعث رمح له يلقيه على الأرض ويقول: امشوا قيس رمحي فيمشون فلم يزل يقيس لهم على الأرض برمحه ويمشون معه رجالة قد كسروا جفون سيوفهم حتى لقوا معاوية وسط بني سليم واقفاً على الماء وقد جاءه أداني عسكره فاقتتلوا قتالاً شديداً على الماء ساعة وانتهى أوائل أهل العراق فنزلوا وأقبل الأشتر في خيل فحمل على معاوية، والأشعث يحارب في ناحية فانحاز معاوية في بني سليم فردوا وجوه إبله قدر ثلاثة فراسخ ثم نزل ووضع أهل الشام أثقالهم والأشعث يهدر ويقول: أرضيت يا أمير المؤمنين؟ ثم غاداهم علي القتال وعلى رايته يومئذ هاشم بن عتبة المرقال وبرز يومئذ عوف من أصحاب معاوية فبرز إليه علقمة بن عمرو من أصحاب علي فطعنه علقمة فقتله فمكثوا على ذلك حتى كان ذو الحجة فجعل علي يأمر هذا الرجل الشريف فيخرج معه جماعة فيقاتل ويخرج إليه من أصحاب معاوية رجل معه جمع آخر فيقتتلان في خيلهما ورجلهما ثم ينصرفان وأخذوا يكرهون أن يتزاحفوا بجميع الفيلق من أهل العراق وأهل الشام مخافة الاستئصال والهلاك، وكان علي يخرج الأشتر مرة في خيله ومرة حجر بن عدي أو

شبث بن ربعي التميمي أو خالد بن المعمر السدوسي أو زياد بن النضر الحارثي أو زياد بن جعفر الكندي أو سعيد بن قيس الهمداني أو معقل بن قيس الرياحي أو قيس بن سعد بن عبادة وأكثرهم خروجاً الأشتر وكان معاوية يخرج إليهم عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد المخزومي أو أبا الأعور السلمي أو حبيب بن مسلمة الفهري أو ابن ذي الكلاع أو عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب أو شرحبيل بن السمط أو حمزة بن مالك الهمداني. فاقتتلوا ذا الحجة وربما اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين أوله وآخره، وخرج الأشتر يوماً فقاتل بصفين في رجال من القراء ورجال من فرسان العرب فاشتد قتالهم (قال الراوي): فخرج علينا رجل لقلما رأيت رجلاً قط هو أطول ولا أعظم منه فدعا إلى المبارزة فلم يبرز إليه أحد وبرز إليه الأشتر فاختلفا ضربتين وضربه الأشتر فقتله وأيم الله لقد كنا أشفقنا عليه وسألناه أن لا يخرج إليه وهو سهم بن أبي العيزار. وجاء رجل من الأزد فقال: أقسم بالله لأقتلن قاتلك فحمل على الأشتر فضربه الأشتر فإذا هو بين يدي فرسه وحمل أصحابه فاستنقذوه جريحاً فقال أبو رقيقة السهمي: كان هذا ناراً فصادفت أعصاراً. فاقتتل الناس ذا الحجة كله فلما مضى ذو الحجة تداعى الناس أن يكف بعضهم عن بعض إلى أن ينقضي المحرم لعل الله أن يجري صلحاً واجتماعاً فكف الناس بعضهم عن بعض.

استئناف المراسلة

ولما توادع علي ومعاوية بصفين اختلفت الرسل فيما بينهما رجاء الصلح فأرسل علي إلى معاوية عدي بن حاتم وشبث بن ربعي ويزيد بن قيس الأرحبي وزياد بن خصفة التميمي فدخلوا على معاوية فحمد الله عدي بن حاتم وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنا أتيناك لندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن الله به دماء المسلمين وندعوك إلى أفضلها سابقة وأحسنها في الإسلام آثاراً وقد اجتمع له الناس فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل فقال معاوية: كأنك إنما جئت

متهدداً ولم تأت مصلحاً، هيهات يا عدي، كلا والله إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتلته. وقال له شبث وزياد بن خصفة: أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب الأمثال لنا دع ما لا ينفع من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه. وقال يزيد بن قيس: إن صاحبنا لمن عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوك بعلي فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه. (فقال معاوية): إنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التي دعوتم إليها فنعما هي وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه فليدفع إلينا قتلته لنقتلهم به ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة فقال شبث بن ربعي: أيسرك أنك أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته قال: وما يمنعني من ذلك والله لو أمكنني من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن بنائل مولى عثمان، فقال له شبث: وإله السماء ما عدلت معدلاً لا والله لا تصل إلى قتل ابن ياسر حتى تندر الهام عن كواهل الرجال وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال له معاوية: لو كان ذلك كانت عليك أضيق. ورجعوا فبعث معاوية إلى زياد بن خصفة فقال له: يا أخا ربيعة إن علياً قطع أرحامنا وقتل إمامنا وآوى قتلة صاحبنا وإني أسألك النصرة عليه بأسرتك وعشيرتك ولك علي عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أي المصرين أحببت. فقال له زياد: إني لعلى بينة من ربي وبما أنعم علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ثم قام. فقال معاوية لعمرو بن العاص، وكان إلى جانبه: ليس يتكلم رجل منهم بكلمة تخالف صاحبه ما لهم قصمهم الله ما قلوبهم إلا قلب رجل واحد. وبعث معاوية إلى حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي فدخلوا على علي فقال حبيب بن مسلمة: إن عثمان كان خليفة مهدياً فاستثقلتم حياته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به فإن قلت إنك لم تقتله فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم

شورى بينهم. فقال له علي: وما أنت لا أم لك والولاية والعزل والدخول في هذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك. فقال حبيب بن مسلمة: أما والله لترينني حيث تكره فقال له علي: وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك اذهب فصوب وصعد ما بدا لك فلا أبقى الله عليك إن أبقيت. فقال شرحبيل: إن كلمتك فلعمري ما كلامي إياك إلا كنحو من كلام صاحبي فهل لي عندك جواب غير الذي أجبته به؟ فقال علي عليه السلام: عندي جواب غير الذي أجبته به لك ولصاحبك ثم ذكر كلاماً قال في آخره: ثم ولي أمر الناس عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه فسار إليه ناس فقتلوه ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمرهم فأبيت عليهم فقالوا لي: إن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية إياي الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق ابن طليق وحزب من الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين مكرهين فعجبنا لكم ولأجلابكم معه وانقيادكم له وتدعون أهل بيت نبيكم ﷺ الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم أحداً من الناس، إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيكم ﷺ وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين. فقال له شرحبيل ومعن بن يزيد: أتشهد أن عثمان قتل مظلوماً فقال: إني لا أقول ذلك. قالا: فمن لم يشهد أنه قتل مظلوماً فنحن براء منه ثم انصرفا فقال علي (ع): ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ ثم أقبل على أصحابه فقال: لا يكن هؤلاء بأولى بالجد في ضلالتهم منكم في حقكم. ثم مكث الناس حتى دنا انسلاخ المحرم، فقال حابس بن سعيد الطائي، وكان صاحب لواء طيء مع معاوية وقتل معه:

أما بين المنايا غير سبع — بقين من المحرم أو ثماني
أينهانا كتاب الله عنهم — ولا ينهاهم السبع المثاني

فلما انسلخ المحرم واستقبل صفر سنة ٣٧ بعث علي نفراً من أصحابه

فيهم مرثد بن الحارث الجشمي حتى إذا كانوا من عسكر معاوية بحيث يسمعونهم الصوت نادى مرثد عند غروب الشمس: يا أهل الشام إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأصحاب رسول الله ﷺ يقولون لكم: إنا والله ما كففنا عنكم شكاً في أمركم ولا بقيا عليكم وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم ثم انسلخ وأنا قد نبذنا إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين (وفي رواية) أمره فنادى: يا أهل الشام ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد استنبذتكم واستأنيتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه فلم تتناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين. فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب ويعبيان العساكر وأوقدوا النيران وجاؤوا بالشموع، وبات علي ليلته كلها يعبي الناس ويكتب الكتائب ويدور في الناس ويحرضهم.

وصايا أمير المؤمنين عليه السلام لعسكره

كان أمير المؤمنين عليه السلام يأمر عساكره في كل موطن لقوا معه عدوه فيقول: لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً إلا بإذني ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ولا تهيجوا امرأة إلا بإذني وإن شتمن أعراضكم وتناولن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس ولقد كنا وإنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعير بها عقبه من بعده. وسمع منه عليه السلام أيام الجمل وصفين والنهروان أنه كان يقول للناس: عباد الله اتقوا الله عز وجل وغضوا الأبصار واخفضوا الأصوات وأقلوا الكلام ووطنوا أنفسكم على المنازلة

والمجاولة والمبارزة والمعانقة والمكادمة واثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين. اللهم ألهمهم الصبر وأنزل عليهم النصر وأعظم لهم الأجر.

ابتداء الوقعة العظمى يوم صفين

قال نصر: عقد أمير المؤمنين ومعاوية الألوية وأمرا الأمراء وكتبا الكتائب فاستعمل علي (ع) على الخيل عمار بن ياسر، وفي رواية إنه استعمله على رجالة أهل الكوفة وعلى خيل أهل الكوفة الأشتر وعلى خيل أهل البصرة سهل بن حنيف وعلى الرجالة عبد اللّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعلى رجالة أهل البصرة قيس بن سعد وكان قد أقبل من مصر إلى صفين فإنه كان والياً بمصر كما مر، ودفع اللواء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري، وجعل الميمنة اليمن وعليها الأشعث بن قيس وعلى رجالتها سليمان بن صرد الخزاعي، وجعل الميسرة ربيعة وعليها عبد اللّه بن عباس وعلى رجالتها الحارث بن مرة العبدي وجعل القلب مضر الكوفة والبصرة وعقد ألوية القبائل فأعطاها قوماً بأعيانهم جعلهم رؤساءهم وأمراءهم، فعلى قريش وأسد وكنانة عبد اللّه بن عباس، وعلى كندة حجر بن عدي، وعلى بكر البصرة حضين بن المنذر، وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس، وعلى خزاعة عمرو بن الحمق، وعلى سعد ورباب البصرة جارية بن قدامة السعدي، وعلى بجيلة رفاعة بن شداد، وعلى قضاعة وطيء عدي بن حاتم، وعلى همدان سعيد بن قيس، وعلى مذحج الأشتر بن الحارث النخعي، وعلى عبد القيس الكوفة صعصعة بن صوحان، وعلى قيس الكوفة عبد اللّه بن الطفيل الكناني، وعلى ذهل الكوفة يزيد بن رويم الشيباني إلى غير ذلك. واستعمل معاوية على الخيل عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب، وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري صاحب وقعة الحرة، وعلى الميمنة وهم أهل حمص وقنسرين عبد اللّه بن عمرو بن العاص، وعلى الميسرة وهم أهل الأردن وفلسطين حبيب بن مسلمة الفهري، وأعطى اللواء

عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وعلى أهل دمشق وهم القلب الضحاك بن قيس الفهري، وعلى أهل حمص ذو الكلاع الحميري، وعلى أهل قنسرين زفر بن الحارث، وعلى أهل الأردن أبا الأعور السلمي سفيان بن عمرو، وعلى رجالة دمشق بسر بن أبي أرطاة العامري، وعلى رجالة حمص حوشبا ذا ظليم، وعلى الخيل عمرو بن العاص، واستعمل على باقي القبائل وأهل البلاد أشخاصاً آخرين لا نطيل بذكرهم. وبايع رجال من أهل الشام على الموت فعقلوا أنفسهم بالعمائم فكانوا خمسة صفوف معقلين وكانوا يخرجون فيصطفون أحد عشر صفاً ويخرج أهل العراق فيصطفون أحد عشر صفاً.

علامة أهل الشام وأهل العراق وشعارهم وألوان راياتهم

قال نصر: كانت علامة أهل العراق بصفين الصوف الأبيض قد جعلوه في رؤوسهم وعلى أكتافهم، وشعارهم: يا الله يا أحد يا صمد يا رب محمد يا رحمٰن يا رحيم. وكانت علامة أهل الشام خرقاً بيضاً قد جعلوها على رؤوسهم وأكتافهم وكان شعارهم: نحن عباد الله حقاً حقاً يا لثارات عثمان. وكانت رايات أهل العراق سوداً وحمراً ودكناً وبيضاً ومعصفرة وصفراً وموردة والألوية مضروبة دكن وسود، ولم يذكر ألوان رايات أهل الشام.

ابتداء القتال بعد الهدنة

فخرجوا يوم الأربعاء أول يوم من صفر سنة ٣٧ وعلى من خرج من أهل الكوفة الأشتر وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة فاقتتلوا قتالاً شديداً جل النهار ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض. ثم خرج هاشم بن عتبة في خيل ورجالة حسن عددها وعدتها وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي فاقتتلوا يومهم ذلك تحمل الخيل على الخيل والرجال على الرجال ثم انصرفوا وقد صبر القوم بعضهم لبعض. وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر وخرج عمرو بن العاص فاقتتل الناس كأشد القتال وجعل عمار يقول: يا أهل الإسلام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر

المشركين فلما أراد الله أن يظهر دينه وينصر رسوله أتى النبي ﷺ فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب وقبض الله ورسوله ﷺ وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم ألا وإنه معاوية. وكان مع عمار زياد بن النضر على الخيل فأمره أن يحمل في الخيل فحمل وصبروا له وشد عمار في الرجالة فأزال عمرو بن العاص عن موقفه. وبارز زياد بن النضر أخاً له من أمه من بني عامر اسمه معاوية بن عمرو العقيلي أمهما هند من بني زبيد فلما التقيا تسايلا وتوافقا ثم انصرف كل واحد منهما عن صاحبه ورجع الناس يومهم ذاك. ورفع عمرو بن العاص شقة خميصة سوداء في رأس رمح فقال ناس: هذا لواء عقده له رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك علياً فقال: هل تدرون ما أمر هذا اللواء؟ إنه خرج له رسول الله ﷺ هذه الشقة فقال: من يأخذها بما فيها فقال: وما فيها قال: أن لا تقاتل به مسلماً ولا تفر به من كافر فأخذها، فقد والله فر به من المشركين وقاتل به اليوم المسلمين، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر فلما وجدوا أعواناً رجعوا إلى عداوتهم إلا أنهم لم يدعوا الصلاة.

فلما كان من الغد خرج محمد بن علي بن أبي طالب خرج إليه عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب في جمعين عظيمين فاقتتلوا كأشد القتال ثم إن عبيد اللّه بن عمر أرسل إلى محمد بن الحنفية أن اخرج إلي أبارزك. ثم خرج إليه يمشي فبصر به علي فقال: من هذان المتبارزان؟ فقيل له ابن الحنفية وابن عمر. فحرك علي دابته ثم دعا محمداً فوقف له وقال: امسك دابتي فأمسكها ثم مشى إليه علي فقال: أنا أبارزك قال: ليس لي في مبارزتك حاجة وأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه منعتني من مبارزته فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله قال: يا بني لو بارزته أنا لقتلته ولو بارزته أنت لرجوت أن تقتله وما كنت آمن أن يقتلك.
فلما كان اليوم الخامس خرج عبد اللّه بن العباس والوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاً شديداً ودنا ابن عباس من الوليد فأخذ الوليد يسب بني عبد المطلب فأرسل إليه ابن عباس أن ابرز إلي فأبى، وقاتل ابن عباس يومئذ قتالاً شديداً ثم انصرفوا عند الظهر وكل غير غالب وذلك يوم الأحد. وخرج شمر بن أبرهة بن الصباح

الحميري في ذلك اليوم فلحق بعلي في ناس من قراء أهل الشام فلما رأى ذلك معاوية وعمرو بن العاص وما خرج إلى علي من قبائل أهل الشام فت ذلك في عضد معاوية وعمرو وقال عمرو: يا معاوية إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلاً له من محمد ﷺ قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم في الإسلام لا يعتد أحد بمثله ونجدة في الحرب لم تكن لأحد من أصحاب محمد ﷺ وأنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم وقدمائهم في الإسلام ولهم في النفوس مهابة ومهما نسيت فلا تنس إنك على باطل. فلما قال عمرو لمعاوية ذلك زوق معاوية خطبة وأمر بالمنبر فأخرج ثم أمر أجناد أهل الشام فحضروا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أعيرونا أنفسكم وجماجمكم ولا تفشلوا ولا تخاذلوا فإن اليوم يوم خطار ويوم حقيقة وحفاظ فإنكم على حق ولكم حجة وإنما تقاتلون من نكث البيعة وسفك الدم الحرام فليس له في السماء عاذر. ثم صعد عمرو بن العاص مرقاتين من المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قدموا المستلئمة وأخروا الحاسر وأعيروا جماجمكم ساعة فقد بلغ الحق مقطه فإنما هو ظالم أو مظلوم. فلما أخبر علي بخطبة معاوية وعمرو وتحريضهما الناس عليه أمر بالناس فجمعوا وهو متوكىء على قوسه وقد جمع أصحاب رسول الله عنده فهم يلونه وأحب أن يعلم الناس أن أصحاب رسول الله ﷺ متوافرون عليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس اسمعوا مقالتي وعوا كلامي فإن الخيلاء من التجبر وإن النخوة من التكبر وإن الشيطان عدو حاضر يعدكم الباطل، ألا إن المسلم أخو المسلم، لا تنابذوا ولا تخاذلوا فإن شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة من أخذ بها لحق ومن تركها مرق ومن فارقها محق ليس المسلم بالخائن إذا اؤتمن ولا بالمخلف إذا وعد ولا بالكذاب إذا نطق نحن أهل بيت الرحمة وقولنا الصدق ومن فعالنا القصد ومنا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام ومنا قراء الكتاب ندعوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره وابتغاء رضوانه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وتوفير الفيء لأهله ألا وإن من أعجب العجب أن معاوية بن

أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص السهمي أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما وقد علمتم أني لم أخالف رسول الله ﷺ قط ولم أعصه في أمر قط أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال وترعد فيها الفرائص نجدة أكرمني الله بها فله الحمد ولقد قضى رسول الله ﷺ وإن رأسه لفي حجري ولقد وليت غسله بيدي وحدي تقلبه الملائكة المقربون معي وأيم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله. فقال عمار بن ياسر: أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة لن تستقيم عليه، ثم تفرق الناس وقد نفذت بصائرهم في قتال عدوهم. وقال علي (ع) في هذه الليلة: حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا فقام في الناس عشية الثلاثاء ليلة الأربعاء بعد العصر فخطبهم وقال في آخر خطبته: ألا إنكم لاقوا العدو غداً إن شاء الله فأطيلوا الليلة القيام وأكثروا تلاوة القرآن واسألوا الصبر والنصر والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين ثم انصرف. ووثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها فلما كان الليل خرج علي فعبأ الناس ليلته كلها حتى أصبح وعقد الألوية وأمر الأمراء وكتب الكتائب وبعث علي منادياً فنادى: يا أهل العراق اغدوا على مصافكم نصبح أهل الشام في عسكرهم واجتمعوا إلى معاوية فعبأ خيله وعقد الألوية وكتب الكتائب ثم نادى معاوية: أين الجند المقدم فخرج أهل حمص في راياتهم عليهم سفيان بن عمرو السلمي ثم نادى: أين أهل قنسرين فجاؤوا في راياتهم عليهم زفر بن الحارث ثم نادى أين جند الأمير فجاء أهل دمشق على راياتهم وهم القلب وعليهم الضحاك بن قيس الفهري فأطافوا بمعاوية وسار أبو الأعور وسار عمرو بن العاص حتى وقفوا قريباً من أهل العراق وصف القلب خمسة صفوف وفعل أهل العراق كذلك. وبات علي ليلته كلها يعبي الناس حتى إذا أصبح الصباح زحف بالناس وخرج إليه معاوية وأهل الشام فأخذ علي يقول من هذه القبيلة ومن هذه القبيلة يعني قبائل أهل الشام فأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام إلا بجيلة لم يكن بالشام منهم إلا عدد يسير ففرقهم إلى لخم ثم تناهض القوم يوم الأربعاء فاقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كله

وانصرفوا عند المساء وكل غير غالب. وكان علي يركب بغلاً له يستلذه فلما حضرتِ الحرب قال: ائتوني بفرس. فأتي بفرس له ذنوب أدهم يقاد بشطنين يبحث بيديه الأرض جميعاً له حمحمة وصهيل فركبه وقال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كانا له مقرنين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلما كان غداة الخميس غلس علي (ع) بالغداة فما رئي أنه غلس أشد من تغليسه يومئذ، ثم خرج بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم وكان هو يبدأهم فيسير إليهم فإذا رأوه وقد زحف استقبلوه بزحوفهم فدعا بدعاء قال في آخره: إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصم بقية أصحابي من الفتنة. وكان علي ميمنته يومئذ عبد اللّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعلى ميسرته عبد اللّه بن العباس وقراء العراق مع ثلاثة نفر مع عمار بن ياسر وقيس بن سعد وعبد اللّه بن بديل والناس على راياتهم ومراكزهم وعلي في القلب في أهل المدينة والكوفة والبصرة ومعظم من معه من المدينة الأنصار ومعه من خزاعة عدد حسن ومن كنانة وغيرهم من أهل المدينة ثم زحف علي بالناس إليهم ورفع معاوية قبة له عظيمة قد ألقى عليها الكرابيس وجلس تحتها وزحف عبد اللّه بن بديل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة فلم يزل يحوزه ويكشف خيله من الميسرة حتى اضطرهم إلى قبة معاوية عند الظهر.

تحريض علي (ع) ووصاياه لعسكره

وجعل أمير المؤمنين (ع) يحرض أصحابه ويوصيهم وصايا مهمة في الحرب فقال: إن الله قد دلكم على تجارة تنجيكم من العذاب: إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله وجعل ثوابه مغفرة الذنب ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر وأخبركم بالذي يحب فقال: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه أنبا للسيوف عن الهام وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار والتووا في أطراف الرماح فإنه أمرر

للأسنة وراياتكم فلا تميلوهاولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا في أيدي شجعانكم المانعي الذمار. ثم ذكر كلاماً معناه النهي عن أن يكل الرجل قرنه إلى أخيه بل يواسيه بنفسه. وقال: وأيم الله لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلمون من سيف الآخرة واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بعد الصبر ينزل النصر. وطلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوي صفوف أهل الشام فقال له عمرو: على أن لي حكمي إن قتل الله ابن أبي طالب واستوسقت لك البلاد فقال: أليس حكمك في مصر قال: وهل مصر تكون عوضاً عن الجنة وقتل ابن أبي طالب ثمناً لعذاب النار؟ فقال معاوية إن لك حكمك أبا عبد اللّه إن قتل ابن أبي طالب رويداً لا يسمع أهل الشام كلامك فقال لهم عمرو: يا معشر أهل الشام سووا صفوفكم وأعيروا ربكم جماجمكم وجاهدوا عدو الله وعدوكم واقتلوهم قتلهم الله وأبادهم واصبروا إلى الأرض يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين. وطلب معاوية إلى ذي الكلاع أن يخطب الناس ويحرضهم على قتال علي وأهل العراق وكان من أعظم أصحاب معاوية خطراً فقعد على فرسه وخطب خطبة طويلة قال في آخرها: كان مما قضى الله أن ضم بيننا وبين أهل ديننا بصفين وإنا لنعلم أن فيهم قوماً كانت لهم مع رسول الله ﷺ سابقة ذات شأن وخطر عظيم ولكنني ضربت الأمر ظهراً وبطناً فلم أر يسعني أن يهدر دم عثمان. وعدد فضائله ثم قال: فإن كان أذنب فقد أذنب من هو خير منه قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وقتل موسى نفساً ثم استغفر الله فغفر له، وأذنب نوح فاستغفر الله فغفر له، وأذنب أبوكم آدم ثم استغفر فغفر له، وإنا لنعلم أنها كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله ﷺ فإن لم يكن مالأ على قتل عثمان فقد خذله ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا في شامكم وبلادكم وإنما عامتهم بين قاتل وخاذل ولقد رأيت في منامي لكأنا وأهل العراق اعتورنا مصحفاً نضربه بسيوفنا ونحن في ذلك جميعاً ننادي ويحكم الله.

حجر الخير وحجر الشر

روى نصر بسنده عن الشعبي إن أول فارسين التقيا في اليوم السابع من

صفر وكان من الأيام العظيمة في صفين ذا أهوال شديدة حجر الخير وحجر الشر أما حجر الخير فهو حجر بن عدي صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وحجر الشر ابن عمه حجر بن يزيد وذلك إن حجر الشر دعا حجر بن عدي إلى المبارزة وكلاهما من كندة فأجابه فاطعنا برمحيهما ثم حجز بينهما خزيمة بن ثابت الأسدي وكان مع معاوية فضرب حجراً ضربة كسر رمحه وحمل أصحاب علي فقتلوا الأسدي وأفلتهم حجر الشر وحمل حجر الشر على الحكم بن أزهر وهو يرتجز ويقول:

أنا الغلام اليمني الكندي   قد لبس الديباج والإفرندي
أنا الشريف الأريحي المهدي[1]   يا حكم بن أزهر بن فهد
لقد أصبت غارتي وحدي   وكرتي وشدتي وجدي
اثبت أقاتلك الغداة وحدي

فقتل الحكم فحمل رفاعة بن ظالم الحميري ابن عم الحكم على حجر الشر فقتله فقال علي: الحمد لله الذي قتل حجر الشر بالحكم بن أزهر. وروى نصر عن عمرو بن شمر عن جابر عن تميم أن علياً قال: من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم فيدعوهم إلى ما فيه؟ فأقبل فتى اسمه سعيد بن قيس فقال: أنا صاحبه. ثم أعادها فسكت الناس وقال الفتى: أنا صاحبه فقال: دونك. وأتى معاوية فقرأه عليهم ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه. وقال معاوية لعمرو بن العاص: ائت ببني أبيك فقاتل بهم فإنه إن يكن عند أحد خير فعندهم، فأتى جماعة أهل اليمن فقال: أنتم اليوم الناس وغداً لكم الشأن هذا يوم له ما بعده من الأمر احملوا معي على هذا الجمع قالوا: نعم فحملوا وحمل عمرو وهو يقول:

أكرم بجمع طيب يماني   جدوا تكونوا أوليا عثمان
خليفة اللّه على تبيان

---

(1) مرت هذه الشطور الثلاثة الأولى في رجز لعدي بن حاتم.

فحمل عليه عمرو بن الحمق وهو يقول:

بـؤسـاً لـجـنـد ضـائـع يـمـانـي ... مـسـتـوسـقـيـن كـاتـسـاق الـضـان

تـهـوي إلـى راع لـهـا وسـنـان ... أقـحـمـهـا عـمـرو إلـى الـهـوان

يـا لـيـت كـفـي عـدمـت بـنـانـي ... وإنـكـم بـالـشـحـر[1] مـن عـمـان

مقتل حوشب ذي ظليم

وخرج حوشب ذو ظليم وهو يومئذ سيد أهل اليمن في جمعه وصاحب لوائه يقول:

نـحـن الـيـمـانـيـون مـنـا حـوشـب ... وذو ظـلـيـم أيـن مـنـا الـمـهـرب

فـيـنـا الـصـفـيـح والـقـنـا الـمـغـلـب ... والـخـيـل أمـثـال الـوشـيـج شـزب

إن الـعـراق حـبـلـهـا مـذبـذب ... إن عـلـيـاً فـيـكـم مـحـبـب

فـي قـتـل عـثـمـان وكـل مـذنـب

فحمل عليه سليمان بن صرد الخزاعي وهو يقول:

يـا لـك يـومـاً كـاسـفـاً عـصـبـصـبـا ... يـا لـك يـومـاً لا يـواري كـوكـبـا

يـا أيـهـا الـحـي الـذي تـذبـذبـا ... لـسـت أخـاف ذا ظـلـيـم حـوشـبـا

لأن فـيـنـا بـطـلاً مـجـربـا ... ابـن بـديـل كـالـهـزبـر مـغـضـبـا

أمـسـى عـلـي عـنـدنـا مـحـبـبـا ... نـفـديـه بـالأم ولا نـبـقـي أبـا

فطعن حوشباً فقتله.

مقتل عبد الله بن بديل الخزاعي

قال الشعبي: كان عبد الله بن بديل الخزاعي مع علي (ع) يومئذ وعليه سيفان ودرعان فجعل يضرب الناس بسيفه قدماً وهو يقول:

لـم يـبـق غـيـر الـصـبـر والـتـوكـل ... وأخـذك الـتـرس وسـيـفـاً مـصـقـل

ثـم الـتـمـشـي فـي الـرعـيـل الأول ... مشـي الجمال في حياض المنهل

والـلّـه يـقـضـي مـا يـشـا ويـفـعـل

---

(١) الشحر من سوكل عمان.

فلم يزل يضرب بسيفه حتى انتهى إلى معاوية فأزاله عن موقفه. قال نصر: قاتلهم عبد اللّه بن بديل في الميمنة حتى انتهى إلى معاوية مع الذين بايعوه على الموت فأقبلوا إلى معاوية فأمرهم أن يصمدوا لعبد اللّه بن بديل في الميمنة وبعث معاوية إلى حبيب بن مسلمة في الميسرة فحمل عليهم بمن كان معه على ميمنة علي فهزمهم وكشف أهل العراق ميلاً من قبل الميمنة حتى لم يبق مع ابن بديل إلا نحو من مائة من القراء واستند بعضهم إلى بعض وانجفل الناس عليهم، فأمر علي سهل بن حنيف فاستقدم فيمن كان مع علي من أهل المدينة فاستقبلهم جموع أهل الشام في خيل عظيمة فحملوا عليهم وألحقوهم بالميمنة وكانت الميمنة متصلة إلى موقف علي في القلب في أهل اليمن فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى علي فأقبل يمشي نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر من الميسرة وثبتت ربيعة. وجعل عبد اللّه بن بديل ينادي: يا لثارات عثمان يعني أخاً له قد قتل، وظن معاوية وأصحابه أنه يعني عثمان بن عفان ومع معاوية عبد اللّه بن عامر واقفاً فأقبل أصحاب معاوية على عبد اللّه بن بديل يرضخونه بالصخر حتى أثخنوه وقتل الرجل وأقبل إليه معاوية وعبد اللّه بن عامر، فأما عبد اللّه بن عامر فألقى عمامته على وجهه وترحم عليه وكان له أخاً وصديقاً فقال معاوية: اكشف عن وجهه. فقال عبد اللّه: والله لا يمثل به. فقال له معاوية: اكشف عن وجهه فقد وهبته لك فكشف عن وجهه فقال معاوية: هذا كبش القوم ورب الكعبة اللهم اظفرني بالأشتر النخعي والأشعث الكندي والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويحمي إذا ما الموت كان لقاؤه ... لدى الشر يحمي الأنف أن يتأخرا

كليث هزبر كان يحمي ذماره ... رمته المنايا قصدها فتفطرا

مع أن نساء خزاعة لو قدرت على أن تقاتلني فضلاً عن رجالها فعلت.

قتل أحمر مولى بني أمية

وروى نصر بسنده عن زيد بن وهب قال: مر علي يومئذ ومعه بنوه نحو

الميسرة وإني لأرى النبل يمر بين عاتقيه ومنكبيه وما من بنيه أحد إلا يقيه بنفسه فيكره علي ذلك. فبصر به أحمر مولى بني أمية فقال: علي ورب الكعبة قتلني الله إن لم أقتلك أو تقتلني فأقبل نحوه فخرج إليه كيسان مولى علي فاختلفا ضربتين فقتله أحمر وخالط علياً ليضربه بالسيف فانتهره علي ووضع يده في جيب درعه فجذبه ثم حمله على عاتقه (قال الراوي) فكأني أنظر إلى رجليه يختلفان على عنق ي ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضده وشد ابنا علي الحسين ومحمد فضرباه بأسيافهما فكأني أنظر إلى علي قائماً وشبلاه يضربان الرجل حتى إذا قتلاه أقبلا إلى أبيهما والحسن معه قائم قال: يا بني ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك قال: كفياني يا أمير المؤمنين. ثم إن أهل الشام دنوا منه والله ما يزيده قربهم منه سرعة في مشيه فقال له الحسن: ما ضرك لو سعيت حتى تنتهي إلى هؤلاء الذين صبروا لعدوك من أصحابك قال: يا بني إن لأبيك يوماً لن يعدوه لا يبطىء به عنه السعي ولا يعجل به إليه المشي، إن أباك والله ما يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه. وخرج علي (ع) يوم صفين وفي يده عنزة (عصا) فمر على سعيد بن قيس الهمداني فقال له سعيد: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوك فقال له علي: إنه ليس من أحد إلا عليه من الله حفظة يحفظونه من أن يتردى في قليب أو يخر عليه حائط أو تصيبه آفة فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه.

رد الأشتر المنهزمين

ولما انهزمت ميمنة أهل العراق أقبل علي يركض نحو الميسرة يستثيب الناس ويستوقفهم ويأمرهم بالرجوع نحو الفزع حتى مر بالأشتر فقال له: يا مالك قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: ائت القوم فقل لهم: أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم؟ فمضى الأشتر فاستقبل الناس منهزمين فقال لهم الكلمات التي أمره علي بها وقال: أيها الناس أنا مالك بن الحارث ثم ظن أنه بالأشتر أعرف في الناس فقال: أيها الناس أنا

الأشتر إلي أيها الناس. فأقبلت إليه طائفة وذهبت عنه طائفة فقال: عضضتم بهن أبيكم ما أقبح ما قاتلتم اليوم يا أيها الناس غضوا الأبصار وعضوا على النواجذ واستقبلوا القوم بهامكم ثم شدوا شدة قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم حنقاً على عدوهم قد وطنوا على الموت أنفسهم كي لا يسبقوا بثأر، إن هؤلاء القوم والله لن يقارعوكم إلا عن دينكم ليطفئوا السنة ويحيوا البدعة ويدخلوكم في أمر قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة، فطيبا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم فإن الفرار فيه سلب العز والغلبة على الفيء وذل المحيا والممات وعار الدنيا والآخرة وسخط الله واليم عقابه. ثم قال: أيها الناس اخلصوا إلي مذحجاً فاجتمعت إليه مذحج فقال لهم: عضضتم بصم الجندل والله ما أرضيتم اليوم ربكم ولا نصحتم له في عدوه فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب وأصحاب الغارات وفتيان الصباح وفرسان الطراد وحتوف الأقران ومذحج الطعان. يحرضهم بنحو هذا إلى أن قال: والذي نفس مالك بيده ما من هؤلاء وأشار بيده إلى أهل الشام رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله والله ما أحسنتم القراع، اجلوا سواد وجهي يرجع في وجهي دمي عليكم بهذا السواد الأعظم فإن الله لو قد فضه تبعه من بجانبه كما يتبع السيل مقدمه قالوا: خذ بنا حيث أحببت، فصمد بهم نحو عظمهم مما نحو الميمنة وأخذ يزحف إليهم الأشتر ويردهم واستقبله سنام من همدان وكانوا ثمانمائة مقاتل وقد انهزموا آخر الناس وكانوا قد صبروا في ميمنة علي (ع) حتى أصيب منهم مائة وثمانون رجلاً وقتل منهم أحد عشر رئيساً كلما قتل منهم رجل أخذ الراية آخر.

قتل أخوة بصفين

فكان أولهم كريب بن شريح وشرحبيل بن شريح ومرثد بن شريح وهبيرة بن شريح ثم بريم (هريم) بن شريح وشمر بن شريح قتل هؤلاء الأخوة الستة جميعاً ثم أخذ الراية سفيان بن زيد ثم حبة بن زيد ثم كرب بن زيد فقتل هؤلاء الأخوة الثلاثة جميعاً ثم أخذ الراية عميرة بن بشر والحارث بن بشر فقتلا ثم أخذ الراية وهيب بن كريب أبو القلوص فأراد أن يستقتل فقال له رجل من

قومه: انصرف بهذه الراية ترحها الله من راية فقد قتل أشراف قومك حولها فلا تقتل نفسك ولا من بقي ممن معك. فانصرفوا وهم يقولون: ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهر فمروا بالأشتر وهم يقولون هذا القول فقال لهم الأشتر: إلي أنا أحالفكم وأعاقدكم على أن لا نرجع أبداً حتى نظهر أو نهلك فتوافقوا معه في هذا القول وزحف الأشتر نحو الميمنة وثاب إليه أناس تراجعوا من أهل البصيرة والحياء والوفاء فأخذ لا يصمد لكتيبة إلا كشفها ولا لجمع إلا حازه ورده فإنه لكذلك إذ مروا بيزيد بن قيس محمولاً إلى العسكر فقال الأشتر: من هذا قالوا: يزيد بن قيس لما صرع زياد بن النضر رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حتى صرع فقال الأشتر: هذا والله الصبر الجميل والفعل الكريم ألا يستحيي الرجل أن ينصرف لم يقتل ولم يقتل ولم يشف به على القتل. وكان الأشتر يومئذ يقاتل على فرس له في يده صفيحة يمانية إذا طأطأها خلت فيها ماء منصباً فإذا رفعها كاد يغشي البصر شعاعها ويضرب بسيفه قدماً وهو يقول (غمرات ثم ينجلين) ولما اجتمع إلى الأشتر معظم من كان انهزم من الميمنة حرضهم ثم حمل على أصحاب معاوية حتى كشفهم فألحقهم صفوف معاوية بين صلاة العصر والمغرب فلما رأى علي (ع) أن ميمنته قد عادت إلى موقفها ومصافها وكشفت من بإزائها حتى ضاربوهم في مواقفهم ومراكزهم أقبل حتى انتهى إليهم فقال: إني قد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم وتحرزكم الجفاة الطغاة وأعراب أهل الشام وأنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم وعمار الليل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون فلولا إقبالكم بعد إدباركم وجب عليكم ما وجب على المولي يوم الزحف دبره والذي هون علي بعض وجدي أن رأيتكم بآخرة حزتموهم كما حازوكم وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم كالإبل المطرودة الهيم فالآن فاصبروا أنزلت عليكم السكينة وثبتكم الله باليقين وليعلم المنهزم أنه مسخط لربه وفي الفرار الذل الدائم وإن الفار لا يزيد الفرار في عمره.

قتال خثعم وخثعم بصفين

وأرسل عبد اللّه بن حنش الخثعمي رأس خثعم الشام إلى أبي كعب رأس خثعم العراق إن شئت تواقفنا فلم نقتتل فإن ظهر صاحبك كنا معكم وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا، فأبى أبو كعب ذلك، فلما التقوا قال رأس خثعم الشام لقومه: قد عرضت على قومنا العراقيين الموادعة صلة لأرحامهم فأبوا فكفوا عنهم ما كفوا عنكم فخرج رجل من أصحابه فقال: قد ردوا عليك رأيك وطلب المبارزة فغضب رأس خثعم الشام فقال: اللهم قيض له وهب بن مسعود رجلاً من خثعم الكوفة كان معروفاً في الجاهلية لم يبارزه رجل إلا قتله فحمل على الشامي فقتله ثم اقتتلوا أشد القتال وجعل أبو كعب يقول لأصحابه خدموا أي اضربوا موضع الخدمة وهو الخلخال وأخذ صاحب الشام يقول: يا أبا كعب قومك فانصف فحمل شمر بن عبد اللّه الخثعمي خثعم الشام على أبي كعب فطعنه فقتله وانصرف يبكي ويقول: رحمك الله يا أبا كعب إنني قتلتك في طاعة قوم أنت أمس بي رحماً منهم وأحب إلي ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ولا أرى قريشاً إلا قد لعبت بنا فأخذ الراية كعب بن أبي كعب ففقئت عينه وصرع فأخذها شريح بن مالك فقاتل القوم تحتها حتى صرع منهم حول رايتهم ثمانون رجلاً وأصيب من خثعم الشام نحو منهم ثم ردها شريح إلى كعب بن أبي كعب.

قتال بجيلة العراق بصفين

وكانت راية بجيلة في صفين في أحمس مع أبي شداد قيس بن المكشوح قالت له بجيلة: خذ رايتنا قال: غيري خير لكم مني قالوا: ما نريد غيرك قال: فوالله لئن أعطيتمونيها لا أنتهي بها دون صاحب الترس المذهب وعلى رأس معاوية عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد قائم معه ترس مذهب يستره من الشمس قالوا: اصنع ما شئت فأخذها ثم زحف وهو يقول:

إن علياً ذو أناة صارم   جلد إذا ما حضر العزائم
لما رأى ما تفعل الأشائم   قام له الذروة والأكارم
الأشيبان مالك وهاشم

ثم زحف بالراية حتى انتهى إلى صاحب الترس المذهب وكان في خيل عظيمة من أصحاب معاوية فاقتتل الناس هنالك قتالاً شديداً وشد أبو شداد بسيفه نحو صاحب الترس فتعرض له من دونه غلام رومي لمعاوية فضرب قدم أبي شداد فقطعها وضربه أبو شداد فقتله وأشرعت إليه الأسنة فقتل وأخذ الراية عبد الله بن قلع الأحمسي وهو يقول:

لا يبعد الله أبا شداد ... حيث أجاب دعوة المنادي

وشد بالسيف على الأعادي ... نعم الفتى كان لدى الطراد

وفي طعان الخيل والجلاد

وقاتل حتى قتل، فأخذ الراية أخوه عبد الرحمٰن بن قلع فقاتل فقتل، ثم أخذها عفيف بن اياس فلم تزل بيده حتى تحاجز الناس، وقتل حازم بن أبي حازم أخو قيس بن أبي حازم يومئذ وقتل نعيم بن سهيل بن الثعلبة فأتى ابن عمه وسميه نعيم بن الحارث بن الثعلبة معاوية وكان معه فقال: إن هذا القتيل ابن عمي فهبه لي أدفنه فقال: لا ندفنهم فليسوا أهلاً لذلك فوالله ما قدرنا على دفن عثمان معهم إلا سراً قال: والله لتأذنن لي في دفنه أو لألحقن بهم ولأدعنك. فقال له معاوية: ترى أشياخ العرب لا نواريهم وأنت تسألني دفن ابن عمك. ثم قال له: ادفنه إن شئت أو دعه. فدفنه.

قتال غطفان العراق بصفين

كانت راية غطفان العراق مع أبي سليم عياش بن شريك فخرج رجل من آل ذي الكلاع يطلب المبارزة فبرز إليه قايد بن بكير العبسي فشد عليه الكلاعي فأوهطه فخرج إليه عياش بن شريك فلحقه هرم بن شبير فقال: لا تبرز لهذا الطوال قال: هبلتك الهبول وهل هو إلا الموت قال: وهل يفر إلا منه قال: وهل منه بد والله ليقتلني أو ليلحقن بقايد بن بكير ونظر عياش فإذا الحديد عليه مفرغ لا يرى منه إلا مثل شراك النعل من عنقه بين بيضته ودرعه فضربه الكلاعي فقطع حجفته وكانت من جلود الإبل وضربه عياش على ذلك المكان فقطع

نخاعه خرج ابن الكلاعي ثائراً بأبيه فقتله بكير بن وائل وقيل زياد بن خصفة، وخرج رجل من أزد شنوءة يسأل المبارزة فخرج إليه رجل من أهل العراق فقتله فخرج إليه الأشتر فما لبث إن قتله فقال رجل: كان هذا ناراً فصادفت أعصاراً فاقتتل الناس قتالاً شديداً يوم الأربعاء فقال رجل من أصحاب علي: والله لأحملن على معاوية حتى أقتله فأخذ فرساً فركبه ثم ضربه حتى إذا قام على سنابكه دفعه فلم ينهنهه شيء عن الوقوف على رأس معاوية ودخل معاوية الخباء فنزل الرجل عن فرسه ودخل عليه فخرج معاوية من الخباء وطلع الرجل في أثره فخرج معاوية وهو يقول:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لا تراعي

فإنك لو سألت خلاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي

فأحاط به الناس فقال معاوية: ويحكم إن السيوف لم يؤذن لها في هذا ولولا ذلك لم يصل إليكم، عليكم بالحجارة، فرضخوه بالحجارة حتى همد الرجل ثم عاد معاوية إلى مجلسه وهو يقول هذا كما قال الأول:

أخو الحرب إن عضبت به الحرب عضها ... وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وحمل رجل من أهل العراق يدعى أبا أيوب على صف أهل الشام ثم رجع فوافق رجلاً صادراً كان قد حمل على صف أهل العراق ثم رجع فاختلفا ضربتين فنفحه أبو أيوب فأبان عنقه فثبت رأسه على جسده كما هو حتى إذا دخل في صف أهل الشام وقع ميتاً وندر رأسه. فقال علي (ع): والله لأنا من ثبات رأس الرجل أشد تعجباً مني لضربته وإن كان إليها ينتهي وصف الواصف وغدا أبو أيوب إلى القتال فقال له علي (ع): أنت والله كما قال القائل:

وعلمنا الضرب آباؤنا ... فسوف نعلم أيضاً بنينا

تبارز الأخوين

وخرج رجل من أهل الشام يطلب المبارزة فخرج إليه رجل من أهل العراق فاقتتلا بين الصفين قتالاً شديداً ثم إن العراقي اعتنقه فوقعا جميعاً بين

قوائم فرسيهما فجلس على صدره وكشف المغفر عنه يريد ذبحه فإذا هو أخوه لأبيه فصاح به أصحاب علي أجهز عليه قال: إنه أخي قالوا: فاتركه قال: لا حتى يأذن لي أمير المؤمنين فأرسل إليه دعه فتركه.

مقتل حريث مولى معاوية

وكان فارس معاوية الذي يعده لكل مبارز ولكل عظيم حريث مولاه وكان يلبس سلاح معاوية متشبهاً به فإذا قاتل قال الناس: ذاك معاوية. وإن معاوية دعاه فقال: يا حريث اتق علياً وضع رمحك حيث شئت. فقال له عمرو بن العاص: إنك لو كنت قرشياً لأحب معاوية أن تقتل علياً ولكن كره أن يكون لك حظها فإن رأيت فرصة فأقحم. وخرج علي أمام الخيل وحمل عليه حريث وكان شديداً ذا بأس فنادى: يا علي هل لك في المبارزة فاقدم أبا حسن إذا شئت. فأقبل علي وهو يقول:

أنا علي وابن عبد المطلب ... نحن لعمر اللّه أولى بالكتب

منا النبي المصطفى غير كذب ... أهل اللواء والمقام والحجب

نحن نصرناه على جل العرب ... يا أيها العبد الغرير المنتدب

اثبت لنا يا أيها الكلب الكلب

ثم ضربه علي فقتله فجزع عليه معاوية جزعاً شديداً وعاتب عمراً وقال معاوية:

حريث ألم تعلم وجهلك ضائر ... بان علياً للفوارس قاهر

وإن علياً لم يبارزه فارس ... من الناس لا أقصدته الأظافر

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني ... فجدك إذ لم تقبل النصح عاثر

ودلاك عمرو والحوارث جمة ... غروراً وما جرت عليك المقادر

وظن حريث أن عمراً نصيحه ... وقد يهلك الإنسان من لا يحاذر

فلما قتل علي حريثاً برز عمرو بن حصين السكسكي فنادى: يا أبا حسن هلم إلى المبارزة وحمل على علي (ع) فبادره إليه سعد بن قيس الهمداني ففلق صلبه فقال علي (ع) في ذلك اليوم:

دعوت فلباني من القوم عصبة | فوارس من همدان غير لئام
فوارس من همدان ليسوا بعزل | غداة الوغى من شاكر وشبام
وكل رديني وعضب تخاله | إذا اختلف الأقوام شعل ضرام
لهمدان أخلاق ودين يزينهم | وبأس إذا لاقوا وجد خصام
وجد وصدق في الحروب ونجدة | وقول إذا قالوا بغير أثام
متى تأتهم في دارهم تستضيفهم | تبت ناعماً في خدمة وطعام
جزى الله همدان الجنان فإنها | سمام العدى في كل يوم سمام
فلو كنت بواباً على باب جنة | لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وخرج رجل من عك يسأل المبارزة فخرج إليه قيس بن فهدان الكندي فطعن العكي فقتله فقال قيس:

لقد علمت عك بصفين أننا | إذا ما نلاقي الخيل نطعنها شزرا
ونحمل رايات القتال بحقها | ونوردها بيضاً ونصدرها حمرا

وحمل عبد الله بن الطفيل البكائي على صفوف أهل الشام فلما انصرف حمل عليه رجل من بني تميم يقال له: قيس بن فهد الحنظلي اليربوعي وهو ممن لحق بمعاوية من أهل العراق فوضع الرمح بين كتفي عبد الله فاعترضه يزيد بن معاوية البكائي ابن عم عبد الله بن الطفيل فوضع الرمح بين كتفي التميمي وقال: والله لئن طعنته لأطعننك قال: عليك عهد الله لئن رفعت السنان عن ظهر صاحبك لترفعنه عني قال: نعم لك العهد والميثاق بذلك فرفع السنان عن عبد الله بن الطفيل ورفع يزيد الرمح عن التميمي فوقف التميمي فقال: من أنت قال أحد بني عامر قال: جعلني الله فداكم أينما لقيناكم وجدناكم كراماً والله إني لآخر أحد عشر رجلاً من بني تميم قتلتموهم اليوم فلما تراجع الناس عن صفين عتب يزيد على عبد الله بن الطفيل في بعض ما يعتب الرجل على ابن عمه فقال يزيد:

ألم ترني حاميت عنك مناصحا | بصفين إذ خلاك كل حميم
ونهنهت عنك الحنظلي وقد أتى | على سابح ذي ميعة وهزيم

واقتتل الناس قتالاً شديداً فعبئت لطيء جموع أهل الشام فجاءهم حمزة بن مالك فقال: من أنتم لله أبوكم؟ فقال عبد اللّه بن خليفة الطائي: نحن طيء السهل وطيء الجبل الممنوع بالنحل ونحن حماة الجبلين ما بين العذيب إلى العين نحن طيء الرماح وطيء البطاح وفرسان الصباح فقال له: بخ بخ ما أحسن ثناءك على قومك. ثم إن النخع قاتلوا قتالاً شديداً فأصيب منهم جماعة.

تهمة خالد بن المعمر

وقال ناس لعلي (ع): إنا لا نرى خالد بن المعمر السدوسي إلا كاتب معاوية، فبعث إليه وإلى رجال من أشرافهم فقال: يا معشر ربيعة أنتم أنصاري ومجيبو دعوتي ومن أوثق حي في العرب في نفسي وقد بلغني أن معاوية كاتب صاحبكم خالد بن المعمر. ثم قال له: يا خالد إن كان ما بلغني عنك حقاً فإني أشهد الله ومن حضرني من المسلمين إنك آمن حتى تلحق بالعراق أو بالحجاز أو أي أرض لا سلطان لمعاوية فيها. وإن كنت مكذوباً عليك فأبر صدورنا بإيمان نطمئن إليها، فحلف له بالله ما فعل وقال رجال من ربيعة كثير لو نعلم أنه فعل لقتلناه، وقال شقيق بن ثور ما وفق الله خالد بن المعمر حين نصر معاوية وأهل الشام على علي وربيعة. فقال له زياد بن خصفة: يا أمير المؤمنين استوثق من ابن المعمر بالإيمان لا يغدر فاستوثق منه.

الحضين بن المنذر ورايته

قال الحضين بن المنذر الرقاشي: لما كان يوم الخميس من أيام صفين انهزم الناس من الميمنة فجاءنا علي عليه السلام حتى انتهى إلينا ومعه بنوه فنادى بصوت عال جهير كغير المكترث لما فيه الناس وقال: لمن هذه الرايات قلنا: رايات ربيعة قال: بل هي رايات الله عصم الله أهلها وصبرهم وثبت أقدامهم ثم قال لي: يا فتى ألا تدني رايتك هذه ذراعاً. فقلت له: نعم والله وعشرة أذرع فأدنيتها فقال لي: حسبك مكانك. وقال أبو الأشعث يحيى بن مطرف العجلي شهد مع علي صفين: لما نصبت الرايات اعترض علي الرايات ثم انتهى إلى

رايات ربيعة فقال: لمن هذه الرايات فقلت: رايات ربيعة فقال: بل هي رايات الله. وأقبل الحضين بن المنذر وهو يومئذ غلام يزحف برايته وكانت حمراء فأعجب علياً زحفه وثباته فقال:

لمن راية حمراء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حضين تقدما
ويدنو بها في الصف حتى يزيرها حمام المنايا تقطر الموت والدما
تراه إذ ما كان يوم عظيمة أبى فيه إلا عزة وتكرما
جزى الله قوماً صابروا في لقائهم لدى البأس خيراً ما أعف وأكرما
وأحزم صبراً حين يدعى إلى الوغى إذا كان أصوات الكماة تغمغما
ربيعة أعني أنهم أهل نجدة وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما

وكانت راية ربيعة كلها كوفيتها وبصريتها مع خالد بن المعمر السدوسي من ربيعة البصرة أعطاه إياها علي (ع) فتنافس في الراية خالد بن المعمر وشقيق بن ثور السدوسي ثم اصطلحا على أن يوليا راية بكر بن وائل من أهل البصرة الحضين بن المنذر وقالا: هذا فتى له حسب ونجعلها له حتى نرى رأينا. قال الجاحظ في البيان والتبيين: لما خرج أهل البصرة إلى صفين تنازع شقيق وخالد الرياسة فصيرها عند ذلك علي إلى حضين بن المنذر فرضي كل واحد منهما وكان يخاف أن يصيرها إلى خصمه فسكتت بكر وعرف الناس صحة تدبير علي في ذلك (اهـ) وضرب معاوية لحمير على ثلاث قبائل لم يكن لأهل العراق قبائل أكثر منها عدداً يومئذ على ربيعة وهمدان وكندة فوقع سهم حمير على ربيعة وكان بصفين من عنزة وهي من قبائل ربيعة أربعة آلاف محجف، فقال ذو الكلاع: قبحك الله من سهم كرهت الضراب وأقبل ذو الكلاع في حمير ومن لف لفها ومعه عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشام قد بايعوا على الموت وهي ميمنة أهل الشام وعليها ذو الكلاع فحملوا على ربيعة وهي ميسرة أهل العراق وعليها عبد الله بن العباس حملة شديدة فتضعضعت رايات ربيعة وانصرف أهل الشام فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى كروا وعبيد الله بن عمر يقول: يا أهل الشام هذا الحي من أهل العراق قتلة ابن عفان وأنصار علي

وإن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثاركم في عثمان وهلك علي وأهل العراق فشدوا على الناس شدة شديدة فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلا قليلاً من الضعفاء وثبت أهل الرايات وأهل البصائر منهم والحفاظ وقاتلوا قتالاً شديداً.

ما فعله خالد بن المعمر

فلما رأى خالد بن المعمر أناساً قد انهزموا من قومه انصرف فلما رأى أصحاب الرايات قد ثبتوا ورأى قومه قد صبروا رجع وصاح بمن انهزم وأمرهم بالرجوع فقال من أراد أن يتهمه: أراد الانصراف فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا وقال لهم: لما رأيت رجالاً منا قد انهزموا رأيت إن استقبلهم وأردهم إليكم فأقبلت إليكم بمن أطاعني منهم فجاء بأمر مشتبه. قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: لا ريب عند علماء السير أن خالد بن المعمر كان له باطن سوء مع معاوية وأنه انهزم هذا اليوم ليكسر الميسرة على علي (ع) ذكر ذلك الكلبي والواقدي وغيرهما ويدل على باطنه هذا أنه لما استظهرت ربيعة على صفوف أهل الشام اليوم الثاني من هذا اليوم أرسل إليه معاوية إن كف عني ولك إمارة خراسان ما بقيت فكف عنه ورجع بربيعة وقد شارفوا أخذه من مضربه (اهـ) واشتد قتال ربيعة وحمير ونادى منادي أهل الشام: ألا إن معنا الطيب بن الطيب عبد الله بن عمر فقال عمار بن ياسر: بل هو الخبيث ونادى منادي أهل العراق ألا إن معنا الطيب ابن الطيب محمد بن أبي بكر فنادى منادي أهل الشام بل هو الخبيث بن الطيب. وخرج نحو من خمسمائة فارس أو أكثر من أصحاب علي على رؤوسهم البيض وهم غائصون في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم في العدد فاقتتلوا بين الصفين والناس تحت راياتهم فلم يرجع من هؤلاء ولا من هؤلاء مخبر لا عراقي ولا شامي قتلوا جميعاً بين الصفين وقد كان معاوية نذر سبي نساء ربيعة وقتل المقاتلة فقال في ذلك خالد بن المعمر:

تمنى ابن حرب نذره في نسائنا ودون الذي ينوي قراع القواضب

وتمنح ملكاً أنت حاولت خلعه　　　بني هاشم قول امرىء غير كاذب

فلما كان يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٣٧ خطب الناس معاوية وحرضهم ثم خطبهم مرة أخرى قبل الوقعة العظمى فقال في آخر كلامه: انظروا يا أهل الشام فإنما تلقون غداً أهل العراق فكونوا على إحدى ثلاث أحوال إما أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم فاقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بيضتكم وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ﷺ وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نسائكم وأبنائكم.

مقتل ذي الكلاع الحميري

وأتى زياد بن خصفة عبد القيس يوم صفين وقد عبيت قبائل حمير مع ذي الكلاع وفيهم عبيد اللّه بن عمر لبكر بن وائل فقاتلوا قتالاً شديداً حتى خافوا الهلاك فقال زياد لعبد القيس لأبكر بعد اليوم إن ذا الكلاع وعبيد اللّه أبادا ربيعة فانهضوا لهم وإلا هلكوا فركبت عبد القيس وجاءت كأنها غمامة سوداء فشدت إزاء الميسرة فعظم القتال وشدت عك ولخم وجذام والأشعرون من أهل الشام على مذحج وبكر بن وائل فقال العكي في ذلك:

ويل لأم مذحج من عك　　　لنتركن أمهم تبكي

نقتلهم بالطعن ثم الصك　　　فلا رجال كرجال عك

فحميت مذحج من قول العكي ونادى مناديهم: يا آل مذحج خدموا. فاعترضت مذحج لسوق القوم فكان بوار عامة القوم وخاضت الخيل والرجال في الدماء ونادى أبو شجاع الحميري وكان من ذوي البصائر مع علي فقال: يا معشر حمير أترون معاوية خيراً من علي؟ أضل الله سعيكم ثم أنت يا ذا الكلاع فوالله إن كنا نرى أن لك نية في الدين فقال ذو الكلاع: أيها أبا شجاع فوالله لأعلمن ما معاوية بأفضل من علي ولكن إنما أقاتل على دم عثمان.

بحث ذي الكلاع عن حديث عمار تقتله الفئة الباغية

قال أبو نوح الكلاعي الحميري: كنت في خيل علي (ع) يوم صفين إذا أنا

برجل من أهل الشام يقول من دل على الحميري أبي نوح فقلنا: هذا الحميري فأيهم تريد قال: أريد الكلاعي أبا نوح قلت: قد وجدته فمن أنت قال: أنا ذو الكلاع سر إلي قلت: معاذ الله أن أسير إليك إلا في كتيبة قال: لك ذمة الله ورسوله وذمة ذي الكلاع حتى ترجع إلى خيلك فإنما أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه فسار إليه فقال ذو الكلاع: إنما دعوتك أحدثك حديثاً حدثناه عمرو بن العاص في إمارة عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: (إلى قوله): وفي إحدى الكتيبتين الحق ومعه عمار بن ياسر قال أبو نوح لعمر الله إنه لفينا قال: أجاد هو في قتالنا قال: نعم ورب الكعبة هو أشد على قتالكم مني ولوددت إنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمي قال ذو الكلاع: علام تتمنى ذلك منا والله ما قطعتك وإن رحمك لقريبة وما يسرني إني أقتلك قال أبو نوح: إن الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة ووصل به أرحاماً متباعدة فقال له ذو الكلاع: هل تستطيع أن تأتي معي صف أهل الشام فأنا جار لك منهم حتى تأتي عمرو بن العاص فيعرف منك حال عمار وجده في قتالنا لعله أن يكون صلحاً بين هذين الجندين فقال له أبو نوح: إنك رجل غادر وأنت في قوم غدر إن لم ترد الغدر أغدروك فقال ذو الكلاع: أنا جار لك أن لا تقتل وتسلب ولا تكره على بيعة ولا تحبس عن جندك وإنما هي كلمة تبلغها عمرو وهو عند معاوية فقال ذو الكلاع لعمرو: وهل لك في رجل ناصح يخبرك عن عمار بن ياسر لا يكذبك قال: من هو قال: ابن عمي هذا وهو من أهل الكوفة فقال له: إني لأرى عليك سيماء أبي تراب فقال أبو نوح: علي سيماء محمد ﷺ وأصحابه وعليك سيماء أبي جهل وفرعون فسل أبو الأعور سيفه وقال: لا أرى هذا الكذاب اللئيم يشاتمنا بين أظهرنا فقال ذو الكلاع أقسم بالله لئن بسطت يدك إليه لأحطمن أنفك بالسيف ابن عمي وجاري جئت به إليكما ليخبركما عما تماريتم فيه فقال عمرو بن العاص أفيكم عمار بن ياسر قال أبو نوح: ما أنا بمخبرك عنه حتى تخبرني لم تسألني عنه فإن معنا من أصحاب رسول الله ﷺ عدة غيره وكلهم جاد على قتالكم قال عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن

عماراً تقتله الفئة الباغية وإنه ليس لعمار أن يفارق الحق ولن تأكل النار منه شيئاً قال أبو نوح: لا إله إلا الله والله أكبر والله إنه لفينا جاد على قتالكم فقال عمرو: والله إنه لجاد على قتالنا قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو لقد حدثني يوم الجمل إنا سنظهر عليهم وجدثني أمس إن لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا إنه على حق وأنتم على باطل وكانت قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فقال له عمرو: هل تستطيع أن تجمع بيني وبينه قال: نعم فجمع بينهما فقال عمرو بن العاص: إني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم أذكرك الله إلا حقنت دماءهم فعلام تقاتلنا قال عمار: أمرني رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين وقد فعلت وأمرني أن أقاتل القاسطين فأنتم هم وأما المارقين فما أدري أدركهم أم لا أيها الأبتر ألست تعلم أن رسول الله ﷺ قال لعلي: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنا مولى الله ورسوله وعلي بعده فقال له عمرو: لم تشتمني يا أبا اليقظان ولست أشتمك قال عمار: وبم تشتمني أتستطيع أن تقول إني عصيت الله ورسوله يوماً قط قال: إن فيك المسبات سوى ذلك قال عمار: إن الكريم من أكرمه الله كنت وضيعاً فرفعني الله ومملوكاً فأعتقني الله وضعيفاً فقواني الله وفقيراً فأغناني الله قال: قال عمرو: فما ترى في قتل عثمان قال: فتح لكم باب كل سوء. وجرى بينهما حوار في ذلك فقام أهل الشام وركبوا خيولهم ورجعوا فبلغ معاوية ما كان بينهم فقال: هلكت العرب إذا أخذتهم خفة العبد الأسود يعني عمار بن ياسر ومشى عبد اللّه بن سويد سيد جرش إلى ذي الكلاع فقال له: لم جمعت بين الرجلين قال الحديث سمعته من عمرو ذكر أنه سمعه من رسول الله ﷺ وهو يقول لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية فخرج عبد اللّه بن عمر العنسي وكان من عباد أهل زمانه ليلاً فأصبح في عسكر علي فحدث الناس بقول عمرو في عمار وقال الجرشي:

ما زلت يا عمرو قبل اليوم مبتدئاً	تبغي الخصوم جهاراً غير إسرار
حتى لقيت أبا اليقظان منتصباً	للّه در أبي اليقظان عمار
ما زال يقرع منك العظم منتقياً	مخ العظام بنزر غير مكثار

حتى رمى بك في بحر له حدب ... يهوي بك الموج ها فاذهب إلى النار

وقال العنسي لذي الكلاع:

والراقصات بركب عامدين له ... إن الذي جاء من عمرو لمأثور
قد كنت أسمع والأنباء شائعة ... هذا الحديث فقلت الكذب والزور
حتى تلقيته عن أهل غيبته ... فاليوم أرجع والمغرور مغرور
واليوم أبرأ من عمرو وشيعته ... ومن معاوية المحدو به العير
لا لا أقاتل عماراً على طمع ... بعد الرواية حتى ينفخ الصور
تركت عمراً وأشياعاً له نكدا ... إني بتركهم يا صاح معذور
يا ذا الكلاع فدع لي معشراً كفروا ... أولا فدينك غبن فبه تغرير
ما في مقال رسول اللّه في رجل ... شك ولا في مقال الرسل تخيير

فلما سمع معاوية ذلك بعث إلى عمرو فقال: أفسدت علي أهل الشام أفكلما سمعت من رسول الله ﷺ تقوله فقال عمرو: قلتها ولست والله أعلم الغيب ولا أدري إن صفين تكون قلتها وعمار يومئذ لك ولي وقد رويت أنت فيه مثل الذي رويت فيه فاسأل أهل الشام فغضب معاوية وتنمر لعمرو ومنعه خيره فقال عمرو: لا خير لي في جوار معاوية إن تجلت هذه الحرب عنا وكان عمرو حمي الأنف فقال في ذلك:

تعاتبني إن قلت شيئاً سمعته ... وقد قلت لو أنصفتني مثله قبلي
أفعلك فيما قلت فعل ثبيتة ... وتزلق بي في مثل ما قلته نعلي
وما كان لي علم بصفين إنها ... تكون وعمار يحث على قتلي
فلو كان لي بالغيب علم كتمتها ... وكايدت أقواماً مراجلهم تغلي
أبى اللّه إلا أن صدرك واغر ... علي بلا ذنب جنيت ولا ذحل
سوى إنني والراقصات عشية ... بنصرك مدخول الهوى ذاهل العقل
فلا وضعت عندي حصان قناعها ... ولا حملت وجناء ذعلبة رحلي
ولا زلت ادعى في لؤي بن غالب ... قليلاً غنائي لا أمر ولا أحلي
إن اللّه أرخى من خناقك مرة ... ونلت الذي رجيت إن لم أزر أهلي

وأترك لك الشام التي ضاق رحبها ... عليك ولم يهنك بها العيش من أجلي

فأجابه معاوية يقول:

أألان لما ألقت الحرب بركها ... وقام بنا الأمر الجليل على رجل

غمزت قناتي بعد سبعين حجة ... تباعاً كأني لا أمر ولا أحلي

أتيت بأمر فيه للشام فتنة ... وبي دون ما أظهرته زلة النعل

فقلت لك القول الذي ليس ضائراً ... ولو ضر لم يضررك حملك لي ثقلي

فعاتبتني في كل يوم وليلة ... كأن الذي أبليك ليس كما إبلي

فيا قبح اللّه العتاب وأهله ... ألم تر ما أصبحت فيه من الشغل

فدع ذا ولكن هل لك اليوم حيلة ... ترد بها قوماً مراجلهم تغلي

دعاهم علي فاستجابوا لدعوة ... أحب إليهم من ثرى المال والأهل

إذا قلت هابوا حومة الموت أرقلوا ... إلى الموت ارقال الهلوك إلى الفحل

فلما أتى عمراً شعر معاوية أتاه فأعتبه وصار أمرهما واحداً وعظم القتل فقتل ذو الكلاع الحميري قتله خندف البكري من بكر بن وائل فقال معاوية: لأنا أشد فرحاً بقتل ذي الكلاع مني بفتح مصر لو فتحتها. قال نصر: لأن ذا الكلاع كان يحجر على معاوية في أشياء كان يأمر بها (أقول) بل لأن ذا الكلاع وقع في ريب وشك من أمره لما روى له عمرو حديث عمار تقتله الفئة الباغية وسمع من عمار ما سمع فخاف أن يلحق بعلي فيكون عليه فتق يتعذر رتقه فلما قتل أمن من ذلك وقال نصر في موضع آخر: كان ذو الكلاع يسمع عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ لعمار بن سمية: **«تقتلك الفئة الباغية وآخر شربة تشربها ضياح من لبن»** فقال ذو الكلاع لعمرو: ويحك ما هذا قال عمرو: إنه سيرجع إلينا وذلك قبل أن يقتل عمار فقتل عمار مع علي وقتل ذو الكلاع مع معاوية فقال عمرو: والله يا معاوية ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً والله لو بقي ذو الكلاع حتى يقتل عمار لمال بعامة قومه إلى علي ولأفسد علينا جندنا «اهـ» وهذا يدل على ما قلناه. وأرسل ابن ذي الكلاع إلى الأشعث بن قيس إن ذا الكلاع أصيب في الميسرة فتأذن لنا فيه (وذو الكلاع والأشعث يمانيان) فقال: أخاف أن

يتهمني علي (كاد المريب) فاطلبه إلى سعيد فإنه في الميمنة فأتى ابن ذي الكلاع سعيد بن قيس فاستأذنه في ذلك فأذن له فطاف في الميمنة فلم يجده ثم طاف في الميسرة فوجده قد ربط رجله بطنب من أطناب بعض فساطيط العسكر فوقف على باب الفسطاط فقال: السلام عليكم يا أهل البيت فقالوا له: وعليك السلام ومعه عبد له أسود ليس معه غيره فقال: أتأذنون لنا في طنب من أطناب فسطاطكم قالوا: قد أذنا لكم ثم قالوا: معذرة إلى ربنا عز وجل واليكم أما إنه لولا بغيه علينا ما صنعنا به ما ترون. فنزل ابنه إليه وكان من أعظم الناس خلقاً وقد انتفخ شيئاً فلم يستطيعا احتماله فقال ابنه: هل من فتى معوان فخرج إليه خندف البكري فقال: تنحوا فقال له ابن ذي الكلاع: ومن يحمله إذا تنحينا قال: يحمله الذي قتله فاحتمله خندف ثم رمى به على ظهر البغل ثم شده بالحبال فانطلق به.

تقسيم معاوية الحرب بين أصحابه

قال نصر: لما تعاظمت الأمور على معاوية دعا عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة وعبيد اللّه بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد فقال لهم: إنه قد غمني رجال من أصحاب علي منهم سعيد بن قيس في همدان والأشتر في قومه والمرقال وعدي بن حاتم وقيس بن سعد في الأنصار وقد وقتكم يمانيتكم بأنفسها حتى لقد استحييت لكم وأنتم عدتهم من قريش وقد أردت أن يعلم الناس إنكم أهل غناء وقد عبأت لكل رجل منهم رجلاً منكم فاجعلوا ذلك إلي، قالوا: ذلك إليك قال: أنا أكفيكم سعيد بن قيس وقومه غداً وأنت يا عمرو لأعور بني زهرة المرقال وأنت يا بسر لقيس بن سعد وأنت يا عبيد اللّه للأشتر وأنت يا عبد الرحمٰن بن خالد لأعور طيء يعني عدي بن حاتم فجعلها نوباً في خمسة أيام لكل رجل منهم يوم فأصبح معاوية فلم يدع فارساً إلا حشده ثم قصد لهمدان وتقدم الخيل وهو يقول:

لا عيش إلا فلق قحف الهام   لن تمنع الحرمة بعد العام

سـامـلـك الـعـراق بـالـشـآم		أنـعـى ابـن عـفـان مـدى الأيـام

فطعن في أعراض الخيل ملياً فتنادت همدان بشعارها واشتد القتال ثم أقحم سعيد بن قيس فرسه على معاوية فذكرت همدان أن معاوية فاتها ركضاً فقال سعيد بن قيس في ذلك:

يـا لـهـف نـفـسي فـاتـنـي مـعـاويـة		فـوق طـمـر كـالـعـقـاب هـاويـه
والـراقـصـات لا يـعـود ثـانـيـة		إلا عـلـى ذات خـصـيـل طـاويـه
إن يـعـد الـيـوم فـكـفـي عـالـيـه

فانصرف معاوية ولم يعمل شيئاً وحجز بينهم الليل. وغدا عمرو بن العاص في اليوم الثاني في حماة الخيل فقصد المرقال ومع المرقال لواء علي الأعظم في حماة الناس فتقدم عمرو وهو يقول:

لا عـيـش إن لـم ألـق يـومـاً هـاشـمـا		ذاك الـذي إن يـنـج مـنـي سـالـمـا
يـكـن شـجـى حـتـى الـمـمـات لازمـا

فطعن في أعراض الخيل مزبداً فحمل هاشم وهو يقول:

لا عـيـش إن لـم ألـق يـومـي عـمـرا		ذاك الـذي أحـدث فـيـنـا الـغـدرا
أو يـحـدث الـلّـه لأمـر أمـراً		لا تـجـزعـي يـا نـفـس صـبـراً صـبـرا
ضـربـا مـداريـك وطـعـنـا شـزرا		يـا لـيـت مـا تـحـتـي يـكـون قـبـرا

فطعن عمراً حتى رجع واشتد القتال وانصرف الفريقان ولم يسر معاوية ذلك. وغدا في اليوم الثالث بسر بن أرطأة في حماة الخيل فلقي قيس بن سعد في كماة الأنصار فاشتدت الحرب بينهما وبرز قيس كأنه فنيق مقرم وهو يقول:

أنـا ابـن سـعـد زانـه عـبـاده		والـخـزرجـيـون رجـال سـاده
لـيـس فـراري فـي الـوغـى بـعـاده		إن الـفـرار لـلـفـتـى قـلاده
يـا رب أنـت لـقـنـي الـشـهـادة		والـقـتـل خـيـر مـن عـنـاقـي غـاده
حـتـى مـتـى تـثـنـى لـي الـوسـاده

فطعن خيل بسر وبرز له بسر بعد ملي وهو يقول:

أنـا ابـن أرطـاة عـظـيـم الـقـدر مـراود فـي غـالـب بـن فـهـر
لـيـس الـفـرار مـن طـبـاع بـسـر أن يـرجـع الـيـوم بـغـيـر وتـر
وقـد قـضـيـت فـي عـدوي نـذري يا لـيت شعري ما بقي من عمري

وطعن بسر قيساً فضربه قيس بالسيف فرده على عقبيه ورجع القوم جميعاً ولقيس الفضل. وتقدم عبيد اللّه بن عمر في اليوم الرابع ولم يترك فارساً مذكوراً وجمع من استطاع فقال له معاوية: إنك أفاعي أهل العراق فارفق واتئد فلقيه الأشتر أمام الخيل مزبداً وكان الأشتر إذا أراد القتال أزبد وهو يقول:

فـي كـل يـوم هـامـتـي مـقـتـرة بـالـضـرب أبـغـي مـنـة مـؤخـرة
والـدرع خـيـر مـن بـرود حـبـره يـا رب جـنـبـنـي سـبـيـل الـكـفـره
واجـعـل وفـاتـي بـأكـف الـفـجـرة لا تـعـدل الـدنـيـا جـمـيـعـاً وبـره
ولا بـعـوضـا فـي ثـواب الـبـرره

فرد الخيل فاستحيا عبيد اللّه فبرز أمام الخيل وكان فارساً فحمل عليه الأشتر فطعنه واشتد الأمر وانصرف القوم وللأشتر الفضل فغم ذلك معاوية وغدا عبد الرحمٰن بن خالد في اليوم الخامس وكان أرجاهم عند معاوية أن ينال حاجته فقواه بالخيل والسلاح وكان معاوية يعده ولداً فلقيه عدي بن حاتم في حماة مذحج وقضاعة فبرز عبد الرحمٰن أمام الخيل وهو يقول:

قـل لـعـدي ذهـب الـوعـيـد أنـا ابـن سـيـف الـلّـه لا مـزيـد
وخـالـد يـزيـنـه الـولـيـد فـمـا لـنـا ولا لـكـم مـحـيـد
عـن يـومـنـا ويـومـكـم فـعـودوا

ثم حمل فطعن الناس وقصده عدي بن حاتم وهو يقول:

أرجـو إلـٰهـي وأخـاف ذنـبـي ولـيـس شـيء مـثـل عـفـو ربـي
يا ابن الولـيد بـغـضـكـم فـي قـلـبـي كـالـهـضـب بـل فـوق قـنـان الـهـضـب

فلما كاد أن يخالطه بالرمح توارى عبد الرحمٰن في العجاج واستتر بأسنة أصحابه واختلط القوم ورجع عبد الرحمٰن إلى معاوية مقهوراً وانكسر معاوية

وشمت بذلك أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي وكان انسك رجل من أهل الشام وأشعره وكان في ناحية معتزلاً وقال في ذلك أبياتاً ذكرناها في ترجمته. وأظهر معاوية لعمرو شماته وقال: لقد أنصفتكم إذ لقيت سعيد بن قيس في همدان وفررتم وإنك يا عمرو لجبان فغضب عمرو ثم قال: والله لو كان علياً ما قحمت عليه يا معاوية فهلا برزت إلى علي إذ دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم وقال هذه الأبيات:

تسير إلى ابن ذي يزن سعيد | وتترك في العجاجة من دعاكا
فهل لك في أبي حسن علي | لعل الله يمكن من قفاكا
دعاك إلى النزال فلم تجبه | ولو نازلته تربت يداكا
وكنت أصم إذ ناداك عنها | وكان سكوته عنها مناكا
فآب الكبش قد طحنت رحاه | بنجدته ولم تطحن رحاكا
فما أنصفت صحبك يا ابن هند | أتفرقه وتغضب من كفاكا
فلا والله ما أضمرت خيراً | ولا أظهرت لي إلا هواكا

واستحيا القرشيون مما صنعوا وشمت بهم اليمانية فقال معاوية: يا معشر قريش والله لقد قربكم لقاء القوم من الفتح ولكن الأمر لأمر الله إنما لقيتم كباش أهل العراق وقتلتم وقتل منكم وما لكم علي من حجة لقد عبأت تعبيتي لسيدهم سعيد بن قيس فانقطعوا عن معاوية أياماً فقال معاوية في ذلك:

لعمري لقد أنصفت والنصف عادة | وعاين طعناً في العجاج المعاين
أتدرون من لاقيتم فل جيشكم | لقيتم ليوثاً أصحرتها العرائن
لقيتم صناديد العراق ومن بهم | إذا جاشت الهيجاء تحمى الظعائن
وما كان منكم فارس دون فارس | ولكنه ما قدر الله كائن

فأتوه فاعتذروا إليه.

مقتل عبيد الله بن عمر

وتضعضعت أركان حمير بعد مقتل ذي الكلاع وثبتت مع عبيد الله بن

عمر. وبعث عبيد اللّه بن عمر إلى الحسن بن علي فقال: إن لي إليك حاجة فالقني فلقيه فقال: إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً وقد شنئوه فهل لك أن تخلعه ونوليك هذا الأمر قال: كلا والله لا يكون ذلك ثم قال له الحسن لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك أما إن الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك مخلقاً بالخلوق تري نساء أهل الشام موقفك وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلاً. قال نصر: وبلغنا أن عبيد اللّه بن عمر بعثه معاوية في أربعة آلاف وهي كتيبته الرقطاء ويقال لهم الخضرية لأن ثيابهم خضر أو لأنهم أعلموا بالخضرة بعثهم ليأتوا علياً من ورائه فبلغ علياً ذلك فبعث إليهم أعدادهم ليس منهم إلا تميمي واقتتل الناس من لدن اعتدال النهار إلى صلاة المغرب ما كان صلاة القوم إلا التكبير عند مواقيت الصلاة ثم إن ميسرة أهل العراق كشفت ميمنة أهل الشام فطاروا في سواد الليل والتقى عبيد اللّه هو وكرب رجل من عكل فقتل كرباً وقتل الذين معه جميعاً وإنما انكشف الناس لذلك فكشف أهل الشام أهل العراق فاختلطوا في سواد الليل وتبدلت الرايات بعضها ببعض فلما أصبح الناس وجد أهل الشام لواءهم ليس حوله إلا ألف رجل فاقتلعوه وركزوه من وراء موضعه الأول وأحاطوا به ووجد أهل العراق لواءهم مركوزاً وليس حوله إلا ربيعة وعلي بينهم وهم محيطون به وهو لا يعلم من هم ويظنهم غيرهم فلما أذن مؤذن علي حين طلع الفجر قال:

يا مرحباً بالقائلين عدلاً وبالصلاة مرحباً وأهلاً

فلما صلى علي الفجر أبصر وجوهاً ليست بوجوه أصحابه بالأمس وإذا مكانه الذي هو به ما بين الميسرة والقلب بالأمس، فقال: من القوم؟ قالوا: ربيعة وقد بت فيهم البارحة، فقال: فخر طويل لك يا ربيعة، ثم قال لهاشم: خذ اللواء فوالله ما رأيت مثل هذه الليلة ثم خرج نحو القلب حتى ركز اللواء به وإذا سعيد بن قيس على مركزه فلحقه رجل من ربيعة يقال له نغير فقال له: ألست الزاعم إن لم تنته ربيعة لتكونن ربيعة ربيعة ومضر مضر فما أغنت عنك مضر البارحة فنظر إليه علي نظر منكر فلما أصبحوا نهدوا للقتال غير ربيعة لم

تتحرك فبعث إليهم علي أن انهدوا إلى عدوكم فأبوا فبعث إليهم ثانياً قالوا: كيف ننهد وهذه الخيل من وراء ظهرنا قل لأمير المؤمنين فليأمر همدان أو غيرها بمناجزتهم لننهد فبعث إليهم الأشتر وكان جهير الصوت فقال: يا معشر ربيعة ما منعكم أن تنهدوا وأنتم أصحاب كذا وأصحاب كذا وجعل يعدد أيامهم قالوا: ما نفعل حتى ننظر هذه الخيل التي خلف ظهورنا وهي أربعة آلاف قل لأمير المؤمنين فليبعث إليهم من يكفيه أمرهم فقال لهم الأشتر: فإن أمير المؤمنين يقول لكم: اكفونيها أنتم لو بعثتم إليها طائفة منكم لتركوكم وفروا كالعصافير فوجهت ربيعة إليهم تيم اللات والنمر بن قاسط وعنزة قالوا: فمشينا إليهم مستلئمين مقنعين في الحديد وكان عامة قتال صفين مشياً فلما أتيناهم هربوا وانتشروا انتشار الجراد (قال الراوي) فذكرت قول الأشتر: كأنهم اليعافير فرجعنا إلى أصحابنا وقد نشب القتال بينهم وبين أهل الشام وقد اقتطع أهل الشام طائفة من أهل العراق بعضها من ربيعة فأحاطوا بها فلم نصل إليها حتى حملنا على أهل الشام فعلوناهم بالأسياف حتى انفرجوا لنا وأفضينا إلى أصحابنا، قال: فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد فما تحاجزنا حتى حجز بيننا سواد الليل وما نرى رجلاً منا ولا منهم مولياً وحمل عبيد اللّه بن عمر وهو يقول:

أنا عبيد اللّه ينميني عمر ... خير قريش من مضى ومن غبر
إلا نبي اللّه والشيخ الأغر ... قد أبطأت عن نصر عثمان مضر
والربعيون فلا اسقوا المطر ... وسارع الحي اليمانون الغرر
والخير في الناس قديماً يبتدر

فحمل عليه حريث بن جابر الحنفي وهو يقول:

قد صابرت في نصرها ربيعة ... في الحق والحق لهم شريعه
فاكفف فلست تارك الوقيعه ... في العصبة السامعة المطيعه
حتى تذوق كأسها الفظيعه

فطعنه فصرعه وكان حريث هذا نازلاً بين العسكرين في قبة له حمراء وكان

إذا التقى الناس للقتال أمدهم بالشراب من اللبن والسويق والماء. ومر الحسن فإذا هو برجل متوسد رجل قتيل قد ركز رمحه في عينه وربط فرسه برجله فقال الحسن لمن معه: انظروا من هذا فإذا هو برجل من همدان فإذا القتيل عبيد اللّه بن عمر قد قتله وبات عليه حتى أصبح ثم سلبه وأخذ سيفه ذا الوشاح فلما ملك معاوية بعث إلى قاتله فأخذ السيف منه وفي قتل عبيد اللّه بن عمر يقول كعب بن جعيل الثعلبي شاعر أهل الشام بصفين:

معاوي لا تنهض بغير وثيقة ... فإنك بعد اليوم بالذل عارف

تركتم عبيد اللّه بالقاع مسنداً ... يمج نجيعاً والعروق نوازف

إلا إنما تبكي العيون لفارس ... بصفين أجلت خيله وهو واقف

ينوء ويعلوه شآبيب من دم ... كما لاح في جيب القميص الكفائف

تبدل من أسماء أسياف وائل ... وأي فتى لو أخطأته المتالف

إلا أن شر الناس في الناس كلهم ... بنو أسد إني لما قلت عارف

فقال أبو جهمة الأسدي يرد عليه من أبيات:

وقد صبرت حول ابن عم محمد ... لدى الموت شهباء المناكب شارف

فما برحوا حتى رأى اللّه صبرهم ... وحتى أتيحت بالأكف المصاحف

بمرج ترى الرايات فيه كأنها ... إذا جنحت للطعن طير عواكف

وقال الصلتان العبدي:

ألا يا عبيد اللّه ما زلت مولعا ... ببكر لها تهدي اللقا والتهددا

وكنت سفيهاً قد تعودت عادة ... وكل امرىء جار على ما تعودا

فأصبحت مسلوباً على شر آلة ... صريع قنا وسط العجاجة مفردا

ثم تمادى الناس في القتال فاضطربوا بالسيوف حتى تقطعت وصارت كالمناجل وتطاعنوا بالرماح حتى تكسرت ثم جثوا على الركب فتحاثوا بالتراب ثم تعانقوا وتكادموا وتراموا بالصخر والحجارة ثم تحجازوا فجعل الرجل من أهل العراق يمر على أهل الشام فيقول: أين آخذ إلى رايات بني فلان فيقولون:

ها هنا لا هداك الله ويمر الرجل من أهل الشام على أهل العراق فيقول: كيف آخذ إلى رايات بني فلان فيقولون: ها هنا لا حفظك الله ولا عافاك.

قتال ربيعة بصفين

وقال أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهلي الرقاشي للحضين بن المنذر الرقاشي يوم صفين وكانت راية علي (ع) مع الحضين: هل لك أن تعطيني رايتك أحملها فيكون لك ذكرها ولي أجرها قال: وما غناي عن أجرها مع ذكرها قال له: أعرنيها ساعة فما أسرع ما ترجع إليك فعلم أنه يريد أن يستقتل فأعطاه إياها فأخذها وقال: يا أهل هذه الراية إن عمل الجنة كره كله وإن عمل النار خف كله وإن الجنة لا يدخلها إلا الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره وليس شيء مما افترض الله على العباد أشد من الجهاد هو أفضل الأعمال ثواباً فإذا رأيتموني قد شددت فشدوا ويحكم أما تشتاقون إلى الجنة أما تحبون أن يغفر الله لكم فشد وشدوا معه فاقتتلوا قتالاً شديداً وأخذ الحضين يقول:

شـدوا إذا مـا شـد بـالـلـواء ذاك الـرقـاشـي أبـو عـرفـاء

فقاتل أبو عرفاء حتى قتل وفي ذلك اليوم يقول أبو مجزاة بن ثور:

أضـربـهـم ولا أرى مـعـاويـة الا بـرج الـعـين الـعـظـيم الـحـاويـة
هـوت بـه فـي الـنـار أم هـاويـه جـاوره فـيـهـا كـلاب عـاويـه
أغـوى طـغـامـاً لا هـداه هـاديـه

وقال معاوية لعمرو بن العاص: أما ترى يا أبا عبد اللّه إلى ما قد وقعنا فيه كيف ترى أهل العراق غداً صانعين إنا لفي خطر عظيم. فقال عمرو: إن أصبحت ربيعة منعطفين حول علي تعطف الإبل حول فحلها لقيت منهم جلاداً صادقاً وبأساً شديداً قال: أبخؤولتك تخوفني يا أبا عبد اللّه؟ قال: إنك سألتني فأجبتك.

فلما أصبحوا في اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدقة بعلي (ع) إحداق بياض العين بسوادها قال عتاب بن لقيط البكري حيث انتهى علي إلى رايات ربيعة: إذا أصيب علي فيكم افتضحتم وقد لجأ إلى راياتكم وقال لهم شقيق بن

ثور: يا معشر ربيعة ليس لكم عذر في العرب إن أصيب علي فيكم ومنكم رجل حي، إن منعتموه فحمد الحياة لبستموه فقاتلوا قتالاً شديداً لم يكن قبله مثله حين جاءهم علي. وقام خالد بن المعمر فنادى من يبايع على الموت ويشري نفسه لله فبايعه سبعة آلاف على أن لا ينظر رجل منهم خلفه حتى يرد سرادق معاوية فاقتتلوا قتالاً شديداً وقد كسروا جفون سيوفهم فلما نظر إليهم معاوية قد أقبلوا قال:

إذا قلت قد ولت ربيعة أقبلت كتائب منهم كالجبال تجالد

ثم قال معاوية لعمرو: ما ترى قال: أرى أن لا تحنث أخوالي اليوم. فخلى معاوية عنهم وعن سرادقه وخرج فاراً عنه لائذاً إلى بعض مضارب العسكر فدخل فيه وبعث معاوية إلى خالد بن المعمر: إنك قد ظفرت ولك إمرة خراسان إن لم تتم فطمع خالد في ذلك ولم يتم فأمّره معاوية حين بايعه الناس على خراسان فمات قبل أن يصل إليها فإذا صح ذلك فقد خسر الدنيا والآخرة وفي فرار معاوية بصفين يقول النجاشي من أبيات:

ونجى ابن حرب سابح ذو علالة أجش هزيم والرماح دواني
إذا قلت أطراف الرماح ينلنه مرته به الساقان والقدمان
حسبت طعان الأشعرين ومذحج وهمدان أكل الزبد بالصرفان
فما قتلت عك ولخم وحمير وغيلان ألا يوم حرب عوان
وما دفنت قتلى قريش وعامر بصفين حتى حكم الحكمان
غشيناهم يوم الهرير بعصبة يمانية كالسيل سيل عران
فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب اللّه خير قران
ونادوا علياً يا ابن عم محمد أما تتقي أن يهلك الثقلان
فمن ير خيلينا غداة تلاقيا يرى جبلي جيلان ينتطحان

ثم أن علياً (ع) صلى الغداة ثم زحف إليهم فلما بصروه استقبلوه بزحوفهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم إن خيل أهل الشام حملت على خيل أهل العراق فاقتطعوا من أصحاب علي ألف رجل أو أكثر فأحاطوا بهم وحالوا بينهم

وبين أصحابهم فنادى علي ألا رجل يشري نفسه لله؟ فأتاه رجل من جعف يقال له: عبد العزيز بن الحارث على فرس أدهم كأنه غراب مقنعاً بالحديد لا يرى منه إلا عيناه فقال: يا أمير المؤمنين مرني بأمرك فوالله ما تأمرني بشيء إلا صنعته فقال علي (ع):

سمحت بأمر لا يطاق حفيظة وصدقاً وإخوان الحفاظ قليل
جزاك إله الناس خيراً فقد وفت يداك بفضل ما هناك جزيل

أبا الحارث شد الله ركنك احمل على أهل الشام حتى تأتي أصحابك فتقول لهم: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: هللوا وكبروا من ناحيتكم ونهلل نحن ونكبر من ها هنا احملوا من جانبكم ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام فضرب الجعفي فرسه حتى إذا قام على السنابك حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب علي فطاعنهم ساعة وقاتلهم فانفرجوا له حتى أتى أصحابه فلما رأوه استبشروا به وفرحوا وقالوا: ما فعل أمير المؤمنين قال: صالح، يقرئكم السلام ويقول لكم: هللوا وكبروا واحملوا حملة رجل واحد من ذلك الجانب ونهلل نحن من جانبنا ونكبر ونحمل من خلفكم فهللوا وكبروا وهلل علي وأصحابه من ذلك الجانب وحملوا على أهل الشام من هناك وحمل علي من ها هنا في أصحابه فانفرج أهل الشام عنهم فخرجوا وما أصيب منهم رجل واحد ولقد قتل من فرسان أهل الشام يومئذ زهاء سبعمائة رجل وقال علي (ع): من أعظم الناس غناء؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين قال: كلا ولكنه الجعفي.

قتال مضر بصفين

وذكروا أن علياً (ع) كان لا يعدل بربيعة أحداً من الناس فشق ذلك على مضر وأظهروا لهم القبيح وأبدوا ذات أنفسهم فقال حضين بن المنذر شعراً أغضب مضراً فيه:

رأت مضر صارت ربيعة دونهم شعار أمير المؤمنين وذا الفضل

فأبدوا إلينا ما تجن صدورهم علينا من البغضا وذاك لها أصل
وأنا أناس خصنا اللّه بالتي رآنا لها أهلاً وأنتم لها أهل
فأبلوا بلانا أو أقروا بفضلنا ولن تلحقونا الدهر ما حنت الإبل

فغضبوا من شعره فقام أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني وعمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي ووجوه بني تميم وقبيصة بن جابر الأسدي في وجوه بني أسد وعبيد اللّه بن عامر العامري في وجوه هوازن فأتوا علياً (ع) فتكلم أبو الطفيل فقال: يا أمير المؤمنين: إنا والله ما نحسد قوماً خصهم الله منك بخير إن حمدوه وشكروه وإن هذا الحي من ربيعة قد ظنوا أنهم أولى بك منا وإنك لهم دوننا فاعفهم عن القتال أياماً واجعل لكل امرىء منا يوماً يقاتل فيه فإنا إن اجتمعنا اشتد عليك بلاؤنا فقال علي: أعطيتم ما طلبتم وذلك يوم الأربعاء وأمر ربيعة أن تكف عن القتال وكانت بإزاء اليمن من صفوف أهل الشام فغدا عامر بن واثلة في قومه من كنانة وهم جماعة عظيمة فتقدم أمام الخيل وهو يقول: طاعنوا وضاربوا ثم حمل وهو يقول:

قد صبرت في حربها كنانه واللّه يجزيها بها جنانه
من أفرغ الصبر عليه زانه أو غلب الجبن عليه شانه
أو كفر اللّه فقد أهانه غداً يعض من عصى بنانه

فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم انصرف أبو الطفيل إلى علي (ع) فقال: يا أمير المؤمنين إنك نبأتنا أن أشرف القتل الشهادة وأحظى الأمر الصبر وقد والله صبرنا حتى أصبنا فقتيلنا شهيد وحينا ثائر فاطلب بمن بقي ثأر من مضى فإنا وإن كان قد ذهب صفونا وبقي كدرنا فإن لنا ديناً لا يميل به الهوى ويقينا لا تزحمه الشبهة فأثنى علي عليه خيراً. ثم غدا يوم الجمعة عمير بن عطارد بجماعة من بني تميم وهو يومئذ سيد مضر من أهل الكوفة فقال: يا قوم إني أتبع آثار أبي الطفيل وتتبعون آثار كنانة وتقدم برايته وهو يقول:

قد ضاربت في حربها تميم إن تميماً حظها عظيم
لها حديث ولها قديم إن الكريم نسله كريم

إن لـم تـردهـم رايـتـي فـلـومـوا دين قـويـم وهـدى سـلـيـم

فطعن برايته حتى خضبها دماً وقاتل أصحابه قتالاً شديداً حتى أمسوا وانصرف عمير إلى علي (ع) وعليه سلاحه فقال: يا أمير المؤمنين قد كان ظني بالناس حسناً وقد رأيت منهم فوق ظني بهم قاتلوا من كل جهة وبلغوا جهدهم من عدوهم. ثم غدا يوم السبت قبيصة بن جابر الأسدي في بني أسد وهم حي الكوفة بعد همدان فقال: يا معشر بني أسد أما أنا فلا أقصر دون صاحبي وأما أنتم فذلك إليكم ثم تقدم برايته وهو يقول:

قد حافظت في حربها بنو أسد ما مثلها تحت العجاج من أحد

أقرب من يمن وأنأى من نكد كأننا ركن ثبير أو أحد

لسنا بأوباش ولا بيض البلد لكننا المحة من ولد سعد

كنت ترانا في العجاج كالأسد يا ليت روحي قد نأى عن الجسد

فقاتل القوم ولم يكونوا على ما يريد في الجهد فعد لهم على ما يحب فطفر ثم أتى علياً (ع) فقال: يا أمير المؤمنين إن استهانة النفوس في الحرب أبقى لها والقتل خير لها في الآخرة. ثم غدا يوم الأحد عبد الله بن الطفيل العامري وكان سيد بني عامر فغدا بجماعة هوازن وهو يقول:

قد ضاربت في حربها هوازن أولاك قوم لهم محاسن

حبي لهم حزم وجأش ساكن طعن مدارك وضرب واهن

هذا وهذا كل يوم كائن لم يخبروا عنا ولكن عاينوا

واشتد القتال بينهم حتى الليل ثم انصرف عبد الله بن الطفيل فقال: يا أمير المؤمنين لقيت والله بقومي أعدادهم من عدوهم فما ثنوا أعنتهم حتى طعنوا في عدوهم ثم رجعوا إلي فاستكرهوني على الرجوع إليهم واستكرهتهم على الانصراف إليك فأبوا ثم عادوا فاقتتلوا فأثنى عليهم علي خيراً وفخرت المضرية بما كان منهم على الربعية وانتصفوا من ربيعة وقال عامر بن واثلة في ذلك:

حامت كنانة في حربها وحامت تميم وحامت أسد

وحامت هوازن يوم اللقاء فما خام منا ومنهم أحد
لقينا الفوارس يوم الخميس والعيد فالسبت ثم الأحد
وإمدادهم خلف أذنابهم وليس لنا من سوانا مدد
فلما تنادوا بآبائهم دعونا معداً ونعم المعد
فظلنا نفلق هاماتهم ولم نك فيها ببيض البلد
ونعم الفوارس يوم اللقاء فقل في عديد وقل في عدد
وقل في طعان كفرغ الدلاء وضرب عظيم كنار الوقد
ولكن عصفنا بهم عصفة وفي الحرب يمن وفيها نكد
طحنا الفوارس وسط العجاج وسقنا الزعانف سوق النقد
وقلنا علي لنا والد ونحن له طاعة كالولد

وخطب علي عليه السلام الناس يومئذ بصفين فقال في آخر خطبته: وابن عم نبيكم معكم بين أظهركم يدعوكم إلى طاعة ربكم ويعمل بسنة نبيكم ﷺ فلا سواء من صلى قبل كل ذكر ولم يسبقني بصلاتي مع رسول الله ﷺ أحد وأنا من أهل بدر ومعاوية طليق ابن طليق والله إنكم لعلى حق وإنهم لعلى باطل فلا يكونن القوم على باطلهم اجتمعوا عليه وتتفرقون عن حقكم حتى يغلب باطلهم قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فإن لم تفعلوا يعذبهم بأيدي غيركم. فأجابه أصحابه فقالوا: يا أمير المؤمنين انهض بنا إلى عدونا وعدوك إذا شئت فوالله ما نريد بك بدلاً نموت معك ونحيا معك فقال لهم: والذي نفسي بيده لنظر إلي رسول الله ﷺ أضرب قدامه بسيفي فقال:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

وقال: **«يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي وموتك وحياتك يا علي معي والله ما كذبت ولا كذبت ولا ضللت ولا ضل بي وما نسيت ما عهد إلي وإني لعلى بينة من ربي وإني لعلى الطريق الواضح»** ألقطه لقطاً ثم نهض إلى القوم فاقتتلوا من حيث طلعت الشمس حتى غاب الشفق وما كانت صلاة القوم إلا تكبيراً.

فعل كريب بن الصباح وقتله

وبرز رجل من حمير من آل ذي يزن اسمه كريب بن الصباح ليس في أهل الشام يومئذ رجل أشهر شدة بالبأس منه ثم نادى من يبارز فبرز إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي فقتل المرتفع ثم نادى من يبارز فبرز إليه الحارث بن الجلاح فقتله ثم نادى من يبارز فبرز إليه عايذ بن مسروق الهمداني فقتل عايذاً ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض ثم قام عليها بغياً واعتداء ثم نادى هل بقي من مبارز فبدر إليه علي عليه السلام ثم ناداه: ويحك يا كريب إني أحذرك وأدعوك إلى سنة الله وسنة رسوله ويحك لا يدخلنك ابن آكلة الأكباد النار فكان جوابه أن قال ما أكثر ما قد سمعنا هذه المقالة منك فلا حاجة لنا فيها أقدم إذا شئت من يشتري سيفي وهذا أثره فقال علي (ع): لا حول ولا قوة إلا بالله ثم مشى إليه فلم يمهله أن ضربه ضربة خر منها قتيلاً يتشحط في دمه ثم نادى من يبارز فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري فقتل الحارث ثم نادى: من يبارز فبرز إليه المطاع بن المطلب العبسي فقتل مطاعاً ثم نادى من يبارز فلم يبرز إليه أحد ثم إن علياً (ع) نادى: يا معشر المسلمين الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا بمثل ما اعتدي عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع الصابرين. ويحك يا معاوية هلم فبارزني ولا يقتلن الناس فيما بيننا فقال عمرو: اغتنمه منتهزاً فقد قتل ثلاثة من أبطال العرب وإني أطمع أن يظفرك الله به فقال معاوية: ويحك يا عمرو والله أن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي (اذهب إليك فليس مثلي يخدع).

وقام عمرو بن العاص قبل الوقعة العظمى منحنياً على قوس يحرض أصحابه وقال في آخر خطبته: إنا نحتسب عند الله ما أصبح في أمة محمد ﷺ من اشتعال نيرانها واضطراب حبلها ووقوع بأسها بينها فإنا لله وإنا إليه راجعون أو لا تعلمون إن صلاتنا وصلاتهم و صيامنا وصيامهم وحجنا وحجهم وقبلتنا وقبلتهم ودينا ودينهم واحد ولكن الأهواء متشتتة اللهم أصلح هذه الأمة بما أصلحت به أولها واحفظ فيها نبيها مع أن القوم قد وطئوا بلادكم وبغوا عليكم فجدوا في قتال عدوكم ثم جلس.

وقام عبد اللّه بن العباس خطيباً فقال في آخر خطبته: حتى كان فيما اضطرب من حبل هذه الأمة وانتشر من أمرها أن ابن آكلة الأكباد وقد وجد من طغام أهل الشام أعواناً على علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأول من ذكر وصلى معه بدري قد شهد مع رسول الله ﷺ كل مشاهده التي فيها الفضل ومعاوية وأبو سفيان مشركان يعبدان الأصنام لقد قاتل علي مع رسول الله ﷺ وعلي يقول: صدق الله ورسوله ومعاوية وأبو سفيان يقولان: كذب الله ورسوله فما معاوية في هذه بابر ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب منه في تلكم والله إنكم لعلى الحق وإن القوم لعلى الباطل فلا يكونن أولى بالجد في باطلهم منكم في حقكم أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

وقام عمار بن ياسر فقال في جملة كلامه: امضوا عباد اللّه إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم عثمان والله ما أظنهم يطلبون دمه ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرؤوها وعلموا لو أن الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يرغبون فيه منها ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل أمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون ولولا هي ما بايعهم من الناس رجلان.

قتال عمار بصفين

ثم مضى عمار ومضى معه أصحابه فلما دنا من عمرو بن العاص قال: يا عمرو بعت دينك بمصر تباً لك وطالما بغيت الإسلام عوجاً ثم حمل عمار وهو يقول:

صدق اللّه وهو للصدق أهل ... وتعالى ربي وكان جليلا
رب عجل شهادة لي بقتل ... في الذي قد أحب قتلاً جميلا
مقبلاً غير مدبر أن للقتـ ... ـل على كل ميتة تفضيلا
إنهم عند ربهم في جنان ... يشربون الرحيق والسلسبيلا
من شراب الأبرار خالطه المسـ ... ـك وكأساً مزاجها زنجبيلا

ثم قال: اللهم إنك لتعلم أني لو أعلم أن رضاك أن اقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت اللهم إنك تعلم إني لو أعلم إن رضاك أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى يخرج من ظهري لفعلت ولو أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين لفعلته. ونادى عمار بن ياسر يومئذ أين من يبغي رضوان ربه ولا يؤوب إلى مال ولا ولد فأتته عصابة من الناس فقال: يا أيها الناس اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبغون دم عثمان.

مقتل هاشم المرقال

ودفع علي (ع) الراية إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وكان عليه درعان فقال له علي كهيئة المازح يا هاشم أما تخشى من نفسك أن تكون أعور جباناً قال: ستعلم يا أمير المؤمنين والله لألفن بين جماجم القوم لف رجل ينوي الآخرة (وفي رواية) أنه قال له: يا هاشم حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء فأخذ رمحاً فهزه فانكسر ثم أخذ آخر فوجده جاسياً فألقاه ثم دعا برمح لين فشد به لواءه ولما دفع علي الراية إلى هاشم قال له رجل من بكر بن وائل من أصحاب هاشم: أقدم هاشم، يكررها. ثم قال: ما لك يا هاشم قد انتفخ سحرك أعوراً وجبناً؟! قال: من هذا قالوا: فلان قال: أهلها وخير منها إذا رأيتني قد صرعت فخذها ثم قال لأصحابه: شدوا شسوع نعالكم وشدوا إزركم فإذا رأيتموني قد هززت الراية ثلاثاً فاعلموا أن أحداً منكم لا يسبقني إليها ثم نظر هاشم إلى عسكر معاوية فرأى جمعاً عظيماً فقال: من أولئك قالوا: جند أهل المدينة وقريش قال: قومي لا حاجة لي في قتالهم قال: من عند هذه القبة البيضاء قيل معاوية وجنده قال: فإني أرى دونهم أسودة[1] قالوا: ذاك عمرو بن العاص وابناه وأخذ الراية فهزها فقال له رجل من أصحابه: امكث قليلاً ولا تعجل فقال هاشم:

قد أكثرا لومي وما أقلا إني شريت النفس لن أعتلا

---

(١) جمع سواد وهو الشخص.

أعـور يـبـغـي أهـلـه مـحـلا لا بـد أن يـغـل أو يـغـلا
قـد عـالـج الـحـيـاة حـتـى مـلا أشـلـهـم بـذي الـكـعـوب شـلا

وفي رواية أنه قال:

أشـلـهـم بـذي الـكـعـوب شـلا مـع ابـن عـم أحـمـد الـمـعـلـى
فـيـه الـرسـول بـالـهـدى اسـتـهـلا أول مـن صـدقـه وصـلـى
فـجـاهـد الـكـفـار حـتـى أبـلـى

وجعل عمار بن ياسر يتناوله بالرمح ويقول: اقدم يا أعور (لا خير في أعور لا يأتي الفزع) وكان هاشم عالماً بالحرب فيتقدم فيركز الراية فجعل عمرو بن العاص يقول: إني لا أرى لصاحب الراية السوداء عملاً لئن دام على هذا ليفنين العرب اليوم فاقتتلوا قتالاً شديداً وجعل عمار يقول: صبراً عباد الله الجنة تحت ظلال البيض وكان لواء أهل الشام مع أبي الأعور السلمي ولم يزل عمار ينخسه حتى شب القتال وزحف هاشم بالراية يرقل بها أرقالاً وكان يسمى المرقال وزحف الناس بعضهم إلى بعض والتقى الزحفان فاقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع الناس بمثله وكثرت القتلى في الفريقين كليهما (قال بعض الرواة) لما التقينا بأهل الشام في ذلك اليوم وجدناهم خمسة صفوف قد قيدوا أنفسهم بالعمائم فقتلنا صفاً صفا حتى قتلنا ثلاثة صفوف وخلصنا إلى الصف الرابع ما على الأرض شامي ولا عراقي يولي دبره. ثم إن الأزد وبجيلة كشفوا همدان غلوة حتى ألجأوهم إلى التل فصعدوا عليه فشدت عليهم الأزد وبجيلة حتى أجدروهم منه ثم عطفت عليهم همدان حتى ألجأوهم إلى أن تركوا مصافهم وقتل من الأزد وبجيلة يومئذ ثلاثة آلاف واقتتل الناس قتالاً شديداً لم يسمع بمثله وكثرت القتلى حتى إن كان الرجل ليشد طنب فسطاطه بيد الرجل أو برجله قال الأشعث: لقد رأيت أخبية أهل صفين وأروقتهم وما منها خباء ولا رواق ولا فسطاط إلا مربوطاً بيد رجل أو رجله. قال الأحنف بن قيس إني لواقف إلى جانب عمار بن ياسر فتقدمنا حتى إذا دنونا من هاشم بن عتبة قال له عمار: احمل فداك أبي وأمي ونظر عمار إلى رقة في الميمنة فقال له هاشم:

رحمك الله يا عمار إنك رجل تأخذك خفة في الحرب وإني إنما زحفت باللواء زحفاً وأرجو أن أنال بذلك حاجتي وإني إن خففت لم آمن الهلكة وقال معاوية لعمرو بن العاص: ويحك إن اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة وكان من قبل يرقل به إرقالاً وإن زحف به اليوم إنه لليوم الأطول لأهل الشام وإن زحف في عنق من أصحابه إني لأطمع أن يقتطع فلم يزل به عمار حتى حمل فبصر به معاوية فوجه إليه حماة أصحابه وكان في ذلك الجمع عبد اللّه بن عمرو بن العاص ومعه سيفان قد تقلد واحداً وهو يضرب بالآخر وأطافت يه خيل علي قال عمرو: يا الله يا رحمٰن ابني ابني. قال معاوية: اصبر اصبر فإنه لا بأس عليه فقال عمرو: ولو كان يزيد إذاً لصبرت ولم يزل حماة أهل الشام يذبون عنه حتى نجا هارباً على فرسه ومن معه. ودعا هاشم بن عتبة في الناس عند المساء إلا من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل فشد في عصابة من أصحابه على أهل الشام مراراً فليس من وجه يحمل عليهم إلا صبروا له فقال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم فما ترون منهم إلا حمية العرب وإنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق يا قوم اصبروا وصابروا ثم امشوا بنا إلى عدونا على تؤدة رويداً واذكروا الله ولا يسلم رجل أخاه وإلا تكثروا الالتفات وجالدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. فمضى في عصابة من القراء فقاتل قتالاً شديداً وهو وأصحابه حتى رأوا بعض ما يسرون به إذ خرج عليهم شاب وهو يقول:

أنا ابن أرباب الملوك غسان ... والدائن اليوم بدين عثمان

أنبأنا أقوامنا بما كان ... إن علياً قتل ابن عفان

ثم شد فلا ينثني بضرب سيفه ثم يلعن ويشتم ويكثر الكلام فقال له هاشم: إن هذا الكلام بعده الخصام وإن هذا القتال بعده الحساب فاتق الله فإنك راجع إلى ربك فسائلك عن هذا الموقف قال: فإني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكروا وإنكم لا تصلون وأقاتلكم لأن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم وازرتموه على قتله فقال له هاشم: ما أنت وذاك إنما قتله أصحاب محمد وهم أصحاب الدين وأولى بالنظر في أمور المسلمين وما أظن أن أمر هذه الأمة وأمر

هذا الدين عناك طرفة عين قط قال الفتى: أجل والله لا أكذب فإن الكذب يضر ولا ينفع ويشين ولا يزين فقال له هاشم: إن هذا الأمر لا علم لك به فخله وأهل العلم به قال: أظنك والله نصحتني وقال له هاشم: وأما قولك إن صاحبنا لا يصلي فهو أول من صلى لله مع رسول الله ﷺ وأفقهه في دين الله وأولاه برسول الله وأما من ترى معه فكلهم قارىء الكتاب لا ينامون الليل تهجداً فلا يغررك عن دينك الأشقياء قال الفتى: يا عبد اللّه إني لأظنك امرأ صالحاً فهل تجد لي من توبة قال: نعم تب إلى الله يتب عليك فإنه يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات. فذهب الفتى بين الناس راجعاً فقال له رجل من أهل الشام: خدعك العراقي قال: لا ولكن نصحني. وقاتل هاشم قتالاً شديداً حتى أتت كتيبة لتنوخ فشدوا على الناس فقاتلهم حتى قتل تسعة نفر أو عشرة وحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخي فطعنه فسقط، وبعث إليه علي (ع) أن قدم لواءك فقال للرسول: انظر إلى بطني فإذا هو قد انشق فمر به رجل وهو صريع بين القتلى فقال له: اقرأ أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته وقل له: أنشدك بالله ألا أصبحت وقد ربطت مقاود خيلك بأرجل القتلى فإن الدبرة تصبح غداً لمن غلب على القتلى فأخبر الرجل علياً بذلك فسار في بعض الليل حتى جعل القتلى. خلف ظهره وكانت الدبرة له عليهم فأخذ الراية رجل من بكر بن وائل ورفع هاشم رأسه فإذا عبيد اللّه بن عمر قتيلاً إلى جانبه فحبا حتى دنا منه فعض على ثديه حتى تبينت فيه أنيابه ثم مات هاشم وهو على صدر عبيد اللّه بن عمر. وضرب البكري الذي معه الراية فسقط فرفع رأسه فأبصر عبيد اللّه بن عمر قريباً منه فحبا إليه حتى عض على ثديه الآخر فتبينت أنيابه فيه ومات أيضاً فوجدا جميعاً على صدر عبيد اللّه بن عمر هاشم والبكري وفرح أهل الشام بمقتل هاشم فأخذ الراية عبد اللّه بن هاشم وخطب فقال: يا أيها الناس إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذين قدر أرزاقهم وكتب آثارهم وأحصى أعمالهم وقضى آجالهم فدعاه الله ربه الذي لا يعصى فأجابه وسلم لأمر الله وجاهد في طاعة ابن عم رسول الله وأول من آمن به وأفقههم في دين الله المخالف لأعداء الله المستحلين ما حرم الله الذين عملوا في البلاد بالجور والفساد واستحوذ

عليهم الشيطان فزين لهم الإثم والعدوان فحق عليكم جهاد من خالف سنة رسول الله ﷺ وعطل حدود الله وخالف أولياء الله فجودوا بمهج أنفسكم في طاعة الله في هذه الدنيا تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى والملك الذي لا يبلى فلو لم يكن ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار لكان القتال مع علي أفضل من القتال مع معاوية ابن آكلة الأكباد فكيف وأنتم ترجون ما ترجون. ولما قتل هاشم جزع الناس عليه جزعاً شديداً وأصيب معه عصابة من أسلم من القراء فمر عليهم عليه السلام وهم قتلى حوله فقال:

جزى اللّه خيراً عصبة أسلمية ... صباح الوجوه صرعوا حول هاشم

يزيد وعبد اللّه بشر ومعبد ... وسفيان وابنا هاشم ذي المكارم

وعروة لا يبعد ثناه وذكره ... إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم

وقال عبد اللّه يرثي أباه هاشماً بهذا الرجز:

يا هاشم بن عتبة بن مالك ... اعزز بشيخ من قريش هالك

تخبطه الخيلات بالسنابك ... في أسود من نقعهن حالك

أبشر بحور العين في الأرائك ... والروح والريحان عند ذلك

وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة يرثي هاشماً:

يا هاشم الخير جزيت الجنة ... قاتلت في اللّه عدو السنه

والتاركي الحق وأهل الظنه ... أعظم بما فزت به من منه

صيرني الدهر كأني شنه ... يا ليت أهلي قد علوني رنه

من حوبة وعمة وكنه

قال نصر والحوبة القرابة يقال لي في بني فلان حوبة أي قربى.

مقتل عمار بن ياسر

كان على عمار يوم صفين درع وهو يقول: أيها الناس الرواح إلى الجنة. وقال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: والله إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن ثم قال:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

ثم استسقى وقد اشتد ظمأه فأتته امرأة طويلة اليدين قال الراوي: والله ما أدري أعس معها أو إداوة فيها ضياح من لبن فقال حين شرب: الجنة تحت الأسنة، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا إنا على الحق وهم على باطل. وفي رواية إن الذي جاءه باللبن غلام له اسمه راشد ثم حمل وحمل عليه ابن جون السكسكي وأبو العادية الفزاري فأما أبو العادية فطعنه وأما ابن جون فإنه احتز رأسه. فكان لا يزال رجل يجيء فيقول لمعاوية وعمرو أنا قتلت عماراً فقال له عمرو: فما كان آخر منطقه قال: سمعته يقول اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه فقال له عمرو: صدقت أنت صاحبه وأما والله ما ظفرت يداك ولكن أسخطت ربك. واحتج رجلان بصفين في سلب عمار بن ياسر وفي قتله فأتيا عبد اللّه بن عمرو بن العاص فقال لهما: ويحكما اخرجا عني فإن رسول الله ﷺ قال: أولعت قريش بعمار ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قاتله وسالبه في النار قال السدي: فبلغني أن معاوية قال: إنما قتله من أخرجه يخدع بذلك طغام أهل الشام. وقال مالك الأشتر ذكره نصر:

نحن قتلنا حوشبا لما غدا قد أعلما
وذا الكلاع قبله ومعبداً إذ أقدما
أن تقتلوا منا أبا الـ ـيقظان شيخاً مسلما
فقد قتلنا منكم سبعين رأساً مجرما
أضحوا بصفين وقد لاقوا نكالا مؤتما

وقال عمرو بن العاص:

ونحن قتلنا هاشماً وابن ياسر ونحن قتلنا ابني بديل تعسفا

وبعث علي خيلاً ليحبسوا عن معاوية مادة فبعث معاوية الضحاك بن قيس الفهري في خيل إلى تلك الخيل فأزالوها وجاءت عيون علي فأخبرته بما قد كان فقال لأصحابه: ما ترون فاختلفوا فلما رأى اختلافهم أمرهم بالغدو إلى القوم فغاداهم القتال فانهزم أهل الشام وغلب أهل العراق على قتلى أهل حمص وغلب أهل الشام على قتلى أهل العالية وانهزم عتبة بن أبي سفيان عشرين فرسخاً عن موضع المعركة حتى أتى الشام فقال النجاشي من قصيدة أولها:

لقد أمعنت يا عتب الفرارا وأورثك الوغى خزياً وعارا

فلا يحمد خصاك سوى طمر إذا أجريته انهمر انهمارا

ثم إن علياً (ع) أمر مناديه فنادى في الناس أن اخرجوا إلى مصافكم فخرج الناس إلى مصافهم واقتتلوا وأقبل أبو الأعور السلمي يقول:

اضربهم ولا أرى علياً وكفى بهذا حزناً عليا

وقعة الخميس

قال نصر ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة الخميس قال القعقاع بن الأبرد الطهوي: والله إني لواقف قريباً من علي يوم وقعة الخميس وقد التفت مذحج وكانوا في ميمنة علي وعك وجذام ولخم والأشعرون كانوا مستبصرين في قتال علي، ولقد والله رأيت ذلك اليوم من قتالهم وسمعت من وقع السيوف على الرؤوس وخبط الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى ما الجبال تهد ولا الصواعق تصعق بأعظم هولاً في الصدور من ذلك الصوت نظرت إلى علي وهو قائم فدنوت منه فسمعته يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله والمستعان الله ثم نهض حين قام قائم الظهيرة وهو يقول: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، وحمل على الناس بنفسه وسيفه مجرد بيده فلا والله ما حجز بيننا وبينهم إلا رب العالمين في قريب من ثلث الليل وقتلت يومئذ أعلام العرب وكان في رأس علي ثلاث ضربات وفي وجهه ضربتان قال نصر وقد قيل إن علياً لم يجرح قط وقتل في هذا اليوم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين فقالت ابنته ضبيعة ترثيه:

عين جودي على خزيمة بالدمـ ــع قتيل الأحزاب يوم الفرات
قتلوا ذا الشهادتين عتوا أدرك اللّه منهم بالترات
قتلوه في فتية غير عزل يسرعون الركوب للدعوات
نصروا أحمد الموفق للعد ل ودانوا بذاك حتى الممات
لعن اللّه معشراً قتلوه ورماهم بالخزي والآفات

وروى نصر عن أبي سليمان الحضرمي وكان حضر صفين مع علي (ع) إن الفيلقين التقيا بصفين واضطربوا بالسيوف ليس معهم غيرها إلى نصف الليل. وعن زياد بن النضر وكان على مقدمة علي (ع) قال: شهدت مع علي بصفين فاقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام ثم صارت إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضاً وقد قاتلت يومئذ بجميع السلاح فلم يبق شيء من السلاح إلا قاتلت به حتى تحاثينا بالتراب وتكادمنا حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا إلى بعض ما يستطيع واحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه ولا يقاتل فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصفو وغلب علي (ع) على القتلى وأقبل على أصحاب محمد وأصحابه فدفنهم وقد قتل كثير منهم وقتل من أصحاب معاوية أكثر وقال عمرو بن العاص:

إذا تخازرت وما بي من خزر ثم خبأت العين من غير عور
ألفيتني الوى بعيد المستمر ذا صولة في المصمئلات الكبر
احمل ما حملت من خير وشر كالحية الصماء في أصل الصخر

وقال محمد بن عمرو بن العاص:

لو شهدت جمل مقامي وموقفي بصفين يوماً شاب منها الذوائب
غداة غدا أهل العراق كأنهم من البحر موج لجه متراكب
وجئناهم نمشي صفوفاً كأننا سحاب خريف صفقته الجنائب
فطار إلينا بالرماح كماتهم وطرنا إليهم والسيوف قواضب
فدارت رحانا واستدارت رحاهم سراة النهار ما تولى المناكب

إذا أنا قلت استهزموا برزت لنا كتائب حمر وأرجحنت كتائب
فقالوا نرى من رأينا أن تبايعوا علياً فقلنا بل نرى أن تضاربوا
فابنا وقد نالوا سراة رجالنا وليس لما لاقوا سوى اللّه حاسب
كأن تلالي البيض فينا وفيهم تلألؤ برق في تهامه ثاقب

فرد عليه محمد بن الحنفية:

لو شهدت جمل مقامك أبصرت مقام لئيم وسطته الكتائب
أتذكر يوماً لم يكن لك فخره وقد ظهرت فيها عليك الجلائب
وأعطيتمونا ما نقمتم أذلة على غير تقوى اللّه والدين واصب

وجاء علقمة بن تميم الأنصاري إلى علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إن عمرو بن العاص ينادي:

أنا الغلام القرشي المؤتمن الماجد الأبلج ليث كالشطن
يرضى بي الشام إلى أرض عدن يا قادة الكوفة من أهل الفتن
يا أيها الأشراف من أهل اليمن أضربكم ولا أرى أبا حسن
أعني علياً وابن عم المؤتمن كفى بهذا حزناً من الحزن

فضحك علي ثم قال: أما والله لقد حاد عدي الله عني وإنه لبمكاني عالم كما قال العربي (غير لو هي ترقعين وأنت مبصرة)[1] ويحكم أروني مكانه لله أبوكم وخلاكم ذم. وحمل غلامان من الأنصار جميعاً إخوان حتى انتهيا إلى سرادق معاوية فقتلا عنده وأقبلت الكتائب بعضها نحو بعض فاقتتلت قياماً في الركب لا يسمع السامع إلا وقع السيوف على البيض والدرق وقال عمرو بن العاص:

أجئتم إلينا تسفكون دماءنا وما رمتم وعر من الأمر أعسر
تعاورتم ضرباً بكل مهند إذا شد وردان تقدم قنبر

---

(١) الوهي بضم الواو والقصر جمع وهي وهو الفتق مثل يضرب لمن يعرف أمراً فيتجاهله ويتظاهر بخلافه. ـ المؤلف ـ

وردان عبده وقنبر غلام أمير المؤمنين (ع) وجاء عدي بن حاتم يلتمس علياً ما يطأ إلا على إنسان ميت أو قدم أو ساعد فوجده تحتَ رايات بكر بن وائل فقال: يا أمير المؤمنين ألا نقوم حتى نموت فقال علي (ع): ادن فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه فقال: ويحك إن عامة من معي يعصيني وإن معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه وقال عدي بن حاتم يوم صفين:

أقـول لـمـا إن رأيـت الـمـعـمـعـة   واجتـمـع الجـنـدان وسط البـلـقـعـة
هـذا عـلـي والـهـدى حـقـاً مـعـه   يـارب فـاحـفـظـه ولا تـضـيـعـه
فـإنـه يـخـشـاك رب فـارفـعـه   ومـن أراد غـيـه فـضـعـضـعـه

قال علي: وانفساه أيطاع معاوية وأعصى ما قاتلت أمة قط أهل بيت نبيها وهي مقرة بنبيها إلا هذه الأمة. ثم أن علياً (ع) أمر الناس أن يحملوا على أهل الشام فحملت خيل علي على صفوف أهل الشام فقوضت صفوفهم فقال عمرو يومئذ: على من هذا الرهج الساطع قيل: على ابنيك عبد الله ومحمد قال: يا وردان قدم لواءك فتقدم فأرسل إليه معاوية أن ليس على ابنيك بأس فلا تنقض الصف والزم موقفك فقال عمرو: هيهات هيهات:

الـلـيـث يـحـمـي شـبـلـيـه   مـا خـيـره بـعـد ابـنـيـه

فتقدم فلقي الناس وهو يحمل فأدركه رسول معاوية فقال: إنه ليس على ابنيك بأس فلا تحملن فقال له عمرو: قل له إنك لم تلدهما أنا ولدتهما وبلغ مقدم الصفوف. فقال له الناس: مكانك إنه ليس على ابنيك بأس إنهما في مكان حريز فقال: أسمعوني أصواتهما حتى أعلم أخيان هما أم قتيلان؟ ونادى يا وردان قدم لواءك قدر قيس قوسي ولك فلانة جارية له فتقدم بلوائه فأرسل علي إلى أهل الكوفة أن احملوا. وإلى أهل البصرة أن احملوا. فحمل الناس من كل جانب فاقتتلوا قتالاً شديداً فخرج رجل من أهل الشام فقال: من يبارز فخرج إليه رجل من أصحاب علي فاقتتلا ساعة ثم إن العراقي ضرب رجل الشامي فقطعها فقاتل ولم يسقط إلى الأرض ثم ضرب يده فقطعها فرمى الشامي بسيفه بيده اليسرى إلى أهل الشام وقال: دونكم سيفي هذا فاستعينوا به على عدوكم

فأخذوه فاشتراه معاوية من أولياء المقتول بعشرة آلاف. واقتتل الناس بعد المغرب قتالاً شديداً فما صلى كثير من الناس إلا إيماء. وكان رجل من أصحاب علي عليه السلام يدعى هاني بن نمر الحضرمي فخرج رجل من أهل الشام يطلب المبارزة فلم يخرج إليه أحد فقال: سبحان الله ما يمنعكم أن يخرج رجل منكم إلى هذا فلولا إني موعوك وإني أجد لذلك ضعفاً لخرجت إليه فما رد عليه أحد فوثب فقال أصحابه: سبحان الله تخرج وأنت موعوك قال: والله لأخرجن إليه ولو قتلني. فخرج وإذا هو رجل من قومه حضرموت وبينهما قرابة من قبل النساء فقال له: يا هاني ارجع فإنه إن يخرج إلي غيرك أحب إلي أني لست أريد قتلك قال له هاني: ما خرجت إلا وأنا موطن نفسي على القتل ما أبالي أنت قتلتني أو غيرك ثم مشى نحوه فقال: اللهم في سبيلك وسبيل رسولك ونصرة لابن عم نبيك. ثم اختلفا ضربتين فقتله هاني وشد أصحابه نحوه وشد أصحاب هاني نحوه ثم اقتتلوا وانفرجوا عن اثنين وثلاثين قتيلاً ثم أن علياً أرسل إلى الناس أن احملوا فحمل الناس على راياتهم كل قوم بحيالهم فتجالدوا بالسيوف وعمد الحديد لا يسمع إلا صوت الحديد ومرت الصلوات كلها ولم يصلوا إلا تكبيراً عند مواقيت الصلاة حتى تفانوا ورق الناس. قال عبد الرحمٰن بن حاطب خرجت التمس أخي سويداً في القتلى بصفين فإذا برجل قد أخذ بثوبي صريع في القتلى فالتفت فإذا بعبد الرحمٰن بن كلدة فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون هل لك في الماء قال: لا حاجة لي في الماء قد أنفذني السلاح وخرقني ولست أقدر على الشرب هل أنت مبلغ عني أمير المؤمنين رسالة؟ قلت: نعم قال: اقرأ عليه مني السلام وقل: يا أمير المؤمنين احمل جرحاك إلى عسكرك حتى تجعلهم من وراء القتلى فإن الغلبة لمن فعل ذلك. ثم لم أبرح حتى مات وأتيت علياً فأخبرته فاسترجع وأبلغته الرسالة قال: صدق والذي نفسي بيده. فنادى منادي العسكر إن احملوا جرحاكم إلى عسكركم ففعلوا فلما أصبح نظر إلى أهل الشام وقد ملوا الحرب. وكان علي إذا أراد القتال هلل وكبر ثم قال:

من أي يومي من الموت أفر ... أيوم ما قدر أم يوم قدر

وأقبل عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية الأعظم وهو يقول:

أنا ابن سيف اللّه ذاكم خالد ... اضرب كل قدم وساعد

بصارم مثل الشهاب الواقد ... انصر عمي إن عمي والدي

بالجهد لا بل فوق جهد الجاهد ... ما أنا فيما نابني براقد

فاستقبله جارية بن قدامة السعدي وهو يقول:

أثبت لصدر الرمح يا ابن خالد ... أثبت لليث ذي فلول حارد

من أسد خفان شديد الساعد ... ينصر خير راكع وساجد

من حقه عندي كحق الوالد ... ذاكم علي كاشف الأوابد

واطعنا ملياً ومضى عبد الرحمٰن وانصرف جارية وعبد الرحمٰن لا يأتي على شيء إلا أهمده وهو يقول:

إني إذا ما الحرب قرت عن كبر ... تخالني أخزر من غير خزر

أقحم والخطي في النقع كشر ... كالحية الصماء في رأي الحجر

أحمل ما حملت من خير وشر

فغم ذلك علياً وأقبل عمرو بن العاص في خيل من بعده فقال: أقحم يا ابن سيف الله فإنه الظفر. وأقبل الناس على الأشتر فقالوا: يوم من أيامك الأول وقد بلغ لواء معاوية حيث ترى فأخذ الأشتر لواء فحمل وهو يقول:

إني أنا الأشتر معروف الشتر ... إني أنا الأفعى العراقي الذكر

لا من ربيعة ولا حي مضر ... لكنني من مذحج الغر الغرر

فضارب القوم حتى ردهم على أعقابهم فرجعت خيل عمرو وقال النجاشي في ذلك:

رأينا اللواء لواء العقاب ... يقحمه الشانىء الأخزر

كليث العرين خلال العجاج ... وأقبل في خيله الأبتر

دعونا لها الكبش كبش العراق ... وقد خالط العسكر العسكر

فـرد الـلـواء عـلـى عـقـبـه وفـاز بـحـظـوتـهـا الأشـتـر
كـمـا كـان يـفـعـل فـي مـثـلـهـا إذا الـنـاب مـعـصـوصـب مـنـكـر
فـإن يـدفـع الـلّـه عـن نـفـسـه فـحـظ الـعـراق بـهـا الأوفـر
إذا الأشـتـر الـخـيـر خـلـى الـعـراق فـقـد ذهـب الـعـرف والـمـنـكـر
وتـلـك الـعـراق ومـن عـرقـت كـفـقـع تـبـيـنـه الـقـرقـر

ولما رد لواء معاوية ورجعت خيل عمرو انتدب همام بن قبيصة وكان من أشتم الناس لأمير المؤمنين عليه السلام ومعه لواء هوازن فقصد لمذحج وهو يقول:

إنـي إذا مـا دعـيـت نـزال أقـدم إقـدام الـهـزبـر الـعـالـي
أهـل الـعـراق إنـكـم مـن بـالـي كـل تـلادي وطـريـف مـالـي
حـتـى أنـال فـيـكـم الـمـعـالـي أو أطـعـم الـمـوت وتـلـكـم حـالـي
فـي نـصـر عـثـمـان ولا أبـالـي

فقال عدي بن حاتم لصاحب لوائه ادن مني فأخذه وحمل وهو يقول:

يا صاحب الصوت الرفيع العالي إن كنت تبغي في الوغى نزالي
فـادن فـإنـي كـاشـف عـن حـالـي تـفـدي عـلـيـاً مـهـجـتـي ومـالـي
وأسـرتـي يـتـبـعـهـا عـيـالـي

فضربه وسلب لواءه. ثم حمل خزيمة بن ثابت وهو يقول:

قـد مـر يـومـان وهـذا الـثـالـث هـذا الـذي يـلـهـث فـيـه الـلاهـث
هـذا الـذي يـبـحـث فـيـه الـبـاحـث كـم ذا يـرجـي أن يـعـيـش الـمـاكـث
الـنـاس مـوروث ومـنـهـم وارث هـذا عـلـي مـن عـصـاه نـاكـث

فقاتل حتى قتل ثم خرج خالد بن خالد الأنصاري وهو يقول:

هـذا عـلـي والـهـدى أمـامـه هـذا لـوا نـبـيـنـا قـدامـه
يـقـحـمـه فـي نـقـعـه إقـحـامـه لا جـبـنـه نـخـشـى ولا آثـامـه

فطعن ساعة ثم رجع. ثم حمل جندب بن زهير وهو يقول:

هذا علي والهدى حقاً معه | يا رب فاحفظه ولا تضيعه
فإنه يخشاك رب فارفعه | نحن نصرناه على من نازعه
صهر النبي المصطفى قد طاوعه | أول من بايعه وتابعه

وأقبل الأشتر يضرب بسيفه وهو يقول:

اضربهم ولا أرى معاوية | إلا خزر العين العظيم الحاوية
هوت به في النار أم هاوية | جاوره فيها كلاب عاوية
أغوى طعاماً لا هداه هاديه | أول من بايعه وتابعه

هكذا ذكر نصر ولكنه في موضع آخر نسب هذا الرجز إلى أبي مجزاة بن ثور الربعي وسيأتي نسبة الشطور الثلاثة الأول إلى علي، عليه السلام واختلط أمر الناس حتى ترك أهل الرايات مراكزهم وتفرق الناس عن علي فأتى ربيعة ليلاً فكان فيهم وتعاظم الأمر وأقبل عدي بن حاتم يطلب علياً في موضعه الذي تركه فيه فلم يجده فطاف يطلبه فأصابه في مصاف ربيعة فقال: يا أمير المؤمنين أما إذا كنت حياً فالأمر أمم ما مشيت إليك إلا على قتيل وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميداً فقاتل حتى يفتح الله عليك فإن في الناس بقية بعد وأقبل الأشعث يلهث جزعاً فلما رأى علياً هلل وكبر وقال: يا أمير المؤمنين خيل كخيل ورجال كرجال ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه فعد إلى مقامك الذي كنت فيه فإن الناس إنما يظنونك حيث تركوك. وأرسل سعيد بن قيس: إنا مشتغلون بأمرنا مع القوم وفينا فضل فإن أردت أن نمد أحداً أمددناه. فأقبل علي على ربيعة فقال: أنتم درعي ورمحي قال نصر فربيعة تفتخر بهذا الكلام إلى اليوم. فقال عدي بن حاتم: يا أمير المؤمنين إن قوماً أنست بهم وكنت فيهم في هذه الجولة لعظيم حقهم علينا والله إنهم لصبرٍ عند الموت أشداء عند القتال. وركب علي (ع) فرسه الذي كان لرسول الله ﷺ وكان يقال له المرتجز فتقدم أمام الصفوف ثم قال: بل البغلة فقدمت له بغلة رسول الله ﷺ فركبها ثم تعصب بعمامة رسول الله السوداء ثم نادى: أيها الناس من يشري نفسه لله يربح. هذا يوم له ما بعده إن عدوكم قد قرح كما قرحتم فانتدب له من بين العشرة آلاف إلى اثني

عشر ألفاً وضعوا سيوفهم على عواتقهم وتقدمهم علي على بغلة رسول الله ﷺ وهو يقول:

دبوا دبيب النمل لا تفوتوا ... وأصبحوا بحربكم وبيتوا

حتى تنالوا الثار أو تموتوا ... أولا فإني طالما عصيت

قد قلتم لو جئتنا فجيت ... ليس لكم ما شئتم وشيت

بل ما يريد المحيي المميت

وتبعه عدي بن حاتم بلوائه وهو يقول:

أبعد عمار وبعد هاشم ... وابن بديل فارس الملاحم

نرجو البقاء مثل حلم الحالم ... وقد عضضنا أمس بالأباهم

فاليوم لا نقرع سن نادم ... ليس امرؤ من يومه بسالم

وتقدم الأشتر وهو يقول:

حرب بأسباب الردى تأجج ... يهلك فيها البطل المدجج

يكفيكها همدانها ومذحج ... روحوا إلى اللّه ولا تعرجوا

دين قويم وسبيل منهج

وحمل الناس حملة واحدة فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض وأهمدوا ما أتوا عليه حتى أفضى الأمر إلى مضرب معاوية وعلي يضربهم بسيفه وهو يقول:

أضربهم ولا أرى معاوية ... الأخزر العين العظيم الحاوية

هوت به في النار أم هاوية

فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه فلما وضع رجله في الركاب تمثل بقول عمرو بن الأطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

لا دفع عن مآثر صالحات واحمي بعد عن عرض صحيح
بذي شطب كلون الملح صاف ونفس ما تقر على القبيح

وقال: يا ابن العاص اليوم صبر وغداً فخر. فقال عمرو: صدقت وثنى رجله من الركاب فنزل فاستصرخ بعك والأشعرين فوقفوا دونه وجالدوا عنه حتى كره كل من الفريقين صاحبه وتحاجز الناس. ثم إن معاوية لما أسرع أهل العراق في أهل الشام قال: هذا يوم تمحيص إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم اصبروا يومكم هذا وخلاكم ذم. وحضض علي أصحابه فقام إليه الأصبغ بن نباتة التميمي فقال: يا أمير المؤمنين إنك جعلتني على شرطة الخميس وقدمتني في الثقة دون الناس وإنك اليوم لا تفقد لي صبراً ولا نصراً أما أهل الشام فقد هدهم ما أصبنا منهم ونحن ففينا بعض البقية فاطلب بنا أمرك وائذن لي في التقدم فقال: تقدم بسم الله. وأقبل الأحنف بن قيس السعدي فقال: يا أهل العراق والله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقاً منه اليوم قد كشف القوم عنكم قناع الحياء وما يقاتلون على دين وما يصبرون إلا حياء فتقدموا فقالوا: إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس فما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: تقدموا في موضع التقدم وتأخروا في موضع التأخر تقدموا من قبل أن يتقدموا إليكم وحمل أهل العراق وتلقاهم أهل الشام فاجتلدوا.

نكول معاوية عن مبارزة علي يوم صفين

روى نصر بن مزاحم في كتاب صفين: إنه أرسل علي إلى معاوية إن أبرز إلي واعف الفريقين من القتال: فأينا قتل صاحبه كان الأمر له، قال عمرو: لقد أنصفك الرجل فقال معاوية: إني لأكره أن أبارز الأهوج الشجاع لعلك طمعت فيها يا عمرو؟ (وروى) في موضع آخر إن علياً عليه السلام قام بين الصفين ثم نادى: يا معاوية يكررها فقال معاوية: اسألوه ما شأنه؟ قال: أحب أن يظهر لي فأكلمه كلمة واحدة. فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص فلما قارباه لم يلتفت إلى عمرو وقال لمعاوية: ويحك علام يقتتل الناس بيني وبينك أبرز إلي فأينا قتل

صاحبه فالأمر له، فالتفت معاوية إلى عمرو فقال: ما ترى يا أبا عبد اللّه أبارزه؟ فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل واعلم إنك إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي، فقال معاوية: يا عمرو ليس مثلي يخدع عن نفسه والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه. ثم انصرف معاوية راجعاً إلى آخر الصفوف وعمرو معه، وقال معاوية: ويحك يا عمرو ما أحمقك أتراني أبرز إليه ودوني عك والأشعرون وجذام؟ وحقدها معاوية على عمرو وقال: ما أظنك يا عمرو إلا مازحاً فلما جلس معاوية مجلسه أقبل عمرو حتى جلس فقال معاوية:

يا عمرو إنك قد قشرت لي العصا ... برضاك في وسط العجاج برازي
ولقد أعدت فقلت مزحة مازح ... والمزح يحمله مقال الهازي
فإذا الذي منتك نفسك خالياً ... قتلي جزاك بما نويت الجازي

فقال له عمرو: أيها الرجل أتجبن عن خصمك وتتهم نصيحك وقال مجيباً له:

معاوي إن نكلت عن البراز ... لك الويلات فانظر في المخازي
وما ذنبي بأن نادى علي ... وكبش القوم يدعى للبراز
فلو بارزته بارزت ليثاً ... حديد الناب ينفذ كل بازي
وتزعم أنني أضمرت غشاً ... جزاني بالذي أضمرت جازي
أضبع في العجاجة يا ابن هند ... وعند الباه كالتيس الحجازي

تعرض عمرو بن العاص لعلي وكشفه سوأته

قيل: كان السبب في ذلك إن الحارث بن نصر الجشمي كان عدواً لعمرو بن العاص وكان عمرو قلما يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحارث فقال الحارث في ذلك:

ليس عمرو تبارك ذكره الحر ... ب مدى الدهر أو يلاقي علياً
واضع السيف فوق منكبه الأيـ ... ـمن لا يحسب الفوارس شيا

ليس عمرو يلقاه في حمس النقـ ـع وقد صارت السيوف عصيا
فوق شهب مثل السحوق من النخـ ـل ينادي المبارزين إليا
ثم يا عمرو تستريح من الفخـ ـر وتلقى به فتى هاشميا
فالقه إن أردت مكرمة الدهـ ـر أو الموت كل ذاك عليا

فلما سمع عمرو شعره قال: والله لو علمت أني أموت ألف موتة لبارزت علياً في أول ما ألقاه، وقيل: إن عمراً حمل معلماً وهو يقول:

شدوا علي شكتي لا تنكشف يوم لهمدان ويوم للصدف[1]
وفي تميم نخوة لا تنحرف أضربها بالسيف حتى تنصرف
ومثلها لحمير أو ترف والربعيون لهم يوم عصف

فاعترضه علي (ع) وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل والخصر والأنامل الطفول
أحمي وأرمي أول الرعيل بصارم ليس بذي فلول

وقيل إن عمراً تعرض لعلي في يوم من أيام صفين وظن أنه يطمع منه في غرة فيصيبه فحمل عليه (ع) فلما كاد أن يخالطه رمى نفسه عن فرسه ورفع ثوبه وشغر برجله فبدت عورته فصرف علي وجهه عنه وقام معفراً بالتراب هارباً على رجليه معتصماً بصفوفه فقال القوم: أفلت الرجل يا أمير المؤمنين قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا، قال: فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه، ورجع عمرو إلى معاوية فقال له: ما صنعت يا عمرو؟ قال: لقيني علي فصرعني، قال: فاحمد الله وعورتك أما والله إن لو عرفته ما أقحمت عليه. وقال معاوية في ذلك شعراً:

ألا لله من هفوات عمرو يعاتبني على تركي برازي
فقد لاقى أبا حسن علياً فآب الوائلي مآب خازي
فلو لم يبد عورته للاقى به ليثاً يذلل كل نازي

---

(١) الصدف اسم قبيلة.

لـه كـف كـأن بـراحـتـيـهـا ... منايا القوم يخطف خطف بازي

فـإن تـكـن الـمـنـيـة أخـطـأتـه ... فـقـد غـنـى بـهـا أهـل الـحـجـاز

فغضب عمرو وقال: ما أشد تعظيمك علياً في أمري هذا هل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه أفترى السماء قاطرة لذلك دماً؟ قال: ولكنها تعقبك جنباً.

قال نصر: ولما شمت معاوية بعمرو قال عمرو في ذلك:

معـاوي لا تـشـمـت بـفـارس بـهـمـة ... لـقـي فـارسـاً لا تـعـتـريـه الـفـوارس

معاوي إن أبصرت في الخيل مقبلاً ... أبـا حـسـن يـهـوي دهـتـك الـوسـاوس

وأيـقـنـت إن الـمـوت حـق وإنـه ... لـنـفـسك إن لـم تـمـض فـي الـركـض خـالـس

فـإنـك لـو لاقـيـتـه كـنـت بـومـة ... أتـيـح لـهـا صـقـر مـن الـجـو آنـس

ومـاذا بـقـاء الـقـوم بـعـد اخـتـبـاطـه ... وإن امـرأ يـلـقـي عـلـيـاً لآيـس

دعـاك فـصـمَّـت دونـه الأذن هـاربـا ... بنفسك قد ضاقت عليها الأمالسُ

وتـشـمـت بـي إن نـالـنـي حـد رمـحـه ... وعـضـعـضـنـي نـاب مـن الـحـرب نـاهـس

أبـى الـلّـه إلا أنـه لـيـث غـابـة ... أبـو الـشـبـل تـهـدى إلـيـه الـفـرائـس

وإنـي امـرؤ بـاق فـلـم يـلـف شـلـوه ... بـمـعـتـرك تـسـفـي عـلـيـه الـروامـس

فـإن كـنـت فـي فـانـهـج عـجـاجـة ... وإلا فـتـلـك الـتـرهـات الـبـسـابـس

ثم إن علياً غلس بالناس بصلاة الفجر ثم زحف بهم فخرج الناس على راياتهم وأعلامهم وزحف إليهم أهل الشام فقال أبرهة بن الصباح بن أبرهة الحميري: ويلكم يا معشر أهل اليمن والله أني لأظن قد أذن بفنائكم ويحكم خلوا بين هذين الرجلين فليقتتلا فأيهما قتل صاحبه ملنا معه جميعاً، وكان من رؤساء أصحاب معاوية، فبلغ ذلك علياً فقال: صدق أبرهة، وبلغ معاوية كلام أبرهة فتأخر آخر الصفوف وقال لمن حوله: إني لأظن أبرهة مصاباً في عقله، فقال أهل الشام: والله إن أبرهة لأفضلنا ديناً ورأياً وبأساً، ولكن معاوية كره مبارزة علي فقال أبرهة في ذلك:

لـقـد قـال ابـن أبـرهـة مـقـالاً ... وخـالـفـه مـعـاويـة بـن حـرب

وكـم بـيـن الـمـنـادي مـن بـعـيـد ... ومن يغشى الحروب بكل عضب

أيهجرني معاوية بن حرب | وما هجرانه سخطاً لربي
وعمرو إن يفارقني بقول | فإن ذراعه بالغدر رحب
وإني إن أفارقهم بديني | لفي سعة إلى شرق وغرب

وبرز يومئذ عروة بن داود الدمشقي فقال: إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلم إلي، فتقدم إليه علي فقال له أصحابه: ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر، فقال: والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه. ثم حمل عليه فضربه قطعتين سقطت إحداهما يمنة والأخرى يسرة وارتج العسكران لهول الضربة ثم قال: يا عروة اذهب فأخبر قومك أما والذي بعث محمداً بالحق لقد عانيت النار وأصبحت من النادمين. وقال ابن عم لعروة واسوء صباحاه قبح الله البقاء بعد أبي داود وحمل على علي فطعنه فضرب علي الرمح فبراه ثم قنعه ضربة فألحقه بأبي داود ومعاوية واقف على التل يبصر ويشاهد فقال: تباً لهذه الرجال وقبحاً أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع. فقال الوليد بن عقبة: أبرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته فقال: والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش وإني والله لا أبرز إليه، ما جعل العسكر بين يدي الرئيس إلا وقاية له فقال الوليد: الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه فقد علمتم أنه قتل حريثاً وفضح عمراً ولا أرى أحداً يتحكك به إلا قتله.

فعل بسر كفعل عمرو

فقال معاوية لبسر بن أرطاة أتقوم لمبارزته فقال: ما أحد أحق بها منك وإذا أبيتموه فإنا له فقال له معاوية: أما إنك ستلقاه في العجاجة غداً في أول الخيل وكان عند بسر ابن عم له قد قدم من الحجاز يخطب ابنته فأتى بسراً فقال له: إني سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز علياً أما تعلم أن الوالي بعد معاوية أخوه عتبة ثم أخوه محمد فما يدعوك إلى ذلك قال الحياء، خرج مني كلام فأنا أستحي أن أرجع عنه فضحك الغلام وقال:

تنازله يا بسر إن كنت مثله | وإلا فإن الليث للضبع آكل

كأنك يا بسر بن أرطاة جاهل ... بآثاره في الحرب أو متجاهل
معاوية الوالي وصنواه بعده ... وليس سواء مستعار وثاكل
أولئك هم أولى به منك إنه ... علي فلا تقربه أمك هابل
متى تلقه فالموت في رأس رمحه ... وفي سيفه شغل لنفسك شاغل

فقال بسر: هل هو إلا الموت لا بد والله من لقاء الله تعالى. فغدا علي منقطعاً من خيله ومعه الأشتر وهو يريد التل وهو يقول:

أنا علي فسلوا لتخبروا ... ثم ابرزوا إلى الوغى أو أدبروا
سيفي حسام وسناني أزهر ... منا النبي الطيب المطهر
وحمزة الخير ومنا جعفر ... له جناح في الجنان أخضر
وأسد اللّه وفيه مفخر ... هذا بهذا وابن هند محجر
مذبذب مطرد مؤخر

فاستقبله بسر قريباً من التل وهو مقنع في الحديد لا يعرف فناداه أبرز إلي أبا حسن فانحدر إليه علي على تؤدة غير مكترث به حتى إذا قاربه طعنه وهو دارع فألقاه على الأرض ومنع الدرع السنان أن يصل إليه فاتقاه بسر وقصد أن يكشف سوأته ليستدفع بأسه فانصرف عنه علي (ع) مستدبراً له فعرفه الأشتر حين سقط فقال: يا أمير المؤمنين هذا بسر بن أرطاة عدو الله وعدوك فقال: دعه عليه لعنة الله أبعد أن فعلها. فحمل ابن عم لبسر شاب على علي (ع) وهو يقول:

أرديت بسراً والغلام ثائره ... أرديت شيخاً غاب عنه ناصره

فحمل عليه الأشتر وهو يقول:

أكل يوم رجل شيخ شاغره ... وعورة وسط العجاج ظاهره
تبرزها طعنة كف واتره ... عمرو وبسر رميا بالفاقره

وطعنه الأشتر فكسر صلبه وقام بسر من طعنة علي وولت خيله وناداه علي: يا بسر معاوية كان أحق بهذا منك. ورجع إلى معاوية، فقال له معاوية: ارفع طرفك قد أدال الله عمراً منك وقال في ذلك النضر بن الحارث وفي شرح النهج الحارث بن نضر الجشمي أو الخثعمي:

أفي كل يوم فارس تندبونه | له عورة وسط العجاجة باديه
يكف بها عنه علي سنانه | ويضحك منها في الخلاء معاويه
بدت أمس من عمرو فقنع رأسه | وعورة بسر مثلها حذو حاذيه
فقولا لعمرو وابن أرطاة أبصرا | سبيلكما لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما | هما كانتا والله للنفس واقيه
فلولاهما لم تنجوا من سنانه | وتلك بما فيها عن العود ناهيه
متى تلقيا الخيل المشيحة صبحة | وفيها علي فاتركا الخيل ناحيه
وكونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا | نحوركما إن التجارب كافيه
وإن كان منه بعد في النفس حاجة | فعودا إلى ما شئتما هي ماهيه

وفي ذلك يقول المؤلف أيضاً من قصيدة:

لاقاه عمرو والأسنة شرع | لقيا الحمامة للعقاب الكاسر
وتلاه بسر ثم ما نجاهما | منه سوى فعل الخسيس الغادر
فثنى حياء عنهما وعفا ولم | يرهقهما فعل الكريم القادر

فكان بسر بعد ذلك إذا لقي الخيل التي فيها علي تنحى ناحية وتحامى فرسان أهل الشام علياً.

واجتمع ليلة عند معاوية بصفين عتبة بن أبي سفيان والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر بن طلحة الطلحات فقال عتبة: إن أمرنا وأمر علي لعجيب ليس منا إلا موتور له أما أنا فقتل جدي واشترك في دم عمومتي يوم بدر وأما أنت يا وليد فقتل أباك يوم بدر وأما أنت يا عبد الله فقتل أباك يوم الجمل وأيتم إخوتك وأما أنت يا مروان فكما قال الأول:

وأفلتهن علباء جريضا | ولو أدركنه صفر الوطاب

قال معاوية: هذا الإقرار فأين الغير؟ قال مروان: أي غير تريد قال: أريد أن يشجر بالرماح قال: والله إنك لهازل أو قد ثقلنا عليك فقال الوليد بن عقبة:

يقول لنا معاوية بن حرب | أما فيكم لواتركم طلوب

يشد علي أبي حسن علي بأسمر لا تهجنه الكعوب
فيهتك مجمع اللبات منه ونقع الحرب مطرد يثوب
فقلت له أتلعب يا ابن هند كأنك وسطنا رجل غريب
أتغرينا بحية بطن واد إذا نهشت فليس لها طبيب
وما ضبع يدب ببطن واد أتيح له به أسد مهيب
بأضعف حيلة منا إذا ما لقيناه وذا منا عجيب
دعا للقاه في الهيجاء لاق فأخطأ نفسه الأجل القريب
سوى عمرو وقته خصيتاه نجا ولقلبه منه وجيب
كأن القوم لما عاينوه خلال النقع ليس لهم قلوب
لعمر أبي معاوية بن حرب وما ظني ستلحقه العيوب
لقد ناداه في الهيجا علي فأسمعه ولكن لا يجيب

فغضب عمرو وقال: إن كان الوليد صادقاً فليلق علياً أو ليقف حيث يسمع صوته وقال عمرو:

يذكرني الوليد دعا علي ونطق المرء يملؤه الوعيد
متى تذكر مشاهده قريش يطر من خوفه القلب الشديد
فأما في اللقاء فأين منه معاوية بن حرب والوليد
وعيرني الوليد لقاء ليث إذا ما شد هابته الأسود
لقيت ولست أجهله علياً وقد بلت من العلق اللبود
فأطعنه ويطعنني خلاسا وماذا بعد طعنته أريد
فرمها منه يا ابن أبي معيط وأنت الفارس البطل النجيد
فأقسم لو سمعت ندا علي لطار القلب وانتفخ الوريد
ولو لاقيته شقت جيوب عليك ولطمت فيك الخدود

وروى الواقدي إن معاوية قال يوماً بعد استقرار الخلافة له لعمرو بن العاص: يا أبا عبد اللّه لا أراك إلا ويغلبني الضحك قال: بماذا قال: أذكر يوم حمل عليك أبو تراب في صفين فأذريت نفسك فرقاً من شبا سنانه وكشفت

سوأتك له فقال عمرو: أنا منك أشد ضحكاً إني لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك وربا لسانك في فمك وغصصت بريقك وارتعدت فرائصك وبدا منك ما أكره ذكره لك فقال معاوية: لم يكن هذا كله وكيف يكون ودوني عك والأشعرون قال: إنك لتعلم أن الذي وصفت دون الذي أصابك وقد نزل ذلك بك ودونك عك والأشعرون فكيف كانت حالك لو جمعكما مأقط الحرب، قال: يا أبا عبد اللّه خض بنا الهزل إلى الجد إن الجبن والفرار من علي لا عار على أحد فيهما.

مخادعة معاوية للأشعث

ودعا معاوية أخاه عتبة بن أبي سفيان وكان لا يطاق لسانه فقال: الق الأشعث بن قيس فإنه إن رضي رضيت العامة، فلقيه فقال: إن معاوية لو كان لاقياً رجلاً غير علي للقيك، إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل ولست كأصحابك أما الأشتر فقتل عثمان وأما عدي فحرض عليه وأما سعيد فقلد علياً دينه وأما شريح وزحر بن قيس فلا يعرفان غير الهوى وإنك حاميت عن أهل العراق تكرماً وحاربت أهل الشام حمية وقد بلغنا والله منك وبلغت منا ما أردت وإنا لا ندعوك إلى ترك علي ونصر معاوية ولكنا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا فقال الأشعث: أما قولك إن معاوية لا يلقى إلا علياً فإن لقيني لما عظم عني ولا صغرت عنه فإن أحب أن أجمع بينه وبين علي فعلت وأما قولك: إني رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن فإن الرأس المتبع والسيد المطاع هو علي بن أبي طالب وأما ما سلف من عثمان إلي فوالله ما زادني صهره شرفاً ولا عمله عزاً وأما عيبك أصحابي فإن هذا لا يقربك مني ولا يبعدني عنهم وأما محاماتي عن أهل العراق فمن نزل بيتاً حماه وأما البقية فلستم بأحوج إليها منا وسنرى رأينا فيها. فلما بلغ معاوية كلام الأشعث قال: يا عتبة لا تلقه بعدها فإن الرجل عظيم عند نفسه، وإن كان قد جنح للسلم وشاع في أهل العراق ما دار بين عتبة والأشعث فقال النجاشي يمدح الأشعث:

يـا ابـن قـيـس وحـارث ويـزيـد — أنـت والـلّـه رأس أهـل الـعـراق
أنـت والـلّـه حـيـة تـنـفـث الـسـم — قـلـيـل مـنـهـا غـنـاء الـراقـي
أنـت كـالـشـمـس والـرجـال نـجـوم — لا يـرى ضـوؤهـا مـع الإشـراق
قد حـمـيت الـعراق بـالأسل الـسمـ — ـر وبـالـبـيـض كـالـبـروق الـرقـاق
وأجـبـنـاك إذ دعـوت إلـى الـشـا — م على القب كـالـسحوق الـعتاق
وسـعـرنـا الـقـتـال فـي الـشـام بـالـبيـ — ـض الـمـواضـي وبـالـرمـاح الـدقـاق
وأدرنـا كـأس الـمـنـيـة فـي الـفـتـ — ـنـة بـالـضـرب والـطـعـام الـدفـاق
كـلـمـا قـلـت قـد تـصـرمـت الـهـيـ — ـجـاء سـقـيـتـهـا بـكـأس دهـاق
أنـت حـلـو لـن تـقـرب بـالـود — ولـلـشـامـتـيـن مـر الـمـذاق
بـئـس مـا ظـنـه ابـن هـنـد ومـن مـثـ — ـلـك لـلـنـاس عـنـد ضـيـق الـخـنـاق

مخادعة معاوية لابن عباس

فلما أيس معاوية من جهة الأشعث قال لعمرو بن العاص: إن رأس الناس بعد علي عبد اللّه بن عباس فلو ألقيت إليه كتاباً لعلك ترفقه به فإنه إن قال شيئاً لم يخرج علي منه وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل العراق إلا بهلاك أهل الشام. فقال له عمرو: إن ابن عباس لا يخدع ولو طمعت فيه طمعت في علي. فقال معاوية على ذلك فاكتب إليه، فكتب إليه عمرو: أما بعد فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء وأنت رأس هذا الجمع بعد علي فانظر فيما بقي ودع ما مضى فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياء ولا صبراً واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ولسنا نقول ليت الحرب عادت ولكنا نقول ليتها لم تكن وإن فينا من يكره القتال كما أن فيكم من يكرهه وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع أو مؤتمن مشاور وهو أنت. وكتب في أسفل الكتاب:

طـال الـبـلاء ومـا يـرجـى لـه آسـي — بـعـد الإلـه سـوى رفـق ابـن عـبـاس

يا ابن الذي زمزم سقيا الحجيج له | أعظم بذلك من فخر على الناس
انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة | للظهر ليس لها راق ولا آسي
إني أرى الخير في سلم الشآم لكم | واللّه يعلم ما بالسلم من باس
فيها التقى وأمور ليس يجهلها | إلا الجهول وما النوكي كأكياس

فأتى ابن عباس بالكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام فضحك وقال: قاتل الله ابن العاص ما أغراه بك يا ابن عباس أجبه وليرد عليه شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر. فكتب ابن عباس إلى عمرو: أما بعد فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء منك إنه مال بك معاوية إلى الهوى وبعته دينك بالثمن اليسير ثم خبطت بالناس في عشوة طمعاً في الملك فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع فإن كنت ترضي الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلي ابتدأها علي بالحق وانتهى فيها إلى العذر وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف وليس أهل العراق فيها كأهل الشام بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه وليس أنا وأنت فيها بسواء أردتُ الله وأردت أنت مصر فإن ترد شراً لا نسبقك به وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه ثم قال لأخيه الفضل: يا ابن أم أجب عمراً فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من خدع ووسواس | فاذهب فليس لداء الجهل من آسي
إلاّ تواتر طعن في نحوركم | يشجي النفوس ويشفي نخوة الراس
هذا الدواء الذي يشفي جماعتكم | حتى يطيعوا علياً وابن عباس
أما علي فإن اللّه فضله | بفضل ذي شرف عال على الناس
إن تعقلوا الحرب نعقلها مخيسة | أو تبعثوها فإنا غير أنكاس
قد كان منا ومنكم في عجاجتها | ما لا يرد وكل عرضة الباس
قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة | هذا بهذا وما بالحق من باس
لا بارك اللّه في مصر فقد جلبت | شراً وحظك منها حسوة الكاس

ثم عرض الشعر والكتاب على علي (ع) فقال: لا أراه يجيبك بشيء

بعدها أبداً إن كان يعقل ولعله يعود فتعود عليه. فلما انتهى الكتاب إلى عمرو أتى به معاوية فقال: أنت دعوتني إلى هذا ما كان أغناني وإياك عن بني عبد المطلب. فقال: إن قلب ابن عباس وقلب علي قلب واحد وكلاهما ولدا عبد المطلب وإن كان قد خشن فقد لان وإن كان قد تعظم وعظم صاحبه فلقد قارب وجنح إلى السلم. وكان معاوية يكاتب ابن عباس فيجيبه بقول لين وذلك قبل أن تعظم الحرب فلما قتل أهل الشام قال معاوية إن ابن عباس رجل قريش وأنا كاتب له في عداوة بني هاشم لنا وأخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا فكتب إليه: أما بعد فإنكم يا معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان حتى إنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه فإن يكن ذلك كراهة لسلطان بني أمية فقد وليها عدي وتيم وأظهرتهم لهم الطاعة وقد أكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم وما آيسكم منا آيسنا منكم ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حد أمس ولا غداً بأحد من حد اليوم وقد قنعنا بما كان في أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق وابقوا على قريش فإنما بقي من رجالها ستة رجلان بالشام أنا وعمرو ورجلان بالعراق أنت وعلي ورجلان بالحجاز سعد وابن عمر واثنان من الستة ناصبان لك واثنان واقفان وأنت رأس هذا الجمع اليوم ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع. فلما انتهى الكتاب إلى ابن عباس أسخطه ثم قال: حتى متى يخطب إلي عقلي وحتى متى أجمجم على ما في نفسي؟ فكتب إليه: أما ما ذكرت من سرعتنا بالمساءة في أنصار ابن عفان وكراهتنا لسلطان بني أمية فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره حتى صرت إلى ما صرت إليه وبيني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة وأما طلحة والزبير فنقضا البيعة وطلبا الملك فقاتلناهما على النكث وقاتلناك على البغي وأما قولك: إنه لم يبق من قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها قد قاتلك من خيارها من قاتلك ولم يخذلنا إلا من خذلك وقد بقي لك منا يوم ينسيك ما قبله ويخاف ما بعده وأما قولك: إنه لو بايع الناس لي لاستقامت لي

فقد بايع الناس علياً وهو خير مني فلم يستقيموا له وما أنت يا معاوية والخلافة وأنت طليق وابن طليق. فلما انتهى الكتاب إلى معاوية قال: هذا عملي بنفسي والله لا أكتب إليه كتاباً سنة وقال معاوية في ذلك:

دعوت ابن عباس إلى جل خطة ... وكان امرأ أهدي إليه رسائلي
فأخلف ظني والحوادث جمة ... وما زاد أن أغلى عليه مراجلي
فأبرق وأرعد ما استطعت فإنني ... إليك بما يشجيك سبط الأنامل

فقال الفضل بن عباس يجيبه على ذلك:

ألا يا ابن هند إنني غير غافل ... وإنك ما تسعى له غير نائل
وأيقنت أنا أهل حق وإنما ... دعوت لأمر كان أبطل باطل
دعوت ابن عباس إلى السلم خدعة ... وليس لها حتى تدين بسائل
فلا سلم حتى تشجر الخيل بالقنا ... وتضرب هامات الرجال الأماثل
وآليت لا تهدي إليه رسالة ... إلى أن يحول الحول من رأس قابل
أردت به قطع الجواب وإنما ... رماك فلم يخطىء بنات المقاتل
وقلت له لو بايعوك تبعتهم ... فهذا علي خير حاف وناعل
وصي رسول اللّه من دون أهله ... وفارسه إن قيل هل من منازل

فعرض شعره على علي فقال: أنت أشعر قريش فضرب بها الناس إلى معاوية.

مقاتلة عك وهمدان

ولما اشتد القتال أرسل معاوية إلى عمرو أن قدم عكا والأشعرين إلى من بإزائهم فبعث عمرو إلى معاوية إني أقدم عكاً إلى همدان فأتاهم عمرو فقال: يا معشر عك إن علياً قد عرف إنكم حي أهل الشام فعبأ لكم حي أهل العراق همدان فاصبروا وهبوا لنا جماجمكم ساعة من النهار فقد بلغ الحق مقطعه فقال ابن مسروق العكي: أمهلوني حتى آتي معاوية فأتاه فقال: اجعل لنا فريضة ألفي رجل في ألفين ألفين ومن هلك فابن عمه مكانه لتقر اليوم عينك قال: ذلك لك

فرجع ابن مسروق إلى أصحابه فأخبرهم الخبر فقالت عك نحن لهمدان فتقدمت عك إلى همدان وفي ذلك يقول القائل:

همدان همدان وعك عك ... سيعلم اليوم من الأرك

وكانت على عك الدروع وليست عليهم رانات[1] فنادى سعيد بن قيس: يا لهمدان خدموا القوم أي اضربوا سوقهم والتخديم ضرب مكان الخدمة وهي الحجل فنادى أبو مسروق العكي: يا لعك بركا كبرك الكمل ثم رموا بحجر بين أيديهم وقالوا: لا نفر حتى يفر هذا الحكر وهم يقلبون الجيم كافاً وفي رواية أن عكاً قيدت أرجلها بالعمائم يوم صفين حتى لا تفر فبركوا تحت الحجف وشجروهم بالرماح وتقدم شيخ من همدان وهو يقول:

يا لبكيل لخمها وحاشد ... نفسي فداكم طاعنوا وجالدوا

حتى تخر منكم القماحد ... وأرجل تتبعها سواعد

بذاك أوصى جدكم والوالد

وتقدم رجل من عك وهو يقول:

يدعون همدان وندعو عكا ... إن خدم القوم فبركا بركا

لا تدخلوا نفسي عليكم شكا

فألقى القوم الرماح وساروا إلى السيوف وتجالدوا حتى أدركهم الليل فقالت همدان: يا معشر عك إنا والله لا ننصرف حتى تنصرفوا وقالت عك مثل ذلك فأرسل معاوية إلى عك أبروا قسم القوم فانصرفت عك ثم انصرفت همدان وقال عمرو في ذلك:

إن عكاً وحاشداً وبكيلا ... كأسود الضراب لاقت أسودا

وحبا القوم بالقنا وتساقوا ... بظبات السيوف موتاً عتيدا

يعلم الله ما رأيت من القو ... م ازوراراً ولا رأيت صدودا

---

(١) جمع ران وهو كالخف إلا أنه لا قدم له وهو أطول من الخف يحفظ به الساق. ـ المؤلف ـ.

غير ضرب فوق الطلى وعلى الها م وقرع الحديد يعلو الحديدا
ولقد قال قائل خدموا السو ق فخرت هناك عك قعودا
كبراك الجمال أثقلها الحمـ ـل فما تستقل إلا وئيدا

ولما اشترطت عك والأشعرون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم لم يبق من أهل العراق أحد في قلبه مرض إلا طمع في معاوية وشخص بصره إليه حتى فشا ذلك في الناس وبلغ علياً فساءه وجاء المنذر بن أبي حميضة الأوزاعي وكان فارس همدان وشاعرهم فقال: يا أمير المؤمنين إن عكاً والأشعرين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعقار فأعطاهم فباعوا الدين بالدنيا وإنا رضينا بالآخرة من الدنيا وبالعراق من الشام وبك من معاوية والله لآخرتنا خير من دنياهم ولعراقنا خير من شامهم ولأمامنا أهدى من إمامهم فامتحنا بالصبر واحملنا على الموت وقال:

إن عكاً سالوا الفرائض والأشـ ـعر سالوا جوائزاً بثنيه
تركوا الدين للعطاء وللفر ض فكانوا بذاك شر البريه
وسألنا حسن الثواب من اللّـ ـه وصبراً على الجهاد ونيه
فلكل ما ساله ونواه كلنا يحسب الخلاف خطيه
ولأهل العراق أحسن في الحر ب إذا ما تدانت السمهرية
ولأهل العراق أحمل للثقـ ـل إذا عمت البلاد بليه
ليس منا من لم يكن في اللّـ ـه ولياً يا ذا الولا والوصيه

فقال علي (ع): حسبك رحمك الله وأثنى عليه خيراً وعلى قومه وانتهى شعره إلى معاوية فقال: والله لأستميلن بالأموال ثقات علي ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياي آخرته.

حسن بلاء همدان بصفين

ولما أصبح الناس غدوا على مصافهم ونادى معاوية في أحياء اليمن فقال: عبوا كل فارس مذكور فيكم اتقوا به لهذا الحي من همدان فخرجت خيل عظيمة

فلما رآها علي عرف إنها عيون الرجال فنادى: يا لهمدان فأجابه سعيد بن قيس فقال علي: احمل فحمل حتى خالط الخيل بالخيل واشتد القتال وحطمتهم همدان حتى ألحقوهم بمعاوية فقال: ما لقيت من همدان وجزع جزعاً شديداً وأسرع في فرسان أهل الشام القتل وجمع علي همدان فقال: يا معشر همدان أنتم درعي ورمحي يا همدان ما نصرتم إلا الله ولا أجبتم غيره فقال سعيد بن قيس: أجبنا الله وأنت نصرنا نبي الله ﷺ في قبره وقاتلنا معك من ليس مثلك فارم بنا حيث أحببت وفي ذلك اليوم قال علي (ع):

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

فقال علي لصاحب لواء همدان: اكفني أهل حمص فإني لم ألق من أحد ما لقيت منهم فتقدم وتقدمت همدان وشدوا شدة واحدة على أهل حمص فضربوهم ضرباً شديداً متداركاً بالسيوف وعمد الحديد حتى ألجأوهم إلى قبة معاوية وارتجز رجل من همدان في أرحب فقال:

قد قتل اللّه رجال حمص حرصاً على المال وأي حرص
غروا بقول كذب وخرص قد نكص القوم وأي نكص
عن طاعة اللّه وفحوى النص

وحمل أهل حمص ورجل من كندة يقدمهم وهو يقول:

قد قتل اللّه رجال العاليه حتى يكونوا كرجال باليه
من عهد عاد وثمود الثاويه بالحجر أو يملكهم معاويه

ولما عبأ معاوية حماة الخيل لهمدان فردت خيله أسف فخرج بسيفه فحملت عليه فوارس همدان ففارقها ركضاً وانكسر حماة أهل الشام ورجعت همدان إلى مكانها.

دعاء معاوية مروان وعمراً لقتال الأشتر

ودعا معاوية مروان بن الحكم فقال: إن الأشتر قد غمني فاخرج بهذه الخيل في كلاع ويحصب فالقه فقاتل بها فقال مروان: ادع لها عمراً فإنه شعارك

دون دثارك قال: وأنت نفسي دون وريدي قال: لو كنت كذلك ألحقتني به في العطاء أو ألحقته بي في الحرمان ولكنك أعطيته ما في يديك ومنيته ما في يدي غيرك فإن غلبت طاب له المقام وإن غلبت خف عليه الهرب فقال معاوية: يغني الله عنك قال: أما اليوم فلا ودعا معاوية عمراً وأمره بالخروج إلى الأشتر فقال: والله إني لا أقول لك كما قال مروان قال: ولم تقوله وقد قدمتك وأخرته وأدخلتك وأخرجته قال عمرو: أما والله لئن كنت فعلت لقد قدمتني كافياً وأدخلتني ناصحاً وقد أكثر القوم عليك في أمر مصر وإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها فخرج عمرو في تلك الخيل فلقيه الأشتر أمام الخيل وهو يقول:

يا ليت شعري كيف لي بعمرو ذاك الذي أوجبت فيه نذري
ذاك الذي أطلبه بوتري ذاك الذي فيه شفاء صدري
ذاك الذي إن ألقه بعمري تغل به عند اللقاء قدري
أو لا فربي عاذري بعذري

فعرف عمرو أنه الأشتر فجبن وفشل واستحيا أن يرجع فأقبل نحو الصوت وهو يقول:

يا ليت شعري كيف لي بمالك كم فارس قتلته وفاتك
هذا وهذا عرضة المهالك

فلما غشيه الأشتر بالرمح راغ عنه عمرو فطعنه الأشتر في وجهه فلم يصنع شيئاً وثقل عمرو فأمسك على وجهه وثنى عنان فرسه ورجع راكضاً إلى المعسكر. ونادى غلام من يحصب يا عمرو عليك العفا ما هبت الصبا يا لحمير هاتوا اللواء فأخذه وكان غلاماً شاباً وهو يقول:

إن يك عمرو قد علاه الأشتر بأسمر فيه سنان أزهر
فذاك والله لعمري مفخر يا عمرو يكفيك الطعان حمير
واليحصبي بالطعان أمهر دون اللواء اليوم موت أحمر

فنادى الأشتر ابنه إبراهيم خذ اللواء فغلام لغلام فأخذه إبراهيم وتقدم وهو يقول:

يـا أيـهـا الـسـائـل عـنـي لا تـرع — أقـدم فـإنـي مـن عـرانـيـن الـنـخـع
كـيـف تـرى طـعـن الـعـراقـي الـجـذع — أطـيـر فـي يـوم الـوغـى ولا أقـع
مـا سـاءكـم سـر ومـا ضـر نـفـع — أعـددت ذا الـيـوم لـهـول الـمـطـلـع

وحمل على الحميري فالتقاه الحميري بلوائه ورمحه ولم يبرحا يطعن كل واحد منهما صاحبه حتى سقط الحميري قتيلاً وشمت مروان بعمرو وغضب القحطانيون على معاوية وقالوا: تولي علينا من لا يقاتل معنا ولا رجلاً منا وإلا فلا حاجة لنا فيك فقال لهم معاوية: لا أولي عليكم بعد موقفي هذا إلا رجلاً منكم. ولما أسرع أهلِ العراق في أهل الشام قال معاوية: هذا يوم تمحيص إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيكم فاصبروا وكونوا كراماً وحرض علي أصحابه فقام إليه الأصبغ بن نباتة فقال: يا أمير المؤمنين إنك جعلتني على شرطة الخميس وقدمتني في الثقة دون الناس (أو فقدمني في البقية من الناس) فإنك لا تفقد لي اليوم صبراً ولا نصراً أما أهل الشام فقد هدهم ما أصبنا منهم وأما نحن ففينا بعض البقية ائذن لي فأتقدم قال: تقدم باسم الله والبركة فتقدم وأخذ الراية ومضى بها ورجع وقد خضب سيفه ورمحه دماء وكان شيخاً ناسكاً عابداً وكان من ذخائر علي وممن بايعه على الموت وكان من فرسان أهل العراق وكان علي (ع) يضن به على الحرب والقتال. وكانوا قد ثقلوا عن البراز حين عضتهم الحرب فقال الأشتر: يا أهل العراق أما من رجل يشري نفسه لله.

تبارز الأب وابنه

فخرج أثال بن حجل فنادى بين العسكرين هل من مبارز فدعا معاوية حجلاً فقال: دونك الرجل وكانا مستبصرين في رأيهما فبرز كل واحد منهما إلى صاحبه فبدره الشيخ بطعنة فطعنه الغلام وانتمى فإذا هو ابنه فنزلا فاعتنق كل واحد منهما صاحبه وبكيا فقال له الأب: بني أثال هلم إلى الدنيا فقال له الغلام: يا أبة هلم إلى الآخرة والله يا أبة لو كان من رأيي الانصراف إلى أهل الشام لوجب عليك أن يكون من رأيك لي أن تنهاني وا سوأتا ماذا أقول لعلي

وللمؤمنين الصالحين: كن على ما أنت عليه وأنا أكون على ما أنا عليه وانصرف حجل إلى أهل الشام وانصرف أثال إلى أهل العراق فخبر كل واحد منهما أصحابه وقال في ذلك حجل:

إن حجل بن عامر وأثالا ... أصبحا يضربان في الأمثال
أقبل الفارس المدجج في النقـ ... ـع أثال يدعو يريد نزالي
دون أهل العراق يخطر كالفحـ ... ـل على ظهر هيكل ذيال
فدعاني له ابن هند وما زا ... ل قليلاً في صحبه أمثالي
فتناولته ببادرة الرمـ ... ـح وأهوى بأسمر عسال
فاطعنا وذاك من حدث الدهـ ... ـر عظيم فتى لشيخ بحال
شاجراً بالقناة صدر أبيه ... وعظيم علي طعن أثال
لا أبالي حين اعترضت أثالا ... وأثال كذلك ليس يبالي
فافترقنا على السلامة والنفـ ... ـس يقيها مؤخر الآجال
لا يراني على الهدى وأراه ... من هدانا على سبيل ضلال

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق قال ابنه أثال مجيباً له وكان مجتهداً مستبصراً:

إن طعني وسط العجاجة حجلا ... لم يكن في الذي نويت عقوقا
كنت أرجو به الثواب من اللّه ... وكوني مع النبي رفيقا
لم أزل أنصر العراق من الشام ... أراني بفعل ذاك حقيقا
قال أهل العراق إذ عظم الخطـ ... ـب ونق المبارزون نقيقا
من فتى يأخذ الطريق إلى اللّـ ... ـه فكنت الذي أخذت الطريقا
حاسر الرأس لا أريد سوى المو ... ت أرى الأعظم الجليل دقيقا
فإذا فارس تقحم في النقع ... خدبا مثل السحوق فنيقا
فبداني حجل ببادرة الطعـ ... ـن وما كنت قبلها مسبوقا
فتلقيته بعالية الرمـ ... ـح كلانا يطاول العيوقا
أحمد اللّه ذا الجلالة والقد ... رة حمداً يزيدني توفيقا

لـم أنـل قـتـلـه بـبـادرة الـطـعـ ـنـة مـنـي ولـم أكـن مـفـروقـا
قلـت لـلـشيـخ لـسـت أكـفـرك الـدهـ ـر لـطـيـف الـغـذاء والـتـفـنـيـقـا
غـيـر أنـي أخـاف أن تـدخـل الـنـا ر فـلا تـعـصـنـي وكـن لـي رفـيـقـا
وكـذا قـال لـي فـغـرب تـغـريـ ـبـا وشـرقـت راجـعـاً تـشـريـقـا

ذم معاوية للأنصار

ودعا معاوية النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ومسلمة بن مخلد الأنصاري ولم يكن معه من الأنصار غيرهما فقال: يا هذان لقد غمني ما لقيت من الأوس والخزرج صاروا واضعي سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال حتى والله جبنوا أصحابي الشجاع والجبان أو حتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قالوا: قتله الأنصار أما والله لألقينهم بجدي وحديذي ولأعين لكل فارس منهم فارساً ينشب في حلقه ثم لأرمينهم بأعدادهم من قريش رجال لم يغذهم التمر والطفيشل[1] يقولون: نحن الأنصار قد والله آووا ونصروا ولكن أفسدوا حقهم بباطلهم فغضب النعمان فقال: يا معاوية لا تلومن الأنصار بسرعتهم في الحرب فإنهم كذلك كانوا في الجاهلية وأما دعاؤهم إلى النزال فلقد رأيتهم مع رسول الله ﷺ وأما لقاؤك إياهم في أعدادهم من قريش فقد علمت ما لقيت قريش منهم فإن أحببت أن ترى فيهم مثل ذلك آنفاً فافعل وأما التمر والطفيشل فإن التمر كان لنا فلما إن ذقتموه شاركتمونا فيه وأما الطفيشل فكان لليهود فلما أكلناه غلبناهم عليه كما غلبت قريش على السخينة[2] ثم تكلم مسلمة بن مخلد فقال: يا معاوية إن الأنصار لا تعاب أحسابها ولا نجداتها وأما غمهم إياك فقد والله غمونا ولو رضينا ما فارقونا وما فارقنا جماعتهم وإن في ذلك لما فيه من مباينة العشيرة ولكن حملنا ذلك ورجونا منك عوضه وأما التمر

(١) الطفيشل كسميذع مرق معروف.
(٢) السخينة كسفينة طعام رقيق يتخذ من دقيق كانت تتخذه قريش فعيرت به وصار لقباً لها قال الشاعر:
زعـمـت سـخـينـة أن سـتـغـلـب ربـهـا ولـيـغـلـبـن مـغـالـب الـغـلاب
فكما عير معاوية الأنصار بالطفيشل عيره النعمان بالسخينة.

والطفيشل فإنهما يجران عليك نسب السخينة والخرنوب[1] وانتهى الكلام إلى الأنصار فجمع قيس بن سعد الأنصاري الأنصار ثم قام خطيباً فيهم فقال: إن معاوية قد قال ما بلغكم وأجاب عنكم صاحبكم فلعمري لئن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه بالأمس وإن وترتموه في الإسلام لقد وترتموه في الشرك وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذي أنتم عليه فجدوا اليوم جداً تنسونه ما كان أمس وجدوا غداً جداً تنسونه ما كان اليوم فأنتم مع هذا اللواء الذي كان يقاتل عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل والقوم مع لواء أبي جهل والأحزاب وأما التمر فإنا لم نغرسه ولكن غلبنا عليه من غرسه وأما الطفيشل فلو كان طعامنا سمينا به كما سميت قريش السخينة ثم قال قيس بن سعد في ذلك شعراً:

يا ابن هند دع التوثب في الحر ... ب إذا نحن بالجياد سرينا
نحن من قد علمت فادن إذا شئـ ... ـت بمن شئت في العجاج إلينا
إن تشأ فارس له فارس منـ ... ـا وإن شئت باللفيف التقينا
أي هذين ما أردت فخذه ... ليس منا وليس منك الهوينا
ثم لا تنزع العجاجة حتى ... تنجلي حربنا لنا أو علينا
ليت ما تطلب الغداة أتانا ... أنعم الله بالشهادة عينا
إننا إننا الذين لدى الفتـ ... ـح شهدنا وخيبراً وحنينا
بعد بدر وتلك قاصمة الظهـ ... ـر واحد وبالنضير ثنينا
يوم الأحزاب فيه قد علم النا ... س شفينا من نحوكم واشتفينا

فلما بلغ شعره معاوية دعا عمرو بن العاص فقال: ما ترى في شتم الأنصار قال: أرى أن توعد ولا تشتم ما عسى أن تقول لهم: إذا أردت ذمهم ذم أبدانهم ولا تذم أحسابهم، قال معاوية: إن خطيب الأنصار قيس بن سعد يقوم كل يوم خطيباً وهو والله يريد أن يفنينا غداً إن لم يحبسه عنا حابس الفيل فما

---

(١) الخرنوب نمر الشوك الذي يوقد بالعراق شبيه بالكلى لا بالتفاح كما في بعض كتب اللغة أما الثمر الحلو الذي يتخذ منه الدبس ببلاد الشام فهو الخروب لا الخرنوب وبعض أهل اللغة خلط بينهما وليس بصحيح والخرنوب يؤكل في المجاعة وكأن قريشاً كانت تأكله فتعير به.

الرأي؟ قال: الرأي التوكل والصبر، فأرسل معاوية إلى رجال من الأنصار فعاتبهم فمشوا إلى قيس فقالوا: إن معاوية لا يريد شتمنا فكف عن شتمه فقال: إن مثلي لا يشتم ولكن لا أكف عن حربه حتى ألقى الله. وتحركت الخيل غدوة فظن قيس بن سعد أن فيها معاوية فحمل على رجل يشبهه فقنعه بالسيف فإذا هو غير معاوية، وحمل على آخر يشبهه أيضاً فضربه ثم انصرف، فلما تحاجز الفريقان شتمه معاوية شتماً قبيحاً وشتم الأنصار فغضب النعمان ومسلمة فأرضاهما بعدما هما أن ينصرفا إلى قومهما. ثم إن معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السلم فخرج فقال له: يا قيس ألستم معشر الأنصار تعلمون أنكم أخطأتم في خذل عثمان وقتلتم أنصاره يوم الجمل وأقحمتم خيولكم على أهل الشام بصفين فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم علياً لكانت واحدة بواحدة ولكنكم خذلتم حقاً ونصرتم باطلاً ثم لم ترضوا أن تكونوا كالناس حتى أعملتم في الحرب ودعوتم إلى البراز ثم لم ينزل بعلي أمر قط إلا هونتم عليه المصيبة ووعدتموه الظفر وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم فاتقوا الله في البقية. فضحك قيس ثم قال: ما كنت أراك يا نعمان تجترىء على هذه المقالة إنه لا ينصح أخاه من غش نفسه، وأنت والله الغاش الضال المضل، أما ذكرك عثمان فإن كانت الأخبار تكفيك فخذ عني واحدة: قتل عثمان من لست خيراً منه وخذله من هو خير منك، وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث، وأما معاوية فوالله إن لو اجتمعت عليه العرب لقاتلته الأنصار، وأما قولك: أنا لسنا كالناس فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله ﷺ نتقي السيوف بوجوهنا والرماح بنحورنا حتى جاءالحق وظهر أمر الله وهم كارهون، ولكن انظر يا نعمان: هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أو أعرابياً أو يمانياً مستدرجاً بغرور؟ أين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان الذين رضي الله عنهم؟ ثم هل ترى مع معاوية غيرك وصويحبك ولستما والله ببدريين ولا أحديين ولا لكما سابقة في الإسلام ولا آية في القرآن، ولعمري لئن شغبت علينا لقد شغب علينا أبوك (بشير إلى ما فعله أبوه يوم السقيفة)، وقال قيس في ذلك:

والراقصات بكل أشعث أغبر   خوص العيون تحثها الركبان

ما ابن المخلد ناسياً أسيافنا عمن نحاربه ولا النعمان
تركا العيان وفي العيان كفاية لو كان ينفع صاحبيه عيان

قال نصر: كان فارس أهل الكوفة الذي لا ينازع العكبر بن جدير الأسدي وفارس أهل الشام الذي لا ينازع عوف بن مجزاة المرادي المكنى أبا أحمر، وهو أبو الذي استنقذ الحجاج بن يوسف يوم صرع في المسجد بمكة، وكان العكبر له عبادة ولسان لا يطاق، فقام إلى علي (ع) وقال: يا أمير المؤمنين إن في أيدينا عهداً من الله لا نحتاج فيه إلى الناس وقد ظننا بأهل الشام الصبر وظنوا بنا فصبرنا وصبروا وقد عجبت من صبر أهل الدنيا لأهل الآخرة ثم قرأت آية من كتاب الله فعلمت أنهم مفتونون: ﴿الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ فأثنى عليه علي خيراً وقال له خيراً. وخرج الناس إلى مصافهم وخرج المرادي نادراً من الناس وكذلك كان يصنع وقد كان قتل قبل ذلك نفراً مبارزة فنادى يا أهل العراق هل من رجل عصاه سيفه يبارزني ولا أغركم من نفسي فأنا فارس رؤوف فصاح الناس بالعكبر فخرج إليه منقطعاً من أصحابه والناس وقوف والمرادي يقول:

بالشام أمن ليس فيه خوف بالشام عدل ليس فيه حيف
أنا المرادي ورهطي روف أنا ابن مجزاة واسمي عوف
هل من عراقي عصاه سيف يبرز لي وكيف لي وكيف

فبرز إليه العكبر وهو يقول:

الشام محل والعراق تمطر بها الإمام والإمام معذر
أنا العراقي واسمي العكبر ابن جدير وأبوه المنذر
ادن فإني للكمي مصحر

فاطعنا فصرعه العكبر فقتله ومعاوية على التل في جماعة فوجه العكبر فرسه فملأ فروجه ركضاً يضربه بالسوط مسرعاً نحو التل فنظر إليه معاوية فقال: إن هذا الرجل مغلوب على عقله أو مستأمن اسألوه فأتاه رجل وهو في حمو

فرسه فناداه فلم يجبه فمضى حتى انتهى إلى معاوية وجعل يطعن في أعراض الخيل ورجا العكبر أن يفردوا له معاوية فقتل رجالاً وقام القوم دون معاوية بالسيوف والرماح فلما لم يصل إليه نادى أولى لك يا ابن هند وأنا الغلام الأسدي ورجع إلى علي فقال له: ما دعاك إلى ما صنعت يا عكبر؟ قال: أردت غرة ابن هند وكان شاعراً فقال:

قتلت المرادي الذي جاء باغياً ... ينادي وقد ثار العجاج نزال

يقول أنا عوف بن مجزاة والمنى ... لقاء ابن مجزاة بيوم قتال

فقلت له لما علا القوم صوته ... بليت بمشبوح اليدين طوال

فأوجرته في معظم النقع صعدة ... ملأت بها رعباً قلوب رجال

وقدمت مهري راكضاً نحو صفهم ... أعرقه في جريه بشمالي

أريد به التل الذي فوق رأسه ... معاوية الجاني لكل خبال

فلما رأوني أصدق الطعن فيهم ... جلا عنهم رجم الغيوب فعالي

فقام رجال دونه بسيوفهم ... وقام رجال دونه بعوالي

فلو نلته نلت التي ليس بعدها ... من الأمر شيء غير قيل وقال

ولو مت في نيل المنى ألف ميتة ... لقلت إذا ما مت لست أبالي

وانكسر أهل الشام لقتل المرادي وهدر معاوية دم العكبر فقال العكبر: يد الله فوق يد معاوية فأين دفاع الله عن المؤمنين. (قال نصر): وكانت طلائع أهل الشام وأهل العراق يلتقون فيما بين ذلك ويتناشدون الأشعار ويفخر بعضهم على بعض ويحدث بعضهم بعضاً على أمان، فالتقوا يوماً وفيهم النجاشي فتذاكروا رجراجة علي وخضرية معاوية، **فالأولى**: أربعة آلاف مجفف من همدان مع سعيد بن قيس الهمداني عليهم البيض والسلاح والدروع والرجراجة الكتيبة التي تموج من كثرتها أو تمخض في سيرها ولا تكاد تسير لكثرتها، **والثانية**: أربعة آلاف مع عبيد اللّه بن عمر عليهم ثياب خضر أو معلمون بالخضرة وتسمى الرقطاء أيضاً كما مر، فافتخر كل قوم بكتيبتهم وقالوا في ذلك الأشعار. (قال نصر): وجزع أهل الشام على قتلاهم جزعاً شديداً فقال معاوية بن خديج: يا

أهل الشام قبح الله ملكاً يملكه المرء بعد حوشب وذي الكلاع، فقال معاوية: يا أهل الشام ما جعلكم الله أحق بالجزع على قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم، فوالله ما ذو الكلاع فيكم بأعظم من عمار بن ياسر فيهم، ولا حوشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم، وما عبيد اللّه بن عمر فيكم بأعظم من ابن بديل فيهم، وما الرجال إلا أشباه، فأبشروا فإن الله قد قتل من القوم عمار بن ياسر وهو فتاهم، وهاشماً وكان جمرتهم، وابن بديل وهو فاعل الأفاعيل وبقي الأشعث والأشتر وعدي بن حاتم، فأما الأشعث فإنما حمى عنه مصره وأما الأشتر وعدي فغضبا للفتنة والله قاتلهما غداً، فقال ابن خديج: إن يكن الرجال عندك أشباهاً فليست عندنا كذلك وغضب ابن خديج. وروى نصر عن عمر بن سعد عن عبد الرحمٰن بن عبد اللّه أن عبد اللّه بن كعب قتل يوم صفين فمر به الأسود بن قيس بآخر رمق فقال: عز علي والله مصرعك أما والله لو شهدتك لآسيتك ولدافعت عنك ولو أعرف الذي أشعرك[1] لأحببت أن لا يزايلني حتى أقتله أو يلحقني بك ثم نزل إليه فقال: والله إن كان جارك ليأمن بوائقك وإن كنت لمن الذاكرين الله كثيراً أوصني رحمك الله قال: أوصيك بتقوى الله وأن تناصح أمير المؤمنين وأن تقاتل معه المحلين حتى يظهر الحق أو تلحق بالله وأبلغه عني السلام وقل له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك فإنه من أصبح والمعركة خلف ظهره كان الغالب، ثم لم يلبث أن مات فأقبل الأسود إلى علي فأخبره فقال: رحمه الله جاهد معنا عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة. وروى نصر إن معاوية جمع كل قرشي بالشام فقال: العجب يا معشر قريش إنه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطول به لسانه ما عدا عمراً فما بالكم أين حمية قريش؟ فغضب الوليد بن عقبة وقال: وأي فعال تريد؟ والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق من يغني عنا باللسان ولا باليد، فقال معاوية: بل إن أولئك وقوا علياً بأنفسهم، قال الوليد: كلا بل وقاهم علي بنفسه، قال: ويحكم

(١) كأنه من أشعر البدنة إذا جرحها في سنامها.

أما منكم من يقوم لقرنه منهم مبارزة أو مفاخرة؟ فقال مروان: أما البراز فإن علياً لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا لمحمد بنيه فيه ولا لابن عباس وإخوته ويصلي بالحرب دونهم فلأيهم نبارز؟ وأما المفاخرة فبماذا نفاخرهم أبالإسلام أم بالجاهلية؟ فإن كان بالإسلام فالفخر لهم بالنبوة، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن فإن قلنا قريش قالت العرب فأقروا لبني عبد المطلب.

ما جرى بين عتبة بن أبي سفيان وجعدة بن هبيرة

فقال عتبة بن أبي سفيان: أُلهوا عن هذا فإني لاق بالغداة جعدة بن هبيرة فقال معاوية: بخ بخ قومه بنو مخزوم وأمه أم هاني بنت أبي طالب وأبوه هبيرة بن أبي وهب كفو كريم. ونابذ معاوية الوليد بن عقبة فأغلظ له الوليد وظهر العتاب بين عتبة والقوم حتى أغلظ لهم وأغلظوا له، ثم ما أمسوا حتى اصطلحوا وأرضاهم معاوية من نفسه ووصلهم بأموال جليلة وبعث إلى أخيه عتبة: ما أنت صانع في جعدة؟ قال: ألقاه اليوم وأقاتله غداً وكان لجعدة في قريش شرف عظيم وكان له لسان وكان من أحب الناس إلى علي فغدا عليه عتبة فنادى: يا جعدة يا جعدة. فاستأذن علياً في الخروج إليه فأذن له فاجتمع الناس لكلامهما فقال عتبة: يا جعدة إنه والله ما أخرجك علينا إلا حب خالك وعمك ابن أبي سلمة عامل البحرين وإنا والله ما نزعم أن معاوية أحق بالخلافة من علي لولا أمره في عثمان ولكن معاوية أحق بالشام لرضا أهلها به فاعفوا لنا عنها فوالله ما بالشام رجل به طرف إلا وهو أجد من معاوية في القتال وما بالعراق من له مثل جد علي في القتال ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم وما أقبح بعلي أن يكون في قلوب المسلمين أولى بالناس حتى إذا أصاب سلطاناً أفنى العرب. فقال جعدة: أما حبي لخالي فوالله لو كان لك خال مثله لنسيت أباك وأما ابن أبي سلمة فلم يصب أعظم من قدره والجهاد أحب إلي من العمل وأما فضل علي على معاوية فهذا ما لا يختلف فيه وأما رضاك اليوم بالشام فقد رضيتم بها أمس وأما قولك: إنه ليس بالشام من رجل إلا وهو أجد من معاوية وليس بالعراق لرجل مثل جد علي فهكذا ينبغي أن يكون مضى بعلي يقينه وقصر بمعاوية شكه

وقصد أهل الحق خير من جهد أهل الباطل وأما قولك: نحن أطوع لمعاوية منكم لعلي فوالله لا نسأله إن سكت ولا نرد عليه إن قال: وأما قتل العرب فإن الله كتب القتال فمن قتله الحق فإلى الله. فغضب عتبة وفحش على جعدة فلم يجبه وأعرض عنه وانصرفا جميعاً مغضبين وجمع عتبة خيله فلم يستبق منها وجل أصحابه السكون والأزد والصدف وتهيأ جعدة بما استطاع فالتقيا وصبر القوم جميعاً وباشر جعدة القتال بنفسه وجزع عتبة فأسلم خيله وأسرع هارباً إلى معاوية. فقال له: فضحك جعدة وهزمك لا تغسل رأسك منها أبداً قال عتبة: لا والله لا أعود إلى مثلها أبداً وقد أعذرت وما كان على أصحابي من عتب ولكن الله أبى أن يديلنا منهم فما أصنع، فحظي بها جعدة عند علي، وقال النجاشي أبياتاً يذكر فيها ذلك وقال الشني مثلها وذكرناهما في ترجمة جعدة. قال نصر: وأظهر علي (ع) أنه مصبح غداً معاوية ومناجزه فبلغ ذلك معاوية وفزع أهل الشام لذلك وانكسروا لقوله وكان معاوية بن الضحاك بن سفيان صاحب راية بني سليم مع معاوية وكان مبغضاً لمعاوية وكان يكتب بالأخبار إلى عبد اللّه بن الطفيل العامري ويبعث بها إلى علي فبعث إلى عبد اللّه بن الطفيل إني قائل شعراً أذعر به أهل الشام وأذعر به معاوية وكان معاوية لا يتهمه وكان له فضل ونجدة ولسان فقال ليلاً ليسمع أصحابه من أبيات:

ألا ليت هذا الليل أصبح سرمداً ... علينا وأنا لا نرى بعده غدا
حذار علي أنه غير مخلف ... مدى الدهر ما لبى الملبون موعدا
كأني به في الناس كاشف رأسه ... على ظهر خوار الرحالة أجردا
يخوض غمار الموت في مرجحنة ... ينادون في نقع العجاج محمدا
فوارس بدر والنضير وخيبر ... واحد يروون الصفيح المهندا
ويوم حنين جاهدوا عن نبيهم ... فريقاً من الأحزاب حتى تبددا
هنالك لا تلوي عجوز على ابنها ... وإن أكثرت في القول نفسي لك الفدا
فقل لابن حرب ما الذي أنت صانع ... أتثبت أم ندعوك في الحرب قعددا
فلا رأي إلا تركنا الشام جهرة ... وإن أبرق الفجفاج فيها وأرعدا

فلما سمع أهل الشام شعره أتوا به معاوية فهم بقتله ثم راقب فيه قومه وطرده عن الشام فلحق بمصر وقال معاوية: والله لقول السلمي أشد على أهل الشام من لقاء علي وقال الأشتر: حين قال علي: إنني مناجز القوم إذا أصبحت:

قد دنا الفصل في الصباح وللسلـ ـم رجال وللحروب رجال
فرجال الحروب كل خدب مقحم لا تهده الأهوال
يضرب الفارس المدجج بالسيـ ـف إذا قل في الوغى الأكفال
يا ابن هند شد الحيازيم للمـ ـوت ولا تذهبن بك الآمال
إن في الصبح إن بقيت لأمراء تتنادى من هوله الأبطال
فيه عز العراق أو ظفر الشا م بأهل العراق والزلزال
فاصبرن للطعان بالأسل السمـ ـر وضرب تجري به الأمثال
إن تكونوا قتلتم النفر البيـ ـض وغالت أولئك الآجال
فلنا مثلهم وإن عظم الخطـ ـب قليل أمثالهم إبدال
يخضبون الوشيج طعناً إذا جر ر للموت بينهم أذيال
طلبوا الفوز في المعاد وفي ذا تستهان النفوس والأموال

فلما انتهى إلى معاوية شعر الأشتر قال: شعر منكر من شاعر منكر رأس أهل العراق وعظيمهم ومسعر حربهم وأول الفتنة وآخرها.

كتاب معاوية إلى علي يسأله الشام وجواب علي له

وقال معاوية: رأيت أن أكتب إلى علي كتاباً أسأله الشام وألقي في نفسه الشك والرقة فضحك عمرو بن العاص وقال: أين أنت يا معاوية من خدعة علي فقال: ألسنا بني عبد مناف قال: بلى ولكن لهم النبوة دونك وإن شئت أن تكتب فاكتب فكتب إليه:

أما بعد فإني أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لم يجنها بعضنا على بعض وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نندم به على ما مضى ونصلح به ما بقي وقد كنت سألتك الشام على أن لا يلزمني لك

طاعة ولا بيعة فأبيت ذلك علي فأعطاني الله ما منعت وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس فإني لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف وقد والله رقت الأجناد وذهبت الرجال ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ولا يسترق به حر والسلام.
فلما انتهى كتاب معاوية إلى علي قرأه ثم قال: العجب لمعاوية وكتابه ثم دعا عبيد اللّه بن أبي رافع كاتبه فقال اكتب: أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض فإنا وإياك منها في غاية لم تبلغها وإني لو قتلت في ذات الله وحييت ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة لم أرجع عن الشدة في ذات الله والجهاد لأعداء الله وأما قولك: إنه قد بقي من عقولنا ما نندم به على ما مضى فإني ما نقصت عقلي ولا ندمت على فعلي فأما طلبك الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس وأما استواؤنا في الخوف والرجاء فإنك لست بأمضى على الشك مني على اليقين وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة وأما قولك أنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل فلعمري إنا بنو أب واحد ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق ولا المحق كالمبطل وفي أيدينا فضل النبوة التي أذللنا بها العزيز وأعززنا بها الذليل والسلام. فلما أتى معاوية كتاب علي كتمه عن عمرو بن العاص أياماً ثم دعاه فأقرأه الكتاب فشمت به عمرو ولم يكن أحد من قريش أشد تعظيماً لعلي من عمرو منذ يوم لقيه وصفح عنه فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية:

إلا لـلّـه درك يـا ابـن هـنـد	ودر الآمـريـن لـك الـشـهـود
أتـطـمـع لا أبـا لـك فـي عـلـي	وقـد قـرع الـحـديـد عـلى الـحـديـد
وتـرجـو أن تـخـبـره بـشـك	وتـرجـو أن يـهـابـك بـالـوعـيـد
وقـد كـشـف الـقـنـاع وجـر حـربـاً	يـشـيـب لـهـولـهـا رأس الـولـيـد
لـه جـاؤوا مـظـلـمـة طـحـون	فـوارسـهـا تـلـهـب كـالأسـود

يقول لها إذا دلفت إليه وقد ملت طعان القوم عودي
فإن وردت فأولها ورودا وإن صدرت فليس بذي صدود
وما هي من أبي حسن بنكر وما هي من مسائك بالبعيد
وقلت له مقالة مستكين ضعيف الركن منقطع الوريد
دعن الشام حسبك يا ابن هند من السوءات والرأي الزهيد
ولو أعطاكها ما ازددت عزاً ولا لك لو أجابك من مزيد
ولم تكسر بذاك الرأي عودا لركته ولا ما دون عود

فلما بلغ معاوية قول عمرو دعاه فقال: إني أعلم ما أردت بهذا قال: ما أردت قال: أردت تفييل رأيي وإعظام علي وقد فضحك فقال: أما تفييلي رأيك فقد كان وأما إعظامي علياً فإنك بإعظامه أشد معرفة مني ولكنك تطويه وأنا أنشره وأما فضيحتي فلم يفتضح امرؤ لقي أبا حسن.

ليلة الهرير

روى نصر بن مزاحم إن علياً عليه السلام غلس بالناس في صلاة الغداة يوم الثلاثاء عاشر ربيع الأولى سنة ٣٧ وقيل عاشر صفر ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر العراق والناس على راياتهم وزحف إليهم أهل الشام وقد كانت الحرب أكلت الفريقين ولكنها في أهل الشام أشد نكاية وأعظم وقعاً فقد ملوا الحرب وكرهوا القتال وتضعضعت أركانهم فخرج رجل من أهل العراق على فرس كميت ذنوب عليه السلاح لا يرى منه إلا عيناه وبيده الرمح فجعل يضرب رؤوس أصحاب علي بالقناة وهو يقول: سووا صفوفكم حتى إذا عدل الصفوف والرايات استقبلهم بوجهه وولى أهل الشام ظهره ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذي جعل فيكم ابن عم نبيكم أقدمهم هجرة وأولهم إسلاماً سيف من سيوف الله صبه على أعدائه فانظروا إلي إذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسرت المران وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلا غمغمة أو همهمة. ثم حمل على أهل الشام وكسر فيهم رمحه ثم رجع فإذا هو الأشتر: وخرج رجل من أهل

الشام ينادي بين الصفين: يا أبا حسن يا علي ابرز لي فخرج إليه علي حتى اختلفت أعناق دابتيهما فقال: يا علي إن لك قدماً في الإسلام وهجرة فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخير هذه الحروب حتى ترى من رأيك فقال له علي: وما ذاك قال: ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين أهل العراق ونرجع إلى شامنا فتخلي بيننا وبين الشام فقال له علي: لقد عرفت إنك إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل على محمد ﷺ إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فوجدت القتال أهون علي من معالجة الأغلال في جهنم فرجع الشامي وهو يسترجع ولما كان قبل ليلة الهرير بليلة قال أصحاب معاوية: والله ما نبرح العرصة حتى يفتح الله لنا أو نموت وقال أصحاب علي (ع) مثل ذلك فباكروا القتال غداً يوماً من أيام الشعرى طويلاً شديد الحر فتراموا بالنبل حتى فنيت نبالهم ثم تطاعنوا بالرماح حتى تقصفت واندقت ثم مشى بعضهم إلى بعض بالسيوف وقد كسروا جفونها وعمد الحديد فلم يسمع السامع إلا تغمغم القوم وتكادم الأفواه وصليل السيوف في الهام ووقع الحديد بعضه على بعض لهو أشد هولاً في صدور الرجال من الصواعق ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضاً وكسفت الشمس وثار القتام وضلت الألوية والرايات فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجد لله فيهن سجدة ولم يصلوا لله صلاة إلا التكبير ثم استمر القتال من نصف الليل إلى ارتفاع الضحى وافترقوا على سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة وهي ليلة الهرير والأشتر في ميمنة الناس وابن عباس في الميسرة وعلي في القلب والأشتر في هذا الحال يسير فيما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التي تليها فلم يزل يفعل ذلك حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ونادت المشيخة في تلك الغمرات يا معشر العرب الله الله في الحرمات من النساء والبنات قال جابر فبكى أبو جعفر محمد الباقر (ع) وهو

يحدثني بهذا الحديث وجعل الأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام: ازحفوا قيد رمحي هذا فإذا فعلوا قال: ازحفوا قاب هذا القوس فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى مل أكثر الناس الإقدام ثم دعا بفرسه وركز رايته وكانت مع حيان بن هوذة النخعي وأقبل الأشتر على فرس له كميت محذوف قد وضع مغفره على قربوس السرج وهو يقول: اصبروا يا معشر المؤمنين فقد حمي الوطيس ورجعت الشمس من الكسوف واشتد القتال وخرج يسير في الكتائب ويقول: ألا من يشري نفسه لله ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه ويقاتل معه. ويقول واحد في تلك الحال أي رجل هذا لو كانت له نية فيقول له صاحبه: وأي نية أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلتك إن رجلاً فيما قد ترى قد سبح في الدماء وما أضجرته الحرب وقد غلت هام الكماة من الحر و بلغت القلوب الحناجر وهو كما ترى يقول هذه المقالة اللهم لا تبقنا بعد هذا. ثم قام الأشتر في أصحابه فقال: شدوا فدا لكم عمي وخالي شدة ترضون بها الله وتعزون بها الدين فإذا شددت فشدوا ثم نزل وضرب وجه دابته ثم قال لصاحب رايته: أقدم. فأقدم بها ثم شد على القوم وشد معه أصحابه يضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم فقاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً فقتل صاحب رايته وأخذ علي لما رأى الظفر قد جاء من قبله يمده بالرجال. وخطب الأشعث بن قيس في كندة ليلة الهرير فقال: كلاماً ظاهره النصح لقومه وباطنه الغش لعلي (ع) فمما قال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي وما فني فيه من العرب فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن نحن تواقفنا غداً إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا. وروى نصر عن عمرو بن شمر عن جابر بن عمير الأنصاري قال: والله لكأني أسمع علياً يوم الهرير حين سار أهل الشام وذلك بعدما طحنت رحى مذحج فيما بيننا وبين عك ولخم وجذام والأشعرين بأمر عظيم تشيب منه النواصي من حين

استقبلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة ثم إن علياً قال: حتى متى نخلي بين هذين الحيين قد فنيا وأنتم وقوف تنظرون إليهم؟ أما تخافون مقت الله؟ ثم انفتل إلى القبلة ورفع يديه إلى الله ثم نادى: يا الله يا رحمٰن يا واحد يا صمد يا الله يا إلٰه محمد اللهم إليك نقلت الأقدام وأفضت القلوب ورفعت الأيدي وامتدت الأعناق وشخصت الأبصار وطلبت الحوائج إنا نشكو إليك غيبة نبينا ﷺ وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، سيروا على بركة الله، ثم نادى: لا إلٰه إلا الله والله أكبر كلمة التقوى. قال الراوي لا والله الذي بعث محمداً ﷺ بالحق نبياً ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب يخرج بسيفه منحنياً فيقول: معذرة إلى الله وإليكم من هذا لقد هممت أن أفلقه ولكن حجزني عنه إني سمعت رسول الله ﷺ يقول كثيراً:

لا سـيـف إلا ذو الـفـقـار ولا فـتـى إلا عـلـي

وأنا أقاتل به دونه قال: فكنا نأخذه فنقومه ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف فلا والله ما ليث بأشد نكاية منه في عدوه وخطب علي (ع) الناس فقال: أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ولم يبق منهم إلا آخر نفس وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عز وجل.

رفع المصاحف

فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فقال: يا عمرو إنما هي الليلة حتى يغدو علي علينا بالفيصل فما ترى؟ قال: أرى إن رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون علياً إن ظفر بهم ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا ادعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك في القوم فإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لحاجتك إليه فقال معاوية: صدقت. وأصبح أهل الشام وقد

رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل، والناس على راياتهم قال تميم بن حذيم لما أصبحنا من ليلة الهرير نظرنا فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام وسط الفيلق فلما أن أسفرنا فإذا هي المصاحف قد ربطت على أطراف الرماح وكان جميعها خمسمائة مصحف فاستقبلوا علياً بمائة مصحف ووضعوا في كل مجنبة مائتي مصحف وشدوا ثلاثة رماح جميعاً وربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة رهط ونادوا: يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم يا معشر العرب الله الله في نسائكم وبناتكم فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم الله الله في دينكم. وأقبل أبو الأعور السلمي على برذون أبيض وقد وضع المصحف على رأسه ينادي: يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم. فقال أمير المؤمنين: اللهم إنك تعلم إنهم ما الكتاب يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكيم الحق المبين، فاختلف أصحاب علي (ع) في الرأي فطائفة قالت: القتال وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب لا يحل لنا الحرب وقد دعينا إلى حكم الكتاب. وتمت الحيلة على أهل العراق، وأقبل عدي بن حاتم فقال: يا أمير المؤمنين إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يصب عصبة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم وكل مقروح ولكنا أمثل بقية منهم وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب فناجز القوم فقام الأشتر النخعي فقال: إن معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك فأقرع الحديد بالحديد واستعن بالله الحميد، وقام عمرو بن الحمق فقال: يا أمير المؤمنين إنا والله ما اخترناك ولا نصرناك عصبية على الباطل ولا أحببنا إلا الله عز وجل ولا طلبنا إلا الحق ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لكان فيه اللجاج وطالت فيه النجوى وقد بلغ الحق مقطعه وليس لنا مع رأيك رأي وقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس (وقد صدق) وليس آخر أمرنا كأوله وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام مني فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال. وماج الناس وقالوا: أكلتنا

الحرب وقتلت الرجال وقال قوم: نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس ولم يقل هذا إلا قليل من الناس فقال أمير المؤمنين (ع): إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك وإنها فيهم أنكى وأنهك إلا إني كنت بالأمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً وكنت ناهياً فأصبحت منهياً وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون ثم قعد. وتكلم رؤساء القبائل فأما من ربيعة وهي الجبهة العظمى فقام كردوس بن هانىء البكري فقال: أيها الناس إنا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ولا تبرأنا من علي مذ توليناه وإن قتلانا لشهداء وإن أحياءنا لأبرار وإن علياً لعلى بينة من ربه وما أحدث إلا الإنصاف وكل محق منصف فمن سلم له نجا ومن خالفه هلك، وقام شقيق بن ثور البكري فقال: أيها الناس إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله وإن علياً ليس بالراجع الناكص ولا الشاك الواقف وهو اليوم على ما كان عليه أمس وقد أكلتنا هذه الحرب ولا نرى البقاء إلا في الموادعة، وقام حريث بن جابر البكري فقال: أيها الناس إن علياً لو كان خلفاً من هذا الأمر لكان المفزع إليه فكيف وهو قائده وسائقه إنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا ما دعاهم إليه أمس ولو رده عليهم كنتم له أعنت، وقام خالد بن المعمر فقال: يا أمير المؤمنين إنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك فإن لم تره فرأيك أفضل، ثم قام الحضين بن المنذر الرقاشي وهو من أصغر القوم سناً فقال: أيها الناس إن لنا داعياً قد حمدنا ورده وصدره وهو المصدق على ما قال المأمون على ما فعل فإن قال: لا قلنا لا وإن قال: نعم قلنا: نعم وقال رفاعة بن شداد البجلي: أيها الناس إنه لا يفوتنا شيء من حقنا وقد دعونا في آخر أمرنا إلى ما دعوناهم إليه في أوله فإن يتم الأمر على ما نريد وإلا أثرناها جذعة. وروى نصر إن أمير المؤمنين عليه السلام لما رفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى حكم القرآن قال: عباد الله إنا أحق من أجاب إلى كتاب

الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إني أعرف بهم منكم صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال إنها كلمة حق يراد بها باطل إنهم والله ما رفعوها حقاً إنهم يعرفونها ولا يعملون بها وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا فجاءه زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد وشاكي السلاح سيوفهم على عواتقهم وقد سودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصين وعصابة من القراء، الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتابه ولكني قد أعلمتكم إنهم قد كادوكم وإنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك وكان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله فأرسل إليه علي يزيد بن هانىء فأتاه فبلغه فقال الأشتر: قل له ليس هذه الساعة ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي إني قد رجوت أن يفتح الله لي فلا تعجلني، فرجع يزيد بن هانىء إلى علي فأخبره، وارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام فقال له القوم: والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم قال: رأيتموني ساررت رسولي أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلا فوالله اعتزلناك قال: ويحك يا يزيد قل له أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت فأتاه فأخبره فقال له الأشتر: ألرفع هذه المصاحف قال: نعم قال: أما والله لقد ظننت إنها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة إنها من مشورة ابن النابغة يعني عمرو بن العاص وقال ليزيد: ألا ترى إلى الفتح ألا ترى إلى ما يلقون ألا

ترى إلى الذي يصنع الله لنا أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه فقال له يزيد: أتحب إنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه ويسلم إلى عدوه قال: سبحان الله والله ما أحب ذلك قال: فإنهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلك كما قتلنا عثمان أو لنسلمنك إلى عدوك. فأقبل الأشتر فصاح: يا أهل الذل والوهن أحين علوتم القوم فظنوا إنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وقد والله تركوا ما أمر الله فيها وسنة من أنزلت عليه فلا تجيبوهم أمهلوني فواقاً فإني قد أحسست بالفتح قالوا: لا قال: فأمهلوني عدو الفرس فإني قد طمعت في النصرة قالوا: إذاً ندخل معك في خطيئتك قال: فحدثوني عنكم وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم متى كنتم محقين حيث كنتم تقتلون أهل الشام فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون أم الآن محقون فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيراً منكم في النار. قالوا: دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا قال: خدعتم ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السود كنا نظن إن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ألا قبحاً يا أشباه النيب الجلالة ما أنتم برائين بعدها عزا أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون فسبوه وسبهم وضربوا بسياطهم وجه دابته وضرب بسوطه وجوه دوابهم فصاح بهم علي (ع) فكفوا.

ومن ذلك يعلم أن أصحاب أمير المؤمنين (ع) كانوا أربعة أصناف، **الأول**: أهل البصيرة المخلصون له في الظاهر والباطن العارفون بحقه العالمون بأنها خدعة وهم القليل أمثال الأشتر وحجر بن عدي وعمرو بن الحمق وكردوس بن هانىء والحضين بن المنذر، **الثاني**: المخلصون له بقلوبهم لكنهم خدعوا أو أحبوا البقاء أمثال شقيق بن ثور وحريث بن جابر ورفاعة بن شداد، **الثالث**: الذين ليس لعلي (ع) في قلوبهم مكانته التي يجب أن تكون له مضافاً إلى أنهم قد خدعوا وهم القراء أهل الجباه السود وهؤلاء كانوا وما زالوا في كل عصر أضر من الفساق المتجاهرين بالفسق، **الرابع**: المنافقون الذين يظهرون

النصيحة ويبطنون الغش أمثال الأشعث وخالد بن المعمر فكيف يتم مع هؤلاء أمر. وكتب معاوية إلى علي[1] (ع) إن هذا الأمر قد طال بيننا وبينك وكل واحد منا يرى إنه على الحق وقد قتل فيما بيننا كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقي أشد مما مضى وإنا نسأل عن ذلك الموطن ولا يحاسب به غيري وغيرك فهل لك في أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وصلاح للأمة وحقن للدماء وألفة للدين وذهاب للضغائن والفتن أن يحكم بيننا وبينكم حكمان رضيان، **أحدهما**: من أصحابي **والآخر** من أصحابك فيحكمان بما في كتاب الله بيننا فاتق الله فيما دعيت له وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله والسلام. فكتب إليه علي (ع) كتاباً قال في آخره: ثم إنك قد دعوتني إلى حكم القرآن ولقد علمت إنك لست من أهل القرآن ولست حكمه تريد والله المستعان وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً.

اختيار الحكمين

وجاء الأشعث بن قيس إلى علي (ع) فقال: ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا الناس إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فقال: ائته فأتاه فقال: لأي شيء رفعتم هذه المصاحف قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه فابعثوا منكم رجلاً ترضونه ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بكتاب الله لا يعدوانه. ثم نتبع ما اتفقا عليه.

فقال الأشعث: هذا هو الحق وانصرف إلى علي فأخبره فقال الناس: قد رضينا وقبلنا فبعث علي قراء من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أهل الشام فاجتمعوا بين الصفين ومعهم المصحف فنظروا فيه وتدارسوه وأجمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن ويميتوا ما أمات ثم رجع كل فريق إلى أصحابه (أقول) لم يذكر المؤرخون ماذا أنتجه اجتماعهم ومدارستهم القرآن ولا شك أن ذلك من حواشي الاحتيال الذي أكره علي (ع) على قبوله فقال أهل الشام: إنا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص وقال الأشعث والقراء: الذين صاروا خوارج فيما بعد

إنا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعري، فقال لهم علي (ع): إني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه فقال الأشعث ويزيد بن حصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القراء: لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه، قال علي (ع): فإنه ليس لي برضى وقد فارقني وخذل الناس عني ثم هرب حتى أمنته بعد أشهر ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك قالوا: والله ما نبالي أنت كنت أو ابن عباس لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء قال علي: فإني أجعل الأشتر قال الأشعث: وهل سعر الأرض علينا غير الأشتر وهل نحن إلا في حكم الأشتر قال: وما حكمه قال: حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد. وروى نصر بسنده عن جابر عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) قال: لما أراد الناس علياً أن يضع حكمين قال لهم إن معاوية لم يكن ليضع أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص وإنه لا يصلح للقرشي إلا مثله فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به فإن عمرو لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ولا يحل عقدة إلا عقدها ولا يبرم أمراً إلا نقضه ولا ينقض أمراً إلا أبرمه، فقال الأشعث: لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ولكن اجعله رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر فقال علي (ع): إني أخاف أن يخدع يمنيكم فإن عمرو ليس من الله في شيء إذا كان له في أمر هواه. فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكره واحدهما من أهل اليمن أحب إلينا من أن تكون ما نحب في حكمهما وهما مضريان وذكر الشعبي مثل ذلك. (أقول): ليس العجب من الأشعث إذا ظهرت ذات نفسه لعلي (ع) وجابهه بهذا القول في الأشتر وتمسك بهذه الأعذار الواهية في اختيار أبي موسى لأن الأشعث كان منطوياً على غش أمير المؤمنين (ع) ولما رأى اختلاف الكلمة أظهر ذات نفسه وجابه بما جابه به ولكن العجب من القراء أهل الجباه السود من طول السجود وأهل البلادة والجمود الذين لا يزال أمثالهم بلاء على الأمة الإسلامية إلى اليوم كيف يقولون لعلي (ع) ما نبالي كنت أنت أو ابن عباس لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ولا يقولون لمعاوية ما نبالي كنت أنت أو عمرو لا نريد

إلا رجلاً هو منك ومن علي سواء. ومن الذين جاؤوا بعد ذلك فلم يشاؤوا أن ينظروا إلى الأمور إلا من وراء غشاء فقالوا: إن كل ما جرى من الفئة الباغية كان عن حسن نية واجتهاد قال المؤلف:

داء لعمرك أعيا الطبيب والمتطبب	إن كان هذا اجتهادا فليس في الأرض مذنب

وجاء الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين أرني عمرو بن العاص فوالله الذي لا إله إلا هو لئن ملأت عيني منه لأقتلنه. وجاء الأحنف بن قيس التميمي فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد رميت بحجر الأرض ومن حارب الله ورسوله وأنف الإسلام وإني قد عجمت هذا الرجل يعني أبا موسى وحلبت أشطره فوجدته كليل الشفرة قريب القعر وإنه رجل يماني وقومه مع معاوية وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم ويتباعد منهم حتى يكون بمنزلة النجم فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلني وإن قلت: إني لست من أصحاب رسول الله ﷺ فابعث رجلاً من أصحابه غير عبد اللّه بن قيس واجعلني ثانياً أو ثالثاً فإنه لا يعقد عقدة إلا حللتها ولن يحل عقدة إلا عقدتها وعقدت لك أخرى أشد منها، فعرض ذلك على الناس فأبوه وقالوا: لا يكون إلا أبا موسى (وفي رواية) إن القوم أتوني بعبد اللّه بن قيس مبرنساً فقالوا: ابعث هذا فقد رضينا به والله بالغ أمره. قال علي (ع): قد أبيتم إلا أبا موسى قالوا: نعم قال: فاصنعوا ما أردتم فبعثوا إلى أبي موسى وكان معتزلاً بأرض من أرض الشام يقال لها عرض، فأتاه مولى له فقال: إن الناس اصطلحوا قال: الحمد لله قال: وقد جعلوك حكماً قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فجاء أبو موسى حتى دخل عسكر علي (ع).

كتاب الصلح

قال نصر: لما رضي أهل الشام بعمرو بن العاص وأهل العراق بأبي موسى أخذوا في كتاب الموادعة ورضوا بالحكم حكم القرآن فكتبوا: هذا ما

تقاضى عليه علي أمير المؤمنين فقال معاوية: بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته، وقال عمرو للكاتب: اكتب اسمه واسم أبيه إنما هو أميركم وأما أميرنا فلا. فلما أعيد إليه الكتاب أمر بمحوه فقال له الأحنف: لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك فإني أتخوف إن محوتها أن لا ترجع إليك لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً، فأبى ملياً من النهار أن يمحوها ثم جاء الأشعث بن قيس فقال: امح هذا الاسم فقال علي: لا إله إلا الله والله أكبر سنة سنة أما والله لعلى يدي دار هذا الأمر يوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله ﷺ. هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو فقال سهيل: لو أعلم إنك رسول الله لم أقاتلك إني إذا ظلمتك إن منعتك أن تطوف ببيت الله وأنت رسول الله ولكن اكتب محمد بن عبد اللّه فقال محمد ﷺ: **«يا علي إني لرسول الله وإني لمحمد بن عبد اللّه ولن يمحو عني الرسالة كتابي إليهم من محمد بن عبد اللّه فراجعني المشركون»** فاليوم اكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله ﷺ إلى آبائهم سنة ومثلاً. فقال عمرو بن العاص: سبحان الله شبهتنا بالكفار ونحن مؤمنون. فقال له علي (ع): يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً؟ فقام عمرو فقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم فقال علي: أما والله إني لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك وكان كتاب الصلح في صحيفة صفراء عليها خاتمان من أعلاها وأسفلها خاتم علي وخاتم معاوية وفي كل منهما محمد رسول الله.

صورة كتاب الصلح

ذكر له نصر في كتاب صفين صورتين إحداهما عن جابر عن زيد بن حسن أنه أملاه عليه من كتاب عنده والثانية عن أبي إسحاق الشيباني عن سعيد بن أبي بردة أنه قرأ كتاب الصلح عنده وبين الصورتين بعض التفاوت ونحن ننقله منتزعاً من مجموع الصورتين:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب

ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، قضية علي على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من شاهد أو غائب، وقضية معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته، إنا ننزل عند حكم القرآن فيما حكم به ونقف عند أمره فيما أمر ولا يجمع بيننا إلا ذلك، وإنا جعلنا كتاب الله حكماً فيما بيننا فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، على ذلك تقاضيا وبه تراضيا فما وجد الحكمان في كتاب الله بيننا وبينكم فإنهما يتبعانه وما لم يجداه في كتاب الله أخذا بالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وإن علياً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد اللّه بن قيس ناظراً ومحاكماً كما رضي معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً ومحاكماً وأخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثا له لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله ﷺ الجامعة لا يتعمدان لها خلافاً ولا يتبعان في ذلك لهما هوى ولا يدخلان في شبهة وأخذ عبد اللّه بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضى بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا أن يخالفاه إلى غيره وإنهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأهلهما ما لم يعدوا الحق رضي بذلك راض أو أنكره منكر وأن الأمة أنصار لهما على ما قضيا به من العدل فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلاً لا يألون عن أهل المعدلة والإقساط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وله مثل شرط صاحبه وإن مات أحد الأميرين من قبل القضاء فلشيعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله وقد وقعت القضية ومعها الأمن والتفاوض ووضع السلاح والسلام والوداعة وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه أن لا يألوا جهداً ولا يتعمدا جوراً ولا يدخلا في شبهة ولا يعدوا حكم الكتاب وسنة رسول الله ﷺ فإن لم يفعلا برئت الأمة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذمة وقد

وجبت القضية على ما قد سمي في هذا الكتاب من مواقع الشروط على الأميرين والحكمين والفريقين والله أقرب شهيداً وأوفى حفيظاً والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل والسلاح موضوع والسبل مخلاة والغائب والشاهد من الفريقين سواء في الأمن، وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام ولا يحضرهما فيه إلا من أحبا عن ملأ منهما وتراض وإن المسلمين قد أحلوا القاضيين إلى انسلاخ رمضان، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجها له عجلاها وإن أرادا تأخيرها بعد رمضان إلى انقضاء الموسم فإن ذلك إليهما، فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب ولا شرط بين واحد من الفريقين وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب وهم يد على من أراد فيه إلحاداً أو ظلما أو حاول له نقضاً.

وشهد بما في الكتاب من أصحاب علي: عبد اللّه بن عباس، الأشعث بن قيس، الأشتر مالك بن الحارث، سعيد بن قيس الهمداني، الحصين والطفيل ابنا الحارث بن المطلب، أبو أسيد ربيعة بن مالك الأنصاري، عوف بن الحارث بن المطلب القرشي، بريدة السلمي، عقبة بن عامر الجهني، رافع بن حديج الأنصاري، عمرو بن الحمق الخزاعي، الحسن والحسين ابنا علي عليهم السلام، عبد اللّه بن جعفر الهاشمي، النعمان بن عجلان الأنصاري، حجر بن عدي الكندي، ورقاء بن مالك بن كعب الهمداني، حجر بن يزيد، عقبة بن حجية.

ومن أصحاب معاوية: حبيب بن مسلمة الفهري، أبو الأعور بن سفيان السلمي، بسر بن أرطاة القرشي، معاوية بن خديج الكندي، المخارق بن الحارث الحميري، دعبل بن عمرو السكسكي، عبد الرحمٰن بن خالد المخزومي، حمزة بن مالك الهمداني، سبيع بن يزيد الهمداني، يزيد بن الحر الثقفي، مسروق بن حرملة العكي، نمير بن يزيد الحميري، عبد اللّه بن عمرو بن العاص، علقمة بن يزيد الكلبي، خالد بن المعرض السكسكي،

علقمة بن يزيد الجرمي، عبد اللّٰه بن عامر القرشي، مروان بن الحكم، الوليد بن عقبة القرشي، عتبة بن أبي سفيان، محمد بن أبي سفيان، محمد بن عمرو بن العاص، يزيد بن عمرو الجذامي، عمار بن الأحوص الكلبي، مسعدة بن عمر التجيبي، الحارث بن زياد القيني، عاصم بن المنتشر الجذامي، عبد الرحمٰن بن ذي الكلاع الحميري، الفتاح بن جلهمة الحميري، ثمامة بن حوشب، علقمة بن حكيم، حمزة بن مالك.

وإن بيننا على ما في هذه الصحيفة عهد الله وميثاقه وكتب عميرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ٣٧.

واتعد الحكمان أذرح وأن يجيء علي بأربعمائة من أصحابه ويجيء معاوية بأربعمائة من أصحابه يشهدون الحكومة والأجل إلى شهر رمضان لثمانية أشهر. ولما كتبت الصحيفة دعي لها الأشتر فقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال إن كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة أو لست على بينة من ربي ويقين من ضلالة عدوي أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور. فقال له رجل: إنك والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً هلم فاشهد على نفسك وأقرر بما في هذه الصحيفة فإنه لا رغبة بك عن الناس. قال: بلى والله إن بي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دماً قال عمار بن ربيعة: فنظرت إلى ذلك الرجل وكأنما قصع على أنفه الحمم وهو الأشعث بن قيس ثم قال: لكن قد رضيت بما صنع علي أمير المؤمنين ودخلت فيما دخل فيه وخرجت مما خرج منه فإنه لا يدخل إلا في هدى وصواب.

أول من حكم وظهور مقالة الخوارج

وخرج الأشعث بذلك الكتاب يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم ويمر به على صفوف أهل الشام وراياتهم فرضوا بدلك ثم مر به على صفوف أهل العراق وراياتهم حتى مر برايات عنزة وكان منهم بصفين مع علي (ع) أربعة آلاف

مجفف فقرأه عليهم فقال معدان وجعد العنزيان فتيان إخوان منهم: لا حكم إلا لله ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما حتى قتلا على باب رواق معاوية، ثم مر بها على مراد فقال صالح بن شقيق من رؤسائهم:

ما لعلي في الدماء قد حكم لو قاتل الأحزاب يوماً ما ظلم

لا حكم إلا لله ولو كره المشركون. ثم مر على رايات بني راسب فقرأها عليهم فقال رجل منهم: لا حكم إلا لله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين. فقال رجل منهم لآخر: أما هذا فقد طعن طعنة نافذة وخرج عروة بن أدية أخو مرداس بن أدية التميمي فقال: أتحكمون الرجال في أمر الله؟ لا حكم إلا لله. فأين قتلانا يا أشعث؟ وشد بسيفه ليضرب به الأشعث فأخطأه وضرب به عجز دابته ضربة خفيفة وصاح به الناس أن أمسك يدك فكف ورجع الأشعث إلى قومه فمشى إليه رجال من بني تميم فيهم الأحنف بن قيس واعتذروا إليه فقبل منهم وانطلق إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين قد عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام وأهل العراق فقالوا جميعاً: قد رضينا حتى مررت برايات بني راسب ونبذ من الناس سواهم فقالوا: لا نرضى، لا حكم إلا لله فلنحمل بأهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم. فقال علي (ع): هل هي غير راية أو رايتين ونبذ من الناس قال: لا وظن علي (ع) أنهم قليلون لا يعبأ بهم فما راعه إلا نداء الناس من كل جهة: لا حكم إلا لله الحكم لله يا علي لا لك. لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله. إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم وقد كانت منازلة حين رضينا بالحكمين فرجعنا وتبنا فارجع أنت يا علي كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا وإلا برئنا منك. فقال: ويحكم أبعد الرضا والعهد نرجع أوليس الله تعالى قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه وبرئت من علي وبرىء منهم. وقيل لعلي (ع): لما كتبت الصحيفة إنّ الأشتر لم يرض بما في الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم. فقال علي: بلى إن الأشتر يرضى إذا رضيت وقد رضيت ورضيتم

ولا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى الله ويتعدى ما في كتابه وأما الذي ذكرتم من تركه أمري فلست أتخوفه على ذلك وليت فيكم مثله اثنين بل ليت فيكم مثله واحداً يرى في عدوه مثل رأيه إذا لخفَّت علي مؤونتكم ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم. وكان عمر بن أوس الأودي قاتل مع علي (ع) وأسره معاوية في أسرى كثيرة فقال له عمرو بن العاص: اقتلهم فقال عمر بن أوس لمعاوية: إنك خالي فلا تقتلني. فقال معاوية: وكيف ذاك وليس بيننا وبين أود مصاهرة فقال: أليست أختك أم حبيبة أم المؤمنين وأنا ابنها فأنت خالي. فقال معاوية: لله أبوه خلوا سبيله. وأسر علي (ع) يوم صفين أسرى فخلى سبيلهم وأسر معاوية أسرى فقال له عمرو بن العاص: اقتلهم فما شعروا إلا بأسراهم قد خلى علي سبيلهم فقال معاوية: لو أطعناك لوقعنا في قبيح. وخلى سبيلهم، وكان علي (ع) إذا أخذ أسيراً من أهل الشام خلى سبيله إلا أن يكون قد قتل من أصحابه أحداً فيقتله به فإذا خلى سبيله وعاد الثانية قتله وكان لا يجهز على الجرحى ولا يتبع مدبراً. ثم إن الناس أقبلوا على دفن قتلاهم.

رجوع أمير المؤمنين (ع) إلى الكوفة

روى نصر عن عبد الرحمٰن بن جندب قال: لما أقبل علي (ع) من صفين أقبلنا معه. قال نصر: ورجع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة فأخذ طريقاً غير الطريق الذي أقبلنا فيه فقال: (آئبون عابدون لربنا حامدون اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في المال والأهل) ثم أخذ بنا طريق البر على شاطىء الفرات حتى انتهينا إلى هيت وأخذنا على صندوداء فخرج الأنماريون بنو سعيد بن خريم واستقبلوه فعرضوا عليه النزول فلم يقبل فبات بها ثم غدا حتى جزنا النخيلة ورأينا بيوت الكوفة فإذا شيخ في ظل بيت عليه أثر المرض فقال له علي (ع): ما لي أرى وجهك منكسفاً أمن مرض؟ قال: نعم. قال: لعلك كرهته. قال: ما أحب أنه يعترى. قال: أليس احتسبت بالخير فيما أصابك منه؟ قال: بلى. قال: أبشر برحمة ربك وغفران ذنبك، من

أنت؟ قال: أنا صالح بن سليم من بني سلامان والجوار والدعوة في بني سليم بن منصور قال: سبحان الله ما أحسن اسمك واسم أبيك واسم أعدادك ومن اعتزيت إليه، ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام؟ قال: منهم المسرور وأولئك أغنياء الناس ومنهم المكبوت الآسف وأولئك نصحاء الناس لك. فقال: صدقت جعل الله ما كان من شكواك حظاً لسيئاتك فإن المرض لا أجر فيه ولكن لا يدع للعبد ذنباً إلا حطه إنما الأجر في القول باللسان والعمل باليد والرّجل وإن الله عز وجل يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من عباده الجنة ثم مضى فلقيه عبد اللّه بن وديعة الأنصاري فقال: ما سمعت الناس يقولون في أمرنا هذا؟ قال: منهم المعجب به ومنهم الكاره له والناس كما قال الله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قال: ما يقول ذوو الرأي قال: يقولون إن علياً كان له جمع عظيم ففرقه وحصن حصين فهدمه فمتى يبني مثل ما هدم ومتى يجمع مثلما فرق فلو أنه كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك كان ذلك هو الحزم، فقال: أنا هدمت أم هم هدموا، وأنا فرقت أم هم تفرقوا؟ وأما قولهم: لو أنه مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فوالله إن كنت سخي النفس بالدنيا طيب النفس بالموت، ولقد هممت بالإقدام فنظرت إلى هذين قد استقدماني (يعني الحسن والحسين) فعلمت أنهما إن هلكا انقطع نسل محمد ﷺ من هذه الأمة. ثم مضى حتى جزنا دور بني عوف فإذا نحن بقبور سبعة أو ثمانية عن أيماننا فسأل عنها فقيل له: إن خباب بن الأرت توفي بعد مخرجك فأوصى أن يدفن في الظهر فدفن الناس حوله. فترحم عليه وأثنى عليه ثم أقبل حتى دخل سكة الثوريين ثور همدان فسمع البكاء، فقال: ما هذه الأصوات؟ قيل هذا البكاء على من قتل بصفين، قال: أما إني شهيد لمن قتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة، ثم مر بالشباميين فسمع رنة شديدة فخرج إليه حارب بن شرحبيل الشبامي، فقال علي: أيغلبكم نساؤكم ألا تنهونهن عن هذا الصياح والرنين، فقال: يا أمير المؤمنين لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدرنا على ذلك ولكن من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل فليس من دار إلا وفيها بكاء،

أما نحن معاشر الرجال فإنا لا نبكي ولكن نفرح لهم بالشهادة، فقال علي: رحم الله قتلاكم وموتاكم وأقبل يمشي معه وعلي راكب، فقال له: ارجع. ووقف، ثم قال: ارجع فإن مشي مثلك فتنة للوالي ومذلة للمؤمنين، ثم مضى حتى مر بالناعطيين[1] فسمع رجلاً منهم يقال له عبد الرحمٰن بن مرثد فقال: ما صنع علي والله شيئاً، ذهب ثم انصرف في غير شيء، فلما نظر أمير المؤمنين (ع) إليه أبلس، فقال علي (ع): وجوه قوم ما رأوا الشام العام ثم قال لأصحابه: قوم فارقتهم آنفاً خير من هؤلاء ثم قال:

أخوك الذي إن أجرضتك ملمة ... من الدهر لم يبرح لبثك واجما
وليس أخوك بالذي إن تمنعت ... عليك أمور ظل يلحاك لائما

ثم مضى فلم يزل يذكر الله حتى دخل الكوفة.

اجتماع الحكمين بدومة الجندول

حكى الطبري عن الواقدي أنه كان ذلك في شعبان سنة ٣٨ وللصواب أنه كان سنة ٣٧ روى نصر أن علياً (ع) بعث أربعمائة رجل وبعث عليهم شريح بن هانىء الحارثي وبعث عبد اللّه بن عباس يصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم وبعث معاوية شرحبيل بن السمط مع عمرو بن العاص في أربعمائة رجل فكان إذا كتب علي بشيء أتاه أهل الكوفة فقالوا: ما الذي كتب به إليك أمير المؤمنين فيكتمهم فيقولون: كتب إليك في كذا وكذا ويجيء رسول معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يدري في أي شيء جاء ولا في أي شيء ذهب. فأنب ابن عباس أهل الكوفة بذلك ثم ودع شرحبيل عمرو بن العاص وقال له: إنك رجل قريش وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك وإنك لن تؤتى من عجز ولا مكيدة فكن عند ظننا بك وانصرف وودع شريح أبا موسى وقال: إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ولا يستقال فتقه وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكها

---

(١) نسبة إلى ناعط لقب ربيعة بن مرثد أبو بطن من همدان وأصله اسم جبل بصنعاء ـ المؤلف ـ.

معاوية ولا بأس لأهل الشام إن ملكها علي وقد كانت منك تثبيطة بالكوفة فإن تشفعها بمثلها يكن الظن فيك يقيناً والرجاء يأساً. وكان آخر من ودع أبا موسى الأحنف بن قيس فقال له: يا أبا موسى أعرف خطب هذا الأمر واعلم أن له ما بعده وإنك إن أضعت العراق فلا عراق فاتق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك وإذا لقيت عمراً غداً فلا تبدأه بالسلام فإنها وإن كانت سنة إلا أنه ليس من أهلها وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة ولا تلقه إلا وحده واحذره أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود. ثم أراد أن يختبر ما في نفسه فقال له: فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي فخيره بين أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شاؤوا أو يختار أهل الشام من قريش العراق من شاؤوا قال أبو موسى: قد سمت ما قلت ولا يستنكر ذلك. فأتى الأحنف علياً فقال: يا أمير المؤمنين أخرج والله أبا موسى زبدة سقائه في أول مخضة لا أرانا إلا بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك فقال علي: يا أحنف إن الله غالب على أمره. قال: فمن ذلك تجزع وفشا أمر الأحنف وأبي موسى في الناس فجهز الشني راكباً فتبع به أبا موسى بهذه الأبيات:

أبا موسى جزاك اللّه خيرا ... عراقك إن حظك في العراق
وإن الشام قد نصبوا إماما ... من الأحزاب معروف النفاق
وإنا لا نزال لهم عدوا ... أبا موسى إلى يوم التلاقي
فلا تجعل معاوية بن حرب ... إماما ما مشت قدم بساق
ولا يخدعك عمرو إن عمرا ... أبا موسى تحاماه الرواقي
فكن منه على حذر وانهج ... طريقك لا تزل بك المراقي

وقال شريح مع ذلك:

أبا موسى رميت بشر خصم ... فلا تضع العراق فدتك نفسي
واعط الحق شامهم وخذه ... فإن اليوم في مهل كأمس
وإن غداً يجيء بما عليه ... يدور الأمر من سعد ونحس
ولا يخدعك عمرو إن عمرا ... عدو اللّه مطلع كل شمس

لـه خـدع يـحـار الـعـقـل فـيـهـا ... مـمـوهـة مـزخـرفـة بـلـبـس
فـلا تـجـعـل مـعـاويـة بـن حـرب ... كـشـيـخ فـي الـحـوادث غـيـر نـكـس
هـداه الـلّـه لـلإسـلام فـردا ... سـوى عـرس الـنـبـي وأي عـرس

فقال أبو موسى: ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً أو أجر إليهم حقاً. ثم إنهم خلوا بين الحكمين فكان رأي أبي موسى في عبد اللّه بن عمر وكان يقول: والله إن استطعت لأحيين سنة عمر. وأبطأت الأخبار على معاوية فبعث إلى رجال من قريش من الذين كرهوا أن يعينوه في حربه فأتوه، منهم عبد اللّه بن الزبير وأتاه المغيرة بن شعبة وكان مقيماً بالطائف لم يشهد صفين فقال: يا مغيرة ما ترى قال: لو وسعني أن أنصرك لنصرتك ولكن علي أن آتيك بأمر الرجلين فركب حتى أتى دومة الجندل فدخل على أبي موسى كأنه زائر فقال: يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذه الحرب قال: أولئك خيار الناس ثم أتى عمراً فقال: ما تقول فيمن اعتزل هذه الحرب قال عمرو: أولئك شرار الناس ولم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلاً فرجع إلى معاوية فقال له: قد ذقت الرجلين أما عبد اللّه بن قيس فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر وهواه في عبد اللّه بن عمر وأما عمرو فهو صاحبك الذي تعرف.

وأقبل أبو موسى إلى عمرو فقال: هل لك في أمر هو للأمة صلاح ولصلحاء الناس رضا نولي هذا الأمر إلى عبد اللّه بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة وعبد اللّه بن عمرو بن العاص وعبد اللّه بن الزبير قريبان يسمعان هذا الكلام فقال عمرو: فأين أنت من معاوية؟ فأبى عليه أبو موسى وشهدهم عبد اللّه بن هشام وعبد الرحمٰن بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدوي والمغيرة بن شعبة فقال عمرو: ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال: بلى؟ قال: اشهدوا فما يمنعك يا أبا موسى من معاوية ولي عثمان وبيته في قريش ما قد علمت فإن خشيت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة فإن لك بذلك حجة تقول: إني وجدته ولي عثمان الخليفة

المظلوم الطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة أم المؤمنين وأحد الصحابة ثم عرض له بالسلطان فقال: إن هو ولي هذا الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط مثلها. فقال أبو موسى: اتق الله يا عمرو أما ذكرك شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان أحق الناس به أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع إني لو كنت أعطيه افضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب وأما قولك: إن معاوية ولي عثمان فإني لم أكن أوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين وأما تعريضك بالسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليته ولا كنت لأرتشي في الله ولكنك إن شئت أحيينا سنة عمر بن الخطاب أو اسم عمر بن الخطاب قال: إن كنت تريد أن تبايع ابن عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه قال: إن ابنك رجل صدق لكنك قد غمسته في هذه الفتنة فإن شئت ولينا هذا الأمر الطيب عبد اللّه بن عمر بن الخطاب قال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل ضرس يأكل ويطعم وإن عبد اللّه ليس هناك. وكان في أبي موسى غفلة فقال عبد اللّه بن الزبير لابن عمر: اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه فقال ابن عمر: لا والله ما أرشو عليها أبداً ما عشت ولكنه قال: ويلك يا ابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعدما تقارعت بالسيوف وتشاجرت بالرماح فلا تردهم في فتنة واتق الله وكان عمرو وأبو موسى حيث التقيا بدومة الجندل أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام ويقول: إنك قد صحبت رسول الله ﷺ قبلي وأنت أكبر مني فتكلم ثم أتكلم وجعل يقدمه في كل شيء يغتره بذلك ليقدمه فيبدأ بخلع علي فلما أراده عمرو على معاوية فأبى وأراده على ابنه فأبى وأراده أبو موسى على عبد اللّه بن عمر فأبى قال عمرو: أخبرني يا أبا موسى ما رأيك قال: رأيي أن أخلع هذين الرجلين علياً ومعاوية ثم نجعل هذا الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاؤوا فقال له عمرو: الرأي ما رأيت. فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة قال عمرو:

صدق ثم قال: يا أبا موسى تقدم فتكلم فتقدم أبو موسى ليتكلم فدعاه ابن عباس فقال: ويحك والله إني لأظنه قد خدعك إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك فيتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده فإن عمراً رجل غدار ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت به في الناس خالفك وكان أبو موسى رجلاً مغفلاً فقال: إنا قد اتفقنا فتقدم أبو موسى ثم قال: يا أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع علي ومعاوية ونستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين فيولون أمورهم من أحبوا وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتم لها أهلاً ثم تنحى فقعد. وقام عمرو بن العاص مقامه فقال: إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فقال له أبو موسى: ما لك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت وإنما مثلك مثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فقال عمرو: إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً. ولنعم ما قال الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عبقرية الإمام: كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه وانتهت المأساة بهذه المهزلة أو انتهت المهزلة بهذه المأساة (اهـ) وحمل شريح بن هاني على عمرو فقنعه بالسوط وحمل على شريح ابن لعمرو فضربه بالسوط وقام الناس فحجزوا بينهم فكان شريح يقول: ما ندمت على شيء ندامتي على أن لا أكون ضربته بالسيف بدل السوط أتى الدهر بما أتى والتمس أصحاب علي أبا موسى فركب ناقته فلحق بمكة فكان ابن عباس يقول: قبح الله أبا موسى حذرته وأمرته بالرأي فما عقل وكان أبو موسى يقول: قد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكن اطمأننت إليه وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة وقام سعيد بن قيس فقال: والله لو اجتمعتما على الهدى ما زدنا على ما نحن الآن عليه وما ضلالكما بلازمنا وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس وتكلم الناس غير الأشعث بن قيس ولما فعل عمرو ما فعل واختلط الناس رجع إلى منزله وجهز راكباً إلى معاوية يخبره

بالأمر من أوله إلى آخره ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس وشريح ومن معهما إلى علي وقال ابن عم لأبي موسى:

أبا موسى بليت فكنت شيخا قريب القعر مدهوش الجنان
رمى عمرو صفاتك يا ابن قيس بأمر لا تنوء به اليدان
وقد كنا نجمجم عن ظنون فصرحت الظنون عن العيان
فعض الكف من ندم وماذا يرد عليك عضك بالبنان

وبهذا انتهت مهزلة تحكيم الحكمين التي دبرها عمرو بن العاص وشرى دينه بإمارة مصر ثم إن معاوية بعدما ولاه مصر عزله عنها وولاها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فكتب إليه عمرو:

معاوية الحال لا تجهل وعن طرق الحق لا تعدل
خلعت الخلافة من حيدر كخلع النعال من الأرجل
وألبستها لك يا ابن اللئام كلبس الخواتم في الأنمل
ولولاي كنت كمثل النساء تعاف الخروج من المنزل
ولم تك واللّه من أهلها ورب العباد ولم تكمل
فأين الحصى من نجوم السماء وأين الحسام من المنجل
وأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من علي
وأعطيت مصراً لعبد العزيز ولم تعطني زبة الخردل

قال الشيخ محمد الأمير من كبار علماء مصر في حاشيته على المغني عند ذكر هذه الأبيات ما لفظه: وكأنه رضي الله عنه تبين له خطأ اجتهاده (اهـ) فانظر واعجب وقل له: لا ما تبين له خطأ اجتهاده لأنه لم يكن مجتهداً إلا في تحصيل حطام الدنيا وإنما تبين له أن مصر التي باع بها دينه قد ذهبت منه (إنها لا تعمي الأبصار ولكن. . .).

وروى نصر أنه دخل على علي عبد اللّه بن عمر وسعد بن أبي وقاص

والمغيرة بن شعبة فسألوه عطاءهم وكانوا قد تخلفوا عنه في الجمل وصفين فقال: ما خلفكم عني؟ قالوا: قتل عثمان ولا ندري حل دمه أو لا وقد كان أحدث أحداثاً ثم استتبتموه فتاب ثم دخلتم في قتله فلسنا ندري أصبتم أم أخطأتم مع أنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك، قال علي: ألستم تعلمون أن الله قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال سعد: أعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن، أخاف أن أقتل مؤمناً فأدخل النار، قال لهم علي: أليس قد بايعتم عثمان على السمع والطاعة فعلام خذلتموه إن كان محسناً وكيف لم تقاتلوه إن كان مسيئاً وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به إذ قال: قاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فردهم ولم يعطهم شيئاً (اهـ) وقال سعد: كان يلزم على الله تعالى حين أمر بقتال الطائفة الباغية أن ينزل سيوفاً من السماء تعرف الباغي من المبغي عليه.

وروى نصر بسنده عن تميم بن جذيم الناجي إنه أصيب بصفين من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً وأصيب من أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً.

آخر الكلام على حرب صفين وانتهى تسويده عصر يوم الأحد خامس شعبان المعظم سنة ١٣٥٤ على يد مؤلفه العبد الفقير محسن الأمين الحسيني العاملي بمنزله في قرية شقراء من جبل عامل صين عن الآفات والغوائل حامداً مصلياً مسلماً.

إرسال أمير المؤمنين (ع) قيس بن سعد والياً على مصر

كان يلزم تقديم ذلك على وقعة صفين لكن أخرناه لتكون أخبار ولاة مصر متتابعة متوالية من سنة ٣٦ إلى سنة ٣٨.

في صفر سنة ٣٦ أرسل أمير المؤمنين علي عليه السلام قيس بن سعد بن عبادة من المدينة إلى مصر والياً عليها. وكان ذا رأي وبأس وحزم ومن شيعة أمير

المؤمنين عليه السلام ومناصحيه. قال ابن الأثير وإبراهيم بن سعد بن هلال الثقفي في كتاب الغارات فيما حكاه عنه ابن أبي الحديد: قال أمير المؤمنين لقيس: ائتها ـ أي مصر ـ بجند فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك وأحسن إلى المحسن وأشدد على المريب وأرفق بالعامة فإن الرفق يمن فقال: أما الجند فأدعه لك وأما ما وصيتني به من الرفق والإحسان فالله تعالى هو المستعان على ذلك. فدخلها في سبعة من أهله ـ وذلك يدل على حزمه وشدة ثقته بنفسه ـ فصعد المنبر وأمر بكتاب أمير المؤمنين (ع) فقرىء على أهل مصر بإمارته وبأمرهم بمبايعته ومساعدته على الحق ثم قام فخطب (خطبة مختصرة جمعت فأوعت) فقال: الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين. أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم. فبايعه الناس إلا أهل قرية يقال لها خربتا كان أهلها عثمانية فهادنهم وجبى الخراج ليس أحد ينازعه وخرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى الجمل ورجع وهو بمكانه فكان أثقل خلق الله على معاوية مخافة أن يقبل علي في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية إلى قيس يلزمه بدم عثمان ويطلب منه مبايعته ويعده بسلطان العراق له وسلطان الحجاز لمن أحب من أهله، فأجابه قيس مخادعاً بأنه ينظر في ذلك، فأجابه معاوية مصرحاً وقال: إنه ليس مثلي يصانع بالخداع ولا يخادع بالمكائد، فأجابه قيس حينئذ جواباً صريحاً وتهدده أيضاً فأيس منه معاوية وعمد إلى حيلة أخرى فأظهر لأهل الشام إن قيساً صار موالياً له مساعداً على الطلب بدم عثمان وزور كتاباً عن قيس له بذلك وقرأه على أهل الشام فبلغ ذلك علياً من عيونه بالشام ومن محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب فأعظمه وأكبره وقال: والله ما أصدق بهذا عنه.

عزل قيس عن مصر وتولية محمد بن أبي بكر

فأشار عليه عبد اللّه بن جعفر بعزل قيس وجاء كتاب قيس يخبر بحال أهل خربتا وكفه عن قتالهم، فقال ابن جعفر: ما أخوفني أن يكون ذلك ممالأة

منه فمره بقتالهم. فأمره به. فأجابه: قد عجبت لأمرك بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم فإن الرأي تركهم، فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين ابعث محمد بن أبي بكر على مصر واعزل قيساً فقد بلغني أن قيساً يقول إن سلطاناً لا يستقيم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء. وكان ابن جعفر أخا محمد بن أبي بكر لأمه أمهما معاً أسماء بنت عميس، فولى محمداً مصر فغضب قيس وذهب إلى المدينة فشمت به حسان بن ثابت وكان عثمانياً فقال له: قتلت عثمان وعزلك علي فبقي عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر، فقال له قيس: يا أعمى القلب والبصر والله لولا أن ألقي بين قومي وقومك حرباً لضربت عنقك أخرج عني. ثم خرج قيس هو وسهل بن حنيف إلى علي فشهدا معه صفين وكتب أمير المؤمنين عليه السلام مع محمد كتاباً إلى أهل مصر يخاطبهم فيه ويخاطب محمداً وهو كتاب طويل جداً جليل يشتمل على وصايا جليلة وآداب عظيمة قال إبراهيم: فكان محمد ينظر في هذا الكتاب ويتأدب بآدابه فلما قتله عمرو بن العاص بعث به إلى معاوية ينظر فيه ويتعجب منه فقال له الوليد بن عقبة: مر بهذه الأحاديث أن تحرق فقال: لا أرى ذلك. قال: أفمن الرأي أن يعرف الناس أن أحاديث أبي تراب عندك تتعلم منها. قال: ويحك أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم، فقال: إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله ثم قال لجلسائه: إنا لا نقول هذه من كتب علي بن أبي طالب بل من كتب أبي بكر كانت عند ولده فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فهو الذي أظهر إنها من أحاديث علي بن أبي طالب وكلامه. وبعث محمد بن أبي بكر إلى المعتزلين إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا عنا فأجابوه لا نفعل وطلبوا المهلة فأبى عليهم فامتنعوا وكانت وقعة صفين وهم هائبون لمحمد فلما رجع علي عن معاوية وصار الأمر إلى التحكيم طمعوا في محمد فبعث إليهم محمد بن الحارث الجعفي فقاتلهم فقاتلوه وقتلوه فبعث إليهم آخر فقتلوه.

إرسال الأشتر والياً على مصر وقتله

فلما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام اضطراب أمر مصر على محمد قال: لا يصلح لمصر إلا قيس أو الأشتر وكان الأشتر بعد صفين قد عاد إلى عمله بالجزيرة وقال علي لقيس: أقم عندي على شرطتي حتى تنقضي الحكومة ثم تسير إلى أذربيجان وأرسل إلى الأشتر وهو بنصيبين فاستدعاه وولاه مصر وكتب له عهداً مشهوراً مذكوراً في نهج البلاغة فيه من ضروب السياسة وآداب الحكام والولاة وغير ذلك كنز ثمين، وبلغ محمداً عزله بالأشتر فاستاء لذلك فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهد ولا ازدياداً لك في الجد، ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤنة وأعجب إليك ولاية. فبعث معاوية إلى المقدم على أهل الخراج بالقلزم أن يسم الأشتر وتكفل له بإسقاط الخراج عنه ما داما حيين فسمه في شربة من عسل وهو صائم وجعل معاوية يقول لأهل الشام أن علياً قد وجه الأشتر إلى مصر فادعوا عليه فدعوا عليه كل يوم فلما بلغه الذي سقاه السم موته خطب أهل الشام فقال لهم: قد استجاب الله دعاءكم وقال: كانت لعلي يمينان قطعت إحداهما بصفين يعني عمار بن ياسر وقطعت الأخرى اليوم يعني الأشتر، وقال: إن لله جنوداً من عسل، ولما بلغ علياً قتله قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مالك وما مالك وهل موجود مثل ذلك، لو كان من حديد لكان فنداً أو من حجر لكان صلداً على مثله فلتبك البواكي.

فتح عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن أبي بكر

ثم إن عمرو بن العاص سار إلى مصر في ستة آلاف فكتب محمد بن أبي بكر إلى أمير المؤمنين (ع) يستصرخه فندب الناس إلى نصرته فما اجتمع له إلا ألفان بعد شهر مع مالك بن كعب فسار بهم خمس ليال فبلغهم قتل محمد وفتح مصر فرجعوا، ولما قتل محمد بن أبي بكر وضعوه في جيفة حمار وأحرقوه

بالنار، وهكذا يكون لؤم الغلبة. وقدم على أمير المؤمنين عينه بالشام فأخبره بسرورهم بقتل محمد فقال: أما إن حزننا عليه بقدر سرورهم به لا بل يزيد أضعافاً فعند الله نحتسبه أما والله إن كان كما علمت لممن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحب هدي المؤمن، وكان ذلك سنة ٣٨، وكتب أمير المؤمنين إلى ابن عباس وهو على البصرة يخبره بفتح مصر وقتل محمد فأجابه ابن عباس عن كتابه ثم قدم عليه إلى الكوفة يعزيه بمحمد وكان محمد ربيب أمير المؤمنين تزوج أمه أسماء بنت عميس بعد وفاة زوجها أبي بكر وكانت قبل أبي بكر عند جعفر بن أبي طالب وكانت كابنها محمد من خيار شيعة أمير المؤمنين (ع). وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج ج٢ ص ٥٧٥ في شرح قول أمير المؤمنين (ع): والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر الخ عند ذكر الأمور التي ينسب إليه فيها من لا يعرف حقيقته ضعف الرأي ما مثاله: ومنها تعلقهم بتولية أمير المؤمنين (ع) محمد بن أبي بكر مصر وعزله قيس بن سعد عنها حتى قُتل محمد بها واستولى معاوية عليها (والجواب) أن يقال: إنه ليس يمكن أن يقال إن محمداً لم يك بأهل لولاية مصر لأنه كان شجاعاً زاهداً فاضلاً صحيح العقل والرأي وممن لايتهم ولا يرتاب بنصحه وهو ربيبه وخريجه ثم كان المصريون على غاية المحبة له والإيثار لولايته ولما حاصروا عثمان وطالبوه بعزل عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح عنهم اقترحوا تأمير محمد بن أبي بكر على مصر لما ظهر من ميل المصريين إليه وإيثارهم له واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه فكان الظن قوياً باتفاق الرعية على طاعته وانقيادهم إلى نصرته واجتماعهم على محبته فكان من أمره ما كان وليس ذلك بعيب على أمير المؤمنين (ع) فإن الأمور إنما يعتمدها الإمام على حسب ما يظن فيها من المصلحة ولا يعلم الغيب إلا الله وقد ولى رسول الله ﷺ جعفراً وزيداً وعبد اللّه بن رواحة يوم مؤتة فقتلوا وهزم الجيش وعاد من عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال، فهل لأحد أن يعيب رسول الله ﷺ بذلك ويطعن في تدبيره «اهـ».

إرسال معاوية عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة لإلقاء الفتنة

قال ابن الأثير: في سنة ٣٨ بعد مقتل محمد بن أبي بكر أرسل معاوية عبد اللّه بن الحضرمي إلى البصرة (لإيقاع الفتنة والفساد) لعلمه أن جل أهلها عثمانية وإنهم حنقون لما أصابهم يوم الجمل وكان ابن عباس أميرهم قد ذهب إلى الكوفة (ليعزي أمير المؤمنين (ع) عن محمد بن أبي بكر) واستخلف على البصرة زياد بن أبيه فنزل ابن الحضرمي في بني تميم فأتاه العثمانية وغيرهم فخطبهم ودعاهم إلى الطلب بدم عثمان فقام الضحاك بن قيس الهلالي وكان على شرطة ابن عباس فقال: قبَّح الله ما جئتنا به أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير. أتيانا وقد بايعنا علياً واستقامت أمورنا فحملانا على الفرقة ونحن الآن مجتمعون على بيعته وقد أقال العثرة وعفا عن المسيء أفتأمرنا أن ننتضي أسيافنا يضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً والله ليوم من أيام علي خير من معاوية وآل معاوية فرد عليه عبد اللّه بن حازم السلمي وأجاب إلى ما دعا إليه الضحاك وقال له: اقرأ كتاب معاوية فقرأه وفيه الدعوة إلى الطلب بدم عثمان ووعده بأنه يعطيهم عطائين في السنة (ترغيباً لهم في المال) فقال الأحنف: لا ناقتي في هذا ولا جملي واعتزل، وقام عمر بن مرجوم العبدي فدعا إلى لزوم الطاعة وعدم نكث البيعة وخالفه عباس بن صحار العبدي وكان مخالفاً لقومه في حب علي (ع) فأجاب إلى نصرة ابن الحضرمي فرد عليه المثنى بن مخرمة العبدي فخاف زياد فاستجار بحضين بن المنذر ومالك بن مسمع فقال حضين: نعم وقال مالك ـ وكان مائلاً إلى بني أمية ـ أستشير وأنظر، فلما رأى زياد تثاقل مالك خاف أن تختلف عليه ربيعة فاستجار بصبرة بن شيمان الحداني فنقل بيت المال إلى داره، وكتب زياد إلى أمير المؤمنين (ع) بالخبر فأرسل إليه أعين بن ضبيعة المجاشعي ثم التميمي ليفرق قومه عن ابن الحضرمي فإن امتنعوا قاتل بمن أطاعه من عصاه، فأتى قومه ونهض إلى ابن الحضرمي بمن معه ودعاهم فشتموه وواقفهم نهاره ثم انصرف فدخل عليه قوم قيل إنهم من الخوارج وقيل وضعهم ابن الحضرمي على قتله وكان معهم فقتلوه غيلة، وكتب زياد إلى

علي (ع) بذلك فأرسل جارية بن قدامة السعدي مع جماعة فقرأ عليهم كتاب علي (ع) يوبخهم ويتهددهم بالمسير إليهم والإيقاع بهم وقعة لا تكون وقعة الجمل عندها شيئاً. وسار جارية إلى ابن الحضرمي ومعه الأزد ومن يتبعه من قومه فاقتتلوا ساعة وانهزم ابن الحضرمي وتحصن بقصر فأحرق جارية القصر بمن فيه وهلك ابن الحضرمي مع سبعين رجلاً (وهكذا آخر الدواء الكي).

غارة الضحاك بن قيس الفهري على الحاج ونهبه الأموال وقتله النفوس البريئة بأمر معاوية بعد الحكمين وقبل وقعة النهروان

في شرح النهج[1] روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب الغارات إن غارة الضحاك بن قيس كانت بعد الحكمين وقبل قتال النهروان وذلك إن معاوية لما بلغه أن علياً عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمل إليه مقبلاها له ذلك فخرج من دمشق معسكراً وبعث إلى كور الشام نسخة واحدة فقرئت على الناس وفيها إنا كنا كتبنا كتاباً بيننا وبين علي وشرطنا فيه شروطاً وحكمنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه وجعلنا عهد الله وميثاقه على من نكث العهد ولم يمض الحكم وإن حكمي أثبتني وحكمه خلعه وقد أقبل إليكم ظالماً ومن نكث فإنما ينكث على نفسه تجهزوا للحرب بأحسن الجهاز يسرنا الله وإياكم لصالح الأعمال. فاجتمع إليه الناس فاستشار أصحابه وقال: إن علياً قد خرج من الكوفة وعهد العاهد به أنه قد فارق النخيلة فأشار حبيب بن مسلمة بالذهاب إلى صفين وأشار عمرو بن العاص بالإيغال في الجزيرة فمكثوا يومين أو ثلاثة يجيلون الرأي حتى قدمت عليهم عيونهم إن علياً فارقته فرقة أنكروا أمر التحكيم وأنه قد رجع عنكم إليهم فكبر الناس سروراً بذلك ثم جاء الخبر بقتل الخوارج وأن علياً أراد بعد قتلهم أن يقبل إليكم ولكن أصحابه استنظروه فسروا بذلك. قال الطبري: وكان عمارة بن عقبة بن أبي

---

(١) ج١ ص١٥٣ ـ ١٥٤.

معيط مقيماً بالكوفة بعد قتل عثمان لم يهجه علي ولم يذعره (تكرماً منه وتمسكاً بالدين) وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سراً وروى ابن إسحق أنه جاء كتاب عمارة إلى معاوية وهو معسكر بأن علياً خرج عليه قراء أصحابه ونساكهم فقتلهم وقد فسد عليه جنده قال: فدعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف وقال سر حتى تمر بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليها فأقبل الضحاك فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب حتى مر بالثعلبية فأغار على الحاج فأخذ أمتعتهم ثم لقي عمرو بن عميس بن مسعود الذهلي وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود الصحابي فقتله في طريق الحاج عند القطقطانة وقتل معه ناساً من أصحابه (اهـ) وكان ذلك كله اجتهاداً يثاب فاعله!! فخطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس وأنبهم وحثهم على الخروج إلى عدوهم فردوا عليه رداً ضعيفاً ورأى منهم عجزاً وفشلاً ثم نزل فخرج يمشي حتى بلغ الغريين ثم دعا حجر بن عدي الكندي فعقد له أربعة آلاف فخرج حجر حتى مر بالسماوة وهي أرض كلب فلقي بها امرأ القيس بن عدي الكلبي وهم أصهار الحسين (ع) (لأن الحسين (ع) كان متزوجاً الرباب ابنة امرؤ القيس هذا) فكانوا أدلاءه على الطريق وعلى المياه فلم يزل مغذاً في أثر الضحاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقعه فاقتتلوا ساعة فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً وقتل من أصحاب حجر رجلان وحجز الليل بينهم فلما أصبحوا لم يجدوا للضحاك ولا لأصحابه أثراً (اهـ).

أخباره مع أخيه عقيل

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج[1]: لم يشهد عقيل مع أخيه أمير المؤمنين شيئاً من حروبه أيام خلافته وعرض نفسه وولده عليه فأعفاه ولم يكلفه حضور الحرب ثم قال: واختلف الناس في عقيل هل التحق بمعاوية وأمير

---

(١) ج٣ ص٨٢.

المؤمنين حي فقال قوم: نعم ورووا أن معاوية قال يوماً وعقيل عنده هذا أبو يزيد لولا علمه إني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه، فقال عقيل: أخي خير لي في ديني وأنت خير لي في دنياي وقد آثرت دنياي وأسأل الله خاتمة خير. وقال أيضاً[1]: روي أن عقيلاً قدم على أمير المؤمنين فوجده جالساً في صحن مسجد الكوفة فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وكان عقيل قد كف بصره فقال: والسلام عليك يا أبا يزيد ثم التفت إلى ابنه الحسن فقال: قم فأنزل عمك فقام فأنزله إليه ثم عاد فقال: اذهب فاشتر لعمك قميصاً جديداً ورداء جديداً وإزاراً جديداً ونعلاً جديداً فذهب فاشترى له فغدا عقيل على علي (ع) في الثياب فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين قال: وعليك السلام يا أبا يزيد قال: يا أمير المؤمنين ما أراك أصبت من الدنيا شيئاً وإني لا ترضى نفسي من خلافتك ما رضيت به لنفسك فقال: يا أبا يزيد يخرج عطائي فأدفعه إليك فلما ارتحل عن أمير المؤمنين أتى معاوية فأمر له بمائة ألف فقبضها ثم غدا عليه يوماً بعد ذلك وبعد وفاة أمير المؤمنين وبيعة الحسن لمعاوية (الحديث) ثم قال ابن أبي الحديد في تتمة كلامه السابق: وقال قوم إنه لم يأت إلى معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام واستدلوا على ذلك بالكتاب الذي كتبه إليه في آخر خلافته والجواب الذي أجابه عليه السلام قال: وهذا القول هو الأظهر عندي (اهـ) وأشار بالكتاب والجواب إلى ما رواه ابن إسحق في كتاب الغارات قال: كتب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام في أثر وقعة الضحاك بن قيس حين بلغه خذلان أهل الكوفة وتقاعدهم به (ومر ذكر غارة الضحاك آنفاً).

وقعة النهروان مع الخوارج سنة ٣٧ وقيل سنة ٣٨

الخوارج هم الذين أنكروا التحكيم الذي وقع يوم صفين وقالوا: لا حكم إلا لله وقد مر ذكر أول من قال ذلك ويقال لهم الحرورية أيضاً لأنهم في أول

---

(١) ج١ ص١٥٧.

أمرهم اجتمعوا بمكان يقال له حروراء وقاتلهم علي (ع) وقتلهم بمكان يسمى النهروان وهو موضع بين بغداد وحلوان فسميت الوقعة به. وأساس عقيدتهم تولي الشيخين والبراءة من الصهرين فيتولون عثمان إلى حين وقوع الأحداث ويتولون علياً إلى حين وقوع التحكيم وهم القراء الذين كانوا في صفين وقد اسودت جباههم من طول السجود وقال لهم أمير المؤمنين (ع) إنها حيلة فلم يقبلوا وأجبروه على التحكيم ثم أنكروه ثم كانت لهم وقائع مشهورة مذكورة في كتب التواريخ في زمان ملوك بني أمية وبني العباس ولا يزال منهم طائفة إلى اليوم في زنجبار والمغرب وشمال افريقية وغيرها.

وروى الطبري في تاريخه أن علياً لما أراد أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي فقالا له: لا حكم إلا لله فقال علي: لا حكم إلا لله. قال له حرقوص: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا فقال: قد أردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا وقد قال الله عز وجل: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً. فقال له حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه قال علي: ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي وضعف من الفعل وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه. فقال له زرعة: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك اطلب بذلك وجه الله ورضوانه، قال علي: بؤساً لك ما أشقاك كأني بك قتيلاً تسفي عليك الريح.. قال: وددت أنه كان ذلك. قال له علي: لو كنت محقاً كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا، إن الشيطان قد استهواكم فاتقوا الله. فخرجا من عنده يحكمان. وخرج علي ذات يوم يخطب فإنه لفي خطبته إذ حكّمت المحكمة في جوانب المسجد، فقال: الله أكبر، كلمة حق يراد بها باطل. وقال له رجل منهم يوماً وهو يخطب: ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين. فقال علي: فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

وروى الطبري أنه لما وقع التحكيم ورجع علي من صفين رجعوا مباينين له فلما انتهوا إلى النهر أقاموا به فدخل علي في الناس الكوفة ونزلوا بحروراء قال ابن الأثير: لما رجع علي من صفين فارقه الخوارج وأتوا حروراء فنزلوا بها اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم: أمير القتال شبث بن ربعي وأمير الصلاة عبد اللّه بن الكوا، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقامت الشيعة فقالوا لعلي في أعناقنا بيعه ثانية نحن أولياء من واليت أعداء من عاديت، فقالت الخوارج: استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا وبايعتم علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى، فقال لهم زياد بن النضر: أما والله ما بايعنا علياً إلا على كتاب الله وسنة نبيه ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت ونحن كذلك وهو على الحق والهدى ومن خالفه ضال مضل. (قال الطبري) وبعث إليهم ابن عباس فرجع ولم يصنع شيئاً. وقال المبرد وغيره لما وجه ابن عباس إليهم ليناظرهم قال لهم: ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين؟ قالوا له: قد كان للمؤمنين أميراً فلما حكم في دين الله خرج من الإيمان فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له. فقال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يقر على نفسه بالكفر قالوا: إنه حكم. قال: إن الله أمر بالتحكيم في قتل صيد قال: يحكم به ذوا عدل منكم فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين؟ فقالوا: إنه حكم عليه فلم يرض فقال: إن الحكومة كالإمامة ومتى فسق الإمام وجبت معصيته وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما فقال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاج قريش حجة عليهم فهذا من الذين قال الله فيهم: بل هم قوم خصمون وقال جل شأنه: وتنذر به قوماً لداً. قال المبرد ثم ناظرهم أمير المؤمنين بعد مناظرة ابن عباس فكان فيما قال لهم: ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم إن هذه مكيدة وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لأتوني وسألوني أفتعلمون أن أحداً كان أكره للتحكيم مني؟ قالوا: صدقت قال: فهل تعلمون أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه فاشترطت أن حكمها نافذ

ما حكما بحكم الله فمتى خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدوني قالوا: اللهم نعم فقالوا: حكّمت في دين الله برأينا ونحن مقرون بأنا كفرنا ولكننا الآن تائبون فأقر بما أقررنا به وتب ننهض معك إلى الشام قال: أما تعلمون أن الله قد أمر بالتحكيم في شقاق بين الرجل وامرأته فقال سبحانه: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وفي صيد أصيب كأرنب يساوي نصف درهم فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فقالوا له: فإن عمراً لما أبى عليك أن تقول في كتابك هذا ما كتبه عبد اللّه علي أمير المؤمنين محوت اسمك من الخلافة وكتبت علي بن أبي طالب فقد خلعت نفسك فقال: لي برسول الله ﷺ أسوة حين أبي عليه سهيل بن عمرو أن يكتب هذا كتاب كتبه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو وقال: لو أقررت بأنك رسول الله ما خالفتك ولكن أقدمك لفضلك فاكتب محمد بن عبد اللّه فقال لي: يا علي امح رسول الله فقلت: يا رسول الله لا تشجعني نفسي على محو اسمك من النبوة فمحاه بيده ثم قال: اكتب محمد بن عبد اللّه ثم تبسم إلي وقال: يا علي أما إنك ستسام مثلها فتعطي فرجع معه ألفان من حروراء وكانوا تجمعوا بها فسموا الحرورية. قال المبرد ومن شعر أمير المؤمنين الذي لا اختلاف فيه أنه قاله وكان يردده لما ساموه أن يقر بالكفر ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام فقال: أبعد صحبة رسول الله ﷺ والتفقه في الدين أرجع كافراً ثم قال:

يا شاهد اللّه علي فاشهد   إني على دين النبي أحمد
من شك في اللّه فإني مهتدي

وفي رواية ذكرها المبرد في الكامل أيضاً أنه عليه السلام خرج إليهم إلى حروراء فقال: هذا مقام من فلج فيه اليوم فلج يوم القيامة ثم كلمهم وناشدهم فقالوا: إنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم وقد تبنا فتب إلى الله كما تبنا نعد معك فقال علي (ع): أنا أستغفر الله من كل ذنب فرجعوا معه وهم ستة آلاف فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ورآه ضلالاً فأتى الأشعث علياً فقال: يا أمير المؤمنين إن الناس قد تحدثوا إنك رأيت الحكومة ضلالاً والإقامة

عليها كفراً فقام علي يخطب فقال: من زعم إني رجعت عن الحكومة فقد كذب ومن رآها ضلالاً فقد ضل فخرجت الخوارج من المسجد فحكّمت. قال ابن أبي الحديد: كل فساد في خلافة علي أصله الأشعث ولولا فعله هذا لم يكن حرب النهروان فإنه عليه السلام أراد أن يسلك معهم مسلك التعريض فقال لهم كلمة مجملة يقولها الأنبياء والمعصومون فرضوا بها فألجأه الأشعث إلى التصريح حيث سأله بحضور من لا يمكنه معه إلا التصريح فانتقض ما دبره. قال الطبري لما بعث علي (ع) أبا موسى لإنفاذ الحكومة اجتمعت الخوارج في منزل عبد اللّه بن وهب الراسبي فخطبهم وقال: اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها ثم ولوه أمرهم وكاتبوا من بالبصرة وتعبدوا ليلة الجمعة ويومها وساروا يوم السبت حتى نزلوا جسر النهروان فأتى علياً أصحابه وشيعته فبايعوه وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت فشرط لهم في سنة رسول الله ﷺ فجاء ربيعة بن أبي شداد الخثعمي وكان شهد معه الجمل وصفين ومعه راية خثعم فقال له علي (ع): بايع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال: على سنة أبي بكر وعمر فقال علي: ويلك لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسوله لم يكونا على شيء من الحق فبايعه فنظر إليه علي وقال: أما والله لكأني بك وقد نفرت مع هذه الخوارج فقتلت وكأني بك وقد وطأتك الخيل بحوافرها فقتل يوم النهر مع خوارج البصرة.

وأما خوارج البصرة فاجتمعوا في خمسمائة وجعلوا عليهم مسعر بن فدكي التميمي فعلم بهم ابن عباس فأتبعهم أبا الأسود الدؤلي فلحقهم بالجسر الأكبر فتواقفوا حتى حجز بينهم الليل وأدلج مسعر بأصحابه حتى لحق بعبد الله بن وهب بالنهر وقام علي (ع) في الكوفة فخطبهم فقال: الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

إلا أن هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهم وكلاهما لم يرشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين، ثم نزل وكتب إلى الخوارج: إن الرجلين الذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله واتبعا أهواءهما فأقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الذي كنا عليه. فكتبوا إليه: إنك لم تغضب لربك إنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء أن الله لا يحب الخائنين. فأيس منهم ورأى أن يدعهم ويمضي بالناس إلى أهل الشام وكتب إلى عبد الله بن عباس أمير البصرة يأمره بأشخاص أهلها إليه فقرأ عليهم الكتاب وأمرهم بالشخوص مع الأحنف فشخص معه منهم ألف وخمسمائة فاستقبلهم ابن عباس فخطبهم وقال لم يشخص منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألفاً ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي. وتهدد من يتأخر وأمر أبا الأسود بحشرهم فاجتمع إلى جارية ألف وسبعمائة فقدموا عليه بالنخيلة ثم جمع رؤساء أهل الكوفة وقال: أنتم أخواني وأنصاري وأعواني على الحق وصحابتي على جهاد عدوي المحلين، بكم أضرب المدبر وأرجو تمام طاعة المقبل، وطلب إليهم أن يكتب له كل رئيس ما في عشيرته فقام سعيد بن قيس الهمداني فقال: يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة ووداً ونصيحة أنا أول الناس جاء بما سألت وقام معقل بن قيس الرياحي فقال له نحواً من ذلك وقام عدي بن حاتم وزياد بن خصفة وحجر بن عدي وأشراف الناس والقبائل فقالوا مثل ذلك فرفعوا إليه خمسة وستين ألفاً فكانوا مع أهل البصرة ثمانية وستين ألفاً ومائتين وبلغه أن الناس يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم ثم خرجنا إلى المحلين فخطبهم وقال: إن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم فدعوا ذكرهم وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ملوكاً

ويتخذوا عباد الله خولاً. فتنادوا من كل جانب: سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت وقام صيفي بن فسيل الشيباني فقال: يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك نعادي من عاديت ونشايع من أناب إلى طاعتك فسر بنا إلى عدوك من كانوا وأينما كانوا فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية أتباع، وقام إليه محرز بن شهاب التميمي من بني سعد فقال: يا أمير المؤمنين شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على نصرتك والجد في جهاد عدوك فأبشر بالنصر وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت فإنا شيعتك الذين نرجو في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب ونخاف في خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال. وقال المسعودي كان علي انفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين ألفاً وأتاه من البصرة من قبل ابن عباس وكان عامله عليها عشرة آلاف فيهم الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة السعدي وذلك في سنة ٣٨ فنزل على الأنبار والتأمت إليه العساكر فخطب الناس وحرضهم على الجهاد وقال سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قد طالما سعوا في إطفاء نور الله وحرضوا على قتل رسول الله ﷺ ومن معه إلا أن رسول الله أمرني بقتال الناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم والمارقين ولم نلقهم بعد فسيروا إلى القاسطين فهم أهم علينا من الخوارج، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أرباباً ويتخذون عباد الله خولاً ومالهم دولاً فأبوا إلا أن يبدأوا بالخوارج (اهـ) وأما الخوارج فقد قال أبو العباس المبرد في الكامل إنهم مضوا إلى النهروان فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر لأنه على خلاف معتقدهم واستوصوا بالنصراني وقالوا احفظوا ذمة نبيكم. قال ونحو ذلك أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فأحس بالخوارج فقال واصل لأهل الرفقة إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم وكانوا قد أشرفوا على العطب، فقالوا شأنك، فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: قوم مشركون مستجيرون بكم ليسمعوا كلام الله ويفهموا حدوده قالوا قد أجرناكم. قال: فعلمونا فجعلوا يعلمونهم أحكامهم. ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي قالوا فامضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا

فقال: بل تبلغوننا مأمناً لأن الله تعالى يقول وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه قال فينظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا ذاك لكم فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن. قال ولقيهم عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ في عنقه مصحف على حمار ومعه امرأته وهي حامل فقالوا له إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك فوثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فيه فصاحوا به فلفظها تورعاً وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله فقالوا هذا فساد في الأرض. قال الطبري: فأتى صاحب الخنزير فأرضاه فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علي منكم بأس أني لمسلم ما أحدثت في الإسلام حدثاً ولقد آمنتموني قلتم لا روع عليك وكانوا قالوا له ذلك لما لقيهم، قال المبرد: فقالوا له: ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إن علياً أعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة، قالوا إنك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائهم، قال الطبري: قالوا والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً فأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متم فأضجعوه فذبحوه وسال دمه في الماء وأقبلوا إلى المرأة فقالت: إني إنما أنا امرأة ألا تتقون الله فبقروا بطنها وقتلوا ثلاث نسوة من طيء وقتلوا أم سنان الصيداوية قال المبرد وساوموا رجلاً نصرانياً بنخلة له فقال هي لكم فقالوا ما كنا نأخذها إلا بثمن فقال واعجباه أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون جنى نخلة إلا بثمن، وقال المسعودي: اجتمعت الخوارج في أربعة آلاف فبايعوا عبد الله بن وهب الراسبي ولحقوا بالمدائن وقتلوا عبد الله بن خباب عامل علي عليها ذبحوه ذبحاً وبقروا بطن امرأته وكانت حاملاً وقتلوا غيرها من النساء قال الطبري فبلغ علياً قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس فبعث إليهم الحارث بن مرة العبدي لينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فقال له الناس: علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا سر بنا إليهم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام وقام إليه الأشعث الكندي فكلمه بمثل ذلك وكان الناس يتهمونه قبل أن يقول ذلك أنه

يرى رأيهم فنادى علي (ع) بالرحيل وسار إليهم وقال المسعودي بعث إليهم بالحارث بن مرة العبدي رسولاً يدعوهم إلى الرجوع فقتلوه وبعثوا إلى علي إن تبت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماماً فإنا منك براء. فبعث إليهم علي أن ابعثوا إلي بقتلة إخواني فأقتلهم ثم أتارككم إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ولعل الله يقلب قلوبكم. فبعثوا إليه كلنا قتلة أصحابك وكلنا مستحل لدمائهم مشتركون في قتلهم (اهـ) وروى إبراهيم بن ديزيل في كتاب صفين أنه لما عزم علي عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحرورية قال له منجم من أصحابه اسمه مسافر بن عفيف الأزدي يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة وسر في ساعة كذا فإنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابك أذى وضر شديد وإن سرت في الساعة التي أقول لك ظفرت وظهرت فقال له علي (ع): أتدري ما في بطن فرسي؟ قال إن حسبت علمت. فقال: من صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ «الآية» ثم قال: إن محمداً ﷺ ما كان يدعي علم ما ادعيت. أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها وتصرف عن الساعة التي يحيق السوء بمن سار فيها فمن صدقك بهذا فقد استغنى عن الاستعانة بالله وينبغي للموقن بأمرك أن يوليك الحمد دون الله فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضداً ونداً اللهم لا طير إلا طيرك ولا ضير إلا ضيرك ولا إله غيرك ثم قال نخالف ونسير في الساعة التي نهيت عنها ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إياكم والتعلم للنجوم إلا ما يهتدى به في ظلمات البر والبحر وإنما المنجم كالكاهن والكاهن كالكافر والكافر في النار أما والله لئن بلغني أنك تعمل بالنجوم لأخلدنك السجن ولأحرمنك العطاء ثم سار في الساعة التي نهاه عنها فظفر ثم قال لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها لقال الناس ظفر لأنه سار في الساعة التى أمره أما أنه ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده. قال المسعودي: وأخبره الرسول (الذي أرسله إليهم فأجابوه بأنا كلنا قتلة أصحابك) وكان من يهود السواد أن القوم قد

عبروا نهر طبرستان وهذا النهر في هذا الوقت عليه قنطرة تعرف بقنطرة طبرستان بين حلوان وبغداد فقال علي: والله ما عبروه ولا يقطعونه حتى نقتلهم بالرميلة دونه ثم تواترت عليه الأخبار بقطعهم لهذا النهر وعبورهم هذا الجسر وهو يأبى ذلك ويحلف أنهم لم يعبروه وإن مصارعهم دونه. وقال ابن الأثير: ثم إن الخوارج قصدوا جسر النهر وكانوا غربه فقال لعلي أصحابه إنهم قد عبروا النهر فقال لن يعبروا فأرسل طليعة فعاد وأخبره أنهم عبروا النهر وكان بينهم وبينه عطفة من النهر فلخوف الطليعة منهم لم يقربهم فعاد فقال إنهم عبروا النهر.

قال المدائني في كتاب الخوارج: لما خرج علي (ع) إلى أهل النهر أقبل رجل من أصحابه ممن كان على مقدمته يركض حتى انتهى إلى علي (ع) فقال البشرى يا أمير المؤمنين قال ما بشراك قال إن القوم عبروا النهر لما بلغهم وصولك فأبشر فقد منحك الله أكتافهم فقال له: الله أنت رأيتهم قد عبروا؟ قال: نعم فأحلفه ثلاث مرات في كلها يقول نعم فقال علي عليه السلام والله ما عبروه ولن يعبروه وأن مصارعهم لدون النطفة والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لن يبلغوا الأثلاث ولا قصر بوران حتى يقتلهم الله وقد خاب من افترى. ثم أقبل فارس آخر يركض فقال كقول الأول فلم يكترث علي (ع) بقوله وجاءت الفرسان تركض كلها تقول مثل ذلك فقام علي (ع) فجال في متن فرسه فلما انتهى إلى النهر وجد القوم قد كسروا جفون سيوفهم وعرقبوا خيلهم وجثوا على ركبهم وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زجل. قال المسعودي فسار علي فأشرف عليهم وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة.

قال ابن الأثير في الكامل تقدم علي فرآهم عند الجسر لم يعبروه وكان الناس قد شكوا في قوله وارتاب به بعضهم فلما رأوا الخوارج لم يعبروا كبروا وأخبروا علياً بحالهم فقال والله ما كذبت ولا كذبت.

قال الطبري: فلما وصل النهر بعث إليهم ادفعوا لنا قتلة أخواننا منكم ونقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يردكم إلى

خير مما أنتم عليه فقالوا: كلنا قتلتهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم. وخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم واحتج عليهم وقال لهم: ركبتم عظيماً من الأمر تشهدون علينا بالشرك وتسفكون دماء المسلمين، فلم ينجح ذلك فيهم وخطبهم أبو أيوب الأنصاري فقال: إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها فعلام تقاتلوننا؟ فقالوا: إنا لو تابعناكم اليوم حكمتم غداً. قال: فإني أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل. وقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة وصدها عن الحق الهوى ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم مكيدة ونبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وإني أعرف بهم منكم عرفتهم أطفالاً ورجالاً وهم أهل المكر والغدر وإنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم، فعصيتموني حتى إذا أقررت بأن حكمت فلما فعلت شرطت واستوثقت فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأول فما الذي بكم ومن أين أتيتم؟ قالوا: إنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا وكنا بذلك كافرين وقد تبنا فإن تبت كما تبنا فنحن منك ومعك وإن أبيت فاعتزلنا فإنا منابذوك على سواء أن الله لا يحب الخائنين. فقال علي: أصابكم حاصب[1] ولا بقي منكم آبر[2] أبعد إيماني برسول الله ﷺ وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، ثم انصرف عنهم فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم وتهيأوا للقاء الرب، الرواح الرواح إلى الجنة، وخرج علي فعبأ أصحابه وعبأت الخوارج. قال الطبري ورفع علي (ع) راية أمان مع أبي أيوب فناداهم من جاء هذه الراية ممن لم يقتل فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو

---

(١) الحاصب الريح الشديد التي تثير الحصباء.

(٢) قال الرضي يروى على ثلاثة أوجه آبر بالراء للذي يأبر النخل أي يلقحه، ويروى آثر بالثاء المثلثة الذي يأثر الحديث أي يحكيه ويرويه قال وهو أصح الوجوه عندي كأنه قال: لا بقي منكم مخبر، ويروى آبز بالزاي المعجمة وهو الواثب.

المدائن فهو آمن فانصرف خمسمائة فارس منهم إلى البندنيجين وخرجت طائفة إلى الكوفة وخرج إلى المدائن نحو مائة وكانوا أربعة آلاف فبقي منهم ألفان وثمانمائة وزحفوا إلى علي. قال المسعودي: وقف عليهم علي بنفسه فدعاهم إلى الرجوع والتوبة فأبوا ورموا أصحابه فقيل له قد رمونا فقال كفوا فكرروا القول عليه ثلاثاً وهو يأمرهم بالكف حتى أتي برجل قتيل متشحط بدمه فقال علي: الله أكبر الآن حل قتالهم احملوا على القوم فحمل رجل من الخوارج على أصحاب علي فجرح فيهم وجعل يغشى كل ناحية ويقول:

أضربهم ولو أرى علياً ... ألبسته أبيض مشرفيا

فخرج إليه علي (ع) وهو يقول:

يا أيهذا المبتغي عليا ... إني أراك جاهلاً شقيا

قد كنت عن كفاحه غنيا ... هلم فابرز ها هنا إليا

وحمل عليه علي فقتله ثم خرج منهم آخر فحمل على الناس ففتك فيهم وجعل يكر عليهم وهو يقول:

أضربهم ولو أرى أبا حسن ... ألبسته بصارمي ثوب غبن

فخرج إليه علي وهو يقول:

يا أيهذا المبتغي أبا حسن ... إليك فانظر أينا يلقى الغبن

وحمل عليه وشكه بالرمح وترك الرمح فيه وانصرف علي وهو يقول لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره وقال المبرد لما واقفهم علي (ع) بالنهروان قال: لا تبدؤوهم حتى يبدؤوكم. فحمل منهم رجل على صف علي فقتل منهم ثلاثة ثم قال:

أقتلهم ولا أرى عليا ... ولو بدا أوجرته الخطيا

فخرج إليه علي (ع) فضربه فقتله فلما خالطه سيفه قال يا حبذا الروحة إلى الجنة فقال عبد الله بن وهب من رؤساء الخوارج: والله ما أدري إلى الجنة أم إلى النار؟ فقال رجل منهم من بني سعد: إنما حضرت اغتراراً بهذا الرجل يعني

عبد الله وأراه قد شك واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس وقال علي (ع): لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة فقتل من أصحابه تسعة أو سبعة وسلم من الخوارج ثمانية، وقال المسعودي إنه قال: والله لا يفلت منهم إلا عشرة ولا يقتل منكم عشرة فقتل من أصحاب علي تسعة ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة. ثم تنادى الخوارج الرواح الرواح إلى الجنة وشدوا على الناس. روى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال التفت علي إلى أصحابه فقال لهم: شدوا عليهم فأنا أول من يشد عليهم وحمل بذي الفقار حملة منكرة ثلاث مرات كل حملة يضرب به حتى يعوج متنه ثم يخرج فيسويه بركبتيه ثم يحمل به حتى أفناهم. قال الطبري فاستقبلت المرامية وجوههم بالنبل وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف فما لبثوهم أن أناموهم، ثم إن صاحب خيلهم لما رأى الهلاك نادى أصحابه أن انزلوا فذهبوا لينزلوا فلم يستقروا حتى حملت عليهم الخيل فأهمدوا في الساعة. وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى قال طعن واحد من الخوارج يوم النهروان فمشى في الرمح وهو شاهر سيفه إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله وهو يقرأ وعجلت إليك رب لترضى.

قال الطبري: وطلب من به رمق منهم فوجدوا أربعمائة رجل فأمر بهم علي (ع) فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة وخذوا ما في عسكرهم من شيء وأما السلاح والدواب وما شهدوا به الحرب فقسمة بين المسلمين وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم رده على أهله، وكان مع الخوارج طرفة بن عدي بن حاتم قتل معهم فدفنه أبوه (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) ودفن رجال من الناس قتلاهم فقال أمير المؤمنين (ع): ارتحلوا إذا تقتلونهم ثم تدفنونهم، فارتحل الناس «اهـ» وقال أمير المؤمنين (ع): لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه.

قال ابن الأثير: ولما فرغ علي من أهل النهر حمد الله وأثنى عليه وقال: إن الله قد أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم بالشام

قالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع بنا إلى مصرنا فلنستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا، وتولى كلامه الأشعث بن قيس فأقبل حتى نزل النخيلة فأمر الناس أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ويقلوا زيارة أبنائهم ونسائهم فأقاموا أياماً ثم تسللوا فدخلوا الكوفة وتركوا المعسكر خالياً إلا رجالاً من وجوه الناس، فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير، وخطبهم مرة بعد مرة فقال: أيها الناس استعدوا للمسير إلى عدوكم ومن في جهاده القربة إلى الله عز وجل ودرك الوسيلة عنده حيارى عن الحق جفاة عن الكتاب فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً وكفى بالله نصيراً، فلم ينفروا، ثم دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم فمنهم المعتل ومنهم المتكره وأقلهم من نشط، فخطبهم فقال: عباد الله ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفاً وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة لله أنتم ما أنتم إلا أسد الشرى في الدعة وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي ما أنتم بركب يصال به لعمر الله لبئس حشاش الحرب أنتم إنكم تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون.

الخوارج بعد النهروان

قال ابن الأثير: لما قتل أهل النهروان خرج أشرس بن عوف الشيباني على علي بالدسكرة في مائتين ثم سار إلى الأنبار فوجه إليه علي الأبرش بن حسان في ثلثمائة فواقعه فقتل أشرس في ربيع الآخر سنة ٣٨.

ثم خرج هلال بن علفة من تيم الرباب ومعه أخوه مجالد فأتى ماسبذان فوجه إليه علي معقل بن قيس الرياحي فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر من مائتين وكان قتلهم في جمادى الأولى سنة ٣٨.

ثم خرج الأشهب أو الأشعث بن بشر من بجيلة في مائة وثمانين رجلاً

فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلى عليهم ودفن من قدر عليه منهم فوجه إليهم علي جارية بن قدامة السعدي وقيل حجر بن عدي فاقتتلوا بجرجرايا من أرض جوخى فقتل الأشهب وأصحابه في جمادى الآخرة سنة ٣٨.

ثم خرج سعيد بن قفل التميمي من تيم الله بن ثعلبة في رجب بالبندنيجين ومعه مائتا رجل فأتى درزنجان وهي من المدائن على فرسخين فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ٣٨.

ثم خرج أبو مريم السعدي التميمي فأتى شهرزور وأكثر من معه من الموالي لم يكن معه من العرب غير ستة هو أحدهم واجتمع معه مائتان وقيل أربعمائة وعاد حتى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة فأرسل إليه علي يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة فلم يفعل وقال: ليس بيننا غير الحرب. فبعث إليه علي شريح بن هانىء في سبعمائة فحمل الخوارج على شريح وأصحابه فانكشفوا وبقي شريح في مائتين فانحاز إلى قرية فتراجع إليه بعض أصحابه ودخل الباقون الكوفة فخرج علي بنفسه وقدم بين يديه جارية بن قدامة السعدي فدعاهم جارية إلى طاعة علي وحذرهم القتل فلم يجيبوا ولحقهم علي أيضاً فدعاهم فأبو عليه وعلى أصحابه فقتلهم أصحاب علي ولم يسلم منهم غير خمسين رجلاً استأمنوا فأمنهم وكان في الخوارج أربعون جريحاً فأمر علي بإدخالهم الكوفة ومداواتهم حتى برئوا، وكان قتلهم في شهر رمضان سنة ٣٨ وكانوا من أشجع من قاتل من الخوارج ولجرأتهم قاربوا الكوفة.

خبر الخريت بن راشد الناجي ومصقلة بن هبيرة الشيباني مع أمير المؤمنين علي عليه السلام

قال ابن الأثير: في حوادث سنة ٣٨ في هذه السنة أظهر الخريت بن راشد من بني ناجية الخلاف على علي أمير المؤمنين وكان مع علي من بني ناجية ثلثمائة خرجوا معه من البصرة وشهدوا معه الجمل وصفين فجاء الخريت إلى أمير

المؤمنين في ثلاثين راكباً فقال له: يا علي والله لا أطيع أمرك ولا أصلي خلفك وإني غداً مفارق لك. فقال له: ثكلتك أمك إذاً تعصي ربك وتنكث عهدك ولا تضر إلا نفسك خبرني لم تفعل ذلك؟ قال: لأنك حكمت وضعفت عن الحق وركنت إلى القوم الذين ظلموا، فقال له: هلم أدارسك الكتاب وأناظرك في السنن وأفاتحك أموراً أنا أعلم بها منك فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكر، قال: فإني عائد إليك، قال: لا يستهوينك الشيطان ولا يستخفنك الجهال والله لئن استرشدتني وقبلت مني لأهدينك سبيل الرشاد، فخرج وسار من ليلته بأصحابه، فقال علي: بعداً لهم كما بعدت ثمود إن الشيطان اليوم استهواهم وأضلهم وهو غداً متبرىء منهم، فقال له زياد بن خصفة البكري من بكر بن وائل: يا أمير المؤمنين إنه لم يعظم علينا فقدهم فتأسى عليهم لكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة فائذن لي في اتباعهم. فقال له: اخرج رحمك الله وانزل دير أبي موسى حتى يأتيك أمري فإن كانوا ظاهرين فسيكتب إلي عمالي بخبرهم فخرج في مائة وثلاثين رجلاً ونزل دير أبي موسى وأتى علياً كتاب عامله قرظة بن كعب الأنصاري يخبره أنهم توجهوا نحو نِفّر[1] وأنهم قتلوا دهقاناً كان قد أسلم فقالوا له: أمسلم أنت أم كافر؟ قال: بل مسلم. قالوا: فما تقول في علي؟ قال: أقول فيه خيراً إنه أمير المؤمنين وسيد البشر ووصي الرسول ﷺ. فقالوا: كفرت. وقتلوه، وأخذوا معه يهودياً فقالوا: ما دينك؟ قال: يهودي. فتركوه، فأرسل علي إلى زياد مع عبد الله بن وال يخبره بذلك وأمره بردهم إليه فإن أبوا يناجزهم فاستأذنه عبد الله في المسير مع زياد فأذن له وقال له: إني لأرجو أن تكون من أعواني على الحق وأنصاري على القوم الظالمين. قال ابن وال: فوالله ما أحب أن لي بمقالته تلك حمر النعم، وأتى زياداً بكتاب علي وساروا حتى أتوا نفر فقيل لهم أنهم ساروا نحو جرجرايا فتبعوهم حتى أدركوهم بالمذار وهم نزول قد أقاموا يومهم فأتاهم زياد وقد تقطع أصحابه وتعبوا فلما رأواهم ركبوا خيولهم

(١) نفر بكسر النون وتشديد الفاء آخره راء بلد من نواحي بابل من أعمال الكوفة. ـ المؤلف ـ.

وقال لهم الخريت ما تريدون؟ فقال له زياد ـ وكان مجرباً رفيقاً ـ قد ترى ما بنا من التعب والذي جئناك له لا يصلحه الكلام علانية ولكن ننزل ثم نخلو جميعاً فنتذاكر أمرنا فإن رأيت ما جئناك به حظاً لنفسك قبلته وإن رأينا فيما تقول أمراً نرجو فيه العافية لم نرده عليك، قال: فانزل. فنزل زياد وأصحابه على ماء هناك وأكلوا وعلقوا على دوابهم ووقف زياد في خمسة فوارس بين أصحابه وبين القوم وقد نزلوا وقال زياد لأصحابه: إن عدتنا كعدتهم وأرى أمرنا يصير إلى القتال فلا تكونوا أعجز الفريقين وخرج زياد إلى الخريت فسمعهم يقولون جاؤونا وهم تعبون فتركناهم حتى استراحوا هذا والله سوء الرأي فقال زياد للخريت: ما الذي نقمت على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا؟ فقال: لم أر صاحبكم إماماً ولا سيرتكم سيرة فرأيت أن أكون مع من يدعو إلى الشورى فقال له زياد: وهل يجتمع الناس على رجل يداني صاحبك الذي فارقته علماً بالله وسنته وكتابه مع قرابته من الرسول ﷺ وسابقته في الإسلام؟ فقال: لا أقول لا، فقال: ففيما قتلت ذلك الرجل المسلم؟ فقال: ما أنا قتلته إنما قتله طائفة من أصحابي، قال فادفعهم إلينا قال ما إلى ذلك سبيل، فدعا زياد أصحابه ودعا الخريت أصحابه فاقتتلوا قتالاً شديداً تطاعنوا بالرماح حتى لم يبق رمح وتضاربوا بالسيوف حتى انحنت وعقرت عامة خيولهم وكثرت الجراحة فيهم وقتل من أصحاب زياد رجلان ومن أولئك خمسة وجرح زياد وحجز بينهم الليل وهرب الخريت ليلاً وسار زياد إلى البصرة وأتاهم خبر الخريت أنه أتى الأهواز واجتمع إليه نحو مائتين وانضاف إليه علوج من أهل الأهواز كثير أرادوا كسر الخراج ولصوص وطائفة من العرب ترى رأيه وطمع أهل الخراج في كسره فكسروه، فكتب زياد إلى علي بخبرهم وأنه مقيم يداوي الجرحى وينتظر أمره فندب علي لقتالهم معقل بن قيس في ألفين من أهل الكوفة وكتب إلى ابن عباس أن يبعث من أهل البصرة رجلاً شجاعاً معروفاً بالصلاح في ألفين إلى معقل وهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلاً فإذا لقيه فمعقل أمير الجميع وكتب إلى زياد بن خصفة يشكره ويأمره بالعود ووصى علي معقل بن قيس حين سار فقال له: اتق الله ما استطعت ولا تبغ

على أهل القبلة ولا تظلم أهل الذمة ولا تتكبر وإن الله لا يحب المتكبرين. هذه وصية أمير المؤمنين لجنوده، ووصية معاوية لجنوده أن يقتلوا كل من هو في طاعة علي وأن ينهبوا الأموال ويقول لهم إن نهب الأموال لا يقصر عن قتل الرجال، ولكنه كان مجتهداً يطلب بذلك ثواب الله والدار الآخرة!! وسار معقل وأدركه المدد مع خالد بن معدان الطائي فلحقوا الخوارج قريب جبل من جبال رامهرمز فصف معقل أصحابه وصف الخريت أصحابه وحرك معقل رأسه مرتين ثم حمل في الثالثة،فصبروا له ساعة ثم انهزموا فقتل أصحاب معقل منهم سبعين رجلاً من بني ناجية ومن معهم من العرب ونحواً من ثلثمائة من العلوج والأكراد وانهزم الخريت إلى أسياف البحر وبها كثير من قومه فما زال يغويهم حتى اتبعه كثير منهم وكتب معقل إلى علي بالفتح فقرأه على أصحابه واستشارهم فأشاروا بأن يأمر معقلاً باتباع الخريت حتى يقتله أو ينفيه لأنه لا يؤمن أن يفسد الناس فكتب إلى معقل يثني عليه وعلى من معه ويأمره باتباعه وقتله أو نفيه فسار إليهم معقل حتى انتهى إلى أسياف البحر فلما سمع الخريت بمسيره قال لمن معه من الخوارج أنا على رأيكم في إنكار التحكيم وللآخرين من أصحابه أن علياً حكم فخلعه حكمه وكان هذا رأيه وقال للعثمانية سراً أنا على رأيكم وعثمان قتل مظلوماً فأرضى الجميع فلما انتهى إليه معقل نصب راية أمان وقال من أتاها فهو آمن إلا الخريت وأصحابه الذين حاربونا أول مرة فتفرق عن الخريت أكثر من كان معه من غير قومه وعبى معقل أصحابه وزحف نحو الخريت فقال الخريت لمن معه: قاتلوا عن حريمكم وأولادكم فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسبينكم فقال له رجل من قومه: هذا والله ما جرته علينا يدك ولسانك فقال سبق السيف العذل ثم حمل معقل بأصحابه فقاتلوا قتالاً شديداً وصبروا له وبصر النعمان بن صهبان الراسبي بالخريت فحمل عليه وقتله وقتل معه في المعركة سبعون ومائة رجل وتفرق الباقون وسبى معقل من أدرك من حريمهم وذراريهم وأخذ رجالاً كثيراً فمن كان مسلماً خلاه وأخذ بيعته وترك له عياله وعرض الإسلام على المرتدين فرجعوا فخلى سبيلهم وسبيل عيالهم وأخذ الصدقة ممن منعها عن عامين وأما غيرهم

الذين ساعدوا على حربه ونقضوا عهد الذمة فاحتملهم وعيالاتهم معه وكتب إلى أمير المؤمنين (ع) بالفتح ومر بهم على مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامل علي (ع) على أردشير خرة وهم خمسمائة فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال: يا أبا الفضل يا حامل الثقل امنن علينا فاشترنا وأعتقنا فبعث مصقلة إلى معقل أن يبيعه إياهم فباعه إياهم بخمسمائة ألف درهم ودفعهم إليه فأعتقهم وقال: عجل بالمال إلى أمير المؤمنين وأقبل معقل فأخبر أمير المؤمنين بما كان فقال له أحسنت وأصبت ووفقت. وأبطأ مصقلة بالمال وبلغ أمير المؤمنين أنه أطلقهم ولم يسألهم أن يعينوه فقال: ما أظنه إلا تحمل حمالة سترونه عن قريب منها مبلداً ثم كتب إليه أن يبعث إليه بالمال وأنه أمر رسوله أن لا يدعه ساعة واحدة يقيم إلا أن يبعث بالمال أو يحضر إلى الكوفة، وأدى مائتين ألف درهم وعجز عن الباقي وقال لذهل بن الحارث: إن أمير المؤمنين يسألني هذا المال ولا أقدر عليه فقال لو شئت ما مضت جمعة حتى تحمله فقال ما كنت لأحملها قومي أما والله لو كان ابن هند ما طالبني بها ولو كان ابن عفان لوهبها لي أما تراه أطعم الأشعث بن قيس كل سنة من خراج آذربيجان مائة ألف؟ فقال: إن هذا لا يرى ذلك الرأي ولا يترك منها شيئاً فهرب مصقلة من ليلته فلحق بمعاوية فقال أمير المؤمنين (ع) ماله ترحه الله فعل فعل السيد وفر فرار العبد وخان خيانة الفاجر فما أنطق مادحه حتى أسكته ولو أقام لأخذنا ميسوره وانتظرنا بماله وفوره، وهدم داره وأجاز عتق السبي وقال أعتقهم مبتاعهم وصارت أثمانهم ديناً عليه وكان أخوه نعيم بن هبيرة شيعة لعلي فكتب إليه مصقلة من الشام مع رجل من تغلب اسمه حلوان أن معاوية قد وعدك الإمارة والكرامة فاقبل فأخذ مالك بن كعب الأرحبي الرسول فسرحه إلى علي فقطع يده فمات وكتب نعيم إلى مصقلة من أبيات:

لا ترمين هداك الله معترضاً	بالظن منك فما بالي وحلوانا
ماذا أردت إلى إرساله سفها	ترجو سقاط امرىء لم يلف وسنانا
قد كنت في منظر عن ذا ومستمع	تحمي العراق وتدعى خير شيبانا
عرضته لعلي أنه أسد	يمشي العرضنة من آساد خفانا

لو كنت أديت مال الله مصطبراً　　للحق زكيت أحياناً وموتانا
لكن لحقت بأرض الشام ملتمساً　　فضل بن هند وذاك الرأي أشجانا
فاليوم تقرع سن العجز من ندم　　ماذا تقول وقد كان الذي كانا
أصبحت تبغضك الأحياء قاطبة　　لم يرفع الله بالبغضاء إنسانا

فلما وقع الكتاب إليه علم أن التغلبي هلك وأتاه التغلبيون فطلبوا منه دية صاحبهم فوداه.

أخباره مع عبد الله بن العباس

كان ابن عباس تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام وخريجه مضافاً إلى ما أخذه عن النبي ﷺ ولذلك كان يسمى حبر الأمة وصحبه في حروبه كلها الجمل وصفين والنهروان وولاه البصرة وكان يعده لمهام الأمور فقد أرسله إلى أم المؤمنين بعد حرب الجمل فكان له في ذلك المقام المشهود والحجة القاطعة وأراده للحكومة يوم صفين فأبى أهل الجباه السود العمي القلوب وبعثه إلى الخوارج يوم النهروان فاحتج عليهم بأبلغ الحجج وكان له في نصرة أمير المؤمنين وأبنائه مواقف مشهودة (منها) لما مر بصفة زمزم وسمع شامياً يسب علياً (ع) (ومنها) مع عبد الله بن الزبير ومع معاوية وهو الذي كتب إلى يزيد بعد قتل الحسين (ع) بما كتب وكان يمسك بركاب الحسنين عليهما السلام إذا ركبا وروى الكشي بسنده أنه قال لما حضرته الوفاة اللهم إني أحيا على ما حيي عليه علي بن أبي طالب وأموت على ما مات عليه علي بن أبي طالب.

ما نسب إليه من مفارقة أمير المؤمنين (ع) وأخذ مال البصرة

قد نسب إليه أنه فارق أمير المؤمنين (ع) وأخذ مال البصرة وذهب إلى مكة وأنكر ذلك جماعة. روى الكشي في رجاله بسنده عن الزهري عن الحارث قال استعمل علي صلوات الله عليه على البصرة عبد الله بن عباس فحمل كل مال في بيت المال بالبصرة ولحق بمكة وكان مبلغه ألفي ألف درهم فصعد علي عليه السلام المنبر حين بلغه ذلك فبكى فقال: هذا ابن عم رسول الله ﷺ في

علمه وقدره يفعل مثل هذا فكيف يؤمن من كان دونه الحديث. وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٠ في هذه السنة خرج عبد الله بن عباس من البصرة ولحق بمكة في قول أكثر أهل السير وقد أنكر ذلك بعضهم وقال لم يزل عاملاً عليها لعلي حتى قتل علي وشهد صلح الحسن مع معاوية ثم خرج إلى مكة والأول أصح وإنما كان الذي شهد صلح الحسن عبيد الله بن عباس (اهـ) ثم ذكر سبب خروجه وهو أنه مر بأبي الأسود (وكان على قضاء البصرة) فقال: لو كنت من البهائم لكنت جملاً ولو كنت راعياً لما بلغت المرعى فكتب أبو الأسود إلى أمير المؤمنين (ع) إن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك فكتب إلى ابن عباس في ذلك فكتب إليه ابن العباس أن الذي بلغك باطل فكتب إليه أمير المؤمنين (ع) أعلمني ما أخذت من الجزية ومن أين أخذت وفيما وضعت فكتب إليه ابن عباس قد فهمت تعظيمك مرزأة ما بلغك إني رزأته فابعث إلى عملك من أحببت وخرج واستدعى أخواله من بني هلال بن عامر فاجتمعت معه قيس كلها فحمل مالاً وقال هذه أرزاقنا اجتمعت فتبعه أهل البصرة يريدون أخذ المال فمنعته قيس ومضى إلى مكة «اهـ». وفي نهج البلاغة: من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ولم يصرح باسم المكتوب إليه والكتاب يتضمن ذماً عظيماً للمكتوب إليه، ولكن الكشي في رجاله روى بسنده عن الشعبي أن المكتوب إليه هو عبد الله بن عباس لما احتمل بيت مال البصرة وذهب به إلى الحجاز، وذكر الكتاب بطوله وذكره ابن أبي الحديد في شرح النهج أيضاً، ومن جملته: فإني أشركتك في أمانتي وجعلتك شعاري وبطانتي ولم يكن في أهلي رجل أوثق منك في نفسي فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب قلبت لابن عمك ظهر المجن ففارقته مع المفارقين وخذلته مع الخاذلين وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك آسيت ولا الأمانة أديت، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم فحملته إلى الحجاز غير متأثم من أخذه كأنك لا أبا لغيرك حدرت إلى أهلك تراثك من أبيك وأمك. فسبحان الله، أما

تؤمن بالمعاد؟ أو ما تخاف نقاش الحساب أيها المعدود عندنا كان من أولي الألباب؟ ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة. وبعد تصريح الكشي بأن المكتوب إليه ابن عباس لا حاجة إلى ما حكاه ابن أبي الحديد عن أصحاب القول الأول من أنهم استدلوا على ذلك بألفاظ من الكتاب كقوله أشركتك في أمانتي الخ ولم يكن في أهلي رجل أوثق منك، وقوله ابن عمك ثلاث مرات، وقوله لا أبا لغيرك وهذه كلمة لا تقال إلا لمثله أما غيره من أفناء الناس فكان يقول له لا أبا لك[1] وقوله أيها المعدود عندنا من أولي الألباب، وقوله لو أن الحسن والحسين الدال على أن المكتوب إليه قريب من أن يجري مجراهما عنده. قال الكشي وابن أبي الحديد واللفظ للثاني: فكتب إليه ابن عباس جواباً عن هذا الكتاب: أتاني كتابك تعظم علي ما أصبت من بيت مال البصرة ولعمري إن حقي في بيت المال أكثر مما أخذت. فكتب إليه علي: إن من العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً وضربت بها عطناً تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف تختارهن على عينك وتعطي فيهن مال غيرك فارجع هداك الله إلى رشدك وتب إلى ربك واخرج إلى المسلمين من أموالهم فعما قليل تفارق من ألفت وتترك ما جمعت وتغيب في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد قد فارقت الأحباب وسكنت التراب وواجهت الحساب غنياً عما خلفت فقيراً إلى ما قدمت. فكتب إليه ابن عباس: إنك قد أكثرت علي ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلها وذهبها وعقيانها ولجينها أحب إليّ من أن ألقاه بدم امرىء مسلم.

(قال المؤلف) ما ذكره ابن الأثير من أنه واجه أبا الأسود بهذا الكلام البشع يصعب تصديقه فابن عباس كان أعرف بفضل أبي الأسود من كل أحد فكيف

---

(١) في كتاب الكشي لا أبا لك ولعله من سبق القلم أو تحريف النساخ فأمير المؤمنين (ع) أجل من أن يقول ذلك لعمه وابن عمه.

يواجهه بهذا الكلام الذي لا يصدر إلا من الأسافل وابن عباس مع فضله وكمال معرفته لا يمكن أن يفوه بمثل هذا مهما كان السبب الداعي إليه والذي يظهر أن ناسب ذلك إليه أراد الحط من مقام أبي الأسود وابن عباس معاً لغرض في نفسه وذلك لإخلاصهما في حب علي عليه السلام وتشيعهما له. أما ما رواه أصحاب القول الأول من المكاتبة بين أمير المؤمنين (ع) وابن عباس فإن أمكننا تصديقه لم يمكنا تصديق الجواب الأخير منه المشتمل على قول ابن عباس لأن ألقى الله بكذا أحب إليّ من أن ألقى الله بدم امرىء مسلم فابن عباس مع فضله المشهور كيف يعيب أمير المؤمنين (ع) بقتل من أمر الله بقتله وقتاله بقوله: (فقاتلوا التي تبغي) وهبه أراد التمويه والاقتداء بمن قال إن عماراً قتله من ألقاه إلينا، افتراه كان يجهل أن ذلك مما يعيبه به الناس ويوجب سقوطه من نفوسهم وهو كان شريكاً في تلك الدماء فيعيب نفسه قبل أن يعيب غيره وهو ليس بمضطر إلى هذا الجواب كما اضطر من أجاب عن قتل عمار وإن كان قصده بهذا الجواب إبداء عذره أمام الناس فلم يصنع شيئاً لأن الناس يعلمون أنه جواب فاسد وأنه شريك في تلك الدماء فيزداد بذلك لوماً عندهم بدلاً عن أن يعذروه ولو قصد ذلك لاقتصر على جوابه الأول أن له حقاً في بيت المال فأخذه فلما أجابه علي (ع) إنك أخذت أكثر من حقك كان يمكنه أن يجيب بجواب مموه يدل على أنه ليس أكثر من حقه فيكون أقرب إلى القبول من هذا الجواب الذي يعرف فساده كل أحد، ومن ذلك يتطرق الشك إلى باقي المكاتبة وجواباتها. وحكى ابن أبي الحديد عن الراوندي أن المكتوب إليه هو عبيد الله لا عبد الله ورده بأن عبيد الله كان عاملاً لعلي على اليمن ولم ينقل عنه أنه أخذ مالاً ولا فارق طاعة، قال وقد أشكل علي أمر هذا الكتاب فإن قلت أنه موضوع على أمير المؤمنين (ع) خالفت الرواة فإنهم أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين (ع) في حياته وبعد وفاته. وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرفه من أهل أمير المؤمنين وهو يشعر بأن المخاطب به من أهله وبني عمه «اهـ»

(أقول) بعد تصريح الكثير بأنه لأمير المؤمنين (ع) إلى ابن عباس وظهور مضامينه ظهوراً بيناً في أنه لا يصلح أن يكون المخاطب به غير ابن عباس لم يبق مجال لتردده.

ويظهر أن أمر مفارقته علياً (ع) وأخذه مال بيت مال البصرة كان مشهوراً فقد حكي عن قيس بن سعد بن عبادة أنه خطب الجيش الذي أرسله الحسن عليه السلام للقاء معاوية عندما تركهم أميرهم عبيد الله بن العباس وذهب إلى معاوية فقال ما معناه: لا يهولنكم ما فعل فإن هؤلاء قد خرج أبوهم العباس لحرب رسول الله ﷺ يوم بدر، وابنه عبد الله أخذ مال البصرة وهرب إلى مكة وابنه عبيد الله فعل ما ترون، وقد عيره بذلك ابن الزبير فقال إنه أخذ مال البصرة وترك المسلمين بها يرتضخون النوى ولم يتبرأ ابن عباس من ذلك بل أجابه بأنه كان لنا فيه حق فأخذناه.

وقال ابن أبي الحديد: الأكثرون على القول الأول، وقال آخرون وهم الأقلون هذا لم يكن ولا فارق عبد الله بن عباس علياً (ع) ولا باينه ولا خالفه ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل علي (ع). ثم قال: وهذا عندي هو الأمثل والأصوب «اهـ». وقال العلامة في الخلاصة: كان محباً لعلي (ع) أشهر من أن يخفى، وقد ذكر الكشي أحاديث تتضمن قدحاً فيه وهو أجل من ذلك «اهـ» ومن جملة تلك الأحاديث حديث مفارقته علياً (ع) وأخذه مال بيت مال البصرة المتقدم والحديث الآتي من كتاب أمير المؤمنين إليه في ذلك وجوابه.

وقال الشهيد الثاني في حاشية الخلاصة: جملة ما ذكره الكشي من الطعن فيه خمسة أحاديث كلها ضعيفة السند. وقال السيد ابن طاوس: حاله في المحبة والإخلاص لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام وموالاته والنصر له والذب عنه والخصام في رضاه والموازرة له مما لا شبهة فيه ثم قال معرضاً بأخبار الذم ومثل الحبر موضع أن يحسده الناس ويباهتوه:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغياً إنه لدميم

قال ولو ورد في مثله ألف رواية أمكن أن تعرض للتهمة فكيف بهذه الأخبار الضعيفة الركيكة «اهـ» قال ابن أبي الحديد ويدل على عدم مفارقة ابن عباس أمير المؤمنين (ع) ما رواه أبو الفرج الأصفهاني أنه لما استشهد أمير المؤمنين (ع) دس معاوية رجلاً من حمير إلى الكوفة ورجلاً من بني القين إلى البصرة يكتبان له بالأخبار فدل عليهما فقتلا، فكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى معاوية: أما بعد فإنك ودسك أخا بني القين إلى البصرة تلتمس من غفلات قريش إلى آخر الكتاب فهو يدل على وجوده في البصرة عند وفاة أمير المؤمنين (ع) قال وقالوا: كيف يكون ذلك ولم يخدعه معاوية ويجره إلى جهته فقد علمتم كيف اختدع كثيراً من عمال أمير المؤمنين (ع) واستمالهم بالأموال فما باله وقد علم النبوة التي حدثت بينهما لم يستمل ابن عباس وكل من قرأ السير وعرف التواريخ يعرف مشاقة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة علي (ع) وما كان يلقاه به من قوارع الكلام وما كان يثني به على أمير المؤمنين ويذكر خصائصه وفضائله ويصدع به من مناقبه ومآثره فلو كان بينهما غبار أو كدر لما كان الأمر كذلك «اهـ».

قال المؤلف: إنكار أخذ ابن عباس المال من البصرة وإنكار كتاب أمير المؤمنين (ع) إليه المقدم ذكره صعب جداً بعد ملاحظة ما تقدم ولا يحتاج فيه إلى تصحيح روايات الكشي وبعدما ذكرناه من الشواهد على اشتهار الأمر في ذلك كما أن إخلاص ابن عباس لأمير المؤمنين (ع) وتفوقه في معرفة فضله لا يمكن إنكاره والذي يلوح لي أن ابن عباس لما ضايقه أمير المؤمنين (ع) في الحساب عما أخذ ومن أين أخذ وفيما وضع كما يقتضيه عدله ومحافظته على أموال المسلمين وعلم أنه محاسب على ذلك أدق حساب وغير مسامح في شيء سولت له نفسه أخذ المال من البصرة والذهاب إلى مكة وهو ليس معصوم وحب الدنيا مما طبعت عليه النفوس فلما كتب إليه أمير المؤمنين (ع) ووعظه وطلب منه التوبة تاب وعاد سريعاً. وعدم نص المؤرخين على عوده لا يضر بل يكفي ذكرهم إنه كان بالبصرة عند وفاة أمير المؤمنين (ع) كما دل عليه كتابه السابق إلى

معاوية أما الجواب الأخير الذي زعموا أنه أجاب به أمير المؤمنين (ع) فمعاذ الله أن يصدر منه والله العالم بحقائق الأحوال.

سنة ٣٩ غارة النعمان بن بشير على عين التمر

كان النعمان صحابياً أنصارياً ممالئاً لمعاوية وابنه يزيد قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٩ فيها وجه معاوية النعمان بن بشير في ألف رجل إلى عين التمر (شفاثا) (اجتهاداً منهما للفساد في الأرض وسفك الدماء الحرام ونهب الأموال بغير حلها فكانا بذلك مأجورين ثابتة عدالتهما!!) وفيها مالك بن كعب مسلحة لعلي في ألف رجل وكان مالك قد أذن لهم فأتوا الكوفة ولم يبق معه إلا مائة رجل فلما سمع بالنعمان كتب إلى أمير المؤمنين يخبره ويستمده فخطب بالناس وأمرهم بالخروج فتثاقلوا فصعد المنبر فخطبهم وقال: يا أهل الكوفة كلما سمعتم بجمع من أهل الشام أظلكم انحجر كل امرىء منكم في بيته وأغلق عليه بابه انحجار الضب في جحره والضبع في وجارها في كلام آخر وبخهم به. وواقع مالك النعمان وجعل جدار القرية في ظهور أصحابه واقتتلوا أشد قتل وكتب مالك إلى مخنف بن سليم يستعينه فوجه مخنف ابنه عبد الرحمٰن في خمسين رجلاً فانتهوا إلى مالك وأصحابه وقد كسروا جفون سيوفهم واستقتلوا فلما رآهم أهل الشام انهزموا عند المساء وظنوا أن لهم مدداً وتبعهم مالك وقتل منهم ثلاثة نفر.

غارة سفيان بن عوف على الأنبار

قال وفيها وجه معاوية سفيان بن عوف في ستة آلاف وأمره أن يقطع هيت ويأتي الأنبار(١) والمدائن فيوقع بأهلها فأتى هيت فلم يجد بها أحداً ثم أتى الأنبار وفيها مسلحة لعلي تكون خمسمائة رجل وقد تفرقوا ولم يبق منهم إلا مائتان لأنه كان عليهم كميل بن زياد فبلغه أن قوماً بقرقيسيا يريدون الغارة على

---

(١) مدينة كانت قرب الفلوجة هي الآن خراب.

هيت فسار إليهم بغير أمر علي فأتى أصحاب سفيان وكميل غائب عنهاوخليفته أشرس بن حسان البكري فطمع سفيان في أصحاب علي لقلتهم فقاتلهم فصبروا له وقتل صاحبهم أشرس وثلاثون رجلاً واحتملوا ما في الأنبار من أموال أهلها ورجعوا إلى معاوية.وبلغ الخبر علياً فغضب على كميل وكتب إليه ينكر عليه فعله وأرسل في طلبهم فلم يدركوا.

غارة عبد الله بن مسعدة على تيماء

تيماء بليدة في أطراف الشام بينها وبين وادي القرى قال وفيها وجه معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي ويقتل من امتنع ففعل ذلك وبلغ مكة والمدينة واجتمع إليه بشر كثير من قومه وبلغ ذلك علياً فأرسل المسيب بن نجبة الفزاري في ألفين فلحقهم بتيماء فاقتتلوا قتالاً شديداً وحمل المسيب على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله ويقول له النجاء النجاء (لأنه من قومه) فدخل ابن مسعدة وجماعة معه الحصن وهرب الباقون وانتهب الأعراب إبل الصدقة التي مع ابن مسعدة وحصرهم ثلاثة أيام ثم أحرق الباب فأشرفوا عليه وقالوا يا مسيب قومك. فرق لهم وأمر بإطفاء النار وقال جاءتني عيوني بأن جنداً قد أتاكم من الشام فقال له عبد الرحمٰن بن شبيب: سرحني في طلبهم فأبى فقال: غششت أمير المؤمنين وداهنت في أمرهم.

مسير يزيد بن شجرة إلى مكة

قال وفيها أرسل معاوية يزيد بن شجرة الرهاوي[1] إلى مكة في ثلاثة آلاف فارس ليقيم للناس الحج ويأخذ له البيعة وينفي عامل علي عنها وهو قثم بن العباس فخطب قثم أهل مكة ودعاهم إلى حربهم فلم يجيبوه بشيء إلا شيبة بن عثمان العبدري فأجابه بالسمع والطاعة فأراد قثم مفارقة مكة إلى بعض شعابها

---

(١) منسوب إلى الرها بفتح الراء اسم قبيلة وأما البلد فبضم الراء.

ومكاتبة أمير المؤمنين فنهاه أبو سعيد الخدري عن ذلك وقال: أقم فإن رأيت بك قوة على قتالهم وإلا فالمسير أمامك. فأقام وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بذلك فسير إليه جيشاً في أول ذي الحجة وقدم ابن شجرة قبل التروية بيوم وبعث إلى قثم أن يعتزل الصلاة ويعتزلها هو وصلى بالناس شيبة بن عثمان وحج بهم ورجع يزيد إلى الشام وأقبلت خيل علي وعليهم معقل بن قيس فتبعوهم وأدركوهم وقد رحلوا عن وادي القرى فظفروا بنفر منهم فأخذوهم أسارى ففادى بهم أمير المؤمنين أسارى كانت له عند معاوية.

غارة عبد الرحمٰن بن قباث على أهل الجزيرة

قال وفيها سير معاوية عبد الرحمٰن بن قباث إلى بلاد الجزيرة وفيها شبيب بن عامر بنصيبين فكتب إلى كميل بن زياد وهو بهيت يعلمه خبرهم فسار كميل إليه في ستمائة فارس فأدركهم وقاتلهم وهزمهم وغلب على عسكرهم وأكثر القتل على أهل الشام وأمر أن لا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح وقتل من عسكره رجلان وكتب إلى علي بالفتح فجزاه خيراً وأجابه جواباً حسناً ورضي عنه بعد سخطه عليه لما مر وأقبل شبيب من نصيبين فرأى كميلاً قد أوقع بهم فهنأه بالظفر واتبع الشاميين فلم يلحقهم فعبر الفرات وبث خيله فأغارت على أهل الشام حتى بلغ بعلبك فوجه إليه معاوية حبيب بن مسلمة فلم يدركه ورجع شبيب فأغار على نواحي الرقة فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلا استاقها ولاخيلاً ولا سلاحاً إلا أخذه وكتب إلى علي فكتب إليه علي ينهاه عن أخذ أموال الناس (وحاشاه أن يفعل كفعل معاوية) إلا الخيل والسلاح الذي يقاتلون به وقال: رحم الله شبيباً لقد أبعد الغارة وعجل الانتصار.

غارة الحارث بن نمر التنوخي على أهل الجزيرة

قال لما قدم يزيد بن شجرة على معاوية وجه الحارث بن نمر التنوخي إلى الجزيرة ليأتيه بمن هو في طاعة علي فأخذ من أهل دارا سبعة نفر من بني تغلب وكان جماعة من بني تغلب قد فارقوا علياً إلى معاوية فسألوه في إطلاق

أصحابهم فلم يفعل فاعتزلوه وكتب معاوية إلى علي ليفادي من أسرهم معقل بن قيس من أصحاب يزيد بن شجره بهؤلاء السبعة ففعل وبعث علي عبد الرحمٰن الخثعمي إلى ناحية الموصل ليسكن الناس فلقيه التغلبيون المعتزلون معاوية فتشاتموا واقتتلوا فقتلوه فأراد علي أن يوجه إليهم جيشاً فقالت له ربيعة: هم معتزلون لعدوك داخلون في طاعتك وإنما قتلوه خطأ فأمسك عنهم.

بعث معاوية رجلاً إلى السماوة لأخذ الصدقات

قال وفيها بعث معاوية زهير بن مكحول العامري إلى السماوة ليأخذ صدقات الناس وبلغ ذلك علياً فبعث جعفر بن عبد الله الأشجعي وعروة بن العشبة والجلاس بن عمير الكلبيين ليصدقوا من في طاعته من كلب وبكر بن وائل فوافوا زهيراً فاقتتلوا فانهزم أصحاب علي وقتل جعفر ومر الجلاس براع فأخذ جبته وأعطاه جبة خز فأدركته الخيل فقالوا أين أخذ هؤلاء الترابيون فأشار إليهم أخذوا ها هنا ثم أقبل إلى الكوفة وظهرت الخيانة من ابن العشبة فإن زهيراً حمله على فرس فلحق بعلي فعنفه وعلاه بالدرة لأنه اتهمه بسبب حمل زهير إياه فغضب ولحق بمعاوية (وهكذا كان كل من يغضب من عدل علي يلحق بمعاوية) فهذه سبع غارات في سنة واحدة سعياً في الأرض بالفساد.

بعث معاوية مسلم بن عقبة إلى دومة الجندل

وهي المسماة اليوم بالجوف قال فيها بعث معاوية مسلم بن عقبة المري (صاحب وقعة الحرة) إلى دومة الجندل وكان أهلها امتنعوا من بيعة علي ومعاوية فدعاهم إلى بيعة معاوية فامتنعوا وبلغ ذلك علياً فسير مالك بن كعب الهمداني إليهم في جمع فلم يشعر مسلم إلا وقد وافاه مالك فاقتتلوا يوماً وانهزم مسلم وأقام مالك أياماً يدعوهم إلى بيعة علي فلم يفعلوا فانصرف عنهم.

غزو السند

قال وفيها توجه الحارث بن مرة العبدي إلى بلاد السند غازياً متطوعاً بأمر أمير المؤمنين علي فأصاب غنائم وسبياً كثيراً وقسم في يوم واحد ألف رأس.

ولاية زياد بن أبيه بلاد فارس

قال وفيها ولى علي زياداً كرمان وفارس (شيراز ونواحيها) لأنه لما قتل ابن الحضرمي واختلف الناس على علي طمع أهل فارس وكرمان في كسر الخراج وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف فاستشار علي الناس فأشار جارية بن قدامة بتولية زياد وقال أنه صلب الرأي عالم بالسياسة كاف لما ولي فأمر علي ابن عباس أن يوليها زياداً فسيره إليها في جمع كثير وقيل إن ابن عباس أشار بولايته فلم يزل يبعث إلى رؤوسهم يعد من ينصره ويعينه ويخوف من امتنع عليه وضرب بعضهم ببعض صفت له فارس ولم يلق منهم حرباً «اهـ» ثم أدرك زياداً سوء العاقبة فاستلحقه معاوية في خلافة الحسن (ع) بشهادة أبي مريم الخمار أن أبا سفيان زنى بأمه سمية وهي تحت عبيد فكان أضر على شيعة علي عليه السلام وأبنائه من فرعون على بني إسرائيل.

سنة ٤٠ غارة بسر بن أبي أرطاة على الحجاز واليمن

كان بسر صحابياً وكان من شيعة معاوية وشهد معه صفين واقتدى بعمرو في كشف سوأته كما مر في حرب صفين وذكرنا ترجمته مفصلة في حرف الباء من هذا الكتاب وغارته على الحجاز واليمن وما فعله من قبائح الأفعال ونذكر إجمالها هنا وما لم نذكره هنالك.

روى إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب الغارات وابن الأثير في حوادث سنة ٤٠ أن معاوية بعث بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف وقال: سر حتى تمر بالمدينة ومكة وصنعاء وانهب أموال كل من أصبت له مالاً ممن لم يكن دخل في طاعتنا. فقدم بسر المدينة وبها أبو أيوب الأنصاري عامل علي عليها فهرب أبو أيوب ودخلها بسر فصعد منبرها وشتم الناس وتهددهم وشتم الأنصار فقال: يا معشر اليهود وأبناء العبيد وقال والله لولا ما عهد إلي معاوية ما تركت بها محتلماً. وهدم بها دوراً وأكره جماعة على البيعة منهم جابر بن عبد الله واستخلف عليهم أبا هريرة ثم أتى مكة فهرب عامل علي عليها قثم بن العباس فشتمهم بسر وأنبهم

وقتل في طريقه رجالاً وأخذ أموالاً وأكره الناس على البيعة ثم سار إلى اليمن وكان عليها عبيد الله بن عباس عاملاً لعلي فهرب منه وأخذ بسر ابنين لعبيد الله صغيرين فقتلهما (قال المبرد) أخذهما من تحت ذيل أمهما وذبحهما على درج صنعاء فذهب عقلها وكانت لا تزال تنشدهما في المواسم فتقول:

ها من أحس بابنيّ اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف

في أبيات ذكرناها في ترجمته وقتل جماعة من شيعة علي باليمن وقال إبراهيم الثقفي قتل بسر في وجهه ذلك ثلاثين ألفاً وحرق قوماً بالنار (وهو مع ذلك ومن أرسله مجتهدان مثابان ثبتت لهما العدالة لأنهما صحابيان!!) وبلغ علياً الخبر فأرسل جارية بن قدامة السعدي في ألفين ووهب بن مسعود في ألفين فسار جارية إلى البصرة ثم أخذ طريق الحجاز حتى أتى اليمن وبلغ بسراً مسيره فانحدر إلى اليمامة وأتى جارية نجران فقتل بها ناساً من شيعة عثمان وصعد نحو بسر وبسر بين يديه يفر من جهة إلى جهة حتى أخرجه من أعمال علي كلها ووثب الناس ببسر لما انصرف من بين يدي جارية لسوء سيرته وفظاظته وظلمه وغشمه وتبعه جارية حتى أتى مكة (وكان أمير المؤمنين (ع) قد استشهد) فقال: بايعوا أمير المؤمنين فقالوا: قد هلك فلمن نبايع؟ قال لمن بايع له أصحاب علي فبايعوا الحسن (ع) خوفاً منه ثم أتى المدينة وأبو هريرة يصلي بالناس فهرب منه فقال جارية: لو وجدت أبا سنور لقتلته. ثم قال لأهل المدينة: بايعوا الحسن بن علي فبايعوه ثم عاد إلى الكوفة.

مقتل أمير المؤمنين علي عليه السلام وقدر عمره ومدة خلافته

قتل صلوات الله عليه سنة ٤٠ من الهجرة في شهر رمضان ضرب ليلة تسع عشرة ليلة الأربعاء وقبض ليلة الجمعة ليلة إحدى وعشرين على المعروف بين أصحابنا وعليه عمل الشيعة اليوم وروى الطبري وابن الأثير أنه ضرب ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان فتكون وفاته ليلة الأحد. وعمره ثلاث وستون سنة رواه الحاكم في المستدرك عن محمد بن الحنفية أو

أربع وستون أو خمس وستون سنة منها عشر سنين أو اثنتا عشرة سنة قبل البعثة وثلاث وعشرون مع النبي ﷺ بعد البعثة ثلاث عشرة بمكة وعشر بالمدينة وثلاثون سنة بعد وفاة النبي ﷺ وقيل في سنه غير ذلك فروى الحاكم في المستدرك عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه قتل وهو ابن ثمان وخمسين سنة. وأشهر الأقوال الأول والثالث قال ابن شهراشوب في المناقب: قبض صلوات الله عليه قتيلاً في مسجد الكوفة وقت التنوير ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة مضين من شهر رمضان فبقي يومين إلى نحو الثلث من الليل وله يومئذ خمس وستون سنة في قول الصادق عليه السلام وقالت العامة ثلاث وستون سنة «اهـ» وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى: قتل علي يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٤٠ وهو يوم قتل ابن ثلاث وستين سنة أو أربع وستين (وبسنده) عن أبي بكر بن أبي شيبة: قتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ من مهاجر رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة قتل يوم الجمعة للحادي والعشرين من شهر رمضان ومات يوم الأحد ودفن بالكوفة «اهـ». وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا نحواً من أربعة أشهر أو ثلاثة أشهر لأنه بويع لخمس بقين من ذي الحجة سنة ٣٥ كما مر. وروى الحاكم في المستدرك عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى أن خلافته كانت خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ثم روى عن أبي بكر بن أبي شيبة أنه قال: ولي علي بن أبي طالب خمس سنين «اهـ» وكأنه مبني على نوع من التسامح.

نعيه نفسه قبل مقتله

قال ابن الأثير في الكامل قيل من غير وجه أن علياً كان يقول: ما يمنع أشقاكم أن يخضب هذه من هذه يعني لحيته من دم رأسه.

وقال الحسن بن كثير عن أبيه: خرج علي من الفجر فأقبل الأوز يصحن في وجهه فطردوهن عنه فقال: ذروهن فإنهن نوائح، فضربه ابن ملجم في ليلته، وقال الحسن بن علي يوم قتل علي: خرجت البارحة وأبي يصلي في مسجد

داره فقال لي: يا بني إني بت أوقظ أهلي لأنها ليلة الجمعة فملكتني عيناي فنمت فسنح لي رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد (قال أبو الفرج: والأود العوج واللدد الخصومات) فقال لي: ادع عليهم فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم وأبدلهم بي من هو شر مني فجاء ابن الثباج فآذنه بالصلاة فخرج وخرجت خلفه فضربه ابن ملجم فقتله.

وفي تذكرة الخواص عن الشعبي أنشد علي عليه السلام قبيل قتله بأيام:

تلكم قريش تمناني لتقتلني	فلا وربك لا فازوا ولا ظفروا
فإن بقيت فرهن ذمتي لهم	بذات ودقين لا يعفو لها أثر
وسوف يورثهم فقدي على وجل	ذل الحياة بما خانوا وما غدروا

سبب قتل أمير المؤمنين عليه السلام

قال الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل: كان سبب قتله عليه السلام أن عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصريمي واسمه الحجاج وعمرو بن أبي بكر التميمي السعدي وهم من الخوارج اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس وعابوا الولاة ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا لله وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم البلاد فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علياً وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه وأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لتسع عشرة أو سبع عشرة من رمضان فأتى ابن ملجم الكوفة فلقي أصحابه بها وكتمهم أمره ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب ومعهم امرأة منهم اسمها قطام (بنت الأخضر التيمية) قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فخطبها فقالت: لا أتزوجك إلا على ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي فقال: أما قتل علي فما أراك ذكرته وأنت تريدينني قالت: بل ألتمس غرته فإن أصبته شفيت نفسك ونفسي ونفعك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير من

الدنيا وما فيها قال: والله ما جاء بي إلا قتل علي فلك ما سألت قالت: سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان فأجابها وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال: هل لك في شرف الدنيا والآخرة قال: وما ذاك قال: قتل علي بن أبي طالب قال شبيب: ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إدّاً كيف تقدر على قتله قال: أكمن له في المسجد فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه قال: ويحك لو كان غير علي كان أهون قد عرفت سابقته وفضله وبلاءه في الإسلام وما أجدني أنشرح لقتله قال: أما تعلمه قتل أهل النهر العباد الصالحين قال: بلى قال: فلنقتله بمن قتل من أصحابنا فأجابه فلما كان ليلة الجمعة[1] وهي الليلة التي واعد ابن ملجم فيها أصحابه على قتل علي ومعاوية وعمرو جاؤوا قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة فدعت لهم بالحرير وعصبتهم به. وقال المفيد إنهم أتوا قطام ليلة الأربعاء. وقال أبو الفرج في مقاتل الطالبيين إنهم أتوا قطام بنت الأخضر بن شجنة من تيم الرباب وهي معتكفة في المسجد الأعظم قد ضربت عليها قبة فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم وتقلدوا سيوفهم ومضوا فجلسوا مما يلي السدة التي كان يخرج منها أمير المؤمنين عليه السلام إلى الصلاة. (قال المفيد) وقد كانوا قبل ذلك ألقوا إلى الأشعث ما في نفوسهم من العزيمة على قتل أمير المؤمنين (ع) وأوطأهم على ذلك وحضر الأشعث في تلك الليلة لمعونتهم وكان حجر بن عدي في تلك الليلة بائتاً في المسجد فسمع الأشعث يقول لابن ملجم النجاء النجاء لحاجتك فقد فضحك الصبح فأحس حجر بما أراد الأشعث فقال: قتلته يا أعور وخرج مبادراً ليمضي إلى أمير المؤمنين (ع) ليخبره الخبر ويحذره من القوم وخالفه أمير المؤمنين (ع) في الطريق فدخل المسجد قال الطبري وابن الأثير فلما خرج علي نادى الصلاةَ الصلاة فضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة

(١) هكذا في تاريخ الطبري وكامل ابن الأثير ولعل الصواب ما يأتي عن المفيد ناقلاً له عن أبي مخنف أنه ضرب ليلة الأربعاء وقبض ليلة الجمعة وأنه وقع اشتباه بين ليلة الضرب وليلة الوفاة والله أعلم.

الباب أو الطلق وضربه ابن ملجم على قرنه بالسيف وقال: الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك. وقال أبو الفرج فضربه ابن ملجم فأثبت الضربة في وسط رأسه قال ابن عبد البر: فقال علي فزت ورب الكعبة لا يفوتنكم الرجل. قال المفيد وأبو الفرج: وأقبل حجر والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين وروى أبو الفرج بسنده عن عبد الله بن محمد الأزدي قال: إني لأصلي في تلك الليلة في المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر كانوا يصلون في ذلك الشهر من أوله إلى آخره إذ نظرت إلى رجال يصلون قريباً من السدة إذ خرج علي بن أبي طالب (ع) لصلاة الفجر فأقبل ينادي الصلاة الصلاة فما أدري أنادى أم رأيت بريق السيوف وقائلاً يقول: الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك وسمعت علياً يقول: لا يفوتنكم الرجل. وفي الاستيعاب اختلفوا هل ضربه في الصلاة أو قبل الدخول فيها وهرب القوم نحو أبواب المسجد وتبادر الناس لأخذهم قال أبو الفرج: فأما شبيب فأخذه رجل فصرعه وجلس على صدره وأخذ السيف ليقتله به فرأى الناس يقصدون نحوه فخشي أن يعجلوا عليه ولم يسمعوا منه فوثب عن صدره وخلاه وطرح السيف من يده ومضى شبيب هارباً حتى دخل منزله ودخل عليه ابن عم له فرآه يحل الحرير عن صدره فقال له: ما هذا لعلك قتلت أمير المؤمنين فأراد أن يقول له لا فقال: نعم فمضى ابن عمه واشتمل على سيفه ثم دخل عليه فضربه حتى قتله، قال المفيد: وأما ابن ملجم فلحقه رجل من همدان فطرح عليه قطيفة ثم صرعه وأخذ السيف من يده وجاء به أمير المؤمنين عليه السلام وأفلت الثالث وانسل بين الناس، وفي رواية الطبري وابن الأثير أن الذي قتل وردان والذي أفلت شبيب. قال ابن الأثير: وقدم علي (ع) جعدة بن هبيرة ابن أخته أم هانىء يصلي بالناس الغداة قال الشيخ في الأمالي وخرج الحسن والحسين عليهما السلام وأخذا ابن ملجم وأوثقاه، واحتمل أمير المؤمنين (ع) فأدخل داره فقعدت لبابة عند رأسه وجلست أم كلثوم عند رجليه ففتح عينيه فنظر إليهما فقال: الرفيق الأعلى خير مستقراً وأحسن مقيلاً ثم عرق ثم أغمي عليه ثم أفاق فقال: رأيت رسول الله ﷺ يأمرني بالرواح إليه عشاء ثلاث مرات، قال ابن

الأثير: وأدخل ابن ملجم على أمير المؤمنين وهو مكتوف فقال: أي عدو الله ألم أحسن إليك قال: بلى قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، قال علي: لا أراك إلا مقتولاً به ولا أراك إلا من شر خلق الله ثم قال: النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون: قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن إلا قاتلي، انظر يا حسن إذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور**»، قال المفيد: فقال ابن ملجم: والله لقد ابتعته بألف وسممته بألف فإن خانني فأبعده الله، ونادته أم كلثوم يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين قال: إنما قتلت أباك، قالت: يا عدو الله إني لأرجو أن لا يكون عليه بأس، قال لها: فأراك إنما تبكين علي إذاً والله لقد ضربته ضربة لو قسمت بين أهل الأرض لأهلكتهم. فأخرج من بين يديه وأن الناس ينهشون لحمه بأسنانهم كأنهم سباع وهم يقولون: يا عدو الله ما فعلت أهلكت أمة محمد وقتلت خير الناس وإنه لصامت لا ينطق فذهب به إلى الحبس وجاء الناس إلى أمير المؤمنين فقالوا: مرنا بأمرك في عدو الله والله لقد أهلك الأمة وأفسد الملة فقال لهم: إن عشت رأيت فيه رأيي وإن هلكت فاصنعوا به كما يصنع بقاتل النبي اقتلوه ثم احرقوه بعد ذلك بالنار. قال الطبري: وفي قتل علي يقول ابن أبي مياس المرادي ونسبها الحاكم في المستدرك إلى الفرزدق:

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

قال الطبري: وأما البرك بن عبد اللّه فإنه في تلك الليلة قعد لمعاوية فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بسيفه فوقع في إليته فأخذ فقال: إن عندي خبراً أسرك به فإن أخبرتك فنافعي ذلك عندك قال: نعم قال: إن أخا لي قتل علياً في مثل هذه الليلة قال: لعله لم يقدر على ذلك قال: بلى إن علياً يخرج ليس معه

من يحرسه فأمر به معاوية فقتل، وبعث معاوية إلى الساعدي وكان طبيباً فقال: اختر إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرأ فإن ضربتك مسمومة، قال: أما النار فلا صبر لي عليها وأما الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني فسقاه الشربة فبرىء وعالج جرحه حتى التأم ولم يولد له بعدها. قال سبط ابن الجوزي: لما بلغ القاضي أبا حازم ذلك قال: يا ليت ذلك قبل أن يولد يزيد، وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد، قال ابن الأثير: وهو أول من عملها في الإسلام (أقول) المقصورة بناء أو شبهه يصلي داخله الحامل لقب الخلافة لئلا يغتاله أحد ويصلي الناس خلفه. أول من عمله معاوية واقتدي به من بعده. وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى بطنه، فأمر خارجة بن حذافة صاحب شرطته من بني عامر بن لؤي فخرج ليصلي فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فقتله فأخذ إلى عمرو فرآهم يسلمون عليه بالإمرة فقال: من هذا قالوا: عمرو قال: فمن قتلت قالوا: خارجة فقال لعمرو: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك قال عمرو: أردتني وأراد الله خارجة فقدمه عمرو فقتله وبلغ ذلك معاوية فكتب إلى عمرو:

وقتك وأسباب المنايا كثيرة ... منية شيخ من لؤي بن غالب
فيا عمرو مهلاً إنما أنت همه ... وصاحبه دون الرجال الأقارب
نجوت وقد بل المرادي سيفه ... من ابن أبي شيخ الأباطح طالب
ويضربني بالسيف آخر مثله ... فكانت علينا تلك ضربة لازب

(أقول): وفي ذلك يقول ابن عبدون في رائيته المشهورة:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة ... فدت علياً بمن شاءت من البشر

وروى أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين وابن عبد البر في الاستيعاب بإسناديهما وبين كل منهما بعض التفاوت ونحن نذكر محصل الكلامين: إنه جمع لعلي عليه السلام أطباء الكوفة يوم جرح فلم يكن أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هاني السكوني وكان أبصرهم بالطب وكان متطبباً

صاحب كرسي يعالج الجراحات وقال أبو الفرج: كان من الأربعين غلاماً الذين كان خالد بن الوليد أصابهم في عين التمر فسباهم وقال ابن عبد البر وهو الذي تنسب إليه صحراء أثير فلما نظر إلى الجرح أخذ رئة شاة حارة فتتبع عرقاً منها فاستخرجه وأدخله في الجرح ثم نفخ العرق فاستخرجه فإذا عليه بياض الدماغ فقال: يا أمير المؤمنين اعهد عهدك فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك. قال أبو الفرج الأصبهاني: روى أبو مخنف عن أبي الطفيل إن صعصعة بن صوحان استأذن على علي (ع) وقد أتاه عائداً لما ضربه ابن ملجم فلم يكن عليه إذن فقال صعصعة للآذن: قل له يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً لقد كان الله في صدرك عظيماً ولقد كنت بذات الله عليماً. فأبلغه الآذن فقال: قل له وأنت يرحمك الله فلقد كنت خفيف المؤونة كثير المعونة.

وروى الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في أماليه بسنده إلى الأصبغ بن نباتة قال: لما ضرب ابن ملجم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام غدونا عليه نفر من أصحابنا أنا والحارث وسويد بن غفلة وجماعة معنا فقعدنا على الباب فسمعنا البكاء من الدار فبكينا فخرج إلينا الحسن بن علي عليهما السلام فقال: يقول لكم أمير المؤمنين انصرفوا إلى منازلكم فانصرف القوم غيري واشتد البكاء في منزله فبكيت فخرج الحسن فقال: ألم أقل لكم انصرفوا فقلت: لا والله يا ابن رسول الله ما تتابعني نفسي ولا تحملني رجلاي أن أنصرف حتى أرى أمير المؤمنين وبكيت فدخل الدار ولم يلبث أن خرج فقال لي: ادخل فدخلت على أمير المؤمنين (ع) فإذا هو مستند معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمه واصفر وجهه فما أدري وجهه أشد صفرة أم العمامة فأكببت عليه فقبلته وبكيت فقال لي: لا تبك يا أصبغ فإنها والله الجنة فقلت له: جعلت فداك إني أعلم والله إنك تصير إلى الجنة وإنما أبكي لفقداني إياك يا أمير المؤمنين (وروى) قطب الدين سعيد بن هبة اللّه الراوندي في كتاب الخرائج عن عمرو بن الحمق قال دخلت على علي (ع) حين ضرب الضربة بالكوفة فقلت: ليس عليك بأس إنما هو خدش قال: لعمري إني لمفارقكم ثم أغمي عليه فبكت

أم كلثوم فلما أفاق قال: لا تؤذيني يا أم كلثوم فإنك لو ترين ما أرى إن الملائكة من السماوات السبع بعضهم خلف بعض والنبيين يقولون: انطلق يا علي فما أمامك خير لك مما أنت فيه. وروى ابن الأثير في أسد الغابة بسنده عن عمرو ذي مر قال: لما أصيب علي بالضربة دخلت عليه وقد عصب رأسه فقلت: يا أمير المؤمنين أرني ضربتك فحلها فقلت: خدش وليس بشيء قال: إني مفارقكم فبكت أم كلثوم من وراء الحجاب فقال لها: اسكتي فلو ترين ما أرى لما بكيت فقلت: يا أمير المؤمنين ماذا ترى قال: هذه الملائكة وفود والنبيون وهذا محمد ﷺ يقول: يا علي أبشر فما تصير إليه خير مما أنت فيه. وروى الشيخ أبو جعفر الطوسي في الأمالي بسنده عن حبيب بن عمرو نحوه.

وصية أمير المؤمنين عليه السلام

ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه وأبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أمير المؤمنين (ع) علي بن أبي طالب أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين أوصيكما بتقوى الله وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما وقولا بالحق واعملا للأجر (للآخرة خ ل) وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً أوصيكما وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغهم كتابي هذا من المؤمنين بتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام وإن البغضة حالقة الدين ولا قوة إلا بالله. انظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب. والله الله في الأيتام لا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من عال يتيماً حتى يستغني أوجب الله له الجنة كما أوجب لآكل مال اليتيم النار. والله الله في القرآن

فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم، والله الله في بيت ربكم فلا يخلون منكم ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا وإن أدنى ما يرجع به من أمه أن يغفر له ما سلف من ذنبه والله الله في الصلاة فإنها خير العمل وإنها عمود دينكم والله الله في الزكاة فإنها تطفىء غضب ربكم والله الله في صيام شهر رمضان فإن صيامه جنة من النار، والله الله في الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم فإنما يجاهد في سبيل الله رجلان: إمام هدى ومطيع له مقتد بهداه، والله الله في ذرية نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم، والله الله في أصحاب نبيكم الذين لم يحدثوا حدثاً ولم يؤووا محدثاً فإن رسول الله ﷺ أوصى بهم ولعن المحدث منهم ومن غيرهم والمؤوي للمحدث، والله الله في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معايشكم، والله الله في النساء وما ملكت أيمانكم فإن آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «**أوصيكم بالضعيفين نسائكم وما ملكت أيمانكم**» ثم قال: الصلاة الصلاة ولا تخافن في الله لومة لائم يكفكم من أرادكم وبغى عليكم قولوا للناس حسناً كما أمركم الله عز وجل ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولي الله الأمر شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم. عليكم بالتواصل والتباذل والتبار وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب، حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم واستودعكم الله خير مستودع وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وقال ابن الأثير أنه دعا الحسن والحسين عليهما السلام فقال لهما: أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تبكيا على شيء زوي عنكما منها وقولا الحق وارحما اليتيم وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما أوصيت به أخويك قال: نعم قال: فإني أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقهما عليك ولا تقطع دونهما أمراً ثم قال: أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه وقال للحسن: أوصيك

أي بني بتقوى الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه في الدين والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الفواحش.

ثم قال للحسن: أبصروا ضاربي أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي. ثم قال للحسن (ع): إذا أنا مت فلا تغال في كفني وصل عليّ وكبر عليّ سبعاً وفي رواية خمساً وغيب قبري.

قال ابن الأثير ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى توفي صلوات الله عليه «اهـ» وبقي إلى نحو ثلث الليل وتوفي فصرخت بناته ونساؤه وارتفعت الصيحة في القصر فعلم أهل الكوفة أن أمير المؤمنين عليه السلام قد قبض فأقبل الرجال والنساء يهرعون أفواجاً أفواجاً وصاحوا صيحة عظيمة فأرتجت الكوفة بأهلها وكثر البكاء والنحيب وكثر الضجيج بالكوفة وقبائلها ودورها وجميع أقطارها فكان ذلك كيوم مات فيه رسول الله ﷺ فلما توفي غسله الحسن والحسين عليهما السلام ومحمد يصب الماء وقال أبو الفرج: غسله الحسن وعبد اللّه بن عباس وقال ابن الأثير وعبد اللّه بن جعفر مكان عبد اللّه بن عباس[1] وكفن في ثلاثة أثواب بيض ليس فيهما قميص ولا عمامة بل كان القميص والعمامة من غيرها وحنط ببقية حنوط رسول الله ﷺ. ثم وضعوه على سريره وصلى عليه الحسن ابنه وكبر خمساً وقيل ستاً وقيل سبعاً وقيل تسعاً وحمل في جوف الليل

---

(١) روى المفيد أنه كان يفطر ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند عبد اللّه بن جعفر. والذي في الأصل عبد اللّه بن عباس ووضع عبد اللّه بن جعفر مكان عبد اللّه بن عباس خطأ مطبعي ولعل الصواب أنه كان يفطر ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند عبد اللّه بن جعفر وليلة عند عبد اللّه بن العباس وأن هؤلاء هم الذين غسلوه. وهذا من الأدلة على أن ابن عباس لم يفارق أمير المؤمنين (ع) كما أنه سيأتي في سيرة الحسن (ع) إن عبد اللّه بن العباس قام بين يديه ودعا الناس إلى بيعته فبادروا إليها وأن الحسن (ع) رتب العمال وأنفذ عبد اللّه بن العباس إلى البصرة وهو أيضاً من الأدلة على عدم مفارقته أمير المؤمنين (ع) إلا أن يكون الصواب عبيد اللّه بن العباس مصغراً بدل عبد اللّه مكبراً كما ربما يدل عليه قول الطبري وابن الأثير إن الذي حضر صلح الحسن هو عبيد اللّه لا عبد اللّه والله أعلم ـ (المؤلف).

من تلك الليلة إلى ظهر الكوفة إلى النجف فدفن بالثوية عند قائم الغريين.

وفي خبر عن الباقر (ع) دخل قبره الحسن والحسين ومحمد بنوه عليهم السلام وعبد اللّه بن جعفر رضي الله عنه. وكان إخفاء قبره بوصية منه (ع) خوفاً من بني أمية ومن الخوارج.

وروى أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبيين بسنده عن أبي البختري أنه لما جاء عائشة قتل أمير المؤمنين (ع) سجدت. وقال الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل وروى أبو الفرج في مقاتل الطالبيين وابن سعد في الطبقات وذكر المرزباني في معجم الشعراء إنه لما أتى عائشة نعي أمير المؤمنين عليه السلام تمثلت:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم قالت: من قتله؟ قيل رجل من مراد فقالت:

فإن يك نائياً فلقد نعاه ... غلام ليس في فيه التراب

فقالت زينب ابنة أبي سلمة ألعلي تقولين هذا؟! فقالت: إني أنسى فإذا نسيت فذكروني قال أبو الفرج ثم تمثلت:

ما زال إهداء القصائد بيننا ... شتم الصديق وكثرة الألقاب

حتى تركت كأن قولك فيهم ... في كل مجتمع طنين ذباب

«اهـ» وفي ضربة ابن ماجم أمير المؤمنين (ع) يقول عمران بن حطان الرقاشي الخارجي:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البرية عند اللّه ميزانا

أكرم بقوم بطون الأرض أقبرهم ... لم يخلطوا دينهم بغياً وعدوانا

للّه در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا

أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عريانا

وقد رد عليه جمله من الشعراء منهم طاهر بن محمد حكاه عنه سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص فقال:

يا ضربة من لعين ما أراد بها … إلا إمام الهدى ظلماً وعدوانا

إني لأذكره يوماً فأثبته … أشقى البرية عند اللّه خسرانا

وقال هذا رسول اللّه سيدنا … وخاتم الرسل إعلاماً وإعلانا

ومنهم القاضي أبو الحارث الطبري أورده سبط بن الجوزي أيضاً وفي الإصابة عارضه الإمام أبو الطيب الطبري وذكر البيتين الأولين فقط:

إني لأبرأ مما أنت قائله … عن ابن ملجم الملعون بهتانا

إني لأذكره يوماً فألعنه … ديناً وألعن عمران بن حطانا

عليك ثم عليه الدهر متصلا … لعائن اللّه أسرارا وإعلانا

فأنتم من كلاب النار جاء به … نص الشريعة برهانا وتبيانا

ومنهم السيد الحميري فقال:

لا در در المرادي الذي سفكت … كفاه مهجة خير الخلق إنسانا

قد صار مما تعاطاه بضربته … مما عليه من الإسلام عريانا

أبكى السماء لباب كان يعمره … منها وحنت عليه الأرض تحنانا

طوراً أقول ابن ملعونين ملتقط … من نسل إبليس بل قد كان شيطانا

ويل أمه أي ماذا لعنة ولدت … لا إن كما قال عمران بن حطانا

عبد تحمل إثماً لو تحمله … ثهلان طرفة عين هد ثهلانا

ومنهم أبو المظفر الشهرستاني في كتابه التبصير فقال:

كذبت وأيم الذي حج الحجيج له … وقد ركبت ضلالاً منك بهتانا

لتلقين بها ناراً مؤججة … يوم القيامة لا زلفى ورضوانا

تبت يداه لقد خابت وقد خسرت … وصار أبخس من في الحشر ميزانا

هذا جوابي لذاك النذل مرتجلاً … أرجو بذاك من الرحمٰن غفرانا

وقال أبو بكر بن حماد أو بكر بن حماد التاهرتي:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة … هدمت ويلك للإسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم … وأول الناس إسلاماً وإيمانا

واعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سن الرسول لنا شرعاً وتبيانا

صهر النبي ومولاه وناصره ... أضحت مناقبه نوراً وبرهانا

وكان منه على رغم الحسود له ... مكان هارون من موسى بن عمرانا

وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكراً ... ليثاً إذا لقي الأقران أقرانا

ذكرت قاتله والدمع منحدر ... فقلت سبحان رب الناس سبحانا

إني لأحسبه ما كان من بشر ... كلا ولكنه قد كان شيطانا

أشقى مراد إذا عدت قبائلها ... وأخسر الناس عند اللّه ميزانا

كعاقر الناقة الأولى التي جلبت ... على ثمود بأرض الحجر خسرانا

قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها ... قبل المنية أشقاها وقد كانا

فلا عفا اللّه عنه ما تحمله ... ولا سقى قبر عمران بن حطانا

لقوله في شقي ظل مجترماً ... ونال ما ناله ظلماً وعدوانا

(يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا)

بل ضربة من غوي أوردته لظى ... فسوف يلقى بها الرحمٰن غضبانا

كأنه لم يرد قصداً بضربته ... إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

قتل ابن ملجم

كان أمير المؤمنين (ع) لما ضربه ابن ملجم أوصى به فيما رواه الحاكم في المستدرك فقال: أحسنوا إليه فإن أعش فهضم أو قصاص وإن أمت فعاجلوه فإني مخاصمه عند ربي عز وجل (وفي رواية) للحاكم لما جاؤوا بابن ملجم إلى علي (ع) قال: اصنعوا به ما صنع رسول الله ﷺ برجل جعل له على أن يقتله فأمر أن يقتل ويحرق بالنار.

قال الطبري ولما قبض أمير المؤمنين (ع) بعث الحسن إلى ابن ملجم فأحضره فقال للحسن: هل لك في خصلة إني أعطيت الله عهداً أن لا أعاهد عهداً إلا وفيت به وإني عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونهما فإن شئت خليت بيني وبينه فلك علي عهد الله إن لم أقتله وبقيت أن آتيك

حتى أضع يدي في يدك. فقال له الحسن: لا والله حتى تعاين النار ثم قدمه فقتله. وأخذه الناس فأدرجوه في بواري وأحرقوه بالنار، وقال المفيد في الإرشاد: استوهبت أم الهيثم بنت الأسود النخعية جيفته منه لتتولى إحراقها فوهبها لها فأحرقتها بالنار، وروى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي إسحق الهمداني رأيت قاتل علي بن أبي طالب يحرق بالنار في أصحاب الرماح.

موضع قبر أمير المؤمنين (ع)

قد عرفت أنه حمل ليلاً إلى ناحية الغريين ودفن هناك وأخفي قبره بوصية منه. وحكى ابن أبي الحديد في شرح النهج عن أبي القاسم البلخي أنه قال إن علياً (ع) لما قتل قصد بنوه أن يخفوا قبره خوفاً من بني أمية أن يحدثوا في قبره حدثاً فأوهموا الناس في موضع قبره تلك الليلة وهي ليلة دفنه إيهامات مختلفة فشدوا على جمل تابوتاً موثقاً بالحبال يفوح منه روائح الكافور وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل صحبه ثقاتهم يوهمون أنهم يحملونه إلى المدينة فيدفنونه عند فاطمة عليها السلام وأخرجوا بغلاً وعليه جنازة مغطاة يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة وحفروا حفائر عدة منها بالمسجد ومنها برحبة قصر الإمارة ومنها في حجرة من دور آل جعدة بن هبيرة المخزومي ومنها في أصل دار عبد الله بن يزيد القسري بحذاء باب الوراقين مما يلي قبلة المسجد ومنها في الكناسة ومنها في الثوية فعمي على الناس موضع قبره ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بنوه والخواص المخلصون من أصحابه فإنهم خرجوا به (ع) وقت السحر في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان فدفنوه على النجف بالموضع المعروف بالغري بوصاة منه (ع) إليهم في ذلك وعهد كان عهد به إليهم وعمي موضع قبره على الناس واختلفت الأراجيف في صبيحة ذلك اليوم اختلافاً شديداً وافترقت الأقوال في موضع قبره الشريف وتشعبت وادعى قوم إن جماعة من طيء وقعوا على جمل في تلك الليلة وقد أضله أصحابه ببلادهم وعليه صندوق فظنوا فيه مالاً فلما رأوا ما فيه خافوا أن يطلبوا به فدفنوا الصندوق بما فيه ونحروا البعير

وأكلوه وشاع ذلك في بني أمية وشيعتهم واعتقدوه حقاً فقال الوليد بن عقبة من أبيات يقصد فيها الرد على رسول الله ﷺ حيث قال: وإن تولوها علياً تجدوا هادياً مهدياً:

فإن يك قد ضل البعير بحمله　　　فما كان مهدياً وكان هاديا

انتهى ما حكاه ابن أبي الحديد ولذلك وقع الاختلاف في موضع قبره الشريف بين غير الشيعة أما الشيعة فمتفقون خلفاً عن سلف نقلاً عن أئمتهم أبناء أمير المؤمنين عليه وعليهم السلام إنه لم يدفن إلا في الغري في الموضع المعروف الآن ووافقهم المحققون من علماء سائر المسلمين والأخبار فيه متواترة وقد كتب السيد عبد الكريم بن طاوس كتاباً في ذلك سماه فرحة الغري استقصى فيه الآثار والأخبار الواردة في ذلك وأتى بما لا مزيد عليه.

وروى المفيد في الإرشاد بسنده عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر بن علي الباقر (ع) أين دفن أمير المؤمنين قال: دفن بناحية الغريين ودفن قبل طلوع الفجر وبسنده عن أبي عمير عن رجاله قيل للحسين بن علي (ع): أين دفنتم أمير المؤمنين قال: خرجنا به ليلاً على مسجد الأشعث حتى خرجنا به إلى الظهر بجنب الغريين فدفناه هناك وقال ابن الأثير دفن عند مسجد الجماعة وقيل في القصر وقيل غير ذلك والأصح أن قبره هو الموضع الذي يتبرك به ويزار (اهـ). (أقول) وهذا مما لا شبهة فيه ولا ريب لأن أولاده وذريته وشيعتهم كانوا يزورونه في هذا الموضع وأعرف الناس بقبر الميت أهله وأتباعه وعليه جميع الشيعة وأئمة أهل البيت وجميع المسلمين إلا من شذ. وفي تذكرة الخواص: حكى أبو نعيم الأصفهاني أن الذي على النجف إنما هو قبر المغيرة بن شعبة قال: ولو علم به زواره لرجموه قلت: وهذا من أغلاط أبي نعيم فإن المغيرة بن شعبة لم يعرف له قبر وقيل إنه مات بالشام (اهـ). قال المفيد في الإرشاد لم يزل قبره (ع) مخفياً (لا يعرفه غير بنيه وخواص شيعتهم) حتى دل عليه الصادق جعفر بن محمد (ع) في الدولة العباسية وزاره عند وروده إلى أبي جعفر وهو بالحيرة فعرفته الشيعة واستأنفوا إذ ذاك زيارته (اهـ) قال صفوان بن مهران الجمال

فيما روي عنه في فرحة الغري: لما وافيت مع جعفر الصادق (ع) الكوفة يريد أبا جعفر المنصور قال لي: يا صفوان أنخ الراحلة فهذا قبر جدي أمير المؤمنين فأنختها ثم نزل فاغتسل وغير ثوبه وتحفى وقال لي: افعل مثلما أفعل ثم أخذ نحو الذكوة وقال لي: قصر خطاك (طلباً لثواب زيادة الخطى) إلى أن قال: ثم مشى ومشيت معه وعلينا السكينة والوقار نسبح ونقدس ونهلل إلى أن بلغنا الذكوات فوقف ونظر يمنة ويسرة وخط بعكازته فقال لي: اطلب فطلبت فإذا أثر القبر ثم أرسل دموعه وقال: السلام عليك أيها الوصي إلى آخر الزيارة (إلى أن قال) قلت: يا سيدي تأذن لي أن أخبر أصحابنا من أهل الكوفة به فقال: نعم وأعطاني دراهم وأصلحت القبر (وفي رواية) عن الصادق (ع) أنه قال: لما كنت بالحيرة عند أبي العباس (يعني السفاح) كنت آتي قبر أمير المؤمنين صلوات الله عليه ليلاً بناحية نجف الحيرة إلى جانب غري النعمان فأصلي عنده صلاة الليل وانصرف قبل الفجر (وفي رواية) عن صفوان الجمال قال: حملت جعفر بن محمد عليهما السلام فلما انتهيت إلى النجف قال: يا صفوان تياسر حتى تجوز الحيرة فتأتي القائم فبلغت الموضع الذي وصف فنزل وتوضأ ثم تقدم هو وعبد اللّه بن الحسن فصليا عند قبر فلما قضيا صلاتهما قلت: جعلت فداك أي موضع هذا القبر قال: هذا قبر علي بن أبي طالب وهو القبر الذي تأتيه الناس هناك (وينبغي) أن يكون هذا في خلافة السفاح لأنه هو الذي وفد عليه عبد اللّه بن الحسن وعن فرحة الغري بسنده عن عبد اللّه بن عبيد بن زيد قال: رأيت جعفر بن محمد وعبد اللّه بن الحسن بالغري عند قبر أمير المؤمنين (ع) (وروى) ابن قولويه في كتاب كامل الزيارة بسنده عن صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن موضع قبر أمير المؤمنين (ع) فوصف لي موضعه حيث دكادك[1] الميل فأتيته فصليت عنده ثم عدت إلى أبي عبد اللّه (ع) من قابل فأخبرته بذهابي وصلاتي عنده فقال: أصبت فمكثت عشرين سنة أصلي

---

(١) الدكادك جمع دكدك ما يكبس من الرمل أو أرض فيها غلظ والميل ثم الغري الذي مر تفسيره في الحاشية السابقة.

عنده. (أقول): صفوان كان جمالاً يسافر بجماله من الحجاز إلى العراق وبالعكس فكان كلما سافر إلى العراق يصلي عند القبر الشريف وكأن هذا كان قبل أن يركب معه الصادق (ع) من الحجاز إلى العراق كما مر فدله على القبر فعرفه بالوصف ثم لما حمله على جمله دله على موضعه بالتعيين وكان من أصحاب الصادق (ع) وشيعته (وفي عدة روايات) عن الصادق (ع) أنه لما أتى الكوفة صلى ركعتين ثم تنحى فصلى ركعتين ثم تنحى فصلى ركعتين فسئل عن ذلك فقال الأولى موضع قبر أمير المؤمنين والثانية موضع رأس الحسين[١] والثالثة موضع منبر القائم عليهم السلام وقد دل الصادق (ع) جماعة من أصحابه على قبر أمير المؤمنين (ع) بظهر الكوفة في المكان المعروف منهم أبو بصير وعبد اللّه بن طلحة ومعلى بن خنيس ويونس بن ظبيان وزرارة وغيرهم وقبل ذلك جاء الإمام علي زين العابدين (ع) من الحجاز إلى العراق مع خادم له لزيارته فزاره ثم رجع ولكن لم يعرفه جميع الناس ثم عرفه وأظهره الرشيد العباسي بعد سنة ١٧٠ فعرفه عامة الناس روى المفيد في الإرشاد عن محمد بن زكريا حدثنا عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه عن ابن عائشة حدثني عبد اللّه بن حازم قال: خرجنا يوماً مع الرشيد من الكوفة نتصيد فصرنا إلى ناحية الغريين والثوية فرأينا ظباء فأرسلنا عليها الصقور والكلاب فجاولتها ساعة ثم لجأت الظباء إلى أكمة فوقفت عليها فسقطت الصقور ناحية ورجعت الكلاب فعجب الرشيد من ذلك ثم إن الظباء هبطت من الأكمة فهبطت الصقور والكلاب فرجعت الظباء إلى الأكمة فتراجعت عنها الصقور والكلاب فعلت ذلك ثلاثاً فقال الرشيد: اركضوا فمن لقيتموه فائتوني به فأتيناه بشيخ من بني أسد فقال له هارون: أخبرني ما هذه الأكمة قال: إن جعلت لي الأمان أخبرتك قال: لك عهد الله وميثاقه أن لا أهيجك ولا أوذيك قال: حدثني أبي عن آبائه أنهم كانوا يقولون إن في هذه الأكمة قبر علي بن أبي طالب جعله الله حرماً لا يأوي إليه

(١) لما روي من أن رأس الحسين مدفون مما يلي أمير المؤمنين عليهما السلام.

شيء إلا أمن فنزل هارون فدعا بماء فتوضأ وصلى عند الأكمة وتمرغ عليها وجعل يبكي ثم انصرفنا قال محمد بن عائشة وكان قلبي لا يقبل ذلك فحججت إلى مكة فرأيت بها ياسراً خادم الرشيد فقال: قال لي الرشيد ليلة من الليالي وقد قدمنا من مكة فنزلنا الكوفة: يا ياسر قل لعيسى بن جعفر فليركب فركبا جميعاً وركبت معهما حتى إذا صرنا إلى الغريين فأما عيسى فطرح نفسه فنام وأما الرشيد فجاء إلى أكمة فصلى عندها فكلما صلى ركعتين دعا وبكى وتمرغ على الأكمة ثم يقول: يا ابن عم أنا والله أعرف فضلك وسابقتك وبك والله جلست مجلسي الذي أنا فيه وأنت ولكن ولدك يؤذونني ويخرجون علي ثم يقوم فيصلي ثم يعيد هذا الكلام ويدعو ويبكي حتى إذا كان وقت السحر قال لي: يا ياسر أقم عيسى فأقمته فقال له: يا عيسى قم فصل عند قبر ابن عمك قال له: وأي ابن عم مني هذا قال: هذا قبر علي بن أبي طالب فتوضأ عيسى وقام يصلي فلم يزالا كذلك حتى طلع الفجر فقلت: يا أمير المؤمنين أدركك الصبح فركبنا ورجعنا إلى الكوفة «اهـ».

تعمير القبر الشريف العمارة الأولى

أول من عمره هارون الرشيد بعد سنة ١٧٠ وما في بعض الكتب من أن ذلك كان سنة ١٥٥ اشتباه لأن الرشيد استخلف سنة ١٧٠ ومات سنة ١٩٣ وإظهاره القبر وتعميره إنما كان في خلافته قال الديلمي الحسن بن أبي الحسن محمد في إرشاد القلوب بعدما ذكر مجيء هارون إلى القبر: وأمر أن تبنى عليه قبة بأربعة أبواب «اهـ» وقال أحمد بن علي بن الحسين الحسني في كتابه عمدة الطالب بعدما ذكر زيارة الرشيد للقبر الشريف: ثم إن هارون أمر فبنى عليه قبة وأخذ الناس في زيارته والدفن لموتاهم حوله وقال السيد عبد الكريم بن أحمد بن طاوس الحسني في كتاب فرحة الغري: ذكر ابن طحال أن الرشيد بنى عليه بنياناً بآجر أبيض أصغر من هذا الضريح اليوم من كل جانب بذراع ولما كشفنا الضريح الشريف وجدناه مبنياً عليه تربة وجصاً وأمر الرشيد أن يبنى عليه قبة فبنيت من طين أحمر وعلى رأسها جرة خضراء وهي في الخزانة اليوم «اهـ».

ويظهر من حديث رواه السيد عبد الكريم بن طاوس في كتاب فرحة الغري الآنف الذكر أن داود العباسي[1] عمل على القبر صندوقاً وقال أبو الحسن علي بن الحسن بن الحجاج أنه رأى هذا الصندوق لطيفاً قال السيد عبد الكريم بن أحمد بن موسى بن طاوس في فرحة الغري: أخبرني عمي السعيد علي بن موسى بن طاوس والفقيه نجم الدين أبو القاسم بن سعيد والفقيه المقتدى بقية المشيخة نجيب الدين يحيى بن سعيد أدام الله بركاتهم كلهم عن الفقيه محمد بن عبد اللّه بن زهرة الحسيني عن محمد بن الحسن العلوي الساكن بمشهد الكاظم (ع) عن القطب الراوندي عن محمد بن علي بن المحسن الحلبي عن الشيخ الطوسي ونقلته من خطه حرفاً حرفاً عن المفيد محمد بن محمد بن النعمان عن محمد بن أحمد بن داود عن أبي الحسين محمد بن تمام الكوفي حدثنا أبو الحسن علي بن الحسن بن الحجاج من حفظه قال: كنا جلوساً في مجلس ابن عمي أبي عبد اللّه محمد بن عمران بن الحجاج وفيه جماعة من أهل الكوفة من المشايخ وفيمن حضر العباس بن أحمد العباسي وكانوا قد حضروا عند ابن عمي يهنونه بالسلامة لأنه حضر وقت سقوط سقيفة سيدي أي عبد اللّه الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) في ذي الحجة سنة ٢٧٣ فبينا هم قعود يتحدثون إذ حضر المجلس إسماعيل بن عيسى العباسي فأحجمت الجماعة عما كانت فيه وأطال إسماعيل الجلوس فقال: يا أصحابنا أعزكم الله لعلي قطعت حديثكم بمجيئي فقال أبو الحسن علي بن يحيى السليماني وكان شيخ الجماعة ومقدماً فيهم: لا والله يا أبا عبد اللّه أعزك الله ما أمسكنا لحال من الأحوال فقال لهم: يا أصحابنا اعلموا أن الله عز وجل مسائلي عما أقول لكم وما أعتقده من المذهب حتى حلف بعتق جواريه ومماليكه وحبس دوابه أنه لا يعتقد إلا ولاية علي بن أبي طالب والسادة من الأئمة وعدهم واحداً

(١) ذكر بعض المعاصرين أن داود هذا هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس لكن سيأتي أن إسماعيل بن عيسى قال: عمي داود وإذا كان داود هو ابن عيسى يكون أخاه لا عمه إلا أن يكون إسماعيل وأبوه كلاهما يسمى عيسى أو غير ذلك.

واحداً فانبسط إليه أصحابنا ثم قال لهم: رجعنا يوم الجمعة من الصلاة مع عمي داود فقال لنا: أينما كنتم قبل أن تغرب الشمس فصيروا إلي ولا يتخلف منكم أحد وكان جمرة بني هاشم فصرنا إليه فقال: صيحوا بفلان وفلان من الفعلة فجاءه رجلان معهما آلتهما فقال لنا: اركبوا في وقتكم هذا وخذوا معكم الجمل - غلاماً كان له أسود يعرف بالجمل - وكان هذا الغلام لو حمل على سكر دجلة لكسرها من شدته وبأسه وامضوا إلى هذا القبر الذي قد افتتن به الناس ويقولون إنه قبر علي حتى تنبشوه وتجيؤوني بأقصى ما فيه فمضينا إلى الموضع فحفر الحفارون وهم يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله في أنفسهم حتى نزلوا خمسة أذرع فقالوا: قد بلغنا إلى موضع صلب وليس نقوى بنقره فأنزلوا الحبشي فأخذ المنقار فضرب ضربة سمعنا لها طنيناً شديداً ثم ضرب ثانية فسمعنا طنيناً أشد ثم ضرب الثالثة فسمعنا طنيناً أشد ثم صاح الغلام صيحة فقلنا: اسألوه ما باله فلم يجبهم وهو يستغيث فشدوه بالحبل وأخرجوه فإذا على يده من أطراف أصابعه إلى مرافقه دم وهو يستغيث لا يكلمنا ولا يحير جواباً فحملناه على بغل ورجعنا طائرين حتى انتهينا إلى عمي فأخبرناه فالتفت إلى القبلة وتاب ورجع عن مذهبه وركب بعد ذلك في الليل إلى مصعب بن جابر فسأله أن يعمل على القبر صندوقاً ولم يخبره بشيء مما جرى ووجه من طم الموضع وعمر الصندوق عليه قال أبو الحسن بن حجاج رأينا هذا الصندوق الذي هذا حديثه لطيفاً (إلى أن قال): هذا آخر ما نقلته من خط الطوسي (رض) - ورواه الشريف أبو عبد اللّه محمد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن عبد الرحمٰن الشجري بإسناده نحوه، قال الفقيه صفي الدين محمد بن معد: وقد رأيت هذا الحديث بخط أبي يعلى محمد بن حمزة الجعفري صهر الشيخ المفيد والجالس بعد وفاته مجلسه أقول وقد رأيته بخط أبي يعلى الجعفري أيضاً في كتابه كما ذكره صفي الدين «اهـ» المراد نقله من كلام ابن طاوس في فرحة الغري.

العمارة الثانية

عمارة محمد بن زيد الحسني الملقب بالداعي الصغير صاحب بلاد الديلم

وطبرستان فإنه أمر بعمارته وعمارة الحائر بكربلاء والبناء عليهما بعد سنة ٢٧٩ وبنى على المشهد العلوي حصناً فيه سبعون طاقاً، وهو محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالداعي الصغير ملك طبرستان بعد أخيه الحسن بن زيد، وأقام بها سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخطب له رافع بن هرثمة بنيسابور ثم سار إلى خراسان لما بلغه أسر الصفار ليستولي عليها، وحاربه محمد بن هارون السرخسي صاحب إسماعيل بن أحمد الساماني وجرى بينهما قتال شديد ثم انهزم عسكر العلوي وجرح جراحات عديدة ومات منها بعد أيام سنة ٢٨٧ وأسر ابنه زيد بن محمد في المعركة وحمله إلى إسماعيل الساماني فأكرمه ووسع عليه وحمل رأسه إلى إسماعيل إلى بخارى ودفن بدنه بجرجان عند قبر الديباج محمد بن الصادق. قال ابن طاوس في فرحة الغري أن محمد بن زيد الداعي بنى المشهد الشريف الغروي أيام المعتضد «اهـ» والمعتضد بويع سنة (٢٧٩) وتوفي (٢٨٩). وعن محمد بن أبي طالب في كتابه زينة المجالس أنه قال: إلى أن خرج الداعيان الحسن ومحمد ابنا زيد بن الحسن فأمر محمد بعمارة المشهدين مشهد أمير المؤمنين ومشهد أبي عبد الله الحسين وأمر بالبناء عليهما «اهـ» وممن ذكر بناء محمد بن زيد العلوي محمد بن طحال فيما حكي عنه.

ويدل بعض الأخبار أن الذي بناه الحسن بن زيد الملقب بالداعي الكبير أخو محمد بن زيد المتقدم ظهر بطبرستان سنة ٢٥٠ وتوفي سنة ٢٧٠ قتله مرداويج الديلمي ففي ذيل خبر داود العباسي المتقدم الذي مر أنه عمر عليه الصندوق قال أبو الحسن بن حجاج: رأينا هذا الصندوق الذي هذا حديثه لطيفاً وذلك قبل أن يبنى عليه الحائط الذي بناه الحسن بن زيد، وفي ذيل حديث ابن الشجري المشار إليه آنفاً وذلك قبل أن يبنى عليه الحائط الذي بناه الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالداعي الخارج بطبرستان «اهـ» ولعله وقع اشتباه من النساخ أو بعض المؤلفين فأبدل اسم محمد باسم أخيه الحسن أو أن الحسن كان قد بنى

عليه حائطاً ثم بناه أخوه محمد فجعل له حصناً بسبعين طاقاً كما مر وبعد ذلك زيد فيه.

وممن عمره الشريف عمر بن يحيى بن الحسين بن أحمد بن عمر المقتول سنة ٢٥٠ ابن يحيى بن الحسين ذي الدمعة بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. في مستدركات الوسائل أن عمر الثاني هذا رد الله على يده الحجر الأسود لما نهبت القرامطة مكة سنة ٣٢٣ وبنى قبة جده أمير المؤمنين (ع) من خالص ماله «اهـ».

ولكن يظهر من بعض الروايات أن ابن زيد هو أول من بنى على القبر الشريف وأنه قبل عمارته لم يكن عليه بناء ولم يكن عليه شيء وما كان إلا الأرض وهو ينافي ما مر من أن أول من بناه الرشيد وأن داود العباسي عمل له صندوقاً، فعن الطبري في دلائل الإمامة عن حبيب بن الحسين عن عبيد بن خارجة عن علي بن عثمان عن فرات بن أحنف عن الصادق (ع) في حديث زيارته لأمير المؤمنين (ع) قال: ها هنا قبر أمير المؤمنين، أما إنه لا تذهب الأيام حتى يبعث الله رجلاً ممتحناً في نفسه بالقتل يبني عليه قال حبيب بن الحسين: سمعت هذا الحديث قبل أن يبنى على الموضع شيء ثم إن محمد بن زيد وجه فبنى عليه «اهـ». وعن كتاب المنتظم لأبي الفرج الجوزي: أنبأنا شيخنا أبو بكر بن عبد الباقي سمعت أبا الغنائم ابن السرسي كان يقول: توفي بالكوفة ٣١٣ من الصحابة لا يدري أحد منهم قبره إلا قبر علي، وجاء جعفر بن محمد ومحمد بن علي بن الحسين فزارا الموضع من قبر أمير المؤمنين علي ولم يكن إذ ذاك القبر وما كان إلا الأرض حتى جاء محمد بن زيد الداعي فأظهر القبر (اهـ). ولكن ما تقدم يؤكد بناء الرشيد عليه لا سيما قول ابن طاوس أن الجرة الخضراء التي كانت على أعلى القبة موجودة في الخزانة، ويمكن أن يكون بناء الرشيد قد انهدم ودرس لا سيما أنه كان من طين أحمر وأما بناؤه القبر بالآجر الأبيض فالظاهر أنه كان تحت الأرض ولم يكن ظاهراً منه إلا قدر أربع أصابع أو نحو ذلك فطمر بالرمال على طول المدة.

العمارة الثالثة

عمارة السلطان عضد الدولة فناخسرو بن بويه الديلمي في أيام الطائع فإنه عمر المشهدين العلوي والحسيني وبلغ الغاية في تعظيمهما والأوقاف عليهما وعمر مشهد أمير المؤمنين (ع) عمارة عظيمة وأنفق عليه أموالاً جليلة وستر حيطانه بخشب الساج المنقوش ووقف له الأوقاف وبنى عليه قبة بيضاء، وفيها يقول ابن الحاج الشاعر المشهور:

يا صاحب القبة البيضا على النجف ... من زار قبرك واستشفى لديك شفي

وملك عضد الدولة العراق سنة ٣٦٧ وتوفي (٣٧٢) والظاهر أن العمارة كانت سنة ٣٦٩ فما يوجد في بعض المؤلفات أن عمارته كانت سنة ٣٣٨ وما في بعضها أنها كانت سنة ٣٧٦ اشتباه لأن التاريخ الأول متقدم على ولايته العراق والثاني متأخر عن وفاته. قال الديلمي في إرشاد القلوب بعدما ذكر أن الرشيد أمر أن يبنى عليه قبة بأربعة أبواب: وبقي إلى أيام السلطان عضد الدولة فجاء فأقام في ذلك الطريق قريباً من سنة هو وعساكره وبعث فأتي بالصناع والأستاذية من الأطراف وخرب تلك العمارة وصرف أموالاً كثيرة جزيلة وعمر المشهدين عمارة جليلة حسنة هي العمارة التي كانت قبل عمارة اليوم (اهـ) وظاهره أن العمارة التي كانت قبل عمارة عضد الدولة هي عمارة الرشيد مع أنها عمارة الحسن بن زيد. وفي عمدة الطالب عند ذكره لهذه العمارة قال: وعين له أوقافاً ولم تزل عمارته باقية إلى سنة ٧٥٣ وكان قد ستر الحيطان بخشب الساج المنقوش فاحترقت تلك العمارة وجددت عمارة المشهد على ما هي عليه الآن ولم يبق من عمارة عضد الدولة إلا القليل وقبور آل بويه هناك ظاهرة مشهورة لم تحترق (اهـ). ولكن عن آخر كتاب الأماقي في شرح الإيلاقي لعبد الرحمٰن العتايقي الحلي المجاور بالنجف الأشرف في نسخته المخطوطة في الخزانة العلوية الذي تم كتابه في المحرم سنة ٧٥٥ قال: في هذه السنة احترقت الحضرة الغروية صلوات الله على مشرفها وعادت العمارة وأحسن منها في سنة (٧٦٠) «اهـ» وهو أعرف بتاريخ احتراقها من صاحب إرشاد الديلمي لأنه شاهده وذلك

متأخر عنه لأنه توفي (٨٤١) وأراد عضد الدولة أن يجري الماء من الفرات إلى النجف تحت الأرض لأن مكانه مرتفع لا يمكن أن يصل إليه الماء على وجه الأرض فحفر إلى جهة الشمال فنبعت في أثناء الحفر عين منعت من مواصلة الحفر لكن ماءها ليس بشروب فاكتفى بها للانتفاع بغير الشرب وساق ماءها إلى آبار عميقة محكمة البناء ووصل بينها بقنوات محكمة يسير فيها الفارس فيجري الماء من بئر إلى بئر ثم يخرج ما يفضل منه إلى جهة المغرب، ثم حفر الناس بعد ذلك آباراً أخر منها موصول بتلك الآبار ومنها غير موصول ولذلك كانت بعضها آباراً شرعية وبعضها حكم مائها حكم الماء الجاري. والسراديب التي لها شبابيك إلى تلك الآبار يأتي إليها الهواء البارد في الصيف لاتصال بعضها ببعض، وقد شاهد عمارة عضد الدولة ابن بطوطة في رحلته وكانت سنة ٧٢٧ فقال: دخلنا من باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي (ع) وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة ثم أشار إلى الاستئذان وتقبيل العتبة قال: وهي من الفضة وكذلك العضادتان ثم يدخل الزائر القبة وفي وسطها مصطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلب على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة قبور يزعمون أنها قبر آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام وعلي رضي الله عنه وبين القبور طشوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر في ذلك يده ويدهن به وجهه تبركاً وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة يفضي إلى مسجد وله أبواب أربعة عتبتها فضة (اهـ) وذلك هو الذي بناه عمران بن شاهين في أيام عضد الدولة بعد عمارة عضد الدولة وقوله إن بين القبور طشوت ذهب وفضة لعله اشتباه منه فرأى أواني تشبه الذهب والفضة فظنها منهما فاستعمال أواني الذهب والفضة محرم لا يمكن

أن يرخص فيه العلماء ولا أن يستعمل من دون إذنهم. وقال ابن طاوس في فرحة الغري: إن عضد الدولة بني الرواق المعروف برواق عمران في المشهدين الشريفين الغروي والحائري على مشرفهما السلام «اه» وإلى الآن يعرف الباقي منه في دهليز باب الطوسي بمسجد عمران. وبلغ عضد الدولة الغاية في تعظيم المشهد وبنى لنفسه قبة عظيمة في النجف بجوار المشهد من جهة الغرب وأوصى أن يدفن فيها فدفن هناك وبقيت القبة حتى هدمها السلطان سليمان العثماني لما دخل العراق سنة ٩٤٠ وجعلها تكية للبكتاشية وبقيت إلى هذا الزمان وبابها في الجهة الغربية من الصحن الشريف. والبعض يظن أن الذي فعل ذلك هو السلطان سليم والصواب أنه ولده سليمان وإنما نسب إلى سليم لشهرته. وحكى بعض المعاصرين عن صاحب خريدة العجائب أنه قال عند ذكر الكوفة وفيها قبة عظيمة يقال إنها قبر علي بن أبي طالب والقبة بناء أبي العباس عبد اللّه بن حمدان في دولة بني العباس. وفي نزهة الجليس للسيد عباس الموسوي العاملي المكي أنه قد عقدت على قبر آدم ونوح وعلي عليهم السلام قبة عظيمة وأول من عقد هذه القبة عليهم عبد اللّه بن حمدان في دولة بني العباس ثم عمرها الملوك من بعده «اه» وعبد اللّه هذا هو والد سيف الدولة الملقب بأبي الهيجاء ولاه المكتفي إمارة الموصل سنة ٢٩٣، وإذا صحت هذه الرواية كان بناء عبد اللّه بن حمدان قبل بناء عضد الدولة لأن ابن حمدان توفي قبل سنة ٣١٧ وعضد الدولة توفي سنة ٧٧٢ ولكن لم نجد من ذكر بناء عبد اللّه بن حمدان غيرهما والله أعلم.

العمارة الرابعة

التي حصلت بعد عمارة عضد الدولة التي احترقت كما مر فجددت سنة ٧٦٠ ولا يعلم مجددها وربما تكون من جماعة لا من شخص واحد ولذلك لم يذكر مجددها والعادة قاضية بأنها لو كانت من شخص واحد لذكر اسمه خصوصاً إذا كان معروفاً وخصوصاً ممن شاهدها كابن العتايقي كما مر. وفي

أثناء هذه المدة حدثت فيه إصلاحات وعمارات من البويهيين والحمدانيين وبعض العباسيين وبني جنكيز والإيلخانيين وغيرهم.

العمارة الخامسة

الموجودة اليوم والمشهور بين أهل النجف أنها للشاه عباس الصفوي الأول وأن المباشر والمهندس لها الشيخ البهائي فجعل القبة خضراء بعدما كانت بيضاء ولكن في رسالة نزهة أهل الحرمين إنّ الابتداء بها كان بأمر الشاه صفي الصفوي سنة ١٠٤٧ كما ذكره صاحب البحر المحيط واشتغلوا بها إلى أن توفي الشاه صفي سنة ١٠٥٢ فأتمها ابنه الشاه عباس الثاني وما اشتهر بين أهل النجف إنها عمارة الشاه عباس بهذا الاعتبار ثم استشهد على ذلك بكلام السيد شرف الدين علي النجفي في حواشيه على اثني عشرية صاحب المعالم حيث قال عند ذكر محراب مسجد الكوفة وحائطه القبلي وإن فيهما تيامناً عكس ضريحه المقدس ما لفظه: وعند عمارته بأمر السلطان الأعظم الشاه صفي قلت للمعمار غيره إلى التيامن فغيره ومع هذا فله تياسر في الجملة ومخالف لمحراب الكوفة (اهـ) واستشهد أيضاً بقول الشيخ محمد بن سليمان بن زوير السليماني: الذي ثبت عندي أن أول عمارته الموجودة الآن كانت سنة ١٠٥٧ والشاه صفي توفي (١٠٥٢) والمشهور بين أهل المشهد أن العمارة كانت في أكثر من عشرين سنة ولا يستقيم ذلك إلا بأن يكون مبدأ العمارة كان زمن الشاه صفي وإتمامها على يد الشاه عباس (اهـ) أقول كلام السيد شريف الدين يدل على عمارته بأمر الشاه صفي ولا ينفي أن يكون عمر قبل ذلك بأمر الشاه عباس الأول فقد بقي في الملك ٧٢ سنة فيمكن أن يكون عمره في أوائل سلطنته ثم وقع فيه خلل فأعاده حفيده الشاه صفي وأما كلام السليماني فظاهر أنه اجتهاد لقوله: الذي ثبت عندي وبنائه أن إكمال عمارته على يد الشاه عباس الثاني على ما اشتهر بين أهل المشهد فإذا كانت للشهرة بينهم قيمة فليعتبر ما اشتهر بينهم إن مؤسسها الشاه عباس الأول ويحصل الجمع بذلك على أن امتداد العمارة أكثر من عشرين سنة والآمر

بها ملك عظيم بعيد عن الاعتبار على أن المحكي عن المنتظم الناصري في حوادث سنة ١٠٤٢ إن الشاه صفي حينما زار المشهد الشريف رأى بعض النقصان في بناء المرقد فأمر وزيره ميرزا تقي المازندراني بإصلاح تلك الأماكن المشرفة فجاء بالمعماريين والمهندسين إلى النجف ومكث فيها ثلاث سنين مشغولاً بهذا العمل (اهـ) وهو ينافي ما تقدم عن السليماني ولعله الصواب هذا مع ما يظهر من بعض القيود إن الشاه صفي وسع الصحن الشريف وزاد عليه والله أعلم. ثم جدد عمارة الصفوية السلطان نادر الأفشاري وزاد عليها وزخرف القبة الشريفة ومنارتي المشهد وإيوانه بالذهب الإبريز بعد فتحه الهند كما هي عليه اليوم ويقال: إن على كل لبنة تومانا نادرياً من الذهب وأهدى إلى المشهد الشريف من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً وذلك في سنة ١١٥٦ أو ٥٤ وكتب اسمه داخل طاق الباب الشرقي هكذا (المتوكل على الملك القادر السلطان نادر) وتحته تاريخ لم يبق بذاكرتي وأظنه التاريخ السابق وعمر فيه الشاه أحمد ناصر الدين القاجاري بعد ذلك وتنافست الملوك والأمراء في عمارته والإهداء إليه أهدى إليه السلطان عبد العزيز العثماني شمعدانيين عظيمين من الفضة المؤزرة بالذهب على أبدع شكل وكذلك إلى مشهد الحسين (ع) ومثلهما إلى مشهدي الكاظمية وسامراء ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد.

أسوار النجف

لما كانت النجف على طرف البرية المتصلة ببر الشام وكان يخشى عليها من غزو الأعراب وغيرهم اجتهد ملوك الشيعة وأمراؤها في حفظها ورد عادية الغزاة عنها فبنوا عليها سوراً وجددوه كلما اقتضى الحال.

السور الأول

بناه عضد الدولة فناخسرو بن بويه الديلمي ملك العراق حين عمر الحضرة الشريفة بين سنة ٣٦٧ و٣٧٢ كما مر.

السور الثاني

بناه الحسن بن سهلان وزير سلطان الدولة بن بويه الديلمي سنة ٤٠٠ كما ذكره ابن الأثير وغيره وذلك أنه مرض فنذر أن عوفي أن يبني عليها سوراً فعوفي فأمر ببنائه إما بأن يكون الأول قد استهدم فهدمه وأعاد بناءه أو بنى سوراً أوسع من الأول وهدم الأول.

السور الثالث

بناه بعض ملوك الهند كما عن بستان السياحة ويقال: إنه أوسع من السور الثاني ويقال: إن نادر شاه حين مجيئه للنجف أمر بتسويرها وكان مجيئه إليها سنة ١١٥٦ ولعله أصلح السور السابق.

السور الرابع

بناه نظام الدولة محمد حسين خان العلاف الأصفهاني وزير فتحعلي شاه القاجاري وهو أعلى الأسوار التي بنيت وأحكمها وهو الموجود الآن وفي هذه السنين هدم كثير منه لعدم الحاجة إليه.

أول من أمر بضرب السكة الإسلامية

ذكر الفاضل المتتبع الشيخ حيدر قليخان بن نور محمد خان الكابلي نزيل كرمانشاه في رسالته غاية التعديل في الأوزان والمكاييل وأخبرني به من لفظه بمنزله في كرمانشاه يوم السبت العشرين من المحرم سنة ١٣٥٣ في طريقنا إلى زيارة الرضا (ع) وهو يعرف اللغة الإنكليزية جيداً قال: رأيت في دائرة المعارف البريطانية في صفحة ٩٠٤ من الطبعة الثالثة والعشرين عند الكلام على المسكوكات العربية ما تعريبه ملخصاً: إن أول من أمر بضرب السكة الإسلامية هو الخليفة علي بالبصرة سنة ٤٠ من الهجرة الموافقة لسنة ٦٦٠ مسيحية ثم أكمل الأمر عبد الملك الخليفة سنة ٧٦ من الهجرة الموافقة لسنة ٦٩٥ مسيحية (اهـ) ويأتي في سيرة الباقر (ع) خبر ضرب السكة في عهد عبد الملك بن مروان.

مؤلفات أمير المؤمنين (ع)

قد ذكرناها مفصلة في الجزء الأول في المقدمات عدى الأخيرين ونعيد ذكرها ها هنا إجمالاً لترتبط بسيرته (ع).

١ ـ جمع القرآن وتأويله أو جمعه على ترتيب النزول كما مر في المقدمات.

٢ ـ كتاب أملى فيه ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن وذكر لكل نوع مثالاً يخصه وذكرنا في المقدمات سندنا إليه.

٣ ـ الجامعة.

٤ ـ الجفر.

٥ ـ صحيفة الفرائض.

٦ ـ كتاب في زكاة النعم.

٧ ـ كتاب في أبواب الفقه.

٨ ـ كتاب آخر في الفقه.

٩ ـ عهده للأشتر.

١٠ ـ وصيته لمحمد بن الحنفية.

١١ ـ كتاب عجائب أحكامه وقضاياه وقد جمعها جماعة من العلماء وجمعناها نحن في كتاب وأدرجنا فيه كتاب عجائب أحكامه رواية محمد بن علي بن إبراهيم بن هاشم القمي عن أبيه عن جده (مطبوع).

١٢ ـ ما أثر عنه من الأدعية والمناجاة جمعه بعض العلماء وسماه الصحيفة العلوية (ط).

١٣ ـ مسنده الذي جمعه النسائي أي ما أثر عنه من الأحاديث والروايات. في كشف الظنون ما صورته: مسند علي لأبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب

النسائي المتوفي سنة ٣٠٣ (اهـ) وهو غير كتاب خصائص النسائي في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ذكر في كشف الظنون أيضاً. والثلاثة الأخيرة إنما يمكن عدها من مؤلفاته بنوع من التوسع.

١٤ ـ جنة الأسماء. في كشف الظنون ما صورته. جنة الأسماء للإمام علي بن أبي طالب شرحها الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ كذا وجدت في بعض الكتب (اهـ) ولم يظهر ما هي جنة الأسماء هذه التي شرحها الغزالي وما هي جهة نسبتها إلى أمير المؤمنين (ع) ولعله وقع تحريف في الكلام.

الكتب المجموعة من كلامه عليه السلام

مر في القسم الأول من هذا الجزء قول ابن أبي الحديد أنه لم يدون لأحد من فصحاء الصحابة العشر ولا نصف العشر مما دون له. وقد أشرنا إلى أسماء ما أطلعنا عليه مما دون من كلامه في ج٣ ق١ ونعيد ذكرها هنا باختصار وزيادة عما ذكر هناك:

١ ـ نهج البلاغة جمعه الشريف الرضي طبع عدة مرات.

٢ ـ ما فات نهج البلاغة من كلامه جمعه الفاضل المعاصر الشيخ هادي ابن الشيخ عباس ابن الشيخ حسن ابن الشيخ جعفر الفقيه النجفي الشهير (ط).

٣ ـ مائة كلمة جمع الجاحظ (ط).

٤ ـ غرر الحكم ودرر الكلم جمع عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد الآمدي التميمي جمعه من حكمه القصيرة يقارب نهج البلاغة ودعاه إلى جمعه ما تبجج به الجاحظ في جمعه المائة كلمة (ط).

٥ ـ دستور معالم الحكم (ط).

٦ ـ نثر اللآلىء جمع أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي صاحب مجمع البيان (ط).

٧ ـ كتاب مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب جمع أبي إسحق الوطواط الأنصاري فيه مائة من الحكم المنسوبة إليه طبع في لبسك وبولاق وترجم إلى الفارسية والألمانية.

٨ ـ قلائد الحكم وفرائد الكلم جمع القاضي أبي يوسف يعقوب بن سليمان الإسفرايني.

٩ ـ كتاب معميات علي (ع).

١٠ ـ أمثال الإمام علي بن أبي طالب طبع الجوائب مرتب على حروف المعجم.

١١ ـ ما جمعه المفيد في كتاب الإرشاد من كلامه (ع).

١٢ ـ ما اشتمل عليه كتاب صفين لنصر بن مزاحم من خطبه وكتبه.

١٣ ـ ما اشتمل عليه كتاب جواهر المطالب من كلامه إلى غير ذلك.

الكلام على نهج البلاغة

نهج البلاغة كتاب جمعه الشريف الرضي محمد بن أبي أحمد الحسين الهاشمي العلوي واختاره وانتخبه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وقال في خطبته رأيت كلامه (ع) يدور على أقطاب ثلاثة، **أولها**: الخطب والأوامر، **ثانيها**: الكتب والرسائل، **ثالثها**: الحكم والمواعظ، وقال في خطبته أيضاً وفيه حاجة العالم والمتعلم وبغية البليغ والزاهد ويمضي في أثنائه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق ما هو بلال كل غلة وشفاء كل علة وجلاء كل شبهة (اهـ).

ويمكن تقسيم محتويات هذا الكتاب إلى أقسام:

١ ـ الكلام في التوحيد والعدل وصفات الباري تعالى وتنزيهه عن شبه الخلق.

٢ ـ الخطب السياسية وخطب الحروب والتظلم.

٣ ـ الخطب الدينية في الوعظ والترهيب والترغيب وذم الدنيا والأخلاقيات والوصايا ومدح العلم.

٤ ـ الوصايا.

٥ ـ الأدعية.

٦ ـ الملاحم.

٧ ـ الصفات ـ كوصف الطاووس والخفاش والنملة والجرادة ووصف الجنة وغيره ـ.

٨ ـ الكتب والرسائل.

٩ ـ الحكم القصيرة والأمثال.

وهذا الكتاب قد حوى من نفائس الكلام ما استحق به أن يسمى نهج البلاغة واشتهر في جميع الأقطار والأمصار والأعصار اشتهار الشمس في رائعة النهار. وشرح نيفاً وثلاثين شرحاً من أعاظم العلماء، وأول من شرحه علي بن الناصر المعاصر للشريف الرضي جامع النهج وآخر من شرحه الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية من أهل هذا العصر وهذا الكتاب الذي هو من مفاخر العرب والإسلام مجموع من أماكن متبددة من كتب العلماء كغيره من الكتب التي جمعت من كلام الفصحاء من الشعراء والخطباء وغيرهم كديوان الحماسة الذي جمعه أبو تمام من مختارات الأشعار و كتاب المفضليات للضبي وحماسة البحتري التي جمعها على نحو حماسة أبي تمام وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وغير ذلك من الكتب التي لا تحصى المجموعة من كلام البلغاء نثراً ونظماً ولم نجد أحداً قدح فيها أو في نسبتها إلى أصحابها إلا شاذاً قد يخطؤون فيه المؤلف في نسبته شعراً أو كلاماً لرجل فيقولون: قد روى فلان أنه لغيره. ولكن نهج البلاغة تناوله جماعة بالإنكار، فقال بعضهم: إنه كله من كلام جامعه لا من كلام من نسب إليه، وبعضهم أخطأ في اسم جامعه فنسبه إلى الشريف المرتضى أخي الشريف الرضي وادعى أنه من وضعه لا من كلام علي. وبعضهم تنازل عن

هذه الدعوة إلى ما هو أخف منها فقال: إنه قد أدخل فيه ما ليس من كلام علي (ع). وبعضهم كالذهبي في ميزاته تجاوز الحد فادعى أن كلامه ركيك وإنه ليس من نفس القرشيين.

وإذا تأملنا بعين البصيرة والإنصاف وجدنا أن الباعث لهؤلاء على إنكار نهج البلاغة كله أو بعضه إنما هو اشتماله على ما يعدونه قدحاً في الصحابة المقدسين عن كل قدح كالذي اشتملت عليه الخطبة الشقشقية وغيرها، واشتماله على ما يظهر منه التألم ممن تقدمه في الخلافة وإظهار أنه أحق بها منهم، هذا هو الباعث لهم على الإنكار لا أقل ولا أكثر. وقد أوضح عن هذا المعنى أمير البيان الأمير شكيب أرسلان في كلام له في مجمع من أفاضل دمشق المشهورين حين زارها بعد رجوعه من أوروبا بعد الحرب العامة الثانية فجرى ذكر نهج البلاغة فقال أحدهم: إنه موضوع على لسان علي ووافقه الباقون والأمير شكيب ساكت فسألوه عن رأيه في ذلك فقال: إذا كان موضوعاً فمن هو واضعه هل هو الشريف الرضي؟ قالوا: نعم قال: إن الشريف الرضي لو قسم أربعين رجلاً ما استطاع أن يأتي بخطبة واحدة قصيرة من خطب نهج البلاغة أو جملة من جمله، نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب دون شك أو ريب ولكن الذي أوجب الشك فيه اشتماله على القدح في الصحابة الذين هم مقدسون في أنظار الناس «اهـ».

ولما كان نهج البلاغة له منه عليه شواهد وهو كسائر كلام علي كما قيل عنه إنه بعد كلام النبي ﷺ فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق لا يرتاب في ذلك إلا أمثال من يريد التشكيك في الشمس الضاحية وقد تشبث جماعة من أهل هذا العصر بوجوه اقتبسوا أكثرها من أقوال بعض المستشرقين ممن يهمهم التشكيك في كل أثر إسلامي.

«منها» إنه ليس فيه أسانيد. (والجواب) إن جامعه لما كان من العلماء الثقات الخيرين وجب قبول قوله في أنه أخذ ما جمعه من كتب العلماء المعتبرة

ولم يكن قصده من جمعه أن تؤخذ منه الأحكام ومسائل الحلال و الحرام ليذكر أسانيده وإنما قصد جمع مختارات كلام له حظه في الفصاحة والبلاغة والمضامين العالية لينتفع قراؤه بذلك. ولو علم الشريف الرضي أنه سيجيء زمان ينكر فيه بعض الناس إن نهج البلاغة من كلام علي ويدعي فيه الركة وهو لا يعرف جامعه فينسبه إلى غيره لاجتهد في ذكر أسانيده وذكر الكتب التي انتخبه منها كما أنه أشار إلى بعضها.

«ومنها» وجود كلمات فيه لم تتكلم بها العرب في الجاهلية ولا في الإسلام حتى ترجمت كتب المنطق والفلسفة ووضع علم الأصول وذلك كلفظة «الكيفية» وما اشتق منها بقوله في خطبة الأشباح «لتجري في كيفية صفاته» وقوله: «فتكون في مهب فكرها مكيفاً» وبعد كون اللفظة عربية والاشتقاق منها عربي لا يضر عدم اطلاع هؤلاء على وجودها في كلام العرب في جاهلية أو إسلام ومتى أحاطوا بكلام العزب أو بما نقل في كتب الأدب من كلام العرب وقد وجدت كلمة «القسطاس» وغيرها من الألفاظ الغير العربية في القرآن المجيد ولم يعترض منكرو القرآن على القرآن بأن فيه كلمات غير عربية أو لم ترد في كلام العرب ومثل هذا الاعتراض إنما يقوله العاجز الذي لا يجد اعتراضاً ويريد أن يتشبث بالأوهام. وكلفظ «الخاص والعام والمحكم والمتشابه والمجمل والمبين» التي هي من مصطلح علم الأصول الذي وضع في القرن الثاني وهي موجودة في الخطبة التي يذكر فيها ابتداء خلق السموات والأرض وآدم ومن البعيد أن يتفق لإنسان سرد أسماء متعددة موضوعة لمعان خاصة بها في علم خاص من غير أن يكون له اطلاع على ذلك العلم ومعرفة بمواضعات أهله. وهذا الاعتراض كسابقه في أنه اعتراض من يريد أن يعترض ولا يجد باباً للاعتراض فيتشبث بما ليس فيه تشبثاً فهذه الألفاظ عربية صحيحة ورد بعضها (وهو المحكم والمتشابه) في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾، والعام والخاص والمجمل والمبين من الألفاظ الشائعة في كلام العرب الكثيرة

الاستعمال وقد وجد (العموم والخصوص والإجمال والتبيين) في القرآن الكريم فإذا أراد علي أن يبين هذه المعاني الموجودة في القرآن عند كلامه على القرآن فبأي لفظ يريد أن يعبر؟ هل كان عليه أن يجتنب لفظ العموم والخصوص والإجمال والتبيين لأنها ستوجد في مصطلح الأصوليين؟ ما هذا إلا تحكم، ولعل الأصوليين إنما أخذوها من كلام علي وكلام غيره من العلماء السابقين عليهم. وكلفظ (أزل وأزلية) بمعنى القدم فقد تكررت هذه الكلمة في مواضع من نهج البلاغة وقد صرح أئمة اللغة أن قولهم أزلي وأزلية مصنوع وليس من كلام العرب وتكلفوا لتخريجه وهذا أيضاً كسابقيه فقد نص الفيروزآبادي في قاموسه وهو ما لا ينكر تبحره في اللغة وسعة اطلاعه على أن الأزل عربي فقال ما لفظه: الأزل بالتحريك القدم وهو أزلي أو أصله يزلي منسوب إلى لم يزل ثم أبدلت الياء ألفاً للخفة كما قالوا في الرمح المنسوب إلى (ذي يزن ـ أزني) وفي الصحاح الأزل بالتحريك القدم يقال أزلي وذكر بعض أهل العلم إن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم لم يزل ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار فقالوا: يزلي ثم أبدلت الياء ألفاً لأنها أخف فقالوا: أزلي كما يقال في الرمح المنسوب إلى (ذي يزن ـ أزني) ونصل إثربي ـ أي منسوب إلى يثرب وكيف كان فقد اعترف صاحب القاموس بوجود (أزل وأزلي) في كلام العرب إما أنه مأخوذ ومولد من (لم يزل) كما حكي عن بعض أهل العلم أو مرتجل فأمر لا يقدح في وجوده في كلام العرب ولا يوجب الشك في نهج البلاغة إذا وجد فيه إلا ممن يريد أن يتشبث بما لا تشبث فيه.

وكقوله في خطبة خلق السماء والأرض (لشهادة كل صفة إنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف إنه غير الصفة) فإن هذا التعبير لم تعرفه العرب قبل أن يوضع علم الكلام في العصر العباسي. وهذا أيضاً كالأمور السابقة فإن العبارات لا حجر فيها على أحد وإذا وافقت كلمة من كلمات نهج البلاغة تعبير أهل الكلام فليس لأحد أن يقدح في صحة نسبة نهج البلاغة إلى علي بكونها موافقة لاصطلاح علماء الكلام إلا أن يريد أن يتعنت ويتعسف ولعل أهل علم

الكلام أخذوا هذه العبارة من كلام علي فبعد أن تكون ألفاظها عربية فصيحة شائعة في استعمال العرب فلا حجر على أحد في استعمالها ولا استبعاد في وجودها في نهج البلاغة ومن أين لنا أن نقول إن هذا التعبير لم تعرفه العرب وهو عربي فصيح ومفرداته شائعة في كلام العرب كثيرة الدوران على ألسنتهم.

(ومنها) وجود كلمات مخالفة لقواعد اللغة والفصيح المشهور منها مثل كلمة (معلول) في قوله: «وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول» وقوله: «وكل قائم في سواه معلول» ولم ترد هذه الكلمة في كلام صحيح إذ يقال: «عل يعل بالبناء للفاعل فهو عليل وأعله الله فهو معل». ولكن صاحب الصحاح نص على صحة استعمال «عل بالبناء للمفعول فهو معلول» فقال: «وعل الشيء فهو معلول» أما صاحب القاموس فإنه قال: «عل يعل واعتل وأعله الله تعالى فهو معل وعليل» ولا تقل «معلول» والمتكلمون يقولونها ولست منه على ثلج. وفي تاج العروس استعمل أبو إسحق لفظ المعلول في العروض وقال في شرح قوله: ولست منه على ثلج لأن المعروف إنما هو أعله الله فهو معل إلا أن يكون على ما ذهب إليه سيبويه من قولهم: مجنون ومسلول. فقد ظهر أن لفظ معلول عربي نص عليه صاحب الصحاح وكفى به إماماً في علم اللغة وكون الفيروزآبادي ليس منه على ثقة لا يوجب عدم صحته مع كون صاحب الصحاح منه على ثقة والقياس يقتضيه باقتضائه جواز أن يقال: عل بالبناء للمعقول كحم وجن وكفى دليلاً وجوده في كلام علي فبدلا أن يستدل بهذه اللفظة على عدم صحة نهج البلاغة لورودها فيه يجب أن يستدل على صحتها بوجودها في نهج البلاغة.

«ومنها» استعمال التقى به والعرب تقول التقى الرجلان. وإذا كانت العرب تقول: التقى الرجلان فماذا يقول الرجل إذا أراد أن يخبر أنه التقى مع رجل آخر هل له عبارة إلا أن يقول التقيت به والتضمين في كلام العرب شائع فلا مانع من أن يضمن التقى معنى اجتمع فيقال: التقى به كما يقال: اجتمع به وعدم نص أهل اللغة على ذلك لا يجعله غير صحيح فكم فات أهل اللغة من الاستعمالات

الصحيحة العربية ونرى العرب يقولون علمته وعلمت به فيعدون علم بالباء مع أنه متعد بنفسه.

«ومنها» وجود كلمات مولدة مثل «تلاشت» في قوله «وما تلاشت عنه بروق الغمام» وكلمة تلاشى مولدة لم ترد في كلام صحيح للمتقدمين. وكون كلمة تلاشى مولدة عن لا شيء لا يمنع من استعمالها في كلام المتقدمين من فصحاء العرب وعدم العثور عليها في كلامهم لا يوجب انتفاءها فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود.

«ومنها» وجود الغيرية والأبعاض وهما بكلام المناطقة والمتكلمين أشبه. فأما الغيرية فهي نسبة إلى غير. والنسب قياسية وأما الإبعاض فهي جمع بعض بنص الجوهري والفيروزابادي ودخول الألف واللام عليها لا مانع منه حتى لو سلمنا عدم جواز دخولها على مفردها كما يقوله بعضهم مع أنه غير مسلم فدخولها على الجمع لا مانع منه لأنه نكرة ووجودها في كلام المناطقة والمتكلمين لا يمنع من وجودها في الكلام العربي الفصيح ولعل المناطقة والمتكلمين إنما أخذوها من كلام العرب الفصيح.

«ومنها» وجود مبالغة في الوصف كقوله في وصف النملة: لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر، وفي وصف الطاووس: فكيف تصل إلى هذا عمائق الفطن أو تبلغه قرائح العقول أو تنتظم وصفه أقوال الواصفين وأقل أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه والألسنة أن تصفه، وهذا بأسلوب أهل الخيال من الشعراء والكتاب أشبه منه بأسلوب العلماء أهل الورع في تقرير الأدلة على قدرة الخالق وإبداع صنعته. والمبالغة قد جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا - إلى قوله - وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ - إلى قوله - يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [النور: ٤٣] وقوله

تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ١٩، ٢٠] والمبالغة المعتدلة هي من أقسام البلاغة فلا مانع من وجودها في أقوال العلماء أهل الورع في تقرير الأدلة على أي شيء كان.

«ومنها» إن فيه ما ينافي زهده في الدنيا كتلهفه على الخلافة مما تضمنته الخطبة «الشقشقية» «والجواب» إن ذلك لا ينافي الزهد بوجه من الوجوه وإذا كان يرى أن الخلافة حق له وفرض ديني واجب عليه فلا جرم أن يتألم ويتلهف من منعه إياه.

«ومنها» بعض الجمل المشتملة على اللعن أو الذم كقوله لابن عباس: «لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه» وقوله للأشعث بن قيس: «عليك لعنة اللاعنين حائك ابن حائك ومنافق ابن كافر» وكقوله للمغيرة بن الأخنس: «يا ابن اللعين الأبتر» وقوله من كتاب إلى عمرو بن العاص «فطلبت فضله اتباع الكلب للضرغام» وكقوله من كتاب إلى عثمان بن حنيف: «وسأجهد في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس». والجواب أن تعبيره عن طلحة بذلك يراد به الشدة ولم يكن هذا التعبير يعد فحشاً في ذلك العصر على أنه إذا ذم من نكث عهده وخرج لحربه ولو استطاع قتله لقتله لم يكن في ذلك استغراب. وأما الأشعث فقد كان منافقاً وعدواً لأمير المؤمنين وكان يفسد عليه أموره فلا غرو إن قال له ذلك. وكذلك المغيرة بن الأخنس واجهه بكلام ولا يواجه به مثله من قوله: أنا أكفيك. وكتابه إلى عمرو بن العاص هو دون ما يستحق وكذلك كتابه إلى عثمان بن حنيف هو دون ما يستحقه من قيل فيه ذلك.

(ومنها) أخباره عن كثير من أمور الغيب. ولكنه (ع) يقول: ليس هو بعلم بغيب وإنما هو تعلم من ذي علم.

(ومنها) إن فيه ما يصادم أحكام الشريعة كقوله عن النساء (لا تطيعوهن في

المعروف حتى لا يطمعن في المنكر) فإن النهي عن إطاعتهن في المعروف لا يلائم أحكام الشريعة (والجواب) إن المراد بذلك ليس النهي عن فعل المعروف الذي تأمر به النساء بل النهي عن إظهار أن فعله بسبب إطاعتهن حتى لا يطمعن في المنكر ويظهر منهن الغضب عند عدم إطاعتهن فيه فيقع الرجال في المشقة فإذا أيسن من إطاعتهن استراح الرجال من مشقة مخالفتهن. وضعف آرائهن ظاهر لا يحتاج إلى البرهان. وكقوله عن الباري تعالى: (يقول لما أراد كونه كون فيكون لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلٰهاً ثانياً) وهذا من أدلة المعتزلة على مذهبهم في الصفات (والجواب) إن الكلام في الصفات وأنها قديمة مغايرة للذات أو غير مغايرة هو من مسائل الكلام الدقيقة المعضلة التي وقع فيها الخلاف بين الإمامية والمعتزلة من جانب والأشاعرة من جانب فإذا وافق كلام أمير المؤمنين أحد المذهبين ليس لنا أن نجزم بأنه ليس كلامه لأجل تلك الموافقة لأن المسألة من المسائل النظرية الدقيقة لا من المسائل البديهية. ودعوى قوم أن الحق معهم فيها لا تجعلها كذلك واقعاً.

(ومنها) إن فيه كثيراً من امتداح نفسه كقوله: (سلوني قبل أن تفقدوني) وأمثال ذلك (والجواب) إن مدح النفس قد وقع من الرسول ﷺ فقال: (أنا أفصح من نطق بالضاد، وأنا سيد ولد آدم) وامتداح النفس لغرض صحيح ليس فيه ما يعاب. مع أنه مروي في أسد الغابة.

(ومنها) إن فيه كثيراً من كلام النبي ﷺ ولسنا ندري أي مانع من موافقة بعض كلامه لكلام النبي ﷺ من باب توارد الخواطر خصوصاً في المعاني المطروقة. وقد وقع توارد الخاطر كثيراً بين الخطباء والشعراء وهو قد ربي في حجر النبي ﷺ وطبع بطابعه فلا غرو إن أتى على بعض آرائه ومعتقداته في الحياة.

(ومنها) إن في كلامه كثيراً من كلام عمر بن الخطاب. وهذا كسابقه. مع

أن المظنون ـ إن لم يكن المتيقن ـ أنه نسب إلى عمر كثير مما أثر عن علي.

(ومنها) إن في كلامه كلاماً مروياً لابن المقفع في رسائل البلغاء. وموافقة كلام ابن المقفع لكلامه ترشدنا إلى أن ابن المقفع أخذ من كلام علي ولا توجب الشك في نسبة الكلام إلى علي.

(ومنها) اختلاف بعض النسخ بالزيادة والنقصان وأن النهج الذي بين أيدينا لم يصل إلينا كما جمعه جامعه بل تضخم بالزيادات على توالي الأيام بعد وفاة الرضي والمرتضى بل بعد وفاة شارحه ابن أبي الحديد ٦٥٤ إذ أن في النسخة التي علق عليها الشيخ محمد عبده المطبوعة في بيروت نحو خمسين صفحة في الجزء الأول من ص ٣٧٧ ـ ٤٣٣ لم يروها ابن أبي الحديد فيما شرحه ونحن راجعنا النسخة المطبوعة في بيروت التي علق عليها الشيخ محمد عبده فوجدنا آخر الجزء الأول منه ص ٢٥٨ وآخر الجزء الثاني ص ١٥٠ فأين هي الخمسون صفحة التي علق عليها الشيخ محمد عبده ولم يروها ابن أبي الحديد وهي تبلغ نحو خمس الجزء الأول فلا شك أنه وقع اشتباه من هذا الناقد بنى عليه نقده فهو خطأ مبني على خطأ ونسخ نهج البلاغة المخطوطة والمطبوعة في إيران ودمشق وغيرهما وشروحه المطبوعة والمخطوطة كلها متحدة ليس بينها تفاوت وقد مضى على جمعه مئات السنين وانتشرت نسخه في الأقطار وكتب بالخطوط الفاخرة ورواه العلماء عن شيوخهم بالأسانيد العديدة شأن كثير من الكتب المؤلفة ولم نجد أحداً ادعى وقوع زيادة أو نقصان في نسخه وذلك مما تقضي العادة بعثور العلماء على تلك الزيادة وتنبيههم عليها لو كانت وهل من الممكن أن يطلع الشيخ محمد عبده على نسخة من نهج البلاغة فيها زيادة ٥٦ صفحة عما في أيدي الناس ولا يطلع عليها أحد من العلماء في أكثر من ألف سنة وأين عثر الشيخ محمد عبده على هذه النسخة ولو كان عثر على نسخة مخطوطة نادرة لقابلها أقله بنسخة من النسخ المطبوعة ولعثر على تلك الزيادة فيها ونبه عليها فإن ذلك من أهم ما ينبه عليه. كلا فالشيخ محمد عبده لم يأخذ إلا نسخة من النسخ

المطبوعة وعلق عليها وطبعها ولكن هذا الناقد تسرع بما قال فأخطأ وأحوجنا إلى تصحيح خطئه بما كنا في غنى عنه.

وهناك أشياء أخرى تشبث بها المشككون في نهج البلاغة من أهل هذا العصر لا تستحق الذكر ولا تستحق الجواب ولكننا نذكرها لدفع الوهم.

مثل أن أكثر الأحاديث النبوية رويت بالمعنى فكيف بكلام الإمام. فكون أكثر الأحاديث النبوية رويت بالمعنى لم يقل به أحد وإذا جاز رواية الحديث بالمعنى لأنه ليس المقصود فصاحته وبلاغته بل ما تضمنه من حكم شرعي أو غيره فلا يجوز رواية الخطب والكتب وسائر الكلام الذي يراد منه زيادة على معانيه فصاحته وبلاغته. وإذا شكك هذا الرجل في كلام النهج لاحتمال أن يكون روي بالمعنى فليشكك في خطب النبي ﷺ وفي كل خطبة وكلام نسب إلى الفصحاء من العرب لاحتمال أن يكون روي بالمعنى وهذا ما لا يلتزمه ذو معرفة.

ومثل أن النزعات المذهبية والأغراض السياسية لا تتحرج من الوضع والدس. فالنزعات المذهبية والأغراض السياسية لا تجوز الوضع والدس فيما رواه ثقات العلماء لا يسوغ لأحد أن يشكك فيه لموافقته لغرض سياسي أو نزعة مذهبية فإن ذلك لا يكون إلا من غير الثقات.

ومثل أن جامع الكتاب نفسه يقول في المقدمة ما يشعر بعدم القطع بصحة ما جمعه قال: (وربما جاء في أثناء هذا الاختيار اللفظ المردد والمعنى المكرر والعذر في ذلك أن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً) وهذا الكلام ليس معناه تشكيك جامعه فيما جمعه بل إنه يقول إن روايات كلامه في المعنى الواحد تختلف اختلافاً شديداً فيروي فيه بعض كلاماً لم يروه الآخر وهذا لا يمنع أن يكون كلا الكلامين صحيحاً قد قاله الإمام مراراً فاختلفت بعض عباراته وتكررت معانيه بل ذلك دليل على شدة ورع جامعه بإبدائه العذر في جمع كلام مكرر المعنى مختلف العبارة ونحن نرى مثل ذلك موجوداً في كلام النبي ﷺ

وفي سائر البلغاء فإذا اختلفت الرواية فيه لا يوجب ذلك الشك في صحته وقد وقع الاختلاف في الرواية في بعض الأحايث الصحيحة النبوية.

وإنه ليس فيه كلام إلا بعد قتل عثمان. وهذا غير صحيح إذ فيه من الكلام الكثير الذي قاله قبل مقتل عثمان وكثير من الكلام الذي لا يعلم تاريخه.

واستعمال لفظة لأن وهي لم ترد في القرآن ولا في كلام فصيح. فالقرآن لم يجمع جميع كلمات العرب فهل فيه الحوذان والنفل والجنوب والشمأل والقرنقل وحينئذ وساعتئذ وحتام وحتى متى ونعم وأجل وغيرها حتى من الكلمات الكثيرة الدوران ومن أين لنا أن نجزم بأن لفظة لأن لم ترد في كلام فصيح ومن الذي أحاط علماً بجميع الكلام الفصيح. على أنها وردت في حديث نبوي رواه الطبراني والحاكم وصححه السيوطي (أحب العرب لثلاث لأني عربي الخ) ووردت في قول الشاعر الذي استشهد النحويون بشعره مع قلب الهمزة هاء:

لهنك سمح ذا يسار ومعدما كما قد ألفت الحلم مرض ومغضبا

وكثرة ما فيه من التزويق والصنعة. وهذا إن لم يدل على الصحة لم يدل على البطلان فهو كاشف عن مزيد القدرة على صوغ الكلام.

واشتماله على التقسيم العددي مثل الإيمان على أربع دعائم. فمن الغريب أن يعد ذلك من موجبات الشك فيه فالتقسيم العددي يعرفه ويحتاجه كل خطيب وبليغ وقد وجد في الحديث النبوي نظير ذلك (بني الإسلام على خمس دعائم) كما في الجامع الصغير للسيوطي وشرحه للعزيزي.

وكدقة ما فيه من الوصف وإحاطته بصفات الموصوف كما في خطبة الخفاش والطاوس مع أنهما شائعان في كلام العرب في الجاهلية والإسلام وموجودان في وصف أم معبد الخزاعية النبي ﷺ فوجودهما في النهج أقوى دليل على بلاغته فهو أولى بأن يجعل دليلاً على الصحة من أن يجعل دليلاً على عدمها:

إذا محاسني اللاتي أدل بها عدت ذنوباً فقل لي كيف أعتذر

وكاشتماله على مباحث تتعلق بعلم الطبيعة. ولم يبينوا ما هي هذه المباحث، ولما يفترض جهل علي بها.

ومن الغريب ما حكاه بعض أهل العصر - ممن يروق لهم الاستشهاد بكلام الغربيين صحيحه وسقيمه - عن الأستاذ المستشرق المسيو ماسينيون الفرنسوي أنه مع اعتقاده بأن نهج البلاغة من كلام علي وأنه لا يمكن أن يكون من وضع الشريف الرضي لأسباب ذكرها. فهو يعتقد أن الكتب التي أخذ عنها الشريف الرضي هي كتب الزيدية لا الإمامية لأسباب أهمها أن الإمامية لا يعترفون بخلافة الشيخين بعكس الزيدية الذين يقولون بصحة خلافتهما وإن كان علي أحق منهما بتولي أمور المسلمين فالزيدية إذن واسطة تفاهم وتوفيق بين السنيين والشيعيين لذلك كانوا يعتنون بجمع كلام علي ونشره بين الناس وكان غرضهم من هذا الجمع ليس كغرض المؤرخين بل إن علياً كان بنظرهم مثلاً أعلى يجب أن يحتذى وصاحب أخلاق سامية يجب أن تخلد وطريقة في الحكم والإدارة وحل المشاكل يجب أن تعرف وما كان مثل هذه الحاجة يعرض للشيعيين لأن كتاب هؤلاء هو إمامهم الذي يعيش في عصرهم لذلك لما اضطر الشيعة إلى جمع كلام علي نقلوا عن كتب الزيدية «اهـ» وهو اعتقاد فاسد فإن علياً إذا كان بنظر الزيدية مثلاً أعلى يجب أن يقتدى به وصاحب أخلاق سامية يجب أن تخلد وطريقة في الحكم والإدارة يجب أن تعرف فهو عند الشيعة الإمامية لا ينقص عن ذلك بل يزيد وأن الشيعة الإمامية تعتقد أن قوله وفعله وتقريره حجة. وتعليله ذلك بأن كتاب الإمامية هو إمامهم الذي يعيش في عصرهم قد أخطأ فيه فالإمامية لا فرق عندهم بين إمامهم الذي يعيش في عصرهم وغيره في أن كلام الجميع وفعلهم وتقريرهم حجة وإن كان علي أفضلهم. والزيدية وإن قال البترية منهم بإمامة الشيخين إلا أن الباقين والبترية بعد الشيخين يشترطون في الإمام أن يكون من ولد علي وفاطمة ولا فرق بينهم من هذه الجهة وبين الإمامية. فقد تعاطى الأستاذ ماسينيون في ذلك ما ليس من صنعته وما لم تصل إليه معلوماته.

وتساءل الأستاذ ماسينيون فيما حكاه عنه هذا البعض عن الشيء الذي كان يقود الشريف الرضي في اختياره لنصوص النهج أهو الذوق الأدبي أم النزعة الإمامية وزعم أن النزعة الإمامية كان لها أثرها في اختيار قطع النهج بدليل وجود خطب أخرى تنسب لعلي كانت معروفة قبل عصر الرضي ولم تدخل في الكتاب لمخالفتها لعقيدة الإمامية بل ربما دخل في النهج كلام ليس لعلي بتأثير هذه النزعة وتصرف ببعض الخطب وحذف وقصر فيها وضمنت بعض الحشو. ولكن كل هذا لم يمنعه من الاعتراف بأن كلام علي ظل في الكتاب محترماً لم يمس. وهذا أيضاً غير صواب فالذي كان يقود الشريف في اختياره لنصوص النهج هو الذوق الأدبي والبلاغة والفصاحة لا النزعة الإمامية كما توهم واستدلاله بوجود خطب تنسب لعلي قبل عصر الرضي لم تدخل في الكتاب لمخالفتها للعقيدة الإمامية غير صحيح (أولاً) لجواز أن يكون الرضي لم يطلع عليها فلا يطلع على جميع الأمور إلا علام الغيوب (ثانياً) لعل تلك الخطب التي لم يذكرها مما لم يقع عليه اختياره فإنه لا يذكر كل ما وجده من كلام أمير المؤمنين (ع) بل ينتخبه انتخاباً (وأما قوله) بل ربما دخل في النهج الخ فلعله يشير به إلى ما اشتملت عليه الخطبة الشقشقية وغيره مما أجبنا عنه (وأما) الحذف من الخطب فقد بين الرضي أنه لا ينقل جميع كلامه بل ينتخبه انتخاباً ومن كان دأبه كذلك لا بد له من التصرف بحذف البعض. وأما الحشو الذي يزعمه فكان عليه أن يبينه فإنا لا نرى في نهج البلاغة شيئاً من هذا الحشو المزعوم.

الخطبة الشقشقية

سميت بذلك لأن علياً (ع) لما وصل إلى آخر الموجود منها قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً فأقبل ينظر فيه فقال له ابن عباس يا أمير المؤمنين لو اطردت خطبتك من حيث أفضيت فقال: «هيهات يا ابن عباس تلك شقشقة هدرت ثم قرت».

فهذه الخطبة بسبب اشتمالها على تظلم علي (ع) ممن قبله في أمر الخلافة

وعلى أنه كان أحق بالخلافة منهم أنكرها جماعة من الناس وزعموا أنها من كلام الرضي. دسها في نهج البلاغة ونحلها علياً (ع) وليس لهم مستند في ذلك إلا اشتمالها على ما ذكرناه فهو يقول فيها: «أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها ـ أي الخلافة ـ محل القطب من الرحى فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً وطفقت أرتإي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده، ثم تمثل بقول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ... ويوم حيان أخي جابر

فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ما تشطرا ضرعيها فصبرت على طول المدة وشدة المحنة حتى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم فيا للّه وللشورى متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر فصغي رجل منهم لضغينه ومال الآخر لصهره[1] إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث فتله وأجهز عليه عمله وكبت به بطنته فلما نهضتُ بالأمر نَكثت طائفة ومَرقت أخرى وقسط آخرون[2] كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدينا في أعينهم وراقهم زبرجها».

---

(١) قال ابن أبي الحديد: فصغي رجل منهم لضغينه يعني طلحة لأنه تيمي وقد كان في نفوس بني هاشم على بني تيم حقد شديد لأجل الخلافة وكذلك صار في نفوس بني تيم على بني هاشم. وأما قوله: ومال الآخر لصهره فإنه يعني عبد الرحمٰن بن عوف مال إلى عثمان لأن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت تحت ابن عبد الرحمٰن وهي أخت عثمان من أمه.

(٢) نكثت طائفة يريد بهم أصحاب الجمل ومرقت أخرى يريد بهم معاوية وأصحابه وقسط آخرون يريد بهم الخوارج.

والمتأمل في هذه الخطبة يعلم أنها من كلام علي (ع) وأنه لا فرق بينها وبين سائر كلامه وخطبه في أسلوبها وبلاغتها وأنها لا تفترق عن سائر كلامه بشيء وأن الذي دعاهم إلى أن يقولوا إنها منحولة أنها لا تتوافق مع بعض ميولهم المذهبية ولكن هذا لا يوجب الشك فيها بعد أن رواها الثقات عن علي (ع) وكانت في بلاغتها وفصاحتها لا تفترق عن شيء من كلامه والميول المذهبية لا تصلح سنداً لإنكار شيء علم ثبوته فما فيها ذكر الجاحظ نظيره في البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٨ من ضمن خطبة لعلي يقول فيها: (سبق الرجلان وقام الثالث كالغراب همته بطنه ويحه لو قص جناحاه وقطع رأسه لكان خيراً له). قال ابن الحديد في شرح نهج البلاغة: حدثني شيخي أبو الخير مصدق بن شبيب الواسطي سنة ٦٠٣ قال قرأت على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة وقلت له: أتقول أنها منحولة؟ فقال: لا والله وإني لأعلم أنها كلامه كما أعلم أنك مصدق، فقلت له: إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضي فقال: ما للرضي ولغير الرضي هذا النفس وهذا الأسلوب قد وقفنا على رسائل الرضي وعرفنا طريقته وفنه في الكلام المنثور وما يقع مع هذا الكلام في خل ولا خمر، ثم قال والله لقد وقعت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضي. قال ابن أبي الحديد: وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخي إمام البغداديين من المعتزلة وكان في دولة المقتدر قبل أن يخلق الرضي بمدة طويلة، ووجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبه أحد متكلمي الإمامية وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب الإنصاف وكان أبو جعفر هذا من تلامذة الشيخ أبي القاسم البلخي ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضي موجوداً (اه).

والخلاصة إن اشتمال هذه الخطبة على ما لا يتلاءم مع بعض الميول المذهبية هو الذي دعا إلى إنكارها بل إنكار نهج البلاغة كله من أجلها، وقد

ظهر مما ذكرنا أن هذا الإنكار بغير محله وأن نهج البلاغة له منه عليه شواهد، وأن الشريف الرضي مهما بلغت بلاغته وفصاحته ليس له قدرة على أن يأتي بخطبة واحدة من خطب نهج البلاغة وكتاب رسائله موجود وجملة منه منقولة في كتب الأدب وهي كما قال ابن الخشاب (ليست من كلام نهج البلاغة في خل ولا خمر) وهي لا تتناسب معه في شيء. يعرف ذلك كل ناظر فيه وفيها.

شروح نهج البلاغة

شرحه أعاظم العلماء والأدباء من عصر جامعه إلى اليوم شروحاً كثيرة، قال العالم الكبير الشهير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في مقدمة شرحه على النهج: وقد عني جماعة من أجلة العلماء بشرحه وأطال كل منهم في بيان ما انطوى عليه من الأسرار «اهـ». وذكر الفاضل المتتبع المعاصر الميرزا حسين بن محمد تقي النوري في خاتمة مستدركات الوسائل منها ٣١ شرحاً ونحن قد وقفنا من أسماء شروحه على ٣٧ شرحاً فنذكر أولاً ما ذكره هو ثم ما عثرنا عليه زيادة على ما ذكره.

١ ـ شرح أبي الحسن البيهقي (علي بن زيد الشهير بفريد خراسان) وهو أول من شرحه بعد علي بن الناصر الآتي.

٢ ـ شرح الإمام فخر الدين الرازي (صاحب التفسير) إلا أنه لم يتم، صرح بذلك الوزير جمال الدين القفطي في تاريخ الحكماء.

٣ ـ منهاج البراعة للقطب الراوندي (سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه) في مجلدين.

٤ ـ شرح القاضي عبد الجبار المردد بين ثلاثة لا يعلم أيهم هو إلا أنه قريب العصر من الشيخ الطوسي.

٥ ـ شرح الإمام أفضل الدين الحسن بن علي بن أحمد المهابادي شيخ منتجب الدين صاحب الفهرست.

٦ ـ المعراج لرجل مجهول أشار إليه الكيدري في كلامه الآتي.

٧ ـ شرح لأبي الحسين محمد بن الحسين بن الحسن البيهقي (الكندري أو الكيذري)[١] فرغ منه سنة ٥٧٦ وقال في أوله إنه استمد من كتابي المنهاج والمعراج المقدم ذكرهما فالمنهاج للراوندي والمعراج لا يعرف مؤلفه. قال الفاضل النوري المقدم ذكره وصاحب كشف الحجب فيما حكي عنه أن اسم هذا الشرح الإصباح ولكن الموجود في رجال بحر العلوم أن قطب الدين الكيدري له الإصباح في الفقه وشرح نهج البلاغة وفي الذريعة أن شرحه على النهج اسمه حدائق الحقائق ولكنه في مقام آخر نسب حدائق الحقائق للسيد علاء الدين محمد بن أبي تراب الأصفهاني من سادات كلستانة وأن له بهجة الحدائق مختصر من هذا الشرح وحينئذ فيكون تسمية شرحه بالإصباح من سهو القلم. قال الفاضل النوري: وهذه الشروح كلها قبل شرح ابن أبي الحديد بزمان طويل ومع ذلك يقول إنه لم يشرح هذا الكتاب قبلي فيما أعلم إلا القطب الراوندي (أقول) وأسبق من الجميع شرح علي بن الناصر المعاصر للشريف الرضي كما يأتي.

٨ ـ شرح عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي (طبع مرتين في إيران ومرة في مصر).

٩ ـ مختصر شرح ابن أبي الحديد للمولى سلطان محمود بن غلامعلي الطبسي ثم المشهدي القاضي في المشهد الرضوي.

١٠ ـ شرح الشيخ كمال الدين ميثم البحراني الكبير يقارب شرح ابن أبي الحديد مطبوع بإيران.

١١ ـ شرحه المتوسط.

---

(١) الكندري بالنون نسبة إلى كندر كقنفذ حقق بحر العلوم في رجاله إنه اسم لثلاث قرى والمعروف الكيدري بالمثناة التحتية ولكن لا يوجد قرية تسمى كيدر بالدال المهملة إنما يوجد كيذر بالذال المعجمة.

١٢ ـ شرحه الصغير.

١٣ ـ شرح كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم العتائقي الحلي من علماء المائة الثامنة في أربع مجلدات اختاره من شرح ابن ميثم الكبير وشروح الكندري والقاضي عبد الجبار وابن أبي الحديد.

١٤ ـ منهج الفصاحة في شرح نهج البلاغة لجلال الدين الحسين بن شرف الدين عبد الحق الأردبيلي المعروف بالالاهي المتوفى سنة ٩٠٥ ألفه للشاه إسماعيل الصفوي بالفارسية (منه نسخة في خزانة أسعد أفندي بالآستانة).

١٥ ـ تنبيه الغافلين وتذكرة العارفين لفتح الله بن شكر الله القاشاني فارسي.

١٦ ـ شرح علي بن الحسن الزوارئي المفسر المعروف أستاذ فتح الله المذكور فارسي هو أحسن الشروح الفارسية.

١٧ ـ شرح الشيخ حسين بن شهاب الدين بن الحسين بن محمد بن الحسين بن الجنيدر العاملي الكركي المتوفى سنة ١٠٧٧ عد في الأمل من كتبه شرح نهج البلاغة كبير.

١٨ ـ أعلام نهج البلاغة للسيد علي بن الناصر (وهو معاصر للسيد الرضي جامع النهج فإذا شرحه أقدم الشروح) وعن كشف الحجب: وأوثقها وأتقنها وأخصرها.

١٩ ـ أنوار الفصاحة (وأسرار البراعة) لنظام الدين الجيلاني (فرغ من بعض مجلداته سنة ١٠٥٣).

٢٠ ـ شرح السيد ماجد البحارين. في أمل الآمل: لم يتم.

٢١ ـ شرح السيد رضي الدين علي بن طاوس نسبه إليه صاحب كشف الحجب.

٢٢ ـ شرح عبد الباقي الخطاط الصوفي التبريزي المعاصر للشاه عباس الأول فارسي مبسوط كما في الرياض.

٢٣ ـ شرح عز الدين الآملي شريك المحقق الشيخ علي الكركي في الدرس عند الشيخ علي بن هلال الجزائري كما في الرياض.

٢٤ ـ حاشية عماد الدين علي القاري الاسترابادي.

٢٥ ـ شرح السيد نعمة الله الجزائري كما في رياض العلماء.

٢٦ ـ شرح قال رأيته في مشهد الرضا عليه السلام وقد سقط من أوله أوراق وهو مختصر لم أعرف مؤلفه لكن النسخة عتيقة جداً.

٢٧ ـ بهجة الحدائق للسيد علاء الدين كلستانة وفي الذريعة بهجة الحدائق في شرح نهج البلاغة هو الشرح الصغير والشرح الكبير يسمى حدائق الحقائق كلاهما للسيد علاء الدين محمد بن أبي تراب من سادات كلستانة الأصفهاني المتوفى سنة ١١١٠ ومر أنه نسب حدائق الحقائق إلى شخص آخر.

٢٨ ـ شرح آخر له كبير إلا أنه لم يتجاوز الخطبة الشقشقية إلا يسيراً.

٢٩ ـ شرح السيد عبد الله بن السيد رضا شبر الحسيني.

٣٠ ـ شرح آخر له.

٣١ ـ شرح الميرزا إبراهيم الخوئي المعاصر، هذا ما ذكره العلامة النوري قال ولعل المسرح طرفه في أكناف التراجم يقف على أضعاف ذلك. وأما ما عثرنا عليه زيادة على ذلك فهو:

٣٢ ـ التحفة العلية في شرح نهج البلاغة الحيدرية لأفصح الدين محمد بن حبيب الله بن أحمد الحسني الحسيني توجد نسخته في النجف بخط مؤلفه فرغ منه ٢٩ صفر سنة ٨٨١ ذكره صاحب الذريعة.

٣٣ ـ شرح المولى قوام الدين يوسف بن حسن الشهير بقاضي بغداد المتوفى سنة ٩٢٢ كما في كشف الظنون وذكر هذا الشرح أيضاً صاحب شذرات الذهب ج ٨ ص ٨٥.

٣٤ ـ شرح الشيخ إبراهيم البحراني نزيل كازرون المدفون فيها ذكره السيد شهاب الدين التبريزي نزيل قم فيما كتبه إلينا.

٣٥ ـ شرح علي المعروف بالحكيم الصوفي بالفارسية فرغ منه سنة ١٠١٦ رأيت منه نسخة بهمذان ولا يبعد أن يكون شرح الزوارئي المتقدم فقد قيل عن الزوارئي أنه يميل إلى التصوف ولعل الطبقة لا تنافيه فإن فتح الله بن شكر الله القاشاني تلميذ الزوارئي توفي سنة ٩٨٨.

٣٦ ـ شرح السيد يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن المهدي بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد جحاف الحبوري اليماني ذكره السيد محمد بن زبارة الحسني اليماني الصنعاني في ملحق البدر الطائع.

عهده للأشتر حين ولاه مصر

قال الشريف الرضي: وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن «اهـ» وقد احتوى على جميع ما يحتاج إليه الوالي بل كل أحد من الأمور الاجتماعية وسياسة الرعية فلذلك أوردناه بطوله نقلاً من نهج البلاغة فإنه كنز ثمين ومر بعض الكلام عليه عند ذكر توليته الأشتر مصر وأوله:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها.

ما وصاه به في ذات نفسه من التقوى

أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا من جحودها وإضاعتها وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات وينزعها عند الجمحات فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله.

ترغيبه في حسن الذكر

ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون ما كنت تقوله فيهم وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت.

أمره بالرحمة والمحبة للرعية واللطف بهم والفعو عنهم

وأشعر قلبك الرحمة للرعية؛ والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق[1] يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك، وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم فلا تنصبن نفسك لحرب له، فإنه لا يد لك بنقمته ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة، ولا تقولن إني مؤمر آمر فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومنهكة للدين، وتقرب من الغير.

نهيه عن الكبر

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ويكف عنك من غربك ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك

---

(١) أي المسلم منهم أخوك في الدين وغير المسلم نظيرك في الخلق فتقتضي رقة الجنسية الرحمة له.

إياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال.

أمره بالانصاف ونهيه عن الظلم

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك هوى فيه من رعيتك فإنك إن لا تفعل تظلم. ومن ظلم عبداً لله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب. وليس شيء ادعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم. فإن الله يسمع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

أمره بتقديم رضى العامة مع العدل على رضى الخاصة

قال: وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً عند الاعطاء وأبطأ عذراً عند المنع وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صفوك لهم وميلك معهم.

نهيه عن قبول قول النمام والواشي

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد واقطع عنك سبب كل وتر وتغاب عن كل ما لا يصلح لك، ولا تعجلن على تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين.

نهيه عن استشارة البخيل والجبان والحريص

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.

من الذي ينبغي أن يستوزره

إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان إثمة وإخوان ظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم[1] وأوزارهم وآثامهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه، ولا آثماً على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً وأقل لغيرك ألفا، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع.

من ينبغي أن يجالسهم

والصق بأهل الورع والصدق، ثم رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة.

إيصاؤه بعدم التسوية بين المحسن والمسيء

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، والزم كلاً منهم ما ألزم نفسه.

أمره بالإحسان إلى الرعية

إعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن وآل برعيته من إحسانه إليهم

---

(١) الآصار بالمد جمع إصر بالكسر وهو الذنب.

وتخفيف المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فإن حسن الظن يقطع عنك نسباً طويلاً فإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وأن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده.

أمره باتباع السنة الصالحة

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضتها.

أمره بمدارسة العلماء والحكماء

وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

تقسيمه الرعية إلى طبقات وبيان ما يجب لكل طبقة منهم

واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة. وكل قد سمى الله له سهمه ووضع على حده وفريضته في كتابه أو سنة نبيه ﷺ عهداً منه محفوظاً، فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاء والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويأتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها، ولا قوام لهم جميعاً إلا

بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم مما لا يبلغه رفق غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم، وفي الله لكل سعة ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه.

أمره بالاستعانة بالله لقضاء هذه الحقوق

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى إلى من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل.

شروط أمراء الجيوش

فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله وإمامك وأنقاهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطىء عن الغضب ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف ثم الصق بذوي المروءات والاحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف.

تفقد أمور الجند وما يلزم عمله معهم

ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قل فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه.

ما يلزم عمله مع رؤساء الجند

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته. وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك وإن أفضل قرة عين الولاة

استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فافسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله تعالى، ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرىء إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرىء إلى أن تصغر من بلائه ما كان عظيماً.

أمره بالرجوع فيما يشتبه عليه إلى الكتاب والسنة

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور فقد قال الله سبحانه وتعالى أحب إرشادهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة.

اختيار القضاة

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه. ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستمليه إغراء وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليغاً فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا.

اختيار العمال والولاة

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة بانهما جماع من شعب الجور والخيانة. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ثم اسبغ عليهم الأرزاق إن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية وتحفظ من الأعوان.

ما يلزم أن يفعله مع من خان من العمال

فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة.

إصلاح الخراج ومالية الدولة وعمارة البلاد

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في إصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة[1] أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك

(١) بتشديد اللام من اليلل قال ابن أبي الحديد يعني المطر.

باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به فإن العمران محتمل ما حملته وإنما يؤتى خراب الأرض من أعواز أهلها وإنما يعوز أهلها لأشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.

الكتاب وأصحاب الديوان

ثم انظر في حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترىء بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك وفيما يأخذ لك ويعطي منك ولا يضعف عقداً اعتقده لك ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً. فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره.

أمره بتوزيع فنون الكتابة وضروبها بينهم.

واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها. ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته.

الوصاية بالتجار وذوي الصناعات وعيوب التجار ومنع الاحتكار

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً ـ المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه ـ فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس

لمواضعها ولا يجترؤون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله ﷺ منع منه وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه من غير إسراف.

الوصاية بفقراء الرعية وأيتامهم وشيوخهم

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزمنى فإن في هذه الطبقة قانعاً[١] ومعتراً[٢] واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي[٣] الإسلام في كل بلد فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه ولا يشغلنك عنهم بطر فإنك لا تعذر بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهم. فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحتقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

---

(١) القانع السائل.

(٢) المعتر الذي يعرض لك ولا يسألك.

(٣) هي الأرض لم تؤخذ بحرب.

أصحاب الحاجات والمصالح

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن «**لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع**» ثم احتمل الخرق منهم والعي ونح عنهم الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته.

الاعطاء والمنع

واعط ما أعطيت هنيئاً وامنع في إجمال وإعذار.

ما يجب أن يباشره بنفسه

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك ومنها إصدار حاجات الناس عند ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك.

عدم إدخال عمل يوم في يوم

وامض لكل يوم عمله، فإن لكل يوم ما فيه.

إيصاؤه له بأداء الفرائض

واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت واجزل تلك الأقسام وإن كانت كلها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية، وليكن في خاصة ما تخلص لله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فاعط الله من بدنك في ليلك ونهارك ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ، وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفراً ولا مضيعاً فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت

رسول الله ﷺ حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: «**صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما**».

نهيه عن الاحتجاب عن الرعية

وأما بعد هذا فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب وإنما أنت أحد رجلين إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف في معاملة.

ما يلزم أن يعمله مع خاصته وبطانته

ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب[1] أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة.

إبداء عذره للرعية إذا ظنوا به الجور

وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك وأعدل عنك ظنونهم

---

(١) الشرب بكسر الشين وسكون الراء النهر يستقى منه.

بأصحارك فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك وإعذار تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق.

أمره بقبول الصلح والحذر بعده من العدو والوفاء بالعهد

ولا تدعن صلحاًدعاك إليه عدوك لله فيه رضىً فإن في الصلح دعة لجنودك وإراحة من همومك وأمناً لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن النية، وإن عقدت بينك وبين عدو لك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا[1] من عواقب الغدر فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحريماً يسكنون إلى منعته ويستفيضون إلى جواره فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وأن تحيطه بك من الله طلبة لا تستقبل فها دنياك ولا آخرتك.

نهيه عن سفك الدماء الحرام

إياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس بشيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله

(١) أي رأوا الوبال.

ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قود البدن وإن ابتليت بخطأ وإفراط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

وصاياه بآداب عامة والنهي عن أخلاق وأفعال سيئة:

العجب وحب المدح

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

المن والتزيد وخلف الوعد

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك[1] أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فإن المن يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

العجلة والتهاون واللجاجة والوهن

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقط فيها عند إمكانها أو اللجاجة فيها إذا تنكرت أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه.

الاستئثار والتغابي

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة والتغابي عما تعنى به مما قد وضح للعيون فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور وينتصف منك للمظلوم.

---

(١) أي فعل شيء وذكره في المجالس أزيد مما فعل.

الحلم والإناء والخوف من الله والاقتداء بصالح السلف

املك حمية أنفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن نبينا ﷺ أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك لكي لا تكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها.

آخر العهد

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه من حسن الثناء في العباد وجميل الأثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة إنا إلى الله راغبون والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين.

بعض الأمثال في كلامه عليه السلام

في الفائق: علي عليه السلام (شرعك ما بلغك المحلا) أي حسبك واشرعني كذا أي احسبني وكأن معناه الكفاية الظاهرة المكشوفة من شرع الدين شرعاً إذا أظهره وبينه «اهـ» وفي النهاية في حديث علي (شرعك ما بلغك المحلا) أي حسبك وكافيك وهو مثل يضرب في التبليغ باليسير «اهـ» وشرعك بكسر الشين وسكون الراء.

الشعر المأثور عن أمير المؤمنين (ع)

عن الجاحظ في كتابي البيان والتبيين وفضائل بني هاشم والبلاذري في أنساب الأشراف أن علياً أشعر الصحابة وأفصحهم وأخطبهم وأكتبهم، وعن

تاريخ البلاذري: كان أبو بكر يقول الشعر وعمر يقول الشعر وعثمان يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة. وعن الشعبي كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعثمان شاعراً وكان علي أشعر الثلاثة. وعن سعيد بن المسيب كان أبو بكر وعمر وعلي يجيدون الشعر وعلي أشعر الثلاثة «اهـ». وقد ذكر له عليه السلام في الكتب أشعار كثيرة اشتهرت نسبتها إليه ورواها الثقات ودلت بلاغتها على صحة نسبتها، وقال المرزباني في معجم الشعراء: يروى له شعر كثير «اهـ» فما يحكى عن المازني وصوبه الزمخشري من أنه لم يصح أنه تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين:

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا وما ظفروا

فإن هلكت فرهن ذمتي لهم بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وما يحكى عن يونس النحوي: ما صح عندنا ولا بلغنا أنه قال شعراً إلا هذين البيتين ليس بصواب.

جامعو ديوانه

وقد جمع شعر أمير المؤمنين عليه السلام جماعة فجعلوه ديواناً كسائر الدواوين (الأول) أبو أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي المتوفى بعد ٣٣٠ (الثاني) علي بن أحمد النيسابوري الفنجكردي القريب عصره من عصر السيد الرضي (الثالث) القطب الكيدري المتوفى بعد سنة ٥٧٦ جمعه مرتين مرة اقتصر على الآداب والحكم وسماه الحديقة الأنيقة ومرة سماه أنوار العقول من أشعار وصي الرسول (الرابع) أبو عبد الله المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ ذكر ذلك صاحب مجموعة شعرية في الأمثال موجودة في الخزانة الرضوية (الخامس) أبو البركات هبة الله بن علي بن محمد المعروف بابن الشجري (السادس) بعض القدماء استخرجه من كتاب محمد بن إسحق (السابع) القاضي القضاعي محمد بن سلامة المغربي صاحب كتاب الشهاب المجموع من كلمات النبي ﷺ المتوفى سنة ٤٥٤ لكنه لم يجعله ديواناً مستقلاً بل جمع ما اتصل إليه بالرواية

منه وجعله باباً سابعاً لكتابه دستور معالم الحكم المجموع من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام نظير كتاب الشهاب (الثامن) سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص حيث قال قد ذكرنا ما وقع عليه اختيارنا من اللؤلؤ المنثور في فنون العلوم فنذكر ما وصل إلينا من الدر المنظوم فنقول: أخبرنا بما نسب إلى أمير المؤمنين من الشعر جماعة منهم إبراهيم بن محمد العلوي وأبو القاسم الخطيب الموصلي وعمر بن صافي وغيرهم بإسنادهم إلى مشايخهم وذلك في فنون من إبكار الفضائل والعيون (التاسع) الفقير مؤلف هذا الكتاب جمع ديوان أمير المؤمنين على الرواية الصحيحة وقد طبع. ولكن هذه الدواوين التي جمعها من ذكرناهم من شعره عليه السلام لا يوجد منها بأيدينا اليوم سوى نسخة واحدة طبعت مراراً في عدة أماكن والظاهر أنها هي التي جمعها علي بن أحمد النيسابوري وشرحها بالفارسية القاضي حسين بن معين الدين الميبدي المتوفى سنة ٨٧٠ من علماء أهل السنة ولم يأل جامعها جهداً في جمع ما صحت نسبته إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فجمع جله وفاته شيء كثير عثرنا عليه أثناء تتبعاتنا لكنه أضاف إليه ما علم أنه ليس له وما يحتمل كونه له ولا إمارة تنفي ذلك وما يظن أنه ليس له فإما أن يكون هذا الديوان تناولته أيدي الزيادة والتحريف من الناس أو يكون جامعه قليل البصيرة لبعده عن اللسان العربي وعدم اقتصاره على المصادر الصحيحة فخلط الدر بالحصباء فمما أورده مما علم أنه ليس له هذين البيتين:

أتصبر للبلوى عزاء وحسبة — فتؤجر أم تسلو سلو البهائم
خلقنا رجالاً للتجلد والأسى — وتلك الغواني للبكا والمآتم

مع أنهما لأبي تمام الطائي من قصيدة في ديوانه والذي أوقعه في الاشتباه البيت الذي قبلهما وهو:

وقال علي في التعازي لأشعث — وخاف عليه بعض تلك العظائم

وأشار به أبو تمام إلى كلام منثور قاله (ع) للأشعث يعزيه عن ابن له وأورده الرضي في الباب الأخير من نهج البلاغة وهو: يا أشعث إن صبرت

جرى عليك القدر وأنت مأجور وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور.
وهذا التوهم لا يصدر ممن له أدنى معرفة ومنه إيراده هذا البيت:

ليس من مات فاستراح بميت | إنما الميت ميت الأحياء

مع أنه أحد بيتين ثانيهما:

إنما الميت من يعيش كئيباً | كاسفاً باله قليل الرجاء

وقد ذكرهما صاحب قطر الندى وذكر صاحب شرح شواهده المسمى بمعالم الاهتداء إن قائلهما عذري الغساني ومنه إيراده هذا البيت:

أريد حباءه ويريد قتلي | عذيرك من خليلك من مراد

وهو لعمرو بن معد يكرب تمثل به أمير المؤمنين (ع) ومنه إيراده هذا البيت:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة | وحولك أكباد تحن إلى القد

مع أنه تمثل به مصرحاً بذلك بقوله: أو أكون كما قال القائل ومنه إيراده هذين البيتين:

قال المنجم والطبيب كلاهما | لا تحشر الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر | أو صح قولي فالخسار عليكما

مع أنهما لأبي العلاء المعري في ديوانه لزوم ما لا يلزم إلى غير ذلك ونحن نورد هنا طرفاً مما صحت روايته أو وجد في الكتب المعتمدة ورتبناها على حروف المعجم.

حرف الألف

قال عليه السلام: أورده القاضي القضاعي في دستور معالم الحكم وفي الديوان قال يوم بدر:

نصرنا رسول اللّه لما تدابروا | وثاب إليه المسلمون ذوو الحجى
ضربنا غواة الناس عنه تكرما | ولما يروا قصد السبيل ولا الهدى

ولـمـا أتـانـا بـالـهـدى كـان كـلـنـا على طاعة الرحمٰن والحق والتقى

حرف الباء

وقال عليه السلام أورده الخطيب البغدادي في تاريخه:

إذا اشتملت على اليأس القلوب وضـاق لـمـا بـه الـصـدر الـرحـيـب
وأوطـنـت الـمـكـاره واسـتـقـرت وأرسـت فـي أمـاكـنـهـا الـخـطـوب
ولـم تـر لانـكـشـاف الـضـر وجـهـاً ولا أغـنـى بـحـيـلـتـه الأريـب
أتـاك عـلـى قـنـوط مـنـك غـوث يـمـن بـه الـلـطـيـف الـمـسـتـجـيـب
وكـل الـحـادثـات إذا تـنـاهـت فـمـوصـول بـهـا فـرج قـريـب

وقال عليه السلام أورده جامع الديوان وصاحب جواهر المطالب عدا الأخير:

إنـي أقـول لـنـفـسـي وهـي ضـيـقـة وقـد أنـاخ عـلـيـهـا الـدهـر بـالـعـجـب
صـبـراً عـلـى شـدة الأيـام إن لـهـا عقبى وما الصبر إلا عند ذي الحسب
سيـفـتـح الـلّـه عـن قـرب بـنـافـعـة فـيـهـا لـمـثـلـك راحـات مـن الـتـعـب

وقال (ع) لما قتل عمرو بن عبد ود أورده المفيد في الإرشاد وابن إسحق في المغازي:

نـصـر الـحـجـارة مـن سـفـاهـة رأيـه ونـصـرت ديـن مـحـمـد بـصـواب
فـضـربـتـه فـتـركـتـه مـتـجـدلا كـالـجـذع بـيـن دكـادك وروابـي
وعـفـفـت عـن أثـوابـه ولـو إنـنـي كـنـت الـمـقـطـر بـزنـي أثـوابـي
لا تـحـسـبـن الـلّـه خـاذل ديـنـه ونـبـيـه يـا مـعـشـر الأحـزاب

وأوردها الحاكم في المستدرك هكذا:

أعـلـي يـقـتـحـم الـفـوارس هـكـذا عـنـي وعـنـهـم خـبـروا أصـحـابـي
الـيـوم يـمـنـعـنـي الـفـرار حـفـيـظـتـي ومـصـمـم فـي الـرأس لـيـس بـنـابـي
آلـى ابـن عـبـد حـيـن شـد إلـيـة وحـلـفـت فـاسـتـمـعـوا مـن الـكـذاب
إنـي لا صـدق مـن يـهـلـل بـالـتـقـى رجـلان يـضـطـربـان كـل ضـراب

فصدرت حين تركته متجدلا ... كالجذع بين دكادك وروابي

وعففت عن أثوابه ولو إنني ... كنت المقطر بزني أثوابي

عبد الحجارة من سفاهة رأيه ... وعبدت رب محمد بصواب

وقال (ع) في يوم أحد كما عن تاريخ الطبري والأغاني حين خرج طلحة بن أبي طلحة العبدري صاحب لواء قريش وطلب المبارزة قال قتادة فخرج إليه علي وهو يقول:

أنا ابن ذي الحوضين عبد المطلب ... وهاشم المطعم في العام السغب

أوفي بميعادي واحمي عن حسب

وقال (ع): ذكره الرضي في نهج البلاغة بعد ذكر قوله (ع): واعجباً أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة فقال: وقد روي له في هذا المعنى:

فإن كنتَ بالشورى ملكت أمورهم ... فكيف بهذا المعنى والمشيرون غيب

وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم ... فغيرك أولى بالنبي وأقرب

وقد أومأ الكميت إلى هذا المعنى بقوله:

بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين نركب

فإن هي لم تصلح لحي سواهم ... فإن ذوي القربى أحق وأوجب

وقال (ع) وهو بصفين رواه نصر في كتاب صفين:

ألم تر قومي إذ دعاهم أخوهم ... أجابوا وإن أغضب على القوم يغضبوا

هم حفظوا غيبي كما كنت حافظا ... لقومي أخرى مثلها إذ تغيبوا

بنو الحرب لم تقعد بهم أمهاتهم ... وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا

وقال (ع) كما في تذكرة الخواص:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب ... فالناس بين مخاتل وموارب

حرف التاء

وقال (ع) في بعض أيام صفين حين ندب أصحابه فانتدب له من بين

عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً فتقدمهم على بغلة رسول الله ﷺ وهو يقول رواه نصر في كتاب صفين:

دبوا دبيب النمل لا تفوتوا وأصبحوا بحربكم وبيتوا
حتى تنالوا الثار أو تموتوا أو لا فإني طالما عصيت
قد قلتم لو جئتنا فجيت ليس لكم ما شئتم وشيت
بل ما يريد المحيي المميت

وقال (ع) في تذكرة الخواص:

وكم نظرة قادت إلى القلب شهوة فأصبح منها القلب في الهلكات

حرف الجيم

في جواهر المطالب للباغندي مما ينسب إليه (ع):

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إنني إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للشر بالشر مسرج
فمن شاء تقويمي فإني مقوم ومن شاء تعويجي فإني معوج

حرف الدال

وقال (ع) في مهاجرته من مكة إلى المدينة حين أدركه الطلب وهم ثمانية فوارس فشد عليهم شدة ضيغم وهو يقول:

خلوا سبيل الجاهد المجاهد آليت ألا أعبد غير الواحد

حرف الراء

قال (ع) كما في الديوان حين برز إليه مرحب فقال:

أنا أناس ولدتنا عبهره لباسنا الوشي وريط حبره
أبناء حرب ليس فينا غدره

فأجابه أمير المؤمنين (ع):

أنا الذي سمتني أمي حيدره ضرغام آجام وليث قسوره

عبل الذراعين شديد القصره كليث غابات كريه المنظره
أكيلكم بالسيف كيل السندره أضربكم ضربا يبين الفقره
وأترك القرن بقاع جزره أضرب بالسيف رقاب الكفره
ضرب غلام ماجد حزوره من يترك الحق يقوم صعره

وقال (ع) أورده صاحب مجموعة الأمثال الشعرية:

لئن ساءني دهر لقد سرني دهر وإن مسني عسر فقد مسني يسر
لكل من الأيام عندي عادة فإن ساءني صبر وإن سرني شكر

قال سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص والمرزباني في ديوان شعر أمير المؤمنين (ع) قال له رجل: قد عيل صبري فأعطني قال: فأنشدك شيئاً أم أعطيك فقال: كلامك أحب إلي من عطائك فقال:

إن عضك الدهر فانتظر فرجاً فإنه نازل بمنتظره
أو مسك الضر أو بليت به فاصبر على عسره وفي يسره
رب معافى على تهوره ومبتلى لا ينام من حذره
وآمن في عشاء ليلته دب إليه البلاء في سحره
من مارس الدهر ذم صحبته ونال من صفوه ومن كدره

وقال (ع) في ذم الناس قال سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص رأيت في كتاب سر العالمين للغزالي رحمه الله نسبتها إليه (ع):

المرء في زمن الإقبال كالشجره وحولها الناس ما دامت بها الثمره
حتى إذا ما عرت من حملها انصرفوا عنها عقوقاً وقد كانوا بها بررة
وحاولوا قطعها من بعد ما شفقوا دهراً عليها من الأرياح والغبره
قلت مروات أهل الأرض كلهم إلا الأقل فليس العشر من عشره
لا تحمدن امرأ حتى تجربه فربما لم يوافق خبره خبره

وقال (ع) في القدر أورده سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص:

للناس حرص على الدنيا بتدبير وصفوها لك ممزوج بتكدير

لم يرزقوها بعقل حينما رزقوا لكنما رزقوها بالمقادير
لو كان عن قوة أو عن مغالبة طار البزاة بأرزاق العصافير

وقال (ع) يذكر مبيته على فراش رسول الله ﷺ ليلة الغار رواه الشيخ الطوسي في الأمالي عن عبد الله بن أبي رافع عنه (ع) ورواه الحاكم في المستدرك بسنده عن علي بن الحسين (ع) عدا البيت الأخير مع بعض التغيير:

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
محمد لما خاف أن يمكروا به فوقاه ربي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم متى ينشرونني وقد وطنت نفسي على القتل والأسر
وبات رسول الله في الغار آمناً هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
أقام ثلاثاً ثم زمت قلائص قلائص يفرين الحصى أينما يفري

وقال (ع) ذكره جامع الديوان وصاحب جواهر المطالب:

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتحسب إنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

حرف الزاي

وقال عمرو بن عبد ود العامري يوم الخندق:

ولقد بححت من الندا ء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن الشجا ع بموقف البطل المناجز
إني كذلك لم أزل متسرعاً نحو الهزاهز
إن الشجاعة والسما حة في الفتى خير الغرائز

فبرز إليه أمير المؤمنين (ع) وهو يقول أورده خلق كثير:

لا تعجلن فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز
إني لأرجو أن أقـ ـيم عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبـ ـقى ذكرها عند الهزاهز

حرف العين

قال (ع) ذكر ابن أبي الحديد إنه من الشعر المنسوب إليه:

إن أخـاك الـحـق مـن كـان مـعـك ... ومـن يـضـر نـفـسـه لـيـنـفـعـك

ومـن أذاريـب الـزمـان صـدعـك ... شـتـت فـيـك شـمـلـه لـيـجـمـعـك

حرف اللام

وقال (ع) في شكوى الزمان أورده القاضي القضاعي في دستور معالم الحكم:

أرى عـلـل الـدنـيـا عـلـي كـثـيـرة ... وصـاحـبـهـا حـتـى الـمـمـات عـلـيـل

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكـل الـذي دون الـمـمـات قـلـيـل

وإن افـتـقـادي واحـداً بـعـد واحـد ... دلـيـل عـلـى أن لا يـدوم خـلـيـل

وقال (ع) يوم صفين لرجل من أصحابه اسمه عبد العزيز بن الحارث أمره أن يذهب إلى جماعة من أصحابه اقتطعهم أهل الشام ويبلغهم رسالته فأجاب رواه نصر في كتاب صفين:

سـمـحـت بـأمـر لا يـطـاق حـفـيـظـة ... وصـدقـاً وإخـوان الـحـفـاظ قـلـيـل

جزاك إلٰه الناس خيراً فقد وفت ... يـداك بـفـضـل مـا هـنـاك جـزيـل

وقال (ع) في بعض أيام صفين أورده نصر:

قـد عـلـمـت ذات الـقـرون الـمـيـل ... والـخـصـر والأنـامـل الـطـفـول

إنـي بـنـصـل الـسـيـف خـنـشـلـيـل ... أحـمـي وأرمـي أول الـرعـيـل

بـصـارم لـيـس بـذي فـلـول

وقال (ع) أورده صاحب جواهر المطالب وسبط بن الجوزي في تذكرة الخواص:

يـمـثـل ذو الـلـب فـي نـفـسـه ... مـصـائـبـه قـبـل أن تـنـزلا

فـإن نـزلـت بـغـتـة لـم يـرع ... لـمـا كـان فـي نـفـسـه مـثـلا

رأى الأمر يفضي إلى آخر فصير آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصائبه أعولا
ولو مثل الحزم في نفسه لعلمه الصبر عند البلا

وقال (ع) أورده صاحب جواهر المطالب فقال: مما أنشده الصولي للإمام علي (ع) سوى البيت الثالث فذكره جامع الديوان:

ألا فاصبر على الحدث الجليل وداو جواك بالصبر الجميل
ولا تجزع وإن أعسرت يوماً فقد أيسرت في الزمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل اللّه يغني عن قليل
ولا تظنن بربك غير خير فإن اللّه أولى بالجميل
وإن العسر يتبعه يسار وقول اللّه أصدق كل قيل
فلو أن العقول تجر رزقاً لكان الرزق عند ذوي العقول

حرف الميم

قال للحضين بن المنذر الرقاشي ـ أورده ابن العديم في تاريخ حلب مسنداً إليه (ع) وأورده نصر في كتاب صفين وغيرهما من الرواة:

لمن راية سوداء[1] يخفق ظلها إذا قيل قدمها حضين تقدما
فيوردها في الصف حتى يزيرها حياض المنايا تقطر الموت والدما
تراه إذا ما كان يوم عظيمة أبى فيه إلا عزة وتكرما
جزى اللّه قوماً قاتلوا في لقائهم لدى الموت قدماً ما أعز وأكرما
وأحزم صبراً حين يدعى إلى الوغى إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعني إنهم أهل نجدة وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما

وقال علي (ع) بعدما قتل حريثاً مولى معاوية وبرز إليه عمرو بن حصين

(١) في رواية حمراء. ـ المؤلف ـ.

السكسكي فنادى: يا أبا حسن هلم إلى المبارزة فأنشأ علي (ع) يقول رواه نصر في كتاب صفين:

ما علتي وأنا جلد حازم　　وعن يميني مذحج القماقم
وعن يساري وائل الخضارم　　والقلب حولي مضر الجماجم
وأقبلت همدان في الحضارم　　مشي الجمال البزل الخلاجم
أقسمت بالله العلي العالم　　لا أنثني إلا برد الراغم

وقال (ع) بعد رجوعه من أحد وقد خضب الدم يده إلى كتفه ومعه ذو الفقار فناوله فاطمة (ع) وقال: خذي هذا السيف فقد صدقني اليوم وأنشأ يقول رواه المفيد في الإرشاد:

أفاطم هاك السيف غير ذميم　　فلست برعديد ولا بمليم
لعمري لقد أعذرت في نصر أحمد　　وطاعة رب بالعباد عليم
أميطي دماء القوم عنه فإنه　　سقى آل عبد الدار كأس حميم

وأورد الطبري في تاريخه هذه الأبيات هكذا:

أفاطم هاك السيف غير ذميم　　فلست برعديد ولا بمليم
لعمري لقد قاتلت في حب أحمد　　وطاعة رب بالعباد رحيم
وسيفي بكفي كالشهاب أهزه　　أجذ به من عاتق وصميم
فما زلت حتى فض ربي جموعهم　　وحتى شفينا نفس كل حليم

وقال (ع) لما كتب معاوية في سهم ورماه في عسكر علي (ع) يوم صفين: إن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات فخاف أهل العراق وارتحلوا ونهاهم علي (ع) فلم يقبلوا:

لو أني أطعت عصبت قومي　　إلى ركن اليمامة أو شآم
ولكني إذا أبرمت أمراً　　منيت بخلف آراء الطغام

وقال (ع) يوم صفين وقد بالغت في نصره همدان ذلك اليوم قال ابن أبي الحديد في شرح النهج وهو من الشعر الذي لا يشك أن قائله علي (ع) لكثرة

الرواة له (أقول) ولكن الروايات فيه مختلفة زيادة ونقيصة فننقله مقتبساً من مجموعها:

لما رأيت الخيل تقرع بالقنا ... فوارسها حمر العيون دوامي
وأقبل رهج في السماء كأنه ... غمامة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند ذا الكلاع ويحصباً ... وكندة في لخم وحي جذام
تيممت همدان الذين هم هم ... إذا ناب أمر جنتي وحسامي
دعوت فلباني من القوم عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فوارس من همدان ليسوا بعزل ... غداة الوغى من شاكر وشبام
ومن أرحب الشم المطاعين بالقنا ... وفهم وأحياء السبيع وسام
ومن كل حي قد أتتني فوارس ... ذوو نجدات في اللقاء كرام
بكل رديني وعضب تخاله ... إذا اختلف الأقوام شعل ضرام
لهمدان أخلاق ودين بزينهم ... وبأس إذا لاقوا وجد خصام

قال نصر وفي حديث عمر بن سعد:

وجد وصدق في الحروب ونجدة ... وقول إذا قالوا بغير أثام
متى تأتهم في دارهم تستضيفهم ... تبت ناعماً في خدمة وطعام
يقودهم حامي الحقيقة منهم ... سعيد بن قيس والكريم محامي
جز اللّه همدان الجنان فإنها ... سمام العدى في كل يوم زحام
فلو كنت بواباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقال (ع) في قتله عمرو بن عبد ود وأورده ابن شهراشوب في المناقب عن أمالي النيسابوري:

يا عمرو قد لاقيت فارس بهمة ... عند اللقاء معاود الإقدام
يدعو إلى دين الإله ونصره ... وإلى الهدى وشرائع الإسلام

إلى قوله:

شهدت قريش والبراجم كلها ... إن ليس فيها من يقوم مقامي

وأوردها جامع الديوان وزاد بعد الأول:

من آل هاشم من سناء باهر ... ومهذبين متوجين كرام

وبعد الثاني:

بمهند عضب رقيق حده ... ذي رونق يفري الفقار حسام

ومحمد فينا كأن جبينه ... شمس تجلت من خلال غمام

والله ناصر دينه ونبيه ... ومعين كل موحد مقدام

وقال (ع) لما قتل عمرو بن عبد ود أورده المرتضى في الفصول المختارة من المجالس والعيون والمحاسن للمفيد وأورده ابن شهراشوب في المناقب:

ضربته بالسيف فوق الهامه ... بضربة صارمة هدامه

أنا علي صاحب الصمصامه ... وصاحب الحوض لدى القيامه

أخو رسول الله ذي العلامة ... قد قال إذ عممني عمامه

أنت الذي بعدي له الإمامة

وقال (ع) أورده ابن الصباغ في الفصول المهمة:

عش موسراً إن شئت أو معسرا ... لا بد في الدنيا من الغم

دنياك بالأحزان مقرونة ... لا تقطع الدنيا بلا هم

وقال (ع) أورده ابن الصباغ في الفصول المهمة أيضاً:

حلاوة دنياك مسمومة ... فلا تأكل الشهد إلا بسم

محامدك اليوم مذمومة ... فلا تكسب الحمد إلا بذم

إذا تم أمر بدا نقصه ... توق زوالاً إذا قيل تم

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

فإن تعط نفسك آمالها ... فعند مناها يحل الندم

وقال (ع) كما في تذكرة الخواص:

لا تكره المكروه عند حلوله ... إن العواقب لم تزل متباينه

كم من يد لا تستقل لشكرها   لله في طي المكاره كامنه

وقال (ع) كما في الفائق للزمخشري إن سعد بن أبي وقاص قال رأيت علياً يوم بدر وهو يقول:

بازل عامين حديث سني   سنحنح الليل كأني جني

لمثل هذا ولدتني أمي   ما تنقم الحرب العوان مني

قال ويروى: (سمعمع كأنني من جن).

وقال (ع) في القدر أورده سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص:

ما لا يكون فلا يكون بحيلة   أبدا وما هو كائن سيكون

سيكون ما هو كائن في وقته   وأخو الجهالة متعب محزون

يسعى القوي فلا ينال بسعيه   حظا ويدرك عاجز موهون

وقال (ع) أورده سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص:

هذا زمان ليس إخوانه   يا أيها المرء بإخوان

إخوانه كلهم ظالم   له لسانان ووجهان

يلقاك بالبشر وفي قلبه   داء يواريه بكتمان

حتى إذا ما غبت عن عينه   رماك بالزور وبهتان

هذا زمان هكذا أهله   تعز عن رؤية إنسان

وقال (ع) في ذم الدنيا أورده سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص:

دنيا تجول بأهلها   في كل يوم مرتين

فغدوها لتجمع   ورواحها لشتات بين

حرف الواو

قال (ع) أورده سبط بن الجوزي في تذكرة الخواص:

ولربما نطق الفتى فتنافست   فيه العيون وإنه لمموه

ولربما سكت الفتى عن خصمه   حذر الجواب وإنه لمفوه

ولـربـمـا صـبـر الـفـتـى عـنـد الأذى   وفـــؤاده مـــن حـــره يـتـــأوه

شيء من مدائحه

ما من شخصية في العالم شغلت الشعر بمثل ما شغلته شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، فقد وجد شعراء العصور في شخصيته من المناقب أعظم ما يثير شاعرياتهم ويحرك عواطفهم ويلهم أقلامهم، ولا بدع فإن سيرته المثلى وما انطوى عليه من ألمعيات وأريحيات وبطولات، وما مني به من ظلم واهتضام وحرمان، وما اجتمع على حربه من لؤم وعقوق وفجور، كل ذلك جعل منه لدى المنصفين المخلصين أروع صورة إنسانية توحي الشعر وتلهم النثر. والنفوس التي لم تدنسها الأغراض والأهواء ولم يلوثها التقليد والتعصب، والنفوس البريئة لا بد أن تهيم أبداً بشخصية علي بن أبي طالب.

وليس مستطاعاً إحصاء ما نظمه الشعراء على كل العصور تغنياً به ورثاء له بجميع اللغات الإسلامية من عربية وفارسية وتركية وأوردية، وإننا لنأخذ لهذا الجزء هذه القصائد التالية نماذج لغيرها.

ولا بد من الإشارة إلى أمر خطير في تاريخ الأدب العربي أهمل ذكره أو لم ينتبه له مؤرخو هذا الأدب، ذلك أن الشعراء الذين نظموا في علي بن أبي طالب قد أوجدوا ـ إلى حد ما ـ الملحمة العربية التي يفتقدها مؤرخو الأدب فلا يجدونها في حين أن نواتها ـ على الأقل ـ موجودة في الشعر العلوي [1].

قصيدة السيد الحميري المتوفى سنة ١٧٣ :

ولـقـد حـلـفـت وقـلـت قـولا صـادقـا   بـالـلّـه لـم آثـم ولـم أتـريـب

لـمـعـاشـر غـلـب الـشـقـاء عـلـيـهـم   وهـوى أمـالـهـم لأمـر مـتـعـب

من حـمـيـر أهـل الـسـمـاحـة والـنـدى   وقـريـش الـغـر الـكـرام وتـغـلـب

أيـن الـتـطـرب بـالـولاء وبـالـهـوى   أإلى الـكـواذب من بـروق الـخـلـب

(١) «ح. أ».

إلـى أمـيـة أم إلـى شـيـع الـتـي ... جاءت على الجملَ الخدب الشوقب[1]

تـهـوي مـن الـبـلـد الـحـرام فـنـبـهـت ... بـعـد الـهـدو كـلاب أهـل الـحـوأب

يـحـدو الـزبـيـر بـهـا وطـلـحـة «عـسكراً» ... يـا لـلـرجـال لـرأي أم مـشـجـب[2]

يـا لـلـرجـال لـرأي أم قـادهـا ... ذئـبـان يـكـتـنـفـانـهـا فـي أذؤب

ذئـبـان قـادهـمـا الـشـقـاء وقـادهـا ... للحين فاقتحما بها في منشب[3]

فـي ورطـة لـحـجـابـهـا فـتـحـمـلـت ... منها على قتب بإثم محقب[4]

أم تـدب إلـى ابـنـهـا ووليـهـا ... بـالـمـؤذيـات لـه دبـيـب الـعـقـرب

أمـا الـزبـيـر فـحـاص حـيـن بـدت لـه ... جأواء تبرق في الحديد الأشهب[5]

حـتـى إذا أمـن الـحـتـوف وتـحـتـه ... عاري النواهق ذو نجاء ملهب[6]

أثـوى ابـن جـرمـوز عـمـيـر شـلـوه ... في القاع منعفراً كشلو التولب[7]

واغـتـر طـلـحـة عـنـد مـخـتـلـف الـقـنـا ... عبل الذراع شديد أصل المنكب[8]

فـاخـتـل حـبـة قـلـبـه بـمـذلـق ... ريان من دم جوفه المتصبب[9]

فـي مـارقـيـن مـن الـجـمـاعـة فـارقـوا ... باب الهدى وحيا الربيع المخصب

---

(١) الخدب بكسر الخاء وفتح الدال وتشديد الباء الضخم (والشوقب) الطويل.

(٢) مشجب مهلك.

(٣) الحين بفتح الحاء الهلاك (والمنشب) من نشب في الشيء إذا دخل فيه وعلق به كما ينشب الصيد في الحبالة.

(٤) الورطة الهلكة (ولحجابها) كعلما أي نشبا بها (ومحقب) بوزن اسم المفعول من قولهم احتقب الذنب وأصل الاحتقاب وضع الشيء في الحقيبة وهي وعاء من جلد.

(٥) حاص بالحاء والصاد المهملتين عدل وحاد أو حام ويروى جاض بالجيم والضاد المعجمة أي حاد وعدل (والجأواء) الكتيبة التي يضرب لونها إلى السواد من صدأ الحديد (والأشهب) الأبيض يتخلله سواد.

(٦) النواهق العظمان الشاخصان من ذي الحافر في مجرى الدمع أي عاري النواهق من اللحم ويحمد في الفرس أن يكون قليل لحم الخدين (والنجاء) الإسراع (وملهب) بصيغة اسم الفاعل سريع العدو.

(٧) الشلو العضو من اللحم (والتولب) الجحش.

(٨) اغتره طلب غرته.

(٩) اختل بالخاء المعجمة أي دخل في خلل قلبه.

خير البرية بعد أحمد من له ... مني الهوى وإلى بنيه تطربي
أمسي وأصبح معصماً مني له ... بهوى وحبل ولاية لم يقصب[1]
ونصيحة خلص الصفاء له بها ... مني وشاهد نصرة لم يعزب
ولقد سرى فيما يسير بليلة ... بعد العشاء بكربلا في موكب
حتى أتى متبتلاً في قائم ... ألقى قواعده بقاع مجدب[2]
يأتيه ليس بحيث يلقى عامراً ... غير الوحوش وغير أصلع أشيب[3]
في مدمج زلق أشم ـ كأنه ... حلقوم أبيض ـ ضيق مستصعب[4]

---

(١) معصماً متمسكاً (ويقصب) بالصاد المهملة أي لم يقطع وفي نسخة لم يقضب بالضاد المعجمة وهو بمعناه.

(٢) أراد بالمتبتل الراهب وسمي متبتلاً لقطعه نفسه عن الناس من البتل وهو القطع (والقائم) صومعة الراهب. وهذا البيت وما بعده إلى ١٣ بيتاً إشارة إلى ما روي مما حاصله أنه لما سار أمير المؤمنين (ع) إلى حرب صفين أخذ طريق البر وترك الفرات وأصاب أصحابه عطش شديد فلاح لهم دير فهتف به فأشرف من صومعته فقال: هل قرب قائمك من ماء قال: بيني وبين الماء أكثر من فرسخين فسار قليلاً ونزل بموضع فيه رمل وأشار إلى مكان فكشفوه فأصابوا تحته صخرة بيضاء عظيمة تلمع فأمرهم بقلعها فلم يقدروا فاقتلعها بيده ونحاها فإذا تحتها ماء فشرب الناس وارتووا وحملوا منه «الحديث».

(٣) رواه السيد المرتضى (تأتيه ليس بحيث تلقى عامراً) وفي نسخة (يأتيه ليس بحيث يلقى عامراً) وفي نسخة عامرٌ بالرفع فيلقى يمكن أن يقرأ بالبناء للفاعل وعامراً مفعول أو بالبناء للمفعول وعامر بالرفع نائب فاعل ويمكن أن يقرأ يلفي أو يلفي بالفاء ـ والمراد بالأصلع الأشيب الراهب.

(٤) في مدمج بدل من قوله في قائم (والمدمج) قال السيد في الشرح هو الشيء المستور يقال: دمج الرجل ودمج بتشديد الميم إذا دخل في شيء فاستتر به وصومعة الراهب تستر من دخل فيها لا محالة (اهـ) (أقول) الأولى أن يقرأ مدمج اسم مفعول. في الصحاح دمج الشيء دموجاً إذا دخل في الشيء واستحكم فيه والتأم. وفي تاج العروس عن الأزهري صلح دماج تام محكم قوي وفي التاج أيضاً أدمجت الماشطة ضفائر المرأة أدرجتها وملستها وأدمج الحبل أجاد فتله وقيل: احكم فتله في رقة ورجل مدمج ومندمج مداخل كالحبل المحكم الفتل ونسوة مدمجات الخلق كالحبل المدمج (اهـ) فيكون وصف بناء الصومعة بأنه مدمج إما لأنه قد دخل بعضه في بعض واستحكم والتأم وقوي ولأنه كالحبل المداخل المحكم الفتل وهو راجع إلى الأول أو لأنه مدرج مملس كالضفيرة ولعل هذا هو الأنسب بقوله: زلق (والزلق) الذي لا تثبت عليه قدم (والأشم) الطويل المشرف (الأبيض) قال السيد: هو هاهنا الطائر الكبير من طيور الماء والعرب تسمي الكبير من طيور الماء أبيض وتشبيه الصومعة الطويلة بحلقوم طائر الماء من أوقع التشبيه اهـ (وضيق مستصعب) صفتان لمدمج وفي نسخة متصعب.

فدنا فصاح به فأشرف ماثلا كالنسر فوق شظية من مرقب[1]
هل قرب قائمك الذي بوئته ماء يصاب فقال ما من مشرب[2]
إلا بغاية فرسخين ومن لنا بالماء بين نقى وقيّ سبسب[3]
فثنى الأعنة نحو وعث فاجتلى ملساء تبرق كاللجين المذهب[4]
قال اقلبوها إنكم إن تقلبوا ترووا ولا تروون إن لم تقلب
فاعصوصبوا في قلعها فتمنعت منهم تمنع صعبة لم تركب[5]
حتى إذا أعْيتهم أهوى لها كفاً متى ترد المغالب تغلب[6]
فكأنها كرة بكف حزور عبل الذراع دحا بها في ملعب[7]
فسقاهم من تحتها متسلسلا عذباً يزيد على الألذ الأعذب[8]
حتى إذا شربوا جميعا ردها ومضى فخلت مكانها لم يقرب
أعني ابن فاطمة الوصي ومن يقل في فضله وفعاله لم يكذب
ليست ببالغة عشير عشير ما قد كان أعطيه مقالة مطنب
صهر النبي وجاره في مسجد طهر بطيبة للرسول مطيب[9]
سيان فيه عليه غير مذمم ممشاه إن جنبا وإن لم يجنب[10]

---

(١) الماثل المنتصب. وشبه الراهب بالنسر لعلو سنه (والشظية) قطعة من الجبل منفردة (والمرقب) المكان العالي.

(٢) بوئته أسكنته.

(٣) النقا قطعة من الرمل محدودبة (وألقي) بكسر القاف وتشديد الياء في القاموس قفر الأرض وفي شرح السيد المرتضي الصحراء الواسعة ويوجد في بعض النسخ الصخرة الواسعة وهو تصحيف (والسبسب) الأرض القفر.

(٤) الوعث المكان اللين الذي لا يسلك لأن الأخفاف تغيب فيه ومن الرمل كل لين سهل (واجتلى) أي نظر إلى صخرة ملساء وانجلت لعينه (واللجين) الفضة.

(٥) اعصوصبوا اجتمعوا وصاروا عصبة واحدة.

(٦) في نسخة متى ترمي المغالب تغلب وفي نسخة متى يوماً تغالب تغلب.

(٧) الحزور الغلام القوي (والعبل) الغليظ الممتلىء.

(٨) المتسلسل السلس في الحلق ويقال: إنه البارد أيضاً.

(٩) أراد بالمسجد مسجد النبي ﷺ بالمدينة وهي طيبة (ومطيب) أي طاهر كقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ويحتمل أن يكون المراد أنه مضمخ بالطيب.

(١٠) إشارة إلى ما روي من أن الله تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يسد جميع الأبواب النافذة إلى المسجد إلا بابه وباب علي (ع) ومنع أحداً أن يمر في المسجد جنباً غيرهما.

وسرى بمكة حين بات مبيته | ومضى بروعة خائف مترقب[(١)]

خير البرية هارباً من شرها | بالليل مكتتما ولم يستصحب[(٢)]

باتوا وبات على الفراش ملفعاً | فيرون أن محمداً لم يذهب[(٣)]

حتى إذا طلع الشميط كأنه | في الليل صفحة خد أدهم مغرب[(٤)]

ثاروا لأخذ أخي الفراش فصادفت | غير الذي طلبت أكف الخيب

فوقاه بادرة الحتوف بنفسه | حذراً عليه من العدو المجلب

حتى تغيب عنهم في مدخل | صلى الإلٰه عليه من متغيب

وجزاه خير جزاء مرسل أمة | أدى رسالته ولم يتهيب

فتراجعوا لما رأوه وعاينوا | أسد الإلٰه وعصبوا في منهب[(٥)]

قالوا اطلبوه فوجهوا من راكب | في مبتغاه وطالب لم يركب

حتى إذا قصدوا لباب مغاره | ألفوا عليه نسيج غزل العنكب

صنع الإلٰه له فقال فريقهم | ما في المغار لطالب من مطلب

---

(١) سرى سار ليلاً وفاعل سرى ومضى خير البرية في البيت الذي بعده وفاعل بات راجع إلى علي (ع) (ومبيته) أي الموضع الذي كان يبيت فيه النبي ﷺ وهذا إشارة إلى مبيت علي (ع) على فراش الرسول ﷺ ليلة الغار (والروعة) الخوف (والترقب) الانتظار.

(٢) أي عند خروجه من داره لأنه كان قد أمر صاحبه وهند بن أبي هالة أن يقعدا له بمكان ذكره لهما في طريقه إلى الغار.

(٣) ملفعاً أي مغطى.

(٤) الشميط الصبح لاختلاط بياضه بباقي ظلمة الليل وكان خليطين فهما شميط (وأدهم) أي فرس أدهم (ومغرب) بالغين المعجمة وضم الميم وفتح الراء قال السيد في الشرح الفرس المغرب هو الذي ابيضت أشفار عينيه (اهـ) وفي الصحاح المغرب ما ابيض أشفاره من كل شيء وفي تاج العروس المغرب من الخيل التي تتسع غرته في وجهه حتى تجاوز عينيه (اهـ) فوجه التشبيه اختلاط سواده ببياضه وفي بعض النسخ معرب بالعين المهملة وهو تصحيف لأن المعرب من الخيل الذي ليس فيه عرق هجين ويقال: اعرب الفرس فهو معرب إذا صهل فبان عنقه وسلامته من الهجنة وذلك لا يناسب المقام.

(٥) وعصبوا هكذا في بعض النسخ ومعناه غير ظاهر وفي نسخة (وغيضوا) ولا يظهر له أيضاً معنى يناسب وفي نسخة (مجالداً) ومعناه ظاهر (ومنهب) يمكن أن يكون من النهب ضرب من الركض نص عليه اللحياني أي تراجعوا في مركض أي راكضين.

ميلوا وصدهم المليك ومن يرد عنه الدفاع مليكه لا يعطب
حتى إذا أمن العيون رمت به خوص الركاب إلى مدينة يثرب[1]
فاحتل دار كرامة في معشر آووه في سعة المحل الأرحب
وله بخيبر إذ دعاه لراية ردت عليه هناك أكرم منقب
إذ جاء حاملها فأقبل متعبا يهوي بها العدوي أو كالمتعب
يهوي بها وفتى اليهود يشله كالثور ولى من لواحق أكلب
غضب النبي لها فأنبه بها ودعا أخا ثقة لكهل منجب[2]
رجلا كلا طرفيه من سام وما حام له باب ولا بأبي أب[3]
من لا يفر ولا يرى في نجدة إلا وصارمه خضيب المضرب[4]
فمشى بها قبل اليهود مصمما يرجو الشهادة لا كمشي الأنكب[5]
تهتز في يمنى يدي متعرض للموت أروع في الكريهة محرب[6]
في فيلق فيه السوابغ والقنا والبيض تلمع كالحريق الملهب
والمشرفية في الأكف كأنها لمع البروق بعارض متحلب
وذوو البصائر فوق كل مقلص نهد المراكل ذي سبيب سلهب[7]
حتى إذا دنت الأسنة منهم ورموا فنالهم سهام المقنب[8]

---

(١) في القاموس الخوص محركة غؤر العين خوص كفرح فهو أخوص (اهـ) والخوص هنا جمع خوصاء كحمر وحمراء (والركاب) الإبل وتخصيص خوص الركاب بالذكر كأنه لبيان أنها لشدة سيرها غارت عيونها.

(٢) أراد بالكهل المنجب أبا طالب والد أمير المؤمنين (ع).

(٣) قال السيد في الشرح يروى أجلى والأجلى الذي انحسر شعر رأسه حتى بلغ النصف (وسام) والد البيضان (وحام) والد السودان.

(٤) النجدة القتال وشدة البأس.

(٥) الأنكب المنحرف.

(٦) المحرب كمنبر الحسن البلاء في الحرب.

(٧) المقلص بوزن اسم الفاعل قال السيد مأخوذ من التشمير في الثياب وغيرها ووصف الفرس بذلك لتشمر لحمه وارتفاعه عن قوائمه (ونهد المراكل) أي كثير لحم المراكل وهي مواضع ركل الفارس برجله يصف جسمه بالحسن والتمام. (والسبيب) والسبيبة خصل شعر الناصية وجمعها سبائب (والسلهب) الطويل.

(٨) قال السيد: المقنب كمنبر جماعة الخيل إذا غارت وليست بالكثيرة.

شدوا عليه ليرجلوه فردهم — عنه بأسمر مستقيم الثعلب[1]
ومضى فأقبل مرحب متذمراً — بالسيف يخطر كالهزبر المغضب[2]
فتخالسا مهج النفوس فأقلعا — عن جري أحمر سائل من مرحب
فهوى بمختلف القنا متجدلاً — ودم الجبين بخده المتترب[3]
أجلى فوارسه وأجلى رجله — عن مقعص بدمائه متخضب[4]
فكأن زوره العواكف حوله — من بين خامعة ونسر أهدب[5]
شعث لعامظة دعوا لوليمة — أو ياسرون تخالسوا في منهب[6]
فاسأل فإنك سوف تخبر عنهم — وعن ابن فاطمة الأغر الأغلب[7]

---

(١) ليرجلوه بالراء والجيم أي ليحطوه عن فرسه ويجعلوه راجلاً ويروى ليزحلوه بالزاي والحاء المهملة أي ليمنحوه (والأسمر) الرمح (والثعلب) طرف الرمح الداخل في السنان ويسمى مدخل الرمح من السنان جبة السنان.

(٢) متذمراً قال السيد يحتمل أن يكون من الذمر وهو الشجاع المنكر كأنه قال: أقبل متشجعاً مقدماً متهجماً وأن يكون من الحث يقال: ذمرته إذا حثثته كأنه قال: اقبل حاثاً لنفسه «اهـ» ويحتمل أن يكون من قولهم ذمر الأسد أي زأر (ويخطر) من قولهم خطر البعير إذا مشى فضرب بذنبه يميناً وشمالاً (والهزبر) الأسد.

(٣) مختلف القنا الموضع الذي تختلف فيه جهات الطعن (ومتجدلاً) ملقى على الجدالة وهي الأرض السهلة.

(٤) أجلى انكشف (وفوارسه ورجله) أي الفرسان والرجالة (والمقعص) المقتول والقعص القتيل يقال ضربه فأقعسه ومات قعصاً إذا أصابته ضربة أو رمية فمات في مكانه.

(٥) العواكف من العكوف وهو طول المقام (والخامعة) الضبع لأنها تتخمع في مشيها فتمشي كأن بها عرجاً والخمع والخماع العرج (والأهدب) كثير أشفار العين قال السيد: إنما وصفه بأنه أهدب لسبوغ ريشه ولحوقه بالأرض (اهـ) يعني أنه استعار كثرة الأشفار لكثرة الريش.

(٦) شعث جمع أشعث وهو البعيد العهد بالدهن (ولعامظة) باللام والعين المهملة والميم والظاء المعجمة جمع لعموظ كعصفور وهو النهم الشره (والياسرون) جمع ياسر وهو في الأصل الجزار الذي يلي قسمة الجزور ثم استعمل في الضارب بالقداح والمقامر على الجزور وهو المراد هنا (وتخالسوا) خلس بعضهم بعضاً أي أخذه خلسة وغفلة وذلك شأن المتقامرين (والمنهب) موضع النهب والسلب.

(٧) ابن فاطمة هو أمير المؤمنين (ع) لأن أمه فاطمة بنت أسد (والأغر) قال السيد هو ذو الغرة البيضاء ويوصف بذلك الكريم النجيب (والأغلب) قال السيد: الأفعل من الغلبة وهو أشبه ها هنا بالمعنى من أن يريد به القصير العنق الغليظها لأن الغلباء من الأعناق القصيرة الغليظة.

وعن ابن عبد اللّه عمرو قبله ... وعن الوليد وعن أبيه الصقعب[1]

وبني قريضة يوم فرق جمعهم ... من هاربين وما لهم من مهرب

وموائلين إلى أزل ممنع ... راسي القواعد مشمخر حوشب[2]

رد الخيول عليهم فتحصنوا ... من بعد أرعن جحفل متحزب[3]

إن الضباع متى تحس بنبأة ... من صوت أشوس تقشعر وتهرب[4]

فدعوا ليمضي حكم أحمد فيهم ... حكم العزيز على الذليل المذنب[5]

فرضوا بآخر كان أقرب منهم ... داراً فمتوا بالجوار الأقرب[6]

قالوا الجوار من الكريم بمنزل ... يجري كنسبة المتنسب

فقضى بما رضي الإله لهم به ... بالحرب والقتل الملح المخرب[7]

قتل الكهول وكل أمرد منهم ... وسبى عقائل بدنا كالربرب[8]

---

(١) ابن عبد اللّه عمرو وهو بن عبد ود وسماه ابن عبد اللّه نظراً إلى الحقيقة (والوليد) هو ابن عتبة ابن ربيعة قتله علي (ع) يوم بدر وشرك مع عمه حمزة في قتل عتبة (والصقعب) الطويل من الرجال.

(٢) موائلين لاجئين (والأزل) الذي تزل به الأقدام لطوله ووعورة طرقه وهو حصنهم (والمشمخر) العالي (والحوشب) بالحاء المهملة والشين المعجمة العظيم الجنبين.

(٣) في لسان العرب الرعن أنف يتقدم الجبل والجمع رعان ومنه قيل للجيش العظيم أرعن وجيش أرعن له فضول كرعان الجبال وقيل هو المضطرب لكثرته (والجحفل) الجيش الكثير الوافر (ومتحزب) بالزاي قال السيد مشتق من الحزب وهو الجماعة من الناس والجمع أحزاب اه وفي نسخة متحرب بالراء أي غضبان يقال: حربته بالتشديد أي حملته على الغضب. وقوله: من بعد أرعن متعلق بتحصنوا أي بعدما جاءهم الجيش الأرعن المتحزب دخلوا حصنهم وتحصنوا به من الجيش.

(٤) النبأة الصوت (والأشوس) الرافع رأسه تكبراً وأراد به هنا الأسد (تقشعر) ترجف.

(٥) الذليل إذا كان مذنباً كان ذلك أشد لخضوعه وخشوعه.

(٦) المت في النسب أن تصل نفسك بغيرك. ولما حوصروا وضاق ذرعهم دعاهم النبي ﷺ لينزلوا على حكمه فأبوا ورضوا بحكم سعد بن معاذ لأنه كان جاراً لهم فظنوا أنه يحكم بما يوافقهم فحكم بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم وقسمة أموالهم بين المهاجرين.

(٧) الملح المستمر (والمخرب) بالخاء المعجمة فإنه إذا استمر عليهم القتل أخلى ديارهم وأخربها.

(٨) العقائل جمع عقيلة وهي الكريمة من النساء (والبدن) جمع بادن يقال للمذكر والمؤنث وهي الوافرة لحم الجسم (والربرب) جماعة بقر الوحش ما كان دون العشرة.

وقضى عقارهم لكل مهاجر — دون الالى نصروا ولم يتهيب
وبخم إذ قال الإلٰه بعزمة — قم يا محمد بالولاية فاخطب
وانصب أبا حسن لقومك إنه — هاد وما بلغت إن لم تنصب
فدعاه ثم دعاهم فأقامه — لهم فبين مصدق ومكذب
جعل الولاية بعده لمهذب — ما كان يجعلها لغير مهذب
وله مناقب لا ترام متى يرد — ساع تناول بعضها يتذبذب[1]
إنا ندين بحب آل محمد — ديناً ومن يحببهم يستوجب
منا المودة والولاء ومن يرد — بدلاً بآل محمد لا يحبب
وكأن قلبي حين يذكر أحمداً — ووصي أحمد نيط من ذي مخلب
بذرى القوادم من جناح مصعد — في الجو أو بذرى جناح مصوب[2]
حتى يكاد من النزاع إليهما — يفري الحجاب عن الضلوع الصلب[3]
هبة وما يهب الإلٰه لعبده — يزدد ومهما لا يهب لا يوهب
يمحو ويثبت ما يشاء وعنده — علم الكتاب وعلم ما لم يكتب

قصيدة الحاج هاشم الكعبي المتوفى سنة ١٢٢١ :

أخذوا بمسروب السراب وجانبوا — عذباً يمير الوافدين برودا
مصباح ليلتها صباح نهارها — يمنى نداها تاجها المعقودا

(١) التذبذب الاضطراب والتردد والتحير.
(٢) الذرى جمع ذروة وذروة كل شيء أعلاه (والقوادم) جمع قادمة وهن أربع ريشات في مقدم الجناح وتليهن المناكب ثم الأباهر ثم الخوافي ثم الكلى أو الذنابى أربعة أربعة فذلك عشرون ريشة (والمصعد) الصاعد علواً (والمصوب) الهاوي سفلاً. ومعنى البيتين إن قلبي عند ذكرهما يطير مسرة بهما واشتياقاً إليهما وينزو ويعلو ويجيء ويذهب ارتياحاً ونزاعاً حتى كأنه معلق بأعلى ريش طائر ذي مخلب يرتفع به ويهبط وخص ذا المخلب لأنه أقوى الطير.
(٣) يفري يقطع وأراد بالحجاب حجاب القلب (والصلب) بضم الصاد وتشديد اللام المفتوحة قال السيد في الشرح هي حجارة المسن، والصلب ـ يعني بضم الصاد وسكون اللام ـ الموضع الغليظ «اهـ» وهو من الصلابة ضد الرخاوة ولا يخفى أن الصلب بمعنى حجارة المسن لا تناسب المقام والصلبة ضد الرخوة لا يقال في جمعها صلب إلا أن يكون أراد بالصلب الشبيهة بحجارة المسن في الصلابة.

بشر أقل صفاته إن عاينوا منهم ما ظنوا به المعبودا
ضلت قريش كم تقيس بسابق الحلبات ملطوم الجبين مذودا
يا صاحب المجد الذي لجلاله عنت السرايا منصفاً وعنيدا
لك غر أفعال إذا استقريتها أخذت علّيَ مفاوزاً ونجودا
وصفات فضل أشكلت معنى فلا إطلاق يكشفها ولا تقييدا
ومراتب قلدتها بمناقب كالعقد تلبسه الحسان الخودا
ما مر يومك أبيضاً عند الندى إلا انثنى بدم العدا خنديدا
أجبته بأبيك وجه خريدة فكسوت أبيض خدها التوريدا
أنى يشق غبار شأوك معشر كنت الوجود لهم وكنت الجودا
يجنون ما غرست يداك قضية ألقت على شهب العقول خمودا
أنى هم والخيل ينشر وقعها نقعاً تخال به السماء كديدا
ومواقف لك دون أحمد جاوزت بمقامك التعريف والتحديدا
فعلى الفراش مبيت ليلك والعدى تهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما يهدي القراع لسمعك التغريدا
فكفيت ليلته وقمت معارضاً بالنفس لا فشلاً ولا رعديدا
واستصبحوا فرأوا دوين مرادهم جبلاً أشم وفارساً صنديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أوما دروا كنز الهدى مرصودا
وغداة بدر وهو أم وقائع كثرت وما زالت لهن ولودا
قابلتهن فلم تدع لعقودها نظماً ولا لنظامهن عقيدا
فالتاح عتبة ثاوياً بيمين من يمناه أردت شيبة ووليدا
سجدت رؤوسهم لديك وإنما كان الذي ضربت عليه سجودا
وتوحدت بعد ازدواج والذي ندبت إليه لتهتدي التوحيدا
وقضية المهراس عن كثب وقد عم الفرار أساوداً وأسودا
فشددت كالليث الهزبر فلم تدع ركناً لجيش ضلالة مشدودا
وكشفتهم عن وجه أبيض ماجد لم يعرف الإدبار والتعريدا

وعشية الأحزاب لما أقبلت ... كالسيل مفعمة تقود القودا
عدلت عن النهج القويم وأقبلت ... حلف الضلال كتائباً وجنودا
فأبحت حرمتها وعدت بكبشها ... في القاع تطعمه السباع حنيدا
وبني قريضة والنضير وسلحم ... والواديين وخثعماً وزبيدا
مزقت جيب نفاقهم فتركتهم ... أمماً لعارية السيوف غمودا
وشللت عشراً فاقتنصت رئيسهم ... وتركت تسعاً للفرار عبيدا
وعلى حنين اين يذهب جاحد ... لما ثبت به وراح شريدا
ولخيبر خبر يصم حديثه ... سمع العدى ويفجر الجلمودا
يوم به كنت الفتى الفتاح والـ ... ـكرار والمحبوب والصنديدا
من بعد ما ولى الجبان براية ... الإيمان تلتحف الهوان برودا
ورأتك فانتشرت بقربك بهجة ... فعل الودود يعاين المودودا
فنصرتها ونضرتها فكأنما ... غصن يرنحه الصبا أملودا
فغدوت ترقل والقلوب خوافق ... والنصر يرمي نحوك الإقليدا
فلقيتها وعقلت فارسها ولا ... عجب إذا افترس الهزبر السيدا
ويل أمه أيظنك النكس الذي ... ولى غداة الطعن يلوي الجيدا
وتبعتها فحللت عقدة تاجها ... بيد سمت ورتاجها الموصودا
وجعلته جسراً فقصر فاغتدت ... طولى يمينك جسرها الممدودا
وأبحت حصنهم المشيد فلم يكن ... حصن لهم من بعد ذاك مشيدا
وحديث أهل النكث عسكر «عسكر» ... بهم البهيمة جندها المحشودا
لاقاك فارسهم فبغدد هارباً ... لو كان محتوم القضا مردودا
وعلى ابن هند طار منك بأشأم ... يوم غدا لبني الولاء سعودا
ألفى جحاش الكرملين فقادهم ... جهلاً فابئس قائداً ومقودا
فغدوت مقتنصاً نفوس كماته ... لله مقتنص يصيد الصيدا
حتى إذا اعتقد الفنا ورأى القنا ... مذروية ورأى الحسام حديدا
وبدا له العضب الذي من قبله ... قد فل آباء له وجدودا

رفع المصاحف لا ليرفعها علا   لكن ليخفض قدرها ويكيدا
فجنى بها ثمر الأمان وخلفه   يوم يجرعه الشراب صديدا
وكذاك أهل النهر ساعة فارقوا   بفراقهم لجلالك التأييدا
فوضعت سيفك فيهم فأفادهم   تلفاً فديتك متلفاً ومبيدا
ولقد روى مسروقهم عن أمه   والحق ينطق منصفاً وعنيدا
قالت هم شر الورى ومبيدهم   خير الورى أكرم بذاك مبيدا
سبقت مكارمك المكارم مثلما   ختمت لعمر فخارك التأبيدا
إني لأعذر حاسديك على العلا   وعلاك عذري لو عذرت حسودا
فليحسد الحساد مثلك إنه   شرف يزيد على المدى تجديدا
ما أنصفتك عصابة جهلتك إذ   جعلت لذاتك في الوجود نديدا
ثم ارتقت حتى أبتك رضى بمن   لم يرض كعبك أن يراه صعيدا
ضلت أدلتها أتبدل بالعمى   رشداً وبالعدم المحال وجودا

قصيدة الشيخ كاظم الأزري المتوفى سنة ١٢٠١ وهذه القصيدة تبلغ ألف بيت أكلت الأرضة منها أكثر من أربعمائة بيت بعد أن احتفظ بها صاحبها في طومار ولم يبق منها إلا ٥٧٨ بيتاً نأخذ منها ما يلي:

أسد اللّه ما رأت مقلتاه   نار حرب تشب إلا اصطلاها
فارس المؤمنين في كل حرب   قطب محرابها إمام وغاها
لم يخض في الهياج إلا وأبدى   عزمة يتقي الردى إياها
ذاك رأس الموحدين وحامي   بيضة الدين من أكف عداها
من ترى مثله إذا صرت الحر   ب ودارت على الكمات رحاها
ذاك قمقامها الذي لا يروّي   غير صمصامه أوام صداها
وبه استفتح الهدى يوم (بدر)   من طغاة أبت سوى طغواها
صب صوب الردى عليهم همام   ليس يخشى عقبى التي سواها
يوم جاءت وفي القلوب غليل   فسقاها حسامه ما سقاها
فأقامت ما بين طيش ورعب   وكفاها ذاك المقام كفاها

ظهرت منه في الوغى سطوات ... ما أتى القوم كلهم مأتاها
يوم غصت بجيش (عمرو بن ود) ... لهوات الفلا وضاق فضاها
وتخطى إلى المدينة فرداً ... بسرايا عزائم ساراها
فدعاهم وهم ألوف ولكن ... ينظرون الذي يشب لظاها
أين أنتم عن قسور عامري ... تتقي الأسد بأسه في شراها
فابتدى المصطفى يحدّث عما ... تؤجر الصابرون في أخراها
قائلاً إن للجليل جناناً ... ليس غير المجاهدين يراها
أين من نفسه تتوق إلى الجنـ ... ـات أو يورد الجحيم عداها
من لعمرو وقد ضمنت ... على اللّه له من جنانه أعلاها
فالتووا عن جوابه كسوام ... لا تراها مجيبة من دعاها
وإذا هم بفارس قرشي ... ترجف الأرض خيفة إذ يطاها
قائلاً ما لها سواي كفيل ... هذه ذمة علي وفاها
ومشى يطلب الصفوف كما ... تمشي خماص الحشا إلى مرعاها
فانتضى مشرفيه فتلقى ... ساق عمرو بضربة فبراها
وإلى الحشر رنة السيف منه ... يملأ الخافقين رجع صداها
يا لها ضربة حوت مكرمات ... لم يزن ثقل أجرها ثقلاها
هذه من علاه إحدى المعالي ... وعلى هذه فقس ما سواها
و(بأحد) كم فل آحاد شوس ... كلما أوقدوا الوغى أطفاها
يوم دارت بلا ثوابت إلا ... أسد اللّه كان قطب رحاها
يوم خانت نبالة القوم عهداً ... لنبي الهدى فخاب رجاها
وتراءت لها غنائم شتى ... فاقتفى الأكثرون إثر ثراها
وأحاطت به مذاكي الأعادي ... بعدما أشرفت على استيلاها
فترى ذلك النفير كما تخبط ... في ظلمة الدجى عشواها
يتمنى الفتى ورود المنايا ... والمنايا لو تشترى لاشتراها
كلما لاح في المهامه برق ... حسبته قنا العدى وظباها

لم تخلها إلا أضالع عجف — قد براها السرى فحل براها
لأتلمها لحيرة وارتياع — فقدت عزها فعز عزاها
إن يفتها ذاك الجميل فعذراً — إنما حلية الرجال حجاها
قد أراها في ذلك اليوم ضرباً — لو رأته الشبان شابت لحاها
وكساها العار الذميم بطعن — من حلى الكبرياء قد أعراها
يوم سالت سيل الرمال ولكن — هب فيها نسيمه فذراها
لا ترم وصفه ففيه معان — لم يصفها إلا الذي سوّاها
وله يوم (خيبر) فتكات — كبرت منظراً على من رآها
يوم قال النبي إني لأعطي — رايتي ليثها وحامي حماها
فاستطالت أعناق كل فريق — ليروا أي ماجد يعطاها
فدعا أين وارث العلم والحلم — مجير الأيام من بأساها
أين ذو النجدة الذي لو دعته — في الثريا مروعة لباها
فأتاه الوصي أرمد عين — فسقاه من ريقه فشفاها
ومضى يطلب الصفوف فولت — عنه علماً بأنه أمضاها
وبرى (مرحباً) بكف اقتدار — أقوياء الأقدار من ضعفاها
ودحا بابها بقوة بأس — لو حمتها الأفلاك منه دحاها
عائد للمؤمّلين مجيب — سامع ما تسر من نجواها
من تلقى يد (الوليد) بضرب — حيدري بري اليراع براها
وسقى منه (عتبة) كأس بؤس — كان صرفاً إلى المعاد احتساها
ورأى تيه «ذي الخمار» فردّا — ه من الذل بردة ما ارتداها
ومن المهتدي بيوم «حنين» — حين غاوي الفرار قد أغواها
حيث بعض الرجال تهرب من — بيض المواضي والبعض من قتلاها
حيث لا يلتوي إلى الإلف إلف — كل نفس أطاشها ما دهاها
من سقاها في ذلك اليوم كأساً — فايضاً بالمنون حتى رواها
أعجب القوم كثرة العد منها — ثم ولت والرعب حشو حشاها

وقفوا وقفة الذليل وفروا ... من أسود الشرى فرار مهاها

وعليّ يلقى الألوف بقلب ... صور الله فيه شكل فناها

إنما تفضل النفوس بجد ... وعلى قدره مقام علاها

لو تراه وَجودُه مستباح ... قبل كشف العفاة سر عفاها

خلت من أعظم السحائب سحباً ... سقت الروض قبل ما استسقاها

وهو للدائرات دائرة السعد ... الا ساء حظ من ناواها

لم يدع ذلك الطبيب كلوماً ... قد أساءت بالدهر إلا أساها

صادق الفعل والمقالة يحوي ... غرة مثل حسنه حسناها

لم تفه ملة من الشرك إلا ... فض بالصارم الإلهي فاها

وطواها طي السجل همام ... نشر الحرب علمه وطواها

كم عرا مشكل فحل عراه ... ليس للمشكلات إلا فتاها

واسأل الأعصر القديمة عنه ... كيف كانت يداه روح غذاها

أي نفس لا تهتدي بهداه ... وهو من كل صورة مقلتاها

«وبخم» ماذا جرى يوم خم ... تلك أكرومة أبت أن تضاهى

ذاك يوم من الزمان أبانت ... ملة الحق فيه عن مقتداها

كم حوى ذلك «الغدير» نجوماً ... ما جرت أنجم الدجى مجراها

إذ رقى منبر الحدايج هاد ... طاول السبعة العلى برقاها

موقفاً للأنام في فلوات ... وعرات بالقيظ يشوى شواها

أيها الناس حدثوا اليوم عني ... وليبلغ أدنى الورى أقصاها

كل نفس كانت تراني مولى ... فلتر اليوم حيدراً مولاها

رب هذي أمانة لك عندي ... وإليك الأمين قد أداها

وال من لا يرى الولاية إلا ... لعلي وعاد من عاداها

* * *

أيها الراكب المجد رويداً ... بقلوب تقلبت في جواها

إن تراءت أرض الغريين فاخضع ... واخلع النعل دون وادي طواها

وإذا شمت قبة العالم الأعلى ... وأنوار ربها تغشاها
فتواضع فشمَّ دارة قدس ... تتمنى الأفلاك لثم ثراها
قل له والدموع سفح عقيق ... والجوى تصطلي بنار غضاها
يابن عم النبي أنت يد الله ... التي عم كل شيء نداها
حسبك الله في مآثر شتى ... هي مثل الأعداد لا تتناهى
ليت عيناً بغير روضك ترعى ... قذيت واستمر فيها قذاها
يا أبا النيرين أنت سماء ... قد محا كل ظلمة قمراها
لم يزل بانتظارك الدين حتى ... جردت كف عزمتيك ظباها
فجعلت الرشاد فوق الثريا ... ومقام الضلال تحت ثراها
إنما البأس والتقى والعطايا ... حلبات بلغت أقصى مداها

قصيدة الشيخ عبد المهدي مطر أنشدها يوم الاحتفال بافتتاح الباب الذهبي الذي أهداه بعض الإيرانيين لمقام أمير المؤمنين في النجف سنة ١٣٧٣ :

أرصف بباب علي أيها الذهب ... واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا
وقل لمن كان قد أقصاك عن يده ... عفواً إذا جئت منك اليوم أقترب
لعل بادرة تبدو لحيدرة ... أن ترتضيك لها الأبواب والعتب
فقد عهدناه والصفراء منكرة ... لعينه وسناها عنده لهب
ما قيمة الذهب الوهاج عند يد ... على السواء لديها التبر والترب
ما سره أن يرى الدنيا له ذهباً ... وفي البلاد قلوب شفها السغب
ولا تضجر أكبار مفتتة ... حتى يذوب عليها قلبه الحدب
أو يسقط الدمع من عيني مولهة ... أجابها الدمع من عينيه ينسكب
تهفو حشاه لأنات اليتيم بلا ... أم تناغي ولا يحنو عليه أب
هذي هي السيرة المثلى تموج بها ... روح الوصي وهذا نهجه اللحب
فاحذر دخول ضريح أن تطوف به ... إلا بإذن علي أيها الذهب
باب به ريشة الفنان قد لعبت ... فأودعته جمالاً كله عجب
تكاد لا تدرك الأبصار دقته ... مما تماوج في شرطانه اللهب

كأن لجة أنوار تموج به خلالها صور الرائين تضطرب
سبائك صبها الإبداع فارتسمت روائع الفن فيها الحسن منسكب
يدنو الخيال لها يوماً لينعتها وصفاً فيرجع منكوساً وينقلب
أدلت بها يد فنان منمقة تعنو لروعتها الأجيال والحقب
ملء الجوانح ملء العين رهبتها ومربض الليث غاب ملؤه رهب

* * *

يا قالع الباب والهيجاء شاهدة من بعد ما طفحت كأس بمن هربوا
بابان لم ندر في البريح أيهما أشهى إليك حديثاً حين يقتضب
باب من التبر أم باب يقومه مسماره وجذوع النخل والخشب
هذا يشع عليه التبر ملتهباً وذاك راح بنار الحقد يلتهب
وأي داريك أحرى أن نطوف بها وأن تجللها الأستار والحجبُ
دار تحج بها الدنيا لمجدك أم دار عليك بها العادون قد وثبوا
هذي تدال بها للحق دولته زهواً وفي تلك فيء الحق يغتصب
حتى إذا جاءت الدنيا مكفِّرة عما جنته وجاء الدهر يتهب
شادت عليك ضريحاً تستطيل على هام السماء به الأعلام والقبب
وتلك عقبى صراع قد صبرت له وذا فديناك مظلوماً هو الغلب

* * *

بلغ معاوية عني مغلغلة وقل له وأخو التبليغ ينتدب
قم وانظر العدل قد شيدت عمارته والجور عندك خزي بيته خَرب
تبني على الظلم صرحاً رن معوله بجانبيه وهدت ركنه النوب
ابت له حكمة الباري بصرختها أن لا يخلد مختال ومرتكب
قم وانظر الكعبة العظمى تطوف بها حشد الألوف وتجثو عندها الركب
تأتي له من أقاصي الأرض طالبة وليس إلا رضا الباري هو الطلب
قل للمعربد حيث الكأس فارغة خفض عليك فلا خمر ولا عنب
سموك زوراً أمير المؤمنين وهل يرضى بغير (علي) ذلك اللقب

هذا هو الرأس معقود لهامته		تاج الخلافة فأخسا أيها الذنب

* * *

يا باب (حطة) سمعاً فالحقيقة قد		تكشفت حيث لا شك ولا ريب
مواهب اللّه قد وافتك مجزية		ما كنت تبذل من نفس وما تهب
هذي هي الوقفات الغر كنت بها		للدين حصناً منيعاً دونه الهضب
هذي هي الضربات الوتر يعرفها		ضلع بها انقد أو جنب بها يجب
هذي هي اللمعات البيض كان بها		عن وجه خير البرايا تكشف الكرب
هذي هي النفس قد روضت جامحها		فراق للعين منها عيشها الجشب
فلا الخوان لها يوماً ملونة		منه الطعوم ولا إبرادها قشب
لا تكتسي وفتاة الحي عارية		ولا تعب ومهضوم الحشا سغب
نفس هي الطهر ما همت بموبقة		وليس تعرف كيف الذنب يرتكب
هذي التي انقادت الأجيال خاشعة		لهديها وترامت عندها النجب
تعيفوا وركبنا في سفينته		فميز اللج من عافوا ومن ركبوا
وساوموا فاشترينا حب حيدرة		ولا نبيع ولو أن الدنا ذهب
يا فرصة كنت للإسلام ضيعها		حقد النفوس وأبلى جدها اللعب
شجوا برغمك أمراً أنت تعصبه		في ذمة اللّه ما شجوا وما شجبوا
فرحت تنفض من هذا الحطام يداً		إذ شمت فيه يد الأطماع تنتشب
تكالب عنه قد نزهت محتقراً		له وعندك ما يشفى به الكلب
فاستنزلوك عن العرش الذي ارتفعت		بك القواعد منه فهو منتصب
لو أنصفوك لفاض العلم منتشرا		في الخافقين وسارت بالهدى كتب
ولازدهى باسمك الإسلام دوحته		فينانة وفناه مربع خصب
ولابتنيت عليه من سماء علا		ما ليس تأفل عن آفاقها الشهب
للّه أنت فقد حملت من محن		ما لم يطق صابر في اللّه محتسب
أمر به ضاقت الدنيا بما رحبت		ولم يضق عنه يوماً صدرك الرحب

* * *

جاءتك «فارس» باسم الباب يجذبها لك الولاء على شوق فتنجذب
أن يبعدوا عنك بالأوطان نائية فكم لهم قربات باسمها قربوا
هم في المحاريب أشباح مقوسة وفي الحروب ليوث غابها أشب

قصيدة الشاعر المصري الشيخ محمد بن عبد المطلب المتوفى سنة ١٣٥٠:

أبا السبطين كيف تفي المعاني نثاراً في مديحك أو نظاما
مقام دونه نجب القوافي وإن كانت مسومة كراما
فحسبك يا أخا الشعراء عذراً رميت بها مكاناً لن يراما
وما أدراك ويحك ما علي فتكشف عن مناقبه اللثاما
ومن هو كلما ذكرت قريش أناف على غواربها سناما
تبصر هل ترى إلا علياً إذا ذكر الهدى ذاك الغلاما
غلام يبتغي الإسلام ديناً ولما يعد أن بلغ الفطاما
إذ الروح الأمين بقم فانذر أتى طه لينذرهم فقاما
وأمتهم إلى الإسلام أم غدت بالسبق أوفرهم سهاما
وصلى جيدر فشأى قريشا إلى الحسنى فسموه الإماما
كأني بالثلاثة في المصلى جميعا عند ربهم قياما
تحييهم ملائكة كرام وتقرئهم عن اللّه السلاما
وما اعتنق الحنيف بغير رأي ولم يسلك محجته اقتحاما
ولكن النبوة أمهلته ليجمع رأيه يوماً تماما
فأقبل والحجى يرخي عليه جلالا يصغر الشيخ الهماما
يمد إلى النبي يد ابن عم بحبل اللّه يعتصم اعتصاما
وإذ يدعو العشيرة يوم جمع لينذر في رسالته الأناما
فكهل في جهالته تولى وشيخ في ضلالته تعامى
وهذا يوسع المختار لوما وذلك عن ملامته تحامى
وآخر لا يبين له جوابا أطاع الصمت واجتنب الكلاما

وأيده على التقوى أخوه ... إذا ما خاف كل أخ وخاما
ولجت في عمايتها قريش ... تصارحه العداوة والخصاما
وجاشت بين أضلعها قلوب ... على الإسلام تلتهب احتداما
فما فعل الفتى والشر تغلي ... مراجله وتهتزم اهتزاما
مضى كالسيف لم يعقد إزاراً ... على ريب ولم يشدد حزاما
يروح على مجامعهم ويغدو ... كشبل الليث يعترم اعتراما
صغيرُ السن يخطر في إباء ... فلا ضيما يخاف ولا ملاما
وما زالت به الأيام ترقى ... على درج النهى عاماً فعاما
وقد جمع الحجى والدين فيه ... خلائق تجمع الخير اقتساما
فما أوفى على العشرين حتى ... شهدنا من عظائمه عظاما
فلن ينسى النبي له صنيعاً ... عشية ودع البيت الحراما
عشية سامه في اللّه نفساً ... لغير اللّه تكبر إن تساما
فأرخصها فدى لأخيه لما ... تسجى في حظيرته وناما
وأقبلت الصوارم والمنايا ... لحرب اللّه تنتحم انتحاما
فلم يأبه لها أنفا علي ... ولم تقلق بجفنيه مناما
وأغشى اللّه أعينهم فراحت ... ولم تر ذلك البدر التماما
وغادرت البطاح به ركاب ... إلى الزوراء تعتزم اعتزاما
وفي أم القرى خلى أخاه ... على وجد به يشكو الأواما
أقام بها ليقضيها حقوقاً ... على الهادي بها كانت لزاما
فإن يك عهده فيها وبالاً ... على الطاغوت أو داءاً عقاما
فكم طابت به للحقِ نفس ... بطيبة حين أوطنها مقاما
وكم شهدت له الزوراء يوماً ... وكم حمد الحنيف له مقاما
سل الرايات كم شهدت عتياً ... يصرف تحتها الجيش اللهاما
كأني بابن عتبة يوم بدر ... يعاني تحت مجثمه جثاما
ولو علم الوليد بمن سيلقى ... لألقى قبل مصرعه السلاما

رويد بني ربيعة قد ظلمتم بني الأعمام والرحم الحراما
وصلناكم بها وقطعتموها فكان الحزم أن تردوا الحماما
فهل ينسون للفرقان يوماً سقاهم من صوارمنا سماما
وما صهر النبي إذا تنادوا كمن يدعو ربيعة أو هشاما
ومن غدت البتول إليه تهدى بنى في النجم بيتاً لا يسامى
بأمر اللّه قد زفت إليه عشية راح يخطبها وساما
كأني بالملائك إذ تدلت بذاك البيت تزدحم ازدحاما
فلو كشف الحجاب رأيت فيه جنود اللّه تنتظم انتظاما
أطافوا بالحظيرة في جلال صفوفاً حول فاطمة قياما
تفيض على منصتها وقاراً وتكسو حسن طلعتها وساما
فلا يحزن خديجة إن تولت ولم تبلغ بجلوتها مراما
تولاها الذي ولى أباها رسالته وزوجها الإماما
قران زاده الإسلام يمناً وشمل زاده الحب التئاما
فإن تك خير من عقدت إزاراً وأكرم كل من أرخت لثاما
فما شغلته عن خوض المنايا إذا التطمت زواخرها التطاما
فإن تسأل فسائل عنه أحدا غداة هناك طير الموت حاما
وجاءت في زمازمها قريش يهزون المثقف والهذاما
فقطر كبشها وهوى صريعاً على الدقعاء يلتهم الرغاما
هوى من تحت رايتهم فخرت بأم الأرض ترتطم ارتطاما
فويح المسلمين هناك ولوا فراراً لا أسميه انهزاما
وخلوا ثم أحمد في وغاها بجند الكفر يصطدم اصطداما
فأرجف بالنبي هناك قوم فعاذوا حول موقفه حياما
وحطم غمد صارمه علي وذب عن النبي بها وحامى
وأقبل نحوهم وهوى إليهم هوي الباز يعتبط الحماما
فطاروا عن مواقفهم شعاعاً وطاحوا في مصارعهم حطاما

فذاك ولو ترى إذ جاب قوم ... على الإسلام خندقه اقتحاما
وأقبل في لباس البأس عمرو ... يزيد على مخيلته عراما
فجال منازلاً ودعا مدلاً ... فعم الهول حين دعا وغاما
نزال بني الهدى هل من كمي ... يسوم الخلد بالنفس استياما
هنالك بادر الكرار لما ... غدوا والرعب قد منع الكلاما
إذا ما همَّ أقعده أخوه ... وزاد إلى اللقاء جوى فقاما
مكانك يا علي فذاك عمرو ... له الأبطال يوم وغى تحامى
فقال وإن يكن عمراً فإني ... علي سوف ألجمه الحساما
فلم يك غير أن أودى ابن ود ... وخاض السيف في دمه وعاما
وعاد إلى النبي يفيض بأساً ... ويزخر في حميته جماما
وراح الكفر يرجف جانباه ... وأمسى عضب عزته كهاما
وسائل يوم خيبر عن علي ... تجد فيها مآثره جساما
إذ الرايات في جهد عليها ... تعاصي الفتح والهرب استداما
فأقبل بالعقاب على خميس ... يهرول مسرعا يمضي إماما
فشد على مناكبها وثاقاً ... ولف على معاطسها خطاما
ولم تغن الحصون ولا الصياصي ... وإن قام الحديد لها دعاما
وأقبل مرحب في البأس يحبو ... وكان البأس صاحبه لزاما
وما علم الفتى أن المنايا ... خطن بذي الفقار له مناما
وإن له من الكرار يوماً ... عبوساً مدنياً منه الحماما
ضفا حلق الحديد عليه مثنى ... وظاهر فوق بيضته الرخاما
فشد على الإمام بذي شطوب ... تضمن حده موتاً زؤاما
فزال مجنه فإذا رتاج ... هناك تخاله جبلاً تسامى
فسل يسراه كيف تلقفته ... وقد أعيا تحمله فئاما[1]

(١) الفئام الجماعة من الناس.

علاه بضربة لو أن رضوى ... تلقاها لعاد بها هياما[1]

فلم يعصمه من حين رخام ... ولم يجد الحديد له عصاما

وعادت خيبر للّه فيئا ... يقسم في كتائبه اقتساما

فدع عنك المواطن والمغازي ... ومن سل الظبا فيها وشاما

ومن أجرى عتاق الخيل قباً ... فأوطأها من الأعداء هاما

يخوض بها المواطن معلمات ... ونصر اللّه كان لها علاما

فما وجدت كحيدرة إماماً ... يصيد الصيد فذا أو تواما

وسل أهل السلام تجد عليا ... أمام الناس يبتدر السلاما

حوى علم النبوة في فؤاد ... طما بالعلم زخاراً فطاما[2]

سقاه الحق أفواق المعاني ... وهيمه بها حباً فهاما

رمى في عالم الأنوار سبحاً ... إلى سوح الجلال به ترامى

ونفساً لم تذق طعم الدنايا ... ولا لذت من الدنيا طعاما

غذاها الدين مذ كانت فشبت ... على التقوى رضاعاً وانفطاما

وتشأها على كرم وأيد ... وصاغ من الجلال لها قواما

زكت فسمت عن الدنيا طلاباً ... وأضنى حبها قوماً وتاما[3]

طوى عنها على الضراء كشحاً ... وعن فاني زخارفها تسامى

ووجهها فاض نور اللّه فيه ... فألبسه المهابة والقساما[4]

يروع الليث منظره عبوساً ... ويخجل ضاحك الغيث ابتساما

ترى فيه مخايل خندفي[5] ... بسيما الحق يزدان اتساما

وفيض يد من الوسمي أندى ... إذا الحي اشتكى سنة أزاما

---

(١) الهيام الرمل المهيل.

(٢) طام حسن عمله.

(٣) تام يتم.

(٤) القسام الحسن.

(٥) خندقي منسوب إلى خندق كزبرج لقب ليلى بنت حلوان بن عمران زوجة الياس بن مضر من أجداد النبي ﷺ وإليها تنسب قريش وكل من ولده الياس.

علـى حب الطعام يصد عنه　　　ليطعمه الأرامل واليتامى

سل القرآن أو جبريل تعلم　　　مكارم لن تبيد ولن تراما

من الأبرار يغتبقون كأساً　　　من الرضوان مترعة وجاما

علي والبتول وكوكباه　　　ضياء الأرض إن أفق أغاما

ثناء في الكتاب له عبير　　　تقصر عنه أرواح الخزامى

وكم أجرى على المحراب دمعاً　　　لخوف اللّه ينسجم انسجاما

إذا ما قام في المحراب قامت　　　له زمر الملائكة احتشاما

صلاة الليل يجعلها سحوراً　　　إذا ما في الغداة نوى الصياما

ترى صبر القنوع له غذاء　　　جرى دمع الخشوع له إداما

رأينا في الكهولة منه شيخاً　　　حوى الجد اشتمالا واعتماما

فما للدهر لم يعرف حقوقاً　　　له شيخاً ولم ينكر ظلاما

سجا ليل الحوادث بعد طه　　　فعم الدين والدنيا ظلاما

وحلت بالخلافة مرزئات　　　طواحن تحتشي الناس التهاما

رمت بالمسلمين إلى شتات　　　وأمسى حبل وحدتهم رماما

فمنهم من أقام بكسر بيت　　　وأخلد للسكينة فاستناما

وطائفة على الحق استقرت　　　فكانت بين إخوتها قواما

تبايع وهي راضية علياً　　　وترعى في خلافته الذماما

وأخرى أوضعت في الخلف تغلو　　　ولم تحذر عواقبه الوخاما

رضوا بالسيف لما حكموه　　　فقام السيف بالأمر احتكاما

وأقبلت الجياد الجرد تعدو　　　على الآكام تحسبها النعاما

إلى صفين تحشدها منايا　　　وقد غص الفضاء بها زحاما

أقام الموت في صفين سوقاً　　　وأرخصت النفوس بها سواما

ترى مضراً تبيع بها نزاراً　　　ولخماً تستبيح بها جذاما

ألا صلى الإلٰه على نفوس　　　ترى في الحق مصرعها لزاما

تموت على منازعها كراماً　　　فتحيا في منازعها كراما

فلما كاد حكم السيف يمضي ... وولى الجمع واستبقوا الخياما

أناب إلى الكتاب دهاء عمرو ... دهاء يأكل السيف الحساما

وما هم بالكتاب أبر منه ... ولا أولى بحكمته ائتماما

ولكن حيلة جرت بلاء ... على الدنيا وأياماً وخاما

إذا الحكمان بالأمر استقلا ... فليتهما على النهج استقاما

لقد قرنوا أبا موسى بعمرو ... وما أدراك ما عمرو إذا ما

مضى الحكمان ما حسما خلافاً ... ولا فضا لمشكلة ختاما

أمير المؤمنين أرى زماناً ... لحربك هز مخذمه وشاما

وأقبل بالوفاء على ابن حرب ... يصافيه المودة والوئاما

فما نقمت أمية منك حتى ... تناصبك العداء والانتقاما

بلى إن الزمان لفي ضلال ... لوى في الحق وانتهك الذماما

زهاهم زخرف الدنيا فهاموا ... مع الشيطان بالدنيا غراما

وليس لطالب الدنيا دواء ... إذا كانت له الدنيا سقاما

رمى بالخرق أقوام علياً ... وهم أولى بما زعموا اتصاما

فما شهد الزمان له سفاهاً ... ولا نكروا له رأياً عقاما

ولا يغني الأريب حجى ورأي ... إذا قاد الأسافل والطغاما

علمنا رأيه فلقاً مبيناً ... له نهج على الحق استقاما

رأى ورأوا فسد وما أصابوا ... وأيقظ حزمه وجثوا نياما

فأكبر همه مذ كان طفلاً ... حدود اللّه يحرص أن تقاما

فليتهم وعوا خطباً أتتهم ... ضوافي تسمع الصم السلاما

سوابغ نسج أروع هاشمي ... سما ملك البيان به وسامى

إذا ابتدر المقالة يوم خطب ... وهز على منصتها الحساما

أصاخ النجم أبرقت المواضي ... وزايلت الضراغمة الأجاما

إذا ما رن صوت الحق فيها ... تولى الإفك وانحطم انحطاما

بني الشامات ويحكم أفيقوا ... علام تنكب الحسنى علاما

ظلمتم سيد الأبرار لما ركبتم في عداوته الشماما
سلوا الصديق والفاروق عنه كم اعتصما بحكمته اعتصاما
وكم وردا له رأياً نجيحاً وكم سلكا به سبلاً قواما
بني الشامات ويحكم شققتم عصا الإسلام فانقسم انقساما
مددتم خوارج حبل خلف به شدوا إلى الفتن الحزاما
فيا قتلى الخوارج يوم جروا على الإسلام أدهية دهاما
لقد مردت بفاجرها مراد على العدوان لا بلغت مراما
ألا تبت يد بالغدر ثارت تمد إلى أبي حسن حساما
لو ان السيف كان له خيار لعرد عنه وانثلم انثلاما
ولكن القضاء جرى برزء له انفصمت عرى الصبر انفصاما
به فجع المدينة والمصلى وزلزل بطن مكة والمقاما
نعى الناعي أبا حسن فراحت بواكي الدين تلتدم التداما
بنفسي غرة يجري عليها دم أزكى من المسك اشتماما
بنفسي إذ يجود بخير نفس تخاف على الحنيفة أن تضاما
مضى زين الصحابة في سبيل إلى ملأ بجيرته استهاما
إلى دار السلام مضى علي وجاور في منازلها السلاما

من قصيدة لسفيان بن مصعب العبدي المتوفى حدود سنة ١٢٠ :

ما هز عطفي من شوقي إلى وطني ولا اعتراني من وجد ومن طرب
مثل اشتياقي من بعد ومنترح عن (الغري) وما فيه من الحسب
أذكى ثرى ضم أزكى العالمين فذا خير الرجال وهذي أشرف الترب
إن كان عن ناظري بالغيب محتجباً فإنه عن ضميري غير محتجب
مرت عليه ضروع المزن رائحة من الجنوب فروته من الحلب
بل جاد ما ضم ذاك الترب من شرف مزن المدامع من جار ومنسكب
ولو تكون لي الأيام مسعدة لطاب لي عنده بعدي ومقتربي
يا راكباً جسرة تطوي مناسمها ملاءة البيد بالتقريب والخبب

بلغ سلامي قبراً بالغري حوى ... أوفى البرية من عجم ومن عرب
واجعل شعارك لله الخشوع به ... وناد خير وصي صنو خير نبي
اسمع أبا حسن إن الأولى عدلوا ... عن حكمك انقلبوا عن خير منقلب
ما بالهم نكبوا نهج النجاة وقد ... أوضحته واقتفوا نهجاً من العطب
ودافعوك عن الأمر الذي اعتلقت ... زمامه من قريش كف مغتصب
ظلت تجاذبها حتى لقد خرمت ... خشاشها[1] تربت من كف مجتذب
وأنت توسعه صبراً على مضض ... والحلم أحسن ما يأتي مع الغضب
وكنت قطب رحى الإسلام دونهم ... ولا تدور رحى إلا على قطب
ما أنت إلا أخو الهادي وناصره ... ومظهر الحق والمنعوت في الكتب
وزوج بضعته الزهراء يكنفها ... دون الورى وأبو أبنائها النجب
من كل مجتهد في الله معتضد ... بالله معتقد لله محتسب
وارين هادين إن ليل الظلام دجا ... كانوا لطارقهم أهدى من الشهب
لقبت بالرفض لما إن منحتهم ... ودي وأفضل ما ادعى به لقبي
صلاة ذي العرش تترى كل آونة ... على ابن فاطمة الكشاف للكرب

من قصيدة لعبد الباقي العمري المتوفى سنة ١٢٧٨ :

أنت العلي الذي فوق العلى رفعا ... ببطن مكة وسط البيت إذ وضعا
وأنت ذاك الهزبر الأنزع البطل الـ ... ـذي بمخلبه للشرك قد نزعا
وأنت يعسوب نحل المؤمنين إلى ... أي الجهات انتحى يلقاهمو تبعا
وأنت من حمت الإسلام وفرته ... ودرعت لبدتاه الدين فادرعا
وأنت من فجع الدين المبين به ... ومن بأولاده الإسلام قد فجعا
وأنت أنت الذي لله ما وصلا ... وأنت أنت الذي لله ما قطعا
لله در فتى الفتيان منك فتى ... ضرع الفواطم في مهد الهدى رضعا
نهج البلاغة نهج عنك بلغنا ... رشداً به اجتث عرق الغي فانقمعا

---

(١) الخشاش بالكسر ما يدخل في عظم أنف البعير من الخشب.

ما فرق اللّه شيئاً في خليقته | من الفضائل إلا عندك اجتمعا
أبا الحسين أنا حسان مدحك لا | أنفك أظهر في إنشائه البدعا

من قصيدة لأبي تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١ :

أخوه إذا عد الفخار وصهره | فلا مثله أخ ولا مثله صهر
وشد به أزر النبي محمد | كما شد موسى بهارونه الأزر
وما زال صباراً دياجير غمرة | يمزقها عن وجهه الفتح والنصر
هو السيف سيف اللّه في كل مشهد | وسيف الرسول لا ددان ولا دثر[1]
فأي يد للذم لم يبر زندها | ووجه ضلال ليس فيه له إثر
ثوى ولا هل الدين أمن بحده | وللواصمين الدين في حده ذعر
يسد به الثغر المخوف من الردى | ويعتاص[2] من أرض العدو به الثغر
بأحد وبدر حين ماج برجله | وفرسانه أحد وماج بهم بدر
ويوم حنين والنضير وخيبر | وبالخندق الثاوي بعقوته عمرو
سما للمنايا الحمر حتى تكشفت | وأسيافه حمر وأرماحه حمر
مشاهد كان اللّه كاشف كربها | وفارجه والأمر ملتبس إمر
ويوم الغدير استوضح الحق أهله | بفيحاء لا فيها حجاب ولا ستر
أقام رسول اللّه يدعوهم بها | ليقربهم عرف وينآهم نكر
فكان له جهر بإثبات حقه | وكان لهم في بزهم حقه جهر
لكم ذخركم أن النبي ورهطه | وجيليهم ذخري إذا التمس الذخر
جعلت هواي الفاطميين زلفة | إلى خالقي ما دمت أو دام لي عمر

استدراك

مما يستدرك على أخباره (ع) أيام خلافته ما ذكره المؤرخون ومنهم ابن خلكان إنه أصاب أهل الكوفة مجاعة وبها غالب أبو الفرزدق الشاعر فخرج أكثر

---

(١) الددان كسحاب من لا غناء عنده والسيف الكهام (الدثر) بالفتح الرجل البطيء الخامل النؤوم.
(٢) يعتاص: يقوى ويشتد.

الناس إلى البوادي وكان غالب ممن خرج وهو رئيس قومه، وخرج سحيم بن وثيل الرياحي وهو رئيس قومه، واجتمعوا بمكان يقال له: صوأر بوزن جعفر على مسيرة يوم من الكوفة فعقر غالب لأهله ناقة وصنع منها طعاماً وأهدى إلى قوم من بني تميم لهم جفاناً من ثريد ووجه إلى سحيم جفنة فكفأها وضرب الذي أتاه بها وقال: أنا مفتقر إلى طعام غالب؟ إذا نحر هو ناقة نحرت أنا أخرى، فوقعت المنافرة بينهما (وكان ينبغي لسحيم لو عقل أن يقبل الهدية والكرامة وينحر ويهدي لغالب كما أهدى له) وعقر سحيم لأهله ناقة، فعقر غالب من الغد ناقتين، فعقر سحيم ناقتين، فعقر غالب في اليوم الثالث ثلاثاً، فعقر سحيم ثلاثاً، فعقر غالب في اليوم الرابع مائة ناقة فلم يكن عند سحيم هذا القدر فلم يعقر شيئاً، فلما عاد الناس إلى الكوفة قال بنو رياح لسحيم: جررت علينا عار الدهر هلا نحرت مثلما نحر وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين، فاعتذر بغياب إبله وعقر ثلثمائة ناقة وقال للناس شأنكم بها، وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فاستفتي في حل الأكل منها فقضى بحرمتها وقال: هذه ذبحت لغير مأكلة ولم يكن المقصود منها إلا المفاخرة والمباهاة فألقيت لحومها على كناسة الكوفة فأكلتها الكلاب والعقبان والرخم «اهـ» هكذا وردت هذه الرواية والذي يلوح لي أنه (ع) نهى عن الأكل منها لا لأن لحمها كان بمنزلة الميتة بل لتقبيح هذا الفعل والمبالغة في النهي عن مثله قطعاً لمادة المفاخرة التي تجر إلى أسوأ العواقب فإن من ذبح للمباهاة والمفاخرة وسمى على الذبيحة لم تحرم، نعم هو بقصده ذلك مراء مأثوم.

ملتقى النفوس البشرية

في كل ناحية من نواحي النفوس البشرية ملتقى بسيرة علي بن أبي طالب.

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

في سيرة علي ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحداً بعد واحد شيوخاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذي لا يرحم، أو فتياناً عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء، وهم على حياض المنية جياع ظماء.

وفي سيرة علي بن أبي طالب ملتقى الخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية في الأجواء أو تغوص في الأغوار. فهو الشجاع الذي نزعت به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك في تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب.

وتلتقي سيرته بالفكر كما تلتقي بالخيال والعاطفة، لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية.

وللذوق الأدبي ـ أو الذوق الفني ـ ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة، لأنه كان أديباً بليغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشىء الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين.

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير وتذوق الحسن الجميل من التعبير.

فمن نواحيها الكثيرة التي لم تنقطع قط في زمن من الأزمان، هي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشئة أبداً على رأي من الآراء، أو حق من الحقوق أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذين لم يفتر قط، ولا نخاله يفتر في حين من الأحايين، خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإن ها هنا للمجال الرغيب القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخاص، وهو قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال:

«ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي» أو حين قال: «يهلك فيّ رجلان، محب مفرط بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني».

وصدق في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه، فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين: هنا الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه. ويستتيبهم فيصرون على ما هم فيه أي إصرار.

وهناك الخوارج يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب...

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع ميدان متسعه في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء يقول أناس: هو الله. ويقول أناس: كافر مطرود من رحمة الله.

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة علي في أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية التوق إلى التجديد والإصلاح.

فلقد أصبح اسم علي علماً يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف، وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المتنفس الذي يستروح إليه كل مكظوم... فمن نازع في رأي، ففي اسم علي شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم ففي اسم علي حافز لثورته ومرضاة

لغضبه، ومن واجه التاريخ الإسلامي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة، فهناك ملتقى بينه وبين علي في وجه من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ علي بين تواريخ غيره، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون.

صفاته

كان علي أول هاشمي من أبوين هاشميين. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المتقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمودة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام.

وربما صحّ من أوصاف علي في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة، فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين في شيخوخة الآباء.

ونشأ رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين.

وتدل أخباره ـ كما تدل صفاته ـ على قوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بِنَفَسِهِ فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلاّ صرعه، ولم يبارز أحداً إلاّ قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلاّ رجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة

الصيت، واجترأ وهو فتى ناشىء على عمرو بن عبد ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوَّم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه.

وقد ازدانت شجاعته بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء... فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها علي بغير كلفة ولا مجاهدة رأي. وهي التورع عن البغي، والمروءة مع الخصم ـ قوياً أو ضعيفاً على السواء ـ وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورّعه عن البغي، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحداً قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: «لا تَدْعُوَنَّ إلى مبارزة. فإن دعيت إليها فأجب. فإن الداعي إليها باغ والباغي مصروع».

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون».

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت، ووضح فيها عداء العدو أو غمض، يدعوهم إلى السلم وينهي رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلاً وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قوماً فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجباً إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب أتباعه فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب.

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن عبد ود: إني لا أكره أن أهريق دمك.. ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلاً بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين. فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنف، وقال: إذن تتحدث العرب بفراري، وناشده: يا عمرو. إنك كنت تعاهد قومك ألاً يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلاً أخذت منه إحداهما. قال: أجل. قال: فإني أدعوك إلى الإسلام

أو إلى القتال. قال: ولم يا ابن أخي؟... فوالله ما أحب أن أقتلك.. فلم يكن له بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو يقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد في العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلاَّ بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة: فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين: من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله كريز ووقف عليه ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى ثالثة: من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟ فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه، وخشي علي أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتمَّ ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم رجع إلى مكانه.

أما مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوي المروءة من شجاعته بين الشجعان، فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالاً. وظفر بعد معركة الجمل بعبد اللّه بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألدّ أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي. فلم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فانتهره وهو يقول: ويحك، إنَّا أمرنا أن نكف عن النساء وهنَّ مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟...

وإنه لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحف بها. قيل أنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم، وقلّدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة.

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه، ومن استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة ومن لم تكن له قط حرمة، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال.

وتعدلها في النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرّهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وأصحابه أن يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره، ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شراً عليه من معاوية وجنده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين.

وتقترن بالشجاعة ـ ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم ـ صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنضح للماء، أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلاّ كانت معها تلك الصفة التي نشير إليها، وهي صفة «الثقة» أو الاعتزاز، أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما في مواقف النزال.

وقد يسميها بعض الناس زهواً وليست هي به ولا هي من معدنه وسمته، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان.

أما هذا الاعتزاز الذي نشير إليه، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة

الاعتزاز فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغني عنه ولا يزال متصلاً بعمله في مواجهة خصومه، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه. . مثله هنا كمثل العروض الذي تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها، وليس كل ما فيها ضرباً من الخيلاء يرضي به الشجاع غروره ويتيه به في غير حاجة إلى التيه.

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمان وتحدثوا به وتناقلوه، فسمحوا للفارس ـ بل لعلهم أوجبوا عليه ـ أن يروغ من خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله. وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار في ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بغزواته، وعلموا أنهم ـ وقد احتاجوا إلى شجاعته ـ محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب في جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة، وهي أحب القصائد إلى القلوب.

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهاً لوجه، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه، وكانت هذه الصفة من صفات علي يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدراً بفضله، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء.

مرَّ الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنم، فرأى رسول الله علياً على مقربة منه فضحك له رسول الله. فقال الزبير: لا يترك علي زهوه. فقال النبي: **«إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم»**.

فليس هو بالزهو المكروه، ولكنها الشجاعة التي يمتلىء بها الشجاع والثقة التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس أنه محتاج إلى مداراتها، ولأنه هو لا يقصدها ولا يعتمد إبداءها.

وقد كان مدار هذا الخلق في علي ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج.

وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن لها المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القوم القرشيون بالنبي عليه الصلاة والسلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينيه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان لعليٍّ أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام هزيمة لارتاع يومئذٍ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان علياً في تلك السن الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين.. فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب أنا نصيرك. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوى من حرب أولئك القوم.

علي هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعلي هذا هو الذي تصدى لعمرو بن عبد ود مرة بعد مرة والنبي يجلسه ويحذره العاقبة التي حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبي: اجلس، إنه عمرو. فيقول: وإذا كان عمراً؟! كأنه لا يعرف أن يخاف ولا يعرف كيف يخاف ولا يعرف إلاَّ الشجاعة التي هو ممتلىء بها واثق فيها غي غير كلفة ولا اكتراث.

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كما أسلفنا جزءِ منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول: «اسألوني قبل أن تفقدوني».

ومن شواهدها أنه كان يقول والخارجون عليه يرمونه بالمروق: «ما أعرف

أحداً من هذه الأمة عبد اللّه بعد نبينا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين».

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه، وأبدى هذه الخليقة منه أنه كان لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف. بل كان يقول: «شر الأخوان من تكلف له» ويقول: «إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه» فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاء يخطئون ما انتظروه، ولا سيما إذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التي اؤتمن عليها، فيحسبون أنها الجفوة البينة وأنه الزهو المقصود، وما هو بهذا ولا بتلك، إنما هي شجاعة الفارس بلوازمها التي لا تنفصل منها، وإنما هو امتعاض المغموط المسيء ظناً بمن حوله يتراءى على سجيته في غير مداراة ولا رياء. فما كان يتكلف إظهار تلك الخلائق زهواً كان يسمونه أو جفوة كما يحسبونها، بل كان قصاراه ألاَّ يتكلف الإخفاء.

نعم كان ملاك الأمر في أخلاق علي، أنه كان لا يتكلف إظهار شيء، ولا يتكلف إخفاء شيء، ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل في الثناء عليه وهو متهم عنده حتى يعلن له طويته ويقول له: «إنَّا دون ما تقول وفوق ما في نفسك».

وكانت قلَّة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعني ما يصنع وهو لا يعنيه وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها: كان مثلاً يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأس ومبارزوه مقنعون بالحديد. أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟ وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يحرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساتراً ما ستر، أو كاشفاً ما كشف من رأي وخليقة.

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها

ورسوخها. وهي قريبة للشجاعة في نفس الفارس وقلَّما تفارقها. ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترىء الرجل به على الضر والبلاء كما يجترىء به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحد قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعلَّه كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة. واعنتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، وكان أبداً عند قوله: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك».

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه في لذة الدنيا أو سيب الدولة، وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أموية تبغض علياً وتخلق له السيئات وتخفي ما توافر له من الحسنات: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب». وقال سفيان: «إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة». وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصائص التي يسكنها الفقراء. وعلى هذا الزهد كان علي أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال له: «لله أبوك لولا دعابة فيك»، وأنه قال لمن سألوه في الاستخلاف: «وإن وُلِّي علي ففيه دعابة».

وأغرق عمرو بن العاص في وصف الدعابة فسماها «دعابة شديدة» وطفق يرددها بين أهل الشام ليقدح بها في صلاح علي للخلافة، وإنما نقول أن عمرو بن العاص أغرق في هذا الوصف، وأن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفات علي لأن تاريخ علي وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلاً على خلق الدعابة فضلاً عن الدليل على الإفراط فيه. فإن كان لهذا الوصف أثر فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل الشاغل سنين

عدة، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقوَّلوه.

وقد كانت لعلي صفات ومزايا فكرية تناصي المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية، فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته واتفقوا على علمه وفطنته، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهائه في سياسة الرجال.

والحق الذي لا مراء فيه أن علياً كان صاحب الفطنة النافذة، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء، وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها في عظاته وخطبه شرح الأريب اللبيب.

إلى هنا متفق عليه لا يكثر في الخلاف، ثم يفترق الناس في رأيه رأيين، فيقول أناس أنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضي به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه في الفطنة والسداد. وهو قد اعتذر لنفسه بما شابه من هذا العذر حين قال: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس».

ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين لا نحسبهما تتسعان لجدال طويل، وهما أن أحداً لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع في فض المشكلات من العمل برأي علي، وإن أحداً لم يثبت قط أن خصوم علي كانوا يصرفون الأمور خيراً من تصريفه، لو وضعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التي اصطلحت عليه.

هذه صفات تنتظم في نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوي. وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه

مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلاّ الذي اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.

مفتاح شخصيته

«آداب الفروسية» هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفضي منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير.

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة «النخوة»...

وقد كانت النخوة طبعاً في علي فطر عليه، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات الفروسية العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ في حجرها. لأن الغلبة في الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى ما يخجله ويشينه ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلماً، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزري به في العلانية.

وهكذا كان علي في جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء. فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط في الشرف والحق أنهما قائمان كأنهما مودعان في طبائع الأشياء. فإذا صنع ما وجب عليه، فلينس من شاء ما وجب عليهم، وإن أفادوا كثيراً وباء هو بالخسارة.

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص.

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة

ـ أي مورد الماء ـ فهي في أيديهم، وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء. ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: ائت معاوية وقل له إنَّا سرنا مسيرنا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلتم بين الناس وبين الماء. والناس غير منتهين أو يشربوا، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا، ثم ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له».

ثم قال راوي الخبر ما معناه أن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علي وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم، ولا بدعوته إلى المفاوضة في أمر الخلاف، فأنفذ معاوية مدداً إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح وضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء وملكوه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه قبل ساعة... وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسقيهم. فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وصاح بهم: «خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عزَّ وجلَّ قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي وهو في رأيهم حلال. وقالوا: أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال: «إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر».

وسنَّ لهم سنَّة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألاَّ يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا ستراً ولا يمدوا يداً إلى مال.

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء، فصدف بوجهه عنه آنفاً أن يصرع رجلاً يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازله في مجال صراع. ولو غير علي أُتيح له أن يقضي على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به.

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها، فكان يعرف العدو عدواً حيثما رفع السيف لقتاله.. ولكنه لا يعادي امرأة ولا رجلاً مولياً ولا جريحاً عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهبت حياته ولو ذهبت في سبيل حربه. بل لعله يذكر ماضيه يومئذٍ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلي عليه.

وهذه الفروسية هي التي بغضت إليه أن ينال أعداءه بالسباب وليس من أدب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

فلما سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: «إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب إلى القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، واصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لجَّ به».

إسلامه

ولد على في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها.

وكاد علي أن يولد مسلماً...

بل لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام، ولم يعرف قط عبادة الأصنام، فهو قد تربى في

البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة. فكان ابن عم محمد وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم بعطفه وبره. . . وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم وذويهم. فلا جرم أن يحبه هذا الحب من يجمعه به جد، ويجمعه به بيت، ويجمعه به جميل ومعروف: جميل أبي طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوي إليه. .

وملأ الدين قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى بقاياه. . فبحق ما يقال إن علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه.

كان المسلم حق المسلم في عبادته، وفي عمله وعلمه، وفي قلبه وعقله، حتى ليصح أن يقال أنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلاّ ما يزيده التعليم على الطباع.

كان عابداً يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمراً مكتوباً عليه.

وكان على محجة في الإسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية. وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس.

وكان دينه له ولعدو دينه، فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه. .

وجد درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح ـ قاضيه ـ يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟. . . قال النصراني: ما الدرع إلاّ درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟. . . فضحك علي وقال: أصاب شريح. ما لي

بينة. فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه.. إلاً أن النصراني لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضي عليه. أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذا أسلمت فهي لك. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء في قتال الخوارج يوم النهروان..

وأحسن الإسلام علماً وفقهاً كما أحسنه عبادة وعملاً. فكانت فتاواه مرجعاً للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعثمان وعمر. وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأي فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء.

إلاً أن المزية التي امتاز بها علي بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإذا عرف في عصره أناس تفقهوا في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز علي بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة، وأمعن فيه ليغوص في أعماقه على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام.

سياسته

تسري في صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها من فم إلى فم، ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية مسلمة، مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال. ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلتها الألسنة فعزَّ عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال.

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم أن علياً بن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة.

وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه، فكان من الطبيعي أن يقال أنه مني بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحاب الدهاء والخدع الناجحة في الحرب أو السياسة.

وقد يكون كذلك أو لا يكون، فسنرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أي هذين القولين أدنى إلى الصواب.

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه، في عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه: أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك: هبه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة؟.. وهل من المحقق أنه كان يفضي بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها؟..

لم نعرف أحداً من ناقديه، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك... إن السؤال عن هذا أو ذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأي مخالفيه، سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة..

والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي الذي سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل وربما كان الأمل في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع في موضع العمل والإنجاز وخرج من حيز النصح والمشورة.

وهذه هي المسائل التي خالفه فيها الدهاة، أو خالفه فيها نقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطىء، ولم ينظروا إليها نظرة الربّان في غمرة العواصف والأمواج.

فالمآخذ التي هي من هذا القبيل، يمكن أن تنحصر في المسائل التالية وهي:

١ ـ عزل معاوية.

٢ ـ معاملة طلحة والزبير.

٣ ـ عزل قيس بن سعد من ولاية مصر.

٤ ـ تسليم قتلة عثمان.

٥ ـ قبول التحكيم.

وهي كلها قابلة على الأقل للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين، فإن لم يكن خلاف وكان جزم قاطع.. فهو على ما نعتقد أقرب إلى رأي علي وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه.

قيل في مسألة معاوية أن علياً خالف فيها رأيَ المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمي وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير.

تلك آراء المشيرين من ذوي الحنكة، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه، فأيهما على خطأ وأيهما على صواب؟.

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولاً: هل كان الإمام مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله بالشام؟.

أن نعلم بعد هذا: هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطاع؟.

وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله لسببين: أولهما: أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان.

فإذا أقرَّه وقد ولي الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياعه؟ ألا

يقولون إنه طالب حكم لا يعينه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله للناس؟ .

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل في وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد؟ . .

فكيف تراهم يهدأون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها، وإن الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه؟ .

وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع. . فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟ .

كلا على الأرجح، بل على الرجحان الذي هو في حكم التحقيق. لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته، ويقنع بهذا المنصب ثم لا يتطاول إلى ما وراءه. لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده. . فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعدَّ للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة في حينها، فأي فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها، وإلاَّ ضاع منه الملك وتعرض يوماً من الأيام لضياع الولاية. وما كان مثل معاوية بالذي يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد. . فماذا تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلي وتبرئته إياه من دم عثمان؟ .

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل التأخير.

وإذا كان هذا موقف علي ومعاوية عند مقتل عثمان، فماذا كان علي مستفيداً من إقراره في عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره.

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من علي، لأنه كان يغنم به حسن

الشهادة له وتزكية عمله في الولاية، وكان يغنم أن يفسد الأمر على علي بين أنصاره، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة علي.

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه أن صواب علي في مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه.. فإن لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح فأقل ما يقال أن الصواب عنده وعندهم سواء.

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية، لأن الرأي الذي عمل به علي معروف، والآراء التي تخالفه لا تعدو واحداً من ثلاثة، كلها أغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضماناً من رأيه الذي ارتضاه.

فالرأي الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأنكره الإمام لأن البصرة والكوفة بهما الرجال والأموال، ومتى تملّكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ثم ينقلبان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما في الولاية تزكية يلزمانه بها الحجة، ويثيران بها أنصاره عليه.

والرأي الثاني أن يوقع بهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل، وهو لا ينجح في الوقيعة بينهما إلاّ بإعطاء أحدهماوحرمان الآخر، فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية، أو يبقى في المدينة على ضغينة مستورة.

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة إلى البصرة، فوقع الخلاف في عسكرهما على من يصلي بالناس، ولولا سعي السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متناقضين.

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين، فانهزما بعد أيام قليلة وخرج علي من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة.

والرأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنّا الغارة عليه..

والواقع أن علياً قد استراب بما نوياه حين سألاه الإِذن بالسفر إلى مكة.. فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة».

ولكنه لم يحبسهما، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم، وقد تركه عبد اللّه بن عمر ولم يستأذنه في السفر، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا، ولو أراد حبسهم جميعاً لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم. وما أكثر المتحرجين في عسكر الإمام علي من حبس الأبرياء بغير برهان؟. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره في عدله وحسن مجاملته معهم. وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء.

لم يكن الجيش الذي خرج من مكة إلى البصرة بيائس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت «العثمانية» في مكة حزباً موفور العدد والمال.. فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التي سلكها علي وخرج منها غالباً على الحجاز والعراق، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقي معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التي قدمناها.

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر مع أن قيساً بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها، وكان كفؤاً لمعاوية وعمرو بن العاص في

الدهاء والمداورة، فعزله علي لأنه شك فيه، وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام، وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين في السر بأمره.

وكان أصحاب علي يحرضونه على عزله، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه. فعزله وهو غير واثق من التهمة ولكنه كذلك غير واثق من البراءة.

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة، فإن قيساً بن سعد لم يدخل مصر إلاَّ بعد أن مرَّ بجماعة من حزب معاوية، فأجازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة رجال لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة علي في الحجاز.

ولما بايع المصريون علياً على يديه، بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون، وقالوا له: «أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية.

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على علي، فكتب إليه قيس كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة الفصل بين الخصمين إذ كان ختام كتابه إلى معاوية: «أما متابعتك فأنظر فيها، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه، حتى نرى وترى».

وأراد علي أن يستيقن من الخصومة بين معاوية وقيس، فأمر قيساً أن يحارب المتخلفين عن البيعة.. فلم يفعل وكتب إليه: «متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأي تركهم».

فتعاظم شك علي وأصحابه، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى المدينة.. فعزله واستقدمه، وتبيَّن بعد ذلك أنه أشار بالرأي والصواب، وإن ترك المتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من التعجيل بحربهم، لأنهم هزموا محمداً بن أبي بكر والي مصر الجديد، وجرؤوا عليه من كان يصانعه ويواليه.

ولكننا نبالغ على كل حال، إذا علقنا على هذا التصرف الجرائر التي أصابت علياً من بعدها.

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقريب قيس من جوار علي، وقال: «لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علي من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه في عامة أموره ولا ينحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها.

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين علي وخصومه، فإذا هي أقصرها جدلاً مع براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة في الحقيقة.

فقد طالبوه بالعقوبة ولم يبايعوه، مع أن العقوبة لا تكون إلاَّ من ولي الأمر المعترف له بإقامة الحدود.

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة، ومن هم الذين يؤخذ بدم عثمان منهم من القبائل أو الأفراد.

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطاع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، وأعفوا أنفسهم منه ـ وهم ولاة الدم كما يقولون ـ يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة إلى جميع الأمصار.

وقد تحدث علي مرة في أمر العقوبة من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قتلة عثمان» فمن شاء العقوبة فليطبقها عليهم جميعاً.

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا.. يؤيدون ولي الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف..

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم، فيخيل إلينا من عجلتهم إلى اللوم أنهم

كانوا أول من يلومه ويفرط في لومه لو أنه رفض التحكيم وأصرَّ على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال في عسكرهم خلافاً بين من يقبلونه ويرفضونه.

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفاً وثمانين فزعة للقتال لشكهم في وجوب القتال وذهاب البعض إلى تحريمه.

وبعد أن توعدوه بقتله كقتل عثمان، وأحاطوا به يلحون عليه في استدعاء الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً في ساحة الحرب على أمل النصر القريب.

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطأوه في قبول أبي موسى الأشعري، على علمه بضعفه وتردده، ينسون أن أبا موسى كان مفروضاً عليه، كما فرض عليه التحكيم في لحظة واحدة وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس.. فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً في الخلافة، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه.. وإن توهم بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحويل ابن العاص عن رأيه، والجنوح به إلى حزب علي، بعد مساومته التي ساومها في حزب معاوية.. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه.

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذي أذعن له علي على كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن به وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه.

علي بعد وفاة الرسول ﷺ

حينما توفي رسول الله ﷺ خلَّف أمة ومجتمعاً ودولة.

وأقصد بالأمة المجموعة من المسلمين الذين كانوا يؤمنون برسالته ويعتقدون بنبوته، وأقصد بالمجتمع تلك المجموعة من الناس التي كانت تمارس حياتها على أساس تلك الرسالة وتنشىء علاقاتها على أساس التنظيم المقرر لهذه الرسالة، وأقصد بالدولة القيادة التي كانت تتولى تزعُّم التجربة في ذلك المجتمع، والاشتغال على تطبيق الإسلام وحمايته مما يهدده من أخطار وانحراف.

هذه الأمة، بحكم أن الانحراف قصَّر عمر التجربة، وبحكم أن الانحراف زوَّر معالم الإسلام، بحكم هذين السببين الكمي والكيفي، الأمة غير مستوعبة، الأمة تتحصَّن بالطاقات التي تمنعها وتحفظها عن الانهيار أمام الكافرين وأمام ثقافات الكافرين، فتتنازل بالتدريج، عن عقيدتها عن آدابها، عن أهدافها وعن أحكامها.

في مقابل هذا المنطق وقف الأئمة (ع) على خطين:

الخط الأول: هو خط محاولة تسلم زمام التجربة، زمام الدولة، محو آثار الانحراف، إرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لأجل أن تكتمل العناصر الثلاثة: الأمة والمجتمع والدولة.

الخط الثاني: الذي عمل عليه الأئمة(ع)، هو خط تحصين الأمة ضد الانهيار، بعد سقوط التجربة وإعطائها من المقومات، القدر الكافي، لكي تبقى وتقف على قدميها، وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة، بقدم راسخة وبروح مجاهدة، وبإيمان ثابت.

والآن، نريد أن نتبين هذين الخطين في حياة أمير المؤمنين(ع)، مع استلال العبر في المشي على هذين الخطين.

على الخط الأول، خط محاول تصحيح الانحراف وإرجاع الوضع الاجتماعي والدولي في الأمة الإسلامية إلى خطه الطبيعي، في هذا الخط، عمل (ع) حتى قيل عن علي (ع) أنه أشد الناس رغبة في الحكم والولاية، اتهمه معاوية بن أبي سفيان، بأنه طالب جاه، وأنه طالب سلطان. اتهمه بالحقد على أبي بكر وعمر، اتهمه بكل ما يمكن أن يتهم الشخص المطالب بالجاه وبالسلطان وبالزعامة.

أمير المؤمنين (ع) عمل على هذا الخط خط تسلم زمام الحكم، وتفتيت هذا الانحراف، وكسب الزعامة ـ زعامة التجربة الإسلامية ـ إلى شخصه الكريم، بدأ هذا العمل عقيب وفاة رسول الله ﷺ مباشرة، حيث حاول إيجاد تعبئة وتوعية فكرية عامة في صفوف المؤمنين.

لم يكن يفهم من علي (ع) إلاَّ أن له حقاً شخصياً يطالب به، وهو مقصر في مطالبته، إلاَّ أن المسألة لم تقف عند هذا الحد، فضاقت القصة على أمير المؤمنين (ع) من هذه الناحية، ومع أننا نجد في مراحل متأخرة من حياة أمير المؤمنين (ع) المظاهر الأخرى لعمله على هذا الخط، لمحاولة تسلمه أو سعيه في سبيل تسلم زعامة التجربة الإسلامية وتفادي الانحراف الذي وقع، إلاَّ أنَّ الشيء الذي هو في غاية الوضوح من حياة أمير المؤمنين (ع)، أنه (ع) في عمله في سبيل تزعم التجربة، وفي سبيل محاربة الانحراف القائم ومواجهته بالقول الحق وبالعمل الحق، وبشرعية حقه في هذا المجال، كان يواجه مشكلة كبيرة جداً، وقد استطاع أن ينتصر على هذه المشكلة انتصاراً كبيراً جداً أيضاً.

هذه المشكلة التي كان يواجهها هي مشكلة الوجه الظاهري لهذا العمل، والوجه الواقعي لهذا العمل.

قد يتبادر إلى ذهن الإنسان العادي لأول مرة إن العمل في سبيل معارضة زعامة العصر، والعمل في سبيل كسب هذه الزعامة، أنه عمل في إطار فكري، أنه عمل يعبّر عن شعور هذا العامل بوجوده، وفي مصالحه، وفي مكاسبه،

وبأبعاد شخصيته، هذا هو التفسير التلقائي الذي يتبادر إلى الأذهان، من عمل يتمثل فيه الإصرار على معارضيه في زعامة العصر على كسب هذه الزعامة، وقد حاول معاوية كما أشرنا أن يستغل هذه البداهة التقليدية في مثل هذا الموقف من أمير المؤمنين (ع).

إلاً أن الوجه الواقعي لهذا العمل من قبل الإمام (ع) لم يكن هذا، الوجه الواقعي هو أن علياً كان يمثل الرسالة وكان هو الأمين الأول من قبل رسول الله ﷺ على التجربة على استقامتها وصلابتها، وعدم تميعها على الخط الطويل، الذي سوف يعيشه الإسلام والمسلمون بعد النبي ﷺ. فالعمل كان بروح الرسالة ولم يكن بروحه هو، كان عملاً بروح تلك الأهداف الكبيرة، ولم يكن عملاً بروح المصلحة الشخصية، لم يكن يريد أن يبني زعامة لنفسه، وإنما كان يريد أن يبني زعامة الإسلام وقيادة الإسلام في المجتمع الإسلامي، وبالتالي في مجموع البشرية على وجه الأرض.

هذان وجهان مختلفان، قد يتعارضان في العامل نفسه، وقد يتعارضان في نفس الأشخاص الآخرين، الذين يريدون أن يفسروا عمل هذا العامل.

هذا العامل قد يتراءى له في لحظة أنه يريد أن يبني زعامة الإسلام لا زعامة نفسه، إلاً أنه خلال العمل، إذا لم يكن مزوداً بوعي كامل. إذا لم يكن مزوداً بإرادة قوية، إذا لم يكن قد استحضر في كل لحظاته وآنات حياته، إنه يعَيش هذه الرسالة ولا يعيش نفسه، إذا لم يكن هكذا، فسوف يحصل في نفسه ـ ولو لا شعورياً ـ انفصام بين الوجه الظاهري للعمل وبين الوجه الحقيقي للعمل، وبمثل هذا الانفصام سوف تضيع أمامه كل الأهداف أو جزء كبير من تلك الرسالة. سوف ينسى أنه لا يعمل لنفسه، بل هو يعمل لتلك الرسالة. سوف ينسى أنه ملك غيره وأنه ليس ملكاً لنفسه. كل شخص يحمل هذه الأهداف الكبيرة، يواجه خطر الضياع في نفسه، وخطر أن تنتصر أنانيته على هذه الأهداف الكبيرة، فيسقط في أثناء الخط. يسقط في وسط الطريق. وهذا ما

كان علي (ع) معه على طرفي نقيض. علي (ع) كان يصرّ دائماً على أن يكون زعيماً، يصرّ دائماً على أن يكون هو الأحق بالزعامة. علي الذي يتألم. الذي يتحسّر أنه لم يصبح زعيماً بعد محمد ﷺ. الذي يقول: (لقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى). في غمرة هذا الألم، في غمرة هذه الحساسية، يجب أن لا ننسى أن هذا الألم ليس لنفسه، إن هذه الحساسية ليست لنفسه، إن كل هذا العمل وكل هذا الجهد، ليس لأجل نفسه، بل من أجل الإسلام. وكذلك كان يربي أصحابه على أنهم أصحاب تلك الأهداف الكبيرة، لا أصحاب زعامته وشخصه، وقد انتصر علي (ع) انتصاراً عظيماً في كلتا الناحيتين.

انتصر علي على نفسه، وانتصر في إعطاء عمله إطاره الرسالي وطابعه العقائدي انتصاراً كبيراً.

علي ربى أصحابه على أنهم أصحاب الأهداف لا أصحاب نفسه، كان يدعو إلى أن الإنسان يجب أن يكون صاحب الحق، قبل أن يكون صاحب شخص بعينه. علي هو الذي قال: «اعرف الحق تعرف أهله» كان يربي أصحابه، يربي عمّاراً وأبا ذرّ والمقداد: على أنكم اعرفوا الحق.. ثم احكموا على علي في إطار الحق. وهذا غاية ما يمكن أن يقدمه الزعيم من إخلاص في سبيل أهدافه. أن يؤكد دائماً لأصحابه وأعوانه ـ وهذا مما يجب على كل المخلصين ـ أن المقياس هو الحق وليس الشخص. إن المقياس هو الأهداف وليس الفرد.

هل يوجد هناك شخص أعظم من علي بن أبي طالب. لا يوجد هناك شخص أعظم من علي إلاّ أُستاذه، لكن مع هذا جعل المقياس هو الحق لا نفسه.

لما جاءه ذلك الشخص وسأله عن الحق في حرب الجمل هل هو مع هذا الجيش أو مع ذلك الجيش، كان يعيش في حالة تردد بين عائشة وعلي، يريد أن

يوازن بين عائشة وعلي، أيهما أفضل حتى يحكم بأنه هو مع الحق أو عائشة. جهودها للإسلام أفضل أو جهود علي أفضل، قال له: اعرف الحق تعرف أهله.

علي كان دائماً مصرّاً على أن يعطي العمل الشخصي طابعه الرسالي، لا طابع المكاسب الشخصية بالنسبة إليه، وهذا هو الذي يفسّر لنا كيف أن علياً (ع)، بعد أن فشل في تعبئته الفكرية عقيب وفاة رسول الله ﷺ، لم يعارض أبا بكر وعمر معارضة واضحة سافرة طيلة حياة أبي بكر وعمر، وذلك أن أول موقف اعتزل فيه علي المعارضة بعد تلك التعبئة الفكرية وإعطائها شكلاً واضحاً صريحاً كان عقيب وفاة عمر، يوم الشورى حينما خالف أبا بكر وعمر، هذا عندما حاول عبد الرحمن بن عوف ـ حينما اقترح عليه المبايعة ـ أن يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين، قال علي (ع): بل على كتاب الله وسنة نبيه واجتهادي. هنا فقط أعلن عن معارضة عمر. في حياة أبي بكر وعمر بعد تلك التعبئة، لم يبد موقفاً إيجابياً واضحاً في معارضتهما، والوجه في هذا، هو أن علياً (ع) كان يريد أن تكون المعارضة في إطارها الرسالي، وأن ينعكس هذا الإطار على المسلمين، أن يفهموا أن المعارضة ليست لنفسه، وإنما هي للرسالة، وحيث إن الانحراف لم يكن قد تعمق بعد، والمسلمون القصيرو النظر، الذين قدموا غيره عليه، هؤلاء المسلمون القصيرو النظر لم يكونوا يستطيعون أن يعمقوا النظر إلى هذه الجذور التي نشأت، فكان معنى مواصلة المعارضة بشكل جديد أن يفسر من أكثر المسلمين، بأنه عمل شخصي، وأنها منافسة شخصية.

علي بن أبي طالب (ع) بعد أن تمَّ الأمر لعثمان، بعد أن بويع عثمان يوم الشورى، قال: إني سوف أسكت ما سلمت مصالح المسلمين وأمور المسلمين، وما دام الغبن عليَّ وحدي، وما دمت أنا المظلوم وحدي، وما دام حقي هو الضائع وحده. أنا سوف أسكت، سوف أبايع، سوف أُطيع عثمان، هذا هو الشعار الذي أعطاه بصراحة مع أبي بكر وعمر وعثمان، وبهذا الشعار أصبح في عمله رسالياً، وانعكست هذه الرسالة على عهد أمير المؤمنين،

وبقي (ع) ملتزماً بما تعهّد به من السكوت إلى أن بدأ الانحراف في حياة عثمان بشكل مفضوح، ولهذا أسفر علي (ع) عن المعارضة وواجه عثمان بما سوف نتحدث عنه بعد ذلك.

فعلي (ع) في محاولته لتسلم زمام التجربة وزعامة القضية الإسلامية، كان يريد أن يوفق بين هذا الوجه الظاهري للعمل، وبين الوجه الواقعي للعمل، واستطاع أن يوفق بينهما توفيقاً كاملاً، استطاع هذا في توقيت العمل، واستطاع هذا في تربيته لأصحابه، على أنهم أصحاب الأهداف لا أصحاب الأشخاص، واستطاع في كل هذه الشعارات التي طرحها، أن يثبت أنه بالرغم من كونه في قمة الرغبة لأن يصبح حاكماً، لم يكن مستعداً أبداً لأن يصبح حاكماً مع اختيار أي شرط من الشروط المطلوبة التي تنال من تلك الرسالة.

علي بن أبي طالب (ع)، بالرغم من أنه كان في أشد ما يكون سعياً وراء الحكم، جاءه المسلمون بعد أن قتل عثمان، عرضوا عليه أن يكون حاكماً، قال لهم: بايعوا غيري وأنا أكون كأحدكم، بل أكون أطوعكم لهذا الحاكم، الذي تبايعونه، ما سلمت أمور المسلمين في عدله وعمله. يقول ذلك، لأن الحقد الذي تواجهه الأمة الإسلامية كبير جداً، تتمادى بذرة الانحراف، الذي عاشه المسلمون بعد النبي ﷺ إلى أن قتل عثمان، هذا الانحراف الذي تعمق، الذي ارتفع، هذا الانحراف الذي طغى والذي استكبر، الذي خلق تناقضات في الأمة الإسلامية، هذا عبء كبير جداً.

ماذا يريد أن يقول، يريد أن يقول: لأني أنا لا أقبل شيئاً إلاّ على أن تصفّوا الانحراف، أنا لا أقبل الحكم الذي لا يصفّي هذا الانحراف لا الحكم الذي يصفّيه، هذه الإحجامات عن قبول الحكم في مثل هذه اللحظات كانت تؤكد الطابع الرسالي، بحرقته، بلوعته، لألمه، لرغبته أن يكون حاكماً، استطاع أن ينتصر على نفسه، ويعيش دائماً لأهدافه، واستطاع أن يربي أصحابه أيضاً على هذا المنوال.

هذا هو الخط الأول وهو خط محاولة تسلمه لزمام التجربة الإسلامية.

وأما على الخط الثاني:

وهو خط تحصين الأمة، لقد كانت الأمة تواجه خطراً، وحاصل هذا الخطر هو أن العامل الكمي والعامل الكيفي، سوف يجعلان هذه الأمة لا تعيش الإسلام، إلاّ زمناً قصيراً.

بحكم العامل الكمي الذي سوف يسرع، في إفناء التجربة، ولن تعيش إلاّ مشوهة بحكم العامل الكيفي، الذي يتحكم في هذه التجربة، ولذا بدأ الإمام بتحصين الأمة، وبالتغلب على العاملين: العامل الكمي والعامل الكيفي.

أما التغلب على العامل الكمي فكان في محاولة تحطيم التجربة المنحرفة وتحجيمها وإفساح المجال للتجربة الإسلامية لتثبت جدارتها وذلك بأسلوبين:

الأسلوب الأول: هو التدخل الإيجابي الموجه في حياة هذه التجربة بلحاظ قيادتها.

القادة والزعماء الذين كانوا يتولون هذه التجربة، كانوا يواجهون قضايا كثيرة لا يحسنون مواجهتها، كانت تواجههم مشاكل كثيرة لا يحسنون حلّها، ولو حاولوا لوقعوا في أشد الأضرار والأخطار، لأوقعوا المسلمين في أشد التناقضات، ولأصبحت النتيجة محتومة أكثر، ولأصبحت التجربة أقرب إلى الموت، وأقرب إلى الفناء وأسرع إلى الهلاك. هنا كان يتدخل الإمام (ع)، وهذا خط عام سار الأئمة (ع) كلهم عليه، فكان الإمام (ع) يتدخل تدخلاً إيجابياً، موجهاً في سبيل أنْ ينقذ التجربة من المزيد من الضياع ومن المزيد من الانحراف، ومن المزيد من السير في الضلال.

كلنا نعلم، بأن المشاكل العقائدية التي كانت تواجهه (ع) والزعامة السياسية بعد النبي ﷺ. هذه المشاكل العقائدية التي كان يثيرها، وتثيرها القضايا

الأخرى التي بدأت تندرج في الأمة الإسلامية، والأديان الأخرى، التي بدأت تعاشر المسلمين، هذه المشاكل العقائدية لم تكن الزعامات السياسية وقتئذٍ على مستوى حلها، كان الإمام (ع) يعين تلك الزعامات في التغلب على تلك المشاكل العقائدية.

كلنا نعلم بأن الدولة الإسلامية واجهت في عهد عمر خطراً من أعظم الأخطار، خطر إقامة إقطاع لا نظير له في المجتمع الإسلامي، كان من المفروض أن يسرع في دمار الأمة الإسلامية، وذلك حينما وقع البحث بين المسلمين بعد فتح العراق، في أنه هل توزع أراضي العراق على المجاهدين المقاتلين، أو أنها تبقى ملكاً عاماً للمسلمين، وكان هناك اتجاه كبير بينهم إلى أن توزع الأراضي على المجاهدين الذين ذهبوا إلى العراق وفتحوا العراق، وكان معنى هذا أن يعطى جميع العالم الإسلامي، أي يعطى العراق، وسوريا، وإيران ومصر وجميع العالم الإسلامي الذي أسلم بالفتح، سوف يوزع بين هؤلاء المسلمين المجاهدين، سوف تستقطع أراضي العالم الإسلامي لهؤلاء، وبالتالي يتشكل إقطاع لا نظير له في التاريخ.

هذا الخطر الذي كان يهدد الدولة الإسلامية، وبقي عمر لأجل ذلك أياماً متحيراً لأنه لا يعرف ماذا يصنع، لا يعرف ما هو الأصلح، وكيف يمكن أن يعالج هذه المشكلة.

علي بن أبي طالب (ع) هو الذي تدخل وحسم الخلاف، وبيَّن وجهة النظر الإسلامية في الموضوع، وأخذ عمر بنظر الإمام أمير المؤمنين (ع) وأنقذ بذلك الإسلام من الدمار الكبير.

وكذلك له تدخلات كبيرة وكثيرة، النفير العام الذي اقترح على عمر والذي كان يهدد العاصمة في غزو سافر، كان من الممكن أن يقضي على الدولة الإسلامية، هذا الاقتراح طرح على عمر، كاد عمر أن يأخذ به. جاء علي (ع)

إلى المسجد مسرعاً على ما أتذكر في بعض الروايات التي تقول: جاء مسرعاً إلى عمر، قال له: لا تنفر نفيراً عاماً، كان عمر يريد أن يخرج مع تمام المسلمين الموجودين آنذاك في المدينة، وعندها تفرغ عاصمة الإسلام ممن يحميها من غزو المشركين والكافرين، منعه من النفير العام.

وهكذا كان علي (ع) يتدخل تدخلاً إيجابياً موجهاً في سبيل أن يقاوم المزيد من الانحراف، والمزيد من الضياع، كي يطيل عمر التجربة الإسلامية ويقاوم عامل الكم الذي ذكرناه.

هذا أحد أسلوبي مقاومة العامل الكمي.

الأسلوب الثاني: لمقاومة العامل الكمي كان هو المعارضة.

يعني كان تهديد الحكام ومنعهم من المزيد من الانحراف، لا عن سبيل التوجيه، وإنما عن سبيل المعارضة والتهديد.

في الأول كنا نفرض أن الحاكم فارغ دينياً، وكان يحتاج إلى توجيه، والإمام (ع) كان يأتي ويوجه. أما الأسلوب الثاني، فيكون الحاكم فيه منحرفاً ولا يقبل التوجيه، إذن فيحتاج إلى معارضة، يحتاج إلى حملة ضد الحاكم هذا، لأجل إيقافه عند حده، ولأجل منعه من المزيد من الانحراف.

وكانت هذه هي السياسة العامة للأئمة (ع).

لقد قاد المعارضة لعثمان، واستقطب آمال المسلمين ومشاعر المسلمين، واتجاهات المسلمين، نحو حكم صحيح، ولهذا كان هو المرشح الأساسي بعد أن فشل عثمان، واجتمع عليه المسلمون.

الإمام علي (ع) كان يتصدى للمعارضة لأجل أن يوقف الانحراف.

هذان أسلوبان كانا هما الأسلوبان المتبعان لمواجهة العامل الجديد.

ثم هذه المعارضة نفسها كانت تعبر من ناحية أخرى عن الخط الثاني،

وهو المحافظة على الأمة الإسلامية من الانهيار بعد سقوط التجربة، حيث أن المسلمين لم يعيشوا التجربة الصحيحة للإسلام، أو بعدوا عنها، والتوجيه وحده لا يكفي، لأن هذا العمل لا يكفي لأن يكسب مناعة. المناعة الحقيقية والحرارة الحقيقية للبقاء والصمود كأمة. إذن كان لا بدَّ من أن يحدد الموقف. من أن يحدد الوجه الحقيقي للإسلام، في سبيل الحفاظ على الإسلام، وهذا الوجه الحقيقي للإِسلام قدمه علي بن أبي طالب (ع) من خلال معارضته للزعامات المنحرفة أولاً، ومن خلال حكم الإمام بعد أن مارس الحكم بنفسه.

من خلال هذين العملين، ومن خلال العمل السياسي المتمثل في المعارضة، والعمل السياسي المتمثل في رئاسة الدولة بصورة مباشرة، قدم الوجه الحقيقي للإِسلام، الأطروحة الصحيحة للحياة الإسلامية، الأطروحة الخالية من كل تلك الألوان من الانحراف.

طبعاً هذا لا يحتاج إلى حديث، ولا يحتاج إلى تمثيل لأنه واضح.

أمير المؤمنين حينما تولى الحكم، لم يكن يستهدف من تولي الحكم تحصين التجربة أو الدولة، بقدر ما كان يستهدف تقديم المثل الأعلى للإِسلام، لأنه كان يعرف أن التناقضات، في الأمة الإسلامية، بلغت درجة لا يمكن معها أن ينجح عمل إصلاحي إزاء هذا الانحراف مع علمه أن المستقبل لمعاوية، وأن معاوية هو الذي يمثل القوى الكبيرة الضخمة في الأمة الإسلامية.

كان يعرف أن الصور الضخمة الكبيرة التي خلقها عثمان والتي خلقها انحراف هذه القوى، كلها إلى جانب معاوية، وهو ليس إلى جانبه ما يعادل هذه القوى، لكن مع هذا قبل الحكم، ومع هذا بدأ تصفية وتعرية الحكم والانحراف الذي كان قبله، ومع هذا مارس الحكم وضحى في سبيل هذا الحكم بعشرات الآلاف من المسلمين، في سبيل أن يقدم الأطروحة الصحيحة الصريحة للإِسلام وللحياة الإسلامية.

إن علي بن أبي طالب (ع) في معارضته، وعلي بن أبي طالب في حكمه لم يكن يؤثر على انحراف الشيعة فقط، بل كان يؤثر على مجموع الأمة الإسلامية، علي بن أبي طالب ربى المسلمين جميعاً شيعة وسنة، حصَّن المسلمين جميعاً شيعة وسنَّة، علي بن أبي طالب أصبح أطروحة ومثلاً أعلى للإِسلام الحقيقي. من الذي كان يحارب مع علي بن أبي طالب؟ هؤلاء المسلمون الذين كانوا يحاربون في سبيل هذه الأطروحة العالية، في سبيل هذا المثل الأعلى، أكانوا كلهم شيعة بالمعنى الخاص؟ لا، لم يكونوا كلهم شيعة. هذه الجماهير التي انتفضت بعد علي بن أبي طالب على مر التاريخ، بزعامات أهل البيت، بزعامات العلويين الثائرين من أهل البيت، الذين كانوا يرفعون راية علي بن أبي طالب للحكم، هؤلاء كلهم شيعة؟.

كان أكثرهم لا يؤمن بعلي بن أبي طالب إيمان الشيعة، ولكنهم كانوا ينظرون إلى علي أنه المثل الأعلى، إنه الرجل الصحيح الحقيقي للإسلام، حينما أعلن والي عبد اللّه بن الزبير سياسة عبد اللّه بن الزبير، وقال بأننا سوف نحكم بما كان يحكم به عمر وعثمان، قامت جماهير المسلمين تقول: لا بل بما كان يحكم به علي بن أبي طالب. فعلي بن أبي طالب كان يمثل اتجاهاً في مجموع الأمة الإسلامية.

الخلافة العباسية كيف قامت؟ كيف نشأت؟ قامت على أساس دعوة كانت تتبنى زعامة الصادق من آل محمد ﷺ. الحركة السلمية التي على أساسها نشأت الخلافة العباسية كانت تأخذ البيعة للصالح، للإِمام الصادق من آل محمد ﷺ، يعني هذه الحركة استغلت عظمة الإسلام، عظمة هذا الاتجاه، وتجمع المسلمون حول هذا الاتجاه، ولم يكن هؤلاء مسلمون شيعة، أكثر هؤلاء لم يكونوا شيعة، لكن كانوا يعرفون أن الاتجاه الصالح، الاتجاه الحقيقي، الاتجاه الصلب العنيف كان يمثله علي بن أبي طالب (ع)، والواعون من أصحاب علي (ع)، والواعون من أبناء علي (ع). ولهذا كثير من أبناء العامة، ومن أئمة

العامة، من أكابر أصحاب الإمام الصادق (ع)، كانوا أناساً عاميين، يعني كانوا أناساً سنة، ولم يكونوا شيعة.

دائماً كان الأئمة (ع) يفكرون، في أن يقدموا الإسلام لمجموع الأمة الإسلامية، أن يكونوا مناراً، أن يكونوا أطروحة، أن يكونوا مثلاً أعلى.

كانوا يعملون على خطين، خط بناء المسلمين الصالحين، وخط ضرب مثل أعلى لهؤلاء المسلمين، بقطع النظر عن كونهم شيعة أو سنة.

هناك علماء من أكابر علماء السنة، أفتوا بوجوب الجهاد، وبوجوب القتال بين يدي ثوار آل محمد ﷺ، وأبو حنيفة نفسه الذين كان من أئمة السنة، أفتى بوجوب الجهاد مع راية من رايات علي (ع)، مع راية تحمل شعار علي بن أبي طالب، قبل أن يعمل أبو حنيفة مع السلاطين.

إذن فاتجاه علي بن أبي طالب، لم يكن اتجاهاً منفرداً، اتجاهاً محدوداً، كان اتجاهاً واسعاً على مستوى الأمة الإسلامية كلها، لأجل أن يعرّف الأمة الإسلامية وأن يحصن الأمة الإسلامية بالإسلام، وبأهداف الإسلام، وكيف يمكن للإنسان أن يعيش الحياة الإسلامية في إطار المجتمع الإسلامي.

المهم من هذا الحديث، أن نأخذ العبرة وأن نقتدي، حينما نرى أن علي بن أبي طالب (ع) على عظمته يربي أصحابه على أنهم أصحاب الهدف، لا أصحاب نفسه. يجب أن لا أفكر أنا، ويجب أن لا تفكر أنت، بأن تربي أصحابك على أنهم أصحابك، وإنما هم أصحاب الرسالة، أي واحد منكم ليس صاحباً للآخر، ولهذا يجب أن نجعل الهدف دائماً مقياساً، نجعل الرسالة دائماً مقياساً. احكموا عليَّ باللحظة التي أنحرف فيها عن الهدف، لأن الهدف هو الأعز، هو الأغلى، هو رب الكون، الذي يجب أن تشعروا بأنه يملككم، بأنه بيده مصيركم، بيده مستقبلكم، إنه هو الذي يمكن أن يعطيكم نتائج جهادكم.

هل أنا أعطيكم نتائج جهادكم، أو أي إنسان على وجه الأرض يمكن أن

يعطي الإنسان نتائج جهاده، نتائج عمله، نتائج إقدامه على صرف شبابه، حياته، عمره، زهده على تحمله آلام الحياة، تحمله للجوع، تحمله للظلم، تحمله للضيم، من الذي يعطي أجر كل هذا؟ هل الذي يعطي أجر هذا أنا وأنت، لا أنا ولا أنت يعطي أجر هذا، وإنما الذي يعطي أجر هذا هو الهدف فقط. هذا هو الذي يعطي النتيجة والتقييم، هو الذي سوف يغير أعمالنا، هو الذي سوف يصحح درجاتنا.

محمد باقر الصدر

الثورة الشعبية التي سبقت خلافة علي

من الإنصاف والخير أن نذكر أن الجمهور الذي ثار على سوء الحكم في عهد عثمان لم يكن أرعن في ثورته، فقد اتصل بأولياء الأمور والسلطة وطالب بواسطة ممثليه مراراً وتكراراً، ولكن مطاليبه في كل مرة كانت تبوء بالفشل، وكان فشلاً ذريعاً متواصلاً ومن النوع المثير، فلا بدع أن هب الشعب هبته الغضبى وتركزت الثورة الانتقامية في رأسه تركز الفكرة الثابتة لا تحول عنها في كثير أو قليل.

هبطت وفود الأمصار المدينة مرة وأخرى إلى مرات كثيرة، وكانت في كل مناسبة تحمل طائفة من أمانيها وهي ملأى بالرجاء تود لو صدقت أحلام آمالها، وكانت ترجع في كل مرة بوعود معسولة ولكن لا تلبث أن تستحيل إلى صدى يأس فيه غرور السراب.

ساءها في كل تجربة وكل محاولة إخفاق المنقلب، فأغيظت كذي النفس الجريحة على من لا يفتأ ينكأ جراحه ويجري دماءه، ولم يسعها كظم عواطفها المتلهبة فهدرت صاخبة محتجة تريد وضع حد لآلامها ومأساتها المستعرة، فكانت تصطدم مراراً وتكراراً بما يوقظ فيها شعور الخيبة المنتقم. لذلك لم تكن الجماعات ترى في أي مكان إلاّ ملتئمة على بعضها تتهامس في أمر خطير.

وفي هذه الملتهبة كان أبو ذر الغفاري ينتقد ولا يبالي على أي وجه فسر عليه انتقاده، ويتحدى المجتمع والدولة وكل أسرة الحكم تحدياً جارحاً بمنطق الدستور الانطلاقيين المتجاوزين مذاهب سلوكهم.

رأى ولمس مقدار تهاوي الناس في الترف بالعدوى وتهافتهم على الرفاه من أي طريق، وتستتبع خطة هذا السلوك إباحية ولا مبالاة، فجعل من نفسه وأتباعه حاجزاً يقاوم التيار، فوقف في كل مكان يبشر بمبادئه وبعبارة أصح يقرع سمع الناس بما قد عاهد عليه النبي وبما قد سمعه منه ووعاه بين يديه، ولكن بعضاً من الناس كانوا قد استناموا إلى هذا الجديد وتذوقوه وَلَذَّتْهُمْ أشياؤه، فأبوا عليه وأبى عليهم فانطلق لا يبالي غضباً ولا رضى.

وكان أبو ذر يرى أن فكرة الحياة الإنسانية هي الفضيلة والإنسان هو الفاضل فقط. إذن فعلى الناس أن يحلوا أشياء الفضيلة بينهم، وأن يوفروا كل جهودهم على تحقيقها وانتهاج سننها وأساليبها وأما أولئك الذين يجمعون أكبر جدهم وهمهم على التزيد من متارف الحياة الناعمة وأسباب العيش الرفيه، فإنهم لا يفضلون في اعتباره عن سائمات وجدت سبيل حظوظها. والإنسان عنده إذا جمع همه هذا الجمع فإنه ينقلب حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحيل بما فيه من الفكر، وأما الإنسانية فإنها عنصر غريب عنه. ولكي يكون إنساناً كذلك لا بدَّ له من حياة أخرى مادتها الفضيلة، والفضيلة، في نظره هي التجرد والعمل.

هو يريدنا أن نعمل ونكافح ما استطعنا إلى ذلك، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا ننغمس في مدى الفتوة، يريد منَّا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات، واستعلاء بما فينا من روح لا تفتأ تنشد السمو.

وليس أضرَّ على الكائن الإنساني من أن يسير بالحياة فقط، إذ بهذا يشبه سير الرحى تتحرك وهي قابعة بمحلها. والفرق ما بين الإنسان والحيوان أن الثاني تسير به الحياة والأول يسير بالحياة ويستعلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها. وإذا كانت الحركة ضرورية للحياة،

والفضيلة التي هي التجرد ضرورية للإنسانية، فلكي نكون أحياء إنسانيين يجب أن نعمل ويجب أن نتجرد، وأما إذا عملنا فقط فقد نحرنا عنصر الإنسانية فينا وأسففنا، كما تتعقد الحياة حين نضعها في معترك أطماعنا وشباك شهواتنا. فكان يوصي ويلح أن نعمل وأن نتجرد، أي نعمل ولا ندخر، فحض بأقس أسلوب وأعنفه على عدم الكنز ولوح ما شاءت له فكرته وشاء ضميره بقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وهو يرى أيضاً أن الدولة كالفرد سواء بسواء، فإذا كنزت ولم تتجرد انحطَّت وتولدت لديها الأطماع، فتحدى الدولة كما تحدى الأفراد، وحارب الكنز الإجماعي كما حارب الكنز الفردي. وشنَّها شعواء على دنيا القصور وحياة الترف. فقد نظر إليها نظره إلى مأتم للمثالية العليا والأحلام السامية، فموكب الإنسانية لا بدَّ أن يتوقف ويتوحل، وينقلب موكب رجم إذا شئنا الولوج به في دنيا الشهوات.

ومن ناحية أخرى أحسَّ بآلام البؤس في الناس، وأحسَّ بأن الدولة تتوسل بالتسميات القانونية إلى انتهاب المسميات الحقوقية من أربابها والاستحواذ على الثروة الاجتماعية وتبديدها دون مستحقيها، فقدر واستنتج أن الحكومة المنتخبة هي ذات الحق الأول في التصرف بالأموال الشائعة. إذن فتسميتها مال الخزينة بمال الله التي يراد منها الشيوع، وسيلة للتلاعب والاستحواذ، فحمل حملة نكراء على هذه التسمية المغلوطة ونادى بأنها مال المسلمين، هذه التسمية التي تؤدي في تسلسلها المنطقي الحقوقي إلى منع حرية التصرف، وإلى وجوب توزيعها عليهم وتعلق حقوقهم بها.

وبلغ من شدة وطأة هذه الدعوة أن جعل الأنانيون الطامعون يفرون من طريقه كلما رأوه، وزاد في تأثير دعوته وانتشارها أنه كان يشفع أقواله هذه بأحاديث مأثورة سمعها من النبي.

وكانت في الكوفة حركة أقوى من سائر الحركات الأخرى في المدن والعواصم، وهناك وضعت «عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تقابل من الهيئة الحاكمة بالحسنى بل بالإعراض، فتألبوا وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية «بالقبض عليهم»، وبعد ذلك أفرج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرة أخرى، بيد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها. ومهما احتبكت ألوانها الكالحة.. وكانت عريضة الحق تشتمل على:

(أ) إبعاد البطانة المشرفة على تسيير الأمور حالياً ولا سيما مروان بن الحكم.

(ب) الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها النبي دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال.

(ج) ضرب اليد على طماعية قريش.

(د) الحد من صلاحية الولاة والأمراء فيقيد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.

(هـ) الحيلولة دون الأمراء واستذلال الأهلين.

وفدت الوفود تحت ستار الحج وهي تخفي أغراضها الدامية الثورية وشاع الهمس في المدينة، وانطلقت عبارات الانتقاد تؤج كالنار في الهشيم، وقد اتصلت بعلي أخبارهم فتخوف مغبة الأمر وبادر إلى الاجتماع بعثمان فقال له:

«الناس ورائي وقد كلموني فيك، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه.

إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك.. ثم يقول:

فالله في نفسك. فإنك والله ما تبصر من عمى، وما تعلم من جهل، وإن الطريق لواضح بين. . .».

وظلّ عثمان يعلل بمختلف الأعذار ولا يستقر على رأي. وكان أحياناً يذعن لنصائح علي ويعزم على إصلاح الأمور. ومما قاله له علي: «إن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية».

ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي، ويصرب له المثل بشدته عليه فيقول:

«هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته، فما ظنك بما غاب عنك منه؟». وكذلك يقول سعيد بن العاص وسائر بطانته: «حتى أجمع ألا يقوم دونه» وعلي حيال تردد عثمان لم يسعه إلاَّ أن يقول:

«ما يريد عثمان أن ينصحه أحد، اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلاَّ وقد تسبب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها».

وكان عمرو بن العاص في هذه الأثناء يحرض الناس على عثمان ويجبه سياسته علانية ويتجسس عليه ويفضح الأحاديث التي تجري داخل داره، ولا يلقى أحداً إلاَّ أدخل في روعه كراهيته ويستغل المناسبات والظروف حتى قال يصف نفسه:

«أنا أبو عبد اللّه إذا حككت قرحة نكأتها، إن كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان». . وهذا عثمان يستشيره في جماعة من صحبه فيقول له عمرو:

«أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعتدل، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض فيه قدماً». . ويقابله حينما خطب عثمان على ملأ من الصاخبين المتمردين بقوله:

«يا أمير المؤمنين: إنك قد ركبت نهابير وركبناها معك، فتب نتب». .

وهذه عائشة تجتريء وهو يخطب فتقول وقد نشرت قميص النبي:

«هذا قميص النبي لم يبل، وقد أبليت سنته».. وهذان طلحة والزبير يعينان الثائرين بالمال.

والجموع المتألبة الوافدة من كل مكان، حيال ما ترى وحيال ما تحس به من آلام في قراراتها، تفتحت ثائرتها ومضت في اندفاعها متنمرة غاضبة. فبذل علي كل جهد لتخفيف ثائرتهم وتبريد غلوائهم، وحمل عثمان على إعطائهم مهلة ثلاثة أيام. فلما انتهت اجتمعوا على بابه «مثل الجبال» على حد تعبير المؤرخين، قال عثمان لمروان: «أخرج وكلمهم فإني أستحي أن أكلمهم» فخرج مروان إلى الباب «والناس يركب بعضهم بعضاً» فقال:

«ما شأنكم قد اجتمعتم كأنما جئتم لنهب؟.. شاهت الوجوه، كل إنسان آخذ بأذن صاحبه؟... جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ أُخرجوا عنّا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم.. ارجعوا إلى منازلكم والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا».

كانت هذه الخطبة المملوءة حمقاً ورعونة، شرارة شديدة الأثر في إذكاء الثورة وتقريب خطواتها. ومروان لم يفلح فيها بإثارة الناس فقط، بل أفلح أيضاً بإثارة علي نفسه الذي ضمن للجمهور تسوية الأمور على ما يرغب، وقد أسقط في يده حقاً وما وسعه تحت عاصفة نفسه وعاصفة الجمهور المائج إلاَّ أن يقول مقالته المشهورة لعثمان:

«ما رضيت من مروان ولا رضي منك، إلاَّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به. والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه. وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك وغلبت على أمرك».

ودخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفراقصة فقالت:

«أتكلم أو أسكت».. فقال: تكلمي.. فقالت:

«قد سمعت قول علي وإنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء». . قال: فما أصنع؟ قالت: «تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك. ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكان مروان منك، فأرسل إلى علي فاستصلحه فإن له منك قرابة وهو لا يعصى». فأرسل عثمان إلى علي فأبى أن يأتيه وقال: «قد أعلمته أنني لست بعائد».

كبر على علي مثل ذلك المنطق الذي فاجأ به الجموع، مروان بلسان الخليفة، وهو يعلم أنه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصيبة وبين التلظي والتهاب الوضع القائم، إلاّ كلمة رعناء كالتي فاه بها مروان. على أنها هدمت قيمة وساطته وألقت في روع الناس ارتياباً حقيقياً حاداً في جدوى مداخلته، لهذا ـ وهو في مقياس كل عصر مبرر ـ تنحى واعتزل واعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال. . ولكن علياً مع كل ما هو عاتب وواجد، لم يزل يقدر ويذهب في مدى تقديره بعيداً فينتهي إلى الكارثة ويتراءى له شبحها، فيرهب هوتها ويخشى وقوعها. إذن يجب أن لا يظل بعيداً وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور هذا الموقف النابي المثير، فبادر إلى تقديم ولديه ـ لاعتباراتهما التقديرية ـ كي ينهنهوا عوادي الأحداث وطائشات الخطوب. . وحين بلغه «أن الناس حصروا دار عثمان ومنعوه الماء بعث إليه بثلاث قرب، وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على بابه ولا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه، وكان أن خضب الحسن بالدماء وشجَّ قنبر مولاه».

وبات علي مطمئناً فقد رتب الأمور جيداً، وهو واثق من أن مجرى الحادث سيسير على هذا الشكل: يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور إلى إجابة مطالب الإصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مروان، ولوجود ابنيه اطمأن من عدم دنو الخطب منه. فإن وجودهما يعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه، فلا يتصل به مكروه دام يضع حداً لحياته، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العابثة.

هذا ما عرف التاريخ عن علي وبنيه إزاء المصرع، بينما عرف من ناحية ثانية أن عثمان وهو محاصر كتب إلى معاوية وهو بالشام:

«إن أهل المدينة قد كفروا، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول» فإذا بمعاوية حينما جاءه كتابه يتربص به ولا يحييه.

ومن تهكمات القدر أن يحرض عمرو بن العاص على قتل عثمان، وتجبهه عائشة علانية، ويتخلى معاوية عن نجدته، ويعين عليه طلحة والزبير كلاهما. ثم ينفر هؤلاء أنفسهم هنا وهناك، يطالبون بدمه علي بن أبي طالب الذي أخلص له النصيحة وحذَّره من هذا المصير، وكان مجنه دون رواكض الخطوب.

بعد تولي الخلافة

أصبح علي الخليفة واجتمعت في يديه مقاليد الأمور، فثاب إلى المجتمع هدوء مشفوع بالأمل وارتقاب فجر جديد.

وبدأ علي أول ما بدأ بإعطاء الحق إلى الشعب، فقد وجد أن مشاكلهم المعلقة أضحت مزمنة لم يبت فيها بشيء، فعطف على آلام هذا الجمهور وواساه بنفسه وقلبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وذهب مع تقريره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير مكتوب، يظل عرضة للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تضيره، إذا لم يقصد أولاً وقبل كل شيء إلى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم إلى الكفاءة، الإخلاص والضمير. بل من رأي عليٍّ أن الإصلاح حتى في المجتمعات التي يستوي النظام فيها على برامج مكتوبة، لا يتم على وجه مضمون إلاً بالشخصية المنتقاة. ولمس إلى ذلك أن أكبر عناصر الشكوى وأهم أجزائها هو الجزء الخاص بالأمراء والولاة، فبدر قدماً إلى تغيير التعيينات.

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الأمصار الكبرى، فلما أظهرا على أن التعيينات الجديدة لم يصبهما منها نصيب، امتعضا أي امتعاض ولمسا في الظرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً ما يمكنهما من القيام بحملة ضغط على الخليفة الجديد، لا سيما وقد وجد في الناس من يطالب بإقامة الحد الشرعي على الذين باشروا الاغتيالات بالنفس.

وعلي لم يؤخرهما من حيث أنهما ليسا بالجديرين، بل لأن الظرف لم يزل يعج بالحزبية ولم يزل متشبعاً بروحها. فإذا بعث بهما إلى الأقاليم التي تناصرهما كالكوفة بالنظر إلى الزبير والبصرة بالنظر إلى طلحة، فقد سهل لهما حرية التصرف والانفراد بالرأي لمكان الثقة الحزبية. وحرية التصرف هي التي بات يشكو الناس منها كما كان الحال بمعاوية في الشام على عهد عثمان، على أن الأمير يصبح بهذه الحزبية المناصرة قليل الاهتمام بأوامر السلطة العليا، مما تتخذ به الأقاليم في كل مكان شكل إقطاعيات لا تتصل بالمرجع الأعلى الإيجابي إلاً اتصالاً اسمياً. . وإذا تأزمت العلاقة بين الرئاسة العليا والأمير، استطاع الانفراد بإقليمه وقطع العلاقة التي لم تكن تعبر عن اتصال إيجابي. وهذا خطر يهدد الدولة وداء وبيل في جسم الحكم، خصوصاً إذا تواطأت طائفة من أمراء الأقاليم على العصيان باتفاق المصالح الموجبة، فإنه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي. كما تظل هذه السمة الإسمية للأقليم الإقطاعي ينبوع ضرر للرئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفل الأمير بالأوامر التي تصدر له ولا يرهب مرجعه فيعبث كيف شاء، ويكون المسؤول عن تصرفه هو الرئيس الأعلى في نظر الشعب فيتهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه، رغم أنه في الواقع لا يستطيع أن يحيك معه حيكاً، مثلما كان الحال في زمن عثمان فقد أصبح اتصال الأقاليم بمركز الخلافة اسمياً، والأمير إقطاعي يتصرف كيف حلا له لا ينتظر أمراً ولا يخضع لأمر. وإنما يستخدم ذلك الطابع «هذا أمر الخليفة» ستاراً فقط كما كان يفعل معاوية في الشام.

وإذا بعث بهما علي إلى الأقاليم الأخرى وليس لهما فيها أنصار وأشياع بل

على العكس أعداء حزبيون فقد أعاد الوضع إلى القلق ودفع الجمهور إلى التمرد بالشكوى المصطنعة. لذلك عمد إلى مداواة الحالة العامة وخنق الحزبية وعنعناتها وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً. فبين يديه مجتمع مريض وهو يتطلب شخصيات جديدة لم تنخرط في الحقل العام والحياة السياسية الصاخبة المتناحرة، حتى إذا تمَّ له ما يريد عاد ففكر فيهما وفي سواهما. ولكنهما فسَّرا إغفالهما بالعداء، فانصرفا إلى إيجاد الوسائل القمينة بالضغط فوجها وجههما شطر مكة. وبينا هما في الطريق لقيا عائشة وهي عائدة من مكة، فرويا لها ما كان من أمر الثائرين وعثمان، وما كان من أمرهم وعلي، وكاشفاها بما عزما عليه. وصادف هذا رغبة في ضميرها وهوى كامناً، فحملاها على الرجوع وسهَّلا لها الخوض في معمعة سياسية طاحنة، اتصلت حتى انقلبت دموية حادة.

ولما هبطوا مكة وجدوا فيها فلول الأمويين، ففكروا جميعاً باستغلال الموقف وترتيبه على هذا الشكل:

يعصي بالشام معاوية وهم يعصون بالعراق حتى إذا استقام لهم الأمر واستقروا، حاصروا الحجاز وانتزعوا مقدرات السلطة العيا بمطالبهم.

أدرك علي كل ما دار بخلدهم وما عزموا عليه، وأدرك فوق ذلك أن الخطب سيعدو دائرته الضيقة، لنزول عائشة إلى الميدان بما تبعثه من خامدات النفوس وفي المحيط العربي خصوصاً. أليست امرأة وامرأة لها قيمتها ومنزلتها الروحية الفريدة؟ فهي زوج النبي وابنة الخليفة الأول. ومن ناحية ثانية أليس الموضوع نفسه حساساً مثيراً؟ أليس كل الثائرين الذين تم الحادث على أيديهم في صفوف علي؟ أليست نفسية الجموع شديدة الحساسية بفظاعة الدم المطلول وضغينة المحاكمة والموازنة؟ أليس الظرف متبلبلاً يميد بالفوضى؟ إذن ففي الأمر عقدة خطيرة ولا بدَّ أن يستغلها هؤلاء الواجدون.

فكَّر وقدَّر وقلَّب وجوه الرأي حتى انتهى إلى أن الحالة الناشبة البادية ستستحيل إلى فوضى فظيعة قد تندك معها معالم المجتمع الإسلامي، وانتهى

أيضاً إلى أن صفة التبلبل وهي تساعد على الدس والانتهاز لا يحسمها إلاّ عمل سريع عنيف. وفكر كثيراً قبل أن ابتدأ بطلحة والزبير ومن ورائهما عائشة، فقد لمس خطر هؤلاء الذين يملكون من أسباب السيطرة والتأثير الروحي قدراً كبيراً.

ومن ناحية ثانية فقد استجلى طبيعة البصرة على ضوء الروحية التي كانت بارزة في العراق إذ ذاك، فوضع يده على مكان التفكك والتفسخ وعدم الانسجام والتماسك، بينما الشام كانت على العكس متماسكة بوحدة الدم والتغرير. إذن فالبصرة أقل عناء وأكثر خطراً وأبعد نفوذاً بما يملك اللاجئون إليها من صدى بعيد، عميق التجاوب في النفسية العربية العامة. فكان لزاماً أن ينبعث من فوره إليهم ويتخذ البصرة هدف ضربته الأولى الخاطفة الساحقة، فيرهب بها المتمردين في كل مكان ومجال.

وأقام خطته على حرب السرعة ليكون نجاحها مضموناً، فيعيد الثقة المفقودة، بعد الثورة، إلى العاصمة، كما استعان بالنقد والدعاية كأداة حربية فظيعة الفتك، وأدرك ضرورة هذا العنصر في الحرب فهبت أم سلمة زوج النبي وهي من أعوانه إلى انتقاد عائشة على شكل حاد، فيما أقدمت عليه من مغامرة فكتبت إليها، ومن جهة ثانية أذيع الكتاب وهو:

«من أم سلمة زوج النبي، إلى عائشة أم المؤمنين. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فقد هتكت سدة بين رسول الله وأمته. جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها، وسكر خفارتك فلا تبتذليها، فالله من وراء هذه الأمة.. لو علم رسول الله أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة في الدين. فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع. جهاد النساء غض الأطراف وضم الذيول، وقصر الموادة. ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض هذه الفلوات، ناصة قعوداً من منهل إلى منهل.

وغداً تردين على رسول الله، وأقسم لو قيل لي يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله هاتكة حجاباً ضربه علي. . فاجعليه سترك وقاعة البيت حصنك، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرتهم. ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول لله لنهشت نهش الرقشاء المطرقة. والسلام».

وكان لهذه الدعاية الحربية أثرها الكبير، فأم سلمة أم المؤمنين أيضاً وهي تشجب على عائشة حركتها وتنتقدها انتقاداً لاذعاً. وقد تركت أثرها المرغوب به والمتوخى نيله وكان أبرز ما تركت أثران بارزان:

١ ـ إعطاء صورة نابية عن محاولة النساء مثل هذه المحاولة، فقد رووا «أن أبي عتيق ـ وعائشة عمته ـ لقيها في بعض مآتي الطريق راكبة على بغلة فقال لها:

إلى أين يا أماه؟

قالت: أصلح بين حيين من أحياء المسلمين تقاتلا.

قال: عزمت عليك إلا رجعت، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نعود إلى يوم البغلة».

٢ ـ شجع الزعماء والأمراء على أن ينكروا عليها، فقد كتب إليها زيد بن صوحان رداً على كتابها إليه:

«سلام عليك أما بعد: فإنك أمرت بأمر وأمرنا بغيره، أمرت أن تقري في بيتك وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة. فتركت ما أمرت به وكتبت تنهيننا عما أمرنا به والسلام».

فمضى الخطباء يحصون عليها تبلبلها وتناقضها، فبعد أن كانت تثير الناس على عثمان وكذلك طلحة والزبير، إذا بهم يخرجون جميعاً مدعين الطلب بثأره في أحرج الساعات العصيبة، وبذلك يسهلون سبيل العمل للانتهازيين النفعيين.

فحرب الدعاية التي اصطنعها علي وقذف بها خصومه، أثّرت أثرها الكبير وفككت الوحدة في المعسكر الآخر. «فاعتزل بالجلحاء ـ من البصرة على فرسخين ـ الأحنف بن قيس، واعتزل معه زهاء ستة آلاف من بني تميم».

وعلى هذا الوضع فاجأهم علي بجنده «وفيه ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان، وكانت راية علي مع ابنه محمد بن الحنفية وعلى ميمنته الحسن وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر وعلى المقدمة عبد الله بن عباس. وزحف علي نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار ونادى بعقر الجمل فوقعت الهزيمة.

كانت معركة الجمل بدون ريب أو كادت تكون، هي المعركة الفاصلة، وأن تنقلب من حيث القيمة ثانوية وأن تعتبر حركة فرعية لتطهير بعض عناصر الشغب الباقية، خصوصاً والمقاومة الكفاحية آخذة بهذا الشكل من السرعة والدعاية الموفقة التي أشعرت الناس كافة بالاشمئزاز من شغب المشاغبين. بيد أن الحال تبدلت وجعلت لصفين الصفة الحاسمة الرئيسية لاعتبارات:

١ ـ استحالة فكرة العقيدة وروحيتها الأخلاقية عند علي إلى فكرة ثابتة، والفكرة من الثوابت تصرف كل قوى المرء الروحية والمعنوية إليها، وتقف جهوده العملية في سبيلها ومدى غايتها فقد تركزت تركز الأعصاب، فصاحبها لا يفكر ولا يرى ولا يحس أو لا يحب أن يفكر وأن يرى وأن يحس إلاّ في مواقع ميولها، كما لا يدبر ويقدر إلاّ على ضوئها. لذلك لم تكن سياسة علي مشتقة من صميم الحياة كما هي بمساوئها، بل من روح الحياة كما ينبغي أن تكون بفضائلها. فهذا الرجل الذي عرفناه دموياً في قضية الانتصار للعقيدة، نراه شديد الكراهية لسياسة الدماء وأساليبها في قضية قمع حركات المتمردين، فهو يفرق جيداً بين الكفر والعصيان. ولكن وسطه لم يكن يفهم هذا الفرق فهماً حسناً ولا يفرق بينهما أبداً، فقد رأينا عثمان الخليفة يسمي تمرد أهل المدينة كفراً في كتابه

إلى معاوية، ونرى كثيراً من الناس ينظرون إلى خصومهم نظرة الكافرين وبالتالي يجب أن يطبقوا عليهم أحكام الكفار وقانون الارتداد.

كان الجمهور متشبعاً بهذه الفكرة وما يترتب عليها ويلابسها، فإذا بعلي المتشرع العبقري والمسلم الواعي لحقيقة الإسلام يحمل على أساس هذه الفكرة لئلاّ يتورط الناس في استباحة مقتضياتها القانونية، التي تخولها حالة الحرب في الأسرة والمال والملك والقيمة الشخصية، التي يتبع فقدها الأسر والاسترقاق، وبيِّن للناس بمنطقه العميق أن هناك صفة ثالثة هي الفسق وهو لا يبعد بالمرء أبداً عن دائرة الإيمان، كما لا تترتب عليه الاستباحة بل التأديب فقط.

وانظر كيف يستأتي إلى إقناعهم بخطأ فكرتهم حين قالوا: «أحل لنا دماءهم وحرِّم علينا أموالهم» فقال علي:

هي السنة في أهل القبلة.

قالوا: ما ندري ما هذا؟

قال: فهذه عائشة رأس القوم اتقسمونها فيما تقسمون من الأسرى؟

قالوا: سبحان الله آمنا.

قال: فهي حرام؟

قالوا: نعم.

قال: فإنه يحرم من أبنائها ما حرم منها ثم نادى في الناس: لا يسلبن قتيل ولا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ولا يحل متاع. ولكن الجمهرة الكبرى ساذجة بسيطة في فكرة التدين، فوقع عليهم هذا النداء وقع اليأس في محل الأمل، وجعلهم يلغطون كثيراً ويتأففون كثيراً وحملهم على تفكير طويل فيما هو الفرق بين الكفر والعصيان، وفيما هو الفرق بينهما وبين الإيمان.

فأما أولئك البداة الأعراب الذين لم يفهموا الدين إلاّ على شكل سطحي، استعصى على تفكيرهم فهم الفروق الدقيقة بينهما فمضوا على أنه لا فرق

واقتنعوا بما انتهوا إليه. واشتملوا على نوع من التسخط الخفي كان غير مشعور به إلاَّ قليلاً، لأنهم بمقتضى نظريتهم حال الخليفة بينهم وبين حقهم في الغنم ومنعهم إياه. ومن هؤلاء كانت نواة الخوارج، وقد صاغوا فكرتهم هذه فيما بعد بأن مرتكب الكبيرة كافر.

وأولئك الذين صحبوا النبي طويلاً وعرفوا كثيراً من منطق الإسلام اشتملوا على اطمئنان كبير حينما أوضح لهم علي الفرق كما لو لمسوه.

٢ ـ نظريته في خصومه أنهم مسلمون فلا يجوز أخذهم في غير حدود الإسلام وقانونه وذلك حين سأل الناس عن الخوارج «أمشركون هم؟».

قال: من الشرك فروا.. قيل: فمنافقون هم؟

قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً. قيل: فما هم؟

قال: إخواننا بغوا علينا.. وكان لا يفتأ يقول: «لا تقولوا كفر أهل الشام ولكن قولوا: فسقوا وظلموا».

إذن فلا بدَّ أن يفاوضهم ولا بد من أن يلاينهم ما وسعه ذلك ووجد فيه أملاً، دون لجوء إلى العنف الذي لا يستله إلاَّ بعد أن يعنتوه.

فنراه يفاوض معاوية ويرسل إليه الرسول بعد الرسول والكتاب تلو الكتاب، ويذكره بموقف أبيه منه، وإذا به يتهمه بالعقوق في رفق. قال في بعض كتبه إليه:

«وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قبض رسول الله، فقال: أبسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فكنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر. فأبوك كان أعلم بحقي منك، وإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك وإلاَّ فنستعين الله عليك».

ولكن معاوية كان قد ساوره الطمع ولعبت أحلامه الكبرى أمام ناظريه، ولم يكن شيء من هذا خافياً على علي، بل كان ينظر ويبتسم فهو يريد أن يحل

المشكلة القائمة ولكن على طريقته المثالية وبمنطق القانون الذي يقدسه. وعلي وإن لمس أن الظرف يتأزم عليه والوقت يتعقد، فإنه يريد أن يحارب حرب الحق وينتصر للعدالة بالعدل وإلاً فهو في نظره يخدع ضميره ويخدع الناس، إذا سمح لنفسه بانتهاك قداسة الحق بسبيل تأييد قضايا الحق.

عبد الله العلايلي

رأي جبران خليل جبران في علي (ع)

في عقيدتي أن ابن أبي طالب كان أول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها، وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها على مسمع قوم لم يسمعوا بها من ذي قبل، فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم، فمن أعجب بها كان إعجابه موثوقاً بالفطرة، ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية.

مات علي بن أبي طالب شهيد عظمته، مات والصلاة بين شفتيه، مات وفي قلبه الشوق إلى ربه. ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتى قام من جيرانهم الفرس أناس يدركون الفارق بين الجواهر والحصى.

مات قبل أن يبلغ العالم رسالته كاملة وافية، غير أنّي أتمثله مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض.

مات شأن الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم وإلى قوم ليسوا بقومهم وإلى زمن ليس بزمنهم. ولكن لربك شأناً في ذلك وهو أعلم.

جبران

ما سمي بالشورى

خلافة إسلامية أم إمارة قرشية؟

لما أصيب عمر (رض) من طعنة أبي لؤلؤة جعل أمر الخلافة بين ستة أشخاص: علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمٰن بن

عوف وأمر أن يؤخذ بأكثرية الأصوات فإن تساوت الأصوات رجح الجانب الذي فيه عبد الرحمٰن بن عوف. ثم وصف كل واحد منهم فعابه بعيب يكفي وحده لجعل الموصوف غير أهل للخلافة، ما عدا علياً فإن كل ما استطاع أن يقول عنه: إن فيه دعابة. وهذه صفة مدح أكثر من أن تكون صفة ذم. ثم اعترف له أنه لو ولي الأمر لحمل الناس على الحق الواضح وهذا القول لم يقله في أي واحد من الآخرين بل ألصق بهم العيوب المسيئة دون أن يذكر لهم حسنة واحدة.

ومع ذلك فقد كان تدبيره الذي دبر فيه أمر انتخاب الخليفة يؤدي حتماً إلى إبعاد علي عن الخلافة. ويكفي في ذلك أنه جعل صوت عبد الرحمٰن بن عوف هو المعمول به إذا تساوت الأصوات. ومعلوم أن عبد الرحمٰن بن عوف تربطه بعثمان صلات وثيقة من القرابة والمصاهرة فعبد الرحمٰن متزوج من أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط بن عم عثمان وهي مع ذلك أخت عثمان من أمه. كما كان معروفاً أن سعد بن أبي وقاص لا يخالف رأي ابن عمه عبد الرحمٰن فكلاهما من بني زهرة وهكذا كان التدبير محكماً لأن يأتي عثمان ولكن مداورة. وسبب هذه المداورة أنه لم يكن من السهل مواجهة الرأي العام الإسلامي بترشيح عثمان رأساً مع وجود علي. . فكان لا بدَّ من هذا الأسلوب ومن التدرج بالأمر وهو ما كان وما جرَّ الويلات بعد ذلك على الإسلام والمسلمين.

ولكي نعرف حقيقة شعور الشعب في ذلك الوقت وإنه كان مع علي وإن رجال قريش الذين حاربوا النبي من قبل هم وحدهم ضد علي، وبنفس العصبية والحقد اللذين حاربوا بهما محمداً حاربوا بهما علياً. لكي نعرف ذلك ننقل هنا مثلاً من الحوادث التي كانت تجري حين اجتمع الستة ليختاروا أحدهم والحوار الذي ننقله مأخوذ من تاريخ الطبري وغيره من كتب المؤرخين وهو بهذا النص الحرفي:

اجتمع الناس وكثروا على باب المنزل الذي فيه الاجتماع وكان هوى قريش في عثمان، فأقبل المقداد بن الأسود والناس مجتمعون وهم لا يشكون

بأن البيعة ستكون لعلي فقال: أيها الناس اسمعوا ما أقوله: أنا المقداد، إنكم إن بايعتم علياً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا.

فقام عبد اللّه بن أبي ربيعة المخزومي «وهو من قريش وممن قاتل محمداً وآذاه» فنادى: أيها الناس إنكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم علياً سمعنا وعصينا، فقال المقداد: يا عدو الله وعدو رسوله وعدو كتابه ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون؟. فقال له عبد اللّه: ومتى كان مثلك يجترىء على الدخول في أمر «قريش»؟.

فقال عبد اللّه بن أبي سرح: «وهو من قريش وكان من أشد أعداء محمد»: أيها الملأ إن أردتم أن لا تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان، فقال عمار بن ياسر: إن أردتم أن لا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً.

ولكن عبد الرحمٰن بن عوف بايع عثمان، فلما بويع عثمان قام عمار بن ياسر محتجاً. فقال له هشام بن الوليد بن المغيرة: ما أنت وما رأت قريش لأنفسها أنك لست في شيء من أمرها وإمارتها فتنح عنها.

وتكلمت قريش بأجمعها وصاحوا بعمار وانتهروه.

قال الشعبي وأقبل عمار ينادي:

يا ناعي الإسلام قم فانعه ... قد مات عرف وبدا منكر

هذا ما حدثنا به التاريخ في صفحاته فماذا نستنتج من ذلك؟.

نستنتج منه أن الذين مهدوا للخليفة الثالث والذين أيّدوه وأوصلوه إلى الخلافة كانوا يعتبرون أن الأمر الذي هم بصدده هو أمرة قرشية تسيطر فيها طبقة خاصة على جماهير الشعب وتستغله وتستأثر بخيراته دون حسيب أو رقيب. أما الشعب الذي عبَّر عنه المؤرخون ـ فيما تقدم من الكلام ـ بلفظة «الناس» وعبَّر عنه عمار بلفظة «المسلمون» أما الناس أما المسلمون أي الشعب فلا حق له حتى بإبداء الرأي وبالتذمر.

ما أنت وما رأت قريش لنفسها؟ هكذا جبهوا المجاهد القديم ابن الشعب عمار بن ياسر، إنها إذن قريش ترى لنفسها، وليس الأمر أمر خلافة إسلامية ودعوة محمدية، بل هو أمر أمرة قرشية، وأين كانت قريش يوم كان محمد ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام فيجيبه عمار وأبو عمار وأم عمار وأخو عمار ثم المقداد بن الأسود ومن هو في طبقة عمار والمقداد.

كانت قريش وعلى رأسها أبو سفيان تعلنها على النبي ﷺ حرباً لا هوادة فيها أقل ما يناله فيها شتمه وإلقاء الأقذار عليه ومحاولة قتله وأقل ما ينال أتباعه أن تلبسهم قريش أدراع الحديد وتصهرهم في الشمس وتذيقهم العذاب ألواناً ثم لا تكتفي بالتنكيل بالرجال بل تربط المرأة بين بعيرين وتطعنها بالحراب حتى تموت.

هذا بعض ما جرى لآل عمار حتى ماتت أم عمار مشتومة مطعونة بحربة من حراب قريش فكانت أول شهيدة في الإسلام.

نعم هذا ما كانت تفعله قريش وعلى رأسها أبو سفيان فلما انتصر الإسلام وأثمر جهاد المستضعفين وصبرهم وإيمانهم، وأصبح الإسلام دولة ذات مغانم برزت قريش للسيطرة على الإسلام ودولته واعتبرته إمارة قرشية وصارت تقول لعمار وللجاهير الشعبية التي ينطق بلسانها عمار والمقداد: «إنك لست من أمر قريش وأمرتها في شيء فتنح عنها»، فلا عجب أن يهتف عمار:

يا ناعي الإسلام قم فانعه   قد مات عرف وبدا منكر

لأن الإسلام الذي هو قبل كل شيء عدالة اجتماعية وإنصاف وحق، لا فضل فيه لأحد على أحد إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح، والذي لا مكان فيه لتحكم الظالمين واستثمار الشعب واحتكار المنافع، أصبح إمارة قرشية ثم صارت تستغله أسرة واحدَة فتحارب رجاله الأولين وتقضي على مبادئه ودستوره، ولم يعد فيه مكان إلاَّ للظالمين المتنكرين للشعب وحقوقه، تستغله أسرة واحدة كانت أول من حارب الإسلام وآخر من سالمه حين لم تجد بداً من المسالمة.

وظلَّ عداء قريش يلاحق علياً أين اتجه لأنها كانت ترى فيه العدو الذي يمثل محمداً ورسالته أحسن تمثيل وترى فيه اليد التي قاتل بها محمد.

روى ابن الأثير في الجزء الثاني من تاريخه أن حديثاً جرى بين الخليفة الثاني وعبد اللّه بن عباس قال فيه الخليفة: «يا ابن عباس إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فاختارت «قريش» لأنفسها فأصابت».

وروى أبو سعيد الأبي في كتابه قال: «وقع بين عثمان وعلي كلام». فقال عثمان: «ما أصنع إن كانت قريش لا تحبكم وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين رجلاً كأن وجوههم شنوف الذهب».

وروى الشعبي ما خلاصته: إن عثمان حين استشعر نقمة الناس عليه أرسل إلى علي جماعة فيهم زيد بن ثاتب والمغيرة بن الأخنس الثقفي، فتكلم زيد وختم كلامه بقول: «وقد مشينا إليك نصيحة لك وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمك ـ أي عثمان ـ أمر نكرهه لكما».

وأجابه علي (ع) بقوله: «ما أحب الاعتراض ولا الرد عليه إلاَّ أن يأتي حقاً لله لا يسعني أن أقول فيه إلاَّ بالحق، ووالله لأكفن عنه ما وسعني الكف».

فقال المغيرة بن الأخنس: إنك والله لتكفن أو لتكفن (بالبناء للمجهول) «إلى آخر ما قال من مثل هذا الكلام وأوقح منه».

قال له علي (ع) من كلام له: «أأنت تكفني»؟ . .

أما المغيرة هذا الذي واجه علي بن أبي طالب بما واجهه فهو ابن الأخنس بن شريك وكان الأخنس بإجماع أهل الحديث من أكابر المنافقين في عهد النبي ﷺ وذكروه كلهم في المؤلفة قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح بألسنتهم دون قلوبهم وابنه الحكم بن الأخنس قتله علي (ع) يوم «أُحد»[1] كافراً في الحرب، فجاء المغيرة بن الأخنس ينتقم لأبيه وأخيه ويشفي حقده على علي في

---

(١) راجع ذلك في أخبار علي (ع) في معركة أحد من هذا الجزء.

ظل الإسلام وبرسالة من خليفة المسلمين. ونترك الكلام هنا للكاتب المصري أحمد عباس صالح الذي قال:

مجلس السبعة[1]

هو مجلس لم يكن موجوداً بصفة رسمية ولا بصفة غير رسمية في عهد الرسول، إنما هو مجلس أوجده عمر بن الخطاب ليتولى ترشيح الخليفة، أو اختياره بصورة أدق، وهذا المجلس لم يكن فيه من يمثل مصالح الشعب إلا علياً بن أبي طالب[2] ولم تكن له وظيفة رسمية إلا اختيار الخليفة في مدة حددها عمر أيضاً هي ثلاثة أيام.. أما فيما عدا ذلك فالخليفة يستشير في أمور الدولة من يستشيرهم سواء من هذا المجلس أو من غيره. وأياً كانت الدوافع التي دفعت عمر بن الخطاب لتشكيل المجلس بصورته هذه، فإنه كان مكوناً حين وفاة عمر من سبعة أشخاص لهم أن يشيروا وأن يطلبوا البيعة لأنفسهم فيما عدا عبد الله بن عمر الذي كان له أن يشير فقط ولم يكن له أن يرشح نفسه للخلافة. هؤلاء السبعة كانوا: عبد الله بن عمر، وهو رجل «وقذته العبادة» كما قال عنه معاوية بعد ذلك. إذ كان أقرب إلى التصوف والتفرغ للعبادة منه إلى رجل الدولة والمناضل السياسي، وعبد الرحمٰن بن عوف وهو من أغنى الأغنياء يحرك أداة الحكم بواسطة غيره ولا يتصدر هو السلطة وخير من يمثل سراة قريش في هذا المجلس.. وعثمان بن عفان وهو من سراة قريش وأحد أقطاب بني أمية ثم سعد بن أبي وقاص وهو من أغنياء قريش وأحد القادة الكبار في المعارك الإسلامية الهامة وهواه بالطبع مع غير علي، ثم الزبير بن العوام،

---

(١) أي السبعة الذين اختارهم عمر.

(٢) إن عمر لم يدخل أحداً من الأنصار بصفة ناخب أو بصفة مستشار على الأقل. وإذا افترضنا أن من اللازم أن يكون الخليفة قرشياً، فإنه خليفة لجميع المسلمين لا للقرشيين وحدهم. وإذا لم يكن للأنصار حق في الخلافة، فإن لهم ولغيرهم من المسلمين حق الاشتراك في الانتخاب على الأقل. ولكن الأنصار كغيرهم من جماهير الشعب كانوا يميلون إلى علي، فلو وجد منهم ناخبون لرجحوا كفته. وهكذا فإن الأمر لم يكن عند أصحاب الأمر، أمر خلافة إسلامية، بل كان أمر إمارة قرشية، وإحياء للقبلية من جديد (ح).

وهو أيضاً من أثرى أثرياء قريش، ثم طلحة وهو أيضاً من سراة قريش وأخيراً علي بن أبي طالب.

ولنا أن نتصور موقف علي بن أبي طالب من زملائه الستة، أنه أحد الذين يختارون الخليفة وهذه مهمة سلهة، ولكن الصعب أن يبدأ باختيار نفسه، وهو في نفس الوقت يعلم أن أحداً منهم لن يختاره، فهم جميعاً في كفة من حيث هواهم السسياسي، وهو وحده في كفة، وهذا لا يطعن في إسلام أعضاء مجلس الشورى، فكلهم من ذوي البلاء الحسن في الإسلام، ولكن وضعهم الطبقي ومصالحهم تجعل لهم مفهوماً خاصاً للعدل الاجتماعي يختلف مع ما يدعو إليه علي.

وإنه لمن الصعب على أي إنسان، وإن كان يتصدى للخدمة العامة، تصدياً يستهدف مصلحة الأمة أن يرشح نفسه في هذا الجو شبه المعادي.

والذي حدث أن أحداً لم يرشح علياً، «فيما عدا موقف الزبير» بل بدا أن الجميع يريدون ترشيح أنفسهم. ومن المتصور أن يطمح طلحة والزبير أو سعد بن أبي وقاص في الخلافة، ولكن هذا الطموح يصبح غريباً شيئاً ما في وجود علي بن أبي طالب الذي كان حزب كبير من أحزاب المسلمين يعتقدون أنه كان أولى بالخلافة من أبي بكر ثم أولى بها من عمر.

وليس هناك شك في أن كلاً من أعضاء المجلس يعتقد أنه أقل جدارة بالمنصب من علي. وأن منطق الحوادث ومركز علي في الإسلام، وميل غالبية المسلمين إليه، كل هذا قد يجعلهم يترددون كثيراً أو قليلاً في التفكير في منافسة علي بن أبي طالب في قيادة المسلمين.

على أن الذي حدث غير ذلك، فقد بدا أن الجميع يريدون ترشيح أنفسهم ومنافسة علي.

وهناك أيضاً ما يثير الانتباه بالنسبة للفتوحات الكبيرة التي تمت في عهد عمر. لقد سمعنا عن قيادات أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وسعد بن

أبي وقاص. ولكننا لم نسمع عن قيادة لعلي بن أبي طالب. ولقد كان من السهل تفسير هذا لو أن علياً لم يكن محارباً من الطراز الأول. أما وعلي من أخطر فرسان المسلمين، بل أخطرهم على الإطلاق، فهو المحارب الذي لم يهزم أبداً، وهو الذي كان يتقدم للقتال عندما يبرز مقاتل من الأعداء ينهزم أمامه فرسان المسلمين فما أن تدور رحى المعركة حتى يبدو تفوق علي الخارق للعادة ويسقط العدو صريعاً. وعلي فعل ذلك وهو بعد فتى لم يتجاوز العشرين ثم استمر يفعله في كل المعارك التي خاضها المسلمون، وحين نشب القتال بينه وبين معاوية الذي كان يعد جيش الشام إعداداً مبيتاً لهذه المعركة الفاصلة انتصر علي حتى اضطرَّ جيش معاوية أن يرفع المصاحف على الحراب طلباً لوقف القتال والاحتكام إلى القرآن. فعلي محارب على رأس جميع المحاربين.

فما السر إذن في أن علياً لم يبرز في فتح من فتوحات الإسلام؟.

من المؤكد أن إبعاده عن القيادة الحربية في المعارك الهامة لم يأت اعتباطاً، فالواضح أن عمر بن الخطاب كان حذراً في كل خطوة يخطوها، وقصة عزله خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة بن الجراح قصة شائعة، وسواء أكانت انتصارات خالد، أم خلافه القديم مع عمر هو السبب في هذا العزل فإن هذه الحادثة تدل على شدة حذر عمر وحدة توقعاته للمستقبل.

كان إذن هناك تجنب لعلي وحزب علي في ميادين القتال، كما كان هناك أيضاً تجنب لهم في تولية المناصب. وعلي وحزبه منذ اللحظة الأولى رضوا بأن يكونوا حزب المعارضة فيبينوا الأخطاء وينبهوا إليها أو يقفوا ضد قرار يرون أنه مجانب للصواب. وهذا ما فعله حزب علي طوال حكم عمر.

فجو التجاهل من السلطة لعلي كان موجوداً. ولا شك أن تشكيل مجلس الشورى بصورته هذه تم عن قصد وتبصر من جانب عمر.

على أي حال فإن أعضاء المجلس بدوا كما لو كان كل منهم يريد خلافة

المسلمين لنفسه. ولهذا تصدى عبد الرحمٰن بن عوف لينفرد باختيار الخليفة، إذ بادر بخلع نفسه ليكون في موقف المحايد.

وهنا أصبح هو صاحب الحق في أن يختار من بين زملائه الخمسة ولسنا ندري ما كان موقف علي من هذه المبادرة. إنما الواضح أنه سكت على مضض وترك الأمور تسير في طريقها فما من سبيل لتغيير اتجاهها.

واعتكف عبد الرحمٰن بن عوف ثلاثة أيام وهي المدة التي جددها عمر للبت في أمر الترشيح وراح يجري اتصالات جانبية انتهت إلى أن يحصر الترشيح في عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ليختار هو بينهما. طلب من علي أن يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر فقال علي: لا.. ولكني أحاول ذلك جهدي وطاقتي. وطلب من عثمان مبايعته على كتاب الله وسنَّة رسوله وفعل أبي بكر وعمر فقال: اللهم نعم.. فبايعه.. هذا ما ترويه القصة. فعلي أراد أن يحتاط لنفسه فيما يختص بفعل أبي بكر وعمر فرفض البيعة بلا تحديد. وأياً كان الحقيقة فقد انتهى عبد الرحمٰن بن عوف أخيراً إلى ترشيح عثمان ومبايعته.

ولم يكن أمام علي إلاَّ أن يسلم بهذه النتيجة بعد أن بديت هذه البداية فاضطرَّ لمبايعة عثمان. لقد لعب حزبه دور المعارضة في أيام عمر فلا ضير أن يستمر هذا الدور في عهد عثمان، والحرب بين المعارضة والحكومة ستبدأ دون مساومات.

خلافة عثمان

وفي اليوم الأول لخلافة عثمان دخلت المعارضة المعركة بكل ثقلها وطلبت التحقيق في مقتل عمر عن طريق محاكمة عبد اللّه بن عمر.. ومع أن القضية حفظت وانتهى الأمر، فإن هذه البداية كان لها معناها، وهي أن المعارضة ستقاتل بكل ما فيها من قوة.

أما السلطة بقيادة عثمان بن عفان فقد لجأت إلى الأسلوب التقليدي الذي يتبعه الحكم غير الشعبي في كل العصور، وهو إغراق الناس بالمال لضمان سكوتهم ورضائهم، ومثل هذا الحكم يفعل ذلك مرة واحدة، ثم يتحول بعد ذلك إلى الإفادة من هذا المال على أوسع نطاق.

لم يغير عثمان في سنته الأولى والياً من الولاة الذين عينهم عمر بل أبقاهم كما كانوا.. وكانت الامبراطورية الإسلامية حينذاك تتكون من إحدى عشرة ولاية بما فيها المدينة، كانت مكة والطائف وصنعاء والكوفة والبصرة ومصر وحمص ودمشق وفلسطين والبحرين وما يتبعها هي الولايات التي تخضع للحكم المركزي في المدينة، وكان هناك عامل واحد على الجند هو الذي يتولى أمور التعبئة وتحضير الجيوش. وبهذا يكون جهاز الحكم الرئيسي مكوناً من أحد عشر عاملاً بخلاف كاتب الخلافة الذي كان يعتبر في مركز أقوى من مركز العمال أنفسم..

وللقارىء أن يتصور ولاية كمصر يحكمها عامل من قبل الخليفة، ومع هذا العامل جميع الأجهزة التي تسير الدولة. على أن أكبر الولايات وأغناها كانت أربعاً هي: الكوفة والبصرة ومصر والشام.

في هذه الحكومة الكبيرة لم يفعل عثمان بن عفان شيئاً. لم يعزل عاملاً واحداً مدة سنة بأكملها، وكأنه هو ومستشاريه، كانوا يتحسسون الطريق للسيطرة على الامبراطورية.

كان أغلب هؤلاء العمال ليسوا من أمية إلاً معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على دمشق، وسوف نرى بعد ذلك كيف سارت سياسة عثمان بالنسبة للولايات.

أما الخطوة التي استهل بها حكمه فهي زيادة أعطيات الناس، وهذه الأعطيات أشبه بالمرتبات أو المعاشات بصرف النظر عن الأعمال التي يزاولونها

سواء كانت تجارة أو زراعة أو صناعة، وهذه الأعطيات كانت تمنح نتيجة لبلائهم في الإسلام وتصرف بصفة دورية منتظمة.

وبالطبع أحدثت هذه الزيادة أثرها وسكنت من خواطر الناس وجعلتهم يسكتون عن أشياء كثيرة يستعدون لإثارتها ربما كان منها إثارة مسألة البيعة ذاتها أو مقتل عمر ومحاكمة عبيد الله ابنه لقتله الهرمزان وجفينة، واتبع عثمان هذا الإجراء بإجراء آخر هو دعوة الوفود من الأمصار والولايات ليعطيها ويجزيها. ثم زاد على ذلك فضاعف لأهل المدينة عطاءهم في رمضان. ثم أصبح يقيم من بيت المال مآدب عامة يؤمها الناس. كل هذه التوسعة تمت في الأسبوع الأول من حكم عثمان بن عفان.

ولا شك أن هذه التوسعة أحدثت أثرها في عامة الناس فسكنوا إلى حكمه وزال ما كان يمكن أن يضمروه للخليفة الجديد.

وانتقل عثمان بن عفان من إرضاء المسلمين بالصلات والأعطيات والإجازات إلى خاصة المسلمين والقيادات الكبرى منهم على وجه خاص. فهذا هو يصل من بيت المال الزبير بن العوام أحد أعضاء مجلس الشورى وأحد المرشحين للخلافة بستمائة ألف.. ووصل عضواً آخر في المجلس هو طلحة بمائتي ألف.. ونزل له عن دين كان عنده.

ونحن لانعرف لماذا وزعت هذه الصلات الضخمة من بيت المال، ولماذا استأثر بها هذان الزعيمان دون غيرهما. إلاَّ إذا كان عثمان يرى أن يتألفهما لجانبه، وأنهما أقرب الأعضاء إلى هذا الاحتمال، وسوف نجد بعد ذلك أنه يسترضي سعد بن أبي وقاص فيعينه عاملاً على الكوفة، فلم يبق بعد ذلك إلاَّ عبد الرحمٰن بن عوف صاحب المال الوفير وعبد الله بن عمرو وهو رجل زاهد، ثم علي بن أبي طالب.

ولا شك أن علياً لم يوافق على هذه الصلات المبالغ فيها والتي ليس لها معنى إلاَّ تبديد مال المسلمين وتسخيره، في الأغراض السياسية.

وما أن مضى العام الأول من خلافة عثمان حتى كان الجو مهيئاً لتوزع الولايات على بني أمية وعلى من يقول بقولهم.

عين الوليد بن عقبة بن أبي معيط «وآل أبي معيط هم آل عثمان» والياً على الكوفة. والوليد هذا رجل مشكوك في إسلامه فقد ارتدَّ ثم عاد فأسلم وكان دائماً محل شك من عامة المسملين ومن النبي حتى أنه نزل قرآن فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، وهذا الفاسق هو الوليد بن عقبة نفسه.

وبالطبع كان ذهاب الوليد إلى الكوفة مصدر قلاقل ومتاعب لم يلبث عثمان أن عزله ليضع مكانه رجلاً آخر من بني أمية هو سعيد بن العاص. ورجلاً آخر من أقاربه هو عبد الله بن سعيد بن أبي سرح والياً على مصر. وهو أيضاً من المشكوك في إسلامهم فقد كان من الذين سخروا من النبي وقاوموه أشد المقاومة واشتهر عنه أنه كان يقول ساخراً من القرآن: «سأنزل مثل ما أنزله الله». وكان من الذين أهدر الرسول دمهم لولا أن جاء به عثمان للرسول مسلماً.

وهكذا سار عثمان في الولايات هذه السيرة يعزل هذا ويعين ذاك ليسيطر حزبه تماماً على الحكم، كما ظهرت في عهده وبالقرارات التى أصدرها الملكيات الكبيرة، وتحولت الدولة إلى نظام جديد للأغنياء وذوي العصبية من قريش عامة ومن بني أمية خاصة[١].

---

(١) كان معاوية في الأصل والياً على دمشق وحدها، ثم ضمَّ إليه الأردن، ولما مات سرخس والي حمص وقنسرين ضمهما عثمان إلى معاوية أيضاً. وهكذا أصبح معاوية خلال سنتين من بدء خلافة ابن عمه عثمان والياً على كل ما يطلقَ عليه اليوم اسم سوريا الكبرى، وأصبح نفوذه مطلقاً لا تهيمن عليه أية مراقبة، ولم تمض بضع سنوات حتى أصبحت سوريا دولة ضمن الدولة الإسلامية، وأصبح معاوية أعظم الولاة خطراً. وفي خلال سنوات صار بإمكانه أن يضع في أي ميدان قتال يختاره نحواً من مئة ألف جندي.

وقد لقي معاوية عماراً بن ياسر يوماً في المدينة فقال له: «إن في الشام مئة ألف فارس، كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً وقرابته، ولا عمار أوسابقته، ولا الزبير وصحبته». =

موقف المعارضة

ولم تسكت المعارضة بل مضت تعبىء الجماهير، وتهاجم الخليفة صراحة، ورأينا في هذه الحملات علياً يتصدر المعارضة. . ورأينا عمار بن ياسر وأبا الدرداء وعبد الله بن مسعود وأبا ذر الغفاري، ثم محمد بن أبي بكر ومالك الأشتر وغيرهم كثير ممن يكونون الدعامات الشعبية أو ممن التقت مصالحهم مع الشعب يهاجمون سياسة عثمان هجوماً عنيفاً.

وقد جاهر عمار بالهجوم على الخليفة، كما جاهر أبو ذر باتهام الخليفة وعماله بالخروج على شريعة الإسلام وراح يحض الأغنياء على أن يطرحوا كنز المال ويعدد لهم الآيات القرآنية والسنَّة النبوية حتى نفاه عثمان إلى الشام ليكون تحت رقابة معاوية الذي خلص له حكم الشام كله في عهد عثمان حيث كانت له ولاية دمشق وحدها في عهد عمر، والذي كان يخوف به عثمان خصومه ومعارضيه، وعند معاوية وقف أبو ذر أمام قصر الوالي الجديد «الخضراء» ليهاجم ذلك الإسراف في استغلال المسلمين، وليهدد بأنه حتى الآن يوجه الخطاب إلى الأغنياء، وإنه من غده سيوجهه إلى الفقراء ليقوموا بالثورة، وأوذي أبو ذر في سبيل ذلك إيذاءً كثيراً حتى انتهى به الأمر إلى النفي وحرمانه من العطاء ففقد أبناءه واحداً واحداً وكان يمضي أياماً بلا طعام.

ومات أبو ذر في صحراء الربذة وحيداً مع زوجه العجوز لا يملك إلاً عنزة والقليل البالي من الثياب.

= وهكذا أصبح سلطان الإسلام في قبضة شبان بني أمية لا يتحرجون في استعمال أي وسيلة في سبيل أهدافهم. لقد تحولت الخلافة إلى مملكة أموية بكل معانيها. ففضلاً عن معاوية، كان الوليد بن عقبة في الكوفة، ثم استبدل به أموي آخر هو سعيد بن العاص. وكان في البصرة عبد الله بن عامر، وفي مصر عبد الله بن أبي سرج.

ولقد كان تقل قوة الدولة الإسلامية وثروتها في هذه الأقطار الثلاثة: سوريا والعراق ومصر. أما البقية فتابعة لها إدارياً ومالياً وفي كل شيء.

وما حدث لأبي ذر حدث لغيره من رجال الشعب، فكان هذا كله تنبيهاً للرأي العام ودعوة إلى الثورة.

وكان محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يدعوان إلى مثل ما دعا به أبو ذر. ويقال: إن عمار بن ياسر انضمَّ إليهما في مصر ودعا دعوتهما ولعمار مكانة في الإسلام.

أما في الكوفة فكان هنالك مالك الأشتر وهو صاحب الخطاب الناري الذي وجهه إلى عثمان يتهمه بالجور والظلم، والذي لعب دوراً كبيراً في إقصاء سعيد بن العاص، والي عثمان عن الكوفة وسوف نرى مالكاً بعد ذلك في مواقفه العديدة إلى جانب زعيم الشعب علي بن أبي طالب.

كان السخط عاماً إذن في المدينة... يجرؤ عثمان على ضرب وإهانة كبار الصحابة وخاصة صحابة النبي الأوفياء من الذين يرون في تطبيقات عثمان للإسلام حيدة عن أصوله. كما كان السخط في الكوفة على أشده وفي مصر زاد الغليان وأصبحت الثورة أمراً لا بدَّ منه حتى تأخذ عدالة الإسلام طريقها إلى التنفيذ. ولكن الأمر لم يكن سهلاً. فلقد ضرب الفساد في كل الأرجاء واختلطت القيم السامية بالأخلاق الوضيعة واخترعت القصص لتجريح زعماء الشعب وضعف من ضعف من المناضلين تحت تأثير المال والمتاعب، وصار الصراع حول المناصب والجاه هو أساس كل شيء وأصبح المناضلون في دوامات بين التزام الجادة أو المشي مع التيار واستغلَّ الحزب الحاكم هذا كله ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يفرق شمل المعارضة تماماً.. وفي نفس الوقت لم تكن العناصر المعارضة لحكم عثمان كلها شعبية، إذ كان هناك الذين فاتتهم المناصب، أو الثروة والأعطيات والصلات.

حركة المصريين

لسنا نعرف كيف دبرت الثورة، أو على الأقل هل تمت بخطة وتدبير أم جاءت تلقائية نتيجة للسخط العام. ولكن المؤكد أن الرسائل كانت توجه من

المدينة من كبار أصحاب النبي إلى المقيمين في الأمصار من المسلمين بأن الجهاد الحقيقي من أجل الإسلام لم يعد في فتح الثغور والأمصار بل في إزالة الحكم المنحرف وإسقاطه. وإقامة حكم جديد على أساس سليم من كتاب الله وسنة رسوله.

ومن المحتمل أن هذه الرسائل كانت تتلى في المحافل، أو في اجتماعات سرية، وتحدث أثرها المعنوي الكبير فأصحاب هذه الرسائل لهم من المنزلة والمكانة في الإسلام ما لعثمان نفسه إن لم تزد.

والطريقة التي جاء بها المصريون إلى المدينة تدل دلالة قاطعة على أنهم قد فكروا ودبروا حتى لا يمنحوا للخليفة فرصة الاستنجاد بجيش من الشام أو من غيرها لمقاومتهم. فقد خرجوا على أنهم ذاهبون للعمرة. فإذا بهم يذهبون إلى المدينة رأساً في عدد يقارب الألف وهناك يستقبلهم عثمان ويجادلهم ويجادلونه، فيعد أنه سوف يقلع عن الأخطاء التي ارتكبها. وسوف يعزل الولاة الذين نهبوا ثروة المسلمين ووطؤوهم بالأقدام وفرقوا شملهم. وذهب الوفد عائداً ومضى الوقت ولم يغير عثمان من سياسته. ويقال إنه بعد أن وعد واستعبر غيَّر رأيه كاتبه ووزيره ومستشاره مروان بن الحكم بن عم عثمان وابن الرجل الذي حارب النبي وآذاه حرباً عنيفة قاسية حتى رفض النبي أن يساكنه مدى الحياة بعد أن أتى به عثمان مسلماً، إذ أنه بعد إسلامه الخادع لم يكف عن إيذاء النبي والسخرية به. على أن الأرجح أن عثمان صرف وفد مصر ريثما يفكر ويتأمل، ولعله ظنَّ أن هذه الثورة لن تلبث أن تنطفىء أو لعله فكَّر في الانتقام من زعمائها، وقد أمسك وفد المصريين خادماً خاصاً للخليفة ومعه كتاب منه لعامله على مصر أن يفتك بقادة المصريين. ولكن ماذا ينتظر الخليفة وقد بدت بوادر الثورة في شكل تجمعات لأول مرة، وأصبحت نذرها واضحة، إذا كان سيفي بما وعد فله الحق ألاّ يتخذ من الإجراءات ما يحميه من هذه الثورة، وإن كان أخذ بمشورة مروان بن الحكم، فتنصل من وعده وترك الأمور تسير سيرها الأول ـ وهذا ما حدث ـ فكان المنطق يقتضي أن يأخذ حذره من ثورة مؤكدة

ظهرت بوادرها في الجدل الذي ثار بينه وبين الوفد واضطرَّ فيه أن يبذل الوعود.

ولعل عثمان لم يكن يتوقع أن تصل الثورة إلى ما وصلت إليه فيما بعد.. ولعله كان يعتقد أن معاوية وعبد الله بن أبي سرح وغيرهما سوف ينجدانه عندما يتحزب الأمر. فكان في مركز قوة تجعله لا يأخذ حيطته الكافية. على كل حال فإن تلك الرسالة ليست شيئاً بعيداً عن الاحتمال، فقد كان عثمان ينفي الثائرين ضده، وكان يأمر بضربهم ضرباً مبرحاً على علو مكانتهم في الإسلام. وكان يرسل بعضهم لمعاوية حتى يعاقبهم ولعبد الرحمٰن بن خالد ليذلهم ويكسر شوكتهم فمثل هذه الرسالة ليست بمستبعدة.

والذي حدث من المصريين أنهم انتظروا حتى يفي الخليفة بوعده فلم يف. ولا شك أن أهل الكوفة وقد استطاعوا أن يعزلوا عامل الخليفة ويصروا على تولية أبي موسى الأشعري، قد عرفوا بما دار بين المصريين وبين عثمان. وانتظروا كما انتظر المصريون فلما لم يتحقق شيء من وعد عثمان بدأوا يستعدون هم أيضاً لمواجهته، وربما تم الاتفاق لخلعه. فحديث الخلع كان شائعاً، وقد ردَّ عليه عثمان في أكثر من مناسبة، زاعماً أن قميص الخلافة قد كساه الله إياه، فلا يملك خلعه عنه إلاَّ الله، متناسياً أن الله قد ترك للناس تصريف أمور دنياهم.

تكاتف إذن أهل الكوفة وأهل مصر، ومن المؤكد أن كثيرين من أهل المدينة تكاتبوا وأهل هذين البلدين فجاءت الوفود من الكوفة والبصرة ومصر وذهبوا إلى المدينة ليخلعوا عثمان.

ويقال أن علياً بن أبي طالب والزبير بن العوام وغيرهما من كبار المسلمين وقد عسكروا بأصحابهم حينما علموا بمقدم الوفود مما دفع هذه الوفود إلى إظهار العودة، حتى إذا سكن علي وأصحابه إلى بيوتهم عادوا فدهموا المدينة واحتلوها بغير قتال.

وهذه الواقعة مشكوك فيها، فالأمور لا تمضي بهذا الشكل الهين، وليس

من المعقول أن تنطلي مثل هذه الحيلة على كبار المسلمين والتي يقال أن الوفود قد احتالت بها لتحتل المدينة دون قتال. . ولقد ناصب علي العداء لعثمان ولامه وهاجمه، بل رفض الوساطة بين الثوار وعثمان بعد أن توسط في وفدهم الأول فخذله عثمان إذ لم يف بعهده.

إنما الأرجح أن علياً قد جلس يترقب ما يحدث محاولاً أن يخفف من ثائرة الثوار، وأن يوفق إلى خلع عثمان دون لجوء إلى إراقة الدماء. ولذلك كان يتصدى للثوار مهدئاً ومقنعاً كما كان يتصدى لعثمان ناصحاً وموجهاً. . حتى إذا اعتلى عثمان المنبر ليخطب في الوفود. عنف الثوار وقام قوم من أنصاره يدافعون عنه فهبَّ الثوار فأقعدوهم عنوة، ثم انتهى الجدل إلى أن حصبوا بعضهم بعضاً حتى أصيب عثمان نفسه وغشي عليه وحمله أصحابه إلى بيته. فحاصر الثوار البيت إلى أن وقعت الواقعة وقتل الخليفة في بيته.

إن الثورة إذا اشتعلت لا يستطيع أحد إيقافها، وهذا ما حدث بالضبط ومن المؤكد أن علياً لم يكن يريد أن تتطور الأمور إلى سفك الدماء، وكان يكره أن تكون هذه سابقة في الإسلام لها ما يليها من آثار. ولذلك قد بذل جهداً حقيقياً للإمساك بزمام الثورة، وأرسل ولديه للحفاظ على حياة الخليفة يدافعون عنه مع المدافعين، إلاَّ أن الحوادث انفلت عيارها ولم يكن بد من النتيجة الحتمية وهي القضاء على الخليفة.

وقد أسفرت الثورة عن نتائجها، وحققت هدفها الأول وهو تولية زعيم الشعب علي بن أبي طالب، ليبدأ الإسلام يسترد سيرته الأولى وتمضي الثورة الاجتماعية في الطريق التي رسمها الرسول.

ثورة الشعب

من الصعب أن نتابع التطور السياسي والاجتماعي في المجتمع العربي دون أن نمسك دائماً بالخيوط الأولى لطرفي الصراع، تلك الخيوط التي نسجت في وقت مبكر جداً، وقبل الدعوة الإسلامية، والتي خلقتها الظروف الاجتماعية

والفكرية في تلك المدينة التجارية الشهيرة مكة. . وعلى أساسها تشكلت قوى الصراع، حتى انطلقت الدعوة الإسلامية لتكون عقيدة الفقراء والمستضعفين، وسلاحهم الثوري، ودليل عملهم في نضالهم من أجل حقوقهم وكرامتهم الإنسانية.

والدعوة الإسلامية لا تختلف عن أي ثورة كبرى من الثورات التي عرفتها الإنسانية، في أنها تنطوي على جانبها المادي، كما تنطوي على جانبها الروحي، وقد تبدأ الشرارة بمحركات قاهرة من الواقع الأليم، ولكنها تنطلق دائماً من هذه البداية المتواضعة لتصوغ فكراً إنسانياً شاملاً يمتد إلى كل نشاط إنساني. إن الثورات الكبرى لا تحدث لتعيد توزيع الثروة توزيعاً عادلاً فحسب، بل إنها تبني هيكلاً روحياً وفكرياً وفلسفة جديدة تمضي بها البشرية جميعاً خطوات على طريق التطور.

ومن هنا تنتقل الثورات من بؤرة ميلادها إلى كل مكان في الأرض. . ولهذا فكل ثورة حقيقية هي بالضرورة ثورة عالمية.

ولا ينقص هذا أو يضعفه محلية الأوضاع التي تنطلق منها الثورة، لأن الثورة التي تستحق هذا الاسم ليست تعديلاً في المراكز الاقتصادية والاجتماعية في بيئة معينة أو ظروف معينة، بل تعديل جذري لحياة الإنسان وفكرته عن العدل والحرية والكرامة، ونزوعه الأزلي للاتصال بالفكرة العليا التي تجمع هذا كله. فكرة الله.

إن الانطلاق من الأوضاع الاجتماعية لا يعني انحصار الثورة في إطار هذه الأوضاع، بل إنه من الصعب أن نميز في العمل الثوري جانبه الاجتماعي من جانبه الفكري، أو الروحي، فكلاهما متداخل، تداخل معنى الحق والحرية والعدل في معنى الله ورمزه، وكل منحى إلى الخير الجزئي هو منحى إلى الخير المطلق. إلى الله.

كان حزب العدل الاجتماعي في صدر الإسلام هو الحزب الأكثر إيماناً

بالإسلام والأقرب إلى روحه، والأشد تمسكاً بمبادىء الإسلام، ولهذه الاعتبارات أيضاً كان أقل الأحزاب المصارعة قدرة على التآمر وسفك الدماء حتى من أجل نجاح فكرة العدل والحرية، فمن كانت له هذه المثل العليا من أهدافه يستحيل عليه أن يتوسل إليها بأساليب تتنافى مع المثل العليا.

ومن ناحية أخرى نجد أن الأحزاب التي تزدري الجماهير وتؤمن بالتسلط والامتياز والاستئثار بالثروة سريعة العمل مطلقة اليد والفكر، ترتكب ما تشاء من الجرائم دون لحظة تردد مما يكسبها النصر السريع وهي في نفس الوقت تشترك في سمة واحدة، فأغلب قادتها من الخصوم الأشداء للإسلام. ومن الذين استسلموا للدين الجديد حين لم يكن هناك بد من الاستسلام، فهم من المهدر دمهم لما ارتكبوا من جرائم ضد الإسلام ثم عفا عنهم نبي الإسلام، ومن الطلقاء ومن المتأخر إسلامهم.

وإذا حاولنا أن نحصي أسماء قيادات الحزب المتسلط باستثناء عثمان بن عفان ونفر قليل من كبار المسلمين الأوائل وجدنا أن الذين تولوا السلطة فعلاً في عهد عثمان ممن تنطبق عليهم صفة الطلقاء وأبنائهم، أو ممن وقفوا من الإسلام موقف خصومة وعداء، حتى كسرت شوكتهم وأعلنوا إسلامهم نفاقاً.

وقد ينساق إلى قيادة هذا الحزب بعض المسلمين الكبار الذين كانت أوضاعهم الاجتماعية قبل الإسلام وبعده أوضاعاً ممتازة من حيث الثروة والمكانة الاجتماعية، وهؤلاء مع حسن إسلامهم لم يستطيعوا التخلص تماماً من تأثير أوضاعهم عليهم فتحددت رؤيتهم الإسلامية للعدل الاجتماعي وضاقت حدودها فكان هواهم مع الأحزاب المتسلطة، وكانت هذه الأحزاب تستغل شهرتهم وحسن بلائهم وتنافسهم فيما بينهم أحسن استغلال في شدهم إليها وضمهم إلى صفوفها.

ولقد كانت للفتوحات الإسلامية الأولى تأثيرات واسعة النطاق على الجيش الإسلامي، إذ فتحت أمامهم الثغور واحتلوا من الممالك ما لم يحتله في

عصرهم غيرهم من الأمم العريقة. ولهذا اتسعت أمامهم الغنائم، وبدأ الصراع على الأسلاب وتصدرت السياسة مكان الحق ولكنها لم تستطع أن تنفرد بالتصرف دون أن تستند إلى مزاعم من الدين.

لقد تغيرت الأوضاع الاجتماعية، إذ لم يعد طرفا الصراع الأساسيين هما تجار مكة وأثرياؤها ضد فقرائها ومستضعفيها، بل أصبح من الاتساع بحيث شمل ملايين من البشر بمختلف طبقاتهم وميولهم، وأصبح المقاتلون المسلمون فاتحين مسيطرين لا مجرد مستضعفين أو فقراء. وهذه هي الصعوبة في الأمر. فالدافع الاجتماعي لثورة الشعب اختفى تقريباً، فما من رجل مسلم من المستضعفين لا يستطيع أن ينضم إلى جيش من هذه الجيوش، أو لا يستطيع أن يغنم من غنائم الحرب.

ودعوة الشعبيين إلى تطبيق العدل الاجتماعي لا تجد لها سنداً إلاَّ فيما يستطيع أن يقنع به الفكر والعقيدة عقل الإنسان، وأخلاقيات معينة يكونها الدين الإسلامي في نفس معتنقيه. ولكي تحدث هذه الأخلاقيات أثرها ينبغي أن يصل الإنسان إلى أعلى مراتب الفكر، وأعلى مراتب الخلق الإنساني وهو أمر لا يتوافر في جميع الناس.

واستغلَّ الحزب المتسلط في خلافة عثمان هذه الأوضاع فوسع فيها ما استطاع وأغدق على المحاربين وهم القوة الضاربة في أي ثورة، وترك الخلاف المذهبي يأخذ مجراه، مطمئناً إلى أن الغلبة في النهاية لحكم الأوضاع الاجتماعية على القيم الروحية والأخلاقية.

وجاء المتسلطون في خلافة عثمان فأطلقوا الملكيات ولم يقيموا عليها حدوداً ما. وأصبح الحكم مستقراً لولا أنه تجاوز قيادته الحزبية إلى نعرة قبلية فمكن لآل أبي معيط ولآل أمية على رؤوس غيرهم من القبائل. وأصبح يحصر القيادة والسلطة في تلك القيادة التي كانت تتصدر فيما مضى المشركين ضد المسلمين. ومع ذلك فقد كان هناك المعدومون وأصحاب الثروات الطائلة.

ووجد الشعبيون الأحرار أنهم يدعون للثورة أنماطاً متعددة من الناس. الأثرياء المبعدون عن المناصب، رجال الجيش غير المقربين، أو غير المنتمين إلى أمية وأحلافها، كبار الصحابة الذين لم يعد لهم يد فيما يجري من أمور الدولة، وفي النهاية الجماهير التي لم يكفل تماماً حقها في الرزق.

ونستطيع القول بأن الشعبيين الأحرار وجدوا حولهم حلفاء لم يكن يتوقع أن يعقدوا معهم حلفاً. بل ولم يكونوا يريدون أن يعقدوا معهم حلفاً. ولذلك سنرى دائماً أن كثيراً من زعماء الانقلابات في ذلك العصر يتأرجحون بين الخير والشر في سرعة عجيبة، وسنجد أن قاتل ومشتت العلويين فيما بعد رجل كان إلى جانب علي في بداية ثورة الشعب.

وفي هذا الصراع كان الشعبيون الأحرار يأملون أن يمسكوا بدفة الحكم، ويوجهوها وجهتها الإسلامية الصحيحة، ويبدو أنهم لم يحسبوا حساب كل هذه القوى المتعارضة التي انضمت إلى صوفهم لأغراض متفاوتة.

وحين نتحدث عن بداية ثورة الشعب، سنجد أن غالبية كبار المسلمين في المدينة كانوا يضيقون بسيرة عثمان وحاشيته في الحكم، رغم أن عثمان أغدق عليهم من بيت المال الثروة الوفيرة، سنجد أن طلحة والزبير من بين المحرضين على الثورة ضد عثمان. ثم ينقلبان فجأة بعد مبايعة علي بالخلافة يحاربان ضده. وسنجد أن عائشة تهاجم عثمان وتحض على الثورة ضده، ثم تتحول إلى حرب علي مع طلحة والزبير.

لم تكن القوى الثائرة ضد عثمان متوحدة فكرياً، ولم تكن دوافعها للثورة دوافع مشتركة.

وإلى جانب هذا فالثورة لم تمتد إلى قلب البلاد المفتوحة أو إلى شعوبها. فحين نسمع أن الذي بدأ الثورة على عثمان هم المصريون لا يخطر على بالنا الشعب الذي يسكن مصر منذ قديم الزمان، بل قادة المسلمين الذين استقروا في مصر، ومن البديهي أنه لم يكن من المستطاع أن تدخل شعوب الدول المغلوبة

في هذا الصراع السياسي. أولاً لأن غالبيتها لم تدخل في الإسلام في أول عهود الفتح، وثانياً لأنها لم يمض عليها وقت طويل يتحقق فيه الاندماج في العالم الجديد، بحيث يصبح ركناً أساسياً تؤثر فيه وتتأثر به، وكذلك القول عن غير مصر.

على أن الأمر لا يخلو من ظهور بعض أبناء هذه الولايات في الجو السياسي ولكنه ظهور محدود الأثر ويكاد يكون معدوم القيمة.

وهنا يتردد اسم عبد الله بن سبأ، وهو شخص قيل أنه كان يهودياً وأسلم، تصوره بعض كتب التاريخ على أنه كان الشيطان وراء الفتنة التي قتل فيها عثمان، بل وراء الأحداث جميعاً.. وقد وقف منه الكتاب مواقف متعارضة فمنهم من ينكر وجوده أصلاً، ومنهم من يعتبره أساس في كل ما جرى بل أساس ما دخل في الإسلام من مذاهب غريبة منحرفة.

وعبد الله بن سبأ شخص خرافي بغير شك، فأين هو من هذه الأحداث جميعاً، وأين هو من الصراعات الناشبة في هذا العالم الكبير المتعدد.. وماذا يستطيع شخص مهما تكن قيمته أن يلعب بمفرده بين هذه التيارات المتطاحنة. إن الأحداث السريعة العنيفة المتلاحقة لم تكن في حاجة إلى شخص ما حتى ولو كان الشيطان نفسه لأن أصولها بعيدة الغور وقوة اندفاعها لا قبل لأحد بالسيطرة عليها أو توجيهها فضلاً عن تشابكها أو تعددها بما لا يدع لأي قوة أن تزيدها تعقداً.

وساذج بغير شك التفكير الذي يتجه إلى خلق شخصية خرافية كهذه ليعطيها أثراً ـ أي أثر ـ فيما حدث من أحداث. وأكثر سذاجة منه من يظن لهذا الرجل تأثيراً على كبار الصحابة ومنهم أبو ذر الغفاري نفسه الذي لم يقبل مناقشة من أبي هريرة المحدث المعروف فضربه فشجه. إنما كل ما حيك من قصص حول عبد الله بن سبأ هو من وضع المتأخرين فلا دليل على وجوده في المراجع القديمة فضلاً عن وجوده أصلاً.

الكتل المتصارعة إذن لم تكن متجانسة، ولم تكن من عناصر غير العناصر العربية، فأهل مصر الثائرون هم من قادة العرب الذين أقاموا فيها. وأهل الكوفة والبصرة والشام كلهم سواء في أنهم رجال الجيش، أو السياسة من العرب، الذين أقاموا فيها وليسوا هم من أبنائها الأصليين.

والذي حدث أن اتجهت أكثر من قوة سياسية إلى إسقاط عثمان وكانت الكتب تنطلق من المدينة إلى الثغور لتحث الجيش والقادة السياسيين على أن يتجهوا إلى المدينة لإسقاط عثمان وخلعه، وهذه الكتب من عناصر مختلفة ليست من الشعب، بل لم تقف بعد ذلك إلى جانب الشعبيين الأحرار.

ومن الصعب ـ ولم يمض على الإسلام إلاَّ فترة وجيزة ـ أن يتنازل المسلمون بسهولة عن المبادىء الإسلامية، وكان علي بن أبي طالب يمثل في نظر غالبية المسلمين الرجل الوحيد الأقرب إلى روح الإسلام وأصوله الصحيحة. ولكنه في نفس الوقت يمثل السياسي المتشدد، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين من القادة والطامحين والمستفيدين ينظرون إلى تولية علي بن أبي طالب نظرة حذر وتردد. وأصحاب المصالح أولى بهم أن يتخوفوا من علي وأن يعملوا جهدهم أن لا يصل إلى الخلافة.

وعلى ذلك فمجيء علي إلى الخلافة هو أمر دونه القتال.

والعوامل التي دفعت إلى الثورة على خلافة عثمان عديدة بتعدد أطرافها، وبعضها كان خفياً استتر وراء خروج عثمان ومعاونيه على الأصول الإسلامية وهو الشعار العام الذي اتخذته الثورة وهو الموضوع الذي ناقشه أهل المدينة مع عثمان في المسجد. وهو نفسه الذي ناقشه أهل مصر حين وفدوا على المدينة في المرة الأولى يطلبون من عثمان أن يحق الحق ويتبع ما يوصي به الإسلام من مبادىء.

وتحت هذا الشعار الكبير «العودة إلى المبادىء الإسلامية الصحيحة» من حيث إعطاء كل ذي حق حقه، ومن حيث تساوي المسلمين في الحقوق،

ومن حيث عدالة الإسلام الاجتماعية التي عمل على تحقيقها رسول الله ﷺ من قبل ودعا إلى إتمامها علي بن أبي طالب وحزبه من بعد، كل هذا كان شعار الثورة، وفي كل مناسبة تجادل فيها المعارضون مع عثمان كانت المناقشة تدور حول هذه المعاني، بل إن كتب التاريخ تحفظ لنا الكثير من المناقشة التي دارت بين عثمان وأبي ذر الغفاري قبل الثورة حول عدالة الإسلام الاجتماعية كما تحفظ لنا ما جـ ى بين علي بن أبي طالب وعثمان في هذا النطاق أيضاً، وكذلك المناقشات بين عمار وعبد اللّه بن مسعود وغيرهما من زعماء الشعب، وبين عثمان.

وهذا هو المعنى العام الذي التفت حوله الثورة. وتذرعت به. وهو الذي كان يمثل اتجاه الرأي العام لدى المسلمين. ومع ذلك فقد كانت تختفي تحت هذاالمعنى أغراض كثيرة ومصالح تتفق مع أصحاب هذه النظرة في إسقاط عثمان وتختلف معهم في أنهم لا يريدون أن يمضي العدل الاجتماعي إلى أقصى مداه.

فهنك الذين حرموا من المناصب لاستئثار بني أمية بها، ومنهم عمرو بن العاص نفسه الذي عزل عن ولايته ليتولاها بدلاً عنه عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح قريب عثمان، وما يظن أحد أن عمرو بن العاص كان موافقاً لسياسة علي وحزبه، ومواقفه جميعاً تنأى به عن أن يكون ذا هدف اجتماعي في خلع بيعة عثمان. وهناك معاوية نفسه الذي أثار تقاعسه عن نجدة عثمان تساؤل الكتاب والمؤرخين.

فسواء كان هذا التقاعس مبيتاً ومدبراً فإنه كان يفتح ثغرة إلى الخلافة أمام معاوية أو جاء نتيجة عدم تقدير طلحة والزبير اللذان كانا يطمعان في الخلافة، وهما قد أرسلا إلى القادة في الثغور ليعودوا إلى المدينة حيث يحتاج الكفاح في سبيل الله إليهم فيها أكثر من حاجتهم إليهم في الثغور.

أغراض أخرى متناقضة للشعار العام الذي سارت به الثورة ولكنها جمعت أصحابها حول الثورة وتكاتفت جميعها لخلع بيعة عثمان.

كان الجميع يحاولون الاستفادة من الموجة الثورية العارمة، وكل حسب ظروفه وقدراته.

أما بالنسبة لعلي وحزبه فإن الأمر كان مختلفاً، فهذا الحزب هو الذي تولى المعارضة الهادئة في عده أبي بكر وعهد عمر ثم المعارضة العنيفة في عهد عثمان، فقد كان أعضاء هذا الحزب لا يعملون في الخفاء بل كانوا يخطبون جماهير المسلمين في المساجد والأماكن العامة مهاجمين هذا العهد ومذكرين أصحابه بوجوب العدول عن سيرتهم فيه لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله، ولقد انتشروا في كل البقاع، انتشروا في الشام نفسها ولاقوا فيها عنتاً شديداً. وقد عرفنا كيف أوذي أبو ذر في الشام ولا نظن أن أبا ذر كان الداعي الوحيد ضد هذا الحكم. فقد رأينا رجالاً غيره يجهرون في حضرة معاوية بالجدل الحاد فلا يملك معاوية إلاً أن يسكت، بل أن يتمشى معهم تقية وانتظاراً للحظة المناسبة، وما حدث في الشام حدث في مصر وفي الكوفة والبصرة بل وفي المدينة أيضاً.

وإذا كانت هناك مكاتبات سرية بين كبار القادة المسلمين وبين قادة الجند في هذه الأمصار، فإننا لا نستطيع التأكد من أن الثورة دبِّرت ورسمت خطوطها بواسطة حزب علي.

من المؤكد أن قادة الثورة قد دبروها، وحسبوا حسابها، فهذا واضح من طريقة خروجهم من مصر، وواضح من طريقة عودتهم المفاجئة.

أما إن علياً كان على علم بهذا التدبير ومشتركاً فيه فهذا ما لا يستطيع أحد إثباته، ولكن رجلاً كعلي لا يمكن أن يرسل ولديه الحسن والحسين ليكونا إلى جانب عثمان في حصاره في بيته، وهو مدبر للثورة عليه.

ولقد جاهر علي عثمان بالرأي المضاد القوي، في أكثر من مناسبة، بل وبمناسبة وفود الثوار، إلاً أنَّه لم يخرج من هذا النطاق إلى المشاركة الإيجابية في إسقاطه، لقد رفض في آخر الأمر الوساطة، ورفض أن يقف في وجه الثوار، وكان واضحاً أنه يؤيد ما يريده الثوار. أما أنه حضَّ على قتل عثمان فهذا ما لم

يثبت أبداً. بل على العكس لدينا من أقواله ما ينفي هذا، ولدينا من المعرفة بسلوكه ما يتناقض مع احتمال وجود أي اتفاق سابق على وقوع الثورة.

والراجح أن الثوار الأحرار من حزب الشعب قد خفوا للعمل، وأنهم عملوا وفي اعتبارهم أن يرشحوا علياً للخلافة، أما علي نفسه فلم يحط بهذا التدبير علماً.

ولا يعيب علياً أن يشترك في الثورة، بل على العكس يعيبه ألا يشترك فيها وألاً يوجهها التوجيه الصحيح، فما الإسلام إلاً ثورة، وما كفاح الرسول العنيد إلاً مثال للثورية الإيجابية في كل خطوة من خطواته.

على أن الأشبه بأخلاق علي بن أبي طالب هو ما فعله فعلاً من نصح شديد ومن جهر بالخصومة لعثمان، وهو الذي يعلم حق العلم معنى الحديث الشريف: «من رأى منكم منكراً فليقوّمه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان»، فعلي كزعيم كبير ورجل مسموع الكلمة بين المسلمين كان يجاهر بلسانه، وكان يؤجل الثورة بالقوة على عثمان، ولعله لم يفقد الأمل في أن يعود عثمان إلى الجادة، وقد جرَّب علي هذا كله في خلافة عمر ووجد استجابة مهما تكن حذرة ومتلكئة فإنها كانت مثمرة ومبشرة بكل خير.

وعلي كان يحذر الفتنة والإسلام لم يزل غضاً والعهد بحروب الردَّة ليس بعيداً، والخلق الإسلامي لم يتأصل بعد في كل النفوس.

على أنه ربما كان علي قد رأى أن تخلع بيعة عثمان، ووافق عليها، أما أن يخلع عنوة وبالقتل فهذا ما لا سند له. ولولا أن تمسَّك عثمان بقميص الخلافة حتى الموت ما وقعت الواقعة وما قتل الشيخ في بيته هذه القتلة الشنعاء. فما زال الثوار يطلبون خلع عثمان وما زال أكثر الصحابة حتى من أعضاء مجلس الشورى يسكتون على هذا الطلب دليل الموافقة، وما زال عثمان يقول: «لا أخلع قميصاً كسانيه الله» حتى حدث أن ثارت ثائرة الثوار ولم يجد الخليفة نصيراً يؤيده في

الثبات على الخلافة، فرمى أنصاره صحابياً شيخاً من خلف أسوار البيت فقتلوه، وكان دماً بدم، وصعد الثوار إلى حجرة عثمان فبادروه بالطعن وكان أولهم محمد بن أبي بكر الصديق نفسه فيما تروي بعض الروايات.

ولم يستشعر أحد حينذاك ـ أي غضاضة فيما حدث ـ بل على العكس بلغت حماسة الرأي العام في المدينة، سواء من أهلها أو من الثوار الوافدين، حداً جعلت دفن عثمان يتم ليلاً وفي حذر شديد وفي مكان غير لائق.

بيعة علي

ورشَّح الثوار علياً للخلافة، وطلبوا البيعة له.

ولقد قيل في هذه المبايعة الكثير، قيل بأن الثوار عرضوا البيعة على علي فتردد، وقيل أن أهل المدينة من المهاجرين والأنصار فكروا ليختاروا بين الأربعة الباقين طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعلي. أو هم قد فكروا في الثلاثة المتنافسين طلحة والزبير وعلي لأن سعداً اعتزل الفتنة وآثر ألاَّ يكون طرفاً فيها.

وهذا يصور الثورة على أنها كانت عشوائية تماماً، وأنها لم تكن تندرج تحت سياسة معينة تهدف إلى إصلاح ما أفسد عثمان، أو إلى سياسة هي على النقيض من السياسة التي اتبعها عثمان.

فالثورة منذ أيامها الأولى كانت تطلب إلى عثمان أن يخلع نفسه، فليس من المعقول أن لا يكون لدى الثوار ـ عندئذٍ ـ اسم الخليفة الذي يحقق أهداف الثورة.

وإذا كان هوى أهل مصر ـ وهم الذين قاموا بالجانب الأكبر من الثورة ـ مع علي، فما الذي يعنيه هذا التردد وذلك التفكير الذي أشار إليه المؤرخون.. بل هم قد زعموا أن علياً تردد فألحف عليه الثوار من مؤيديه. بل قيل أيضاً أن أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير قد حاولوا أن يجعلوا الخلافة للزبير. وقد يكون الزبير قد دبَّر واتفق مع أهل الكوفة سلفاً على أن يبايعوه بعد خلع عثمان.

وقيل أيضاً أن هوى أهل البصرة كان مع طلحة، ولكن الثورة بقيادة المصريين وبموافقة غالبية أهل المدينة من المهاجرين والأنصار كانت واضحة الأهداف منذ أول انتفاضة لها، الأمر الذي يبرر ذلك الاتفاق السري بين طلحة وبعض أهل البصرة وبين الزبير وبعض أهل الكوفة. . فما لم يكن واضحاً هو لو أن الاتجاه كان نحو علي ما كانت هناك حاجة لكل هذه التدابير.

ومنطق الحوادث يقتضينا أن نرفض الرأي الذي يقول بأن أهل المدينة وإن الثوار بعد مقتل عثمان وقعوا في حيرة لا يدرون لمن يبايعون بالخلافة، وأن علياً قد تردد هو أيضاً وأن الثوار قد ألحوا عليه، وأنه لم يقبل إلاَّ حين رأى المهاجرين والأنصار يلحون عليه أيضاً.

المعقول أن الثورة كانت تتجه من الوهلة الأولى للرجل وللحزب الذي يمثل اتجاهاتها وإن المعارضين لخلافة علي حاولوا أن يرتبوا أمورهم بحيث لا تتحقق هذه الخلافة. ولكنهم لم يملكوا أن يفعلوا شيئاً إزاء تتابع الحوادث وسرعتها.

والمتوقع في هذه الحالة أن يتجه الثوار إلى علي فيبايعونه، وأن يتجه غالبية أهل المدينة فيبايعونه وقد اشتركوا فعلاً مع الثوار في معارضة عثمان وطلب خلعه، ثم اشتركوا فيما حدث من حصار لبيت عثمان، ولا نستطيع بالتالي أن نخرجهم من نطاق الثورة بشكل من الأشكال.

والروايات تقول أن البيعة لعلي أعلنت بعد مقتل عثمان بخمسة أيام، وبعضها يقول أنها أعلنت بعد ثمانية أيام. . المهم أن الخلافة ظلَّت شاغرة خمسة أيام على الأقل، وأن الغافقي قائد الثوار المصريين تولى السلطة مؤقتاً حتى يبت في أمر الخلافة.

وذلك أنه بعد مقتل عثمان ظهرت التيارات المعارضة على حقيقتها، فسعد بن أبي وقاص اعتزل ونحن نعلم مطامعه القديمة في الخلافة أيام الاختيار بين علي وعثمان، ويبدو أنه لم تكن له قوة يحسب حسابها في التنافس على الخلافة حين قتل عثمان فآثر أن يعتزل فلا يحسب عليه شيء من حساب الفتنة

وما وراءها. ورأينا كذلك أن عبد اللّه بن عمر قد اعتزل أيضاً وهو أمر يتفق مع خصاله الشديدة. أما طلحة والزبير، وقد اشتركا في التحريض على خلع عثمان، فقد أبيا أن يبايعا بل طلبا البيعة لنفسيهما.

ولا شك أنه كان لكل من هؤلاء الأربعة، وثلاثة منهم ممن رشحهم عمر للخلافة بعده، أنصار ومؤيدون من المهاجرين والأنصار، ولا شك أن علياً كان يريد أن يبدأ عهده بموافقة الجميع، مما اضطرَّ زعماء الثورة أن يقوموا باتصالات سريعة لضمان البيعة الاجتماعية لعلي وهذا هو السبب في مضي تلك الأيام الخمسة أو الثمانية التي استغرقتها المفاوضات.

وما قيل من أن علياً امتنع عن قبول البيعة التي عرضها الثوار قد يكون تخريجاً مبالغاً فيه. فالواقع أن الثورة كانت تعني علياً وتقصده منذ ارتفع صوت المعارضين بالنقد الصريح ومنذ ألقيت الخطب في المساجد.

ولم يكن علي مرغماً على قبول البيعة له، كما قيل في بعض الروايات، فهذا يعارض تماماً كل مواقفه السابقة، ولا يقبل بالتالي ما قيل من أن الثوار قد هددوه بالويل إن هو رفض. كل ما هنالك أن علياً أراد أن يستوثق من موافقة الجميع وعلى رأسهم المهاجرون والأنصار. وأن يوفق ما أمكن التوفيق بين غالبية الآراء حتى قبل البيعة ولم يستثن من ذلك أحداً إلاَّ سعد بن أبي وقاص وعبد اللّه بن عمر، وتحت ضغط الجماهير بايع طلحة والزبير لعلي.

ولكن هذه المبايعة كانت محفوفة بالمتاعب، فالشام في يدي معاوية، ولم يسمع لها رأي بعد، ولم يمثلها أحد من الوفود الحاضرة، وموقف معاوية معروف سلفاً.

على أن الأخطر من هذا كله ظهور المتناقضات التي أخفاها الإجماع على خلع عثمان، فأصحاب المصالح والمنافع ظهروا على حقيقتهم معارضين لعلي، والطامعون في المناصب ظهروا على حقيقتهم، وبدا أن الأمر يسير من تعقيد إلى تعقيد.

ومع ذلك فقد بادر علي إلى العمل وهو محيط بكل هذه الأوضاع، محاولاً أن يبت فيها بتاً سريعاً، فعين في الأمصار الرئيسية الكوفة والبصرة ومصر والشام واليمن رجالاً من الشعب فتسلم الجميع زمام أعمالهم فيما عدا عامل الشام الذي ردَّه جنود معاوية، فقرر علي أنه لا مناص من حرب معاوية وبدأ الاستعداد للقتال.

وما كان علي يملك أن يجند الجيوش لو لم تكن الغالبية له، أو لو لم يكن وراءه الرأي العام لجماهير المسلمين.

ولم تتقاعس قوى النفعيين بل بدأت العمل بكل قدراتها، فإذا بطلحة والزبير يلتقيان في مكة، وإذا بهما يدبران لحرب علي في البصرة، وإذا بالسيدة عائشة تنضم إليهما تدفعها في ذلك عوامل شخصية أكثر مما هي موضوعية.

وقد تم الحف بين طلحة والزبير وعائشة، وأوشك أن يتم بين زوج أخرى من أزواج النبي هي أخت عبد الله بن عمر لولا أن ردَّها عبد الله عن ذلك.

وقد فتحت جبهة جديدة غير جبهة الشام ضد الخلافة في الأيام الأولى مباشرة لإعلانها، وهو أمر لم يحدث لأي خليفة فيما عدا حروب الردة وهي أمر مختلف تماماً عما حدث هنا. إن خلافة عمر مضت هينة رفيقة لا تعترضها إلاَّ معارضة واعية صبورة، ثم جاءت خلافة عثمان فلم تواجهها معارضة إلاَّ مواجهة الرأي لا القوة إلى أن تطورت الحوادث وأصبح خلعها بالثورة أمراً لا مفر منه.

وما هذا الاندفاع في حرب الخلافة الجديدة إلاَّ دليل على ما يدركه خصومها من نواياها السياسية، وهي في الواقع حرب مصالح، حرب طاحنة لا تعرف التسويف.

وكان على الخلافة أن تضرب بسرعة أيضاً وأن تصفي الموقف قبل أن تتعدد الاضطرابات ويفلت منها الزمام.

وقرر علي أن يفرغ من معارضة طلحة والزبير أولاً فحشد قواه وبدأ حروب التصفية.

وكان على الحكم الشعبي أن يجري من الإصلاحات وأن يصدر من القوانين ما يشعر جماهير الثورة بأن الحق في طريقه لأن ينفذ، وإن الإسلام الأصيل بدأ يعود مسيرته الأولى، إلاّ أن حرب طلحة والزبير جاءت سريعة، كما كان تحفز الشام دافعاً للاستعداد له بل ومبادرته.

ومع ذلك فإن علياً بدأ العمل فعلاً ولكن في هذه الظروف الشديدة.

أحمد عباس صالح

بعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين (ع)

إن المتسلم للقيادة الفعلية، المتسلم لزمام التجربة بعد النبي ﷺ كان من المحتوم أن يجنح إلى الانحراف، لأنه كان يعيش رواسب جاهلية، وبالتالي لم يكن يُمثل الدرجة الكاملة للإنصهار مع الرسالة، هذه الدرجة التي هي شرط أساسي لتزعم هذه التجربة، وهي التي يمكن أن تفسّر موقف الشيعة من اشتراطهم العصمة لقيادة هذه التجربة.

الفكرة من هذا الحديث تقوم على هذا الأساس، على أساس أن قيادة التجربة، يجب أن تكون على مستوى العبء، وهذا في الواقع ليس من مختصات الشيعة، ليس من مختصات الشيعة الإيمان بأن الإمام يجب أن يكون معصوماً، بل هذا ما تؤمن به كل الاتجاهات العقائدية في العالم على الإطلاق.

أي اتجاه عقائدي في العالم، يريد أن يبني الإنسان من جديد في إطاره، ويريد أن ينشىء للإنسانية معالم جديدة، فكرية وروحية واجتماعية، يشترط لأن ينجح، وأن ينجز وأن يأخذ مجراه في خط التاريخ، يشترط أن يكون القائد الذي يمارس تطبيق هذا الاتجاه، معصوماً..

فالقائد في نظر الماركسية مثلاً بوصفها اتجاهاً عقائدياً، يريد أن يبني ويصنع الإنسان، ويبلوره في إطاره الخاص، يشترط فيه أن يكون معصوماً.

إلاّ أن مقاييس العصمة تختلف.

في الاتجاه الماركسي، يجب أن يكون القائد الذي يمارس تطبيقه معصوماً بمقاييس ماركسية، والقائد الذي يمارس زعامة التجربة الإسلامية، يجب أن يكون معصوماً بمقاييس إسلامية، والعصمة في الحالتين بمفهوم واحد، هو عبارة عن الانفعال الكامل بالرسالة، والتجسيد الكامل لكل معطيات تلك الرسالة، في النطاقات الروحية والفكرية والعملية.

هذه هي العصمة.

والشيعة لم يشذوا باشتراط العصمة في الإمام، عن أي اتجاه عقائدي آخر، ولهذا نرى في الاتجاهات العقائدية الأخرى، كثيراً ما يتهم القائد الذي يمثل الاتجاه، بأنه ليس معصوماً، توجه إليه نفس التهمة، التي نوجهها نحن أصحاب علي بن أبي طالب (ع) إلى الذين تولوا السلطات في المسلمين.

نفس هذه التهمة يوجهونها إلى القادة الذين يعتقدون بأنهم لم ينصهروا بأطروحاتهم ولم يتفاعلوا باتجاهاتها تفاعلاً كاملاً.

بالأمس القريب، جزء كبير من الماركسية في العالم انشطر على قيادة الاتحاد السوڤياتي، واتهم القيادة التي كانت متمثلة في حكام روسيا، بأنهم أناس غير مهيئين لأن يكونوا قادة للتجربة الماركسية، يعني غير معصومين بحسب لغتنا.

إلاّ أن نفي العصمة عنهم تمَّ بمقاييس ماركسية لا بمقاييسنا الخاصة، لا بمقاييس إسلامية.

فأصل الفكرة، تؤمن به كل الاتجهات العقائدية، وإنما المقياس للعصمة يختلف باختلاف طبيعة هذه الاتجاهات العقائدية.

نعم، العصمة في الإسلام، ذات صيغة أوسع نطاقاً من العصمة في الاتجاهات العقائدية الأخرى، وهذه السعة في صيغة العصمة تنبع من طبيعة سعة الإسلام نفسها، لأن العصمة كما قلنا، هي التفاعل الكامل والانصهار الشامل

والتجاوب مع الرسالة في كل أبعاد الإسلام. . والرسالة الإسلامية تختلف عن أي رسالة أخرى في العالم، لأن أي رسالة أخرى في العالم تعالج جانباً واحداً من الإنسان، الماركسية التي تمثل أحدث رسالة عقائدية في العالم الحديث تعالج جانباً واحداً من وجود الإنسان، وتترك الإنسان حينما يذهب إلى بيته، حينما يذهب الإنسان إلى مخبئه، حينما يخلو الإنسان بنفسه، تترك الإنسان، ليس لها أي علاقة معه في هذه الميادين، وإنما تأخذ بيده في مجال الصراع السياسي والاقتصادي لا أكثر.

فصيغة الرسالة بطبيعتها صيغة منكمشة محدودة، صيغة تعالج جانباً من الحياة الإنسانية، فالعصمة العقائدية التي لا بدَّ أن تتوفر في قائد ماركسي، مثلاً هي العصمة في حدود هذه المنطقة التي تعالجها الرسالة العقائدية الماركسية.

أما الرسالة الإسلامية فهي تعالج الإنسان من كل نواحيه، وتأخذه بيده إلى كل مجالاته ولا تفارقه وهو على مخدعه في فراشه، وهو في بيته، وبينه وبين ربه، بينه وبين نفسه، بينه وبين أفراد عائلته، وهو في السوق، وهو في المدرسة، وهو في المجتمع، وهو في السياسة، وهو في الاقتصاد، وهو في أي مجال من مجالات حياته، ولهذا تكون الصيغة المحدودة من العصمة على أساس هذه الرسالة أوسع نطاقاً وأرحب أفقاً وأقسى شروطاً، وأقوى من ناحية مفعولها وامتدادها في كل أبعاد الحياة الإنسانية.

فعصمة الإمام عبارة عن نزاهة في كل فكرة وكل عاطفة وكل شأن، والنزاهة في كل هذا عبارة عن انصهار كامل مع مفاهيم وأحكام الرسالة الإسلامية، في كل مجالات هذه الأفكار والعواطف والشؤون.

إذن فالعصمة التي هي شرط لمجموع الاتجاهات العقائدية، نحن أيضاً نؤمن بها كشرط في هذا الاتجاه.

وبطبيعة الحال فإننا عندما نقول، إن العصمة شرط في هذا الاتجاه، العصمة بحد ذاتها أيضاً ليست أمراً حتمياً غير قابل للزيادة والنقصان،

والتشكيك، نفس العصمة إذا حولناها إلى مفهوم النزاهة والتجاوب الكامل مع الرسالة فيكون أمراً مقولاً بالتشكيك في الشدة والضعف، وبوصف أن أئمة أهل البيت (ع) المرتبة الأسمى والأكمل من هذه المراتب المقولة بالتشكيك المختلفة شدة وضعفاً.

ومن هنا نأتي إلى ما كان موضوع الحديث، موضوع الحديث أن هؤلاء الذين تسلموا أمر التجربة لم يكونوا معصومين حتى بأدنى مراتب العصمة، حتى بالحد الأدنى من مراتب النزاهة والتفاعل مع الرسالة الإسلامية، وحينئذٍ حيث أن التجربة تجربة تمثل اتجاهاً عقائدياً، واتجاهاً رسالياً، ليس اتجاه أناس يمثلون وجهة نظر معينة في الكون والحياة والمجتمع، يمثلون رسالة لتغيير الحياة على وجه الأرض وتغيير التاريخ، إذن هذه التجربة العقائدية الضخمة على هذا المستوى، بحاجة إلى قيادة عقائدية معصومة تتوفر فيها فعالية عالية جداً من النزاهة والتجرد والموضوعية والانفعال بمعطيات هذه الرسالة، فكيف إذا لم تكن هذه المواصفات موجودة في القيادة؟.

قد يقال: إنها كانت موجودة في الأمة ككل، والأمة ككل، كانت تمارس المراقبة، وكانت تمارس التوجيه، وكانت تمارس المراقبة للحكم القائم حتى لا ينحرف، الأمة ككل كانت معصومة، وإذا كانت الأمة ككل معصومة، إذن فالعصمة قد حصلنا عليها عن طريق الوجود الكلي للأمة.

إلاً أنَّ هذه الفكرة غير صحيحة، نحن نؤمن بأن الأمة في وجودها لم تكن معصومة أيضاً، كما أن الذين تولوا الحكم، لم يكن يتوفر لديهم الحد الأدنى من النزاهة المطلوبة لزعامة تجربة من هذا القبيل، الأمة بوصفها الكلي وبوجودها المجموعي أيضاً لم تكن معصومة، طبعاً إذا استثنينا من ذلك الزعامة المعصومة الموجودة في داخل هذه الإمة المتمثلة في اتجاه أمير المؤمنين علي (ع)، هذا بالرغم من أننا نعترف ونفتخر ونمتلىء اعتزازاً بالإيمان بأن الإمة الإسلامية التي أسسها وحرسها النبي ﷺ ضربت أروع نموذج للأمة في تاريخ البشرية على

الإطلاق، الأمة الإسلامية التي أمكن للنبي ﷺ بوقت قصير جداً، في مدة لا تبلغ ربع قرن، أن ينشىء أمة لها من الطاقة والإرادة، لها من المؤهلات اللازمة القدر الكبير، الذي لا يمكن أبداً أن يتخيل الإنسان الاعتيادي كيف أمكن إيجاده في ربع قرن أو أقل؟ هذه الأمة التي قدمت من التضحيات في أيام النبي ﷺ في سبيل رسالتها ما لم تقدم مثله أي أمة من أمم الأنبياء قبل النبي ﷺ، هذا التسابق على الجنة، التسابق على الموت، الإيثار الذي كان موجوداً بين المسلمين، روح التآخي التي شاعت في المسلمين، المهاجرين والأنصار، كيف عاشوا، كيف تفاعلوا، كيف انصهروا، انظروا إلى أهل بلد واحد ينزح إليهم أهل بلد آخر، فيأتون إليهم ليقاسموهم خيرات بلدهم، ومعاشهم، وأموالهم، وهؤلاء يستقبلونهم برحابة صدر، ينطلقون معهم، ينظرون إليهم على أنهم أخوة لهم، يعيشون مجتمعاً واحداً، وكأنهم كانوا قد عاشوا مئات السنين، هذه الانفتاحات العظيمة في كل ميادين المجتمع التي حققتها الأمة بقيادة الرسول ﷺ، هذه الانفتاحات، التي لا مثيل لها، بالرغم من كل هذا نقول إن الأمة لم تكن معصومة.

إن هذه الانفتاحات كانت قائمة على أساس الطاقة الحرارية التي كانت تمتلكها الأمة من لقاء القائد الأعظم، ولم تكن قائمة على أساس درجة كبيرة من الوعي الحقيقي للرسالة العقائدية. نعم كان الرسول ﷺ الأعظم، يمارس عملية توعية الأمة، وعملية الارتفاع بها إلى مستوى أمة معصومة، هذه العملية التي كانت مضغوطة، والتي بدأ بها النبي ﷺ لم ينجز شيئاً منها في الخط هذا، وإنما الشيء الذي أنجز في هذا الخط، خط عمل النبي ﷺ على مستوى الأمة ككل، هو إعطاء هذه الأمة طاقة حرارية في الإيمان بدرجة كبيرة جداً، مثل هذه الطاقة الحرارية التي تملكها الأمة يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وفي كل لحظة من لحظات انتصارها أو انكسارها، كانت هي المصدر، وهي السبب في كل الانفتاحات العظيمة، روح القائد هي التي تجذب وهي التي تحصد، وهي التي

تقود هؤلاء إلى المثل العليا والقيم الضخمة الكبيرة التي حددها الرائد الأعظم ﷺ بين أيديهم، إذن فهي طاقة حرارية وليست وعياً.

وقلنا أيضاً فيما سبق، إن الطاقة الحرارية والوعي قد يتفاعلان ويتفقان في كثير من الأحيان ولا يمكن أن نقارن في الحالات الاعتيادية بين أمة واعية، وبين أمة تملك طاقة حرارية كبيرة دون درجة كبيرة من الوعي، المظاهر تكون مشتركة في كثير من الأحيان، لكن في منعطفات معينة من حياة هذه الأمة، يتبين الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية في لحظات الانفعال الشديد، سواء كان انفعالاً موافقاً لعملية الانتقال، أو انفعالاً معاكساً، لأن الوعي لا يتزعزع في لحظة الانفعال ويبقى صامداً ثابتاً، لا يلين ولا يتميع، وعي الإنسان، إيمان الإنسان بأهدافه ومسؤولياته، فوق كل الانفعالات، فوق كل المشاكل، فوق كل الانتصارات. أي انتصار يحققه الإنسان، لا يمكن أن يخلق انفعالاً يزعزع وعيه، إذا كان واعياً وعياً حقيقياً يبقى على الخط، لا يشط ولا يشذ ولا يزيد أو ينقص.

محمد ﷺ هذا الرجل العظيم، يدخل إلى بيت الله الحرام منتصراً في لحظة، لم تزعزع هذه اللحظة من خلقه، لم تخلف فيه نشوة الانتصار، وإنما خلفت فيه ذل العبودية لله. شعر بذل العبودية لله أكثر مما يشعر بنشوة الانتصار، هذا هو الذي يمثل الوعي العظيم، لكن المسلمين عاشوا نشوة الانتصار، في لحظات عديدة لحظات الصدمة، لحظات المشكلة، لحظات المأساة. الواعي يبقى ثابتاً، يبقى صامداً أمام المشكلة لا يتزعزع، لا يلين، لا يكف، لا يتراخى، يبقى على خطه واضحاً. النبي ﷺ لم يكن يبدو منه أي فرق بينه وهو حال دخوله إلى مكة فاتحاً، وهو مطرود بالحجارة من قبائل العرب المشركين، يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى يقول له: «لا يهمني ما يصنع هؤلاء إذا كنت راضياً عني»، نفس الروح التي نجدها في لحظة انقطاعه، في لحظة مواجهته البشرية التي تحمل ألوان الشرور، في لحظة تمرد الإنسان على هذا الوجه الذي جاء

ليصلحه، لم تتبدل حالته في هذه اللحظة وبين حالته، والإنسانية تستجيب، والإنسانية تخضع، والإنسانية تطأطىء رأسها بين يدي القائد العظيم ﷺ هذا هو الوعي.

أما الأمة فإنها لم تكن هكذا، ولا نريد أن نكرر الشواهد مرة أخرى حتى يأتي البحث كاملاً، الشواهد على أن الأمة كانت غير واعية، وإنما هي طاقة حرارية مرَّت في الأيام السابقة، إذن فالأمة الإسلامية كانت تحمل طاقة حرارية كبيرة، ولم تكن أمة واعية بدرجة كبيرة، فلم تكن العصمة متوفرة لا في القيادة، ولا في الأمة بوجودها المجموعي، ومن أجل هذا كان الانحراف حتمياً، وهكذا بدأ الانحراف، وقلنا إن الخط الذي بدأه الأئمة (ع) هذا الخط ينحل إلى شكلين:

الأول: خط محاولة القضاء على هذا الانحراف بالتجربة. أليست التجربة تجربة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية؟ هذه التجربة انحرفت بإعطاء زمامها إلى أناس لا يؤمَّنون عليها وعلى مقدراتها، وعلى ممتلكاتها، الخط الأول كان يحاول أخذ هذه التجربة، تسلم زمام التجربة.

الثاني: هو الخط الذي كان يعلمه الأئمة (ع) حتى في الحالات التي كانوا يرون أن ليس في الإمكان السعي وراء تسلم زمام التجربة، وهو خط الضمان لوجود الأمة مستقبلاً.

قلنا إن التجربة حينما انحرفت، كان من المنطقي في تسلسل الأحداث، أن يتعمق هذا الانحراف ثم يتعمق حتى تنهار التجربة، وإذا انهارت التجربة أمام أول غزو، أمام أول تيار، إذن فلن تحارب عن إسلامها كأمة، فبعد أن تنهار الدولة والحضارة الحاكمة، وسوف تتنازل عن إسلامها بالتدريج لأنها لم تجد في هذا الإسلام المنحرف ما تدافع عنه، إذ ماذا جنوا من هذا الإسلام؟

كيف نقدر أن نتصور أن الإنسان غير العربي يدافع عن الإسلام الذي يتبنى زعامة العربي لغير العربي؟ كيف يمكن أن نتصور أن الإنسان العربي والفارسي

يدافع عن كيان يعتبر هذا الكيان هو ملك لأسرة واحدة من قبائل العرب وهي أسرة قريش؟ كيف يمكن أن نفرض أن هؤلاء المسلمين يشعرون بأنهم قد وجدوا حقوقهم، قد وجدوا كرامتهم، في مجتمع يضج بكل ألوان التفاوت والتمييز والاستئثار والاحتكار؟

إذن كانوا قد تنازلوا عن هذا الإسلام حينما تنهار التجربة بعد تعمق الانحراف.

إلاً أن الذي جعل الأمة لا تتنازل عن الإسلام، هو أن الإسلام له مثل آخر قدم له، مثل واضح المعالم، أصيل المثل والقيم، أصيل الأهداف والغايات، قدمت هذه الأطروحة من قبل الواعين من المسلمين بزعامة الأئمة (ع) من أهل البيت (ع). . ولنعرف مسبقاً قبل أن نأتي إلى التفاصيل، أن هذه الأطروحة التي قدمها الأئمة (ع) للإسلام لم تكن تتفاعل فقط مع الشيعة المؤمنين بأمامة أهل البيت (ع) فقط، هذه الأطروحة كان لها صدى كبير في كل العالم الإسلامي. فالأئمة (ع) كانت لهم أطروحة للإسلام وكانت لهم دعوى لإمامة أنفسهم، صحيح أن الدعوى لإمامة أنفسهم لم يطلبوا لها إلاً عدداً ضئيلاً من مجموع الأمة الإسلامية، ولكن الأمة الإسلامية بمجموعها تفاعلت مع هذه الأطروحة، إذن فكان الخط الكبروي للأئمة (ع) هو تقديم الأطروحة الصحيحة للإسلام، والنموذج والمخطط الواضح الصحيح الصريح، للإسلام، في كل مجالات الإسلام، في المجالات الخاصة، والمجالات العامة، في المجالات الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية، والخلقية والعبادية، كانوا يقدمون هذه الأطروحة الواضحة، التي جعلت المسلمين على مر الزمن يسهرون على الإسلام ويقيمونه وينظرون إليه بمنظار آخر غير منظار الواقع الذي يعيشونه، غير منظار التجربة الفريدة التي يعيشونها.

هذا هو الخط الثاني الذي عمل عليه الأئمة (ع).

أمير المؤمنين حينما واجه الانحراف في التجربة قام بعملية تعبئة فكرية في

صفوف المسلمين، إلاّ أنه لم يستطع أن يستثير المسلمين بالدرجة التي تحول مجرى التجربة ويجعل هناك تبدلاً أساسياً في الخط القائم. لم يستطع ذلك، وهذا أمر طبيعي، يعني من الطبيعي أن ينتهي أمير المؤمنين، إلى عدم النجاح في القضاء على الانحراف.

يجب أن نعرف أن علياً (ع) لم يكن رئيساً حينما فشل، ولم يكن قاصراً حينما فشل، كل هذا لم يكن، لأن كل هذا غير محتمل في شخص هو قمة النشاط، وقمة الحيوية وقمة الحرص. كان موقفه حرجاً غاية الحرج تجاه الموانع، أما ما هي صيغة هذه الموانع، هذه الموانع تحتاج إلى دراسة مفصلة لنفسية المجتمع الإسلامي في أيام الرسول ﷺ. فهنالك عوامل كثير لها دخل في نسج خيوط هذه الموانع. يمكن أن نذكر بعضها على سبيل المثال:

العامل الأول: التفكير اللاإسلامي من ولاية علي بن أبي طالب (ع)، رسول الله ﷺ جعل علياً بعده حاكماً على المسلمين، وإماماً للمسلمين ككل. المسلمون، ولنتكلم عن المسلمين المؤمنين بالله ورسوله حقاً، هؤلاء المسلمون المؤمنون بالله وبرسوله حقاً، قلنا إنهم لم يكونوا من الواعين بدرجة كبيرة، نعم كان عندهم طاقة حرارية تصل إلى درجة الجهاد، إلى الموت في سبيل الله، هؤلاء الذين قاموا بعد النبي ﷺ ضد علي بن أبي طالب (ع)، أنا لا أشك بأنهم مرّت عليهم بعض اللحظات، كانوا على استعداد لأن يضحوا بأنفسهم في سبيل الله، وأنا لا أشك أن الطاقة الحرارية كانت موجودة عند هؤلاء، سعد بن عبادة الخزرجي مثلاً، هذا الذي عارض علي بن أبي طالب (ع) إلى حين، والذي فتح أبواب المعارضة على علي بن أبي طالب إلى حين، سعد هذا، كان مثل المسلمين الآخرين يكافح ويجاهد، غاية الأمر لم يكن لديه الوعي، هؤلاء المسلمون المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، لم يكونوا على درجة واحدة من الوعي وكانت الكثرة الكاثرة منهم أناساً يملكون الطاقة الحرارية، بدرجة متفاوتة، ولم يكونوا يملكون وعياً، إذن فقد تبادر إلى ذهن عدد كبير من هؤلاء أن محمداً ﷺ يفكر أن يعلي مجد بني هاشم، أن يعلي كيان هذه الأسرة؛ أن يمد بنفسه بعده

فاختار علياً، اختار ابن عمه، لأجل أن يمثل علي بن أبي طالب أمجاد أسرته، هذا التفكير كان تفكيراً منسجماً مع الوضع النفسي الذي يعيشه أكثر المسلمين كراسب الجاهلية، كراسب عرفوه ما قبل الإسلام، ولم يستطيعوا أن يتحملوا تحملاً تاماً، أبعاد الرسالة، ألسنا نعلم. . ماذا صنعوا في غزوة حنين، حينما وزع رسول الله ﷺ المال، وزع الغنائم على قريش ولم يعط الأنصار، وزعه على قريش على أهل مكة، ولم يعط أهل المدينة، ماذا صنع هؤلاء ماذا صنع أهل المدينة، أخذ بعضهم يقول لبعض: إن محمداً لقي عشيرته فنسينا، لقي قريشاً ونسي الأوس والخزرج، هاتين القبيلتين اللتين قدمتا ما قدمتا للإسلام، إذن فكان هؤلاء على المستوى الذي تصوروا في هذا القائد الرائد العظيم، الذي كان يعيش الرسالة، آثر قبيلته بمال، فكيف لا يتصورون أنه يؤثر عشيرته بحكم، بزعامة، بقيادة على مر الزمن وعلى مر التاريخ.

هذا التصور كان يصل إلى هذا المستوى المتدني من الوعي، هؤلاء لم يكونوا قد أدركوا بعد أبعاد محمد ﷺ ولم يكونوا قد أدركوا أبعاد الرسالة الإسلامية، وكانوا بين حين وحين يطفو على أنفسهم الراسب الجاهلي وينظرون إلى النبي من منظار ذلك الراسب الجاهلي، ينظرون إليه كشخص يرتبط بالعرب ارتباطاً قومياً، ويرتبط بعشيرته ارتباطاً قبلياً ويرتبط بابن عمه ارتباطاً رحمياً، كل هذه الارتباطات كانت تراود أذهانهم بين حين وحين، وأنا أظن ظناً كبيراً أن علي بن أبي طالب (ع) لو لم يكن ابن عم النبي ﷺ لو أن الصدفة لم تشأ أن يكون الرجل الثاني في الإسلام، لو لم يكن من أسرة محمد ﷺ، لو كان من عدي، أو لو كان من تميم، لو كان من أسرة أخرى، لكان لهذه الولاية مفعولاً كبيراً جداً، لقضي على هذا التفكير اللاإسلامي. . . لكن ما هي حيلة محمد إذا كان الرجل الثاني في الإسلام ابن عمه، لم يكن له حيلة في أن يختار شخصاً دون شخص آخر وإنما كان عليه أن يختار الرجل الثاني في الإسلام، في تاريخ الرسالة، في كيان الرسالة، وفي الجهاد. . في سبيل الرسالة، وفي الاضطهاد في سبيل الرسالة، لقد كان هذا من باب الاتفاق ابن عم محمد ﷺ. هذا الاتفاق

فتح باب المشاغبة على هؤلاء. هذا هو العامل الأول، هذا العامل يعيش في نفوس المؤمنين بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

العامل الثاني: عامل يعيش في نفوس المنافقين، والمنافقون كثيرون في المجتمع الإسلامي، خاصة وأن المجتمع الإسلامي كان قد انفتح قبيل وفاة رسول الله ﷺ انفتاحاً جديداً على مكة، وكانت قد دخلت مكة أيضاً داخل هذا المجتمع، ودخلت قبائل كثيرة في الإسلام قبيل وفاة رسول الله ﷺ. وكان هناك أناس كثيرون قد دخلوا الإسلام نفاقاً، ودخلوه طمعاً، ودخلوه حرصاً على الجاه، ودخلوه استسلاماً للأمر الواقع، لأن هذا مُسلّم، لأن محمداً فرض زعامته على العرب.. لم يكن شخص يفكر في أن تزعزع هذه الزعامة، إذن فلا بدَّ من الاعتراف بهذه الزعامة.

دخل كثير من الناس بهذه العقلية. وهؤلاء كانوا يدركون كل الإدراك أن علي بن أبي طالب (ع) هو الرجل الثاني للنبي ﷺ وهو الاستمرار الصلب العنيد للرسالة، لا الاستمرار الرخو المتميع لها. وهؤلاء كانوا مشدودوين إلى أطماع وإلى مصالح كانت تتطلب أن تستمر الرسالة ويستمر الإسلام، لأن الإسلام، إذا انطفأ، معنى هذا أنه سوف تنطفىء هذه الحركة القوية التي بنت دولة ومجتمعاً والتي يمكن أن تطبق على كنوز دولة كسرى وقيصر وتضم أموال الأرض كلها إلى هذه الأمة، كان من المصلحة أن تستمر هذه الحركة، لكن كان من المصلحة أن لا تستمر بتلك الدرجة من الصلابة والجدية، بل أن تستمر بدرجة رخوة هينة لينة.

كان لا بدَّ وأن تستمر الرسالة لكن تستمر بشكل لين هين، بشكل ينفتح على مطامح أبي سفيان، بشكل يمكن أن يتعامل معه أبو سفيان الذي جاء إلى علي (ع) في لحظة قاسية، تلك اللحظة التي يشعر فيها الإنسان عادة بقدر كبير من المظلومية حيث يرى كيف أن الناس قد تنكروا لكل أمجاده وأنكروا كل جهاده حتى أخوته لرسول الله ﷺ. في هذه اللحظة جاءه أبو سفيان يعرض عليه

القيادة بين يديه، يعرض عليه أن يزعّمه في سبيل أن يكون هو اليد اليمنى للدولة الإسلامية، يأبى علي (ع) ذلك، يأبى وهو مظلوم، وهو متآمر عليه، وهو مضطهد حقه، وبهذا كانت قيادة علي بن أبي طالب (ع) وزعامته تمثل خطراً على مصالح المنافقين فكان لا بدَّ في سبيل الحفاظ عليها من قبل المنافقين هؤلاء أن يخلقوا في سبيلها العراقيل ويقيموا الحواجز والموانع.

العامل الثالث: وهو مرتبط بمراحل نفسية خلقية، علي بن أبي طالب (ع) كان يمثل باستمرار تحدياً بوجوده التكويني، كان يمثل تحدياً للصادقين من الصحابة، لا للمنحرفين من الصحابة، كان يمثل تحدياً بجهاده، بصرامته، باستبساله، بشبابه، بكل هذه الأمور، كان يضرب الرقم القياسي الذي لا يمكن أن يحلم به أي صحابي آخر، كل هؤلاء كانوا يودون أن يقدموا خدمة للإسلام.

أتكلم عن الصحابة الصالحين. الصحابة الصالحون كانوا يودون أن يقدموا خدمة للإسلام، ولكن علي بن أبي طالب (ع) كان يفوقهم بدرجة كبيرة، بدرجة هائلة.

معاوية يقول في كتابه لمحمد بن أبي بكر بأن علياً كان في أيام النبي ﷺ كالنجم في السماء لا يطاول، الأمة الإسلامية كانت تنظر إليه كالنجم في السماء بالرغم من أن العدد الكبير منها لم يكونوا يحبونه، كان علي مجاهداً بدرجة لا يمكن أن يقاس به شخص آخر، كان صامداً زاهداً، بدرجة لا يمكن أن يقاس به شخص آخر، وهكذا في كل كمالات الرسالة الإسلامية، إذن فعلي كان تحدياً، كان استفزازاً للآخرين، وهؤلاء الآخرون ليسوا كلهم يعيشون الرسالة فقط، بل جملة منهم يعيشون أنفسهم أيضاً، يعيشون أنانيتهم أيضاً، وحينما يشعرون بهذا الاستفزاز التكويني من شخص هذا الرجل العظيم الذي كان يتحداهم، وهو لا يقصد أن يتحداهم، بل يقصد أن يهديهم، وأن يبني لهم مجدهم، يبني لهم رسالتهم وعقيدتهم، لكن ماذا يصنع بأناس يعيشون أنفسهم.

فهؤلاء الأناس كانوا يفكرون في أن هذا تحد واستفزاز لهم. كان رد الفعل لهذا مشاعر ضخمة جداً ضد علي بن أبي طالب (ع).

يكفي مثال واحد ليتضح هذا الموقف. النبي ﷺ يسافر من المدينة إلى غزوة من الغزوات فيخلف علياً مكانه أميراً على المدينة، فهل تركه الناس؟ لا، إنما أخذوا يشيعون بالرغم من أن رسول الله ﷺ في المرات السابقة كان يستخلف أحد الأنصار على المدينة غير علي، فكانوا يشيعون، بأنه ترك علياً لأنه لا يصلح للحرب؟؟ علي بن أبي طالب هذا الرجل الصلب، العنيد، المترفع، هذا الرجل الذي يقول: لا يزيدني إقبال الناس عليَّ ولا ينقصني إدبارهم عني. هذا الرجل الصلب استفز الأعصاب إلى درجة أنه اضطر أن يلحق بالنبي ﷺ، فيسأله النبي ﷺ عن سبب تركه المدينة، فيقول: الناس يقولون بأنك طردتني لأني لا أصلح للحرب؟؟.

يمكن أن تنكر أية فضيلة من فضائل علي بن أبي طالب (ع)، ولكن هل يمكن أن ينكر أن علي بن أبي طالب لا يصلح للحرب؟ انظروا الحقد كيف وصل عند هؤلاء المسلمين بأن أخذوا يفسرون إمارة علي بن أبي طالب (ع) على المدينة بأنه لا يصلح للحرب، فيقول رسول الله ﷺ كلمته المشهورة: إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى، إنه لا ينبغي أن أخرج من المدينة إلاَّ وأنت فيها إثباتاً لوجودي ولتحمي المدينة.

هذا الموقف من هؤلاء لا يمكن أن يفسر إلاَّ على أساس هذا العامل النفسي، هذا العامل الثالث.

وهناك عوامل أخرى. هذه العوامل كلها اشتركت في سبيل أن تجعل هناك موانع قوية جداً اصطدم بها النبي ﷺ عند تشريع الحكم، واصطدم بها علي بن أبي طالب عند محاولة مقابلة الانحراف وتعديل التجربة وإرجاعها إلى وضعها الطبيعي، ولهذا فشل في زعزعة الوضع القائم.

قلنا إنه حينما وجد الانحراف، لم تكن الأمة على مستوى المراقبة بوصفها

المجموعي، لم تكن قادرة على ضمان عدم وقوع هذا الحاكم المنحرف بطبيعته في سلوك منحرف، لأن كون الأمة على هذا المستوى من الضمان، إنما يكون فيما إذا وصلت الأمة بوصفها المجموعي إلى درجة العصمة، أي إذا أصبحت الأمة كأمة تعيش الإسلام عيشاً كاملاً عميقاً، مستوعباً مستنيراً منعطفاً على مختلف مجالات حياتها، هذا لم يكن، بالرغم من أن الأمة الإسلامية وقتئذٍ، كانت تشكل أفضل نموذج للأمة في تاريخ الإنسان على الإطلاق. يعني نحن الآن لا نعرف في تاريخ الإنسان، أمة بلغت في مناقبها، وفضائلها، وقوة إرادتها وشجاعتها وإيمانها وصبرها وجلالتها وتضحيتها ما بلغته هذه الأمة العظيمة حينما خلفها رسول الله ﷺ.

الذي يقرأ التاريخ، تاريخ هؤلاء الناس، الذين عاشوا مع النبي ﷺ، تبهره أنوارهم في المجال الروحي والفكري والنفسي، في مجال الجهاد والتضحية في سبيل العقيدة. ولكن هذه الأنوار التي تظهر للمطالع لم تكن نتيجة وضع معمق تعيشه الأمة في أبعادها الفكرية والنفسية، بل كانت نتيجة طاقة حرارية هائلة اكتسبتها هذه الأمة بإشعاع النبي ﷺ.

هذه الأمة التي عاشت مع أكمل قائد للبشرية، اكتسبت عن طريق الإشعاع من هذا القائد، درجة كبيرة من الطاقة الحرارية صنعت المعاجز، وصنعت البطولات والتضحيات التي يقل نظيرها في تاريخ الإنسان.

ولا أريد أن أتكلم عن هؤلاء الناس في أيام رسول الله ﷺ. وإيثار كل واحد منهم للإسلام والعقيدة، إيثاره بكل وجوده وطاقاته، بكل إمكانياته وقدراته. هذه النماذج الرفيعة إنما هي نتاج هذه الطاقة الحرارية التي جعلت الأمة الإسلامية تعيش أيام رسول الله ﷺ محنة العقيدة والصبر وتتحمل مسؤولية ههذ العقيدة بعد وفاته ﷺ وتحمل لواء الإسلام بكل شجاعة وبطولة إلى مختلف أرجاء الأرض هذه هي طاقة حرارية وليست وعياً، لذا يجب أن نفرق ونميز بين الطاقة الحرارية وبين الوعي:

الوعي: عبارة عن الفهم الفعَّال الإيجابي المحقق للإسلام في نفس الأمة، الذي يتأصل ويستأصل جذور المفاهيم الجاهلية السابقة استئصالاً كاملاً. ويحوّل تمام مرافق الإنسان من مرافق الفكر الجاهلي إلى مرافق الفكر الإسلامي والذوق الإسلامي.

أما الطاقة الحرارية: فهي عبارة عن توهج عاطفي حار، بشعور قد يبلغ في مظاهره نفس ما يبلغه الوعي في ظواهره بحيث يختلف الأمر، فلا يميز بين الأمة التي تحمل مثل هذه الطاقة الحرارية، وبين أمة تتمتع بذلك الوعي إلاّ بعد التبصر.

إلاّ أن الفرق بين الأمة الواعية والأمة التي تحمل الطاقة الحرارية كبير، فإن الطاقة الحرارية بطبيعتها تتناقص بالتدريج بالابتعاد عن مركز هذه الطاقة الحرارية.

والمركز الذي كان يمون الأمة بهذه الطاقة الحرارية هو شخص النبي ﷺ القائد. فكان طبيعياً أن تصبح طاقة الأمة بعده في تناقص مستمر، حال الشخص الذي يتزود من الطاقة الحرارية للشمس والنار، ثم يبتعد عنهما، فإن هذه الحالة تتناقص عنده باستمرار.

هكذا كان، وتاريخ الإسلام يثبت أن الأمة الإسلامية كانت في حالة تناقص مستمر من هذ الطاقة الحرارية التي خلفها النبي ﷺ في أمته حين وفاته، بخلاف الوعي، فإن الوعي بذلك المعنى المركز الشامل المستأصل لجذور ما قبله، ذلك الوعي من طبيعته الثبات والاستقرار، بل التعمق على مر الزمن، لأنه بطبيعته يمتد ويخلق له بالتدريج خيالات جديدة وفقاً لخط العمل وخط الأحداث، فالأمة الواعية هي أمة تسير في طريق التعمق في وعيها، والأمة التي تحمل طاقة حرارية هائلة، هي الأمة التي لو بقيت وحدها مع هذه الطاقة الحرارية فسوف تتناقص طاقتها باستمرار.

وهناك فرق آخر: هو أن الوعي لا تهزه الانفعالات، يصمد أمامها، أما

الطاقة الحرارية فتهزها الانفعالات، الانفعال يفجر المشاعر الباطنية المستترة، يبرز ما وراء الستار، ما وراء سطح النفس، كأن الطاقة الحرارية طاقة تبرز على سطح النفس البشرية، وأما الوعي فهو شيء يثبت في أعماق هذه النفس البشرية، ففي حالة الانفعال، سواء كان الانفعال انفعالاً معاكساً، يعني حزناً وألماً، أو كان انفعالاً موافقاً، أي فرحاً ولذة وانتصاراً، في كلا الحالتين سوف يتفجر ما وراء الستار ويبرز ما كان كامناً وراء هذه الطاقة الحرارية في الأمة المزودة بهذه الطاقة فقط، أما الأمة الواعية فوعيها يجمد ويتقوى على مر الزمن فكلما مر بها انفعال جديد أكّدت شخصيتها الواعية في مقابل هذا الانفعال، وصبغته بما يتطلبه وعيها من موقف.

هذا هو الفرق بين الوعي والطاقة الحرارية.

نحن ندعي أن الأمة الإسلامية العظيمة التي خلفها القائد الأعظم ﷺ والتي ضربت أعظم مثل للكون في تاريخ الإنسان إلى يومنا هذا، هذه الأمة كانت تحمل طاقة حرارية كبيرة، ولم تكن تحمل وعياً مستنيراً مجتثاً لأصول الجاهلية فيها.

والدليل على هذا كله واضح من تاريخ الأمة نفسها وكشاهد على ذلك، علينا أن ننظر إلى غزوة حنين، غزوة هوازن بعد فتح مكة، ماذا صنعت هذه الأمة العظيمة بتلك الطاقة الحرارية في لحظة الانفعال، رسول الله ﷺ خرج بجيش من الأنصار ومن قريش من أهل مكة، فانتصر في معركته، وأخذ غنائم كثيرة، وكان قراره توزيع الغنائم كلها جميعاً على من خرج من مسلمي مكة، فوزعها كذلك، ولم يعط مسلمي الأنصار شيئاً منها، هذه لحظة انفعال نفسي، إن هؤلاء الأنصار يرون أنفسهم خرجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة ليفتحوا مكة، وفتحوها وحققوا للأمة أعظم انتصاراتها في حياة النبي ﷺ وبعد هذا يدخل النبي ﷺ في الدين أناساً جدداً يستقلون بتمام الغنائم ويأخذونها. هذه لحظة انفعال، في هذه اللحظة من لحظات الانفعال لا تكفي الأمة الطاقة

الحرارية بل تحتاج الأمة إلى وعي يثبتها لتستطيع أن تتغلب على لحظة الانفعال. هل كان مثل هذا الوعي موجوداً؟... الجواب أنه لم يكن: فإن الأنصار أخذوا يثيرون ما بينهم الهمس القائل: بأن محمداً ﷺ لقي أهله وقومه وعشيرته، فنسي أنصاره وأصحابه، هؤلاء الذين شاركوه في محنته، هؤلاء الذين ضحوا في سبيله، هؤلاء الذين قاوموا عشيرته في سبيل دعوته، نسيهم وأهملهم وأعرض عنهم، لأنه رأى أحباءه وأولاد عمه، رأى عشيرته..

انظروا إلى هذا التفسير، يبدو من خلال الأنصار وكأن المفهوم القبلي متركز في واقع نفوسهم، إلى درجة يبدو معه لهم، أن محمداً ﷺ وهو الرجل الأشرف والأكمل، الذي عاشوا معه، وعاشوا تمام مراحل حياته الجهادية، ولم يبد في كل مراحله الجهادية أي لون من الألوان يعطي شعوراً قبلياً قومياً، بالرغم من هذا، وبالرغم من خلوه من أي شعور يشير إلى ذلك. في لحظة الانفعال قالوا: بأنه وقع تحت تأثير العاطفة القبلية والقومية. هذه العاطفة القبلية أو القومية، هذا الترابط القبلي، كيف كان قوياً في نفوسهم، بحيث أنهم اصطنعوه تفسيراً للموقف في لحظة من لحظات الانفعال. رسول الله ﷺ سمع بالهمس، أطلع على أن هناك بذور فتنة ضده في الأنصار، فأرسل إلى أبناء الأنصار من الأوس والخزرج، وجمعهم عنده ثم التفت إليهم ﷺ وقال ما معناه: لقد بلغني عن بعضكم هذا الموضوع أن محمداً نسي أصحابه وأنصاره حينما التقى بقومه، فسكت الجميع، واعترف البعض بهذه المقالة. حينئذٍ أخذ رسول الله ﷺ يعالج الموقف والمشكلة وذلك بإعطاء المزيد من الطاقة الحرارية، لأن هذه المشكلة ذات حدين، حد آني وحد المدى الطويل، الحد على المدى الطويل يجب أن يعالج عن طريق التوعية على الخط الطويل، وهذا ما كان يمارسه ﷺ، والمشكلة بحدها الآني يجب أن تعالج أيضاً معالجة آنية، والمعالجة الآنية لا تكون إلاّ عن طريق إعطاء مزيد من هذه الطاقة الحرارية للسيطرة على لحظة الانفعال، ماذا قال ﷺ؟ كيف ألهب عواطفهم؟ قال لهم: ألا ترضون أن يذهب

أهل مكة إلى بلادهم بمجموعة من الأموال الزائفة، وأنتم ترجعون إلى بلادكم بمحمد ﷺ برسول الله.

هذه كانت دفعة حرارية حوَّلت الموقف في لحظة، حيث أخذ هؤلاء الأوس والخزرج يبكون أمام رسول الله ﷺ ويستغفرون ويعلنون ولاءهم واستعدادهم وتعلقهم به، أراد رسول الله ﷺ أن يعمق هذا الموقف العاطفي أكثر فعندما سكن بكاؤهم وهدأت عواطفهم قال لهم: ألا تقولون لي مقابل هذا، ثم أخذ يترجم بعض الأحاسيس المستترة في نفوسهم حتى يهيج عواطفهم تجاهه، ويتيح لذلك المجلس جواً عاطفياً وروحياً، بعد ذلك يتغلب على الموقف إلى آخر القصة.

هذه الأمة التي تحمل الطاقة الحرارية تنهار أمام لحظة انفعال.

شاهد آخر في لحظة انفعال أخرى أيضاً في تاريخ هذه الأمة:

الأمة بعد وفاة رسول الله ﷺ تملكتها لحظة انفعال كبيرة، لأن رسول الله ﷺ راحل وكان رحيله ﷺ يشكل هزة نفسية هائلة بالنسبة إلى الأمة الإسلامية، التي لم تكن قد تهيأت بعد ذهنياً وروحياً لأن تفقد رسول الله ﷺ، في هذه اللحظة من الانفعال أيضاً المشاعر التي كانت في الأعماق برزت على السطح.

المهاجرون: هناك تكلمنا عن الأنصار، وهنا نتكلم عن المهاجرين، ماذا قال المهاجرون في لحظة الانفعال؟.. هؤلاء المهاجرون الذين هاجروا من بلادهم، وتركوا دورهم وعوائلهم وقومهم في سبيل الإسلام، ماذا قالوا، وماذا كان موقفهم؟.

قالوا إن السلطان سلطان قريش، إن سلطان محمد سلطان قريش، نحن أولى من بقية العرب، وبقية العرب أولى من بقية المسلمين.

هنا يبرز الشعور القبلي والشعور القومي، في لحظة انفعال، لأن هذه

اللحظة من الانفعال تشكل صدمة بالنسبة إلى الطاقة الحرارية، يصبح الإنسان معها في حالة غير طبيعية، حيث لا يوجد عنده وعي فينهار أمام تلك الأفكار وهذه العواطف.

إذن لحظة الانفعال هي التي تحدد أن هذه الأمة تحمل وعياً، أو طاقة حرارية.

ماذا صنع المسلمون في لحظة الانتصار والاستيلاء على كنوز كسرى وقيصر، المسلمون في هذه اللحظة، أخذوا يفكرون في الدنيا، أخذوا يفكرون في أن يقتنص كل واحد منهم أكبر قدر ممكن من حطامها.

والأزمة التي مرّت بعمر بن الخطاب في تحقيق حال الأرض المفتوحة عنوة، وأن الأرض المفتوحة عنوة هل تقسم على المقاتلين أو أنها تجعل لبيت المال، وتجعل ملكاً عاماً، هذه الأزمة تبيّن، كيف أن هذه الأمة ترددت في لحظة الانفعال، لأن وجوه المهاجرين والأنصار، هؤلاء الأبرار المجاهدون، هؤلاء الذين عاشوا كل حياتهم الكفاح والجهاد في سبيل الله، هؤلاء أخذوا يصرون إصراراً مستميتاً على أن هذه الأرض يجب أن توزع عليهم، وعلى أن كل واحد منهم يجب أن ينال أكبر قدر ممكن من هذه الأرض، إلى أن أفتى علي (ع) بأن الأرض للمسلمين جميعاً، لمن هو موجود الآن ولمن يوجد بعد اليوم إلى يوم القيامة.

هذه اللحظات لحظات انفعال، لحظات الانفعال الانخذالية، ولحظات الانفعال الانفصالية هي التي تحدد أن الأمة هل تحمل طاقة حرارية، أو تحمل وعياً.

إذن كان وعي الأمة يحمل وراءه قدراً كبيراً من الرواسب الفكرية والعاطفية والنفسية التي لم تكن قد استئصلت بعد؟

وربما قيل: إذن ماذا كان يصنع النبي ﷺ إذا لم تكن قد استئصلت هذه الرواسب؟

وجوابه: إن هذه الرواسب ليس من السهل استئصالها، لأن الدعوة الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ لم تكن مجرد خطوة إلى الأمام، بل كانت طفرة بين الأرض والسماء.

إذا لاحظنا حال العرب قبل الإسلام، ولاحظنا مستوى الرسالة الإسلامية نرى أن المستوى هو مستوى الطفرة بين الأرض والسماء، لا مستوى الحركات الإصلاحية التي توجد في المجتمعات العالمية، وهي مستوى الخطوة إلى الأمام، أي حركة إصلاحية تنبع من الأرض وتنبع من عبقرية الإنسان بما هو إنسان، تزحف بالمجتمع خطوة إلى الأمام لا أكثر، المجتمع كان قد وصل إلى الخطوة السابقة، في خط التقدم، وحينئذٍ من الممكن في زمن قصير أن تستأصل رواسب الخطوة السابقة، بعد الدخول في الخطوة التالية، لأن الفرق الكيفي، بين الخطوة السابقة والثانية مثلاً، فرق قليل ضئيل التشابه، بين الخطوتين تشابه كبير جداً، هذا التشابه الكبير، أو ذاك التفاوت اليسير، يعطي في المقام إمكانية التحويل، إمكانية اجتثاث تلك الأصول الموروثة من الخطوة السابقة.

لكن ماذا ترون وما تقدرون، عندما جاء النبي ﷺ إلى مجتمع متأخر يعيش الفكرة القبلية بأشد ألوانها ونتائجها، وأقسى مفاهيمها وأفكارها، جاء فألقى فيها فكرة المجتمع العالمي، الذي لا فرق فيه بين قبيلة وقبيلة، وبين شعب وشعب، وبين أمة وأمة، وقال: إن الناس سواسية كأسنان المشط.

هذه الطفرة الهائلة بكل ما تضم من تحول فكري وانقلاب اجتماعي، وتغيير في المشاعر والمفاهيم والانفعالات، هذه الطفرة لم تكن شيئاً عادياً في حياة الإنسان، وإنما كانت شيئاً هائلاً في حياته. إذن فكيف يمكن أن نتصور، أن هذا المجتمع الذي طفر بهذه الطفرة، مهما كان هذا المجتمع ذكياً، وصبوراً على الكفاح، ومهما كان قوياً ومؤمناً برسول الله ﷺ، كيف يمكن أن نتصور في الحالات الاعتيادية، أنه يودع تمام ما كان عنده من الأفكار والمشاعر والانفعالات، ويقلب صفحة جديدة كاملة، دون أي اصطحاب لموروثات العهد

السابق، هذا غير ممكن إلاً في فترة طويلة جداً، مع أن رسول الله ﷺ لم يعش لمجتمع ودولة كمربي تربيةً كاملة في المدينة إلاً عشر سنوات فقط، علماً أن جزءاً كبيراً من المجتمع الإسلامي دخل الأحداث بعد وفاة رسول الله ﷺ، ومجتمع مكة الذي دخل في حظيرة الإسلام وقت فتح مكة، وقبل سنتين فقط من وفاة رسول الله ﷺ.

فكيف يمكن أن نتصور من خلال هذه الأزمنة القصيرة ومع تلك الطفرة الهائلة الكبيرة إثبات تلك الأصول.

فالأصول إذن كان من المنطقي والطبيعي أن لا تبقى وكان من المنطقي والطبيعي أيضاً أن لا تجتث إلاً في خلال أمد طويل، وخلال عملية تستمر مع خلفاء الرسول ﷺ بعده. إلاً أنّ هذه العملية قُطعت بالانحراف، بتحول خط الخلافة عن علي (ع). وهذا لا يثير استغراباً، أو يسجّل نقطة ضعف، بالنسبة إلى عمل الرسول ﷺ بل ينسجم مع الرسالة، مع عظمتهاوجلالتها ومع تخطيط النبي ﷺ.

فهذه هي الأمة التي تحمل طاقة حرارية، أمة غير واعية، وإذا كانت تحمل هذه الطاقة وهي غير واعية، فليست بقادرة على حماية التجربة الإسلامية وعلى وضع حد لانحراف الحاكم الذي تولى الحكم، إذ بالصيغة الأصولية التي قلناها، من أن الأمة بوصفها المجموعي ليست معصومة، ما دامت تحمل طاقة حرارية فقط، ولا تحمل وعياً مستنيراً يجتث أصول الجاهلية فيها. وما دامت كذلك فهي لا تقف في وجه هذا الانحراف. وقد قلنا بأنه حتى لو أخذنا الحاكم بغير المفهوم الشيعي، مع هذا تبقى طبيعة الأشياء وطبيعة الأحداث تبرهن على أن يكون هذا الحاكم عرضة للانحراف ولتحطيم التجربة الإسلامية، وبالتالي تحطيم جميع الأصول الموضوعية والإطار العام لهذه التجربة الشريفة المباركة. فإن الحاكم أولاً هو جزء عادي من هذه الأمة التي قلنا بأنها لم تكن تحمل وعياً مستنيراً، بل كانت تحمل طاقة حرارية. ولنفرض أن هذا الحاكم لم يكن شخصاً

متميزاً من هذه الأمة بانحراف خاص، وبتخطيط سابق، للاستيلاء على الحكم، لنفرض أن هذا لم يكن، وإنما هو جزء عادي من هذه الأمة تدل سوابقه على ذلك، فمعنى كونه جزءاً من هذه الأمة أن الحاكم يستبطن قدراً كبيراً من الأفكار الجاهلية والعواطف الجاهلية والمشاعر الجاهلية، وهذا كان واضحاً من اللحظة الأولى، وفي الحجج التي أوردها المهاجرون ضد الأنصار. وكان من الواضح أن تقييم الخلافة لم يكن تقييماً إسلامياً، فهذه الرواسب الفكرية والعاطفية للجاهلية سوف تعمل عملها في سلوك هذا الحاكم، وفي تخطيطه.

وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً أن الحاكم لم يكن قد هيىء أبداً لأن يكون حاكماً، وللحاكم مشاكله الخاصة وسلوكه الخاص وثقافته الخاصة. الحاكم، خاصة إذا كان حاكماً في صدر دعوة جديدة ذات حرارة خاصة وثقافة جديدة، فلا بدَّ وأن يكون هذا الحاكم مهيأً بصورة مسبقة تهيؤاً ثقافياً وعلمياً وروحياً، لأن يكون حاكماً!..

وقصدنا من عدم التهيؤ هو عدم التهيؤ الثقافي والعلمي، بمعنى أنه لم يكن قد استوعب الإسلام. عمر نفسه كان يقول: شُغِلنا أيام رسول الله ﷺ في الأسواق والحرب؟. تأتيه مشكلة فلا يعرف الجواب عنها فيبعث للمهاجرين والأنصار ليستفتيهم مرة ثانية وثالثة ورابعة، حينما يتكرر هذا المطلب منه ويقف موقفاً سلبياً تجاه المشاكل من الناحية الدينية، فيعتذر عن ذلك فيقول شغلتنا أيام رسول الله ﷺ الحرب والعمل في الأسواق.

رسول الله ﷺ لم يهيء هذا الحاكم

نعم رسول الله ﷺ لم يكن قد اشتغل لتهيئة مجموعة من الأمة لتحكم الناس وإنما هيأ قادة معينين من أهل البيت (ع) ليحكموا.

كان رسول الله ﷺ يعمل على خطين للتوعية: الخط الأول هو التوعية على مستوى الأمة، وهذه التوعية للأمة بوصفها رعية بالمقدار الذي تتطلبه الرعية الواعية من فهم وثقافة، وكان له خط عمل على مستوى آخر من التوعية،

للصفوة التي اختارها الله سبحانه وتعالى حتى تخلفه لقيادة هذه التجربة كانت توعية على مستوى القيادة وعلى مستوى الحاكمية.

وهؤلاء الذين تولوا الحكم بعد رسول الله ﷺ لم يكونوا قد عاشوا على هذا المستوى للتوعية من الناحية الفكرية والثقافية، ألسنا جميعاً نعرف أن الصحابة اختلفوا في المسائل الواضحة جداً، اختلفوا في حكم سنَّةٍ كان يمارسها رسول الله ﷺ أمام أعينهم مدة طويلة، اختلفوا في حكم صلاة الجنائز، هذه المسألة العبادية الصرفة البعيدة عن كل مجالات الهوى والسياسة والاقتصاد، فالاختلاف هنا اختلاف ناشىء من الجهل حقيقة، لا اختلاف ناشىء من الهوى، ليس من قبيل الاختلاف في حكم الأرض وفي حكم الغنيمة وحكم الخمس.

كل هذا ينشأ من عدم التهيئة سابقاً ومن عدم الاستعداد لممارسة الحكم ولقيادة هذه التجربة، يضاف إلى ذلك أن الأمة كانت تحمل طاقة حرارية، ولم تكن واعية إلى أن الحاكم كان قاصراً أو مقصراً، يضاف إلى كل ذلك أن الإسلام كان على أبواب تحول كمي هائل، كان على أبواب أن يفتح أحضانه لأمم جديدة، لم تر النبي ﷺ ولم تسمع آية من القرآن منه على الإطلاق. تلك الأمة التي خلفها النبي ﷺ كانت تحمل طاقة حرارية، لكن بعد أن اتسعت الأمة كمياً وضمَّت إليها شعوباً كثيرة، ضمت إليها الشعب العربي بأكمله، وضمَّت إليها من الشعوب الأخرى من الفارسية والتركية والكردية والهندية والأفغانية والأوروبية وغيرها، ما بال هذه الشعوب التي لم تكن قد رأت رسول الله ﷺ ولم تسمع منه كلمة من القرآن، هل يترقب أن يكون لها وعي، أو يترقب أن يكون لها طاقة حرارية؟ تلك الطاقة، كانت نتيجة كفاح مستمر مع أشرف قائد على وجه الأرض. إن هذه الشعوب التي دخلت حظيرة الإسلام، لم تكن قد عاشت هذا الكفاح المستمر مع القائد. إذن فهذا الانفتاح الهائل على الشعوب الأخرى أيضاً ضعَّف مناعة هذه الأمة، وأضعف من قدرتها على الحماية، وفتح بالتالي مجالات جديدة للقصور والتقصير أمام الحاكم.

الحاكم الذي لم يكن مهيأً نفسياً لأن يحكم في مجتمع المدينة. كيف يكون مهيأً نفسياً وفكرياً وثقافياً لأن يحكم بلاد كسرى وقيصر ويجتث أصول الجاهلية، الفارسية والهندية والكردية والتركية، إضافة إلى اجتثاث الجاهلية العربية، هذه الجاهليات التي كانت كل واحدة منها تحتوي على قدر كبير من الأفكار والمفاهيم الأخرى، جاهليات عديدة متضاربة فيما بينها عاطفياً وفكرياً وكلها في مجتمع واحد وفي حالة عدم وجود ضمان لا على مستوى الحاكم، ولا على مستوى الأمة؟!

لئن كان أولئك الذين خلفهم رسول الله ﷺ قد رأوا بأم أعينهم، في لحظة قصيرة، تجسيداً واقعياً حياً للنظرية الإسلامية للحياة وللمجتمع في أيام رسول الله ﷺ ورأوا تصرفات رسول الله ﷺ في المجال السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي، وسمعوا من رسول الله ﷺ أنه يقول: الناس سواسية كأسنان المشط، فإن هذه الشعوب التي دخلت في الإسلام جديداً، لم تكن قد سمعت كل هذا بل سمعت هذا من الحكام الجدد الذين كانوا يقودون زعامة التجربة، فإذا كان أمينها حاكماً منحرفاً، وكانت الأمة غير قادرة على مواجهة هذا الانحراف، وكانت على أبواب توسع هائل ضخم يضم شعوباً لا تعرف شيئاً أصلاً عن هذه النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية، إنما تعرف الواقع الذي يتجسد خارجاً والذي عاشته كواقع وهو أن فاتحاً مسلماً سيطر على بلادها. إذن كان من المفروض ومن المنطقي بحسب طبيعة الأشياء، أن تتحول النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية إلى نظرية أخرى وفق خط الحاكم الموجود فعلاً، والذي يجسد في سلوكه وتصرفاته، حقيقة بعيدة عن الحقيقة التي عمل رسول الله ﷺ على تجسيدها في حياته، فنظرية الحكام للحكم، وكما عاشوها واقعياً وسياسياً واقتصادياً، كانت كفيلة بأن تطمس تلك الأطروحة الصالحة فكرياً وروحياً كما انطمست سياسياً واقتصادياً من قبل، ولذا كان أمراً طبيعياً أن يعمل قادة أهل البيت (ع) على التخطيط لحماية إسلامهم من أن يندرس، وذلك عن طريق الدخول في الصراع السياسي مع هؤلاء الحكام.

الأئمة (ع) دخلوا في صراع مع الخلفاء ومع الزعامات المنحرفة، دخلوا في الصراع يحملون في أيديهم مشعل تلك النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية بكل بهائها ونورها وجمالها وكمالها، ولم يكونوا يستهدفون من هذا أن يعيدوا خط التجربة، لأن المؤسف أن خط التجربة لم يكن بالإمكان أن يعود مرة أخرى إلى الاستقامة بعد أن انحرف، لم يكن الصراع السياسي يستهدف في المقام أن يعيد التجربة إلى خطها المستقيم، أو على المدى الطويل الطويل، ولم يكن هذا هو الهدف الآني للصراع السياسي، وإنما كان الهدف الآني للصراع هو أن يبثوا الوعي في المسلمين والشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام على النظرية الحقيقية للإسلام عن الحياة، عن المجتمع، عن الدولة، عن الاقتصاد، وعن السياسة، وعن الآخرة ويبينوا لهم بصدق ما هو مفهوم الإسلام في هذه المجالات وصولاً إلى ترسيخ هذه النظرية في أذهان الناس.

صحيح أن النظرية كانت موجودة في القرآن، وكانت موجودة في النصوص، ولكن هذا لا يكفي وحده للوصول إلى الهدف وذلك:

أولاً: لأن النظريات حينما تكون حبراً على ورق لا تكفي لأن تعطي صورة واضحة عن الحقيقة الصادقة في أذهان الناس.

ثانياً: لأن القرآن والسنّة لم تكن قد فهمته هذه الشعوب الجديدة التي قد دخلت في الأسلام. السنة: لم يكونوا قد سمعوا عنها شيئاً وإنما سوف يسمعون عنها عن طريق الصحابة. وأما القرآن الكريم فلم يكونوا قد سمعوا شيئاً عن تفسيره أيضاً، وإنما بدأوا يسمعونه عن طريق الصحابة، فلا بدَّ حينئذٍ من تجسيد حي لهذه النظرية الإسلامية، وحيث لم يكن بالإمكان تجسيده عن طريق الحكم، كان من الضروري تجسيده عن طريق المعارضة للزعامات المنحرفة على يد علي (ع) والحسن والحسين (ع) أئمة المرحلة الأولى.

دور ممارسة المرحلة الأولى

كان علي (ع) يعبر عن آلام الأمة وعن آمالها ومظالمها أمام عثمان،

ويعظه ويوبخه، ويذكره الله وأيام الله والآخرة ورسول الله ﷺ ولكن عثمان لم يكن يتّعظ.

لماذا كان حريصاً كل الحرص على أن يبدو صراعه موضوعياً عقائدياً يستهدف النظرية لا الشخص. يستهدف تثبيت دعائم نظرية حقيقية للإسلام، لا تدعيم شخصه، كان الإمام (ع) حريصاً على أن تكون التصورات والانعكاسات التي يعيشها الناس عن صراعه على مستوى أن صراعه صراع نظري عقائدي وليس صراعاً شخصياً، لأن هذا كان من أكبر الوسائل لتثبيت حقانية هذه النظرية التي يقدمها. أليس هو يريد أن يثبت للذهنية الإسلامية أن النظرية الإسلامية للحياة الاجتماعية هذه، لا تلك التي يطبقها الزعماء المنحرفون، كيف يستطيع أن يرسخ هذا في الذهنية الإسلامية على أنه صراع عقائدي ونضالي في سبيل تثبيت النظرية، ولهذا انتظر أمير المؤمنين (ع) أن يبرز الانحراف واضحاً ثم يبدأ الصراع. لأن هؤلاء الناس الغير واعين لا يشعرون بمرارة الانحراف إلاً إذا دخل الانحراف إلى بيوتهم، إلاً إذا مسَّ جلودهم، أما قبل هذا فلا يترقب من الأمة الغير الواعية، أن تشعر بالانحراف.

بعدما تكشَّف الانحراف في أيام عثمان إلى درجة لم يكن بحاجة إلى صعوبة لتشعر به الأمة الغير واعية، شعرت الأمة الإسلامية بذلك، خصوصاً في السنوات الأخيرة من أيام عثمان، فدخل الإمام (ع) في الصراع بشكل مكشوف ليثبت للتجربة الإسلامية دعائم النظرية الأخرى، فكان (ع) هو رمز نظرية إسلامية للحياة الاجتماعية تختلف عن النظرية المطبقة لواقع الحياة الاجتماعية على ما سوف نشرح.

إن أمير المؤمنين (ع) حينما تولى الخلافة بعد مقتل عثمان، أراد أن يشرح للمسلمين بطريقته الخاصة، أن المسألة ليست بالنسبة إليه تبديل شخص بشخص آخر، وليست مسألة فارق اسمي بين زعيم الأمس وزعيم اليوم، وإنما المسألة هي مسألة اختلاف شامل كامل للمنهج، وفي كل القضايا المطروحة.

إلاَّ أنه لعلاجها وتصفيتها، كان يريد أن يبين للمسلمين ضرورة أن ينظر إليه بوصفه قائماً على الخط، وقيماً على المنهج وأميناً على الرسالة. وعنواناً لدستور جديد، يختلف عن الوضع المنحرف القائم.

لأجل هذا امتنع عن قبوله الخلافة أول الأمر، فقال لهم فكروا في غيري، واتركوني وزيراً لمن تستخلفونه، فأنا لكم وزير خير مني أمير، يعني على مستوى حياة الدعة والكسل، على مستوى الرخاء واليسر، على مستوى الحياة الفارغة من المسؤولية، على مستوى هذه الحياة أنا وزير خير مني أمير، لأني حينما أكون أميراً سوف أرهقكم، سوف أتعبكم، سوف أفتح أمامكم أبواب مسؤوليات كبرى تجعل ليلكم نهاراً، وتجعل نهاركم ليلاً، هذه الهموم التي تجعلكم دائماً وأبداً تعيشون مشاكل الأمة في كل أرجاء العالم الإسلامي، هذه الهموم التي سوف تدفعكم إلى حمل السلاح ـ من دون حاجة مادية ـ لأجل تطهير الأرض الإسلامية من الانحراف الذي قام عليها. .

اتركوني وزيراً أكون أفضل لكم على مستوى هذه الحياة مني وأنا أمير، لأني كوزير لا أملك أن أرسم الخط، أو أن أضع المخطط، وإنما أنصح وأشير وحينئذٍ يبقى الوضع مستمراً. أصروا عليه بأن يقبل الخلافة، ففرض عليهم الشروط فقبلوها إجمالاً دون أن يسألوه التوضيح، أعطاهم فكرة عن أن عهده هو عهد منهج جديد للعمل السياسي والاجتماعي والإداري، فقبلوا هذا العهد، وكان هذا سبباً في أن ينظر المسلمون من اللحظة الأولى، إلى أن عليّ بن أبي طالب (ع) بوصفه نقطة تحول في الخط الذي وجد بعد النبي ﷺ، لا بوصفه مجرد خليفة، فانتعشت مع هذا العهد الجديد آمال كثيرة.

وحينما بويع علي (ع)، كانت أكثر الصعاب التي واجهها بعد بيعته، هو انشقاق معاوية وتخلف الشام بكامله لابن أبي سفيان عن الانضمام إلى بيعته. هذا التناقض، شق المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية إلى شقين، ووجد في كل منهما جهاز سياسي وإدراي لا يعترف بالآخر. ومنذ البدء، كان هناك

فوارق موضوعية واضحة، بين وضع علي بن أبي طالب (ع) السياسي والإداري، ووضع معاوية السياسي والإداري، تجعل هذه الفوارق معاوية، أحسن موقفاً وأثبت قدماً، وأقدر على الاستمرار في خطه من إمام الإسلام (ع).

هذه الفوارق الموضوعية لم يصنعها الإمام (ع) وإنما كانت نتيجة تاريخ:

فأولاً: كان معاوية يستقل بإقليم من أقاليم الدولة الإسلامية، ولم يكن لعلي أي رصيد أو قاعدة شعبية في ذلك الإقليم على الإطلاق، لأن هذا الإقليم، قد دخل في الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ وانعزال علي عن خط العمل، وكان هذا الإقليم، قد دخل ودشن حياته الإسلامية بولاية يزيد أخي معاوية، ثم بعد بولاية معاوية، وعاش الإسلام من منظار آل أبي سفيان، ولم يسمع بعلي (ع)، ولم يتفاعل مع الوجود الإسلامي والعقائدي، هذا الإمام العظيم لم يكن يملك شعاراً له رصيد أو قاعدة شعبية في المجتمع الذي تزعمه معاوية، وحمل لواء الانشقاق فيه، في حين، العكس، فإن شعار معاوية كان يملك رصيداً قوياً وقاعدة قوية في المجتمع الذي تزعمه الإمام (ع) لأن معاوية، كان يحمل شعار الخليفة القتيل، والمطالبة بدمه.

هذا كان أمير ذلك المجتمع الذي تزعمه علي (ع)، وكان لهذا الخليفة القتيل أخطبوط في هذا المجتمع وقواعد. وهكذا كان شعار ابن أبي سفيان يلتقي مع وجود ومع قاعدة ورصيد في داخل مجتمع أمير المؤمنين (ع) بينما لم يكن شعار علي يلتقي مع قاعدة ورصيد في داخل مجتمع معاوية.

وثانياً: كانت طبيعة المهمة تميز معاوية عن علي بن أبي طالب (ع)، لأن أمير المؤمنين (ع) بوصفه الحاكم الشرعي، والمسؤول عن الأمة الإسلامية كان يريد أن يقضي على هذا الانشقاق الذي وجد في جسم الأمة الإسلامية وذلك بشخصية هؤلاء المنحرفين، وإجبارهم بالقوة على انضمامهم إلى الخط الشرعي، وكان هذا يستدعي الدخول في الحرب، التي تفرض علي علي (ع) الطلب من العراقي أن يخرج من لعراق، تاركاً أمنه ووحدته واستقراره، ومعيشته

ورخاءه ليحارب أناساً شاميين لم يلتق معهم بعداوة سابقة، وإنما فقط بفكرة أن هؤلاء انحرفوا، ولا بدَّ من إعادة أرض الشام للمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، فكان موقف علي (ع) يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجوم على أناس لا يملكون ـ في غالبيتهم ـ الوعي لخطورة تراخيهم على قمع هذا الانحراف، انطلاقاً من عدم استيعابهم لأبعاده؟!

في حين أن معاوية بن أبي سفيان، يكتفي من تلك المرحلة، بأن يحافظ على وجوده في الشام، لم يكن يفكر (ما دام أمير المؤمنين) أن يهاجم أمير المؤمنين، وأن يحارب العراق ويضم العراق إلى مملكته، وإنما كان يفكر فقط، في أن يحتفظ بهذا الثغر من ثغور المسلمين، حتى تتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية، بعد ذلك يتآمر على الزعامة المطلقة في كل أرجاء العالم الإسلامي. فمعاوية لم يكن يقول للشامي، اترك استقرارك ووحدتك، واذهب إلى العراق محارباً، لأن هذا الشخص خارج عن طاعتي، ولكن كان علي (ع) يقول هذا للعراقي، لأن علياً (ع) كان يحمل بيده مسؤولية الأمة، ومسؤولية إعادة وحدة المجتمع الإسلامية، بينما كان كل مكسب معاوية وهمَّه أو قصارى أمله، أن يحافظ على هذا الانشقاق ويحافظ على هذه التجزئة التي أوجدها في جسم المجتمع الإسلامي. وشتان بين قضية الهجوم حينما تطرح وقضية الدفاع.

وثالثاً: كان هناك فرق آخر بين معاوية الإمام (ع) وهو أن معاوية، كان يعيش في بلد لم يكن قد نشأت فيه زعامات سياسية طامحة إلى الحكم والسلطان من ناحية، ولم يكن فيه أناس ذوي سابقة في الإسلام، ممن يرى لنفسه الحق أن يساهم في التخطيط وفي التقدير، وفي حساب الحاكم، وفي رسم الخط، لم يكن هكذا، الشام أسلمت في عهد معاوية وأخيه، كلهم كانوا نتيجة لإسلام معاوية ولإسلام أخي معاوية، ولإسلام من استخلف معاوية على الشام ولم يكن قد مني بتناقضات من هذا القبيل.

أما علي (ع) فكان يعيش في مدينة الرسول ﷺ، كان يعيش في حاضرة

الإسلام الأولى التي عاش فيها الرسول ﷺ، وعاش بعد ذلك أبو بكر، وعاش بعد ذلك عمر وعثمان، حتى قتلا، ومن ناحية كان يواجه كثيراً ممن يرون أن من حقهم أن يساهموا في التخطيط، وأن يشتركوا في رسم الخط، كان علي (ع) يواجه أشخاصاً كانوا يرونه نداً لهم، غاية الأمر أنه ندّ أفضل، ند مقدم، لكنهم صحابة، كما أنه هو صحابي عاش مع النبي ﷺ وعاشوا مع النبي ﷺ.

طبعاً إننا نعلم أيضاً، بأن خلافة علي كانت بعد وفاة النبي ﷺ بعشرين سنة، وهذا معناه، أن ذلك الامتياز الخاص الذي كان يتمتع به أمير المؤمنين في عهد الرسول ﷺ كالنجم لا يطاول، ذاك الامتياز الخاص كان قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين، الناس عاشوا عشرين سنة يرون علياً مأموماً، يرونه منقاداً، يرونه جندياً بين يدي أمير. هذا الإحساس النفسي خلال عشرين سنة أذهب تلك الآثار التي خلفها عهد النبوة، وهكذا كان علي (ع) يُنظر إليه بشكل عام، عند الصحابة الذين ساهموا في حل الأمور وعقدها وكانوا يمشون في خط السقيفة، هؤلاء الصحابة الذين قدموا للإسلام في صدر حياتهم، وكانوا قد قدر لهم بعد هذا أن يمشوا في خط الانحراف، هؤلاء كانوا ينظرون إلى علي الأخ الأكبر، الزبير صحيح كان يخضع لعلي (ع) لكن كان يخضع له كالأخ الأكبر لا يرى أن إسلامه مستمد منه، هذه الحقيقة الثانية الثابتة التي كانت واضحة على عهد النبي ﷺ حُرِّفت خلال عهد الانحراف، ولهذا كان الزبير يعترف بأن علياً أفضل منه، لكنه لا يرى نفسه مجرد آلة ومجرد تابع يجب أن يؤمر فيطيع، فكان هناك أناس من هذا القبيل، هؤلاء يريدون أن يشتركوا في التخطيط ويشتركوا في رسم الخط، في ظرف هو أدق ظرف وأبعده عن عقول هؤلاء القاصرين.

رابعاً: كان توجد هناك الأطماع السياسية والأحزاب السياسية التي تكوَّنت، واستفحلت نتيجة لما سمي بالشورى في تعيين الرجال السبعة الذين عيَّنهم عمر ليختاروا من بينهم خليفة، هذه الأحزاب السياسية كان يفكر في أمرها، ويفكر في مستقبلها، ويفكر في أنه كيف يستفيد أكبر قدر ممكن من

الفائدة في خضم هذا التناقض، وهذا بخلاف معاوية الذي لم يكن قد مني بصحابة أجلَّاء يعاصرونه ويقولون له نحن صحابة كما أنت صحابي، بل كان أهل الشام أسلموا في عهده وعهد أخيه، لم ير أحد منهم رسول الله ﷺ، ولم يسمع أحد القرآن إلاَّ عن طريق معاوية، إذن كانت حالة الاستسلام في المجتمع الشامي بالنسبة إليه لا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام (ع) في مجتمع المدينة والعراق.

خامساً: كان هناك فرق آخر بين الإمام (ع) ومعاوية، وحاصل هذا الفرق هو أن الإمام (ع) كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان معاوية يتبنى قضية هي في صالح الأقوى من أفراد المجتمع. أمير المؤمنين (ع) كان يتبنى الإسلام بما فيه من قضايا العدالة الاجتماعية التي يمثلها النظام الاقتصادي للإسلام، وهذه القضايا لم تكن في صالح الأقوى، بل كانت في صالح الأضعف، ومعاوية كان يمثل الجاهلية بفوارقها وعنفوانها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الأضعف بل كان في صالح الأقوى، وذلك أنه بعد رسول الله ﷺ حينما دخل العراق والشام وبقية البلاد في داخل المجتمع الإسلامي، لم يقدر الخلفاء الذين تزعموا زعامة المسلمين على تذويب التنظيم القبائلي الذي كان موجوداً في هذه البلاد، بل بقي التنظيم القبائلي بطبيعته، يخلق جماعة من الزعماء ومن شيوخ هذه القبائل الذين لم يربِّهم الإسلام في المرتبة السابقة ولم يعيشوا أيام النبوة عيشاً صحيحاً مما جعل من هؤلاء طبقة معينة ذات مصالح، وذات أهواء وذات مشاعر في مقابل قواعدها الشعبية مما يوفر لهم أسباب النفوذ والاعتبار.

الآن تصوروا مجتمعاً إسلامياً تركه الخلفاء وهو يعم بالتقسيمات القبلية بمعنى أن كل قبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة تلك القبيلة التي تشكِّل كما قلنا همزة وصل بين القبيلة وبين الحاكم الذي يسهل عليه أن يرشي رؤساء هذه القبائل بقدر الإمكان، وكان عاملاً من عوامل القوة بالنسبة إلى معاوية، هذه الظروف الموضوعية لم يصنعها الإمام (ع) وإنما هي صنعت خلال التاريخ

وأوجدت لمعاوية مركزاً قوياً ووجد للإمام مركز ضعف، ولولا براعة التضحية وكفاءته الشخصية ورصيده الروحي في القطاعات الشعبية الخاصة الواسعة، لولا ذلك لما استطاع (ع) أن يقوم بما مرَّ به نفسه من حروب داخلية خلال أربع سنوات.

هكذا بدأ الإمام بخلافته ودشَّن عهده، وبدأ الانقسام مع هذا العهد على يد معاوية بن أبي سفيان، وأخذ الإمام يهيىء المسلمين للقيام بمسؤولياتهم الكبيرة للقيام بدورهم في تصفية الحسابات السابقة، في تصفيتها على مستوى مالي، على المستوى الاقتصادي، على المستوى الاجتماعي على المستوى السياسي والإداري أيضاً، كل ذلك كان يحتاج إلى الكفاح والقتال فأخذ يدعو الناس إلى القتال وخرجوا إليه فعلاً. لقد درسنا إلى هنا علياً مع معاوية بحسب ظروفه الموضوعية، فلا بدَّ وأن ندرس الذهنية العامة للمسلمين أيضاً، كيف كان يُفسر هذا الخلاف الموجود بين علي ومعاوية.

الذهنية العامة للمسلمين بدأت تفسر هذا الخلاف، بأنه بين خط خلافة راشدة، وبين شخص يحاول الخروج على هذه الخلافة، كانوا ينظرون إلى علي بشكل عام على أنه هو الخليفة الراشد، الذي يريد أن يحافظ على الإسلام، ويحافظ على خط القرآن في حين أن معاوية يحاول أن يتآمر على هذا المفهوم. استطاع أمير المؤمنين (ع) أن يثبت هذا الانطباع، بالرغم من كل الظروف الموضوعية التي قلناها، في ذهن القاعدة الشعبية الواسعة، في كل أرجاء العالم الإسلامي، عدا القطر الذي كان يرتبط بمعاوية، وهذه الذهنية هي التي كانت تصبغ المعركة بين علي ومعاوية بطابع الرسالة، كأن تعطيه معنى رسالياً. وكانت تفسر هذه المعركة بأنها معركة بين الجاهلية والإسلام، بين فكرين، بين هدفين، وليست بين زعامتين وشخصيتين، إلاَّ أن الأمر تطور إلى الأسوأ حيث إن المسلمين بدأوا يشكون شكاً واسع النطاق، بأن المعركة بين أمير المؤمنين (ع) وبين معاوية بن أبي سفيان معركة رسالية.

من الصعب جداً أن نتصور أنه كيف يمكن للمسلمين أن يشكوا في أن المعركة القائمة بين إمام الورع والتقى والعدالة، وبين شخص خائن جاهلي منحرف عدو رسول الله ﷺ كانت معركة رسالية إلاَّ أني لا أشك في أن عدداً كبيراً من المسلمين على مرِّ الزمن في عهد خلافة أمير المؤمنين بدأ يشك في أن هذه المعركة أهي رسالية حقيقية أو غير رسالية؟ وهنا يجب أن نعرف أن المسلمين الذين شكوا من هم؟ إنهم أولئك الذين عرفناهم عقيب وفاة الرسول ﷺ بشخص المبادىء التي طرحها ﷺ، هم أولئك المسلمون الذين خلفهم الرسول فكانت خير أمة أخرجت للناس، على مستوى إيمانهم وطاقتهم الحرارية وإشعاعهم وشحنهم من النبي ﷺ، ولكن لم يكن لهم من الوعي العقائدي الراسخ إلاَّ شيء قليل، هذا المعنى شرحناه وبيَّناه وبيَّنا جهاته، وقلنا إن الأمة لم تكن على مستوى الوعي وإنما كانت على مستوى الطاقة الحرارية، إذن فنحن لن نتوقع فيها أن تبقى مشتعلة، وتبقى على جذوتها وحرارتها بعد وفاة رسول الله ﷺ، يبقى هذا أيضاً غير منطقي، إذن يجب أن نفكر في أن هذه الطاقة الحرارية قد تضاءلت بدرجة كبيرة وحتى تلك الصبابة من الوعي، تلك الجذور من الوعي التي كان رسول الله ﷺ قد بدأ بها كي يواصل بعد هذا خلفاؤه المعصومون عملية توعية الأمة، حتى تلك البذور قد فتتت، وأخفقت ومنع بعضها عن الإثمار، وبقي بعضها الآخر بذوراً منقسمة أيضاً. وحينما نتصور الأمة الإسلامية بهذا الشكل، من ناحية أخرى يجب أن نتصور مفهوم المسلمين عن معاوية، نحن الآن ننظر إلى معاوية بعد أن استكمل حظه من الدنيا، وبعد أن دخل الكوفة وصعد على منبر علي بن أبي طالب (ع) وقال إني لم أحاربكم لكي تصوموا أو تصلوا وإنما حاربتكم لكي أتأمّر عليكم، بعد أن أعلن بكل صراحة ووقاحة عن هدفه، وبعد أن طرح بكل برودة شعار الخليفة المظلوم وشعار الخليفة القتيل، دخل عليه أولاد عثمان بن عفان وقالوا له: لقد جعلنا هذا الأمر وتم الأمر لك يا أمير المؤمنين، فما بالك لا تقبض على قتلة أبينا، قال: أولا يكفيكم أنكم صرتم حكّام المسلمين.

نحن ننظر إلى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغيَّر أحكام الشريعة وأبدع في السنة، ننظر إلى معاوية بعد أن استخلف يزيد ابنه على أمور المسلمين، وبعد أن قتل مئات من الأبرار والأخيار، ننظر إلى معاوية بعد أن تكشفت أوضاعه، لكن فلنفرض أن شخصاً ينظر إلى معاوية قبل أن تكشف له هذه الأوضاع، لنفترض أن أولئك الأشخاص يعيشون في إطار الأمة الإسلامية وقتئذٍ، معاوية ماذا كان يكشف عن أوضاعه وقتئذٍ على المسلمين، ماذا كان من أوراق معاوية مكشوفاً وقتئذٍ؟ كان معاوية شخصا قد مارس عمله الإداري والسياسي بعد وفاة رسول الله ﷺ بأقل من سنة، خرج إلى المدينة وذهب إلى الشام كعامل عليها، وبقي معاوية هناك مدللاً محترماً معززاً، وبعد هذا جاء عثمان فوسع من نطاق ولاية معاوية، وضمَّ إليه عدة بلاد أخرى، إضافة إلى الشام، ولم يطرأ أي تغيير في ابن أبي سفيان، فمعاوية لم يكن شخصاً مكشوفاً، ثم دخل الصراع لأول مرة شعار الأخذ بالثأر لدم عثمان، هذا الشعار الذي أخذه معاوية وكان يبدو للبسطاء من الناس وكثير من المغفلين، كان شعاراً له وجهة شرعية، كان يقول بأن عثمان قتل مظلوماً، وعثمان بالرغم من أنه خان الأمانة من استهزاء بالإسلام، وبالرغم من أنه صيَّر الدولة الإسلامية إلى دولة عشيرة وقبيلة، وبالرغم من أنه ارتكب الجرائم التى أدنى عقابها القتل، بالرغم من هذا، ابن أبي سفيان يقول: قُتِلَ عثمان مظلوماً. وليس هناك من يعرف بأن عثمان يستحق القتل، كثير من الناس البسطاء أيضاً يقولون: عثمان قتل مظلوماً. فلا بدَّ من القصاص، فيا علي إن كنت قادراً فأعطنا قاتليه، وإن كنت عاجزاً، فأنت عاجز عن أن تطبق أحكام الإسلام فاعتزل الحكم لأن الخليفة يشترط فيه القدرة على تطبيق أحكام الإسلام.

هذا هو الشعار الذي أبرزه معاوية في مقابل الإمام (ع)، والإمام (ع) في مقابل هذا الشعار لم يكن يريد بأن يصرح بأن عثمان كان جديراً بأن يقتل، أو كان يجب أن يقتل، لأنه لو صرَّح بهذا، لتعمَّق اتهام معاوية وطوَّر التهمة من

قول أعطني، إلى قول: إنك قتلت عثمان، فبقي شعار معاوية شعاراً مضللاً إلى حد كبير.

ثم لا بدّ وأن نلاحظ الجهود والأتعاب والتضحيات التي قام بها المسلمون في كنف علي (ع). لا أدري هل إن أحداً جرَّب أو لم يجرب هذا الإيحاء النفسي، حينما تكون المهمة صعبة على الإنسان وثقيلة، حينئذٍ توسوس له نفسه بالتشكيك في هذه المهمة بمختلف التشكيكات، فحينما يصعب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حينئذٍ يأخذ بالوسوسة، من قال بأن هذا الرجل مبطل؟ من قال إنه قادر على هذا الكلام؟ من قال إن شروط الأمر بالمعروف تامة، وهكذا يوسوس لأجل أن يستريح من هذه المهمة، لأجل أن يلقي عن ظهره هذا العبء الكبير، كل إنسان يميل بطبعه إلى الدعة، إلى الكسل إلى الراحة إلى الاستقرار، فإذا وضعت أمامه مهام كبيرة، حينئذٍ، إذا وجد مجالاً للشك في هذه المهمة فسوف يكون عنده دافع نفسي إلى أن يشك، يشك لأجل أنه يريد أن يشك، ويشك لأجل أنه من مصلحته أن يشك، وهذا كان موجوداً على عهد الإمام (ع).

العراقيون قدَّموا من التضحيات شيئاً كثيراً بذلوا أموالهم ونفوسهم ودماءهم في حروب ثلاثة، آلاف من العراقيين ماتوا وقتلوا، عشرات من الأطفال يتموا، آلاف من النساء أصبحن أرامل، آلاف من البيوت والعوائل تهدمت، كثير من المدن والقرى غارت عليها جيوش معاوية، كثير من هذه المآسي والولايات حلَّت بهؤلاء المسلمين، نتيجة ماذا؟ ولأجل ماذا؟ لأجل أن يزداد مالهم؟ لا، لأجل أن يزداد جاههم؟ لا، وإنما لحساب الرسالة، لحساب الخط، لحساب المجتمع الإسلامي، لأجل هذا الهدف الكبير، وهذا هدف كبير أعز من كل النفوس وأعز من كل الدماء وأعز من الأموال. لكن نحن يجب أن نقدر موقف هؤلاء الذين ضحُّوا وبذلوا وقدموا، ثم أصبحوا يشككون لأن من مصلحتهم أن يشككوا، وأصبح الإمام يدفعهم فلا يندفعون، يحركهم، فلا

يتحركون، لماذا؟ لأن من مصلحتهم أن يعطوا للمعركة مفهوماً جديداً، وهو أن القصة قصة زعامة علي أو معاوية، ما بالنا وعلي ومعاوية؟ إما أن يكون هذا زعيماً وإما أن يكون ذلك زعيماً، نحن نقف على الحياد ونتفرج، فإما أن يتم الأمر لهذا أو لذاك، هذا التعبير بداياته، وهذا التفسير الذي أوحت مصلحة هؤلاء وهؤلاء هو الذي كان يشكل عقبة دون أن يتحركوا، دون أن يتحرك هؤلاء من جديد إلى خط الجهاد، هذا التعبير هو الذي جعل أمير المؤمنين (ع) يبكي من على المنبر، وينعي أصحابه الذين ذهبوا، أولئك الذين لم يشكوا في خطه وفيه لحظة، أولئك الذين آمنوا به إلى آخر لحظة، أولئك الذين كانوا ينظرون إليه كامتداد لرسول الله ﷺ، من قبيل عمار وأمثاله، هذا عمار الذي وقف بين الصفين، ووضع سيفه على بطنه، وقال: اللهم إنك تعلم أن لو كان رضاك أن أغمد هذا في بطني حتى أخرجه من ظهري لفعلته، اللهم إنك تعلم أني لا أعلم رضاك إلاً في قتال هؤلاء المائعين المنحرفين، كان يبكي لأمثال عمار، لأن عمار وأمثاله كانوا قد ارتفعوا فوق هذه الشكوك، قد طلّقوا مصالحهم الشخصية لمصلحة الرسالة، كانوا قد غضوا النظر عن كل الاعتبارات الخاصة في سبيل حماية كيان الإسلام، وفي سبيل إعادة مجد المجتمع الإسلامي ووحدة المجتمع الإسلامي إلى هؤلاء.

أصبح هؤلاء الذين كانوا يفكرون في الهموم الكبيرة يفكرون في الهموم الصغيرة، أصبحوا يفكرون في قضاياهم، يجب أن لا نعتب عليهم، نحن أسوأ منهم، فنحن لم نرتفع لحظة هكذا، نهبط، وهؤلاء ارتفعوا لحظة ثم هبطوا. هؤلاء خرجوا من بلادهم وطلقوا نساءهم وأطفالهم وأموالهم في سبيل الله، وفي سبيل قضية ليس لهم ربح مادي فيها. هؤلاء فعلوا هذا ساعة ثم أدركهم الشيطان، أما نحن فلا ندري إذا وقفنا مثل هذا الموقف هل نصمد ولو ساعة أو نبقى مكاننا، على أي حال هؤلاء كانوا ثلة، لم يكونوا عمار بن ياسر، هؤلاء بدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم، بدأوا يشكون في هذا الإمام (ع) الصالح حتى تمنى الموت، لأن الإمام (ع) أصبح يحس أنه انقطع عن هؤلاء، وأصبح

منفصلاً عنهم. إنهم أصبحوا لا يفهمون أهداف رسالته. ومن أمرّ ما يمكن أن يقاسيه زعيم أو قائد أن يعيش في جماعة لا تتفاعل معه فكرياً، ولا تعيش مع أهدافه ولا مع خطه، مع إنسان يبذل كل ما لديه في سبيلهم، وهم لا يحسون أن كل هذا في سبيلهم، وإنما يشكون فيه، في نيته، هذا هو الامتحان العسير الذي قاساه أفضل الصلاة والسلام عليه، لكن بالرغم من كل هذا الامتحان يحاول أن يبث من روحه الكبير في هذا المجتمع المتفتت الذي بدأ يشك، والذي بدأ يتوقف. كان يحاول أن يبث فيهم من روحه الكبير، إلى أن خرَّ شهيداً في مسجد الكوفة.

محمد باقر الصدر

مثالية وانتهازية

سوف نلتقي ونحن نعرض لسيرة الحكم الإسلامي بمواقف لعلي بن أبي طالب يعدها بعض المؤرخين مظهر ضعف أو وقوعاً في الخطأ، أو غير ذلك من الأوصاف التي وصف بها هذا الزعيم الإسلامي العظيم بالفعل، وهو أمر محير فعلاً، فلو أن علياً بن أبي طالب كان أقل التزاماً لمثاليته الإنسانية لكسب جولته مع خصوم الشعب، ولكن ما الذي كان يبقى من مبادئه وأهدافه بعد ذلك.

إن النزعة التحررية في الإسلام لم تمت بموت علي، فثورات الشعب لم تنقطع بعد مقتله، بل امتدت عبر التاريخ الإسلامي كله، تكتسب في كل عصر صورة جديدة تناسب هذا العصر. وقد بقيت جذوة العدل الاجتماعي متوهجة طوال العصور، رغم تعدد الفتوح الإسلامية، ورغم الأساليب العديدة التي لجأ إليها الحاكمون المتسمون بدهاء قلَّما عرف تاريخ الشعوب الأخرى مثيلاً له، فقد ألفت الكتب تحت أعينهم وتوجيههم لتدمغ خصومهم بكل صفة شنيعة، بل شكلت فرق مزيفة تنتسب إلى الشعب حتى تدمغ الحركات الشعبية بالانحراف بل والكفر، وكثيراً ما تجد هذه الفرق المزيفة أنصاراً لها من أبناء الشعب المضللين فتتضخم وتزداد إيغالاً في المروق، حتى يختلط الأمر على المؤرخ

الحديث، فلا يستطيع أن يميز نزعة الشعب الحقيقة من النزعات الملفقة.

ولهذا أصبح التاريخ الإسلامي غامضاً شيئاً ما، يجتهد فيه المؤرخ اجتهاده كله ليخرج يالحقيقة أو ما هو أقرب إلى الحقيقة.

ورغم هذا الحشد الهائل من التراث بما فيه من صدق وبما فيه من افتراء، فإن تلك الجذوة التي فجَّرها الإسلام، على يدي نبيّه، ثم على يدي علي بن أبي طالب لم تنطفىء أبداً، وكان المسلمون دائماً يستشعرونها في كل عصر ولو بشكل غامض وكلَّما أحسوا ضغط الحكام وظلمهم.

ولهذا كانت قابلية الشعب الإسلامي في كل زمان لفكرة العدل الاجتماعي، ولهذا لم تتوقف تلك النزعة في كل العصور عن أن تظهر في شكل من الأشكال كثورة اجتماعية تريد أن تنتصف للمستضعفين من أصحاب السلطان والثراء من المستغلين والمتسأثرين.

ولقد قلت من قبل أن الثورة ليست تغييراً في المراكز الاقتصادية فحسب بل هي قبل كل شيء تغيير جذري في وجهة نظر الإنسان إلى الكون. هي نظرة جدية أكثر اتساعاً إلى الكون الغامض. وإلى علاقات البشر بعضهم ببعض. وإلى الطريق الأمثل الذي يجب أن تختطه البشرية في مسيرها الطويل الأبدي إلى أن تكون أكثر فهماً وإدراكاً لحقيقة وجودها. وكل ثورة في التاريخ البعيد أو القريب، لم تأت بنظام اقتصادي توزع به الثروة توزيعاً جديداً. بل جاءت قبل ذلك بفلسفة جديدة، تستوي في ذلك الديانات السماوية والثورات الجديثة حتى الثورة البرجوازية، والثورات الاشتراكية الحديثة.

ولقد يفلح علي بن أبي طالب أو غيره من عظماء التاريخ البشري في أن يقيم مجتمعاً اقتصادياً يسوده العدل الاجتماعي بالقياس إلى عصره، ولكن على أسس وبأساليب لا تتفق مع فكرة العدل وأهدافها، فلا يلبث هذا البناء أن يتغير ولا تبقى منه إلاَّ تلك الأساليب التي تصبح تراثاً رهيباً يتجنبه البشر فيما يلي ذلك من العصور.

ولو لم يسر علي بن أبي طالب سيرته المثالية هذه، أكانت تبقى تلك الجذوة مشتعلة وكامنة في النفوس؟

ومن الغريب أنه ما من فكرة عظيمة تبقى في الأرض وتؤتي ثمارها إلاَّ بالتضحية والفداء بل وبالعذاب أقسى ما يكون العذاب، وهذا النوع من الرجال العظماء هو الذي قدِّر عليه أن يخوض التجربة حتى النهاية، وأن يمتحن بكل أنواع العذابات دون أن يتردد أو يتراجع وكأن دوره الوحيد أن يكون مثالاً في التاريخ البشري، كأنه علامة من علامات الطريق.

وإذا خرجنا عن هذا التعميم إلى واقع الحياة في عصر علي وما فيه من صراعات، فسوف نجد أن كل شيء يرشحه لأن يلعب دور الفدية والمثال.

فقد كان كل طريق أمامه مفتوحاً إلى هذه النهاية الأليمة المشرقة أشد ما يكون الإشراق.

ولهذا فإن علياً لعب دوره الجليل كأعظم ما يلعب الإنسان الفائق دوره في التاريخ.

فها هو ذا يتسلم السلطة في مجتمع تغيرت فيه المراكز الاقتصادية تغيراً مفاجئاً فبعد أن كان العرب مجموعة من القبائل التي تحيا حياة خشنة، صاروا فاتحي أكبر امبراطورية في عصرهم يأتيهم الخراج من أركان الأرض ويتنافسون في الاستيلاء عليه، ويتصارعون في الوثوب إلى مراكز السيادة والحكم، ولم يعد المجاهدون من المهاجرين والأنصار فئة مغلوبة على أمرها فقيرة في مواردها وحقوقها وأمنها، بإزاء سطوة رأس المال المكي وعصبية القبائل الحاكمة، بل سادة وحكاماً، حتى بين خصومهم الطبقيين الأقدمين، ونتيجة للفتوح صار كل رجل من ثوار المهاجرين والأنصار يحتل مركزاً كبيراً أو صغيراً في هذه الأرض الواسعة ذات الخيرات العديدة المفاجئة. بل إن الخصوم الطبقيين سرعان ما تلاقوا وتساووا في الوضع الاجتماعي وزالت حدة الصراع الطبقي ليحل محلها صراع على الغلب والسيطرة والانفراد بالسلطة، واتخذ هذا الصراع شكله المذهبي أو العقائدي، أكثر مما اتخذ صراعاً طبقياً.

في هذا الظرف المتغير جاء علي بن أبي طالب إلى الخلافة.

ماذا كان يستطيع أن يقدم لعرب الجزيرة المنطلقين في كل مكان، من عدل اجتماعي.

نعم كانت هناك فوارق طبقية، وإلاً فلماذا قام أبو ذر في المدينة ثم في الشام يدعو إلى تحريم كنز المال ويدعو إلى توزيعه على المسلمين، نعم كانت هناك حقوق مسلوبة يدافع عنها عمار بن ياسر وأبو الدرداء، وعبد اللّه بن مسعود وغيرهم من زعماء الشعب.

لقد تحول المهاجرون والأنصار إلى سادة بغير شك، وجرت الأموال من أيديهم بغير شك. ولكن المسلمين لم يكونوا هم المهاجرين والأنصار فحسب، بل كثيرون غيرهم من سكان البادية والقبائل اليمنية والمستوطنين في الأمصار المفتوحة وغيرهم من الأعداد الوفيرة التي كوّنت قاعدة المسلمين في ميادين القتال.

كان هناك إذن فقر وكان هناك غنى فاحش لا يصدقه المعاصرون، فإن ثروات بعض كبار المسلمين كانت تعد بالملايين، وكان هناك الفقر الذي جعل صحابياً كبيراً كأبي ذر يفقد أبناءه بسبب سوء التغذية حين قطع عنه عطاؤه، أو حين أسرف على نفسه بالصدقة على الفقراء بكل مال يقع في يده.

على أن القوى التي كانت تتصدى للقيادة وتتصارع على المناصب كانت على شيء من السعة في الرزق مع تفاوت كبير أو صغير في الدرجات، وصراعها فيما بينها بما تمثله من اتجاهات لا تحركه إلاً العقيدة، أو لا تحركه إلاً العقيدة في المقام الأول، فالشعبيون الأحرار كانوا يرون أن الإسلام يساوي بين الناس في الحقوق. والآخرون كانوا يرون أن يستأثروا بالمال كله ما دام جاءهم من مغنم في حرب أو من تجارة واسعة، بل في أحيان كثيرة حتى إذا جاء من بيت مال المسلمين نفسه.

وكان الحكام يعتقدون أن بيت المال هو حق لهم يوزعونه على أنفسهم إن أرادوا. . . وكثيراً ما كانوا يريدون ذلك.

ففي الأيام الأخيرة من حكم عثمان كان ولاته يأخذون لأنفسهم ما يريدون دون رقيب. حتى إذا احتج خازن بيت المال، وهو لا يحتج عادة إلاَّ إذا كان من هذا النوع من المسلمين الشعبيين الأحرار، اضطهدوا هذا الخازن أو طردوه كما فعل عثمان نفسه مع عبد اللّه بن مسعود وقال قولته الشهيرة: إنما أنت خازن لنا، يعني أنه ليس خازناً للمسلمين بل للخليفة وأعوانه.

والواقع أن خازن بيت المال ـ فيما عدا الرجال من أمثال عبد اللّه بن مسعود ـ كان له نصيب في هذا المال متواطئاً مع الوالي نفسه، أو غير متواطىء.

وما أكثر ما حمل الوالي المعزول كل ما في بيت المال وذهب به إلى مكة أو المدينة وابتنى له هناك قصراً واشترى الجواري والقيان واستقبل الشعراء، وقضى حياة التقاعد المؤقت أو الدائم في دعة ولهو دون أن يحاسب على ذلك من السلطة المسؤولة، حتى يبدو أن هذا صار عرفاً بين السادة الحاكمين.

وليس هناك شك في أن الإسلام الحقيقي كان يكره هذا ويحاربه، وآية ذلك اللجاجات الكثيرة التي قامت حوله، بل والثورة على عثمان، تلك الثورة التي أدَّت إلى وصول علي بن أبي طالب إلى الحكم.

وحين نحصي أعمال علي بن أبي طالب في مجال توزيع الثروة، سنجد أنه لم تمتد يده إلى الأموال التي استولى عليها أنصار الحكم العثماني، فهو لم يفرغ ساعة من الزمان ليعيد توزيع الثروة، ويثبت أساس النظام الاقتصادي.

كل ما استطاع أن يضيفه هو توزيع ما يرد إلى بيت المال على المسلمين في حينه، فلا يختزن عن المسلمين شيئاً منه، حتى روي أنه كان يوزع الخيط والأبر، وكان يعتز كثيراً بأن يكنس بيت المال ويرشه بعد تفريغ ما فيه ويصلي فيه ركعتين.

فهو هنا يطبق رأي العدل الإسلامي الذي عبَّر عنه هو لعمر بن الخطاب من قبل. وعبَّر عنه أبو ذر لعثمان ومعاوية من بعده، بأن المال مال المسلمين،

وأنه حق لهم، يوزع عليهم ولا يحتجز دونهم أو يستأثر به بعضهم ويحرم منه البعض الآخر.

على أن الآخرين كانوا يعلمون المدى الذي سيسير عليه علي بن أبي طالب.. فهم يعلمون فحوى نظريته في الملكية، أو على الأصح فحوى نظر الإسلام إلى الملكية، وقد تحاجج بها كثيراً مع عثمان، وتحاجج بها أنصاره من أمثال عمار وأبي ذر. فقالا أنه لا يحق للمسلم أن يمتلك مالاً إلاً من نتاج عمل يديه، لا من عمل الآخرين، وأنه فوق ذلك لا يصح أن يختزن المسلم ما يزيد على حاجته وحاجة عياله. فالكنز شيء هاجمه الإسلام أشدَّ المهاجمة. وكثيراً ما كانوا يرددون الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى آخر الآية.. فكل مال فائض أو كل فضل مال ينبغي أن يتخفف منه صاحبه إلى غيره من المسلمين المحتاجين، فلا يجوز أن تشبع وجارك جائع، أو تكسى وجارك عار. وبالتالي لا يجوز أن تنعم بأطايب الحياة من سكنى القصور، وجارك يسكن العراء أو يأوي إلى بيت متداع.. إن المال يقسم على المسلمين حتى تكفى حاجتهم جميعاً. فالمال في النهاية مال المسلمين، وكل ما على الأرض من خيرات هي هبة الله للناس، يتصرف فيها خليفة المسلمين باتفاقهم وبأمرهم ولصالحهم جميعاً.

هذه المبادىء الثلاثة البسيطة هي جماع كل فلسفتهم، وهي في نفس الوقت تمثل الخطر الذي يهدد به حكم عليٍّ هؤلاء الذين أثروا ثراء فاحشاً، واكتنزوا من الذهب والفضة ما حذرهم منه القرآن وما خوفهم من أنه سوف تكوى به جباهم وظهورهم يوم القيامة.

كان النفعيون يعلمون أن هذه مبادىء علي، وأنه سوف يطبقها عاجلاً أو آجلاً، وأنه إلى جانب ذلك، سوف ينفذ سنة رسول الله من حيث تساوي البشر في الحقوق فلا فضل لعربي على عجمي، ولا فضل لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى، وأن أمر المسلمين لا ينفرد به رجل مهما تكن مكانته. بل إن الأمر

شورى بينهم، وإن في الحياة قصاصاً. إلى آخر تلك المبادىء الإسلامية السامية التي تكفل جانب العدل الاجتماعي والحرية والكرامة والأمن والطمأنينة.

وإن يكن طلحة والزبير قد ثارا بعلي وخلعا بيعته لطمعهما في الخلافة، فإنهما بلا شك يكرهان أيضاً ما يتصوران أنه مغالاة في تطبيق تلك المبادىء الإسلامية، إذ يخشيان خشية كامنة أو غامضة لا تسفر عن نفسها حتى لهما من هذه المعاني واحتمال ظهورها إلى واقع الحياة على يدي علي.

حكم علي إذن يهدد المراكز الاقتصادية الممتازة، ويهدد أصحاب الوظائف وطلَّاب المناصب ممن اشتركوا في الثورة على عثمان، لأنهم يعلمون أن علياً سيختار لهذه المناصب من يعتقد أنه يستطيع إدارتها على المبادىء الإسلامية خير إدارة، وبمعنى آخر فلن يكون لوالي علي مغنم في بيت المال أو في أي مجال آخر. اللهم إلاَّ العمل الدائب في خدمة المسلمين وتأمين معاشهم، وهو أمر لا يغري أحداً من الطامعين لأنه يتطلب منه أن يتخلى عن المراكز وعن كل أبَّهة السلطة، ويفرغ المنصب من كل هالاته.

فأصحاب المراكز الاقتصادية الممتازة مهددون بتغيير مراكزهم بحيث لا يمتازون على أحد، وطلَّاب المناصب أحسوا بفراغ المنصب حتى إن ظفروا بمنصب.

حرب الجمل

وحين دعا طلحة والزبير إلى خلع البيعة وجدا من يساندهما في مكة، ومن يخرج معهما إلى السواد، ووجدوا في السواد من ينتظرهما ويؤيدهما.. والغريب أنهما لم يظهرا حقيقة مقصدهما من خلع البيعة لعلي، فهما قد خلعاها لطمعهما فيها من ناحية، وإبقاء على الأوضاع الاجتماعية الراهنة من ناحية أخرى. كان هذا موقفهما الحقيقي، وكان أيضاً موقف مؤيديهم وأنصارهم فيما يخص المساس بالأوضاع الاجتماعية، أما ما أعلناه فهو القصاص لعثمان من قاتليه الذين سكت عنهم علي، بل إنهما اتهما علياً بالتآمر على قتل عثمان،

متناسين أنهما كانا من بين المحرضين على الثورة على عثمان، وأن علياً نفسه وقف من أحدهما موقفاً متشدداً حين جمع حوله الثائرين وحضَّهم على عثمان.

وهذه هي الحجة التي استعملها طلحة والزبير ومعهما عائشة، وهي نفس الحجة التي استعملها معاوية وأنصاره من بعدهما، ولم يظهر أحد من خصوم ثورة الشعب السبب الحقيقي لتلك الثورة العنيفة التي أشعلوها منذ الأيام الأولى لخلافة علي بن أبي طالب.

وقد ظلَّ السبب الحقيقي كامناً في النفوس لا يجسر أحد على أن يفضحه.

إنه صراع بين فكرتين متضادتين، إحداهما تؤمن بالعدل الاجتماعي، أساساً صلباً من أسس الإسلام، والأخرى تؤمن بأن الإسلام عبادة وتأدية للفرائض بما فيها الزكاة، أما غير ذلك فهو نافلة، وحسبهم معاً أن يقولوا لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله.

وإن تستر الأغراض الحقيقية وراء حجة ظاهرة أبعد ما تكون عن الحقيقة أمر اتبعه الساسة من قديم الزمان، واتبعه هذا الجيل من العرب ومضوا فيه، يتجادلون على أساسه مع خصومهم، بينما الهدف الأصيل مخفي في طي الكتمان، ولا تلبث المجادلات حول الحجة الوهمية تتراكم حتى تغطي فعلاً على الحقيقة.

وهكذا كان الحال حين وصل طلحة والزبير ومعهما عائشة إلى البصرة، إذ ما كادوا يستقرون حتى أرسل لهم عثمان بن حنيف عامل علي بالبصرة وفداً يجادلهم فيما يريدون، فإذا بهم يجيبون بأنهم يطالبون بدم عثمان وبإعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين، وزعم طلحة والزبير أنهما بايعا عن إكراه، وأن بيعتهما لهذا لا تجوز.

ولقد تصدَّى لهما من الحاضرين من أهل البصرة كثيرون، مذكراً بتلك الكتب التي كانت ترد على البصرة منهما بالتحريض على عثمان فكيف عادا اليوم يطلبان بدمه.

ولكنهما وجدا قوماً في البصرة يصدقونهما ويجادلون خصومهم. على أن هذا الأمر انتهى إلى هدنة. فقد سمح الوالي ببقاء الثائرين بالبصرة لا يعكرون صفو أمنها حتى يأتي علي بن أبي طالب الذي كان قد عرف أنه تحرك من المدينة لملاقاتهم.

إلاَّ أن الثائرين لم يفوا بعهدهم فسرعان ما هاجموا عثمان بن حنيف بليل فقتلوا من قتلوا ممن حوله، ثم نتفوا لحيته وشاربه وهو يؤدي صلاة العشاء بعد أن أوسعوه ضرباً وأطلقوه إلى علي، واستولوا على بيت المال.

ومع ذلك فحين استقبل علي عامله عثمان بن حنيف بحالته هذه لم تثر به حمية الغضب فيحمل بجيشه على خصومه وينكل بهم. بل كظم غضبه وواصل مسيرته إلى البصرة، حتى إذا شارف حدودها توقف، وأرسل الرسل مرة أخرى إلى الثائرين يجادلونهم بالحسنى.

إلاَّ أنَّ ما في النفوس شيء والاقتناع بالحجة، والرأي الصائب، شيء آخر. فلم تلبث الأمور أن تعقدت ورفض الثائرون منطق الحجة وصمموا على القتال، وحتى هذه اللحظة لم تخرج علياً عن طوره، فأمر أحد رجاله بأن يرفع المصحف بين الفريقين ليجعله حكماً بين المتخاصمين.

والجدير بالذكر أن علياً دعا هذا الفتى الذي سيرفع المصحف وقال له أنه قد يقتل بنبال الثائرين، ولم يتردد الفتى إلاَّ قليلاً ثم رفع المصحف وتقدم الصفوف حتى وقف تجاه جيش الثائرين ورفع المصحف بكلتا يديه.. وكان ما توقعه علي.. إذ رشق الفتى بالسهام حتى سقط قتيلاً.

وهكذا كانت الحرب التي اشتهرت بوقعة الجمل حيث وضعت عائشة في هودجها وأحاط بها الثائرون يدافعون عنها، تلهبهم حماسة افتعلها القادة افتعالاً مستغلين مكانة أم المؤمنين متوقعين ما سيحدثه وجودها بينهم من أثر. وقد حدث ما توقعوه، إذ قاتل المقاتلون بحمية وحماسة حتى أمر علي بنحر الجمل

فسقط الجمل واجتمع أصحاب علي حول هودج عائشة فنقلوه إلى مكان أمين وكان بينهم أخوها محمد بن أبي بكر.

وانتهت المعركة بهزيمة المتمردين وسقط طلحة والزبير قتيلين.

ويقف علي بن أبي طالب بين قتلاه وقتلى المتمردين عليه في حالة من القلق والتمزق تشبه حالة أبطال التراجيديا، فبين خصومة رجال من الذين أبلوا بلاءً حسناً في الإسلام، ومن القادة والأبطال الذين آمنوا عن صدق. فيم يقتل هؤلاء؟ وكيف لا يرون الحق وهو واضح؟ هم مسلمون وهو يريد خير الإسلام وحقيقته، وهو أعلم المسلمين جميعاً بحقيقة الإسلام بشهادة وإجماع المسلمين، فلماذا تقع الفتنة؟ ولماذا تقع تلك المآسي؟.

وها هوذا يتأمل القتلى من الجانبين متصدع القلب، ويهمهم متوجهاً إلى الله في ألم شديد:

أشكو إليك عجري وبجري شفيت نفسي وقتلت معشري

وكان أن أصدر أمره بدفن القتلى من الجانبين، وبألاّ يجهز أحد من أفراد جيشه على جريح أو يطارد أحداً من الفارين.

وأضاف إلى ذلك أنه ليس في هذه الحرب مغنم للمنتصر، فما كان يملكه المتمردون هو ملك لهم أمر بجمعه في المسجد وأرسل المنادي ينادي بأن من عرف له شيئاً له فليأخذه.

ولسنا نعرف مثالاً لذلك في أي عصر من العصور، فقد احتجَّ جيش علي لأن غنائم معركته حرّمت عليه، وقال بعضهم: «أحل لنا دمهم وحرم علينا أموالهم» ولكن علياً لم يلق بالاً إلى هذا الاحتجاج فقد كان يضع مبادىء عليه أن يقرّها حتى ولو صادفت احتجاجاً أو اعتراضاً.

ولكن الأخطر من هذا موقفه الحزين المتألم، فقد انتقل هذا الموقف إلى الجميع وإذا بالحزن يعم الجانبين، كل يذكر قتلاه وجرحاه، ويذكر تلك الحرب

الغريبة التي قتل فيها فريقان من المسلمين، أما حزن علي فكان حزناً متبصراً، حزناً من أجل هؤلاء الذين قتلهم قبل هؤلاء الذين قاتل بهم، ومن أجل الرسالة السامية التي تتعرض للفتنة وهي في قمة نجاحها وانتصارها.. من أجل هذا العمى الذي أصاب فريقاً من المسلمين، فلم يروا دينهم حق الرؤية، ولم ينظروا إلى أبعد من المطامع الشخصية، ولعلَّ حزنه قد اتجه إلى نفسه فقد كتب عليه أن يكون المقاتل الأخير، والمسلم الذي يضرب أحسن المثل، من أجل أن تبقى الرسالة وتتجه إلى اتجاهاتها الصحيحة. إن أكبر الأعباء قد ألقي على كاهله، أن يقف أمام عواطفه الجياشة بطبعها، أن ينتصر للقضية حتى النهاية، وأن يجرع ألم هذا الانتصار حتى النهاية أيضاً.

أما عامة المسلمين فقد انعكس حزن علي في صدورهم إلى أقرب مصادر هذا الحزن، إلى خيبة الأمل في المغنم، إلى فقدان الانتصار لمعنى البهجة والفرح، ثم إلى نتائج المعركة من قتلى ضائعين.

حرب صفين

انتهت هذه المعركة لتبدأ المعركة الأكبر، معركة الشام بقيادة معاوية الرجل الذي يمثل النقيض تماماً، هو أيضاً شخصية فريدة، جمعت فيه كل خصائص الرجل الذي لا تشل حركته أي قيمة من القيم، إنه ابن أبي سفيان الشهير، وابن تلك المرأة التي مضغت كبد حمزة عم النبي حين سقط قتيلاً بيدي عبد لها. لقد تربى معاوية في حجر أبي سفيان رأس القوى الرجعية في مكة، وتربى علي في حجر النبي بكل ما تحمله النبوة من فداء وتضحية وإيجابية للخير المطلق.

ولو كان معاوية مكان علي لما أرسل وفاوض وحض على الصلح وهو يملك القوة التي تستطيع تحقيق الإرادة. ولو كان مكانه عقب واقعة الجمل لملأ قلبه الفرح ولأمر بالتمثيل بجثث خصومه، ولأعدى أنصاره بزهوه وفرحه، فلم تظهر بادرة حزن في صفوفه، ولأباح لهم مال المهزومين وأولادهم

ونساءهم[1]. وبدلاً من أن يوزع ما في بيت المال على المسلمين جميعاً، لاختار دهاتهم ورؤوسهم وأغدق عليهم فضمنهم إلى جانبه.

أما وعلي غير معاوية، فقد كان اعتماده كله على أن يوقظ الجوانب الإيجابية في صفوف رجاله مهما كانت صعوبة ذلك. كان يريد أن يصنع رجاله على مثاله، لا أن يصنع بهم نصراً فحسب، ولقد استطاع أن يهيئهم ويعدهم لأن يكونوا هؤلاء الرجال وكان يأمل أن يجابهوا الأزمات فينمو ما غرس فيهم وتثبت الخصال التي بثها في صدورهم، ولكن علياً علمهم أنه لا ينبغي لإمام المسلمين أن ينفرد بالرأي ولا أن يكره أحداً عليه. علمهم معنى كرامة الإنسان من حريته في إبداء رأيه، ومن انطلاقه في التفكير والاختيار، فما كان يبرم أمراً قبل أن يستشير وأن يبين حجته، علمهم أن يخالفوا رأيه فيناقشهم ويجادلهم، فإذا كانت الأغلبية لهم عدل عنها، وترك التجربة العملية تكشف الرأي المصيب من الرأي المخطىء. كان علي يضع اهتمامه بالإنسان وقلبه في المقام الأول، كان يتجه إلى داخل الإنسان يبنيه ويؤكده، أما عناصر الخصوم فكانت تتجه إلى الخارج. إلى الحوادث واحتمالاتها وإلى مواطن الضعف في الإنسان لتنميها وتستغلها. كان الناس في نظر الفريق الذي يرأسه معاوية أعداء وشهوات، وكان الناس في نظر الفريق الذي يمثله علي شخصيات إنسانية تكمن فيها نوازع السمو والحرية وينبغي تنمية هذه النوازع وإبرازها.

وكان الانتصار الحقيقي الذي ينشده علي هو سمو النفس الإنسانية واتصالها بالمبادىء الإسلامية اتصالاً أصيلاً كأنه غريزة أو فطرة، ولهذا كان انتصاره في موقعة الجمل هزيمة لتلك المبادىء كلها. كان فشلاً في رسالته تلك، أن يخلق الشخصية الإسلامية في قلب كل رجل.

وحين تحرك جيش علي لملاقاة معاوية سبقته النذر والوفود والمجادلات

---

(١) فعل معاوية ذلك كله بعد صفين حين أرسل ابن عوف الغامدي فاقتحم مدينة الأنبار. كما فعل ذلك في الحجاز واليمن وغيرهما.

والرسائل. كانت رسائل متسمة بالود والحض على التزام الصواب، وكانت رسائل معاوية سباباً وإقذاعاً: «. . . عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر، وتنفسك الصعداء، وإبطائك عن الخلفاء. في كل ذلك تقاد كما تقاد الجمل المخشوش. ولم تكن لأحد منهم «الخلفاء» أشد حسداً منك لابن عمك عثمان وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله. . فقطعت رحمه، وقبحت حسنه، وأظهرت العداوة، وأبطنت له الغش وألبت الناس عليه، حتى ضربت آباط الإبل إليه من كل وجه، وقيدت الخيل من كل أفق. . وقد بلغني أنك تنتفي من دم عثمان وتتبرأ منه. فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته نقتلهم به. . .».

وانظر إلى كتاب علي ورقته: «. . . وذكرت بأن ابن عفان كان في الفضل ثالثاً. . . «ثالث الخلفاء». . فإن يكن عثمان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزي بها، وإن يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، أما الحسد فمعاذ الله أن أكون أسررته أو أعلنته. أما الإبطاء فما أعتذر إلي الناس منه. . وإن عثمان صنع ما رأيت، فركب الناس منه ما قد علمت، وأنا من ذلك بمعزل، إلاَّ أن تتجن فتجن ما بدا لك. وذكرت قتلته بزعمك وسألتني دفعهم إليك. ما أعرف له قاتلاً بعينه. وقد ضربت الأمر إلى أنفه وعيَنه فلم أره يسعني دفع من قبلي ممن اتهمته وأظننته إليك».

والكتب المتبادلة بين علي ومعاوية تكشف عن أسلوب كل منهما حتى ليبدو أن الجانب الأضعف هو علي، وكأنه يتردد في القتال، أما إذا علمت أن علياً كان يستطيع أن يبطش بطشاً نهائياً بجيش معاوية فستقع في الحيرة. . لماذا لم يبطش علي بمعاوية؟ لماذا يتخطى تلك اللحظة الحاسمة في تاريخ الإسلام فيأخذ بناصية الأمر، ويردَ إلى الحق سيرته؟

إن انتصاراً كهذا لم يكن يريده علي. . كان يريد صدق الباطن ونقاوته، لا انتصار الظاهر وسطحيته، ولهذا احتمل أن يراسله عامل من عماله بتلك الجفوة فلا يذكر لقب الخلافة في كتبه، بل يوسعه شتماً.

ولقد احتمل علي من معاوية ما يحنق المؤرخ وهو يرقب هذا الصبر الغريب البعيد الغور أشد الحنق.

على أن علياً لم يتحرك للقتال إلاً حين تحرك خصومه. وبدأ معاوية بداية تتفق مع استعداده فاحتل عند «صفين» موقع الماء ليمنع جيش علي منه. فلم يهاجمه علي بل أرسل من يطلب أن يكون الماء شركة بين الفريقين، فلا ينبغي أن يحرم منه فريق وأن يستأثر به الفريق الآخر، حتى ولو كان الأمر أمر حرب. ومن البديهي أن يرفض معاوية فيهجم جيش علي فيجليه عن الماء ويحتله جميعاً. وبدلاً من أن يحرم علي خصومه بعد أن حرموه، أمر أن يكون الماء شركة بين المتقاتلين.

وتمضي الحرب على هذا الاسماح من جانب علي، والمكر والخديعة من جانب معاوية. حتى إذا انهزم جيش معاوية رفعت المصاحف، ولم يكن علي بالذي يجهل دخائل النفوس، بل كان يقرأ صدور خصومه كما لو كانت كتاباً مفتوحاً، فهو لم يخدع أبداً بل هو لم يهزم أبداً في معركة من المعارك التي خاضها جميعها. في كل حربه منذ أن وقف إلى جوار الرسول محارباً ولم يكد يتجاوز الحلم حتى أصبح كهلاً على أعتاب الشيخوخة. وبالطبع كان يدرك أن رفع المصاحف لا يقصد وجه الحق، ولا ما يقرره كلام الله المكتوب في هذه المصاحف. فهو أول من رفع المصاحف ليس بعد القتال والهزيمة، بل قبل أن يبدأ القتال.

ولكن جيش علي انقسم، أو أحدث فيه الانقسام. فرسل معاوية قبل المعركة كانت تذهب إلى سراة القوم وضعاف النفوس ممن لم تدركهم بعد أخلاقيات علي وصحبه فتغريهم بالمال والمناصب وتدبر معهم كيف يحدثون الانقسام.

فإذا بفريق من جيش علي يطلب وقف القتال والاحتكام إلى القرآن، وإذا

بحجة علي ونقاشه المنطقي يذهب هباء، فقد اشتري هذا اللجاج بالمال فكيف يباع بالحق.

وكان على الخليفة بعد أن بذل كل الجهد ليوحد الصفوف ومواصلة القتال أن يوقف القتال.

ووقع علي بين فريق يريد مواصلة القتال وهو الأقل، وفريق يوافق على الاحتكام وهو الأكثر، وكان عليه أن يختار جانب الغالبية بعد أن عجز عن الإقناع.

ولعل علياً ـ وهذا هو أسلوبه دائماً ـ كان واثقاً من النصر، فهو يعلم أن الحق في جانبه، وأنه لا محالة منتصر قرب العهد أو بعد. وتمت ألعوبة التحكيم وأتت بنتائجها المثيرة للسخرية.. ولكن بعد أن خرج عليه الذين أرغموه على وقف القتال دون أن يدركوا معنى التشاور والمشاركة الاختيارية في القتال. وبعد أن ضعفت نفوس بالرشوة وبشظف القتال.

ومع ذلك فقد سار سيرته يحاول ويقنع، فإذا لم يفلح الجدل والإقناع والتخيير بين السلام والقتال دخل المعركة حانقاً ومضطراً فكتب له النصر في كل معركة.

وعندما رفض ألعوبة التحكيم المخزية وقرر القتال كان الوهن قد تسرب إلى الصفوف، كانت الحرية ضيفاً طارئاً على النفوس، وكانت الشخصية الإنسانية أمراً من الصعب أن يوجد قبل أهوال وأهوال فها هوذا حاكم يقسم أموال الدولة على المسلمين جميعاً، فيجد كل فرد رزقه مكفولاً.. فما الحاجة إلى القتال. وما معنى المبدأ، وما معنى النضال.

وكان علي يقول إن معنى هذا كله أن تقلب الأمور وأن تستذل النفوس، وأن تتدنى أرواح الناس فتزهق دون رحمة أو لحظة من تردد، وأن يستأثر الأقوياء بالأموال والخيرات وأن يحرم الضعفاء من كل شيء فلا يجدون القوت الضروري.

ولكنهم لم يدركوا شيئاً من هذا، تقاعسوا وانكبوا على حياتهم الرخية التي أنشأها لهم علي. . ويسرتها مبادىء الإسلام، دون أن يواجهوا ذلك العداء المتربص بكل هذه الخيرات.

بعد صفين

ويقف علي موقفاً قلَّما نرى مثاله في التاريخ. . يدعو هؤلاء إلى الاستعداد لقتال أهل الشام فلا يجد مجيباً. وكأنه يطلب القتال لنفسه لا لحياتهم ولا لحياة الأجيال من بعدهم، وقد كان علي يستطيع أن يجيِّش الجيوش ويذهب بهم خلف أي مغريات. أن يبيح لهم الغنائم، أن يمني طامحيهم بالمناصب، أن يفعل شيئاً من هذا الذي فعله معاوية مريداً به الباطل، فلا ضير أن يفعله هو مريداً به الحق. إلاَّ أن هذا لم يكن من خطة علي بل لعلَّ انتصاره يكون عندئذٍ انتصاراً ناقصاً نقصاً خير منه الهزيمة.

وها هوذا وقد بلغ به اليأس مداه يقول في جمعهم: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة قلوبهم وأهواؤهم. ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. كلامكم يوهي الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم عدوكم إذا دعوتكم إلى لجهاد قلتم كيت كيت، وذيت ذيت، أعاليل بأباطيل. وسألتموني التأخير، فعل ذي الدين المطول، حيدي حياد، لا يدفع الضيم الذليل، ولا يدرك الحق إلاَّ بالجهد والعزم واستشعار الصبر. أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه. . ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. أصبحت لا أطمع في نصركم ولا أصدق قولكم. فرق الله بيني وبينكم، أبدلني بكم من هو خير لي منكم. أما أنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، واثرة يتخذها الظالم فيكم سنة، فيفرق جماعتكم، ويبكي عيونكم، ويدخل الفقر بيوتكم، وتتمنون عن قليل أنكم رأيتموني فنصرتموني. . فستعلمون حق ما أقول. ولا يبعد الله إلاَّ من ظلم».

ولنا أن نسأل أين كانت القيادات الشعبية؟ لقد قتل منهم من قتل في

المعارك التي خاضوها، لأنهم أول المتقدمين. وكم استنفذ علي خيرة رجاله في مقاتلة الخوارج والانقلابات التي يدبرها خصوم الشعب، والغارات التي كان يشنها معاوية بين الحين والحين.

وعلي نفسه كان يصنع قياداته الجديدة من قلب المعركة، وما تتكون القيادات الجديدة بين يوم وليلة. أما الصحابة الأولون والمناضلون الأشدّاء فقد بلغ أغلبهم سن الشيخوخة ومع ذلك فلم يخلدوا إلى الراحة، قد رأينا في صفين الصحابي الكبير والإنسان الجليل العظيم عمار بن ياسر يخوض المعركة وهو قد جاوز الثمانين في أغلب الروايات خوض شاب في الثلاثين حتى استشهد فيها وهو إلى جانب زعيمه وزميله، لتصدق نبوءة النبي حين نظر إليه ذات يوم وهو في جمع من صحبه وقال: **«تقتلك الفئة الباغية»**.

إن القيادات القديمة لم تفترق عن علي، وقد بذلت جهدها كله في التوعية والإقناع، ولكن عددها كان قد قل، بينما المعركة أحوج ما تكون إلى هذه القيادات التي وقفت إلى جوار النبي وتعلمت منه عشرين عاماً أو ما يزيد.

وعلى الرغم من هذا كله فلم ييأس علي، ولم يغير خطته فيشتري قلوب رجاله بثمن بخس، كان يريد شعباً قوياً بذاته، رجالاً حقيقيين. وكانت خطته هي الصواب، فلم يلبث أن دخل الاقتناع قلوب الرجال، ولم تلبث التوعية أن أتت ثمارها، وبدأ علي فعلاً يستعد للقتال بجيش ضخم لم يدخل فيه أحد عن رهبة أو رغبة.

وهنا تقع الجريمة الكبرى فيقتل علي بيد مجرم من الخوارج، فمن هم الخوارج؟.

هذا ما سيأتي تفصيله.

أحمد عباس صالح

أشـأم ليلـة

ـ ١ ـ

الليلة التي اغتيل فيها علي بن أبي طالب هي أشأم ليلة بعد يوم توفي فيه رسول الله ﷺ فاليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ كان اليوم الذي خلف فيه النبي ﷺ تجربته الإسلامية في مهب القدر، في رحبة المؤامرات التي أتت عليها بعد برهة من الزمن، واليوم الذي اغتيل فيه الإمام أمير المؤمنين (ع) كان اليوم الذي قضى على آخر أمله في إعادة خط تلك التجربة الصحيحة، هذا الأمل الذي كان لا يزال يعيش في نفوس المسلمين الواعين متجسداً في شخص هذا الرجل العظيم، الذي عاش منذ اللحظة الأولى هموم الدعوة وآلامها واكتوى بنارها وشارك في بنائها لبنة لبنة.. وأقام صرحها مع أستاذه ﷺ مدماكاً فوق مدماك.

هذا الرجل الذي كان يعبر عن كل هذه المراحل بكل همومها ومشاكلها وآلامها..

هذا الرجل هو الذي كان يمثل هذا الأمل الوحيد الذي بقي للمسلمين الواعين في أن تسترجع التجربة خطها الواضح الصريح وأسلوبها النبوي المستقيم.. حيث إن الانحراف في أعماق هذه التجربة كان قد طغى وتجبَّر واتَّسع بحيث لم يكن هناك أي أمل في أن يقهر هذا الانحراف.. اللهم إلاَّ على يد رجل واحد كعلي بن أبي طالب (ع) ولهذا كانت حادثة اغتيال هذا الإمام العظيم... حينما خرَّ صريعاً تقويضاً حقيقياً لآخر أملٍ حقيقي في قيام مجتمع إسلامي صحيح على وجه الأرض إلى يوم غير معلوم، وأجل غير محدود.

كان هذا الاغتيال المشؤوم عقيب حكم مارسه الإمام (ع) طيلة أربع أو خمس سنوات تقريباً، حيث بدأ منذ اللحظة الأولى لتسلم زمام الحكم عقلية التغيير الحقيقية في كيان هذه التجربة المنحرفة، وواصل سعيه في سبيل إنجاح

عملية التغيير واستشهد، وخرَّ صريعاً بالمسجد وهو في قمة هذه المحاولة أو في آخر محاولة إنجاح عملية التغيير وتصفية الانحراف الذي كان قد ترسَّخ في جسم المجتمع الإسلامي متمثلاً في معسكر منفصل عن الدولة الإسلامية الأم.

والظاهرة الواضحة في هذه الأربع أو الخمس سنوات التي مارس فيها الإمام (ع) عملية الحكم وإلى أن خرَّ صريعاً في سبيل إقامة العدل على الأرض، كان غير مستعد بأي شكل من الأشكال وفي أي صيغة من الصيغ لتقبل أنصاف الحلول بالنسبة إلى تصفية هذا الانحراف أو لتقبل أي معنى من معاني المساومة أو المعاملة على حساب هذه الأمة التي كان يرى بكل حرقة وألم أنها تهدر كرامتها وتباع بأرخص ثمن.

هذه الظاهرة تسترعي الانتباه سياسياً من ناحية وتسترعي الانتباه فقهياً من ناحية أخرى.

ـ أما من الناحية السياسية فقد استرعت انتباه أشخاص معاصريه للإمام (ع) واسترعت انتباه أشخاص حاولوا أن يحللوا ويدرسوا حياة الإمام (ع).

فقد لوحظ على الإمام أن عدم تقبله بأي شكل من الأشكال لهذه المساومات وأنصاف الحلول كان يُعَقّد عليه الموقف ويثير أمامه الصعاب ويرسخ المشاكل ويجعله عاجزاً عن مواجهته لمهمته السياسية والمضي بخط تجربته إلى حيث يريد.

فمثلاً: ذاك الشخص الذي جاء إليه بعقلية هذه المساومات واقترح عليه أن يبقي معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام برهة من الزمن قائلاً: إن بإمكانك إبقاء معاوية والياً على الشام برهة من الزمن وهو في هذه الحالة سوف يخضع ويبايع وبعد هذا يكون بإمكانك استبداله أو تغييره بأي شخص آخر بعد أن تكون قد استقطبت كل أطراف الدولة وقد تمت لك البيعة والطاعة في كل أرجاء العالم الإسلامي، فاشتر بإبقاء هذا الوالي أو ذلك الوالي، هذا الحاكم أو ذلك

الحاكم، بإبقاء هذه الثروات المحرمة في جيب هذا السارق أو في جيب ذلك السارق برهة من الزمن ثم بعد هذا يمكنك أن تصفي كل هؤلاء الولاة الفجرة وترجع كل هذه الثروات المحرمة إلى بيت المال.

فالإمام (ع) في جواب هذا الشخص، رفض هذا المنطق واستمر في خطه السياسي يرفض كل مساومة ومعاملة من هذا القبيل، ومن هنا قال معاصروه، وقال غير معاصريه أنه كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً كبيراً، وأن يحقق توفيقاً من الناحية السياسية أكثر، لو أنه قبل أنصاف الحلول، ولو أنه مارس هذا النوع من المساومات ولو بشكل مؤقت.

ـ أما من الناحية الفقهية فهي ناحية التزاحم، الفقه يقول: بأنه إذا توقف واجب أهم على مقدمة محرمة فلا بد من الحفاظ على ذلك الواجب الأهم وفي سبيل حرمة المقدمة لا يجوز تبرير ترك الواجب الأهم، حينما يقال ذلك، إذا توقف إنقاذ نفس محترمة من الغرق على اجتياز أرض مغصوبة لا يرضى صاحبها باجتيازها فلا بدَّ من اجتيازها، حيث تسقط هنا حرية هذا المالك وعدم رضاه، لأن النتيجة أهم من هذه المقدمة، كما فعل رسول الله ﷺ في بضع غزواته مثالاً مشابهاً لهذا المثال، حيث كان الجيش الإسلامي مضطراً إلى الخروج من المدينة عن طريق معين، وهذا الطريق كان فيه مزرعة لأحد الصحابة، وكان لا بدَّ للجيش حينما يمر على هذه المزرعة وبحكم طبيعة مروره كجيش من أن يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزرعة ويصيبها بأضرار، فصاحب المزرعة ما هان عليه أن يقدم هذه الأضرار في سبيل الله وفي سبيل الرسالة.. احتج على ذلك وصرخ ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: مزرعتي ومالي، فلم يجبه رسول الله ﷺ وأصدر أوامره إلى الجيش، فمشى في هذه المزرعة حتى لم يبق في هذه المزرعة شيء مما كان يخاف تلفه صاحب المزرعة إلاَّ وتلف.

كل ذلك لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة، كان هذا الجيش يسير لأجل أن يغير وجه الدنيا، ولأجل تغيير وجه الدنيا إذا تلفت مزرعة، إذا ضاعت هناك

ثروة صغيرة لشخص، في سبيل أن يحفظ مقياس توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل الطويل، فهذا أمر صحيح ومعقول من الناحية الفقهية، فمن الناحية الفقهية دائماً يقرر أن الواجب إذا توقف على مقدمة محرمة وكان ملاك الواجب أقوى من ملاك الحرمة، فلا بدَّ أن يقدم الواجب على الحرام.

وعلى هذا الضوء حينئذٍ تثار هذه القضية في هذه الظاهرة التي استوضحناها في حياة أمير المؤمنين (ع) كحاكم.

وهي أنه لماذا لم يطبق هذه القاعدة في سبيل استباحة كثير من المقدمات المحرمة، أليس إجماع الرأي عليه، أليس تملكه زمام قيادة مجتمع إسلامي، أليس هذا أمراً واجباً محققاً لمكسب إسلامي كبير، لأنه هو الذي سوف يفتح أبواب الخيرات والبركات ويقيم حكومة الله على الأرض؟...

إذن فلماذا في سبيل تحقيق هذا الهدف إذا توقف هذا الهدف على مقدمة محرمة من قبيل إمضاء ولاية معاوية بن أبي سفيان برهة من الزمن، أو إمضاء الأموال المحرمة التي نهبها آل أمية، أو غيرهم من الأسر التي وزَّع عليها عثمان بن عفان أموال المسلمين؟...

لماذا لا يكون السكوت مؤقتاً عن هذا النهب والسلب مقدمة للواجب الأهم.

ولماذا لا يكون جائزاً حينئذٍ على أساس توقف الواجب الأهم على ذلك؟..

الواقع هو أن الإمام (ع) كان لا بدَّ له أن ينهج هذا الطريق، ولم يكن بإمكانه كقائد رسالي يمثل الإسلام وأهدافه، لم يكن بإمكانه أن يقبل هذه المساومات وأنصاف الحلول ولو كمقدمة، وليس قانون باب التزاحم الفقهي هنا صالحاً للانطباق على موقف أمير المؤمنين (ع) وذلك بعد أخذ النقاط التالية بعين الاعتبار:

النقطة الأولى: أنه لا بدَّ وأن يلحظ في المقام أن أمير المؤمنين (ع) كان

يريد أن يرسخ قاعدة سلطانه في قطر جديد من أقطار العالم الإسلامي وهذا القطر هو العراق.

وكان شعب العراق وأبناء العراق مرتبطين روحياً وعاطفياً مع الإمام (ع) ولكن لم يكن شعب العراق ولا أبناء العراق يعون رسالة علي (ع) وعياً حقيقياً كاملاً، ولهذا كان الإمام بحاجة إلى أن يبني تلك الطليعة العقائدية، ذلك الجيش العقائدي الذي يكون أميناً على الرسالة وأميناً على الأهداف وساعداً له ومنطلقاً بالنسبة إلى ترسيخ هذه الأهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي.

والإمام (ع) لم يكن يملك هذه القاعدة بل كان بحاجة إلى أن يبنيها. إذن كيف يبني هذه القاعدة؟

هل يمكن أن يبني هذه القاعدة في جو من المساومات وأنصاف الحلول؟ حتى لو كانت هذه المساومات وأنصاف الحلول جائزة شرعاً إلاّ أن جوازها الشرعي لا يؤثر في هذه الحقيقة النفسية الواقعية شيئاً، وهي أن شخصاً لا يمكن أن يعيش في جو من المساومات وأنصاف الحلول فيكتسب روحية أبي ذر أو يكتسب روحية عمار بن ياسر، روحية الجيش العقائدي الواعي البصير بأن المعركة ليست للذات وإنما هي للأهداف الكبيرة التي هي أكبر من الذات.

هذه الروحية لا يمكن أن تنمو ولا يمكن لعلي (ع) أن يخلقها في من حوله في حاشيته وفي أوساطه وقواعده الشعبية، في جو من المشاحنات والمساومات وأنصاف الحلول حتى لو كانت جائزة.. إن جوازها لا يغير من مدلولها التربوي شيئاً ولا من دورها في تكوين نفسية هذا الشخص بأي شكل من الأشكال..

إذن فالإمام (ع) كان أمامه حاجة ملحّة حقيقية في بناء دولته إلى قاعدة شعبية واعية يعتمد عليها في ترسيخ الأهداف في النطاق الأوسع وهذه القاعدة الشعبية لم تكن جاهزة له حينما تسلم زمام الحكم حتى يستطيع أن يتفق معها.

على أن هذه المساومات وأنصاف الحلول إنها ضرورات استثنائية لا

توجب الانحراف عن ذلك الخط.. إنما كان على عليّ (ع) أن يبني ذلك الجيش العقائدي. كان على علي (ع) أن ينتزع الخيّر الخيّر الطيّب الطيّب من جماعته وحاشيته العراقيين لكي يشكل منهم كتلة واعية من قبيل مالك الأشتر وغيره، وهؤلاء لم يكن بالإمكان ممارسة بناء نفسي وروحي وفكري وعاطفي حقيقي لهم في جو مليء بالمساومات وأنصاف الحلول.. كانت المساومات وأنصاف الحلول نكسة بالنسبة إلى عملية التربية لهذا الجيش العقائدي، وكان فقدان هذا الجيش العقائدي يعني فقدان القوة الحقيقية التي يعتمد عليها الإمام (ع) في بناء دولته، لأن أي دولة عقائدية بحاجة إلى طليعة عقائدية تستشعر بشكل معمق وموسع أهداف تلك الدولة وواقع أهميتها وضرورتها التاريخية، ولهذا كان لا بدَّ من الحفاظ على صفاء وطهر عملية التربية لبناء هذا الجيش العقائدي، كان لا بدَّ لآلاف من أمثال مالك الأشتر أن يشهدوا إنساناً لا تزعزعه المغريات ولا يتنازل إلى أي نوع من أنواع المساومات حتى يستطيعوا من خلال حياة هذا الرجل العظيم أن يتبينوا المدلول الرسالي الكامل لأطروحة الأبعاد الواسعة للصيغة الإسلامية للحياة. إذن فكان على عليّ (ع) لأجل ممارسة عملية التربية لبناء هذا الجيش العقائدي كان لا بدَّ له أن يترفع عن هذه المساومات والحلول الوسط، لكي يستطيع أن يخلق ذلك الجو الرفيع نفسياً وفكرياً وروحياً والذي سوف ينشأ في داخله وفي أعماقه.. جيل يستطيع أن يحتضن أهداف أمير المؤمنين (ع) ويضحي من أجلها في حياته وبعد وفاته..

النقطة الثانية: لا بدَّ من الالتفات أيضاً إلى أن أمير المؤمنين (ع) جاء في أعقاب ثورة، ولم يجيء في حالة اعتيادية، ومعنى ذلك أن البقية الباقية من العواطف الإسلامية، كل هذه العواطف تجمعت، ثم ضغطت، ثم انفجرت في لحظة ارتفاع.. وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع في حياة أمة، لكي يستطيع أن يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة إلى سيرها الطبيعي.

كان لا بدَّ للإمام (ع) أن يستثمر لحظة الارتفاع الثورية هذه، لأن المزاج النفسي والروحي وقتئذٍ لشعوب العالم الإسلامي، لم يكن ذاك المزاج الاعتيادي

الهادىء الساكن لكي يمشي حسب مخطط تدريجي، وإنما كان هو المزاج الثوري الذي استطاع أن يرتفع إلى مستوى قتل الحاكم والإطاحة به، لأنه انحرف عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إذن هذا الارتفاع الذي وجد في لحظة في حياة الأمة الإسلامية لم يكن من الهين إعادته، وبعد ذلك كان لا بدَّ للحاكم الذي يستلم زمام المسؤولية في مثل هذه اللحظة أن يعمق هذه اللحظة، أن يمدد هذه اللحظة، أن يرسخ المضمون العاطفي والنفسي في هذه اللحظة عن طريق هذه الإجراءات الثورية التي قام بها أمير المؤمنين.

لو أن الإمام علي (ع) أبقى الباطل مؤقتاً وأمضى التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل، لو أنه سكت عن معاوية وسكت عن أحزاب أخرى مشابهة لمعاوية بن أبي سفيان إذن لهدأت العاصفة ولانكمش هذا التيار العاطفي النفسي، وبعد انكماش هذا التيار العاطفي وهدوء تلك العاصفة لن يكون بمقدور الإمام (ع) أن يقوم بمثل هذه الإجراءات.

النقطة الثالثة: ولا بدَّ أيضاً من الالتفات إلى نقطة هي: أن الإمام (ع)، كان حريصاً على أن تدرك الأمة كأمة أن واقع المعركة بينه (ع) وبين خصومه، بينه وبين معاوية ليست معركة بين شخصين، بين قائدين، بين قبيلتين، وإنما هي معركة بين الإسلام والجاهلية المتلبسة اليوم بلباس الإسلام.

كان حريصاً على أن يفهم الناس أن واقع المعركة هو واقع المعركة بين رسول الله ﷺ والجاهلية التي حاربته في بدر وأحد وغيرهما من الغزوات وكان هذا الحرص سوف يمنى بنكسة كبيرة لو أنه (ع) أقرَّ معاوية، وأقرَّ مخلفات عثمان السياسية والمالية، لو أنه أقرَّ هذه المخلفات ولو إلى برهة من الزمن إذن لترسخ في أذهان الناس، وفي أذهان المسلمين بشكل عام شك في أن القضية ليست قضية رسالية وإنما هي قضية أهداف حكم، إذا انسجمت مع واقع هذه المخلفات فتلغي هذه المخلفات ذلك الشك الذي نما عند الأمة في أمير المؤمنين (ع) بالرغم من أنه لم يكن يوجد له أي مبرر موضوعي وإنما المبرر

كانت له مبرراته الذاتية بالرغم من أنه لم يكن يوجد أي مبرر موضوعي للشك، وبالرغم من أن المبرر الوحيد للشك كان مبرراً ذاتياً، وبالرغم من هذا استفحل هذا الشك وقرر، وامتحن هذا الإمام العظيم (ع) بهذا الشك ومات واستشهد والأمة شاكة.. ثم استسلمت الأمة بعد هذا وتحولت إلى كتلة هامدة بين يدي الإمام الحسن (ع) هذا كله بالرغم من أن الشك لم يكن له مبرر موضوعي فكيف إذا افترضنا أن الشك وجدت له مبررات موضوعية بحسب الصورة الشكلية.

كيف لو أن المسلمين رأوا أن علياً بن أبي طالب (ع) الذي هو رمز الأهداف الرسالية، هذا الشخص يساوم ويعمل ويبيع الأمة ولو مؤقتاً مع خيار الفسخ.

كيف يمكن للأمة أن تدرك الفرق بين بيع بلا خيار الفسخ، وبين بيع يكون فيه خيار الفسخ، إن البيع على أي حال طبيعته هو البيع وأمير المؤمنين (ع) كانت مهمته الكبرى هي أن يحافظ على وجود الأمة، على أن لا تتنازل الأمة عن وجوده، الأمة التي قالت لعمر بن الخطاب، لأكبر خليفة تولى الحكم بعد رسول الله ﷺ، إذا انحرفت عما نعرف من أحكام الله وسنة رسوله ﷺ نقوّمك بسيوفنا، هذه الأمة التي قالت هذه الكلمة بكل شجاعة لأكبر خليفة بعد رسول الله ﷺ كانت قد بدأت تتنازل عن وجودها، أو بتعبير آخر، كانت هناك مؤامرات عليها لكي تتنازل عن وجودها، وكان على علي بن أبي طالب (ع) أن يحافظ على هذه الأمة، ويحصنها ضد أن تتنازل عن وجودها، عملية التنازل عن الوجود كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان، وجذور معاوية في تاريخ الإسلام، هذا الذي عبَّر عنه وقتئذٍ، بأن الإسلام أصبح هرقلية وكسروية.. الهرقلية والكسروية كان يكنى بها عن تنازل الأمة عن وجودها، يعني تحولت التجربة الإسلامية من أمة تحمل رسالة إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة بمستوى وعيه لهذه الرسالة وإخلاصه لهذه الرسالة سلباً وإيجاباً، هذه المؤامرة الكبيرة التي نجحت بعد هذا والتي توجت بكل المآسي والمحن والكوارث التي كانت

ولا تزال إلى يومنا هذا، هي نتيجة تنازل الأمة عن وجودها، نتيجة خداع الأمة، وتحجيمها أو الضغط عليها حتى تنازلت عن وجودها في عقد لا يقبل الفسخ. .

أمير المؤمنين (ع) كان يريد، وقد أدرك الأمة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل، أن يمدد هذا الوجود المستقل، أن يشعر الأمة بأنها ليست سلعة تباع وتشترى، أنها ليست شيئاً يساوم عليها، إذن كيف يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشترى، إذا كان هو يبيعها ويشتريها، ولو في عقود قابلة للفسخ؟

كيف يستطيع أن يشعر الأمة بأنها لا تباع ولا تشترى، ليست وفق رغبات السلاطين، وليست وفق رغبات الحكام.

كيف يمكن أن يفهم الأمة ذلك إذا كان هو يبيع قطاعات من هذه الأمة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن أبي سفيان، في سبيل أن يسترجع هذه القطاعات بعد ذلك.

بطبيعة الحال كان هذا معناه مواكبة المؤامرة التي كان روح العصر يتفجر أو يتمخض عن مثلها والتي كان أمير المؤمنين (ع) واقفاً لأجل أن يحبطها وينقذ الأمة منها، وحينئذٍ لا يمكن بحال من الأحوال أن نفترض أن الإمام (ع) يساهم في حَبْكِ هذه المؤامرة.

النقطة الرابعة والأخيرة: هي أن علي بن أبي طالب (ع) لم يكن يتعامل مع الفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وإنما كان يحمل هدفاً أكبر من ذلك، أمير المؤمنين (ع) كان يحس بأنه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه، قد أدركه حيث لا ينفع العلاج ولكنه كان يفكر في أبعاد أطول وأوسع للمعركة.

لم يكن يفكر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها وإنما كان يفكر على مستوى آخر أوسع وأعمق، هذا المستوى يعني أن الإسلام كان بحاجة إلى أن تقدم له في خضم الانحراف بين يدي الأمة أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تعقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل.

لماذا؟.. لأن الأمة كتب عليها أن تعيش الحكم الإسلامي المنحرف، هذا الإسلام إسلام مشوّه ممسوخ، إسلام لا يحفظ الصلة العاطفية فضلاً عن الفكرية بين الأمة ككل وبين الرسالة، لا يمكن أن تخفظ هذه الصلة العاطفية والروحية بين الأمة الإسلامية وبين الإسلام على أساس هذا الإسلام المعطى لهارون الرشيد، ولمعاوية بن أبي سفيان، ولعبد الملك بن مروان، هذا الإسلام لا يمكن أن يحفظ هذه الصلة فكان لا بدَّ لحفظ هذه الصلة بين جماهير الأمة الإسلامية وبين هذه الرسالة، من إعطاء صورة واضحة محدودة للإسلام، وهذه الصورة أُعطيت نظرياً على مستوى ثقافة أهل البيت (ع) وأعطيت عملياً على مستوى تجربة الإمام (ع)، فكان الإمام (ع) في تأكيده على العناوين الأولية في التشريع الإسلامي، وفي تأكيده على الخطوط الرئيسية في الصيغة الإسلامية للحياة كان في هذا يريد أن يقوم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوّث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزمن، وكان لا بدَّ لكي يتحقق هذا الهدف من أن يعطي هذه التجربة بهذا النوع من الصفاء والنقاء والوضوح دون أن يعمل ما أسميناه بقوانين باب التزاحم.

وهكذا كان، وظلَّ الإمام (ع) صامداً مواجهاً لكل المؤامرات التي كانت الأمة تساهم في صنعها وفي حياكتها على أساس جهلها وعدم وعيها وعدم شعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه (ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع وحماية كرامتها من أن تتحول إلى سلعة تباع وتشترى حتى خرَّ صريعاً علي يد شخص من هذه الأمة التي ضحّى في سبيلها... خرَّ صريعاً في المسجد فقال:

فزت ورب الكعبة..

لنحاسب علياً وهو في آخر لحظة من لحظات حياته (ع) حينما قال: فزت ورب الكعبة.

هل كان علي أسعد إنسان أو تعس إنسان؟..

هنا مقياسان:

فتارة نقيس علياً (ع) بمقياس الدنيا، وأخرى نقيس علياً بمقاييس الحق.

لو كان قد عمل كله عمله للدنيا، لنفسه، فهو أتعس إنسان. . ومن أتعس من علي (ع) الذي بنى كل ما بنى وأقام كل ما أقام من صرح ثم حرم من كل هذا البناء ومن كل هذه الصروح؟.

هذا الإسلام الشامخ العظيم الذي يأكل الدنيا شرقاً وغرباً، هذا الإسلام بني بدم علي (ع)، بني بخفقات قلب علي (ع)، بني بآلام علي (ع)، بُني بنار علي (ع)، كان علي هو شريك البناء بكل محن هذا البناء بكل آلام هذا البناء، وفي كل مآسي هذا البناء، أي لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء لم يكن علي (ع) هو الإنسان الوحيد الذي يتجه إليه نظر البنّاء الأول ﷺ ونظر المسلمين جميعاً لأجل إنقاذ عملية البناء، إذن فعلي (ع) كان هو المضحي دائماً في سبيل هذا البناء، هو الشخص الذي أعطى ولم يبخل، الذي ضحى ولم يتردد، الذي كان يضع دمه على كفه في كل غزوة في كل معركة، في كل تصعيد جديد لهذا العمل الإسلامي الراسخ العظيم. .

إذن شيّدت كل هذه المنابر بيد علي (ع) واتسعت أرجاء هذه المملكة بسيف علي (ع).

جهاد علي كان هو القاعدة لقيام هذه الدولة الواسعة الأطراف لكن ماذا حصَّل علي (ع) من كل هذا البناء في مقاييس الدنيا، إذا اعتمدنا مقاييس الدنيا؟.

لو كان علي (ع) يعمل لنفسه فماذا حصَّل علي (ع) من كل هذه التضحيات من كل هذه البطولات؟ ماذا حصل غير الحرمان الطويل الطويل، غير الإقصاء عن حقه الطبيعي بقطع النظر عن نص أو تعيين من الله سبحانه وتعالى؟ كان حقه الطبيعي أن يحكم بعد أن يموت النبي ﷺ لأنه الشخص الثاني عطاء للدعوة وتضحية في سبيلها.

أُقصي عن حقه الطبيعي، قاسى ألوان الحرمان، أنكرت عليه كل امتيازاته،

معاوية بن أبي سفيان هو الذي يقول لمحمد بن أبي بكر: كان علي كالنجم في السماء في أيام رسول الله ﷺ ولكن أباك والفاروق ابتزّا حقه وأخذا أمره، وبعد هذا نحن شعرنا أن بإمكاننا أن ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل. ويقول عن نفسه، يحدث عن مقامه في أيام النبي ﷺ، وكيف أخذ المقام هذا يتنازل بالتدريج نتجية لمؤامرات الحاكمين عليه، حتى قيل علي ومعاوية.

إذن فعلي (ع) حينما واجهه عبد الرحمٰن بن ملجم بتلك الضربة القاتلة على رأسه الشريف، كان ماضيه كله ماضي حرمان وألم وخسارة، لم يكن قد حصل على شيء منه، لكن الأشخاص الذين حصلوا على شيء عظيم من هذا البناء هم أولئك الذين لم يساهموا في هذا البناء هم أولئك الذين كانوا على استعداد دائم للتنازل عن مستوى هذا البناء في أية لحظة من اللحظات، أولئك حصلوا على مكاسب عريضة من هذا البناء، أما هذا الإمام الممتحن الذي لم يفر لحظة، الذي لم يتلكأ في أي آن، الذي لم يتلعثم في قول أو عمل، هذا الإمام العظيم لم يحصل على أي مكسب من هذا البناء بأي شكل من الأشكال. انظروا إن هذه الحادثة يمكن أن تفجر قلب الإنسان، وما الإنسان غير العامل، حينما ينظر في حال عامل على هذا الترتيب يتفجر قلبه ألماً لحال هذا العامل المسكين، لحال هذا العامل التعيس، الذي بنى فغير الدنيا ثم لم يستفد من هذا التغيير، ثم تعالوا انظروا إلى المستقبل الذي ينظره الإمام علي (ع) بعين الغيب، هذا ماضيه، فماذا عن مستقبله؟.

كان يرى بعين الغيب أن عدوه اللدود سوف يطأ منبره، سوف يطأ مسجده، سوف ينتهك كل الحرمات والكرامات التي ضحى وجاهد في سبيلها، سوف يستقل بهذه المنابر التي شيدت بجهاده وجهوده ودمه، سوف يستغلها في لعنه وسبه عشرات السنين.

إذن فهو كان ينظر بعين الغيب إلى المستقبل بهذه النظرة، لم يكن يرى في المستقبل نوعاً من التكذيب يتدارك به هذا الحرمان، الأجيال التي سوف تأتي

بعد أن يفارق الدنيا، كانت ضحية مؤامرة أموية جعلتها لا تدرك أبداً دور الإمام علي (ع) في بناء الإسلام.

هذا هو حرمان الماضي وهذا هو حرمان المستقبل.

وبالرغم من كل هذا قال (ع): فزت ورب الكعبة، حينما أدرك أنها اللحظة الأخيرة وأنه انتهى خط جهاده وهو في قمة جهاده، وانتهى خط محنته وهو في قمة صلاته وعبادته، قال: فزت ورب الكعبة، لأنه لم يكن إنسان الدنيا، ولو كان إنسان الدنيا لكان أتعس إنسان على الإطلاق، لو كان إنسان الدنيا لكان قلبه يتفجر ألماً وكان قلبه ينفجر حسرة، ولكنه لم يكن إنسان الدنيا، لو كان إنسان الدنيا فسوف يندم ندماً لا ينفعه معه شيء، لأنه بنى شيئاً انقلب عليه ليحطمه. أي شيء يمكن أن ينفع هذا الشخص؟ إذا فرضنا أن شخصاً أردا أن يربي شخصاً آخر لكي يخدمه فلما ربى ذاك الشخص ونمي واكتمل رشده جاء ليقتله ماذا ينفع هذا الشخص ندمه غير أن يموت.

هذا الرجل العظيم قال: فزت ورب الكعبة، كان أسعد إنسان ولم يكن أشقى إنسان، لأنه كان يعيش لهدفه، ولم يكن يعيش للدنيا، كان يعيش لهدفه ولم يكن يعيش لمكاسبه، ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن، في صحة ماضيه، وفي صحة حاضره، وفي أنه أدَّى دوره الذي كان يجب عليه.

هذه هي العبرة التي يجب أن نأخذها.

نحن يجب أن نستشعر دائماً أن السعادة في عمل العامل لا تنبع من المكاسب التي تعود إليه نتيجة لهذا العمل.

يجب أن لا نقيِّم سعادة العامل على أساس كهذا لأننا لو قيَّمناه على هذا الأساس فقد يكون حظنا كحظ هذا الإمام الذي بنى إسلاماً ووجّه أمة، ثم بعد هذا انقلبت عليه هذه الأمة لتلعنه على المنابر ألف شهر.

نحن يجب أن لا نجعل مقياس سعادة العامل في عمله هو المكاسب

والفوائد التي تنجم عن هذا العمل وإنما رضى الله سبحانه وتعالى، وإنما حقانية العمل، كون العمل حقاً وكفى، وحينئذٍ سوف نكون سعداء، سواء أثَّر عملنا أو لم يؤثر، سواء قدر الناس عملنا أم لم يقدروا، سواء رمونا باللعن أو بالحجارة، على أي حال سوف نستقبل الله سبحانه وتعالى ونحن سعداء لأننا أدَّينا حقنا وواجبنا، لئن ضيَّع هؤلاء السعادة ولئن ضيعوا فهمهم، ولئن استولى عليهم الغباء فخلطوا بين علي (ع) ومعاوية، لئن انصرفوا عن علي، وهم في قمة الحاجة إليه، فهناك من لا يختلط عليه الحال، من يميز بين علي (ع) وبين أي شخص آخر، ذاك هو الحق وتلك هي السعادة

ـ ٢ ـ

كنا نتحدث عن تلك الظاهرة الفريدة في المرحلة التي قضاها الإمام (ع) حاكماً متصرفاً ومصرفاً لشؤون المسلمين.

هذه الظاهرة الفريدة هي ما ألمحنا إليها من أن الإمام (ع) كان حريصاً كل الحرص على إعطاء العناوين الأولية للصيغة الإسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي الأولي بحسب مصطلح الأصوليين، دون تجاوزه إلى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف.

قلنا إن هذه النقطة بحثت من الناحية الفقهية ومن الناحية السياسية معاً، فقيل مثلاً:

ـ لماذا لم يرتض الإمام بأنصاف الحلول أو بشيء من المساومة؟..

ـ لماذا لم يسكت؟.

ـ لماذا لم يُمْضِ ولو بصورة مؤقتة الجهاز الفاسد الذي تركه وخلفه عثمان بعد موته؟.

ـ لماذا لم يُمْضِ الجهاز، حتى إذا أطاعه هذا الجهاز وأسلم له القيادة بعد ذلك، يستطيع أن يمارس بشكل أقوى وأعنف عملية التصفية؟.

كنا نعالج هذه المسألة وقلنا إن الجواب على هذا السؤال وتفسير هذه الظاهرة الفريدة في الحياة للإمام (ع) يتضح بمراجعة عدة نقاط. استعرضنا من هذه النقاط أربع :

النقطة الأولى: هي أن الإمام (ع) كان بحاجة إلى إنشاء جيش عقائدي في دولته الجديدة التي كان يخطط لإنشائها في العراق، وهذا الجيش العقائدي لم يكن موجوداً بل كان بحاجة إلى تربية وإعداد فكري ونفسي وعاطفي، وهذا الإعداد كان يتطلب جواً مسبقاً صالحاً لأن تنشأ فيه بذور هذا الجيش العقائدي. وهذا الجو ما لم يكن جواً كفاحياً رسالياً واضحاً، لا يمكن أن تنشأ في أحضانه بذور ذلك الجيش العقائدي، لو افترضنا أن الجو كان جو المساومات وأنصاف الحلول حتى في حالة كون أنصاف الحلول تكتسب الصفة الشرعية بقانون التزاحم على ما ذكرناه حتى في هذه الحالة تفقد الصيغة مدلولها التربوي.

النقطة الثانية: هي أن الإمام (ع) جاء لتسلم زمام الحكم في لحظة ثورة لا في لحظة اعتيادية، ولحظة الثورة تستبطن لحظة تركيز وتعبئة وتجمع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الأمة الإسلامية لصالح القضية الإسلامية فكان لا بدَّ من اغتنام هذه اللحظة بكل ما تستبطنه من هذا الزخم الهائل عاطفياً ونفسياً وفكرياً.

النقطة الثالثة: التي ركَّزنا عليها، هي أن ظاهرة الشك في مجتمع الإمام (ع)، هذه الظاهرة التي بيَّناها وكيف أنه عصفت بالتجربة واستطاعت أن تقضي على الآمال والأهداف التي كانت معقودة عليها، هذا الشك بالرغم من أنه لم يكن يملك في سيرة الإمام (ع) أي مبرر موضوعي، وكانت مبرراته ذاتية محضة بالنحو الذي شرحناه تفصيلاً فيما مضى فقد استفحل وطغى، فكيف لو افترضنا أن هذه المبررات الذاتية أضيفت إليها مبررات موضوعية من الناحية الشكلية، إذن لكان هذا الشك أسرع إلى الانتشار والتعمق والرسوخ وفي النهاية إلى تقويض هذه التجربة.

النقطة الرابعة: التي ختمنا بها الحديث، هي عبارة عن أن أنصاف الحلول أو المساومة هنا كانت في الواقع اشتراكاً في المؤامرة وكانت تحقيقاً للمؤامرة من ناحية الإمام (ع)، ولم يكن تعبيراً عن الإعداد لإحباط هذه المؤامرة لأن المؤامرة لم تكن مؤامرة على شخص الإمام علي (ع)، لم تكن مؤامرة على حاكمية الإمام علي (ع) حتى يقال: إنه يمهد لهذه الحاكمية بشيء من هذه الحلول الوسط، وإنما المؤامرة كانت مؤامرة على وجود الأمة الإسلامية، على شخصية هذه الأمة، على أن تقول كلمتها في الميدان بكل قوة وجرأة وشجاعة، على أن تَنسَلِخ عن شخصيتها وينصَّبُ عليها قَيِّمٌ من أعلى يعيش معها عيش الأكاسرة والقياصرة مع شعوب الأكاسرة والقياصرة. هذا الذي كان يسمّى بالمصطلح الإسلامي بالهرقلية والكسروية.

هذه هي المؤامرة.

فلو أن الإمام (ع) كان قد مارس أنصاف الحلول، لو كان قد باع الأمة بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ، إذن لكان بهذا قد اشترك في إنجاح وفي سلخ الأمة عن إرادتها وشخصيتها.

كانت الأمة وقتئذٍ بحاجة كبيرة جداً لكي تستطيع أن تكون على مستوى مسؤوليات ذلك الموقف العصيب، وعلى مستوى القدرة للتخلص من تبعات هذه المؤامرة.

كان لا بدَّ من أن تشعر بكرامتها بإرادتها، بحريتها، بأصالتها، بشخصيتها، في المعترك وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الإمام (ع) لأنصاف الحلول.

النقطة الخامسة: التي لا بدَّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي أن الإمام (ع) لو كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان الخليفة من قبله فليس من المعقول بمقتضى طبيعة الأشياء أن يستطيع بعد هذا أن يمارس عملية التغيير الحقيقي في هذه التجربة التي يتزعمها.

وفي الواقع أن هذا الفهم لموقف أمير المؤمنين (ع) الذي أعرضه في هذه النقطة مرتبط بحقيقة مطلقة تشمل موقف أمير المؤمنين (ع) أي موقف آخر يستهدف تغييراً جذرياً أو إصلاحياً حقيقياً في مجتمع أو بيئة أو حوزة أو في أي مجتمع آخر من المجتمعات، وهذه الحقيقة المطلقة هي أن كل إصلاح لا يمكن أن ينشأ على يد الأجهزة الفاسدة نفسها التي لا بدَّ أن يطالها التغيير.

فلو افترضنا أن الزعيم المسؤول عن إصلاح تلك البيئة أقرَّ الأجهزة الفاسدة التي يتوقف الإصلاح على إزالتها وعلى تبديدها، لو أنه أقرَّ هذه الأجهزة وتعاون معها وأمضاها ولو مؤقتاً، ثم بعد أن اكتسب القوة والمزيد من القدرة، وامتدَّ أفقياً وعامودياً في أبعاد هذه التجربة التي تزعمها، بعد هذا استبدل هذه الركائز بركائز أخرى. هذا المنطق منطق لا يتفق مع طبيعة العمل الاجتماعي ومع طبيعة الأشياء وذلك لأن هذا الزعيم من أين سوف يستمد القوة؟ من أين سوف تتسع له القدرة؟ من أين سوف يمتد أفقياً وعامودياً؟

هل تهبط عليه هذه القوة بمعجزة من السماء؟ لا.. وإنما سوف يستمد هذه القوة من تلك الركائز نفسها..

أي زعيم في أية بيئة يستمد قوته وتتعمق هذه القوة عنده باستمرار. من ركائزه، من أسسه، من أجهزته التي هي قوته التنفيذية التي هي واجهته على الأمة، التي هي تعبيره، التي هي تخطيطه، فإذا افترضنا أن هذه الأجهزة كانت هي الأجهزة الفاسدة التي يريد المخطط الإصلاحي إزالتها وتبديلها بأجهزة أخرى، فليس من المعقول أن يقول الزعيم في أية لحظة من اللحظات، وفي أي موقف من المواقف: دع هذه الأجهزة معي، دعني أعمل مع هذه الأجهزة حتى أمتد، حتى أشمخ، وبعد أن أمتد وأشمخ أستطيع أن أقضي على هذه الأجهزة، فإن هذا الشموخ الناتج من هذه الأجهزة لا يمكن أن يقضي على هذه الأجهزة. النتيجة منطقياً مرتبطة بمقدماتها، والنتيجة واقعياً مرتبطة أيضاً بركائزها وأسسها، فهذا الشموخ المستمد من ركائز فاسدة، من أجهزة فاسدة، لا يمكن أن يعود مرة أخرى فيتمرد على هذه الأجهزة.

هذا الزعيم حتى لو كان حسن النية، حتى لو كان صادقاً في نيته وفي تصوره سوف يجد في نهاية الطريق أنه عاجز عن التغيير، سوف يجد في نهاية الطريق أنه لا يتمكن أن يحقق أهدافه الكبيرة لأن الزعيم مهما كان زعيماً، والرئيس مهما كان حاكماً وسلطاناً، لا يغير بيئة بجرة قلم، لا يغير بيئة بإصدار قرار، بإصدار أمر، وإنما تتغير البيئة عن طريق الأجهزة التي تنفذ إرادة هذا الزعيم، وتخطيط هذا الزعيم، إذن كيف سوف يستطيع هذا الزعيم أن ينفذ إرادته، أن يحقق أهدافه، أن يصل إلى أمله؟.

فطبيعة الأشياء وطبيعة العمل التغييري في أي بيئة تفرض على أي زعيم يبدأ هذا العمل أن يبني زعامته بصورة منفصلة عن تلك الأجهزة الفاسدة، وهذا ما كان يفرض على الإمام (ع) أن لا يمضي مخلفات عثمان الإدارية والسياسية؟..

النقطة السادسة: التي لا بد من الالتفات إليها أيضاً في هذا المجال هي أن الإمام (ع) لو كان قد أمضى ولو مؤقتاً الأجهزة التي خلفها عثمان. أمضى مثلاً ولاية معاوية بن أبي سفيان وحاكميته على الشام لحصل من ذلك على نقطة قوة مؤقتة.

لو باع الأمة من معاوية بيعاً مؤقتاً مع خيار الفسخ إذن لاستطاع بذلك أن يحصل على نقطة قوة ونقطة القوة هي أن معاوية سوف يبايعه وسوف يبايعه أهل الشام وهذه النقطة نقطة قوة في حساب عملية التغيير، لكن في مقابل هذا أيضاً سوف يحصل معاوية بن أبي سفيان، على نقطة قوة كما حصل الإمام (ع) على نقطة قوة، ونقطة القوة التي سوف يحصل عليها معاوية هي اعتراف الإمام (ع) صاحب الأطروحة الجديدة، صاحب الخط الإسلامي الآخر المعارض على طول الزمن منذ تشكلت السقيفة، بشرعية معاوية بن أبي سفيان، بأن معاوية رجل على أقل التقادير يوصف بأنه عامل قدير على تسيير مهام الدولة وعلى حماية مصالح المسلمين وعلى رعاية شؤونهم، هذا الاعتراف هو المدلول

العرفي الواضح لمثل هذا الإمضاء في الذهنية الإسلامية العامة، فنقطة قوة لمعاوية مقابل نقطة قوة لعلي (ع). .

ونحن إذا قارنّا بين هاتين النقطتين فلن ننتهي إلى قرار يؤكد أن نقطة القوة التي يحصل عليها الإمام (ع) هي أهم في حساب عملية التغيير الاجتماعية التي يمارسها الإمام (ع) من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية، خاصة إذا التفتنا إلى أن تغيير الولاة في داخل الدولة الإسلامية وقتئذٍ لم يكن عملية سهلة ولم يكن عملية بهذا الشكل من اليسر الذي نتصوره في دولة مركزية تسيطر حكومتها المركزية على كل أجهزة الدولة وقطاعاتها.

ليس معنى أن معاوية يبايع أو يأخذ البيعة لخليفة في المدينة أن جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وأن هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية، وإنما يبقى هذا الوالي بعد أخذ البيعة همزة الوصل الحقيقية بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية لضعف مستوى الحكومة المركزية وقتئذٍ من ناحية، ومن ناحية أخرى لترسخ معاوية في الشام بالخصوص، لأن الشام لم تعرف حاكماً مسلماً قبل معاوية وقبل أخي معاوية ومذ دشّن الشام حياته الإسلامية فإنما دشّنها على يد أولاد أبي سفيان. إذن ترسخ معاوية من الناحية التاريخية والصلاحيات الاستثنائية التي أعطيت له في أن ينشيء له سلطنة وملكية في الشام.

هذه الصلاحيات الاستثنائية التي أخذها معاوية لأجل إنشاء ماظهر ملكية مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الإسلامية في باقي الأقاليم، وهذا مما رسَّخ نوعاً من الانفصالية في الشام عن باقي أجزاء جسم الدولة الإسلامية.

ثم الصلاحيات التي أخذها من عثمان بن عفان حينما تولى الخلافة، وحينما شعر بأنه قادر على أن يستهتر بشكل مطلق بالأمر والنهي، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان أي ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة، وإنما كان هو الآمر

والناهي في الشام مما جعل الشام يعيش حالة شبه انفصالية في الواقع، وإن لم تكن انفصالية بحسب العرف الدستوري للدولة الإسلامية وقتئذٍ، وهذا مما يعقد الموقف على أمير المؤمنين (ع) ويجعل نقطة القوة التي يحصل عليها وهي مجرد البيعة في الأيام الأولى، نقطة غير حاسمة، بينما إذا أراد بعد هذا أن يعزل معاوية فبإمكان معاوية أن يثير ـ إلى جانب وجوده المادي القوي المترسخ في الشام ـ الشبهات على المستوى التشريعي والإسلامي.

ـ لماذا يعزلني؟.

ـ ماذا صدر مني حتى يعزلني بعد أن اعترف بأني حاكم عادل صالح لإدارة شؤون المسلمين؟..

ـ ما الذي طرأ وما الذي تجدد؟.

مثل هذا الكلام كان بإمكان معاوية أن يوجهه حينئذٍ إلى الإمام (ع) ولم يكن للإمام (ع) أن يعطي جواباً مقنعاً للرأي العام الإسلامي وقتئذٍ على مثل هذه الشبهة.

بينما حين يعزله من البداية يعزله على أساس أنه يؤمن بعدم صلاحيته، وبأنه لا تتوفر فيه الشروط اللازمة في الحاكم الإسلامي، وهو لا يتحمل مسؤولية وجوده كحاكم، في الفترة السابقة التي عاشها معاوية حاكماً من قبل.

النقطة السابعة: التي لابدَّ من الالتفات إليها في هذا المجال هي: أن هذه الشبهة تفترض أن معاوية بن أبي سفيان لو أن الإمام (ع) أمضى حاكميته وأمضى ولايته لبايعه ولأعطى نقطة القوة هذه إلى أمير المؤمنين (ع)، ولكن لا يوجد في الدلائل والقرائن التي كانت تكتنف موقف الإمام (ع) ما يوحي بصحة هذا الافتراض، فإن معاوية لم يعص علياً لأجل أنه عزل عن الولاية، وإنما كان ذلك في أكبر الظن جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد للأموية على الإسلام، الأموية كانت تريد أن تنهب مكاسب الإسلام بالتدريج. هذا النهب الذي عبَّر عنه بأقسى صورة أبو سفيان حينما ركل قبر حمزة رضوان الله عليه بقدمه وهو يقول:

إن هذا الدين الذي بذلتم دماءكم في سبيله، وضحيتم في سبيله قوموا واقعدوا وانظروا كيف أصبح كرة في يد صبياننا وأطفالنا.

كان الشرف الأموى يريد أن يقتنص وأن ينهب مكاسب البناء الإسلامي والوجود الإسلامي، وكانت هذه المؤامرة تنفذ على مستويات، وكانت المرحلة الأولى من هذه المؤامرة ترسخ الأخوين في الشام يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بن أبي سفيان بعد يزيد. ومحاولة استقطاب معاوية للشام، عن طريق بقائه هذه المدة الطويلة فيها.

ثم كان معاوية بن أبي سفيان بنفسه، ينتظر الفرصة الذهبية التي يتيحها مقتل عثمان بن عفان، هذه الفرصة الذهبية التي تعطيه سلاحاً غير منتظر يمكن أن يمسكه ويدخل به إلى الميدان.. ولهذا تباطأ عن نصرة عثمان بن عفان. كان عثمان يستنصره ويستصرخه ويؤكد له أنه يعيش لحظات الخطر، ولكن معاوية كان يتلكأ في إنقاذه، وكان معاوية ـ على أقل تقدير ـ قادراً على أن يؤخر هذا المصير المحتوم لعثمان إلى مدة أطول لو أنه وقف موقفاً إيجابياً حقيقياً في نصرة عثمان بن عفان، إلاَّ أنه تلكأ وتلعثم وكان يخطط لكي يبقى هذا التيار كاسحاً ولكي يخرج عثمان بن عفان على يد المسلمين ميتاً ثم بعد هذا لكي يأتي ويمسك بزمام هذا السلاح ولكي يقول أنا ابن عم الخليفة المقتول، ومن المعلوم أن معاوية لن يتاح له في كل يوم، أن يكون ابن عم الخليفة المقتول، فهذه الفرصة الذهبية التي كانت على مستوى الأطماع والآمال الأموية لنهب كل مكاسب الإسلام، هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المظنون أن معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، ولاية الشام كانت مرحلة، أما منذ قتل عثمان بدأ معاوية في نهب كل الوجود الإسلامي، وتزعم كل هذا الوجود، وكان هذا يعني أن تعيينه أو إبقاءه والياً على الشام لن يكون على مستوى أطماعه في المرحلة الأولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

وأخيراً لا بدَّ من الالتفات أيضاً إلى شيء آخر: هو أن الوضع الذي كان يعيشه الإمام (ع) في ملاحظة طبيعة الأمة في ذلك الوضع، وطبيعة الإمام (ع) في ذلك الوضع، لم يكن ليوحي بالاعتقاد بالعجز عن إمكان النجاح لعملية التغيير دون مساومة.

ومن الواضح أن الفكرة الفقهية التي أشرنا إليها سابقاً عن توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة، إنما تكون فيما إذا كان هناك توقف بالفعل، بحيث يحرز أنَّ هذا الواجب الأهم لا يمكن التوصل إليه إلاَّ عن طريق هذه المقدمة المحرمة، والظروف وطبيعة الأشياء وقتئذٍ لم تكن توحي، ولم تكن تؤدي إلى اليقين بمثل هذه التوقف.

وذلك لأن المؤامرة التي كان علي (ع) قد اضطلع بمسؤولية إحباطها، حينما تولى الحكم، لم تكن قد نجحت بعد، بل كانت الأمة في يوم قريب سابق على يوم مقتل عثمان قد عبرت تعبيراً معاكساً مضاداً لواقع هذه المؤامرة، ولمضمون هذه المؤامرة.

هذه المؤامرة صحيح أنها تمتد بجذورها إلى أمد طويل قبل هذا التاريخ، المؤامرة على وجود الأمة الإسلامية، فإن الأمة الإسلامية التي سهر عليها رسول الله ﷺ على إعطائها أصالتها وشخصيتها وكرامتها ووجودها، حتى كان قد ألزم نفسه وألزمه ربه بالشورى والتشاور مع المسلمين لأجل تربية المسلمين تربية نفسية، وإعدادهم لتحمل مسؤولياتهم وإشعارهم بأنهم هم الأمة التي يجب أن تتحمل مسؤوليات هذه الرسالة التي خلفها رسول الله ﷺ، وهي تعيش هذه الروحية وتعيش على هذا المستوى عاطفياً ونفسياً، وبدأت جذور المؤامرة للقضاء على وجود الأمة كافة وتحويل الوجود إلى السلطان والحاكم.

أول جذر من جذور هذه المؤامرة أعطي كمفهوم في السقيفة حينما قال أحد المتكلمين فيها من ينازعنا سلطان محمد.

والسقيفة وإن كانت بمظهرها اعترافاً بوجود الأمة، لأن الأمة تريد أن

تتشاور في أمر تعيين الحاكم بعد رسول الله ﷺ، ولكن المفهوم الذي أعطي في السقيفة والذي كتب له أن ينجح يوم السقيفة، وأن يمتد بأثره بعد ذلك بعد يوم السقيفة هذه، المفهوم كان بحد ذاته ينكر وجود الأمة.

كان ينظر إلى النبوة على أنها سلطان قريش، أنها سلطان عشيرة معينة، وهذه العشيرة المعينة هي التي يجب أن تحكم وأن تسود، نظرية مالكية العشيرة، التي تتحدى وجود الأمة، وتنكر عليها أصالتها ووجودها وشخصيتها، هذه النظرية طرحت كمفهوم في السقيفة، ثم بعد هذا امتدت واتسعت عملياً ونظرياً.

عمر بن الخطاب كان أيضاً يعمق بشكل آخر هذا المفهوم.

في مرة من المرات سمع عمر بن الخطاب أن المسلمين يتحلقون حلقاً حلقاً، ويتكلمون في أن أمير المؤمنين إذا أصيب بشيء فمن يحكم المسلمين بعد عمر؟.

المسلمون أناس يحملون همّ التجربة، همّ المجتمع، همّ الأمة تطبيقاً لفكرة: إن كل مسلم يحمل الهموم الكبيرة. يفكرون في أن عمر بن الخطاب حينما يموت، من الذي يحكم المسلمين؟.

هذا تعبير عن وجود الأمة في الميدان.

انزعج عمر بن الخطاب جدّاً لهذا التعبير عن وجود الأمة. لأنه يعرف أن وجود الأمة في الميدان معناه وجود علي (ع) في الميدان، معناه وجود الخط المعارض في الميدان، كلما نمت الأمة كلما تأصل وجودها أكثر واكتسبت إرادتها ووعيها بدرجة أعمق، كان علي هو الأقدر، وهو الأكفأ لممارسة عملية الحكم، لهذا صعد على المنبر وقال ما مضمونه: أن أقواماً يقولون ماذا ومن يحكم بعد أمير المؤمنين؟ . ألا أن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرَّها.

يعني ماذا يريد أن يقول في هذا الكلام؟ يريد أن يقول في هذا الكلام بأن

المسلمين لا يجوز أن يعودوا مرة أخرى إلى التفكير المستقل في انتخاب شخص، وإنما الشخص يجب أن يعين لهم من أعلى. لكن لم يستطع ولم يجرؤ أن يبين هذا المفهوم وإلاَّ هو في نفسه كان هكذا يرى. .

كان يرى أن الأمة يجب أن تستمع منه هو يعين من أعلى هذا الحاكم، لا أن الأمة نفسها تفكر في تعيين هذا الحاكم كما فكَّرت مثلاً عقيب وفاة رسول الله ﷺ، كان ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرَّها، والأمة يجب ألاَّ تعود إلى هذه الفلتة مرة أخرى.

إذن فما هو هذا البديل؟ هذا البديل لم يبرزه، لكن البديل كان في نفسه هو: أني أنا يجب أن أعيّن هذا أيضاً. . . وبعد هذا عبَّر عن هذا البديل بكل صراحة وهو على فراش الموت، وحينما طلب منه المتملقون أن يوصي وألاَّ يهمل أمة محمد ﷺ، حينما طلبوا منه ذلك عبر عن هذا البديل بكل صراحة فأسند الأمر إلى ستة أيضاً كان فيه نوع من التحفظ، لأنه لم يعين واحداً وحيداً لا شريك له وإنما عيّن ستة كأنه يريد أن يقول: بأني أعطيت درجة من المشاركة للأمة عن طريق أني أسندت الأمر إلى ستة هم يعينون فيما بينهم واحداً منهم.

طبعاً عبد الرحمٰن بن عوف الذي كان قطب الرحى في هؤلاء الستة أيضاً لم يستطع في تلك المرحلة أن يطفئ دور الأمة، لم يحلَّ المشكلة عن طريق التفاوض فيما بين هؤلاء الستة، في اجتماع مغلق، وإنما ذهب يستشير الأمة ويسأل المسلمين من الذي ترشحونه من هؤلاء الستة؟ إلى هنا كانت الأمة لا تزال تحتفظ بدرجة كبيرة من وجودها، بحيث أن عمر بن الخطاب لم يستطع أن يغفل وجود الأمة يسأل هذا ويسأل ذاك من تريدون من هؤلاء الستة؟ يقول ما سألت عربياً إلاَّ وقال: علي بن أبي طالب (ع) وما سألت قرشياً إلاَّ وقال عثمان بن عفان يعني جماهير المسلمين كانت تقول علي بن أبي طالب (ع) وعشيرة واحدة معينة كانت تريد أن تنهب الحكم من الأمة كانت تقول عثمان، لأن عثمان بن عفان كان تكريساً لعملية النهب بينما علي بن أبي طالب (ع) كان

تعبيراً وتأكيداً لوجود الأمة في الميدان، ولهذا أرادته الأمة، وأرادت العشيرة عثمان.

ثم بعد هذا جاء عثمان بن عفان. وفي دور عثمان بن عفان تكشفت المؤامرة أكثر فأكثر وامتدت أكثر فأكثر.

أصبحت العشيرة تحكم وتقول بكل صراحة بأن المال مالنا والخراج خراجنا والأرض أرضنا إن شئنا أعطينا للآخرين وإن شئنا حرمناهم.

لكن هذا كلام يقال خارج نطاق الدستور، أما في نطاق الدستور فكانت لا تزال الصيغة الإسلامية، وهي أن المال مال الله، والناس سواسية، المسلمون كلهم عبيد الله لا فرق بين قرشيّهم وعربيّهم وبين عربيّهم وأعجميّهم، بين أي مسلم وأي مسلم آخر، هذه كانت الصيغة الدستورية حتى في عهد عثمان، لكن هذا الوالي الأموي المتغطرس أو ذاك الأموي المتعجرف أو هذا الأموي المستعجل والمتهور كان ينطق بواقع آخر لا يعبر عن الدستور، حيث ينظر إلى الأمة على أنها قطيع يتحكم به كيف يشاء، وعلى أن أرض الإسلام مزرعة ينتفع بخيراتها من يشاء هو ويحرم من خيراتها من شاء، ولكن منطق الدستور الإسلامي كان هو المتجذر في نفوس أبناء الأمة. هذا المنطق هو أن أرض السواد ملك الأمة وأن الأمة هي صاحبة الرأي فهي القائدة وهي سيدة الموقف، وهذا يعني أن المؤامرة لا تزال غير ناجحة بالرغم من الجذور، بالرغم من المقدمات، بالرغم من الإرهاصات النظرية والعملية، بالرغم من كل ذلك، المؤامرة لم تكن ناجحة، الأمة كانت هي الأمة، الأمة كانت تأتي إلى عثمان وتقول: لا نريد هذا الوالي لأن هذا الوالي منحرف منحرف لا يطبّق كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ ولم يكن يستطيع عثمان بن عفان أن يجيب بصراحة ويقول ليس لك إرادة، هذا الوالي يمثلني أنا، وأنا الحاكم أنا الحاكم المطلق، لم يكن يستطيع عثمان بن عفان أن يقول هذا، وإنما كان يعتذر ويقيل ويرجع. وهكذا كان يناور مع الأمة، يشتغل بمناورات من هذا القبيل مع هذه الأمة التي بدأت

تحس بالخطر على وجودها، فعبَّرت الأمة تعبيراً ثورياً عن وجودها وعن كرامتها، فقتلت هذه الخليفة، وبعدها اتَّجهت طبيعياً إلى الإمام (ع) لكي يعبر من جديد عن وجودها، لكي يحبط المؤامرة، لكي يعيد إلى هذه الأمة كل كرامتها خارج نطاق الدستور وداخل نطاق الدستور، لكي يقضي عل كل انحراف خرج به الحكام عن الدستور وعن الصيغة الإسلامية للحياة.

فمن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها، لا تزال الأمة هي الأمة، لا تزال بحسب مظهرها على أقل تقدير، هي تلك الأمة التي قتلت الحاكم في سبيل الحفاظ على وجودها، وعلي (ع) صاحب الطاقات الكبيرة هو الشخص الوحيد الذي يؤمل فيه أن يصفي عملية الانحراف.

فالظروف والملابسات لم تكن تؤدي إلى يأس. . . كانت تؤدي إلى أمل، وما وقع خارجاً خلال هذه الأربع سنوات كان يؤكد هذا الأمل فإن علياً (ع) لولا معاكسات جانبية لم تكن تنبع من حقيقة المشاكل الكبرى في المجتمع، لاستطاع أن يسيطر على الموقف.

لولا مسألة التحكيم مثلاً، لولا أن شعاراً معيناً طرح من قبل معاوية، هذا الشعار الذي انعكس بفهم خاطىء عند جماعة معينة في جيش الإمام (ع) لولا هذا لكان بينه وبين قتل معاوية وتصفيته بضعة أمتار.

إذن كان الأمل في أن علياً (ع) يمكنه أن يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول، كان هذا الأمل أملاً معقولاً وكبيراً ولهذا لم يكن هناك مجوز لارتكاب أنصاف الحلول والمساومات.

ولكن هذا الأمل قد خاب كما قلنا. انتهى آخر أمل حقيقي في هذه التصفية حينما خرَّ هذا الإمام (ع) العظيم صريعاً في مسجده صلوات الله عليه وانتهى آخر أمل في هذه التصفية وقدر للمؤامرة على وجود الأمة أن تنجح وأن تؤتي مفعولها كاملاً.

غير أن الإمام (ع) حينما فتح عينيه في تلك اللحظة العصيبة ورأى الحسن (ع) وهو يبكي ويشعر ويحس ويدرك بأن وفاة أبيه هي وفاة لكل هذه الآمال، أراد أن ينبهه إلى أن الخط لا يزال باقياً وإلى أن التكليف لا يزال مستمراً وأن نجاح المؤامرة لا يعني أن نلقي السلاح.

نعم المؤامرة يا ولدي نجحت، ولهذا سوف تشردون وسوف تقتلون ولكن هذا لا يعني أن المعركة انتهت، يجب أن تقاوم حتى تقتل مسموماً، ويجب أن يقاوم أخوك حتى يقتل بالسيف شهيداً ولا بدَّ أن يستمر الخط، حتى بعد أن سرق من الأمة وجودها، لأن محاولة استرجاع الوجود إذا بقيت في الأمة فسوف يبقى هناك نفس في الأمة، سوف يبقى هناك ما يحصن الأمة ضد التميع والذوبان.

الأمة حينما تتنازل عن هذه الإرادة والشخصية لجبار من الجبابرة حينئذٍ تكون عرضة للذوبان والتميع في أتون أي فرعون من الفراعنة.

لكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار هذه المحاولة التي يحاولها خط علي (ع) ومدرسة علي (ع) والشهداء والصديقون من أبناء علي (ع) وشيعته إذا بقيت هذه المحاولة فسوف يبقى مع هذه المحاولة أمل في أن تسترجع الأمة وجودها وعلى أقل تقدير سوف تحقق هذه المحاولة كسباً آنياً باستمرار وهو تحصين الأمة ضد التميع والذوبان المطلق في إرادة ذلك الحاكم وفي إطار ذلك الحاكم. وهذا ما وقع.

محمد باقر الصدر



فهرس

حرب الجمل ٥

امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع)

مقتل الزبير ٣٤

مقتل طلحة ٣٨

العفوه العام ٥٠

أول خطبة خطبها علي (ع) بالكوفة ٥٩

حرب صفين ٦٤

الكتب المؤلفة في وقعة صفين ٦٥

مقدار الجيشين ٦٥

تأريخ الوقعة ٦٥

إرسال جرير إلى معاوية ٦٩

طلب معاوية عمرو بن العاص ٧١

وصايا للجيش مهمة ١٠١

وصايا إلى أمراء الأجناد ١٠٢

وصاياه إلى جنوده ١٠٢

القتال على الماء ١١١

المراسلة بين علي ومعاوية بصفين ١١٩

حيلة لمعاوية ١٢١
استئناف المراسلة ١٢٣
وصايا أمير المؤمنين عليه السلام لعسكره ١٢٦
ابتداء الوقعة العظمى يوم صفين ١٢٧
علامة أهل الشام وأهل العراق وشعارهم وألوان راياتهم ١٢٨
ابتداء القتال بعد الهدنة ١٢٨
تحريض علي (ع) ووصاياه لعسكره ١٣٢
حجر الخير وحجر الشر ١٣٣
مقتل حوشب ذي ظليم ١٣٥
مقتل عبد الله بن بديل الخزاعي ١٣٥
قتل أحمر مولى بني أمية ١٣٦
رد الأشتر المنهزمين ١٣٧
قتل أخوة بصفين ١٣٨
قتال خثعم وخثعم بصفين ١٤٠
قتال بجيلة العراق بصفين ١٤٠
قتال غطفان العراق بصفين ١٤١
تبارز الأخوين ١٤٢
مقتل حريث مولى معاوية ١٤٣
تهمة خالد بن المعمر ١٤٥
الحضين بن المنذر ورايته ١٤٥
ما فعله خالد بن المعمر ١٤٧
مقتل ذي الكلاع الحميري ١٤٨
بحث ذي الكلاع عن حديث عمار تقتله الفئة الباغية ١٤٨
تقسيم معاوية الحرب بين أصحابه ١٥٣
مقتل عبيد الله بن عمر ١٥٦
قتال ربيعة بصفين ١٦٠
قتال مضر بصفين ١٦٢
فعل كريب بن الصباح وقتله ١٦٦
قتال عمار بصفين ١٦٧

مقتل هاشم المرقال ١٦٨
مقتل عمار بن ياسر ١٧٢
وقعة الخميس ١٧٤
نكول معاوية عن مبارزة علي يوم صفين ١٨٣
تعرض عمرو بن العاص لعلي وكشفه سوأته ١٨٤
فعل بسر كفعل عمرو ١٨٧
مخادعة معاوية للأشعث ١٩١
مخادعة معاوية لابن عباس ١٩٢
مقاتلة عك وهمدان ١٩٥
حسن بلاء همدان بصفين ١٩٧
دعاء معاوية مروان وعمراً لقتال الأشتر ١٩٨
تبارز الأب وابنه ٢٠٠
ذم معاوية للأنصار ٢٠٢
ما جرى بين عتبة بن أبي سفيان وجعدة بن هبيرة ٢٠٨
كتاب معاوية إلى علي يسأله الشام وجواب علي له ٢١٠
ليلة الهرير ٢١٢
رفع المصاحف ٢١٥
اختيار الحكمين ٢٢٠
كتاب الصلح ٢٢٢
صورة كتاب الصلح ٢٢٣
أول من حكم وظهور مقالة الخوارج ٢٢٦
رجوع أمير المؤمنين (ع) إلى الكوفة ٢٢٨
اجتماع الحكمين بدومة الجندول ٢٣٠
إرسال أمير المؤمنين (ع) قيس بن سعد والياً على مصر ٢٣٦
عزل قيس عن مصر وتولية محمد بن أبي بكر ٢٣٧
إرسال الأشتر والياً على مصر وقتله ٢٣٩
فتح عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن أبي بكر ٢٣٩
إرسال معاوية عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة لإلقاء الفتنة ٢٤١

غارة الضحاك بن قيس الفهري على الحاج ونهبه الأموال وقتله النفوس
البريئة بأمر معاوية بعد الحكمين وقبل وقعة النهروان ٢٤٢
أخباره مع أخيه عقيل ٢٤٣
وقعة النهروان مع الخوارج سنة ٣٧ وقيل سنة ٣٨ .... ٢٤٤
الخوارج بعد النهروان ٢٥٧
خبر الخريت بن راشد الناجي ومصقلة بن هبيرة الشيباني مع أمير المؤمنين
علي عليه السلام ٢٥٨
أخباره مع عبد الله بن العباس ٢٦٣
ما نسب إليه من مفارقة أمير المؤمنين (ع) وأخذ مال البصرة ٢٦٣
سنة ٣٩ غارة النعمان بن بشير على عين التمر ٢٦٩
غارة سفيان بن عوف على الأنبار ٢٦٩
غارة عبد الله بن مسعدة على تيماء ٢٧٠
مسير يزيد بن شجرة إلى مكة ٢٧٠
غارة عبد الرحمن بن قباث على أهل الجزيرة ٢٧١
غارة الحارث بن نمر التنوخي على أهل الجزيرة ٢٧١
بعث معاوية رجلاً إلى السماوة لأخذ الصدقات ٢٧٢
بعث معاوية مسلم بن عقبة إلى دومة الجندل ٢٧٢
غزو السند ٢٧٢
ولاية زياد بن أبيه بلاد فارس ٢٧٣
سنة ٤٠ غارة بسر بن أبي أرطاة على الحجاز واليمن ٢٧٣
مقتل أمير المؤمنين علي عليه السلام وقدر عمره ومدة خلافته ٢٧٤
نعيه نفسه قبل مقتله ٢٧٥
سبب قتل أمير المؤمنين عليه السلام ٢٧٦
وصية أمير المؤمنين عليه السلام ٢٨٢
قتل ابن ملجم ٢٨٧
موضع قبر أمير المؤمنين (ع) ٢٨٨
تعمير القبر الشريف العمارة الأولى ٢٩٢
العمارة الثانية ٢٩٤

العمارة الثالثة ٢٩٧
العمارة الرابعة ٢٩٩
العمارة الخامسة ٣٠٠
أسوار النجف ٣٠١
السور الأول ٣٠١
السور الثاني ٣٠٢
السور الثالث ٣٠٢
السور الرابع ٣٠٢
أول من أمر بضرب السكة الإسلامية ٣٠٢
مؤلفات أمير المؤمنين (ع) ٣٠٣
الكتب المجموعة من كلامه عليه السلام ٣٠٤
الكلام على نهج البلاغة ٣٠٥
الخطبة الشقشقية ٣١٨
شروح نهج البلاغة ٣٢١
عهده للأشتر حين ولاه مصر ٣٢٥
ما وصاه به في ذات نفسه من التقوى ٣٢٥
ترغيبه في حسن الذكر ٣٢٦
أمره بالرحمة والمحبة للرعية واللطف بهم والفعو عنهم ٣٢٦
نهيه عن الكبر ٣٢٦
أمره بالانصاف ونهيه عن الظلم ٣٢٧
أمره بتقديم رضى العامة مع العدل على رضى الخاصة ٣٢٧
نهيه عن قبول قول النمام والواشي ٣٢٧
نهيه عن استشارة البخيل والجبان والحريص ٣٢٨
من الذي ينبغي أن يستوزره ٣٢٨
من ينبغي أن يجالسهم ٣٢٨
إيصاؤه بعدم التسوية بين المحسن والمسيء ٣٢٨
أمره بالإحسان إلى الرعية ٣٢٨
أمره باتباع السنة الصالحة ٣٢٩

أمره بمدارسة العلماء والحكماء ٣٢٩
تقسيمه الرعية إلى طبقات وبيان ما يجب لكل طبقة منهم ٣٢٩
أمره بالاستعانة بالله لقضاء هذه الحقوق ٣٣٠
شروط أمراء الجيوش ٣٣٠
تفقد أمور الجند وما يلزم عمله معهم ٣٣٠
ما يلزم عمله مع رؤساء الجند ٣٣٠
أمره بالرجوع فيما يشتبه عليه إلى الكتاب والسنة ٣٣١
اختيار القضاة ٣٣١
اختيار العمال والولاة ٣٣٢
ما يلزم أن يفعله مع من خان من العمال ٣٣٢
إصلاح الخراج ومالية الدولة وعمارة البلاد ٣٣٢
الكتاب وأصحاب الديوان ٣٣٣
أمره بتوزيع فنون الكتابة وضروبها بينهم. ٣٣٣
الوصاية بالتجار وذوي الصناعات وعيوب التجار ومنع الاحتكار ٣٣٣
الوصاية بفقراء الرعية وأيتامهم وشيوخهم ٣٣٤
أصحاب الحاجات والمصالح ٣٣٥
الاعطاء والمنع ٣٣٥
ما يجب أن يباشره بنفسه ٣٣٥
عدم إدخال عمل يوم في يوم ٣٣٥
إيصاؤه له بأداء الفرائض ٣٣٥
نهيه عن الاحتجاب عن الرعية ٣٣٦
ما يلزم أن يعمله مع خاصته وبطانته ٣٣٦
إبداء عذره للرعية إذا ظنوا به الجور ٣٣٦
أمره بقبول الصلح والحذر بعده من العدو والوفاء بالعهد ٣٣٧
نهيه عن سفك الدماء الحرام ٣٣٧
وصاياه بآداب عامة والنهي عن أخلاق وأفعال سيئة العجب وحب المدح ٣٣٨
المن والتزيد وخلف الوعد ٣٣٨
العجلة والتهاون واللجاجة والوهن ٣٣٨

الاستئثار والتغابي ٣٣٨
الحلم والإناء والخوف من الله والاقتداء بصالح السلف ٣٣٩
آخر العهد ٣٣٩
بعض الأمثال في كلامه عليه السلام ٣٣٩
الشعر المأثور عن أمير المؤمنين (ع) ٣٣٩
جامعو ديوانه ٣٤٠
حرف الألف ٣٤٢
حرف الباء ٣٤٣
حرف التاء ٣٤٤
حرف الجيم ٣٤٥
حرف الدال ٣٤٥
حرف الراء ٣٤٥
حرف الزاي ٣٤٧
حرف العين ٣٤٨
حرف اللام ٣٤٨
حرف الميم ٣٤٩
حرف الواو ٣٥٣
شيء من مدائحه ٣٥٤
استدراك ٣٨١
ملتقى النفوس البشرية ٣٨٢
صفاته ٣٨٥
مفتاح شخصيته ٣٩٤
إسلامه ٣٩٦
سياسته ٣٩٨
علي بعد وفاة الرسول ﷺ ٤٠٧
الثورة الشعبية التي سبقت خلافة علي ٤١٩
بعد تولي الخلافة ٤٢٦
رأي جبران خليل جبران في علي (ع) ٤٣٤

ما سمي بالشورى ٤٣٤
خلافة إسلامية أم إمارة قرشية؟ ٤٣٤
مجلس السبعة ٤٣٩
خلافة عثمان ٤٤٢
موقف المعارضة ٤٤٦
حركة المصريين ٤٤٧
ثورة الشعب ٤٥٠
بيعة علي ٤٦٠
بعض المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين (ع) ٤٦٤
رسول الله ﷺ لم يهيء هذا الحاكم ٤٨٥
دور ممارسة المرحلة الأولى ٤٨٨
مثالية وانتهازية ٥٠٠
حرب الجمل ٥٠٦
حرب صفين ٥١٠
بعد صفين ٥١٥
أشأم ليلة - ١ - ٥١٧
أشأم ليلة - ٢ - ٥٣٠

